

صِيَاءُ الْفَرَاقِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الثاني

الشيخ محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ضياء الفرقان فی تفسير القرآن جلد ۷

لِمُؤَلِّفِهِ سَيِّدِ مُحَمَّدِ تَقِيِّ النَّقْوَى

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ ج.
شابک	: دوره 7-24-964-978 ؛ ج. 3-5-964-978
وضعیت فهرست نویسی	: فیفا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century :
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ض ۹۸/ ۷۷ BP
رده‌بندی دیوبندی	: ۲۹۷/ ۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد السابع

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الأولى

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۸ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

شابک: ۳ - ۵۱ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧الجزء الثامن
٩سورة الانعام
١٥٣سورة الاعراف
٣٢١الجزء التاسع
٥٧١سورة الانفال
٦٩٣الفهرست

الجزء

الثامن

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى
وَحَشَرْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ
غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ
مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ
الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابُ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ
اتَّبَعَتْهُمْ أَلْبَابُ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)

◀ اللغة

الْمَوْتَى بفتح الميم واحدها، مَيّت.

حَشَرْنَا، الحَشَر الجمع.

قُبُلًا: بضم القاف و الباء و قرأ ابن عامر و نافع بكسر القاف و ففتح الباء
المواجهة و قيل معناه مقابلة و المأل واحد
زُخْرُفَ الْقَوْلِ يقال زخرفه اذا زينه.

يَفْتَرُونَ، الإفتراء الكذب والتهمة.
مُقْتَرَفُونَ، الإقتراف إكتساب الإثم.
أَبْتَغَى، الإبتغاء الطلّب.
مِنَ الْمُثْمَرِينَ، الإمتراء الشك.

◀ الإعراب

قُبْلًا مصدر في موضع الحال أي عياناً أو مشاهدة إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ في موضع نصب على الإستثناء المنقطع وقيل هو متّصل والمعنى ما كانوا ليؤمنوا في كلّ حال إلّا في حال مشيئة الله وكذلك هو نعت لمصدر محذوف غُرُورًا مصدر في موضع الحال وَلِتَصْغِي الْجُمْهُور على كسر اللام وهو معطوف على غرور أي ليغروا ولتصغى أَفْغِيرَ اللَّهِ هو مفعول إبتغى وَحَكَمًا حال منه أو تمييز ومُفَضَّلًا حال من الكتاب وبِالْحَقِّ حال من الضمير المرفوع في منزل صِدْقًا وَعَدْلًا منصوبان على التمييز أو هو مفعول لأجله أو مصدر في موضع الحال.

◀ التفسير

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى في هذه الآية أنّه لو أعطاهم ما طلبوه مِنْ إزال الملائكة وإحياء الموتى حتّى كلّموهم وأن يحشُر عليهم كلّ شيء قبلاً بحيث يشاهدونهم معيّنة ما كانوا ليؤمنوا بالله إلّا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون، أي يجهلون أنّه لو أوتوا بكلّ آية ما آمنوا طوعاً ففي الآية دلالة على أنّه لو عَلِمَ الله أنّه لو فعل بهم من الآيات ما اقترحوها لأنّهم لم يفعل ذلك بهم وأنّه يجب في حكمته ذلك لأنّه لو لم يجب ذلك لما كان لهذا الإحتجاج معنى وتعليله بأنّه أنّما لم يظهر هذه الآيات لعلمه بأنّه لو فعلها لم يؤمنوا وذلك يبيّن أيضاً فساد قول من يقول يجوز أن يكون في معلوم الله ما

اذا فعله بألطف أَمِنْ لَأَنَّهُ لو كان ذلك معلوماً لَفَعَلَهُ ولَأُمْنُوا و الأمر بخلافه هذا ما ذكره الشيخ في التبيان عند تفسيره لهذه الآية.

و نقل عن ابن عباس أَنَّهُ قال المستهزؤون بالقرآن كانوا خمسة، الوليد بن المغيرة المخزومي والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب والحرث بن حنظلة ثم أَنَّهُم أتوا الرسول في رهطٍ من أهل مكة وقالوا أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله وأبعث لنا بعض موتانا حتَّى نسألهم أحقَّ ما تقول أم باطل أو أئتنا بالله والملائكة قبيلاً أي كفيلاً على ما تدعيه فنزلت هذه الآية.

أقول لا نحتاج في تفسير الآية الى هذه التكلفات التي لا دليل عليها والذي يستفاد منها هو أَنَّهُ تعالى بيّن في المقام حكماً كلياً وهو أَنَّ داء العناد لا دواء له وذلك لأنَّ المعاند دائماً يكون بصدد تحصيل العذر لإثبات عناده فهو كالغريق يتشبث بكلّ حشيش فتارة يقول لولا أنزل عليه أية من ربه، وتارة يقول لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً والله تعالى يعلم ويشهد أَنَّهُم لكاذبون والى هذا المعنى أشار بقوله: وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ... مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أي أَنَّهُم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم وأنما قصدوا بذلك تخطئة الرسول وتكذيبه.

و أما قوله: **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** فهو إستثناء من قوله: مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا و لذلك يفيد الإثبات أي إلا إن يشاء الله إيمانهم، وقد تمسك الأشعري في إثبات مدعاه بهذا الكلام وأمثاله و قرّره بأنَّ الله تعالى لم يشاء الإيمان من الكافر ولو شاء لأمن قطعاً فالعبد لا يكون في فعله مختاراً وهو المطلوب ولم يعلم أَنَّ الكلام وهو قوله: **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** يدل على أَنَّ الله تعالى قادر على إجبار العبد في فعله حتّى يكون فعله مطابقاً و موافقاً لمشيئة الله وهذا ممّا لا كلام لنا ولا لأحدٍ من العقلاء فيه لأنَّه تعالى خالق العبد والمخلوق مقهور مغلوب لخالقه وكيف لا يقدر وقد ثبت أَنَّهُ على كلّ شيء قدير وأنما الكلام

في أنه تعالى شاء ذلك أم لا وبعبارة أخرى لا بحث لنا في عالم الثبوت بل البحث في عالم الإثبات وأنه حصل ذلك أم لا وحيث أن الخصم يقول بأنه شاء ذلك فلا بد له من إقامة الدليل لأن إثبات الحكم لا يكون بدونه وليس كذلك النفي وحيث لا دليل له إلا أن الكافر بقى على كفره وكفره مستند إلى مشيئة الله وإرادته، فلا محل لكلامه لأن البقاء على الكفر كما يحتمل مستنداً إلى مشيئة الله وإجباره العبد عليه كذلك يحتمل أن يكون مستنداً إلى إختيار العبد وإرادته ومجرد إثبات القدرة لا يكفي في إثبات المدعى إذا لم يدل دليل من العقل والنقل على تعلق القدرة بسلب الإختيار عن العبد.

ومحصل الكلام هو أن المشيئة في قوله إلا أن يشاء الله وأمثاله لا كلام لنا في ثبوتها له تعالى بحسب ذاته وإنما الكلام في أن الكفر في الكافر مستند بها بحيث لا إختيار له في تركه أو لا يكون كذلك ولا شك أن العقل السليم حاكم بأن الإختيار ثابت له ولا يكون حاكماً بأن العبد مجبور مقهور في فعله فكونه تعالى قادراً على إجبار العبد شيء وأنه حصل ذلك أم لا شيء آخر والمطلوب هو الثاني دون الأول.

قال بعض المحققين لو كان الكفر من الكافر بمشيئة الله وإرادته لكان الكافر مطيعاً لله بفعل الكفر لأنه لا معنى للطاعة إلا بفعل المراد.

ثانياً: لو جاز من الله أن يريد الكفر لجاز أن يأمر به والتالي باطل فالمقدم مثله.

ثالثاً: لو جاز أن يريد منهم الكفر لجاز أنه يأمرنا بأن نريد منهم الكفر.

رابعاً: لو لم يرد منهم الإيمان لما وجب عليهم الإيمان لأنه غير مراد كما لو لم يأمرهم لم يجب عليهم فثبت بهذه الدلائل أنه تعالى ما شاء منهم إلا الإيمان وظاهر هذه الآية يقتضي أنه تعالى ما شاء الإيمان منهم والتناقض بين الدلائل ممتنع فوجب التوفيق وطريقه أن نقول أنه تعالى شاء من الكل الإيمان الذي يفعلونه على سبيل الإختيار وأنه تعالى ما شاء منهم الإيمان الحاصل على سبيل الإلجاء والقهر وبهذا الطريق زال الإشكال انتهى كلامه.

وقد أورد عليه الرّازي بما حاصله أنّ قدرة العبد على الإيمان والكفر على السّوية فلو صدر عنها الإيمان دون الكفر أو بالعكس لا لداعية مَرَجِحَةٍ فهذا قولٌ برجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمَرَجِح وهو محال وأن كان لداعية مَرَجِحَةٍ فهو أمرٌ معقول إلا أنّ الدّاعية حصلت للعبد من الخالق فالفعل المستند اليها منه تعالى في الحقيقة لا من العبد وهو المطلوب.

أقول قد مرّ الكلام في الدّاعية سابقاً وقلنا أنّ الدّاعية ليست تمام العلة في صدور الفعل للإنسان العاقل لأنّ العقل حاكم عليه وهو معلومٌ بل محسوس فلا يحتاج الى إطالة الكلام فيه وأمّا قوله تعالى: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ فقيل معناه يجهلون أنّه لو أوتوا بكلّ آية ما آمنوا طوعاً وأتما قال أكثرهم ولم يقل كلّهم أو جميعهم مثلاً لأنّ الجهل بهذا المعنى لا يعمهم وهو ظاهرٌ.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا

أي وكذلك زينا لكل أمة عملهم، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا وَقِيلَ معناه كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء فيكون قوله: وَكَذَلِكَ عطف على معنى ما تقدّم من الكلام وكيف كان فالآية تدل على أنّ الشّياطين أعداء للأنبياء كغيرهم من النّاس ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم وإنّما خصّ الأنبياء بالذكر لأنّ عداوة الشّياطين لهم أكثر وأشدّ وذلك لعلو مقامهم وعظم شأنهم وجلالة مرتبتهم وتقربهم الى الله تعالى، أو لأنّ إنحراف النّبي عن جادة المستقيم يوجب إنحراف جميع أمته وقد حذر الله النّاس عن متابعة الشّيطان في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا^(١).

وفي قصّة آدم:

قال الله تعالى: فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ^(١).

وحكاية عن موسى:

قال الله تعالى: قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ^(٢).

قال الله تعالى: وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ^(٣) وفي الباب آيات كثيرة.

إن قلت أتمتعون أن الأنبياء معصومون فما معنى عداوة الشيطان لهم.

قلت لا منافاة بين ثبوت العداوة للشيطان وعدم متابعة الأنبياء له:

قال الله تعالى: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ^(٤).

قال الله تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ^(٥).

والوجه فيه أن ملكة العصمة الموجودة فيهم تمنعهم عن متابعة الشيطان و
سيأتي البحث فيه في باب، ثم أن الله تعالى قال: شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
بصيغة الجمع وفيه دلالة على أن الشيطان إسم جنس يشمل الكل لأنه يقال
لكل عابٍ متمردٍ من الإنس والجن، وقال بعضهم أن شياطين الجن غير
شياطين الإنس لأن لكل من الصنفين شياطين من جنسه فشيطان الإنس من
الإنس وشيطان الجن من الجن.

ويقول الثالث: أن الجميع من ولد إبليس إلا أنه جعل ولده قسمين فأرسل
أحدهما إلى وسوسة الإنس والثاني إلى وسوسة الجن، وأنا أقول الحق أن
الشيطان واحد لا ثاني له في الخارج فهو إسم لموجودٍ خاص لا علم لنا
بحقيقته.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

الجلد السابع

١- طه = ١١٧

٢- القصص = ١٥

٣- المؤمنون = ٩٧

٤- النحل = ١٠٠

٥- الحجر = ٢٢

نعم أنه يقدر على التشكل بأشكال مختلفة حتى الكلب و الخنزير
 فالشيطان علم لهذا الموجود المعين المخصوص المستور عن العيون و
 الأبصار إلا أنه يطلق مجازاً على كل ما يتشكل بشكله و صورته إنسياً كان أو
 أجنبياً فيقال شياطين الإنس و الجن و بهذا الاعتبار يقال لكل متمرّد عاتٍ هو
 شيطان لأنه تلبس بلباسه و تصوّر بصورته و تشكّل بشكله فإذا كان الشيطان
 متشكلاً بشكل الإنسان يقال شيطان الإنس و اذا لم يتشكل بشكل من
 الأشكال يقال شيطان الجن لإستتاره و خفائه عن العيون و قد تكلمنا في
 حقيقة الشيطان و أنه هل كان من الملائكة أو من غير الملائكة في أوائل البقرة
 إذا عرفت هذا فأعلم أن قوله تعالى: **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا**
شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ليس معناه، جعلنا لهم الشياطين من جنس الإنس و
 من جنس الجن، بل معناه إنا جعلنا لكل نبيّ عدوّاً من الشياطين المتشكّلة
 بصورة الإنسان مثل أبو سفيان و معاوية و عمرو بن العاص و المغيرة بن شعبة
 و غيرهم ممّن يرى و يشاهد بالعين، و من الشياطين الغير المتشكّلة بصورة
 الإنسان و يؤيده قوله: **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** و
 قال تعالى: **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ** ^(١) أي إلى أوليائهم
 من الإنس لأنّ المجادلة من شأن الإنسان و ذلك لأنّ الوحي على ما قاله
 الرّاعب في المفردات الإشارة السريعة و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و
 التّعريض و قد يكون بصوتٍ مجرّد عن التركيب و بإشارة ببعض الجوارح و
 بالكتابة.

قالت الأشاعرة ظاهر قوله تعالى: **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا** أنه تعالى
 هو الذي جعل أولئك الأعداء أعداء للنبيّ ﷺ و لا شك أن تلك العداوة
 معصية و كفر فهذا يقتضي أن خالق الخير و الشر و الطاعة و المعصية و الإيمان
 و الكفر هو الله تعالى و لا نعني بالجبر إلا هذا.

و أجيّب عنه بأنّ المراد بهذا الجعل، الحكم و البيان فأنّ الرّجل إذا حكم بكفر إنسانٍ قيل أنّه كفّره و إذا أخبر عن عدالته قيل أنّه عدله فكذا هاهنا أنّه تعالى لما بيّن للرّسول ﷺ كونهم أعداء له لا جرم قال أنّه جعلهم أعداء له و قال أبوبكر الأصمّ لما أرسل الله محمداً ﷺ رسولاً إلى العالمين و خصّه بتلك المعجزة حسدوه و صار ذلك الحسد سبباً للعداوة القويّة فلهذا التأويل قال أنّه تعالى جعلهم أعداء له.

و قال الكعبي أنّه تعالى أمر الأنبياء بعداوتهم و أعلمهم كونهم أعداء لهم و ذلك يقتضي صيرورتهم أعداء للأنبياء لأنّ العداوة لا تحصل إلّا من الجانبين فلهذا الوجه جاز أن يقال أنّه تعالى جعلهم أعداء للأنبياء عليهم السّلام إنتهى و قال الإمام الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن كتابه في المقام ما هذا لفظه.

و أعلم أنّ هذه الأجوبة ضعيفة جدّاً لما بيّنا أنّ الأفعال مستندة إلى الدّواعي و هي حادثة من قبل الله تعالى و متى كان الأمر كذلك فقد صحّ مذهبنا ثمّ قال و هاهنا بحث آخر و هو أنّ العداوة و الصّدّاقة يمتنع أن تحصل بإختيار الإنسان فأنّ الرّجل قد يبلغ في عداوة غيره إلى حيث لا يقدر البتّة على إزالة تلك الحالة عن قلبه بل لا يقدر على إخفاء آثار تلك العداوة و لو كان حصول العداوة و الصّدّاقة في القلب بإختيار الإنسان لوجب أن يكون الإنسان متمكناً من قلب العداوة بالصّدّاقة و بالضّدّ و كيف لا نقول ذلك و الشّعراء عرفوا أنّ ذلك خارج عن الوسع.

قال المتنبّي:

يُراد من القلب نسيانكم و تأبى الطّباع على التّناقل
و العاشق الذي يشدّ عشقه قد يحتال بجميع الحيل في إزالة عشقه و لا يقدر عليه و لو كان حصول ذلك الحبّ و البغض بإختياره لما عجز عن إزالته إنتهى كلامه.

أقول العجب من الرّازي مع تَوَغُّله في الفلسفة كيف يقول بهذه المقالة الرّديئة التي لا يساعد ها العقل السّليم وأعجب منه تَمَسُّكه في العقليّات بقول الشّاعر الذي لا يعلم ما يقول، كيف وقد إنْتَفقت الفلاسفة و علماء الأخلاق على أنّ الإنصاف بالملكات الفاضلة و ضدها يكون تحت إختيار الإنسان و لذلك أمرنا الشّارع بها و نهانا عن الإنصاف بأضدادها و الآيات و الأخبار في الباب كثيرة لا نحتاج الى ذكرها بل نقول لو كان الأمر كما ذكره لأنسد باب الكمال و الصُّعود الى أعلى مراتب الإيمان و التّخلّق بأخلاق الله بل لازم ذلك هو تعطيل الأحكام و الشّرائع و علم الأخلاق بالكلية و لا يقول بذلك عاقل فضلاً عن فاضل و كيف لا يكون الإنسان قادراً على ترك العداوة و البغض مأموراً بذلك من قبل الله تعالى و العقل أيضاً يحكم به.

ألا ترى أنّ أكثر الكفّار في صدر الإسلام كانوا أعداء للنبي ﷺ ثم صاروا بعد إسلامهم و عرفانهم من أحبّاءه و أوليائه و قاتلوا بين يديه حتّى قتلوا في سبيل الله، فكيف لا يمكن قلب العداوة بالصدّاقة و البغض بالمحبّة، كان حرّ ابن يزيد الرّياحي مبغضاً لأهل البيت ثم صار من الشّهداء في واقعة الطّف و كم له من نظير بل نحن نرى بالوجدان ببغض زيداً ثم نصير محبّاً له و هذا من البديهيّات عند العقل.

فالقول بأنّ الإنسان لا يقدر على إزالة تلك الحالة عن قلبه كلام لا نفهم معناه و اذا كان كذلك فالمشرك و أن كان عدوّاً للنبي ﷺ إلا أنّه كان قادراً على إزالة تلك العداوة بالفكر و التّأمّل و رؤية المعجزة و أمثال ذلك من الأمور و لو لم يكن قادراً كما زعم الرّازي فلم يكن مكلفاً لإستحالة التكليف بما لا يطاق عقلاً و كيف يعقل أن يبعث الله رسولاً الى من لا يقدر على متابعتة أليس هذا موجباً لتعطيل الشّرائع و الأحكام.

أن قلت فما معنى قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا.

قلتُ الجعل على قسمين بسيط و مركّب.

فالبسيط هو إيجاد الشيء فقط و المركب هو جعل الشيء شيئاً و أن شئت قلت جعل البسيط هو وجود الشيء و المركب هو صيرورة الشيء شيئاً فقولہ تعالى: **جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ** ^(١) مثلاً من الجعل البسيط أي أوجد و خلق الظلمات و النور لا أنه جعل الظلمة ظلمة و النور نوراً لأنه من تحصيل الحاصل.

قال الله تعالى: **وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشاً** ^(٣).

و أمثال ذلك فمن المركب لأن اليهود صاروا قردة بعد أن لم يكونوا كذلك اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: **وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا** معناه أوجدنا و خلقناهم و ليس معناه صيرناهم أعداء للنبي و الى هذا المعنى أشار ابن سينا حيث قال ما جعل الله المشمش مشمشاً بل أوجده و السرفي ذلك هو أن العداوة و المحبة و الصداقة و الخيانة و غيرها من الصفات تعرض للنفس بعد أن لم تكن و لأجل ذلك امرنا عقلاً و نقلاً باكتساب الفضائل و التجنب عن الرذائل لأن النفس في ابتداء الخلقة تكون عارية من هذه الأوصاف و أنما تتصف بها في دار الدنيا فلو كانت هذه الصفات مخلوقة معها مركوزة فيها لكانت النفس من أول الأمر متصفة بها و ليس كذلك لأننا اذا سألنا الصبي و قلنا له أحب هذا الشخص مثلاً يقول نعم.

و أما بعد مضى عهد الصبا و الصغر يصير عدواً له أو بالعكس و محصل الكلام في المقام هو أن الله تعالى خلق و أوجد المشركين كما خلق الموحدين المؤمنين بلا تفاوت بينهما من هذه الجهة و لكنهم صاروا بعد ذلك ما صاروا أما مشركاً أو موحداً و أما أن المشرك خلق مشركاً فهو غير معقول هذا ما فهمناه من الآية و الله تعالى أعلم بكلامه.

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ

الصَّغُوا الميل والإقتراف الإكتساب وقيل إكتساب الأثم ومعناه وليكتسبوا الأثم، قال بعض المفسرين العامل في قوله: وَلِتَصْغَىٰ قوله: يُوحِي واللام، لام الغرض وتقديره يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغرونها ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، وتكون الهاء في قوله: إِلَيْهِ عائدة الى القول المزخرف قال ولا يجوز أن يكون العامل فيها، جعلنا، لأن الله تعالى لا يجوز أن يريد منهم أن تصغى قلوبهم الى الكفر وحي الشيطان.

وقيل أن اللام، لام العاقبة كما في قوله تعالى: فَالْتَقِطْهُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا^(١) وقال الجبائي اللام، لام الأمر والمراد بها التهديد كما قال تعالى: اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ^(٢).

قال لأن علامة النصب والجزم تتفق في سقوط النون في قوله: وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ورد هذا القول بأن اللام لو كانت للامر لقال: ولتصنع، بحذف الألف نعم ما ذكره أنما يتم في قوله: وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا وأما في قوله: وَلِتَصْغَىٰ فلا. وقال الزجاج والبلخي، اللام في قوله: وَلِتَصْغَىٰ لام العاقبة وما بعده لام الأمر الذي يراد به التهديد.

أقول أحسن الأقوال هو الأول منها واليه ذهب أبو مسلم وإختره أكثر المفسرين اذا عرفت هذا فنقول:

معنى الآية هو أن الشياطين يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم بذلك ولتصغى أي ولتميل، اليه، الى القول المزخرف، الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لأن الذين يؤمنون بها لا يصغون الى القول المزخرف قطعاً وَلِيَرِضُوهُ أي وليرضوا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، من أوحى اليهم ما

أوحى من زخرف القول وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ أي وليكتسبوا هؤلاء السامعين من الإثم والذنب، ما هم مقترفون، أي إكتسبوا ما هم مكتسبون. والمقصود أن الغرض بذلك ليس إلا إغفال الذين لا يؤمنون بالأخرة وإيقاعهم في ورطة الهلاكة والخسران والذي يستفاد من الآية هو أن السامع ينبغي له التأمل في كلام المتكلم ولا يغتر بظاهر الكلام وحسن نظمه وبلاغته وذلك لأن آلات الصيد كثيرة متنوعة.

وإعلم أن الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، لكن يقال له الفؤاد باعتبار معنى الفؤاد أي التوقد يقال فأدت اللحم، شويته ولحم فيند، أي مشوي، وأما وجه تسمية بالقلب فلنقلبه وإنقلابه وقد أشار الله تعالى في كثير من الآيات إلى للفظين أعني بهما القلب والفؤاد كما لا يخفى.

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا

الابتغاء الطلب خاطب الله نبيه أن يقول لهؤلاء الكفار الذين مضى ذكرهم، أغير الله أبتغي حكماً، أي أطلب سوى الله حاكماً، والحكم بفتح الحاء والكاف والحاكم بمعنى واحد إلا أن الأهلية معتبرة في الحكم دون الحاكم لأنه قد لا يكون أهلاً ولذلك فهو أمدح من الحاكم والمقصود من هذا الكلام هو أنه لا يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله رغبة عنه وذلك لأن الإستفهام الإنكاري يرجع إلى النفي والواو في قوله: وَهُوَ الَّذِي، للحال أي والحال أن الله هو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً بالآيات التي تفصل المعاني بعضها من بعض أو بما يفصل بين الصادق والكاذب من أمور الدين.

وقيل فصل فيه الحلال من الحرام والكفر من الإيمان والهدى من الضلال وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ من اليهود والنصارى يَعْلَمُونَ أَنَّهُ أي القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ولكن يكتمون ما يعلمون كما هو شأن المنافق المعاند وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الإنكار باللسان قد يكون كاشفاً عن عدم العلم كما هو

كذلك في حقّ العوام وقد لا يكون كما في غيرهم من العلماء نحن فيه من قبيل الثاني فإن علماء اليهود والنصارى أنكروا أنّ القرآن منزل من عند الله مع علمهم بذلك باطناً.

وإحتمل بضع المفسرين أن يكون المراد بقوله: **وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ** **الْكِتَابَ** المؤمنين المسلمين وأن يكون المراد بالكتاب هو القرآن وقوله: **فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ** معناه لا تكونن من الشاكين الإمتراء الشك وكذلك المرية ويكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة ويحتمل أن يكون المراد فلا تكونن من الشاكين في أنهم يعلمون أن ذلك من ربك بالحق.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قرأ أهل الكوفة، على التوحيد والباقون (كلمات) جمع كلمة، ثم أنهم اختلفوا في المراد بها فالمشهور على أن المراد بالكلمات ما ذكره الله من وعده ووعيده وثوابه وعقابه فلا تبديل فيه ولا تغيير له:

قال الله تعالى: **مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ** ^(١).

قال الله تعالى: **لَا تُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** ^(٢).

قالوا والتقدير وتمت ذوات الكلمات.

أقول لا وجه لهذا الإختلاف في القراءة لأن المراد بالكلمة هو جنسها و الجنس يطلق على القليل والكثير وأما تغيير الآية فلا بد لنا من التكلم فيه إجمالاً فنقول ذكر الله تعالى في الآية أوصافاً لكلمته.

أحدها: أنها تامة لا نقص فيها أصلاً وذلك لأن الله تعالى في ذاته وصفاته كامل تام لا نقص فيه ذاتاً و صفةً و التكلم صفة له فلا محالة يكون تاماً لأنّ النقص في الصفة دليل على النقص في الموصوف فلو لم تكن كلماته تامة

لزم أن تكون الكلمة ناقصة والله تعالى لا يوصف بالتقص، وإذا لم تكن ناقصة فهي كاملة تامة وهو المطلوب.

وقيل المراد بالتّمام كونها كافية وافية لإثبات النّبوة من جهة الإعجاز. وقيل كافية تامة في بيان ما يحتاج المكلفون اليه الى يوم القيامة علماً وعملاً.

وقيل أنّ حكم الله الذي حصل في الأزل لا يزداد عليه شيء بعد ذلك فهو التّمام والزيادة عليه ممتنعة وهذا الوجه هو المراد من قوله ﷺ جفّ القلم بما هو كائن الى يوم القيامة، وقوله ﷺ حلاله حلال الى يوم القيامة وحرّامه كذلك.

ثانيها: قوله: صِدْقًا والصّدق ضدّ الكذب والكلام لا يخلو منهما فإن كان صدقاً لا يكون كذباً وبالعكس.

والدليل على كونه صدقاً في حقّه تعالى هو أنّه لو لم يكن صدقاً لكان كذباً والكذب نقص وقبيح وهو تعالى منزّه عنهما وعن جميع العيوب والنقائص ذاتاً وصفةً ولذلك:

قال الله تعالى: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا^(١)

قال الله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا^(٢)

ثالثها: قوله: وَعَدَلًا العدل وضع الشيء في محله كما أنّ الظلم وضعه في غير محله و عليه فالعدل في الكلام هو وضعه في محله والله تعالى حكيم بقول مطلق ولازم الحكمة والعدل في جميع الشئون وهذا الحكم مؤيد بالعقل والنقل وهو واضح.

رابعها: قوله: لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ قالوا في معناه أي لا تبديل لها لأنّ دلالة الكلمات على معانيها ظاهرة جليلة لا تزول بسبب شبهات الكفار.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

الجلد الثامن

وأنت ترى أنَّ هذا التفسير لا يساعد اللفظ اذ لم يقل لا تبديل لكلمات الله بل قال لا مبدل لكلمات الله والمبدل اسم فاعلٍ من بدَّلَ تبديلاً، فالمعنى لا يقدر أحدٌ على تبديل كلمات الله إما من حيث البلاغة وإما من حيث إفادة المعنى ففيه دلالة على إعجاز القرآن وأنَّ الخلق لا يقدر على الإتيان بأية منه فضلاً عن مثله والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ أَلْجُنُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً^(١)**.

ويمكن أن يراد من الكلمات الأحكام من الحلال والحرام والمعنى لا يقدر أحدٌ على تبديل أحكام الله، أو لا يقدر أحدٌ على تغيير قضاءه وقدره ووعدته وعيده وأمثال ذلك والكل محتمل وحمل اللفظ على العموم أولى.

خامسها: قوله: **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** وفيه إشارة الى أنَّ الله تعالى يسمع ويعلم ما تقولون وما تسرون به ولا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء وهذا ممَّا لا خفاء فيه.

قال الإمام الرّازي في تفسيره لهذه الآية عند قوله تعالى لا مبدل لكلماته بعد ما ذكره من الوجوه ما هذا لفظه:

الوجه الرابع أن يكون المراد أنَّ أحكام الله تعالى لا تقبل التبديل والزوال لأنها أزلية والأزلي ولا يزول.

وإعلم أنَّ هذا الوجه أحد الأصول القويّة في إثبات الجبر لأنّه تعالى حكم على زيد بالسعادة وعلى عمر والشقاوة ثمّ قال لا مبدل لكلمات الله يلزم إمتناع أن ينقلب السعيد شقيّاً وأن ينقلب الشقي سعيداً فاسعيد من سعد في بطن أمّه والشقي من شقي في بطن أمّه انتهى كلامه.

ولقائل أن يقول أمّا أولاً أنَّ الله قال: **لَا مُبَدِّلَ** ولم يقل لا تبديل وقد مرّ الكلام فيه وأنَّ المعنى لا يقدر أحدٌ على تبديل كلماته وهذا ممَّا لا كلام فيه.

وأما أنَّ الكلمات لا تقبل التَّبدِيلَ و الزَّوالَ لأنَّها أزلِّيَّةٌ والأزلي لا يزول، فهو خارج عن موضوع البحث مضافاً إلى أنَّ الأزلي لا يزول أو لا يقبل التَّبدِيلَ كلام عارٍ عن التَّحصيل ولا يناسب شأن الرَّاوي وأمثاله لأنَّ الله تعالى يقول في كتابه: **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ^(١) فإذا كان كلامه أزلِّيّاً والأزلي لا يزول ولا يبدل على ما زعمه، فما معنى قوله: يمحو الله ويثبت و محو الشَّيْ لا يكون إلا بعد إثباته أولاً فهل قال أو يقول عاقل أنَّه تعالى يمحو ما ليس بثابت.

وإذا كان كذلك فكيف يقال أنَّ الأزلي لا يزول ولا يبدل، هذا كله مضافاً إلى أنَّ كلام الله حادث وليس بأزلي لأنَّ الأزلي لا يكون إلا قديماً وهو منحصر بذاته و صفاته إذ لا قديم سوى الله تعالى و حيث أنَّ الصفات عين ذاته لا زائدة عليه فالقديم الأزلي منحصر بالواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، على أنَّ البحث في كلماته لا في قضاءه و قدره لأنَّ القضاء شيء والكلمة شيء آخر فعلمه بسعادة زيد أو شقاوته غير حكمه بهما وكلامه. نعم لو ثبت أنَّه قال حكمت بشقاوة زيد أو بسعادته أوقال، كن شقياً أو كن سعيداً، لكان لما ذكره محملاً وأتَّى له بإثبات ذلك فما ذكره خارج عن موضوع البحث أولاً و عن تفسير الكلام ثانياً.

وأما الحديث الذي ذكره و تبعه غير واحد من الأشاعرة فهو ممَّا لا أصل له.

و على فرض صحَّته فليس معناه ما ذكره و فهمه منه و للبحث فيه مقام آخر.

نعم الغريق يتَّشَبَّه بكلِّ حشيش، وكلِّ يجر النَّار إلى قرصته.

نبأ الفرقان في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

وَإِنْ تَطْغَى أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْأَثَمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثَمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

◀ اللغة

يَخْرُصُونَ قال في المفردات الخرص، حرز الثمرة والخرص المحروز كالنقض للمنقوض وقيل الخرص الكذب وحقيقة ذلك أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ مَقُولٍ عَنْ ظَنٍّ وَتَحْمِينٍ يُقَالُ لَهُ خَرَصَ سِوَاءَ كَانِ مُطَابِقًا لِلشَّيْءِ أَوْ مُخَالَفًا لَهُ مِنْ حَيْثُ أَنَّ صَاحِبَهُ لَمْ يَقْلِهِ عَنْ عِلْمٍ وَلَا غَلْبَةِ ظَنٍّ وَلَا سَمَاعٍ. مَا اضْطُرِرْتُمْ، الإِضْطِرَارُ الإِلْجَاءُ. بِالْمُعْتَدِينَ، الإِعْتِدَاءُ التَّجَاوُزُ عَنِ الْحَدِّ.

ذَرُّوْا: أي أتركوا.
يَقْتَرِفُونَ، الإقتراف الإكتساب، والباقي واضح.

◀ الإعراب

أَعْلَمَ مَنْ يَضِلُّ فِي، من، وجهان:

أحدهما: هي بمعنى الذي أو نكرة موصوفة بمعنى فريق فعلى هذا يكون في موضع نصب بفعلٍ دلَّ عليه، أعلم، لا بنفس أعلم، لأن، أفعال لا يعمل في الاسم الظاهر النَّصب والتقدير يعلم من يَضِلُّ.

الثاني: أن، من، إستفهام في موضع مبتدأ، ويَضِلُّ، الخبر، وموضع الجملة النَّصب يعلم المقدرة، وَمَا لَكُمْ ما، إستفهام في موضع رفع الإبتداء، ولكم، الخبر أَلَا تَأْكُلُوا قِلِيلَ حَرْفِ الْجَزْرِ مراد معه والتقدير، في أن لا تأكلوا، ولما حذف حرف الجزر كان في موضع نصب أو في موضع حرّ على إختلافهم. وقيل أنه في موضع الحال أي وأي شيء لكم تاركين الأكل وهو ضعيف لأن، أن تَمَحُضُ الفعل الاستقبال وتَجْعَلُهُ مصدرًا فيمتنع الحال إِلَّا مَا أَضْطَرُّرْتُمْ ما، في موضع نصب على الإستثناء من الجنس من طريق المعنى.

◀ التفسير

وَأِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
قيل هذا خطاب من الله لنبيه ولجميع المؤمنين لأنه كان في ذلك الوقت أكثر أهل الأرض كفاراً، والحق أن الخطاب للنبي كغيره من الآيات والمراد به الأمة. أما أن الخطاب للنبي ﷺ فلأنه كان مخاطباً في جميع الآيات والأحكام لمكان رسالته ونبوته وأنه واسطة بين الخلق وخالقه فينبغي أن يكون هو المخاطب بكلام الله دون غيره.

وَأَمَّا أَنْ الْمُرَادَ أُمَّتَهُ لِأَنَّهُ ﷺ لِمَكَانِ عَصَمَتِهِ لَا يُطِيعُ غَيْرَ اللَّهِ مَضْلاً عَنْ

المُضِلِّينَ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ كَفَّارًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَهُوَ تَخْصِصٌ أَوْ تَقْيِيدٌ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ بَلِ الْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى عُمُومِهَا وَالْآنَ أَيْضاً كَذَلِكَ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الْحُكْمُ كُلِّيٌّ لَا يَخْتَصُّ بِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ لِأَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي كُلِّ عَصْرٍِ وَزَمَانٍ تَوْجِبُ الضَّلَالَةَ وَالْإِنْحِرَافَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ لِلْمَطِيعِ وَالْمُنْقَادِ وَلِعَمْرِي هَذَا كَلَامٌ يَنْبَغِي أَنْ يَكْتُبَ بِمَاءِ الذَّهَبِ. كَيْفَ لَا وَهُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ وَهُوَ أَعْرَفُ بِخَلْقِهِ مِنْهُمْ أَنْفُسُهُمْ فَيَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُضِلِّينَ الَّذِينَ تَوْجِبُ طَاعَتَهُمُ الْإِنْحِرَافَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُضِلَّ أَعَمٌّ مِنَ الْكَافِرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً مِنَ الْمُضِلِّينَ وَإِنْ كَانُوا بِزَعْمِهِمْ مِنَ الْمَهْتَدِينَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: **أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَا يَخْتَصُّ بِالْكَافِرِينَ** فَقَطْ كَمَا زَعَمَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ حَقِيقَةَ الْحَالِ حَتَّى فِي زَمَانِنَا هَذَا.

فَاعْلَمْ أَنَّ عَدَدَ النَّفُوسِ فِي كُرَةِ الْأَرْضِ عَلَى مَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِحَسَبِ الْإِحْصَاءِ (٥٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠) وَ عَدَدَ نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ (١٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠) وَ عَدَدَ الشَّيْعَةِ الْأَثْنِي عَشَرِيَّةِ يَقْرُبُ (١٠٠/٠٠٠/٠٠٠) أَوْ أَكْثَرَ بَقِيلٍ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى. وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْآيَةَ تَرشِدُنَا إِلَى نَكْتَةٍ دَقِيقَةٍ وَهِيَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يَعْرِفُ بِالْأَكْثَرِ وَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَقَدْ أَخْطَأَ وَلَعَلَّ السَّرْفِيَّةَ هُوَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي كُلِّ عَصْرٍِ وَ زَمَانٍ الْعَوَامُ كَالْأَنْعَامِ كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ الْمَحْسُوسُ فِي زَمَانِنَا هَذَا أَيْضاً وَقَدْ عَبَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ **عَلِيٌّ** عَنْهُمْ بِهَمْجِ الرَّعَاءِ إِتْبَاعَ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَا يَسْتَضِيئُونَ بِنُورِ الْهُدَى وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

وَصَفَّهُمْ بِعَدَمِ الْعِلْمِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.**

وَبِعَدَمِ الْعَقْلِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.**

و بعدم الإيمان:

قال الله تعالى: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

و بعدم الشُّكر:

قال الله تعالى: وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ.

و بالفسق:

قال الله تعالى: وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ.

و بکراهة الحق:

قال الله تعالى: وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ.

و بالجهل:

قال الله تعالى: وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ.

و بالكفر:

قال الله تعالى: وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ.

و بالشُّرك:

قال الله تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ^(١).

و بنقض العهد:

قال الله تعالى: وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ^(٢).

و بالكذب:

قال الله تعالى: وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ.

و هكذا و من كان كذلك فكيف يتَّبِع و يطاع:

قال الله تعالى: أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ

يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(٣).

و العجب من المسلمين في صدر الإسلام أَنَّهُم بعد ما سمعوا هذه الآية و أمثالها كيف أطاعوا بعد رسول الله ﷺ أبا بكر و بعده من الخلفاء غيرهم من الغاصبين و تركوا علياً و من تبعه من الأقلين أمثال سلمان و أبي ذر و عمار و استدلوا بذلك على أَن الأكثر مع أبي بكر و عمر و لم يعلموا أَن الحق لا يتبع الأكثر بل الأمر بالعكس و أعجب من ذلك تسميتهم ذلك بالإجماع و نقلوا عن رسول الله أَنَّهُ قال لا تجتمع أمتي على خطأ، و لم يعلموا أَن هذا الإجماع أن كان المراد به الأكثر فهو لا يساعد القرآن و أن كان المراد به الكل فهو لم يحصل و لا يحصل فما معنى الإجماع و لم يقنعوا بذلك بل زادوا في الظنور نعمة أخرى و هى أَن المخالف للأكثر يعد فاسقاً مفسداً يجب قتله بحكم الإسلام و لذلك حكموا بقتل الحسين عليهما السلام و أصحابه و أولاده و هلم جزاً فاعتبروا يا أولي الأبصار فإذا قيل لهم لم فعلتم ما فعلتم بأولاد الرسول و الصلحاء من الأمة من القتل و النهب و الضرب و الشتم، يقولون أَنَّهُم خالفوا أصحاب الرسول و شقوا عصا الأمة و سلكوا مسلكاً آخر غير ما سلكه الأكثر و ليس لهم جواب غير هذا و أن كان مخالفاً لصريح القرآن مع أَن القرآن هو الأصل المتبع في جميع الأحكام و قد قال رسول الله ﷺ أَنِّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي الحديث و لبت شعري لم جعل عمر أمر الخلافة في ستة و حكم بأن المخالف أن كان واحداً فأقتلوه و أن كان اثنين فأقتلوه لأن الأقل يجب عليه متابعة الأكثر، و إلا فيجوز قتله فأنظر أيها العاقل المنصف كيف جعل عمر الأقل تابعاً للأكثر بقولٍ مطلق و أعرض عن حكم الله تعالى في الباب حيث قال و أن تطع أكثر من في الأرض الآية و ذم الأكثر في غير واحد من الآيات و كيف جعل الحق للأكثر برغم أنف القرآن و المسلمون ساكتون سامعون مطيعون. أن قلت لعل الآية و هى قوله: **وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** ناظرة الى أكثر من في الأرض من الكفار و أما المسلمون فلا. قلت إطلاق الآية ينفي هذا الإحتمال فإن الله قال أكثر من في الأرض،

مسلماً كان أو كافراً ولم يَقَيِّد الحكم بالكفَّار فيعلم منه أنَّ متابعة الأكثر تحت عنوان الأكثرية مذمومة و لا فرق فيها بين المسلمين و الكفَّار بل الواجب متابعة الحقَّ أينما وجد ثمَّ أنَّ الله تعالى أَسْتَدَلَّ على ذلك بقوله: **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** إِنْ، نافية بالإتفاق و المعنى، ما يتَّبِعُونَ هؤلاء الأكثر إلا الظَّنَّ، و ما هم إلا كاذبون، وصفهم الله بمتابعة الظَّنَّ و الكذب فالبحث يقع في مقامين.

أحدهما: متابعة الظَّنَّ.

الثاني: الخرص و الكذب.

أما المقام الأول: أعني به متابعة الظَّنَّ.

فنقول الظَّنَّ إسمٌ لما يحصل عن أمارَةٍ و متى قويت أدَّت الى العلم و متى ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدَّ التَّوهم قاله الرَّاغب في المفردات إذا عرفت هذا فأعلم أنَّ المراد بالظَّنَّ في الآية هو الظَّنُّ الضَّعيف الَّذي لم يتجاوز حدَّ التَّوهم و أن شئت قلت المراد به في المقام، التَّوهم و أنَّما قلنا ذلك لأنَّ الظَّنَّ القوي الَّذي وصل الى مقام العلم و اليقين فهو غير مرادٍ في الآية.

أما أولاً: فلأنَّ متابعة العلم و القطع ليست بمذمومة قطعاً.

ثانياً: لو كان المراد به العلم لما عبَّر بالظَّنَّ.

ثالثاً: لو كانت متابعة الظَّنَّ القوي الَّذي أدَّت الى العلم مذمومة و الضَّعيف أيضاً كذلك فأَيُّ شَيْءٍ يَتَّبِع في الإعتقادات و الأحكام، و اذا كان الأمر على هذا المنوال فالعقل و النَّقل يحكمان بعدم إتباعه.

أما العقل فواضح لأنَّه يحكم حكماً قطعياً بأنَّ ما لا يقطع بصَّحته أو فساده لا يَتَّبِع لأنَّ دفع الضَّرر المحتمل واجب عقلاً و في غير المقطوع به إحتمال الضَّرر موجود.

أما النقل قال في كتابه:

قال الله تعالى: وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا^(١).

قال الله تعالى: أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ^(٣) والآيات كثيرة في الباب.

وإذا كان الظن لا يغني من الحق شيئاً، للظن أن نفسه، فكيف يغني في حق من تابعه وهل هذا إلا كمتابعة الأعمى للأعمى والجاهل بالجاهل: ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ^(٤).

المقام الثاني: الخرص والكذب، وقيل أن الخرص الخدش والظن وقيل هو الإفتراء وكيف كان فمعنى قوله: وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ما هم إلا يكذبون أو يفترون أو يحسدون والكُل متقارب المعنى وحيث أن الله تعالى وصفهم أولاً بأنهم يتبعون الظن قال وأن هم إلا يخرصون مشعراً بأن متابعة الظن ملازم للخرص والكذب فمن تابع الظن تابع الكذب قهراً لأن الظن لا يغني من الحق شيئاً ولذلك في موضع آخر:

قال الله تعالى: مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ^(٥).

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

المخاطب بهذه الآية أيضاً نبيه ﷺ وأن كان المقصود جميع الأمة قال المفسرون هو أعلم بمعنى أعرف أي أن الله تعالى أعرف بحال الصّالين والمضلين والمهتدين من غيره والوجه فيه واضح لا خفاء فيه لأن الخالق أعرف بخلقه منه نفسه فضلاً عن غيره وفيه إشعار بأن بعض الأشخاص أو

أكثرهم يدعون الإيمان ومتابعة الحق والله يشهد أنهم لكاذبون وهذا ظاهر فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ الفاء للتفريع، لأنه جواب لقول المشركين لما قالوا للمسلمين، أأأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم، فكانه قيل أعرضوا عن جهلكم فكلوا، وقيل أنه عطف على ما دل عليه أول الكلام كأنه قال كونوا على الهدى فكلوا مما ذكر اسم الله عليه، ولا شك أن قوله: فَكُلُّوا وأن كان لفظه لفظ الأمر إلا أن المراد به الإباحة لأن الأكل ليس بواجب ولا مندوب اللهم إلا أن يكون في الأكل إستعانة على طاعة الله فأنه يكون مرغبا فيه وربما كان واجبا ونظير هذه الآية:

قال الله تعالى: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا^(١).

قال الله تعالى: فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ^(٢).

والإصطياد والانتشار مباحان بلا خلاف ثم أن المراد بالذكر، في قوله: مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ الذكر المسنون وهو قول بسم الله، وقيل كل اسم يختص الله تعالى به أو صفة مختصة كقوله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أو بسم القدير أو بسم القادر وما يجري مجرى ذلك والأول لا خلاف في جوازه غيره خلاف. قال الشيخ في التبيان الآية تدل على أن ذبائح الكفار لا يجوز أكلها لأنهم لا يسمون الله عليها ومن سمي منهم لا يعتقد وجود ذلك بل يعتقد أن الذي يسميه هو الذي أبدى شرع موسى أو عيسى وكذب محمد بن عبد الله لا يكون، الله فإذا هم ذاكرون اسم الشيطان والإسم أنما يكون المسمى مخصوص بالقصد وذلك مفتقر إلى معرفته وإعتقاده والكفار على مذهبنا لا يعرفون الله تعالى فكيف يصح منهم تسميته تعالى وفي ذلك دلالة واضحة على ما قلناه انتهى كلامه رحمته.

وقال الطبري، في تفسيره لهذه الآية يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلوات الله عليه وآله وسلم وعباده المؤمنين به وبآياته فكلوا أيها المؤمنون مما ذكيت من ذبائحكم و

ذبحتموه الذَّبح الَّذي بَيَّنْتَ لَكُمْ أَنَّهُ تَحَلَّى بِهِ الذَّبِيحَةَ لَكُمْ وَ ذَلِكَ مَا ذَبَحَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِي مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ دِينَ الْحَقِّ أَوْ ذَبَحَهُ مِنْ دَانَ بَتَوْحِيدِي مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ دُونَ مَا ذَبَحَهُ أَهْلُ الْأَوْثَانِ وَمَنْ لَا كِتَابَ لَهُ مِنَ الْمَجُوسِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ أَنْتَهَى كَلَامِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ فَمَعْنَاهُ إِنْ كُنْتُمْ عَرَفْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَصَحَّةَ مَا آتَاكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَتَعْلِيْقَهُ عَلَى الشَّرْطِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ قَبُولَ الْحُكْمِ مَخْتَصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فَهُمْ بَرِيثُونَ مُعْرَضُونَ عَنْ قَبُولِ الْحُكْمِ وَأَنْ كَانَ عَامًّا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ بَابِ الْإِشْتِرَاكِ فِي التَّكْلِيفِ لِأَنَّ الْكُفَّارَ مَكْلَفُونَ بِالْفُرُوعِ وَقِيلَ مَا حَلَّلَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ حَلَالٌ لِجَمِيعِ الْمَكْلَفِينَ وَ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ وَقَالَ الرَّازِيُّ التَّقْدِيرُ، لَيْكُنِ الْحُكْمُ مَقْصُورًا عَلَى مَا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ وَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَوْ حُكِمَ بِإِبَاحَةِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ لَقَدْحَ ذَلِكَ فِي كَوْنِهِ مُؤْمِنًا ثُمَّ وَجَّهَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَرْكِهِمْ أَكْلَ الْمَذْكُورِ.

وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ قَرَأَ نَافِعٌ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ بِالْفَتْحِ فِي الْحَرْفَيْنِ أَعْنِي بِهِمَا الْفَاءُ وَالْحَاءُ بِصِيغَةِ الْمَعْلُومِ.

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ بِضَمِّ الْفَاءِ وَالْحَاءِ بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ وَفَضَّلَ الْكَسَائِي وَحَمْزَةً وَأَبُو بَكْرِ فَقَالُوا بِفَتْحِ الْفَاءِ وَضَمِّ الْحَاءِ، وَقَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ لِيَضْلُوكَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الضَّادِ وَالباقون بفتح الياء فمن ضمَّ الفاء والحاء فلقلوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ^(١) قَالَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَفْصِيلٌ لَذَلِكَ الْعَامِ بِقَوْلِهِ: فَصَّلَ وَكَذَلِكَ حَرَّمَ لِأَنَّ هَذَا الْمَفْصَلَ هُوَ ذَلِكَ الْمَحْرَمُ الَّذِي حُلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَنْ فَتَحَهَا فَلَقَوْلُهُ تَعَالَى: أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي^(٢).

وقوله قد فصلنا الآيات وكذلك قوله: **الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا** ^(١) ولأنه قال وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر إسم الله عليه وقد فصل الآية فينبغي أن يكون الفصل بيناً للفاعل لتقدم ذكر إسم الله عليه، ومن فتح الفاء وضم الحاء فلقوله: فصلنا الآيات) وقوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ**، قاله الشيخ في التبيان ولنرجع الى تفسير الآية فنقول:

قوله تعالى: **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا** لاشك أنه خطاب للمؤمنين الذين ذكرهم في الآية الأولى والمعنى، لم لا تأكلون مما ذكر إسم الله عليه وبعضهم فرق بين قولنا، لم لا تفعل، وقولنا ما لك أن لا تفعل، فقال أن الأول أعم من الثاني لأن، لم لا تفعل، قد يكون لحال يرجع اليه وقد يكون لحال يرجع الى غيره بخلاف قولنا (ما لك أن لا تفعل، فإنه لحال يرجع اليه، وإختلفوا في معنى، لا، في قوله: (أن لا تأكلوا).

فقال بعضهم أنها للجدد والمعنى أي شيء لكم في أن لا تأكلوا إختاره الزجاج وغيره من البصريين.

وقيل أنها صلة والمعنى ما منعكم أن تأكلوا، وقال قوم معناه ليس لكم أن لا تأكلوا مما أمرناكم بأكله على الوصف الذي أمرناكم بفعله، والمراد بإسم الله في قوله: **مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** هو الإسم المختص به تعالى وقد مر الكلام فيه عند قوله: **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**.

وقلنا أنه دليل على وجوب التسمية على الذبيحة وأن ذبائح الكفار لا يجوز أكلها لأنهم لا يسمون الله عليها ومن سمى منهم لا يعتقد وجوبه وكيف كان فالآية تدل على جواز تناول ذبيحة كل المسلمين إلا من خرج بدليل كناصر العداوة لأهل البيت عليهم السلام والمجسمة وأمثالهم.

وأما إشتراط الإيمان في الذابح فالمشهور عدمه وبه قال أكثر الأصحاب وذهب ابن البراج الى منع ذبيحة غير أهل الحق وقصّر ابن إدريس الحلّي على

في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد الرابع

المؤمن والمستضعف الذي لا مَنَّا ولا من مخالفينا، إستثنى أبو الصلاح من المخالف جاحد النص وأجاز العلامة في المختلف ذباجة المخالف غير الناصبي مطلقاً بشرط اعتقاد وجوب التسمية ويدل عليه بعض الأخبار كصحيحة زكريا ابن آدم وحملها الأكثر على الكراهة جمعاً وهو الأقوى دفعاً للمشقة.

وقوله: **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ** إشارة الى قوله تعالى: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَتُهُ وَأَلَدُهُ** ^(١) وغيرها من الآيات وقوله: **إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** قالوا في معناه اذا خفتم على أنفسكم الهلاك من الجوع وترك تناول أي يجوز لكم تناول مما حرمه الله عليكم في حالة الإضطرار، والحق إرادة العموم من اللفظ عرفاً وعقلاً وشرعاً فكل مورد صدق عليه الإضطرار جاز أكله بقدر الضرورة. وقال الرازي معناه يجوز لكم تناول ما دعتكم الضرورة الى أكله بسبب شدة المجاعة والحق ما قلناه فإن الإضطرار يصدق على الإكراه أيضاً.

نعم الجوع أحد مصاديقه وقوله: **وَأَنَّ كَثِيرًا يَظِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** معناه أن كثيراً من الناس ليضلون عن طريق الحق بسبب متابعة أهواءهم وأميالهم وإعراضهم عن الحق وقيل معناه يضلون في أنفسهم من غير أن يضلوا غيرهم من أتباعهم بإمتناعهم من أكل ما ذكر إسم الله عليه وكيف كان لا شك أن منشأ الضلالة في الحقيقة هو الجهل ولذلك قال: **بِغَيْرِ عِلْمٍ** وحيث أن الضلالة والانحراف عن الحق من أعظم مصاديق الاعتداء قال تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** أعني بهم المتجاوزين عن الحق.

قال الرازي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه:

دلت هذه الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشبهة والآية دلت على أن ذلك حرام انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ولقائل أن يقول أن كان القول في الدين بمجرد التقليد حرام فيجب الاجتهاد في الأحكام لكل أحد من أحاد المسلمين وجوباً عينياً ولا يقول العاقل بهذه المقالة وتوضيح الكلام إجمالاً هو أن الناس على صنفين، عالم و جاهل و العالم يعمل بعلمه و الجاهل يأخذ العلم بالأحكام عن العالم نعني بالتقليد إلا هذا و أن شئت قلت أمره دائر بين أن يعمل بجهله و لا نعني بمتابعة الهوى إلا ذلك و أن يعمل بقول العالم و لا نعني بالتقليد إلا هذا فهو لا محالة إما يكون مقلداً أو متابعاً لهواه في دينه فقول الرازي أن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى و الشبهة كلام لا نفهم معناه كما هو أيضاً لم يفهم معناه و ذلك لأنّ العامي اذا أخذ دينه عن مقلده فلا يقول إلا بقوله و لا يعمل إلا بحكمه فكيف يكون قول هذا قولٌ بمحض الهوى و الشبهة و المفروض أنه لا يقول من عند نفسه.

نعم التقليد في المسائل الاعتقادية كالنوح و النبوة و المعاد باطلٌ و ليس كلامنا فيها بل الكلام في الحلال و الحرام و الفرق واضح.

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ

الواو في قوله: وَ ذَرُّوا للعطف و كلمة، ذَر بفتح الدال و سكون الراء فعل أمر بمعنى أترك و الواو علامة الجمع أي أتركوا و لا يستعمل وَ ذَر بمعنى الماضي و لا (واذر) الإسم الفاعل و إستغنى عنه بقولهم (ترك) و أنما يستعمل منه (و يذر و ذر) و أمثاله:

قال الله تعالى: ذَرَّهُمْ فِي خُوضِهِمْ يَلْعَبُونَ^(١).

قال الله تعالى: فَذَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ^(٢).

قال الله تعالى: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً^(٣).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

قال الله تعالى: وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(٢).

قال الله تعالى: لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ^(٣) وأمثالها من الآيات كثيرة.

أمر الله تعالى في هذه الآية عباده بترك الإثم وهو في الأصل إسم للأفعال المبطنة عن الثواب وجمعه أثام ولتضمنه لمعنى البطي قال الشاعر:

جمالية تغتلي بالزوائد إذا كذب الأثامات الهجير

و اختلفوا في المراد بظاهر الإثم وباطنه، فقال الجبائي المراد بالظاهر أفعال الجوارح وبالباطن أفعال القلوب، وقال غيره الظاهر الطواف بالبيت عريانا والباطن الزناء.

وقال قوم ظاهر الإثم الزناء وباطنه إتخاذ الأخدان وعن سعيد بن جبير ظاهر الإثم إمراة الأب وباطنه الزناء.

وقال قتادة والربيع ومجاهد أنّ الجاهلية كانت ترى أنّ الزناء اذا أظهر و أعلن كان فيها إثم واذا استسر به صاحبه لم يكن إثمًا فنزلت الآية والأحسن حملها على العموم وهو وجوب إجتناّب الإثم على كلّ حالٍ فالنهي عام في جميع المحرّمات ظاهرها وباطنها وسرها وعلنها ولا دليل على التخصيص بشيٍ معيّن.

وقال بعض المفسرين من العامة المراد بظاهر الإثم الإقدام عليه وبباطنه الإظهار بأنّ الدّاعي الى تركه هو خوف الله لا خوف الناس انتهى.

أقول ما ذكره لا دليل عليه وأنما هو مجرد التّحليل والحدس وإستدلّ الرّازي بهذه الآية على أنّ ما يوجد في القلب من سوء النية والإعتقاد يؤاخذ عليه وإن لم يقترن به عمل، وهو كما ترى مخالف للإجماع وظواهر الآثار و

العقل وللبحث فيه مقام آخر ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ولم يقل أَنَّ الَّذِينَ يَبْطِنُونَ الْإِثْمَ مثلاً ضرورة أَنَّ كسب الإثم غير نِيَّتِهِ فالمعنى أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْإِثْمَ و يفعلونه في الخارج سيجازيهم الله يوم القيامة بما كانوا يرتكبونه فَأَنَّ الإقتراف الإكتساب والإرتكاب وهو أَذَلُّ دليل على أَنَّ الجزاء على العمل لا على النية و حيث أَنَّ الكسب عبارة عن فعل ما يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر خصّ بالإنسان ولا يوصف الله تعالى به ثم أردف كلامه بقوله: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ نَهَى الله في هذه الآية عن أكل ما لم يذكر إسم الله عليه وهو صريح في وجوب التسمية على الذبيحة فمن تركها عمداً لا يؤكل من ذبيحته وأما في صورة النسيان فلا إشكال في أكلها بعد أن يكون الذابح معتقداً لوجوبها ولذلك نقلوا أَنَّ ذبيحة أهل الكتاب لا تؤكل منها لأنهم لا يعتقدون وجوبها ولا يذكرونه وأما من عدا أهل الكتابين أعني بهما الثوراة والإنجيل فلا خلاف في تحريم ما يذبحونه إجماعاً.

قال الحسن وعكرمة نسخ منها ذبائح الذين أوتوا الكتاب بقوله تعالى: وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ^(١) والحقّ عدم النسخ وبه قال الشيخ في التبيان وذلك لأنّ المراد بالطعام في الآية الحبوب دون الذبائح على ما روي عن أهل البيت عليهم السلام.

وقوله: وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ أَي أَنَّ أكله فسق وحذف لدلالة الكلام عليه.

نقل الرّازي عن عطاء أنّه قال كلّ ما لم يذكر إسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام تمسكاً بهذه الآية وأما سائر الفقهاء فأنهم أجمعوا على تخصيص هذا العموم بالذبائح ثم اختلفوا فقال مالك كلّ ذبح لم يذكر إسم الله عليه فهو حرام سواء ترك الذكر عمداً أو نسياناً وبه قال ابن سيرين وجماعة من المتكلمين.

و قال إن ترك الذّكر عمداً حرم وإن ترك نسياناً حلّ.
و قال الشّافعي يحلّ متروك التّسمية سواء ترك عمداً أو خطأ إذا كان الذّابح أهلاً للذّبح انتهى كلامه.

ثمّ أنّ الفسق هو الخروج عن حجر الشّرع قال الرّاعب في المفردات فسق فلان خرج عن حجر الشّرع وذلك من قولهم فسق الرّطب اذا خرج عن قشر و هو أعمّ من الكفر الى أن قال وأكثر ما يقال الفاسق لمن إلترم حكم الشّرع وأقرّ به ثمّ أحلّ بجميع أحكامه أو ببعضه و اذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلاّه أدخل بحكم ما ألزمه العقل و إقتضته الفطرة انتهى.

أقول و عليه فالمعنى لا تأكلوا ممّال م يذكر اسم الله عليه و ذلك لأنّه يوجب الخروج عن حجر الشّرع وحدّه ثمّ قال تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيَّ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ إختلفوا في المراد بالشّياطين، فقال بعضهم أنّ المراد بهم علماؤهم و رؤوساهم المتّمردين في كفرهم يوحون و يشيرون الى أولياءهم الذين إتبعوهم من الكفّار بأن يجادلوا المسلمين في إستحلال الميتة.

و قال الحسن يجادلونهم بقولهم أنّ ما قتل الله أولى بأن يؤكل ممّا قتله النّاس.
و قال عكرمة المراد بهم مرده الكفّار من مجوس فارس الى أولياءهم من مشركي قريش.

و قال ابن عبّاس المراد بهم هاهنا إبليس و جنوده بأن يوسوسوا اليهم و يوحون الى أهل الشّرك بذلك، و قال قوم الذين جادلوا بذلك كانوا قوماً من اليهود جادلوا رسول الله ﷺ بأنّ ما قتله الله أولى بالأكل ممّا قتله النّاس، نقل هذه الأقوال الشّيخ في التّبيان.

أقول الظّاهر أنّ المراد بالشّياطين في الآية شياطين الإنس الذين إتبعوا شياطين الجنّ و ذلك لقوله تعالى: لِيُجَادِلُوكُمْ فَأَنَّ المجادلة ليست من شئون شياطين الجنّ بل شأنهم الوسوسة لا غيرها.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ معناه أن أطعتموا الشياطين في إستحلال الميتة وأكلها فقد أشركتم بالله وذلك لأنَّ من إستحل الميتة فهو كافر بالإجماع و من أكلها محرماً لها مختاراً فهو فاسق و هو قول الحسن و جماعة من المفسرين هكذا قيل.

وَأَنَا أَقُولُ أمَّا الفسق فلا كلام لنا فيه و أمَّا الكفر في حق من إستحل الميتة فهو محتاج الى الإثبات اللهم إلا أن يقال أن حرمة الميتة من ضروريات الدين شك أن منكر الضروري كافر فأن ثبت هذا فهو وإلا فلا و تفصيل الكلام في هذا البحث و أمثاله خارج عن المقام.



أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي
 بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ
 بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ
 مُجْرِمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
 بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
 قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ
 اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ
 الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ
 يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ
 يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَانَمَا يَصْعَدُ
 فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى
 الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ
 مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)
 لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

◀ اللغة

مَيِّتًا بالتشديد و التخفيف معناهما واحد و هو ضدّ الحيّ و لذلك قيل
 الميت مخفف عن الميّت.
 نُورًا، النُّور الضوء المنتشرة الذي يعين على الإبصار و هو ضدّ الظُّلُمة.

أَكْبَرَ جَمْعَ الْأَكْبَرِ، أَكْبَرُ الْقَوْمِ شُرَفَاءُ هُمْ.
لِيَمْكُرُوا، الْمَكْرُ صَرْفُ الْغَيْرِ عَمَّا يَقْصِدُهُ بِحِيلَةٍ.
حَرْجًا الْحَرْجُ الْمَشَقَّةُ.

◀ الإعراب

أَوْ مَنْ كَانَ مِنْ بِمَعْنَى الَّذِي فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ وَيَمْشِي بِهِ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ صِفَةُ لِنُورٍ وَكَمْ خَبَرُ الْإِبْتِدَاءِ وَمَثَلُهُ مُبْتَدَأٌ وَفِي الظُّلُمَاتِ خَبَرُهُ وَلَيْسَ بِخَارِجٍ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْجَارِ وَجَعَلْنَا بِمَعْنَى صَيَّرْنَا وَأَكْبَرَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ وَفِي كُلِّ قَرْيَةٍ الثَّانِي وَمُجْرِمِيهَا بَدَلٌ مِنْ أَكْبَرٍ لِيَمْكُرُوا اللَّامُ لَمْ كِي أَوْ لَمْ الصِّيْرُورَةُ حَيْثُ يُجْعَلُ حَيْثُ هُنَا مَفْعُولٌ بِهِ وَالْعَامِلُ مُحذُوفٌ وَالتَّقْدِيرُ يَعْلَمُ مَوْضِعَ رِسَالَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ ظَرْفٌ لِيَصِيبَ أَوْ صِفَةُ لَصْغَارٍ ضَيْقًا مَفْعُولٌ ثَانٍ لِيَجْعَلَ فَمِنْ شَدَدِ الْيَأْسِ جَعَلَهُ وَصَفًا وَمِنْ خَفَقَهَا جَازَ أَنْ يَكُونَ وَصَفًا كَمَيِّتٍ وَمَيِّتٌ وَأَنْ يَكُونَ مُصَدَّرًا أَيْ ذَا ضَيْقٍ حَرْجًا بِكَسْرِ الرَّاءِ صِفَةُ تَضَيُّقٍ أَيْ ضَيْقًا بِكَفَرِهِ وَبِفَتْحِ الرَّاءِ الْمَشَقَّةُ.

◀ التفسير

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ الْإِسْتِفْهَامُ لِلإنْكَارِ أَيْ لَيْسَ كَذَلِكَ قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَيَعْقُوبُ وَنَافِعٌ، مَيِّتًا بِالتَّشْدِيدِ وَالْبَاقُونَ بِالتَّخْفِيفِ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ الْمَيِّتَةُ مُخَفَّفَةٌ وَثَقُلَتْ مَعْنَاهَا وَاحِدٌ وَأَنْمَا خَفَّفَ إِسْتِفْهَالًا قَالَ الشَّاعِرُ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ أَنْمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ
أَنْمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعِيشُ كَثِيرًا كَاسْفًا بِأَلِهِ قَلِيلُ الرَّجَاءِ

أَقُولُ وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ الْكَفَّارَ بِأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ^(١).

جَاءَ الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٨

المجلد
٨

قال الله تعالى: **وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ** ^(١).

والذي يظهر من موارد الاستعمالات هو أَنَّ المَيِّتَ بالتشديد كثيراً ما يطلق على ذوي العقول بخلاف الميت مخففاً فإنه يطلق على غيرها من الجمادات والنباتات أيضاً وبذلك يقال أَنَّ الميت بالتخفيف أعم منه بالتشديد وكيف كان فمعنى الآية، **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا** بالكفر فأحييناه بالإيمان أو كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم أو كان ميتاً بالضلالة والغواية فأحييناه بالهداية والسعادة الموت والحياة بمعناهما الحقيقي أعني الخروج من العدم إلى الوجود فهو غير مرادٍ قطعاً على ما ذهب إليه المفسرون ولعل مستندهم في ذلك هو وجود القرينة اللفظية أعني بها قوله: **وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** أو غير ذلك مما ظهر لهم وخفي علينا.

ولقائل أن يقول حمل الآية على العموم أولى وأن كان ما ذكره أظهر باعتبار اللفظ والله أعلم بمراده.

ثم أنهم اختلفوا في من نزلت الآية فيه فقال ابن عباس والحسن وغيرهما نزلت في كل مؤمن وكافر، وقال عكرمة نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل وهو قول أبي جعفر عليه السلام وقال الضحاك نزلت في عمر بن الخطاب، الزجاج نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي جهل، ولا شك أَنَّ الأول أحسن وأولى لأنه أعم فائدة حيث يدخل فيه جميع ما قالوا: **وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** قيل أي جعلناه له علماً لأن العلم نور وحياة، أما أنه نور فلاّته ظاهر بالذات ومظهراً للغير.

وأما أنه حياة إذ به حياة القلب كما أَنَّ الجهل موته أو لأن العلم يهتدي به إلى الرشاد كما يهتدي بالنور في الظلمات وتدرّك به الأمور كما تدرّك بالحياة فالظلمة، كالجهل لأنه يؤدي إلى الحيرة والهلكة والموت كالجهل في أنه لا

تدرك به حقيقة كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا وَالتَّقدير كَمَنْ مثله مثل من في الظُّلُمَاتِ، أي في.

ظلمات الكفر أو الجهل، والحاصل أَنَّ اللَّهَ تعالى شَبَّهَ العلم والإيمان بالنُّور، والكفر والجهل بالظُّلْمَة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس.

وقوله: لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا معناه أَنَّهُ مَنْغَمَرٌ فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ لَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ بعضهم وجه التشبيه في قوله: كَذَلِكَ الْخ.

أي زَيْنٌ لَهُوْلَاءِ، الكفر فعملوه كما زين لأولئك الإيمان فعملوه فشَبَّهَتْ حال هُوْلَاءِ فِي التَّزْيِينِ بِحَالِ أَوْلَئِكَ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: كُلُّ جَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ^(١) وَأَمَّا زَيْنُ اللَّهِ تَعَالَى الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَزَيْنُ الْغَوَاةِ وَالشَّيَاطِينِ وَغَيْرِهِمُ، الْكُفْرَ عِنْدَ الْكَافِرِينَ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَأَبِي عَلِيٍّ وَالرَّمَانِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ. قَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَا هَذَا لَفْظُهُ وَعِنْدَ هَذَا عَادَتْ مَسْأَلَةُ الْجَبْرِ وَالْقَدْرِ فَقَالَ أَصْحَابُنَا ذَلِكَ الْمَزِينُ هُوَ اللَّهُ وَدَلِيلُهُ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّ الْفِعْلَ يَتَوَقَّفُ عَلَى حَصُولِ الدَّاعِي وَحَصُولِهِ لَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ وَالدَّاعِي عِبَارَةٌ عَنْ عِلْمٍ أَوْ إِعْتِقَادٍ أَوْ ظَنٍّ بِإِشْتِمَالِ ذَلِكَ الْفِعْلِ عَلَى نَفْعٍ زَائِدَةٍ وَصَلَاحٍ رَاجِحٍ فَهَذَا الدَّاعِي لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا هَذَا التَّزْيِينُ فَإِذَا كَانَ مُوجِدَ هَذَا الدَّاعِي هُوَ اللَّهُ تَعَالَى كَانَ الْمَزِينُ لَا مُحَالَةَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى انْتَهَى.

وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَمَّا أَوَّلًا فَبِأَنَّ حَصُولَ الدَّاعِي وَوُجُودَهُ مِنَ اللَّهِ لَا يَسْتَدْعِي مَا ذَكَرَهُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَدَ الدَّاعِي إِلَى الْفِعْلِ فِي الْعَبْدِ وَالدَّاعِي كَمَا يُوْجِبُ الْخَيْرَ لِذَلِكَ يُوْجِبُ الشَّرَّ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الْفِعْلُ الَّذِي يَتَوَقَّفُ عَلَى الدَّاعِي قَدْ يَكُونُ خَيْرًا وَقَدْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ مُخْتَارٌ فِي إِيجَادِ أَيُّهَا شَاءَ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ غَيْرُ مُجْبُورٍ فِي فِعْلِهِ.

في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد الرابع

وَأَنْ شئتَ قلت وجود الدّاعي مع الإختيار وهذا أمرٌ معقول بل محسوس.
ثانياً: أَنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ وَزَيَّنْ بَصِيغَةَ المجهول ولم يقل وَزَيَّنْ بَصِيغَةَ المعلوم وهذا دليل على أَنَّ المَزِين غير مَعْلُوم فنسبة التزيين اليه تعالى يحتاج الى دليلٍ ومجرد كونه تعالى موجداً للدّاعي لا يوجب كونه مزيناً للفعل فالموجد هو الله تعالى والمزين للفعل الذي أوجده العبد باختياره هو الشيطان:

قَالَ اللَّهُ تعالى: **وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**^(١).

قَالَ اللَّهُ تعالى: **وَإِذْ زَيَّنْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ**^(٢).

قَالَ اللَّهُ تعالى: **وَ جَدَّثَهَا وَ قَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**^(٣).

والآيات كثيرة ولتفصيل الكلام فيه مقام آخر وفي الآية دلالة على وجوب طلب العلم لأنه تعالى رَغِبَ فيه بأن جعله كالحياة في الإدراك بها والنور في الإهداء به قال رسول الله ﷺ طلب العلم فريضة على كل مسلم والحمد لله رب العالمين.

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ

قال بعض المفسرين معناه كما جعلنا، ذا النور من المؤمنين كذلك جعلنا، ذا المكر من المجرمين فكلمنا فعلنا بهؤلاء فعلنا بأولئك إلا أَنَّ أولئك إهتدوا بحسن إختيارهم وهؤلاء ضلُّوا بسوء إختيارهم.

وقال بعض المفسرين الكاف في قوله: **وَ كَذَلِكَ** يوجب التشبيه وفيه قولان:

الأول: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها **كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا**.

الثاني: أنه معطوف على ما قبله أي كما زينا للكافرين أعمالهم كذلك جعلنا في كل قرية الآية والآية على التقديم والتأخير وتقدير الكلام جعلنا مجرميها أكابر، ولا يكون الأكابر مضافاً إلى مجرميها لأن إضافة الصفة إلى الموصوف لا يجوز عند البصريين.

وقال بعضهم، جعلنا بمعنى صيرنا ومفعولها الأول، **أكابر مجرميها.**
الثاني: في كل قرية وأكابر على هذا مضاف إلى مجرميها وأجاز أبو البقاء أن يكون مجرميها بدلاً من أكابر.

وقال الكرمانى أضاف الأكابر إلى مجرميها، لأن أفعل لا يجمع إلا مع الألف واللام أو مع الإضافة إلى معرفة، وأما خص أكابر المجرمين بهذا المعنى دون الأصاغر لأنه أحسن في الإقتدار على الجميع لأن الأكابر إذا كانوا في قبضة القادر فالأصاغر بذلك أجدر **لِيَمْكُرُوا فِيهَا** المكر هو قتل الشيء إلى خلاف الرشد على وجه الحيلة في الأمر والمكر والختل والغدر نظائر وأصل المكر القتل ومنه جارية ممكورة أي مفتولة البدن، واللام في قوله: **لِيَمْكُرُوا** لام العاقبة ويسمى لام الصيرة كما قال تعالى: **فَالنَّقْطَةُ أَلْفَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوًّا وَحَزَنًا** ^(١) أي تصير عاقبة الأمر إلى ذلك.

وقال بعض المفسرين من العامة أن اللام لام الغرض، وقد تسمى بلام، كي، وعليه فالمعنى جعلناهم كذلك وكان الغرض، **لِيَمْكُرُوا فِيهَا** وبعبارة أخرى صيرناهم ماكرين، وهذا التفسير موافق لمسلك الأشاعرة القائلين بالجبر صرحوا به وليس بشئ لأنه تعالى لا يريد أن يمكروا وقد قال: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ^(٢) وإرادة القبيح قبيحة والمعنى وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليطيعوني وليمثلوا أمري وكان عاقبتهم أن مكروا بالمؤمنين وخدعوه، غير أنه تعالى لما لم يمنعه عن المكر صار شبيهاً بما إذا أراد ذلك فجاء الكلام على سبيل التشبيه قاله الجبائي.

قُلْتُ وَأَنْتُمْ لَمْ يَمْنَعَهُمْ عَنِ الْمَكْرِ لِمَكَانِ الْإِخْتِيَارِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِمْ فُلُوْا مَنَعَهُمْ عَنِ الْمَكْرِ أَجْبَرَهُمْ عَلَىٰ عَدَمِهِ وَهُوَ مُنَافٍ لِلْإِخْتِيَارِ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ مَعْنَاهُ أَنْ وَبِالْمَكْرِ هُمْ يَعود إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ كَأَنَّهُ قَالَ يَصْرُونَ بِذَلِكَ الْمَكْرِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بِهَا، وَلَا يَصَحُّ أَنْ يَمْكُرَ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِأَنَّهُ لَا يَصَحُّ أَنْ يَخْفَىٰ عَنْ نَفْسِهِ مَعْنَى مَا يَحْتَالُ بِهِ عَلَيْهَا وَيَصَحُّ أَنْ يَخْفَىٰ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ.

قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ لِأَشْكُ أَنْ قَوْلَهُ: وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ مَذْكُورٌ فِي مَعْرِضِ التَّهْدِيدِ وَالزَّجْرِ فُلُوْا كَانَ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ يَمْكُرُوا بِالنَّاسِ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالرَّحِيمِ الْكَرِيمِ الْحَلِيمِ أَنْ يَرِيدَ مِنْهُمْ الْمَكْرَ وَيَخْلُقَ فِيهِمُ الْمَكْرَ ثُمَّ يَهْدِيَهُمْ وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْعِقَابِ.

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعَانِدِينَ لِلْحَقِّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَدَلُّ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَصَدَقَ رُسُلُهُ قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ نَصَّدِّقُ بِهَا حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ أَيُّ نَعْطِي مِنْ قَبْلِ اللَّهِ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ رُسُلُهُ وَأَنْتُمْ قَالُوا ذَلِكَ حَسْداً وَبَغْياً مِنْهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ.

قِيلَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ قَالَ وَاللَّهِ لَوْ كَانَتِ النَّبُوءَةُ حَقًّا لَكُنْتُ أَنَا أَحَقُّ بِهَا مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَنَّى أَكْثَرُ مِنْهُ مَالاً وَوَلَدًا فَنَزَلَتِ الْآيَةُ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ أَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَخْتَصَّ بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ، بَلْ يَرِيدُ كُلُّ إِمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صَحْفًا مُنْشَرَةً، فَظَاهَرِ الْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ فِي تَفْسِيرِهَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ أَيُّ الْخَبَرِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ نَ فِي قَوْلِهِ: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ قَوْلَانِ:

أحدهما: وهو المشهور بينهم أنه أراد القوم أن تحصل لهم النبوة كما حصلت للنبي.

الثاني: وهو المنقول عن ابن عباس أن المعنى إذا جاءتهم أية من القرآن تأمرهم بإتباع النبي قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ الْخ، وهو قول مشركي العرب لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا^(١) وعلى هذا فالقوم ما طلبوا النبوة وأنما طلبوا أن يأتيهم آيات قاهرة ومعجزات ظاهرة مثل معجزات الأنبياء المقدمين كي تدل على صحة نبوة محمد ﷺ نقلهما الفخر الرازي في تفسيره ثم قال: قال المحققون والقول الأول أقوى وأولى لأن قوله بعد ذلك اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ لا يليق إلا بالقول الأول انتهى.

وكيف كان فقد أنكر الله تعالى عليهم فقال: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ وذلك لأن الرسالة بل جميع الأحكام تابعة للمصلحة الموجودة فيها فلا يبعث الله إلا من يعلم أن المصلحة تتعلق ببعثه دون من لا تتعلق به و محصل الكلام هو أنه تعالى بما يزيد وليفعل من غيره وهو مما لا كلام فيه و حيث أن كلامهم هذا في الحقيقة إعتراض على الله بل رد عليه.

سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ

أي سينال الذين إنقطعوا إلى القبيح و أقدموا عليه، صغار عند الله، و الصغار الذل الذي يصغر إلى الإنسان نفسه و قيل في معنى الصغار عند الله ثلاثة أقوال:

أولها: أي ذلة من عند الله.

ثانيها: قال الفراء إكتسب من ترك أتباع الحق صغار عند الله.

ثالثها: قال الزجاج يعني صغار في الآخرة.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

الجلد
العدد

قال الشيخ بعد نقله الأقوال المذكورة، وهو أقواها لقوله: **وَعَذَابٌ شَدِيدٌ** بما كانوا **يَمْكُرُونَ** في دار الدنيا، وعند الله، يتعلق بقوله: **سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ** ومعنى الآية، الإنكار لما طلبوا، والإجتماع عليهم فيما جهلوا، والوعيد على ما فعلوا إنتهى كلامه.

وإعلم أن ظاهر الآية يدل على أن المكر المذكور في الآية السابقة هو كلامهم هذا أي قولهم، حتى نوتى مثل ما أوتي رسل الله، وجه الدلالة هو قوله: **بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ**.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ

قال بعض المفسرين معناه فمن يرد الله أن يعرفه الحق ويوفقه للإيمان يشرح صدره للإسلام فيتسع له ويفسح فيه مجاله وهو كناية عن جعل القلب قابلاً للحق مهيناً لحلوله فيه مصفاً عما يمنعه وينافيه، في المجمع قد وردت الرواية الصحيحة أنه لما نزلت هذه الآية سأل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر ما هو قال ﷺ نور يقذفه الله تعالى في قلب المؤمن فينشرح صدره وينفسح قالوا فهل لذلك إمارة يعرف بها فقال ﷺ.

نعم الإنابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل نزوله إنتهى.

وقال بعض المتأخرين من مفسري العامة، هذا وصف لحال المستعد لهداية الإسلام بسلامة فطرته وطهارة نفسه من الخلقين الصادين عن إجابة دعوة الحق، وهما الكبرياء والحسد وبتحليها، أي نفسه بالهاديين الى الحق والرشد وهما إستقلال الفكر الصاد عن تقليد الأباء والأجداد وقوة الإرادة الصارفة عن إتباع الرؤوساء أو مجارة الأنداد فمن كان كذلك كان أهلاً بإرادة الله تعالى وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة الى آخر ما قال. وقال الرازي في تفسيره لهذه الآية، تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن الضلال والهداية من الله تعالى ثم قال.

وإعلم أنّ هذه الآية كما أنّ لفظها يدلّ على قولنا فلفظها أيضاً يدلّ على الدليل القاطع العقلي الذي في هذه المسألة وبيانه أنّ العبد قادرٌ على الإيمان وقادر على الكفر فقدرته بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة على السوية فيمتنع صدور الإيمان عنه بدلاً من الكفر أو بالعكس إلا إذا حصل في القلب داعية اليه وقد بينّا مراراً كثيرة في هذا الكتاب وتلك الدّاعية لا معنى لها علمه أو إعتقاده أو ظنّه بكون ذلك الفعل مشتملاً على مصلحة زائدة ومنفعة راجحة فأنّه إذا حصل هذا المعنى في القلب دعاه ذلك إلى فعل ذلك الشيء وأن حصل في القلب علم أو إعتقاد أو ظنّ بكون ذلك الفعل مشتملاً على ضرر زائد ومفسدة راجحة دعاه ذلك إلى تركه وبينّا بالدليل أنّ حصول هذه الدّواعي لا بدّ وأن يكون من الله وأن مجموع القدرة مع الدّاعي يوجب الفعل إذا ثبت هذا فنقول:

يستحيل أن يصدر الإيمان عن العبد إلا إذا خلق الله في قلبه إعتقاد أنّ الإيمان راجح المنفعة زائد المصلحة وإذا حصل في القلب هذا الإعتقاد مال القلب وحصل في النفس رغبة شديدة في تحصيله وهذا هو إنشراح الصدر للإيمان فأما إذا حصل في القلب إعتقاد أنّ الإيمان بمحمد ﷺ مثلاً سبب مفسدة عظيمة في الدّين والدّنيا ويوجب المضار الكثيرة فعند هذا يتّربّط على حصول هذا الإعتقاد نفرة شديدة عن الإيمان وهذا هو المراد من أنّه تعالى يجعل صدره ضيقاً حرجاً فصار تقدير الآية من أراد الله منه الإيمان قوئ دواعيه إلى الإيمان ومن أراد الله منه الكفر قوئ صوارفه عن الإيمان وقوئ دواعيه إلى الكفر ولما ثبت بالدليل العقلي أنّ الأمر كذلك ثبت أنّ لفظ القرآن مشتمل على هذه الدلائل العقليّة وإذا إنطبق قاطع البرهان على صريح لفظ القرآن فليس وراءه بيان ولا برهان انتهى كلامه.

وَأَنَا أَقُولُ مَا قَالَه الرَّازِي فِي الْمَقَامِ مِنْ خَلْقِ الدَّاعِي إِلَى الْفِعْلِ وَتَرْكِهِ فِي الْعَبْدِ، قَالَه فِي جَمِيعِ الْآيَاتِ الْمَوْهَمَةِ لَذَلِكَ وَتَبِعَهُ عَلَيْهِ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْقَائِلِينَ بِالْجَبْرِ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا إِخْتِيَارَ لَهُ وَلَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ إِلَّا هَذَا وَهُوَ أَنَّ الدَّاعِي فِي الْقَلْبِ مَخْلُوقٌ لَهُ تَعَالَى وَقَدْ مَرَّ مَرَاراً فِي الْجَوَابِ.

أَنَّ كَوْنَ الدَّاعِي مَخْلُوقاً لَهُ تَعَالَى لَا يُوجِبُ سَلْبَ الْإِخْتِيَارِ عَنِ الْعَبْدِ لِأَنَّهُ أَيُّ الدَّاعِي مُؤَخَّرٌ عَنِ الْإِخْتِيَارِ فَأَنَّ الْعَبْدَ يَخْتَارُ أَوَّلًا ثُمَّ يَرِيدُ الْفِعْلَ أَوْ التَّركَ. نَعَمْ لَوْ كَانَ الْإِخْتِيَارُ مُؤَخَّرَ عَنْهُ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَهُ وَأَتَى لَهُ بِإثْبَاتِ ذَلِكَ أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَبْدَ يَتَأَمَّلُ فِي الْفِعْلِ أَوْ التَّركِ فَإِذَا عَلِمَ وَرَجَّحَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ يَرِيدُ وَيَفْعَلُ هَذَا إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالدَّاعِي الْإِرَادَةُ وَأَمَّا أَنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْخَطُورُ النَّفْسَانِي وَالشُّوقُ إِلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَهُوَ وَأَنْ كَانَ مَقْدَمًا عَلَى الْإِخْتِيَارِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مُوجِبًا لِحَصُولِ الْفِعْلِ مَا لَمْ يَتَرَجَّحْ حَصُولُ الْفِعْلِ عَلَى التَّركِ أَوْ بِالْعَكْسِ وَالتَّرجيحُ هُوَ الْإِخْتِيَارُ وَقَوْلُهُ أَنَّ التَّرجيحَ بِسَبَبِ الدَّاعِي يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَإِذَا لَيْسَ فَلَيْسَ وَمَجْرَدُ كَوْنِهِ مَخْلُوقاً لَهُ تَعَالَى لَا يَكْفِي فِي حَصُولِ الْفِعْلِ وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرُ.

وَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْلُ أَرَدْنَا وَفَعَلْنَا ذَلِكَ مِثْلًا بَلْ قَالَ قَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ فَعَلْ بِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ أَرَادَ إِضْلَالَهُ فَعَلْ بِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ يَرِيدُ ذَلِكَ أَوْ لَا يَرِيدُهُ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لِلْهُوَ لَا تَخْذُنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ^(١) فَبَيَّنَّ أَنَّهُ يَفْعَلُ اللَّهُو لَوْ أَرَادَهُ وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ ذَلِكَ وَلَا يَفْعَلُهُ وَمَا نَحْنُ فِيهِ كَذَلِكَ أَنْتَهَى.

وَقَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ عَائِدٌ لِإِسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْمَعْنَى أَنَّ الْفِعْلَ مُسْتَدْتِدٌ إِلَى إِسْمِ اللَّهِ فِي اللَّفْظِ، وَفِي الْمَعْنَى لِلْمَشْرُوحِ صَدْرُهُ وَأَتَمَّا نَسَبَهُ إِلَى ضَمِيرِ إِسْمِ اللَّهِ لِأَنَّهُ بِقُدْرَتِهِ كَانَ وَ

توفيقه كما قال: **وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** ^(١) ويدل على أن المعنى لفاعل الإيمان إسناد هذا الفعل إلى الكافر في قوله (ولكن من شرح بالكفر صدرأفعليهم غضب من الله) فكما أسند الفعل إلى فاعل الكفر كذلك يكون إسناده إلى فاعل الإيمان ومعنى شرح الصدر إسناده للإيمان.

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** ^(٢) هذا ما قالوه في تفسير الآية والذي نقول في المقام هو أن شرح الصدر بسطه و توسعته للعلم و الإيمان بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقّة و لا يدفع كلمة الحق إذا ألقيت إليه، و ضيق الصدر يقابله.

قال بعض الحكماء حيثما ذكر الله تعالى القلب فأشار إلى العقل و العلم و حيثما ذكر الصدر فأشارة إلى ذلك و إلى سائر القوى من الشهوة و الهوى و الغضب و نحوها و عليه فالمعنى من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، معناه، يجعله عالماً عاقلاً و اذا كان كذلك فلا محالة يستعمل قواه في طاعة الله و يمنعها عن المعاصي و بعبارة أخرى يثبت عزمه عليه و يقوّي دواعيه على التمسك به و يزيل عن قلبه وساوس الشيطان و ما يعرض في القلوب من الحظوظ الفاسدة و أنما فعل ذلك لطفاً و ثواباً على إهتدائه و منه يظهر معنى قوله: **وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ** يعني يعاقبه أو يعدل به عن طريق الجنة كأتما يفعل ما يعجز عنه لا يستطيعه لثقله عليه و ذلك لأن الإضلال مقابل الهداية فلا محالة كان أثره أيضاً مقابلاً لأثرها و هو التضييق المقابل للشرح و التوسعة و أثره أن لا يسع ما يتوجّه إليه من الحقّ و الصدق و يتحرّج عن دخولهما فيه ولذا أردف كون الصدر ضيقاً بكونه حرجاً هكذا قال بعض المفسرين.

و قال الطبرسي **قوله** في المجمع يعني و مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ عن ثوابه و كرامته يجعل صدره في كفره ضيقاً حرجاً عقوبة له على ترك الإيمان من غير أن يكون

سبحانه مانعاً عن الإيمان و سالباً إياه القُدرة عليه بل ربما يكون ذلك سبباً داعياً له الى الإيمان فأَنْ من ضاق صدره بالشئ كان ذلك داعياً له الى تركه و الدليل على أن شرح الصدر قد يكون ثواباً.

قوله سبحانه: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ الْآيَات و معلوم أَنَّ وضع الوزر ورفع الذكريكون ثواباً على تحمّل أعباء الرسالة فكذلك ما قرن به من شرح الصدر و ساق الكلام الى أن قال.

و من يرد أن يضلّه أي يخذله و يخلّي بينه و بين ما يريد له لإختياره الكفر و تركه الإيمان يجعل صدره ضيقاً حرجاً بأن يمنعه الألفاف التي ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره الى أن قال ﷻ.

ثالثها: أَنَّ معنى الآية من يرد الله أن يهديه زيادة الهدى التي وعدّها المؤمن يشرح صدره لتلك الزيادة لأنّ من حقّها أن تزيد المؤمن بصيرة و من يرد أن يضلّه عن تلك الزيادة بمعنى يذهب عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصح عليه يجعل صدره ضيقاً حرجاً لمكان فقد تلك الزيادة لأنّها اذا إقتضت في المؤمن ما قلناه أوجب في الكافر ما يضاده و يكون الفائدة في ذلك الترغيب في الإيمان والزجر عن الكفر و هذا التأويل قريب ممّا تقدّم.

وروي عن ابن عباس أنّه قال أنّما سمى الله قلب الكافر حرجاً لأنّه لا يصل الخير الى قلبه و في رواية لا تصل الحكمة الى قلبه و لا يجوز أن يكون المراد بالضلال في الآية الدّعاء الى الضلال و لا الأمر به و لا الإجبار عليه لإجماع الأمة على أنّ الله لا يأمر بالضلال و لا يدعو اليه فكيف يجبر عليه.

و الدّعاء اليه أهون من الاجبار عليه و قد ذمّ الله فرعون و السّامري على إضلالهما عن دين الهدى في قوله و أضلّ فرعون قومه و ما هدى و قوله فأضلّهم السّامري و لا خلاف في أنّ إضلالهما إضلال أمرٍ وإجبارٍ و دعاءٍ و قد ذمّهما الله تعالى عليه مطلقاً فكيف يمتدح بما ذمّ عليه غيره انتهى كلام الطبرسي نقلناه بطوله لما فيه من الفائدة ما لا يخفى.

أقول ما ذكره عليه السلام حق لا مرية فيه والذي حصل لنا في المقام هو أن المراد بالإنشراح التوفيق من الله للإيمان والعمل على مقتضاه كما أن المراد بضيق الصدر هو سلب التوفيق عن العبد وإيكاله الى نفسه وذلك لأن الله اذا أراد بعبد خيراً هَيَّأَ له أسبابه.

وأما قوله: **كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ** ففيل في معناه كأنه قد كَلَّفَ أن يصعد الى السماء اذا دعى الى الإسلام من ضيق صدره عنه، أو كان قلبه معرضاً عن الإسلام والحكمة.

وثاني: الأقوال أن معنى يَصْعَدُ كأنه يتكلف مشقة في إرتقاء صعود.

ثالثها: أن معناه كأنه لا يجد مسلكاً إلا صعداً.

رابعها: أن معناه كأنما ينتزع قلبه الى السماء لشدة المشقة عليه في مفارقة مذهبه **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** قال الزاغب في المفردات، الرِّجْسُ الشَّيْءُ القَذَرُ يقال رجل رجس ورجال أرجاس ثم قال والرِّجْسُ يكون على أربعة أوجه:

إمّا من حيث الطَّبع.

وإمّا من جهة العقل.

وإمّا من جهة الشرع.

وإمّا من كلّ ذلك كالميتة فأَنَّ الميتة تعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً الى أن قال: وجعل الكافرين رجساً من حيث أَنَّ الشُّرْكَ بالعقل أَقْبَحُ الأشياءِ، الرِّجْسُ التَّنْ و قيل العذاب انتهى.

قال بعض المفسرين وجه التشبيه في قوله: **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** أَنَّهُ يجعل الرِّجْسَ على هؤلاء كما يجعل ضيق الصدر في قلوب أولئك و أَنَّ كلّ ذلك على وجه الإستحراق ولا يجوز أن يكون المراد بالآية أَنَّ الله تعالى يجعل سبب الإيمان الذي يكون به الإيمان وسبب الكفر الذي يكون به الكفر وأنهما جميعاً من فعل الله على ما يقوله المجبرة و

ذلك أنه تعالى أنزل القرآن حجة على عباده ولا حجة للعباد عليه فلو كانت كما قالوه لكانت الحجة عليه لا له على أنه لا يجوز أن يكون في كلام الله مناقضة وقد ذكر الله في مواضع أنه هدى الكفار نحو قوله:

قال الله تعالى: **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعِصَى عَلَى الْهُدَى^(١).**

قال الله تعالى: **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ، فَلَا أَفْتَخَمَ الْعُقَبَةَ^(٢).**

قال الله تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا^(٣).**

فبين بجميع ذلك أنه تعالى هدى الكفار كما هدى المؤمنين فكيف ينفي ذلك في موضع آخر وهل ذلك إلا مناقضة وكلام الله منزّه عنها ومتى حملنا الآيات على ما نقلناه ووفقنا بينها لم يؤد إلى المناقضة والتضاد ويقوي ذلك أن الله أخبر أنه يجعل قلب الكافر ضيقاً حرجاً ونحن نجد كثيراً من الكفار غير ضيقي الصدر بما هم فيه من الكفر بل هم في غاية السرور والفرح بذلك فكيف يقال أن الله تعالى ضيق صدورهم بالكفر ولا يلزمنا ذلك إذا قلنا أن الله يفعل ذلك بهم على وجه العقوبة لأنه تعالى إذا كان يفعل بهم ذلك عقوبة يجوز أن يفعل بهم ذلك إذا أراد عقابهم لا في جميع الأحوال ولا يلزم أن يجدوا نفوسهم على ذلك في كل وقت وأيضاً فإن بسبب القبيح لا يكون إلا قبيحاً فعلى هذا بسبب الكفر يجب أن يكون قبيحاً لأنه موجب له لا يصلح لصدّه من الإيمان لأنه لو صلح لذلك لم يكن سبباً والله تعالى لا يفعل القبيح إلى آخر ما قال.

ثم قال وجه آخر في الآية وهو أن يكون الله تعالى لما دعاهم إلى الإيمان وأمرهم ففعلوه إنشروحت صدورهم فنسب شرح ذلك إلى الله ولما ضاقت

صدور الكفار عند دعاء الله وإقامة الحجج عليهم وأمره أيتاهم بذلك فضلوا عند ذلك صح أن ينسب إضلالهم اليه كما يقولون أضل فلان بعيره إذا ضل عنه وهو لم يرد ذلك، انتهى كلامه.

وأنا أقول أنما أطلوا الكلام حول الآية وأمثالها لأنهم لم يفرقوا بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية وتخيلوا أن إرادة الله تعالى في جميع الموارد واحدة وليس كذلك لأن الإرادة تارة تتعلق بالإيجاد وذلك مثل قوله:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١)**.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٢)**.

ففي هذه الإرادة لا يتخلف المراد عنها وأخرى تتعلق بالتكاليف الشرعية وذلك:

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا^(٣)**.

قال الله تعالى: **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ^(٤)**.

قال الله تعالى: **وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ^(٥)**.

قال الله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ^(٦)**.

وأمثال ذلك من الأوامر الصادرة في الشرع وهكذا في النواهي ومن المعلوم أن الله تعالى أراد ثم أمر ونهى إذ لا يعقل الأمر والنهي من غير إرادة وفي هذه الإرادة قد يتخلف المراد عنها وقد لا يتخلف وذلك لثبوت الاختيار للعبد إذا عرفت هذا.

فنقول، قوله تعالى: **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ**.

ليست الإرادة فيها من قبيل الأول أعني به الإرادة التكوينية حتى لا يتخلف المراد عنها كما زعمه الرّازي وأمثاله من الأشاعرة والمجتهبة.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

١- النحل = ٤٠

١- يس = ٨٢

٢- البقرة = ٢٣

٣- آل عمران = ٩٧

٤- البقرة = ١٨٣

٥- التوبة = ٤١

وَأَنْ شئتَ قلتَ لم يخلقهم كذلك حتَّى لم يقدروا على خلافه، بل الإرادة فيها وفي أمثالها من الآيات تشريعية كما قال تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(١)** وعليه فمعنى الآية هو أَنَّ الله هدى المؤمن بالأطاف التي ينشرح بها صدره للتمسك بالإسلام والاستبصار فيه ولم يفعل ذلك بالكفَّار وإن لم يخل بينهم وبين الإيمان ولا منعهم منه وذلك لأنَّه تعالى قد أعطى الكافر الصَّحة والسَّلامة والقوَّة.

و جميع ما يتمكَّن به من فعل ما أمره به وأنما لم يفعل بهم اللطف الَّذي يؤمنون عنده لأنَّهم لمَّا عدلوا من النُّظر في آيات الله وحججه وخرجوا من أن يكون لهم لطف يختارون عنده الإيمان وصاروا مخذولين فخلَّى الله تعالى بينهم وبين إختيارهم فعبر عن ذلك بأنَّه جعل صدر الكافر ضيقاً حرجاً. ومن المعلوم أنَّ الباعث على ذلك الحرمان هو إعراضهم عن الآيات والحجج والإقبال على الشَّيطان والهواجس النفسانية مع قدرتهم على خلافه ويدل على ما ذكرناه قوله في آخر الآية كذلك **يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** وذلك لأنَّهم لو لم يقدروا على الإيمان كما زعمه الخصم فلا معنى لهذا الكلام إذ للعبد أن يقول لم أقدر على الإيمان وهو كما ترى والحمد لله على كلِّ حالٍ.

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ يمكن أن يكون المشار اليه بكلمة، هذا، الإسلام ويمكن أن يكون البيان الَّذي في القرآن وإضافة الصَّراط الى الله لأنَّه هو الَّذي نصبه ودلَّ به وغلب عليه الإستعمال ولم يجز قياساً على ذلك أن يقال هذا طريق ربِّك لأنَّه لم تجر العادة باستعماله كما أنَّهم إستعملوا قولهم، هذا في سبيل الله، ولم يقولوا في طريق الله هكذا قيل.

وقوله: مُسْتَقِيمًا نصب على الحال ومعناه الذي لا إعوجاج فيه وقوله: قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ أَي بَيَّنَّاها لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أصله يتذكرون، فقلبت التاء ذالاً و أدغمت الأولى في الثانية، قالوا ولم يجز قلب الذال الى الدال كما جاز في، هل من مذكر، لأنهم لما لم يجيزوا إدغام التاء في الدال لأنها أفضل منها بالجهر قلبت الى الدال لتعديل الحروف وليس كذلك إدغام التاء في الدال، وتخصيص الكلام بقوم، يتذكرون، لأنهم المنتفعون بها وأن كانت الآيات لغيرهم أيضاً كما قال هدى للمتقين، مع أنه هدى لغيرهم أيضاً، والسّر فيه هو أن شرط التأثير قابلية المعلول للتأثر ولا تكفي قابلية العلة فقط.

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لهم، أي لهؤلاء المتذكرين دار السلام عند ربهم، أي لهم دار السلام من كل آفة و بلية، المراد بها الجنة والمال واحد لأن الجنة هي دار السلامة عنها لا غيرها، فإن الدنيا دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة وفي قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ إشارة الى مقام العندية الذي لا مقام فوقه، وفي قوله: بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إشارة الى إستحقاقهم بذلك المقام حيث أنهم كانوا في الدنيا من المتذكرين العالمين، ولما كان الله تعالى هو المتولي لإيصال المنافع اليهم ودفع المضار عنهم في الدنيا والآخرة قال تعالى وهو وليهم:

قال الله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(١).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ
 اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ
 الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا
 أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوِيكُمْ
 خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ
 الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا
 مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
 يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
 هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
 كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ
 الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ
 دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
 يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ
 يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا
 أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا
 تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا
 قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الظَّالِمُونَ (١٣٥)

◀ اللغة

يَحْشُرُهُمْ، الْحَشْرُ اخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها.

الْجِنِّ أَصْلُ الْجِنِّ سِتْرُ الشَّيْءِ عَنْ الْحَاسَةِ يُقَالُ جَنَّهُ اللَّيْلُ وَأَجَنَّهُ وَجِنَّ عَلَيْهِ فَجَنَّهُ، سَتَرَهُ، وَالْجِنُّ بِكسر الجيم يُقَالُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: لِلرُّوحَانِيِّينَ الْمُسْتَتْرِينَ عَنِ الْحَوَاسِ كُلِّهَا بِإِزاءِ الْإِنْسِ فَعَلَى هَذَا تَدْخُلُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ وَلَيْسَ كُلُّ جِنٍّ مُلْكٌ وَقِيلَ بَلِ الْجِنُّ بَعْضُ الرُّوحَانِيِّينَ وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَانِيِّينَ ثَلَاثَةٌ أَخْيَارٌ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَأَشْرَارُهُمْ وَهُمْ الشَّيَاطِينُ وَأَوْسَاطُ فِيهِمْ أَخْيَارٌ وَأَشْرَارٌ وَهُمْ الْجِنُّ.
 آلاَئِيسَ بِكسر الألف خلاف الجِنِّ.

أَجَلْنَا، الْأَجَلَ بفتح الجيم المُدَّةُ الْمَضْرُوبَةُ لِلشَّيْءِ.
 مَثْوِيَكُمْ، مَثَوَى إِسْمُ مَكَانٍ مِنْ ثَوَى بِمعنى الإقامة مع الإستقرار يُقَالُ ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً وَالثَّوِيَّةُ مَأْوَى الْغَنَمِ وَالْبَاقِي وَاضِحٌ لَا خُفَاءَ فِيهِ.

◀ الإعراب

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ الْإِنْسِ حَالٌ مِنْ أَوْلِيَاءُ وَهُمْ وَخَالِدِينَ فِيهَا حَالُ الْعَامِلِ وَ جِهَان:

أحدهما: الْمَثْوَى عَلَى أَنَّهُ مُصْدَرٌ بِمعنى الثَّوَاءِ وَالتَّقْدِيرُ النَّارُ ذَاتُ ثَوَائِكُمْ.
 الثَّانِي: الْعَامِلُ فِيهِ معْنَى الْإِضَافَةِ وَثَوَاكُم، مَكَانٌ وَالْمَكَانُ لَا يَعْمَلُ.
 إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ هُوَ إِسْتِثْنَاءٌ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ وَيَجْزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجِنْسِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ إِسْتِثْنَاءٌ مِنَ الزَّمَانِ وَالمَعْنَى يَدُلُّ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْخُلُودَ يَدُلُّ عَلَى الْأَبَدِ فَكَأَنَّهُ قَالَ خَالِدِينَ فِيهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَيِ إِلَّا زَمَنَ مَشِيئَتِهِ.

الثَّانِي: أن تكون من بمعنى، ما هكذا قيل والحق أن يقال أن تكون، ما، بمعنى، من كما لا يخفى.

يَقْصُونَ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ صِفَةً لِرَسُولٍ أَوْ حَالٍ مِنَ الصَّمِيرِ فِي، مِنْكُمْ، ذَلِكَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَنْ لَمْ أَنْ مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقَلِيَّةِ وَاللَّامُ مَحذُوفَةٌ أَيْ لِأَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مَوْضِعُهُ نَصَبٌ أَوْ جَزٌّ عَلَى الْخِلَافِ بِظُلْمٍ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَوْ مَفْعُولٍ بِهِ يَتَعَلَّقُ بِمَهْلِكِ وَلِكُلِّ أَيْ وَلِكُلِّ أَحَدٍ مِمَّا فِي مَوْضِعِ رَفَعَ صِفَةً لِدَرَجَاتٍ كَمَا أَنْشَأَكُمْ الْكَافِ فِي مَوْضِعِ نَصَبِ صِفَةٍ لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ أَيْ إِسْتِخْلَافًا كَمَا مِنْ ذُرِّيَّةٍ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ وَقِيلَ هِيَ بِمَعْنَى الْبَدَلِ أَيْ كَمَا أَنْشَأَكُمْ بَدَلًا مِنْ ذُرِّيَّةٍ إِنْ مَا تَوَعَّدُونَ مَا بِمَعْنَى الَّذِي لَا يَخْبِرُ أَنْ مَنْ تَكُونُ مِنْ بِمَعْنَى الَّذِي وَيَجُوزُ (أَنْ تَكُونُ) إِسْتِفْهَامًا مِثْلَ قَوْلِهِ، أَعْلَمُ مِنْ يَضِلُّ.

التفسير

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ قرأ حفص وروح، يحشروهم بالياء والباقون بالتون، والتقدير وأذكر يوم يحشروهم جميعاً ثم يقول لهم يا معشر الجن، والمراد بهم الشياطين، قد استكثرت من الإنس، أي أضللتهم منهم كثيراً، فأَنْ كُلِّ مَنْ وَالِي قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ وَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جَنْسِهِمْ.

وقال بعضهم معنى الكلام، استكثرت من إغوائهم وإضلالهم وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَفِي مَعْنَى الْإِسْتِمَاعِ قولان:

أحدهما: بتزيين الأمور التي يهونها حتى يسهل عليهم فعلها.

الثاني: أنه إذا كان الرجل أراد أن يسافر فيخاف سلوك طريق من الجن فيقول، أعوذ بسيّد هذا الوادي ثم يسلك فلا يخاف:

قال الله تعالى: **وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا^(١)**.

وقيل في وجه إستماع الجنّ بالإنس أنّهم إذا اعتقدوا أنّ الإنس يتعوذون بهم ويعتقدون أنّهم ينفعونهم ويضرونهم أو أنّهم يقبلون منهم إذا أغوهم كان في ذلك تعظيم لهم و سرور ونفع.

وقيل يحتمل أن يكون قوله: **أَسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** مقصوراً على الإنس فكان الإنس إستمع بعضهم ببعض دون الجنّ، (وبلغنا أجلاً الذي أجلت لنا) المراد بالأجل الموت، وقيل المراد به الحشر لأنّ كلّ واحدٍ منهما أجل في الحكم فالموت أجل إستدراك ما مضى والحشر أجل الجزاء **قَالَ النَّارُ مَثْوِيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا** أي قال الله لهم بأنّ النار مثواكم والمثوى المقام، خالدين فيها، مؤبداً وهو نصب على الحال **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** في معنى الإستثناء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه من الفائت قبل ذلك من الإستحقاق من وقت الحشر الى زمان المعاقبة وتقديره خالدين فيها على مقادير الإستحقاق **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** من الفائت قبل ذلك لأنّ ما فات يجوز إسقاطه بالعفو عنه والفائت من الثواب لا يجوز تركه لأنّه بخس لحقّه ذكره الرّمانى والبلخى والطّبري وغيرهم.

الثّاني: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**، من تجديد الخلود بعد إحراقهم وتصريفهم في أنواع العذاب فيها والتّقدير، خالدين فيها على صفةٍ واحدةٍ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** من هذه الأمور.

الثّالث: ما حكى عن ابن عبّاس أنّه قال هذه الآية توجب الوقف في جميع الكفّار فإنّه ذهب الى أنّ وعيدهم بالقطع يدلّ عليه فيما بعد وهو قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ^(٢)**.

تفسير القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

وقال قوم معنى، ما، من وتقدير الكلام إلا من شاء الله إخراجهم من النار من المؤمنين الذين لهم ثواب بعد إستيفاء عقابهم، ذكر هذه الوجوه في التبيان والذي يقوي عندي أن الإستثناء من الأزمان أي خالدين فيها أبداً إلا الزمان الذي شاء الله أن لا يخلدوا فيها والله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولذلك قال: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ أي أنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة فهو حكيم بما يفعله من جزائهم وعالم بذلك وبغيره من المعلومات فلا يخفى عليه شيء منها وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

قال الزمخشري في قوله تعالى: نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا أي نُخْلِيهِمْ حَتَّى يَتَوَلَّى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس أو نجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقراءهم كما كانوا في الدنيا انتهى كلامه. وقال الآخر معناه أننا نكل بعضهم الى بعض في النصرة والمعونة في الحاجة ولا نحول بينهم.

أقول وهذا الوجه قريب مما تقدّم، وقيل معناه نجعل بعضهم يتولى القيام بأمر بعض وأما كَيْفِيَّةُ التَّوَلَّى فبأن حكم أن بعضهم يتولى بعضاً فيما يعود عليه بالوبال من الأعمال التي يتفقون عليها.

وقال قتادة أنه من الموالات والتتابع في النار أي يدخل بعضهم عقيب بعض.

وقال الرازي معنى الكلام أن ذلك يحصل بتقديره وقضائه وساق الكلام الى أن قال وبهذا التقرير تصوير الآية دليلاً لنا في مسألة الجبر والقدر وإستدلال على ذلك بأن القدرة صالحة للطرفين أعني العداوة والصداقة فلولا حصول الدّاعية الى الصداقة لما حصلت الصداقة وتلك الدّاعية لا تحصل إلا بخلق الله.

وقد مرّ الجواب عنه مراراً فلا نحتاج الى الإعادة والذي حصل لنا في المقام في معنى الآية هو أن السّنخية ثابتة في الأرواح الخبيثة كما أنها ثابتة في الأرواح الطّاهرة.

قال رسول الله ﷺ أن الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وتناكر منها اختلف، ثم أن الأرواح تتعلّق بالأجسام في هذه الدّنيا فلا محالة ينقسم النّاس في كلّ عصرٍ وزمان الى ذوات الأرواح الطّاهرة وذوات الأرواح الخبيثة وبمقتضى قانون السّنخية ينضمّ الخبيث الى الخبيث والطّاهر الى الطّاهر فالخبيث لا يتولّى إلا الخبيث وهكذا الطّاهر وهذا معنى قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بَعْضَ الظّالِمِينَ و عليه فالمراد بالتّولية في الآية الشّريفة المتابعة و الإنقياد والطّاعة وليس المراد بها الحكومة كما زعم الرّازي وأمثاله.

قال الرّازي في المقام الآية تدلّ على أن الرّعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلّط عليهم ظالماً مثلهم فإن أرادوا أن يتخلّصوا من ذلك الأمير الظّالم فليتركوا الظّلم وأيضاً الآية تدلّ على أن في الخلق لا بدّ من أمير حاكم لأنّه تعالى اذا كان لا يخلّي أهل الظّلم من أمير ظالم لا يخلّي أهل الصّلاح من أمير يحملهم على زيادة الصّلاح كان أولى قال عليّ عليه السلام لا يصلح للنّاس إمّا أمير عادل أو جائر فأنكروا قوله أو جائر فقال نعم يؤمن السّبيل ويمكن من إقامة الصّلوات وحجّ البيت. وروي أن أبا ذر سأل رسول الله الإمارة فقال له أنك ضعيف وأنها أمانة و هي في القيامة خزيّ و ندامة إلا من أخذها بحقّه وأدّى الذّي عليه فيها وعن مالك ابن دينار جاء في بعض كتّاب الله أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك و نواصيها بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة و من عصاني جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا أنفسكم بسبّ الملوك لكن توبوا اليّ أعطفهم عليكم.

وأمّا قوله: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فالمعنى نولّي بعض الظّالمين بعضاً بسبب كون ذلك البعض مكتسباً للظّلم والمراد منه ما بيّنّا أن الجنّسية علّة للضمّ انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

ولقائل أن يقول أن الآية لا تدل على ما ذكره أصلاً بل هي أجنبية عما ذكره قطعاً وذلك لأنها تدل على أن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً، وأين هذا المعنى مما إدعاه الرازي من أن الرعية متى كانوا ظالمين يسلط الله عليهم ظالماً مثلهم الخ.

ألا ترى أن المسلمين في حياة النبي ﷺ وبعد موته كانوا على حد سواء في الظلم والعدالة ولازم ما ذكره أن يكون الرسول ظالماً أن كانوا ظالمين وليس كذلك وهكذا في الأمم الماضية فإن يوسف الصديق كان حاكماً على أهل مصر ولاشك أنهم كانوا ظالمين، وموسى ابن عمران بعد فرعون صار حاكماً عليهم وكانوا ظالمين وفي هذه الأمة أمير المؤمنين صار حاكماً عليهم وكانوا ظالمين ونظائره كثيرة، وأما قوله وأيضاً الآية تدل على أن في الخلق لا بد من أميرٍ وحاكمٍ، فهو أيضاً أجنبي عنها.

نعم لا بد للخلق منه إلا أن الآية لا تدل عليه ولا ربط لها بالإمارة أصلاً. وأما ما ذكره من أن أبا ذر سأل رسول الله الإمارة وقال الرسول له أنك ضعيف، فهو كذب محض لأنه متفرد بنقله ولم ينقله أحد من الموثقين والعقل أيضاً يحكم بكذبه وبطلانه وذلك لأن أبا ذر كان من الزهاد والأوتاد في زمانه بشهادة الرسول ﷺ ومن كان كذلك لا يسأل الحكومة والإمارة بل يفر منها فرار الذئب من الأسد والعجب من الرازي حيث نسب إلى الرسول أنه ﷺ قال لأبي ذر أنك ضعيف، وأي ضعف كان فيه.

نعم أنه كان ضعيفاً من الظلم كما كان الرسول أيضاً كذلك وأما قوله أنه أمانة وهي في القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقه وأدى الذي عليه فيها فهو حق لا كلام لنا فيه مفهوم إلا أن البحث في مصاديق الكلام ولتفصيل المقال مقام آخر وأما الأخبار التي تمسك بها في إثبات مدعاه ففيها ما فيها سنداً ودلالة.

أن قلت فما معنى الآية وما المقصود بها.

قلت معنى الآية أَنَّ تَوَلَّيْتُ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لَيْسَتْ إِلَّا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ وَحَيْثُ أَنَّ سَنَةَ اللَّهِ جَرَتْ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ عَلَى عَدَمِ الْإِجْبَارِ وَالْإِكْرَاهِ فِي حَقِّ عِبَادِهِ الْمَكْلَفِينَ بَلْ جَعَلَهُمْ مُخْتَارِينَ فِي أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ بَعْدَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ عَقْلاً وَنَفْلاً فَلَا جَرَمَ يَتَرْتَّبُ الْأَثَارُ عَلَى أَفْعَالِهِمْ أَنَّ خَيْراً فَخِيراً وَأَنَّ شَرّاً فَشَرّاً فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِإِرَادَتِهِ وَإِخْتِيَارِهِ لَا يَرَى إِلَّا خَيْراً وَمَنْ خَالَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَرَى إِلَّا شَرّاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَتَمَّا نَسَبَ اللَّهُ تِلْكَ التَّوَلَّيَةَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: وَكَذَلِكَ نُوَلِّي وَلَمْ يَنْسِبْهَا إِلَى خَلْقِهِ مَجَازاً لَا حَقِيقَةً وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَيَّ كَانَ السَّبَبُ لَهَا عَمَلُهُمْ وَمُخَالَفَتُهُمْ وَتَمَرْدُهُمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَبَعْدَهُ عُمَرَ وَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ بِتَرْكِهِمْ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأَئِمَّةَ مِنْ وَلَدِهِ فَوَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا مُعْرِضِينَ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ وَالظَّالِمَ لَا يُحِبُّ إِلَّا مِثْلَهُ وَهَذَا مَعْنَى تَوَلَّيْتُ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وَأَمَّا غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسَ لِلظَّالِمِ عَلَيْهِمْ وَلَايَةٌ أَصْلًا:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَتْبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ^(١).

وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي^(٢).

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

المعشر بفتح الميم و سكون العين وفتح الشين الجماعة و فزقوا بينه و بين المجمع بأن المعشر يقع عليهم هذا الاسم مجتمعين كانوا أو متفرقين

كالعشيرة، وليس كذلك المجمع لأنه مأخوذ من الجمع فلا يصدق على المتفرقين، والجن بكسر الجيم مشتق من الإجتنا عن العيون أعني به الإستتار عنها وهو إسم علم لجنس مما يعقل متميز عن جنس الإنسان و الملك، و الإنس هم البشر وفي الآية أبحاث:

أحدها: أن قوله هذا إحتجاج عليهم يوم القيامة بأن الله تعالى بعث اليهم الرسل أعداراً وإنذاراً وتأكيذاً للحجة وفيه دلالة على ثبوت التكليف للجن كما أنه ثابت للإنس.

البحث الثاني: أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أرسل رسلاً من الجن كما أرسل رسلاً من الإنس وأما قلنا ذلك لعموم الخطاب حيث قال: **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** فلو كان الرسول مختصاً بالإنس، قال: **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** أو من الإنس ولم يقل ذلك وإختار هذا القول الطبري والبلخي وغيرهما ومال اليه الشيخ في التبيان.

وقال أكثر المفسرين أن الخطاب وأن كان لجميعهم إلا أن الرسل من الإنس خاصة اذ من المحتمل أن يكون الخطاب من باب التغليب كما قد يغلب المذكر على المؤنث ففي المقام غلب الإنس على الجن في بعث الرسول اليهم ونظيره قوله:

قال الله تعالى: **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**^(١).

قال الله تعالى: **مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ**^(٢).

ومن المعلوم أن اللؤلؤ يخرج من الملح دون العذب، وكقولهم، أكلت خبزاً و لبناً، وأتما شربت اللبن وكما يقولون في هذه الدار سرور وأتما هو في بعضها. وقال ابن عباس هم رسل الإنس الى غيرهم من الجن كما قال تعالى: **وَلَوْ أَلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**^(٣) وقال المغربي المعنى، ألم يأتكم، يعني معشر المكلفين

والمخلوقين، رُسُلٌ مِنْكُمْ يعني المكلفين وقال الكلبي كان الرُّسل يبعثون الى الإنس بعث محمد ﷺ الى الجن والإنس.

أقول محصل الأقوال في الباب يرجع الى ثلاثة:

أحدها: أن للجن رسول كما أن للإنس رسول.

ثانيها: أن الرسول فيهم واحد وهو من الإنس فقط.

ثالثها: القول بالفصل وهو أن جميع الأنبياء بُعثوا الى الإنس خاصة و محمد ﷺ بعث الى الجن والإنس جميعاً.

والذي يعتمد عليه من الأقوال المذكورة هو القول بالفصل وهو أن الأنبياء قبل النبي بعثوا الى الإنس خاصة وأما نبي الإسلام فقد بعث الى الجن والإنس فالبحت يقع في مقامين:

المقام الأول: أن الأنبياء قبل الإسلام بعثوا الى الإنس خاصة ويدل عليه ظواهر الآيات.

منها، هذه الآية فأنها صريحة في المدعى لقوله تعالى فيها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ والوجه فيه ظاهر لأن قوله، منكم خطاب للجن والإنس بدليل صدر الآية وهو قوله يا معشر الجن والإنس وعليه فقوله منكم، أي من جنسكم وهذا يقتضي أن يكون الرسول من جنس المبعوث اليهم فأن كان المبعوث اليه من جنس البشر فالرسول كذلك وأن كان من الجن فالرسول أيضاً منهم وهو ظاهر.

ومنها، قوله تعالى وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ^(١)

ومن المعلوم أن رسول الإنس لا يكون بلسان الجن ولا يكون قوم الجن قومه.

ومنها، قوله: وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ^(٢) كيفية الاستدلال أن الجن أمة مستقلة كما أن الإنس كذلك والتذير لا يكون إلا للنبي ولازم ذلك أن يكون للجن نذيراً وهو المطلوب.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

ويمكن أن يستدل على المدعى بالعقل أيضاً وملخصه أن الإستثناس بين المبعوث والمبعوث اليه شرط في تحقق الدعوة وترتب الأثر عليها ولا شك أن قانون السخية يقتضي إستثناس الجنّ بالجنّ والإنس بالإنس ولازم ذلك هو أن يبعث في كلّ طائفة رسولاً منهم ليتحقق السبب فوجب أن يكون رسول الجنّ منهم وهو المطلوب.

أما المقام الثاني: وهو أن محمداً ﷺ بعث الى الجنّ والإنس.

قال الله تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا^(١).

وجه الدلالة هو أن المراد بالعبد في قوله: عَلَى عَبْدِهِ هو رسول الإسلام قطعاً كما أن المراد بالفرقان القرآن سمي به لكونه فارقاً بين الحق والباطل و المراد بالعالمين جميع أصناف الخلق كلّ صنفٍ منهم والعالم جمع لا واحد له من لفظه وقيل العالم يختص بمن يعقل وجمعه بالواو والتون وذهب أكثر المتكلمين الى أن العالم هو الجسماني المنحصر في الفلك العلوي والعنصري السفلي وكيف كان فلا شك أن الجنّ والإنس والحيوان والنبات والجماد كلّهم داخلون في العالم فالآية تدل على أن محمداً ﷺ كان نذيراً لجميعهم خرج عنهم الحيوان والنبات والجماد لكونها من غير ذوي العقول وبقي الباقي وهو الجنّ والإنس تحت الحكم فالرسول كان نذيراً لهم وكلّ نذير مبعوث من الله فثبت المطلوب.

وأما الإستدلال بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ^(٢) على أنه تعالى لم يرسل رسولاً من الجنّ قطّ بدليل أن الله اصطفي هؤلاء القوم والمراد بالاصطفاء النبوة بالإجماع ففيه.

أما أولاً: أن المراد بالاصطفاء ليس النبوة والأيلزم أن يكون آل إبراهيم وآل عمران كلّهم أنبياء وليس كذلك.

ثانياً: يلزم أن يكون مريم من الأنبياء لقوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَيْكَ وَ طَهَّرَكَ** ^(١) وليس كذلك.

ثالثاً: لا إجماع في المقام أصلاً هذا ويمكن أن يستدل على المطلوب عقلاً أيضاً وهو أنه لا شك في أن رسول الإسلام خاتم النبيين وظاهر اللفظ أنه خاتم النبيين مطلقاً بمعنى أنه لا نبي بعده الى يوم القيامة ولازم ذلك أن لا يكون بعده نبياً للجن أيضاً وإذا كان كذلك فنقول الإحتمالات في المقام ثلاثة. **أحدها:** أن يكون الجن كالأنس في زماننا هذا متشرعين بشريعة الإسلام معتقدين برسالة محمد ﷺ ونبوته.

ثانيها: أن يكونوا تابعين لغير نبي الإسلام ومتشرعين بغير شريعته.

ثالثها: أن يكونوا بلا شريعة ولا دين.

ففي الصورة الأولى ثبت المطلوب.

وفي الصورة الثانية، يلزم أن يكون لهم نبي آخر ولم يثبت ذلك بل لم يقل به أحد.

وأما القسم الثالث، فلا سبيل اليه إذ المفروض كونهم مكلفين والمكلف لا يكون كذلك فثبت وتحقق أن الجن بناء على أنهم من المكلفين حالهم حال الأنس في متابعة سيد المرسلين وخاتم النبيين وهو المطلوب والله أعلم بحقائق الأمور.

وأما قوله: **يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ** أي يتلون عليكم دلائلي وبيناتني و **يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** أي لقاء ما تستحقونه من العقاب في هذا اليوم ثم أنه تعالى أخبر عنهم بشهادتهم على أنفسهم بالإعتراف بالذنب والتقصير في العبودية والإقرار بأن الحياة الدنيا غرتهم.

في القرآن في تفسيره

جزء ٨

قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ

و لا شكَّ أَنَّ العاقل إذا قرَّ و إعترف على نفسه بالذنب يؤخذ به ففي المقام حيث أنهم أي الجنَّ والإنس شهدوا على أنفسهم بالتقصير وأنهم كانوا مغرورين في الدنيا بزینتها ولذَّتها وصار هذا سبباً لكفرهم بالأنبياء وما جاؤا به من الأحكام فلا محالة صاروا مستحقين للعذاب والعقاب لأنَّ الحجة قد تمت عليهم عقلاً ونقلاً. ففي الآية دلالة على أَنَّ الله لا يعاقب إلا بعد إرسال الرُّسل وإنزال الكتب وإقامة الحجة فإذا خالف العبد بعد ذلك إستحقَّ العقاب.

ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ تقدير الكلام، الأمر.

كذلك وعليه فموضع ذلك، رفع، على الخبر وقيل التقدير فعلناه ذلك لهذا، و أنما جازت الإشارة الى غير حاضر لأنَّ ما مضى صفة حاضرة للنفس فقام مقام ويجوز الإشارة الى هذا، الذي تقدَّم ذكره هكذا قيل وكلمة، أن، في قوله: أَنَّ لَمْ يَكُنْ هي المخففة من الثقلية والمعنى لأنه لم يكن، ومثلها، قول الشاعر: في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفي وينتعل وإذا كان الأمر على هذا المنوال فلا بدَّ فيها من إضمار الهاء لأنه لا معنى لها في الإبتداء وأنما هي بمعنى المصدر المبني على غيره والمكسورة لا تحتاج الى ذلك لأنها يصح أن تكون حرفاً من حروف الإبتداء فلا تحتاج الى إضمار، وقوله: بِظُلْمٍ في معناه قولان:

أحدهما: أَنَّهُ بظلم منه على غفلة من غير تنبيهٍ وتذكيرٍ ومثله قوله تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ^(١).

الثاني: معناه، بظلم منهم حتَّى يبعث اليهم رسلاً يجرؤنهم ويذكرونها على وجه الإستظهار في الحجة دون أن يكون ذلك واجباً لأنهم بما فعلوه من الظلم قد إستحقوا العقاب قاله الشيخ في التبيان.

قال الرّازي، في المقام، و أما قوله: **بِظُلْمٍ** فيه وجهان:

الأوّل: أن يكون المعنى و ما ربّك مهلك القرى بسبب ظلم أقدموا عليه.

الثّاني: أن يكون المراد و ما كان ربّك مهلك القرى ظلماً عليهم و هو كقوله:

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ^(١).

فعلى الوجه الأوّل: يكون الظلم فعلاً للكفّار.

على الثّاني: يكون عانداً الى فعل الله والوجه الأوّل أليق بقولنا لأنّ القول الثّاني يؤهم أنّه تعالى لو أهلكهم قبل بعثة الرّسل كان ظالماً وليس الأمر عندنا كذلك لأنّه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ولا إعتراض عليه لأحدٍ في شيء من أفعاله.

أما المعتزلة فهذا القول الثّاني مطابق لمذهبهم موافق لمعتقدهم و أما من فسّر الآية بهذا الوجه من أصحابنا فقال أنّه تعالى لو فعل ذلك لم يكن ظالماً لكنّه يكون في صورة الظّالم فوصف بكونه ظالماً مجازاً ثمّ قال و أما قوله: **وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** فليس المراد من هذه الغفلة أن يتغافل المرء عمّا يوعظه به بل معناها أنّ لا يبيّن الله لهم كيفيّة الحال و لا أن يزيل عذرهم و علّتهم انتهى موضع الحاجة.

و أنا أقول لا شك أنّ تقدير الآية، و ما ربّك مهلك أهل القرى.

و أما معنى الآية فالحقّ أنّ قوله: **أَنْ لَمْ يَكُنْ** يجري مجرى التعليل أي لأجل أنّه لم يكن الله ليهلك أهل القرى بظلم يكون منهم حتّى يبعث اليهم رسلاً ينهونهم على حججه و أن شئت قلت أنّ الله تعالى لا يؤاخذهم بغفّة قبل إتمام الحجّة عليهم و أما ما اختاره الرّازي و من تبعه من الأشاعرة فأنّما هو على مذهبهم الفاسد من القول بعدم الحسن و القبح العقليين و عليه فلا إشكال في نسبة الظلم اليه تعالى بل قال بعضهم أنّ الفعل المعبر عنه بالظلم، اذا نسب اليه تعالى يعبر عنه بالعدل و اذا نُسب الى الخلق يعبر عنه بالظلم.

بناءً على ذلك فإن في قوله تعالى:

جزء ٨

الجزء ٨

ولقائل أن يقول كيف يعقل أن الفعل الواحد يكون ظلماً وعدلاً باعتبارين وهل الاعتبار أعني به النسبة يوجب تغيير ماهية الفعل أليس القبح ذاتياً للقبیح والحسن ذاتياً للحسن وقد إتفقوا على أن الذاتي لا يتغير ولا يتبدل، وما كان كذلك فكيف قالوا فيه ما قالوا، أليس العقل حاكماً بقبح الكذب مثلاً أينما وجد بذاته، مع قطع النظر عن حرمة شرعاً فلو كان ما ذكره حقاً لصح نسبته إليه تعالى لأنه يفعل ما يريد، فإذا أراد الكذب لا إشكال فيه وإذا صدر منه الكذب كيف يعتمد على كلامه في كتابه وهكذا سائر القبائح.

والعجب أنهم لم يجوزوا الظلم والكذب وأمثالهما على الأنبياء بعد البعثة لكونه موجباً لسلب الإعتقاد ولا يقولون بذلك في حق الله تعالى ولم يعلموا أن هذا الملاك فيه تعالى أقوى منه في حق الرسول كما هو واضح لا خفاء فيه إلا على أعمى القلب الذي لا يعلم ما يقول ومحصل الكلام هو أن الظلم وغيره مما يحكم العقل السليم بقبحه لا ينسب إلى الله تعالى لأنه منزّه عن القبائح وإذا كان كذلك فإهلاك الناس بظلمهم قبل إتمام الحجة عليهم لا يساعده العقل ولا النقل واليه أشار بقوله: **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**^(١) وقوله: **وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** الواء للحال أي لا نعدّ بهم ولا نهلكهم في حال الغفلة عما بعثنا اليهم من الرسول لأنّ الحجة في حق الغافل لا معنى لها وهو معلوم.

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ

أي ولكل واحد من العاملين درجات ومنازل من عمله حتى يجزى به إن خيراً فخيراً وأن شراً فشرّاً ففي الآية دلالة على أن الله تعالى لا يضيع عمل عامل وأن الأعمال من حيث القرب والبعد إلى القبول متفاوتة وذلك لأنّ مراتب الخلوص فيها متفاوتة وفي قوله: **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** إشارة إلى أن الغفلة لا تنسب إليه تعالى.

وقد أشار الله تعالى الى هذا المعنى في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: **وَيَوْمَ أَلْقِيْمَةُ يُرْدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**^(١).

قال الله تعالى: **وَأَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**^(٢).

قال الله تعالى: **وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**^(٣).

وهكذا والسّر فيه هو أنّ الغفلة من شئون الجسم وذلك لأنّ الغفلة سهوٌ يعترى الإنسان من قلة التّحفظ والتّيقظ وهذا المعنى لا يعقل في حقّ الواجب الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ولا سهو ولا نسيان الخ.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ في الآية مسائل:

الأولى: أنّه تعالى غني عما سواه كائناً ما كان عقلاً ونقلاً.

أما العقل:

فلأنّه تعالى لو لم يكن غنياً بقولٍ مطلق لكان فقيراً لا محالة لأنّ ضدّ الغنى الفقر ولا واسطة بينهما وإذا كان فقيراً فهو محتاج وكلّ محتاج ممكن الوجود والمفروض أنّه واجب الوجود.

ثانياً: أنّ الغنى كمال والفقر نقص والواجب منزّه عن النّقص.

أما التّقل:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**^(٤).

قال الله تعالى: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ^(٢).

الثانية: أنه تعالى ذو الرحمة.

إعلم أن الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وأخرى في الإحسان المجرد عنها نحو رحم الله فلاناً، وصف به البارئ فلا يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ومن الأدميين رقة وتعطف فركز الله في طبائع الناس الرقة وتفرّد بالإحسان اذا عرفت هذا فقله:

والرحمة معناه ذو الإحسان إلى خلقه وأي إحسان أحسن من خلقهم وإنعامهم بأنواع النعم والدليل عليه من العقل هو أن الرحمة صفة كمال تعالى جامع لجميع الكمالات وحيث أن ضد الكمال نقص فهو لا يتصف به لأن النقص من شئون الممكن المخلوق فثبت أنه ذو الرحمة وهو المطلوب.

وأما النقل:

قال الله تعالى: فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٣).

قال الله تعالى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا^(٤).

قال الله تعالى: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا^(٥).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ^(٦).

قال الله تعالى: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ^(٧) والآيات كثيرة جداً.

٢- محمد = ٣٨

٤- فاطر = ٢

٦- الحجر = ٥٦

١- آل عمران = ١٨١

٣- الزوم = ٥٠

٥- غافر = ٧

٧- الكهف = ٥٨

إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ

فالمقصود أنه تعالى قادرٌ عليكم فكما أنه خلقكم بالقدرة، يقدر على افنائكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء لأنَّ حكم الأمثال واحد فكما أنه تعالى خلقكم كذلك يميّتكم وكذلك يخلق بعدكم قوماً آخرين و الى هذا المعنى أشار بقوله كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين، والكاف في كَمَا في موضع نصب وتقديره ويستخلف من بعدكم ما يشاء مثل ما إستخلفكم وفي ذلك دلالة على أنه تصح القدرة على ما علم أنه لا يكون لأنه بيّن أنه لو شاء لذهب بهم وأتى بقوم آخرين ولم يفعل ذلك فدّل ذلك على أنه يقدر على ما يعلم أنه لا يفعله هكذا قيل والحق أن الآية لا تدل على أكثر ممّا ذكرناه وهو أنه قادر على كلّ شيء لأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون وكيف كان فكلمة من، في قوله: وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ للبدل من ذرية قوم.

وفي قوله: قَوْمٍ آخَرِينَ لإبتداء الغاية لأنَّ التقدير إبتداء غايتكم من قوم آخرين، وفي قوله: أَنْشَأَكُمْ إشارة الى أنه تعالى خلقكم إبتداءً وذلك لأنَّ كلّ من إبتدأ شيئاً فقد أنشأه والى هذا أشار الله بقوله: ولقد علمتم النشأة الأولى يعني إبتداء الخلق والنشأة الأخرى الخلق الثاني للبعث يوم القيامة أعادنا الله منه. **إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** ما في قوله: **إِنَّ مَا** بمعنى الذي والمعنى أن الذي توعدون من عقابه على معاصيه والكفر به، فهو واقع قطعاً وعليه فاللام في قوله: **لَأَتِي** لام الإبتداء وهى في موضع نصب ولا يجوز أن تكون لام القسم لأنها لا تدخل على الأسماء ولا الأفعال المضارعة إلا أن تكون معها التّون الثّقيلة، ومعنى، توعدون، من الإيعاد بالعقاب أو من مجيئ الساعة.

وقيل المعنى، أن ما توعدون من الثّواب والعقاب وعليه فقوله: **تُوْعَدُونَ** ليس من الإيعاد بل من الوعد لإختلاط الخير والشر فيكون على التغليب اذ مجيئ الساعة خير للمؤمنين و شرٌ على الكافرين.

وقوله: **يُمُعِزِينَ** أي لستم بمعجزين الله عن الإتيان بالبعث والعقاب قالوا لأن عابد الوثن يتوهم أنه ينفعه في صرف المكروه عنه جهلاً منه وكيف كان ففي الآية دلالة على أن الله صادق الوعد والإيعاد وقادر على ما يشاء ولا يقدر أحد على منعه عما أَرَادَهُ وهو كذلك لعموم قدرته.

قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

قرأ أبو بكر مكاناتكم على الجمع والباقون على التوحيد وقرأ حمزة و الكسائي يكون بالياء والباقون بالتاء المعجمة من فوق، فمن قرأ بالياء قال أن المصدر المؤنث يجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ومن قرأ بالتاء فعلى اللفظ،، ومن قرأ مكانتكم، فلاّته مصدر والمصادر في الأكثر لا تجمع ومن جمع فلاّتها قد تجمع ققولهم، الحلوم والأحلام. وقال أبو عبيدة، مكانتكم، أي على حيالكم.

وقال بعضهم المكانة المنزلة أي إعملوا على حيالكم، أو على قدر منزلتكم وتمكنكم من الدنيا فأتكم لن تضرونا بذلك شيئاً، فمعنى الآية قل يا محمد لقومك أن يعملوا على مكانتهم أي على طريقتهم أو ناحيتهم أو حالتهم وقوله: **إِنِّي عَامِلٌ** فهو إخبار من الرسول أنه عامل بما أمر الله تعالى به لأن الرسول أيضاً مكلف بالتكاليف الشرعية كغيره من الناس ومع ذلك ففيه إشارة الى أن الأمر بالتكليف والعمل ينبغي أن يكون عاملاً بما يأمر به غيره والرسول أيضاً لا يستثنى منه وقوله: **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** فيه تهديد أي سوف تعلمون جزاء أعمالكم إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً والى هذا المعنى أشار بقوله: **مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ** الآية فأن كلمة من، بمعنى الذي وموضعها النصب بقوله: يعملون.

وقيل الرفع وتقديره أينما يكون له عاقبة الدار ومن المعلوم أنّ العاقبة للمتقين وذلك لأنّ الظالم لا يفلح بل يصير الى العقاب المؤبد كما أنّ المؤمن يصير الى النعيم الدائم وأما خصّ عدم الفوز والفلاح بالظالم دون الكافر لأنّه أعمّ وأكثر فائدة ولأنّه اذا لم يفلح الظالم فالكافر بذلك أولى على أنّ الكافر يسمّى ظالماً كما قال تعالى: **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ^(١).

واعلم أنّ، من، في قوله: مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ يمكن أن يكون إسم إستفهام وخبره تكون والفعل معلق والجملة موضع المفعول أن كان، يعلمون، معدّى الى واحد وفي موضع المفعولين أن كان يتعدّى الى مفعولين، وقوله: **عَاقِبَةُ الدَّارِ** أي مآلها وما تنتهي اليه الدار والظاهر أنّ المراد بها دار الآخرة ولا يبعد أن يكون المراد بها الدنيا وعلى أيّ حال ففي قوله فسوف تعلمون، من التهديد والوعيد ما لا يخفى والى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

إذا ما إلتقينا وإلتقى الرُّسل بيننا فسوف ترى يا عمرو ما الله صانع

قال بعض المحققين، وفي قوله: **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ** ترديد بينه وبينه **إِنَّا** وبينهم ومعلوم أنّ هذا التهديد والوعيد مختصّ بهم و أنّ عاقبة الدار الحسنی هي له ولكنه أجرى مجرى قوله فشر كما الخير كما الفداء انتهى.

أقول الترديد من المحسنات البديعية وهو كثير في كلمات البلغاء ومنه قوله تعالى: **إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ^(٢).

ومحصل الكلام في الآية هو أنّ المدار في العاقبة على العمل فقط.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ دَرَأٍ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيْبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وََمَا كَانَ
لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
(١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ
أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُزْودُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ
دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ
لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا
افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)
وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً
فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا
بَغْيٍ عَلِيمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى
اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

◀ اللغة

دَرَأٌ، الذَّرَأُ هو الخلق على وجه الإختراع وأصله الظهور والذِّرَاة ظهور
الشَّيْب.
الْحَرْثِ بفتح الحاء المهملة الأرض التي تثار للزَّرع.

الْأَنْعَامِ الْمَوَاشِي مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ مَا خُوذَ مِنْ نِعْمَةِ الْوُطِيِّ وَلَا يَقَالُ
لِذَوَاتِ الْحَافِرِ أَنْعَامٌ.

نَصِيبًا النَّصِيبِ الْحَظِّ.

بِرَّعَمِهِمْ، الرَّعْمُ بفتح الزَّاءِ الإعتقاد.

أَوْلَادِهِمْ الأولاد جمع وَلَدٍ.

لِيُرْذُوهُمْ الإِرداء الإهلاك أي لِيُهْلِكَهُمْ.

لِيَلْبَسُوا اللَّبَسَ الإِشتباه.

يَقْتَرُونَ الإِفْتِرَاءَ الإِختلاق والكذب.

حِجْرٌ بِكسر الحاء الحرام.

◀ الإعراب

مِمَّا ذَرَأَ يجوز أن يتعلّق بجعل وأن يكون حالاً من نصيب ومن الْحَرْثِ
متعلّق بذراً وقيل حال من، ما، أو من العائد المحذوف وَكَذَلِكَ زَيْنٌ يقرأ
بفتح الزَّاءِ والياء على تسمية الفاعل وهو شركائهم، والمفعول، قَتَلَ وهو
مصدر مضاف الى المفعول ويقرأ بضمّ الزَّاءِ وكسر الياء على ما لم يسم فاعله و
هو الأشهر و عليه فقوله، قَتَلَ، بالرفع على أنّه القائم مقام الفاعل وأولادهم
بالنصب على أنّه مفعول القَتْلِ شَرَكَايَهُمْ بالجَرِّ على الإضافة وقد فصل بينهما
بالمفعول وَلِيَلْبَسُوا بِكسر الباء من لبست الأمر بفتح الباء إذا شَبَّهَتْهُ لَا يَطْعَمُهَا
في موضع رفع كالذي قبله حِجْرٌ الجمهور على كسر الحاء و سكون الجيم وقد
يقرأ بضمّها و ضمّ الحاء و سكون الجيم، بِرَّعَمِهِمْ متعلّق بقَالُوا أَفْتَرَاءً منصوب
على المصدر وقيل هو مفعول لأجله فأن نصبت على المصدر كان قوله عَلَيْهِ
متعلّقاً بقَالُوا لا بنفس المصدر وأن جعلته مفعولاً من أجله علقته بنفس
المصدر ويجوز أن يتعلّق بمحذوف على أن يكون صفة لإفتراء ما في بَطُونِ
ما، بمعنى الَّذِي في موضع رفع بالإبتداء و خَالِصَةً خبره وَأَنْتَ على المعنى

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

لأنَّ ما في البطون أنعام ولذَّ كُورُنا متعلِّقٌ بخالصةٍ أو بمحذوفٍ على أن يكون صفة لخالصةٍ ومُحرَّمٌ جاء على التذكير حملاً على لفظ ما يَكُنْ مِثَّةً بالتاء ونصب مِيتة أي أن تكن الأنعام مِيتة وبالياء حملاً على لفظ، ما، وقيل بالتاء ورفع مِيتة على أن كان، هي التامة سَفَّهاً مفعول له أو على المصدر لفعلٍ محذوف.

﴿التفسير﴾

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ
وهذا لِشُرَكَائِنَا

أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم جعلوا ممَّا خلق الله من الحرث والأنعام نصيباً ولشركائهم أيضاً كذلك فقالوا هذا لله لشركائنا وأما فعلوا ذلك تقريباً اليهما قيل أنَّ العرب كانت تجعل من غلاتها وزروعها وأثمارها وأنعامها، جزءً تسميه لله وجزءً تسميه لأصنامها وكانت عاداتها تبالغ وتجتهد في إخراج نصيب الأصنام أكثر منها في نصيب الله اذ كانوا يعتقدون أنَّ الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله فكانوا اذا جمعوا الزرع فهبَّت الرِّيح فحملت من الذي لشركائهم تركوه ولم يردُّوه الى نصيب الله ويفعلون عكس هذا واذا تفجر من سقى ما جعلوه لله في نصيب شركائهم تركوه وبالعكس سدُّوه واذا لم ينجح شيء من نصيب ألتهتهم جعلوا نصيب الله لها وكذا في الأنعام واذا أجدبوا أكلوا نصيب الله وتركوا نصيبها وفي هذا الكلام دلالة على أنَّ مشركي العرب مضافاً الى إنكارهم البعث كانوا جهالاً ضعفاء العقول ويدلُّ على ذلك تقسيمهم الأموال كذلك اذ كيف يعقل أن يجعل لله تعالى ممَّا ذرأه و خلقه أقلَّ ممَّا جعلوه لشركائهم والمفروض أنَّ الله تعالى هو الموجد للحرث والأنعام دون أصنامهم العاجزة عن ما يحلُّ بها فضلاً عن أن تخلق شيئاً أو تنميه والى هذا أشار الله بقوله: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ أي بئس ما يحكمون فيما جعلوا ممَّا ذرأ الله سهماً للأصنام العاجزة الباطلة.

وقال صاحب الكشف كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لألتهم فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة وإذا زكى ما جعلوه للأصنام تركوه لها وإعتلوا بأن الله غني ذلك لحبهم ألتهم وإيثارهم لها، وقال في قوله: يَزَعْمُهُمْ وقرئ بالضم أي قد زعموا أنه الله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك لأنهم أشركوا بين الله وأصنامهم في القرية انتهى.

فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

والمعنى، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله أي الى الوجوه التي كانوا يصرفونه اليها من قري الضيفان والتصدق على المساكين، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم، لأنهم كانوا ينفقون ما جعلوا لله للأصنام بذبحهم النساءك عندها والإجراء على سدنيتها ونحو ذلك.

ومحصل الكلام هو أنهم لم يفوا بعهدهم فيما جعلوه لله ولم يصفوا حيث جعلوا مما ذرأ الله من الحرث والأنعام نصيباً لشركائهم أولاً.

ثانياً: أثروا ألتهم على الله وجعلوا ما لله بزعمهم لها وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم أي ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة أو ومثل ذلك التزيين البليغ الذي هو علم من الشياطين، والمعنى أن شركائهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم أي لهؤلاء المشركين قتل أولادهم بالوأد أو بنحرمهم للآلهة والمزين لقتل أولادهم هو الشركاء أي الأصنام.

قال مجاهد شركائهم شياطينهم أمروهم أن يدفنوا بناتهم أحياء خشية

و قال الكلبي شركاؤهم سدنهم و خزيتهم التي لألهمهم كانوا يزيتون لهم دفن البنات أحياء، و قيل رؤوساءهم كانوا يقتلون الأناث تكبراً و الذكور خوف الفقر.

و قال صاحب الكشاف كان الرجل يحلف في الجاهلية لئن ولد لي كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب.

أقول ما ذكروه لا بأس به و أما ما ذكره صاحب الكشاف من قوله كما حلف عبد المطلب، فهو كاشف عن عناده لأهل البيت أو لجهله بمقام سيد البطحاء و أنه كان من أولياء الله و عباده الصالحين بل ورد في الآثار عن أهل البيت عليهم السلام أن عبد المطلب كان من الأوصياء في دين المسيح عليه السلام ألا ترى أنه ما سن سنة في الجاهلية إلا و أقرها الإسلام على ما كانت مثل حصره الطواف في سبعة أشواط و جعله دية القتل في صورة الخطأ على مائة بعير و نهيه عن نكاح الأولاد أزواج الأباء و أمثال ذلك مما هو معلوم لا خفاء فيه اذا عرفت هذا فنقول:

دلت الآية على أن شركاء المشركين زين له مقتل أولادهم بناءً على القراءة المشهورة و هي بفتح الزاء بصيغة المعلوم فيكون الأولاد في موضع النصب هو مفعول به بالقتل و عليه فقوله: **شُرَكَاءُ هُمْ** فاعل الفعل و قد فصل بين الفعل و الفاعل المفعول به ثم أنهم اختلفوا في الشركاء الذين زينوا قتل الأولاد على أقوال:

منها، أن المراد بهم هم الشياطين زينوا لهم و أد البنات أحياء خوف الفقر و العار و به قال الحسن و مجاهد و السدي.

ثانيها: هم قوم كانوا يخدمون الأوثان قاله الفراء و الزجاج.

ثالثها: أنهم الغواة من الناس.

رابعها: شركاؤهم في نعمهم.

خامسها: شُرَكَاءُهُمْ في الإشراك فهذه هي الأقوال التي ذكروها في المقام فالآية نزلت في ذمّ المُشركين الذين كانوا يقتلون أولادهم لأجل متابعتهم شركاءهم من الشياطين والغواة وهكذا.

وأما عبد المطلب فلم يكن من المشركين قطعاً بل كان من الموحدين لأنه كان جدّ النبي ﷺ وقد ثبت أنّ أباء النبي ﷺ كانوا موحدين مؤمنين فهو أي عبد المطلب خارج عن الآية تخصّصاً لا تخصيصاً.

ثانياً: عبد المطلب لم يقتل ولده وأما همّ بذبحه وقته متقرباً الى الله تعالى والفرق واضح وإلا يلزم أن يكون الخليل عليه السلام أيضاً من مصاديق الآية لأنه همّ بذبح ولده إسماعيل ولا يقول به إلا معانيد ملحد.

فإن قال قائل أنّ إبراهيم الخليل كان مأموراً به من قبل الله تعالى. نقول له أنّ عبد المطلب أيضاً كان مأموراً به من قبله حيث أنّه نذر لله تعالى ذلك ومن المعلوم أنّ العمل بالنذر واجب.

ومحصّل الكلام هو أنّ قصّة عبد المطلب في ذبح ولده بعد نذره لم يكن إلاّ بداعي أمره تعالى وهو يدلّ على خلوصه وعبوديته في جميع أقواله وأفعاله وأين هذا ممّا كان المشركون يفعلونه من قتل أولادهم لأجل التّقرب الى الأصنام والشياطين.

لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وفي هذا الكلام إشارة الى علة التّزيين أي أنّهم زيّنوا لهم قتل أولادهم، ليردوهم، أي ليهلكوهم فإنّ الرّدى الهلاك و عليه فاللّام في قوله: **لِيُرَدُّوهُمْ** للعاقبة أي كانت عاقبة أمرهم الهلاكة كما قال تعالى في قصّة فرعون وموسى **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا** ^(١).

أي فالتقط آل فرعون، موسى من الماء وصارت عاقبة الالتقاط الى هلاك فرعون وقومه ففي المقام أيضاً كذلك حيث أنّ الشّركاء زيّنوا القتل وصارت

عاقبة أمرهم الى الهلاك، وقوله: **لِيَلْبِسُوا** أي ليخلطوا عليهم دينهم الذي كانوا عليه من دين إسماعيل حتى زلوا عنه الى الشرك.
وقيل دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل معناه وليوقعوهم في دين ملتبس.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ قَدَرَهُمْ وَمَا يَقْتَرُونَ قال بعض المفسرين معناه لو شاء أن يضطرهم الى تركه أو لو شاء أن يمنعه منه، لفعل ولو فعل المنع والحيلة لما فعلوه لكن ذلك ينافي التكليف ثم أمر نبيه أن يذرهم ويتركهم و يخلي بينهم وبين ما يكذبون وذلك غاية التهديد.
وقال الرازي ومن تبعه من الأشاعرة أنه يدل على أن كل ما فعله المشركون فهو بمشيئة الله تعالى.

وأما صاحب الكشف وغيره من المعتزلة حملوا المشيئة على مشيئة الإلجاء أي لو شاء الله مشيئة قسر ما فعلوه، قل كل يعمل على شاكلته ونحن نقول لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين وقد مر الكلام فيه غير مرة ثم أن الإفتراء الكذب ولا يبعد أنهم كانوا يقولون أن الله أمرهم بقتل أولادهم ولما لم يكن الأمر كذلك قال تعالى: **وَمَا يَقْتَرُونَ** وكلمة، ما، موصولة، والمعنى دعهم بحالهم كما قال تعالى: **نَزَّهُمْ فِي خُوضِهِمْ يَلْعَبُونَ**^(١) وفي هذا الكلام تهديد كما قال القائل دعني وإياه.

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ

قوله: **حِجْرٌ** بكسر الحاء معناه حرام تقول حجرت على فلان منعه منه بالتحريم **حِجْرًا مَحْجُورًا**^(٢) والمعنى أن هؤلاء الكفار قالوا هذه أنعام وذحرت يعني الأنعام والزرع الذي جعلوا لآلهتهم وأوثانهم.

و المراد بالأنعام ما جعلوه لأوثانهم كما جعلوا الحرث للنفقة عليها في خدامها وما ينوب من أمرها وقيل قرباناً للأوثان وفي قوله: بِزَعْمِهِمْ إشارة الى أنهم فعلوا ذلك بغير حجة بلا بينة ولا برهان.

وَأَنْعَامٌ حَرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

قيل المراد بالأنعام التي ذكرت ثانياً هي السائبة والبحيرة والحام وهو الفحل الذي يخلونه ويقولون، حمى ظهره.

وَأَمَّا الَّتِي ذَكَرْتَ ثَالِثاً، فَقِيلَ فِيهِ قَوْلَانِ:

أحدهما: الَّتِي إِذَا وَلَدَهَا أَوْ ذَبَحَهَا أَوْ رَكِبَهَا لَمْ يَذْكُرُوا إِسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا.

الثاني: هي الَّتِي لَا يَحْجُبُونَ عَلَيْهَا، وَقَوْلُهُ: أَفْتِرَاءٌ أَي كَذِباً، فَهُوَ مَنْصُوبٌ

على المفعول له وقيل أي يفترون إفتراءً وانتصابه لكونه مصدراً وكيف كان فقد ذكر الله تعالى نوعاً آخر من جهالتهم وذلك لأنهم حرّموا أنعاماً وحرثاً وجعلوها لأصنامهم وقالوا لا يطعمها إلا من نشاء، وهم خدام الأصنام فبين الله تعالى أن هذا تحكّم لم يرد به شرع ولهذا قال بزعمهم الى آخر الآية وحيث أن هذه التقسيمات إبتدعوها وإلتزموها من عند أنفسهم على جهة الفرية والكذب قال تعالى فيهم ما قال وحكم عليهم بأنهم إفتروا عليه إفتراءً والله بريء منه وما كان لغير الله أن يحلل أو يحرم على العباد ما لم يأذن به لأنه يوجب العقاب ولذلك قال: سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ يوم القيامة بسبب هذا الإفتراء القبيح وهكذا حال بعض الناس الذين يحلون ويحرمون على أنفسهم وعلى الناس بأهوائهم أو تقليد بعض المصنفين من أوليائهم والمتحلين لمذاهبهم وهم يجهلون على إدعائهم للعلم والدين أنهم يتبعون بذلك المشركين.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا

هذا قسم آخر من جهالاتهم وخرافاتهم من أحكامهم السخيفة التي ابتدعوها من عند أنفسهم من التحليل والتحرير فقالوا: ما في بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ من اللبن وغيره وقال صاحب الكشف كانوا يفترون في أجنة البحائر والسواذب ما ولد منها حياً فهو خالص لذكورنا ولا تأكل منه الإناث وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث قال بعض المفسرين أن المراد بما في بطونها، هو الأجنة، وأما اللبن فهو في الضرع لا في البطن إلا بمجازٍ لعبيد.

وقال الطبري اللفظ يعم الأجنة واللبن، والحق أن المراد به الجميع إذ لا دليل على التخصيص وما قيل أن اللبن في الضرع لا في البطن فيه أن البطون يقابل الظهور، ومعناه ما ليس بظاهر سواء كان في الضرع أم في البطن فأن ما في الضرع يطلق عليه البطن لعدم ظهوره ثم أنهم قالوا أن المراد بالأزواج مطلق الإناث فيشتمل البنات أيضاً، قال في التبيان وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا الإناث وبناتهم وقال بعضهم أنه يختص بالزوجات والأولى عموم النساء تفضيلاً للذكور على الإناث انتهى كلامه.

أقول لا نعلم وجه العموم وذلك لأن الأزواج لا تطلق على البنات والآية مصرية بتحريم ما في بطون الأنعام على الأزواج وهو ظاهر لا خفاء فيه ولو كان الأمر كما ذكره لقال تعالى على أزواجنا وبناتنا وحيث لم يقل ذلك فالتحريم مختص بالأزواج.

وأما قوله: خَالِصَةٌ فَقِيلَ أَنَّ النَّاءَ فِيهَا لِلْمَبَالِغَةِ، كَالْعَلَامَةِ وَالرَّوَايَةِ.

وقال بعضهم أنها على تأنيث المصدر كالعاقبة والعافية ومنه قوله تعالى: بِخَالِصَةٍ يَذْكُرُ الذَّارِ^(١).

والقول الثالث، أنها لتأنيث ما في بطونها من الأنعام وإن يكن مَيِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ أي وأن كان جنين الأنعام ميتة فالذكور والإناث فيه سواء، وقوله: مَيِّتَةً قرينه على أن المراد بما في بطون الأنعام هو الأجنة دون اللبن وذلك لعدم صدق الميتة على اللبن سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ أي سيجزيهم الله جزاء وصفهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه و قوله: حَكِيمٌ عَلِيمٌ معناه أنه تعالى حكيم فيما يفعل بهم من العقاب آجلاً وإمهالهم عاجلاً، عليمٌ، بما يفعلون لا يخفى عليه شيء منها، وقد ذمهم الله في الآية من وجوه.

أحدهما: ذبحهم الأنعام بغير إذن الله.

ثانيها: أكلهم الأنعام على إدعاء التذكية إفتراءً على الله.

ثالثها: تحليلهم للذكور وتحريمهم على الإناث على خلاف حكم الله.

رابعها: تسويتهم بينهم في الميتة من عند أنفسهم من غير رجوع الى سمع موثوق.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

قرأ ابن كثير وابن عامر، قَتَلُوا بتشديد التاء والباقون بالتخفيف.

إعلم أن هذه الآية نزلت في أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السباء والفاقة روي الطبري بأسناده عن قتادة أنه قال في هذه الآية، هذا صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة ويغذوا كلبه وقد ذكر في المقام أموراً.

أحدهما: أنه تعالى حكَمَ عليهم بالخسران.

قال الراغب في المفردات الخسر والخسران إنتقاص رأس المال ويُنسب ذلك الى الإنسان فيقال خسر فلان، و الى الفعل فيقال خسرت تجارتك و

يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر وفي المقتنيات النفيسة كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب انتهى.
إذا عرفت هذا فنقول، قد حكم الله تعالى عليهم بالخسران في الدنيا والآخرة.

أما الخسران في الدنيا لأنهم قتلوا أولادهم وحرّموا على أنفسهم ما رزقهم الله وأحلّ لهم من النعم وذلك لأنّ المال والبنون زينة الحياة الدنيا فمن حرم منهما فقد خسر فيها خسراناً مبيناً.
وأما الخسران في الآخرة فلاّهم إفتروا على الله وبذلك قد ضلّوا وما كانوا مهتدين وهذا هو الخسران في الآخرة.

قال الله تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ^(١).

قال الله تعالى: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ^(٢).

قال الله تعالى: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٣).

قال الله تعالى: خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ^(٤) والآيات كثيرة. وأعلم أنّ قوله: سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ نصب على أنّه مفعول له ويجوز النصب على المصدر وتقديره سفهوا بما فعلوه سفهاً خوفاً من الفقر وهرباً من العار والسّفه خفة الحلم بالعجلة الى ما لا ينبغي أن يعجل اليه وأصله الخفة وضدّ السّفيه الحليم، والخسران في الأصل هلاك رأس المال.



وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ
 مَعْرُوشَاتٍ وَالتَّخْلُ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَ
 الزَّيْتُونَ وَالرُّثْمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا
 مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا
 تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنْ
 الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِنْهَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ
 لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ
 (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ
 الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا
 أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ
 الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا
 أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ
 إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا
 أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ
 يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ
 رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ
 غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَ
 عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ
 الْبَقَرِ وَالْأَنْعَامِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا

حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ
بِعَظْمِ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

◀ اللغة

أَنشَأَ الإنسان إِبْجَادَ الشَّيْءِ وَتَرْتِيبَهُ وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانِ قَالَهُ الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ.

جَنَاتٍ بَفَتْحِ الْجِيمِ جَمْعُ جَنَّةٍ، وَ الْجَنَّةُ كُلُّ بَسْتَانٍ ذِي شَجَرٍ يَسْتَتِرُ بِأَشْجَارِهِ الْأَرْضِ.

مَعْرُوشَاتِ الْعَرْشِ بَفَتْحِ الْعَيْنِ فِي الْأَصْلِ شَيْءٌ مَسْقُوفٌ وَجَمْعُهُ عُرُوشٌ يُقَالُ لِذَلِكَ الْمَعْرُشِ.

حَصَادِهِ بَفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسَرِهَا لِفَتَانٍ وَ الْحَصْدُ فِي الْأَصْلِ قَطْعُ الزَّرْعِ.
وَلَا تُسْرِفُوا السَّرْفَ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي كُلِّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ وَأَنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْإِنْفَاقِ أَشْهَرُ.

حَمُولَةً بَفَتْحِ الْحَاءِ وَضَمِّ الْمِيمِ قِيلَ هِيَ كُلُّ مَا حَمَلَ مِنَ الْأَبْلِ وَالْبَقَرِ وَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَقِيلَ مَا حَمَلَ مِنَ الْبَقَرِ وَالْأَبْلِ فَقَطْ وَقِيلَ هِيَ كِبَارُ الْأَبْلِ.

وَفَرَشًا الْفَرَشَ الْغَنَمِ وَقِيلَ الصَّغَارُ مِنَ الْأَبْلِ أَلْصَّانُ الْغَنَمِ ذَوَاتُ الْأَصْوَافِ وَالْأَوْبَارِ.

وَأَلْمَعَزٍ بَفَتْحِ الْمِيمِ وَ سَكُونِ الْعَيْنِ وَالرَّاءِ، الْغَنَمُ ذَوَاتُ الْأَشْعَارِ وَالْأَذْنَابِ الْقِصَارِ.

أَلْصَّانٍ بِالْفَارَسِيَّةِ، «مِيش» وَالْمَعَزُ «بَز»، وَالْمَرَادُ بِهَا جِنْسُهُمَا فَيَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى.

مَسْفُوحًا أَي مَصْبُوبًا يَقَالُ سَفَحَتِ الدَّمُ إِذَا صَبَبَتْهُ وَمِنْهُ السَّفَاحُ الزَّنَاءُ،
لَصَّبَ الْمَاءُ وَالصَّبُّ الْإِرَاقَةُ.
ظَفَّرَ أَي ذُو مَخَالِبٍ، وَقِيلَ أَنَّهُ كُلُّ مَا لَيْسَ بِمَنْفَرَجِ الْأَصَابِعِ كَالْأَبْلِ وَالنَّعَامِ.

◀ الإعراب

مُخْتَلِفًا حَالٍ مَقْدَرَةً لِأَنَّ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ وَقْتَ خُرُوجِهِ لَا أَكَلَ فِيهِ حَتَّى يَكُونَ
مُخْتَلِفًا أَوْ مُتَّفَقًا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ حَذْفُ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ ثَمَرُ النَّخْلِ وَ
حَبُّ الزَّرْعِ وَعَلَيْهِ فَتَكُونُ الْحَالُ مَقَارَنَةً مُثَابَهًا حَالٍ أَيْضًا حَمُولَةً وَفَرَشًا
مَعْطُوفٍ عَلَى جَنَاتٍ أَي وَأَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً ثَمَانِيَةً أَزْوَاجٍ فِي نَصْبِهِ وَجَوْه:
أَحَدُهَا: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى جَنَاتٍ أَي وَأَنْشَأَ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ وَحَذْفُ الْفِعْلِ وَ
حَرْفِ الْعَطْفِ وَهُوَ ضَعِيفٌ.

الثَّانِي: أَنَّ تَقْدِيرَهُ كَلَوْا ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ.

الثَّالِثُ: هُوَ مَنْصُوبٌ بِكَلَوْا تَقْدِيرَهُ كَلَوْا مِمَّا رَزَقَكُمْ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ.

الرَّابِعُ: أَنَّ بَدَلَ مِنْ حَمُولَةٍ وَفَرَشًا.

الخَامِسُ: أَنَّهُ حَالُ تَقْدِيرِهِ مُخْتَلِفَةٌ أَوْ مُتَعَدِّدَةٌ.

مِنْ الضَّائِنِ بِسُكُونِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِهَا لُغَتَانِ وَاثْنَيْنِ بَدَلَ مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَالْمَعْرِزُ
بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَسُكُونِهَا لُغَتَانِ أَلَدَّ كَرَبْنٍ مَنْصُوبٌ وَالْعَامِلُ فِيهِ، حَرَمٌ وَكَذَلِكَ أُمُّ
الْأَثْنَيْنِ أَي أُمُّ حَرَمِ الْأَثْنَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ أُمِّ مَنْقُطَةٍ أَي بَلْ أَكُنْتُمْ إِذْ
مَعْمُولُ شُهَدَاءَ يَطْعُمُهُ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ صِفَةَ لَطَاعِمٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ إِسْتِثْنَاءً مِنْ
الْجِنْسِ وَمَوْضِعُهُ نَصَبٌ أَوْ فِسْقًا عَطَفَ عَلَى لَحْمِ الْخَزِيرِ ذِي ظَفَرِ الْجَمْهُورِ
عَلَى ضَمِّ الظَّاءِ وَالْفَاءِ وَيُقْرَأُ بِاسْكَانِ الْفَاءِ وَيُقْرَأُ بِكَسْرِ الظَّاءِ وَالْإِسْكَانِ وَمِنْ الْبَقَرِ
مَعْطُوفٌ عَلَى كُلِّ أَوْ الْحَوَايَا فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ عَطْفًا عَلَى، مَا، قِيلَ هُوَ مَعْطُوفٌ
عَلَى الشَّحُومِ فَتَكُونُ مُحَرَّمَةً أَيْضًا ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ وَالْعَامِلُ، جَزِينَاهُمْ، وَ
قِيلَ مُبْتَدَأٌ، تَقْدِيرُهُ جَزِينَاهُمُوهُ، وَقِيلَ هُوَ خَبَرُ الْمَحْذُوفِ أَي الْأَمْرُ ذَلِكَ.

﴿التفسير﴾

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلَفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّثْمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا مَضَى مِنَ الْآيَاتِ غَيْرَ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ أَنَّهُمْ ابْتَدَعُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَإِفْتَرَوْا بِهِ عَلَى اللَّهِ أَيْ نَسَبُوهُ إِلَيْهِ وَشَرَعُوا مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ فِيهِ عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ لَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ لَا غَيْرَهُ فَلَا يَجُوزُ إِضَافَةُ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهَا وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لَهَا فَتَحْلِيلُهَا وَتَحْرِيمُهَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَقَالَ، هُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ، أَيْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ ابْتِدَاءً لَا عَلَى مِثَالٍ سَبَقَ، وَهُوَ كَالْإِبْتِدَاعِ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَوْجَدَ الْبَسَاتِينَ الَّتِي يَحْفَهَا الشَّجَرُ مِنَ النَّخْلِ وَغَيْرِهِ.

وَإِخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ: مَعْرُوشَاتٍ عَلَى قَوْلَيْنِ:

أحدهما: مَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيِّ وَهُوَ أَنَّ الْمَعْرُوشَاتِ مَا عَرَّشَ النَّاسُ مِنَ الْكُرُومِ وَنَحْوِهَا وَهُوَ رَفَعَ بَعْضَ أَغْصَانِهَا عَلَى بَعْضٍ، وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ مَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ فِي الْبَرَارِيِّ وَالْجِبَالِ.

الثاني: قَالَ أَبُو عَلِيٍّ، يَعْرِشُهُ أَيْ يَرْفَعُ لَهُ خَطَائِرُ كَالْحَائِطِ وَأَصْلُهُ الرِّفْعُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا^(١) يَعْنِي عَلَى أَعَالِيهَا وَمَا إِرْتَفَعَ مِنْهَا لَمْ يَنْدِكْ فَيَسْتَوِي بِالْأَرْضِ وَمِنْهُ الْعَرْشُ لِلْسَّرِيرِ لِإِرْتِفَاعِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مَعْنَاهُ وَأَنشَأَ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ بِحَكْمِ الْعَطْفِ مُخْتَلَفًا، أَكْلُهُ، أَيْ طَعْمُهُ وَأَتَمَّا نَصَبَ مُخْتَلَفًا عَلَى الْحَالِ وَالْمَفْرُوضِ أَنَّهُ يُوَكَّلُ

بعد ذلك بزمانٍ لأنَّ المعنى ثمره الذي يصلح أن يؤكل منه أو أنه من قبيل قولهم مررت برجلٍ معه صقر صائداً به غداً أي مقدراً الصَّيد به غداً، والزيتون والرُّمان أي أنشاهما أيضاً، متشابهاً وغير متشابهه معناه متماثلاً وغير متماثلي أو متشابهاً في النظر وغير متشابهه في الطَّعم بل الطَّعم مختلف هكذا قيل و قوله: **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ** قالوا الأمر للإباحة وقيل أنَّ المراد جواز الأكل من ثمره وإن كان فيه حقٌّ للفقراء والى ذلك أشار بقوله: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** أي الزَّكاة العشر أو نصف العشر وقيل المراد بالحقَّ ما ينشر ممَّا يعطي المساكين قال في التَّبيان بعد نقله ذلك وروي أصحابنا أنَّه الضَّغث بعد الضَّغث والحفنة بعد الحفنة وقيل أنَّ الآية منسوخة بفرض العشر ونصف العشر قالوا لأنَّ الزَّكاة يوم الحصاد.

ثانياً: أنَّ الآية مكِّيَّة وفرض الزَّكاة نزل بالمدينة.

ثالثاً: لما روي بأنَّ فرض الزَّكاة نسخ كلَّ صدقة، قالوا الطَّبري في تفسيره اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم هذا أمرٌ من الله بإيتاء الصدقة المفروضة من الثَّمَر والحَب ثمَّ روي بأسناده عن الحسن في قوله تعالى: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال الزَّكاة وبأسناده عن أنس بن مالك يقول وأتوا حَقَّهُ يوم حصاده، قال الزَّكاة المفروضة، بأسناده عن ابن عبَّاس في قوله: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال العشر ونصف العشر وبأسناده عن ابن عبَّاس عن أبيه قال وأتوا حَقَّهُ يوم حصاده قال الزَّكاة.

وبأسناده عن ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله: **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ** **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال كل منه وإذا حصدته فَات حَقَّهُ وحَقَّهُ عشوره. وبأسناده عن عطاء في قوله: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال القبضه من الطَّعام وأمثال ذلك ممَّا ذكره في تفسيره.

وقال الرَّاзи في تفسير قوله: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** ثلاثة أقوال:

الأول: قال ابن عباس في رواية عطاء يريد به العشر فيما سقت السماء و نصف العشر فيما سقي بالدواليب.

القول الثاني: أن هذا حق في المال سوى الزكاة.

القول الثالث: أن هذا كان قبل وجوب الزكاة فلما فرضت الزكاة نسخ و هذا قول سعيد بن جبير والأصح قول الأول والدليل عليه أن قوله تعالى: **وَأَتُوا حَقَّهُ** أنما يحسن ذكره لو كان ذلك الحق معلوماً قبل ورود هذه الآية لئلا تبقى هذه الآية مُجملة و قد قال **عليه السلام** ليس في المال حق سوى الزكاة فوجب أن يكون المراد بهذا الحق حق الزكاة.

ثم قال البحث الثالث قوله تعالى: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** بعد ذكر الأنواع الخمسة و هو العنب و النخل و الزرع و الزيتون و الزمان، يدل على وجوب الزكاة في الكل و هذا يقتضي وجوب الزكاة في الثمار كما كان يقوله أبو حنيفة إلى آخر ما قال انتهى.

أقول ما ذكره لا يرجع إلى مُحصل و بهذه الإستحسانات والتخريجات العقلية أو العرفية لا يمكن الحكم بوجوب شيء أو تحريمه فإن الحكم بالوجوب يحتاج إلى النص و حيث أن قوله: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** مجمل من هذه الجهة فلا بد لنا في تفسيره من الرجوع إلى أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً و جعلهم الرسل **ﷺ** عدلاً للكتاب حيث قال: **إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي**.

فنقول في تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد الله **عليه السلام** عن أبيه عن النبي **ﷺ** أنه كان يكره أن يصرم النخل بالليل و أن يحصد الزرع بالليل لأن الله يقول: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قيل يا نبي الله و ما حقه قال **ﷺ** ناول منه المسكين و السائل انتهى.

و عن أبي بصير عن أبي عبد الله **عليه السلام** في قوله: **وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**

فسمّاهُ الله حقّاً قلت وما حقّه يوم حصاده قال عليه السلام الصّغت و تناوله من حضرك من أهل الخاصّة انتهى.

و عن أبي الجارود قال قال أبو جعفر عليه السلام وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ الصّغت تناوله من المكان بعد المكان تعطي المسكين انتهى.

و عن عليّ ابن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: وَ أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ حصاده قال عليه السلام هذا من الصّدقة تعطي المسكين القبضه بعد القبضه و من الجذاذ الحفنة بعد الحفنة حتّى يفرع و يعطي الحارث أجراً معلوماً فيترك من النخل معافاة و أم جعرور و يترك للحارسين الخبر انتهى.

و بالأسناد عن أبي عبد الله قال لا تصرم بالليل و لا تحصد بالليل و لا تضح بالليل و لا تبذر بالليل فأنتك أن تفعل لم يأتك القانع و المعتر الذي يمرّ بك فيسألك و أن حصدت بالليل لم يأتك بالسؤال و هو قول الله عزّ وجلّ: وَ أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ عند الحصاد يعني القبضه بعد القبضه إذا حصدته فإذا خرج فالحفنة بعد الحفنة و كذلك عند الصرام و كذلك البذر لا تبذر بالليل لأنك تعطي في البذر كما تعطي في الحصاد انتهى.

و لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ السّرّف تجاوز الحدّ في كلّ فعل يفعله الإنسان و أن كان ذلك في الإنفاق أشهر و عليه فالمعنى لا تجاوزوا الحدّ في الإنفاق.

فقد روي عن ابن أبي نصر عن أبي الحسن عليه السلام قال سأله عن قول الله: وَ أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ و لا تسرفوا قال عليه السلام كان أبي يقول من الإسراف في الحصاد و الجذاذ أن يتصدّق الرّجل بكفّيه جميعاً و كان أبي إذا حضر شيئاً من هذا فرأى أحداً من غلمانته تصدّق بكفّيه صاح به إعط بيدي واحدة، القبضه و الصّغت من السّنبل انتهى.

و عن عليّ ابن إبراهيم بأسناده عن هشام بن المثنى قال سأل رجل أبا عبد الله عن قول الله عزّ وجلّ: **وَ اتُّوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** فقال **عليه السلام**: كان فلان بن فلان الأنصاري سماه وكان له حرث وكان إذا أخذ يتصدق به ويبقى هو وعياله بغير شيء فجعل الله عزّ وجلّ ذلك سرفاً انتهى.

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَ قَرَشًا كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أي وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، قيل في معناه ثلاثة أقوال.

أحدها: أن المراد بالحمولة كبار الأبل وبالفرش صغارها و عليه فالمعنى هو الذي أنشأ لكم من الأنعام كبار الأبل وصغارها.

الثاني: أن المراد من الحمولة ما حمل من الأبل والبقر ومن الفرش الغنم.

الثالث: أن الحمولة كلّ ما حمل من الأبل والبقر والخيل والبغال والحمير و الفرش الغنم.

أقول لا يظهر المعنى إلا بعد معرفة الحمولة و الفرش، فنقول، الحمولة بضم الحاء.

هي الأحمال وهي الحمول قالوا لا واحد لها من لفظها كالركوبة و الجزورة وكيف كانت هي ما حمل عليه من الأبل والبقر والخيل والبغال والحمير وإن شئت قلت كلّ حيوان يحمل عليه و قال بعضهم كلّ ما كان معدّاً للحمل أو الحيوانات ممّا يحمل الأثقال، وأمّا الفرش فهو من الحيوان ما يفرش للذّبح أو ينسخ من وبره و صوفه و شعره للفرش كالأغنام و عليه فقوله: **وَ قَرَشًا** من قبيل ذكر المسبّب وإرادة السبب لأنّ الغنم سبب للفرش.

وأمّا إذا قلنا أنّ المراد به ما يفرش للذّبح فالإستعمال حقيقة كما لا يخفى إذا عرفت هذا فقوله: **قَرَشًا** ليس المراد به صغار الأبل كما ذهب اليه بعض

المفسرين وعلى ما ذكرناه فمعنى الكلام هو أن الله تعالى أنشأ لكم من الأنعام ما يحمل أثقالكم ويصلح للركوب، وما يكون سبباً ووسيلة للفرش بصوفه ووبره جلده وقال الرّاعب في المفردات، الفرش ما يفرش من الأنعام، أي يركب قال تعالى: **حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ** وعليه فالمعنى ومن الأنعام ما يحمل عليه وما يركب، ولقائل أن يقول كل حيوان يحمل عليه يصلح للركوب أيضاً فلا وجه لذكر الفرش بعد الحمولة والحق ما ذكرناه **كُلُّوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ** الأمر للإباحة أي يباح لكم الأكل مما رزقكم الله فلا تحرّموا شيئاً على أنفسكم من عند أنفسكم **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ** خطوات، بضم الخاء والطاء، وضمّ الخاء وسكون الطاء وضمّ الخاء وفتح الطاء جمع خطوة وهى ما يتخطى به، والمعنى لا تتبعوا ما يتخطى بكم الشيطان اليه من تحليل الى تحريم تحريم الى تحليل وذلك ولأنه أي الشيطان **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ومتابعة العدو دليل على حماقة التّابع وهو واضح.

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمَ الْإِثْنَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ

قرأ ابن كثير وبعض من تبعه، المَعز، بفتح العين والباءون بسكونها وهو الأشهر وكذلك الكلام في الضّأن فمنهم من قال بسكون الهمزة ومنهم من قال بفتحها ويقال ضئين أيضاً وكلاهما إسم جمع لضانة وضائن ولذلك قال أبو علي من قرأ المَعز بفتح العين أراد الجمع بدلالة قوله: **مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ** ولو كان واحداً لم يسغ فيه هذا، ثم أنّ نصب إثنين على تقدير، وأنشأ ثمانية أزواج، وأنشأ من الضّان إثنين ومن المعز إثنين، قالوا ينظر معز جمع ماعز، خدام جمع خادم وطلب جمع طالب وحرس جمع حارس وقيل هو جمع على غير واحد وقوله ثمانية أزواج يريد ثمانية أفراد لأنّ كلّ واحد من ذلك يسمّى زوجاً، والأثنى زوج قالوا سمّي بذلك لأنّه لا يكون زوج وإلاّ معه آخر له مثل إسمه فلما دلّ على الإثنين من أقرب الوجوه وقع على طريقه قال لبيد:

في القرآن
في قوله
المعز
الضأن

جزء ٨

الجدد
السنة

من كلّ محفوفٍ يظّل عَصِيهَ زوج عليه كَلّة وقرامها
وقوله: **مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ** يعني ذكر وأنثى، فالضّان الغنم ذوات الأصواف
والأوبار، والمعز الغنم ذوات الأشعار والأذنان القصار وواحد الضّان ضائن
والأنثى ضائنة وقيل هو الجمع لا واحد له، ثم أن المراد بقوله: **مِنَ الضَّانِّ**
اثْنَيْنِ أهلي وحشي وكذلك المعز والبقر **وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ** العرابي و
النجاتي وسيأتي الكلام فيه، قيل في وجه تخصيص هذه الثمانية أزواج، لأنها
جميع الأنعام التي كانوا يحرمون منها ما يحرفونه، وتقدير الآية هو الذي أنشأ
لكم كذا وكذا وثمانية أزواج ولأجل ذلك قالوا، ثمانية أزواج منصوب لكونها
بدلاً من حمولة وفرشاً، قال بعض المفسرين لما قام الإسلام وثبتت الأحكام
جادلوا النبي ﷺ وكان خطيب المشركين مالك بن عوف بن أبي الأحوص
الجشمي فقال بلغنا أنك تحل أشياء فقال ﷺ له أنكم قد حرّمتم.

حرّمتم أشياء على غير أصلٍ وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل و
الإنّفاع بها فمن أين جاء هذا التحريم أمن قبل الذكر أم من قبل الانثى فسكت
مالك بن عوف وتحيّر فلو علّل بالذكورة وجب أن يحرم الذكر أو بالأنوثة
فكذلك أو بإشتمال الرّحم وجب أن يحرم لإشتمالها عليهما تخصيص
التّحريم بالولد الخامس أو السّابع أو ببعض دون بعض فلا وجه له والهزمة في
قوله: **قُلْ ءَالِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ** أم **الْأُنثَيْنِ** الخ للتوبيخ الإستفهام في معنى
الإنكار، أي أجانكم التّحريم فيما حرّمتم من السّائبة والبحيرة والوصيلة و
الحام، من الذّكرين أم من الأنثيين أمّا إشتملت عليه أرحام الأنثيين، ثم قال:
تَبَيَّنُوا يَكُونُ يَعْلَمُ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** أي أخبروني به أن كنتم صادقين في
تحريمكم هذه، وإنما قال بعلم، لأنّ إخبارهم كان بالإفتراء، وهو غير مسموع
عقلاً وشرعاً.

وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالْذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا
أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ

هذا من التفصيل بعد الإجمال، وذلك لأن قوله: ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ذكر منها أربعة أزواج في الآية السابقة وهي إثنان من الضأن وإثنان من المعز، وقلنا أن المراد بالأزواج الأفراد، فبقى أربعة أزواج ذكرها بقوله: وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ فتمت الثمانية والكلام فيها الكلام فيما قبلها بلا زيادة و نقيصة ومحصل الكلام في المجموع، قل لهم يا محمد من حرم هذه الأنعام عليكم أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا أَمْ، معادلة لقوله: ءَالْذَكَرَيْنِ كما تقول أزيد قام أم عمرو.

أعلم أن طريق العلم بالأشياء منحصر في قسمين:

أحدهما: العقل.

ثانيهما: الحس.

فإذا سقط العقل والحس سقط العلم قطعاً، وحيث أن الله تعالى احتج عليهم بالعقل في أول الآية احتج عليهم بالحس والمشاهدة في هذا المقام قال لهم أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا وحيث لم يكونوا شهداء قطعاً فسقط عنهم دليل الحس والعيان كما سقط عنهم دليل العقل وبذلك سقط مذهبهم وهو المطلوب.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

يعني فمن أظلم على نفسه ممن يكذب ويفترى على الله ليضل الناس عن طريق الهدى بتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله وإضافته إليه تعالى فيقول هذا مما أحله الله وهذا مما حرمه المعلوم أن القاصد لم يقصد به إلى إضلال الناس وقوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ معناه أنه لا يعلم أنه حق أو باطل، ولا شك أنه

ظَلَمَ عَظِيمٌ وَأَيُّ ظَلَمٍ أَفْحَشُ وَأَقْبَحُ مِنْ إِضْلَالِ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَيُّ لَا يَهْدِيهِمْ إِلَى الثَّوَابِ لِأَنَّهُمْ مُسْتَحَقُّونَ لِلْعِقَابِ الدَّائِمِ بِكُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ الَّذِينَ يَقُولُونَ فِي الْأَشْيَاءِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مِنْهُ تَعَالَى مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ، وَ أَكَلِ يَأْكُلُهُ مِنْ لَحُومِ الْحَيَوَانَاتِ) إِلَّا ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءُ:

أحدها: أن يكون ميتة والمراد بها كل حيوان فارقت الحياة بغير ذكوة شرعية فيشمل جميع ما تقدم في الآية السابقة وغيرها مما مضى:

قال الله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ^(١) وقد مرّ الكلام فيها هناك.

ثانيها: الدّم إذا كان مسفوحاً والمراد بالمسفوح غير المتخلف منه باللحم والعروق ممّا يشقّ تخليصه.

ثالثها: لحم الخنزير بحرياً كان أو برياً وهو معلوم وعلى هذه الأشياء إجماع الأمة.

إن قلت هنا محرّمات كثيرة غير ما ذكر في الآية فما وجه الحصر قلت.

مقتضى سياق الآية أنّه ردٌّ على المشركين من العرب حيث حرّموا على أنفسهم أشياء لم تكن محرّمة شرعاً فالحصر إضافي وقال بعضهم أنّ هذه الآية ليست آخر الآيات نزولاً فمن الجائز أن يكون هذا في مبدأ الأمر ثمّ حرّم بعد ذلك أشياء آخر لأنّه قد يذكر تحريم الأشياء شيئاً فشيئاً توطئاً للمعكّفين على

القبول كما في تحريم الخمر و أما قوله: **فَإِنَّهُ رِجْسٌ** فهو تعليل للحكم كأنه قيل ما وجه التحريم فيها، فقال لأنها رجس، و **الرِّجْسُ** بكسر الراء الشئ القذر على أربعة أوجه:

إما من حيث الطبع، و أما من جهة العقل، و أما من جهة الشرع و أما من كل ذلك كالميتة فأنها تعاف طبعاً و عقلاً و شرعاً، و أما **الرِّجْسُ** من جهة الشرع فالخمر و الميسر و قيل أن ذلك من جهة العقل أيضاً لقوله تعالى: **وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**^(١) و كل ما يوفي إثمه على نفعه فالعقل يقضي بقبحه و الإجتنا ب عنه، و أما **الرِّجْسُ** من جهة العقل، فكا الكفر لأن الشرك بالله من أقيح الأشياء عقلاً.

قال الله تعالى: **وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ**^(٢).

قال الله تعالى: **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ**^(٣) و أمثال ذلك من الآيات. و أما **الرِّجْسُ** من حيث الطبع فهو معلوم لأن القاذورات كلها مما يستكرهه الطبع و يمكن أن يكون جميع ما ذكر في الآية من الأرجاس الشرعية و كيف كان لا شك في كون الميتة و أخواتها أرجاساً و كل ما كان كذلك فهو حرام فيقال هذا رجس، و كل رجس حرام، فهذا حرام.

أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قوله: **أَوْ فَسَقًا** عطف على قوله: **أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ** فلذلك نصب و المراد بالفسق هو ما أهل لغير الله به، يعني ما لم يذكر اسم الله عليه أو تذكر الأوثان و الأصنام و أنما سمي ما ذكر عليه اسم الوثن فسقاً لخروجه عن أمر الله هكذا

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

الجلد السابع

قالوا: فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرُ بَاغٍ وَلَا عَادٍ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ، أَيِ غَيْرِ طَالِبٍ بِأَكْلِهِ التَّلَذُّذَ، وَقِيلَ أَيِ غَيْرِ قَاصِدٍ لِتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَأَنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فِي حَقِّ الْمَضْطَرِّ.

وَمَحْضَلُ الْكَلَامِ أَنَّهُ يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ الْمَيْتَةِ وَأَخَوَاتِهَا لِلْمَضْطَرِّ إِذَا كَانَ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ لَا مَطْلَقاً وَتَوْضِيحُ الْمَقَالِ يَسْتَدْعِي التَّكَلُّمَ فِيهِ فَنَقُولُ:

المراد بالمضطر من يخاف التلف على نفسه لو لم يتناول ذلك وكذا لو خاف المرض بالترك أو عسر براءه أو خشي الضعف المؤدي إلى التخلف عن الرفقة مع ظهوره إماراة العطب أو الضعف عن الركوب المؤدي إلى خوف التلف وتفسير الإضطرار بهذا المعنى هو المشهور بين الأصحاب ويدل عليه إطلاق الآيات وعموم كثير من الروايات الدالة على أن الضرورات تبيح المحظورات وعموم ما جعل عليكم في الدين من حرج والسرعة السمحة السهلة وقيل هو خوف تلف النفس واليه ذهب الشيخ في النهاية وتبعه القاضي وابن إدريس واختاره العلامة في المختلف وكيف كان فالظاهر أنه يقتصر في هذه الحال على أقل ما تندفع به الضرورة لأنه المتيقن في الرخصة وما عداه داخل في الممنوع منه ويدل عليه بعض الأخبار.

وَأَمَّا الْبَاغِي فَقَدْ ظَهَرَ مِنَ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هُوَ الَّذِي يَخْرُجُ عَلَى الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَالَّذِي يَخْرُجُ لَطَلَبِ الصَّيْدِ لَهَواً أَوْ بَطْراً.

وَالْعَادِي هُوَ الَّذِي يَخْرُجُ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ أَوْ لَسَرْقَةٍ وَفِي حُكْمِ ذَلِكَ مَنْ خَرَجَ طَلَباً لِلْعُدَاوَةِ وَالشُّحْنَاءِ وَالْقَتْلِ وَالنَّهْبِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُ مُتَجَانِفٌ لِلْإِثْمِ وَمِثْلُ مَنْحَرَفٍ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَضْطَرِّ التَّركُ إِذَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى هَلَاكِ النَّفْسِ لِأَنَّهُ إلقاء لها بالتهلكة المنهي عنه ولما رواه في الفقيه عن الصادق عليه السلام أنه قال من إضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل شيئاً من ذلك حتى يموت فهو كافر.

قال في نوادر الحكمة لمحمد بن أحمد بن يحيى بن عمران الأشعري و يظهر من قوله تعالى: **فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرُ بَاغٍ وَلَا عَادٍ** أَنَّهُ إِذَا كَانَ بَاغٍ أَوْ عَادٍ فَلَا رُخْصَةَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ لِأَنَّ جَوَازَ الْأَكْلِ مَقِيدٌ بِالْإِضْطِرَارِ لَكِنْ لَا مُطْلَقًا بَلْ إِذَا كَانَ الْمَضْطَرُّ غَيْرُ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَقِيدَ الْإِضْطِرَارَ بِعَدَمِ الْبَغْيِ وَالْعِدَاوَةِ فَالْمَضْطَرُّ الْبَاغِي وَالْعَادِي خَارِجٌ عَنِ الْحُكْمِ فَهُوَ يَبْقَى فِي الْحُكْمِ بِعَدَمِ الرُّخْصَةِ الْمَطْلُوبِ.

ولو هلك ومات لعموم الآيات والروايات وعليه فلو أكل في هذه الحال من الميتة مثلاً كان عليه إثم الأكل مع إثم عداوته وبغيه هكذا قيل.

وقال بعض المحققين فيه نظر لمخالفته لقوله تعالى: **وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ^(١) وعموم النهي يشمل الباغي وغيره ولأن الإثم المترتب على إهلاك النفس أشد من أكل المحرم فيجب إرتكاب الأسهل وهو الأكل من الميتة **فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** حيث حكم بالرخصة ثم بالمغفرة، وإعلم أنه قد استدل قومٌ بهذه الآية على إباحة ما عدا هذه الأشياء المذكورة وهذا ليس بصحيح لأن هاهنا محرمات كثيرة كالسباع وكل ذي مخلب وغير ذلك من أصناف الحيوانات البرية والبحرية.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

أخبر الله تعالى أنه حرم على اليهود في أيام موسى كل ذي ظفر، وإختلفوا في معناه فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم أنه كل ما ليس بمنفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط.

بَابُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا

جزء ٨

الجلد
نوع

وقال أبو علي يدخل فيه جميع أنواع السباع والكلاب والسنائير وسائر ما يصطاد بظفره من الطير.

وقال البلخي هو كل ذي مخلب من الطائر وكل ذي حافر من الدواب ثم أخبر الله تعالى أنه حرّم عليهم شحوم البقر والغنم وإستثنى من ذلك أي من الشحوم ما حملت ظهورها، أي ما حملته ظهور البقر والغنم فإنه لم يحرم عليهم و أيضاً إستثنى من التحريم ما على الحوايا، وهى المباعر، وقيل نبات اللبن. وقال الجبائي الحوايا الأمعاء التي عليها الشحم من داخلها، وإستثنى منه أيضاً ما اختلط بعظم وهو على ما قيل شحم الجنب والألية لأنه على العصص ثم بين الله تعالى وجه التحريم وقال: ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ أَي أَنَا حرّمنا ذلك عليهم عقوبةً عليهم على بغْيهم، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فيما أخبرنا به من تحريم ذلك على اليهود.

قال الرّازي إختلفوا في كلّ ذي ظفر الذي حرّمه الله تعالى على اليهود و ساق الكلام.

الى أن قال، قال عبد الله بن مسلم أنه كلّ ذي مخلب من الطير وكلّ ذي حافر من الدواب ثم قال كذلك قال المفسرون وقال سمّي الحافر ظفراً على الإستعارة. ثم قال الرّازي وأمّا ما حمل الظفر على الحافر فبعيدٌ من وجهين:

الأول: أن الحافر لا يكاد يسمّى ظفراً.

الثاني: أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال أنه تعالى حرّم عليهم كلّ حيوان له حافر وذلك باطل لأن الآية تدل على أن الغنم والبقر مباحان لهم مع حصول الحافر لهما و اذا ثبت هذا فنقول:

وجب حمل الظفر على المخالب والبرائن لأن المخالب آلات الجوارح في الإصطيد والبرائن آلات السباع في الإصطيد وعلى هذا التقدير يدخل فيه أنواع السباع والكلاب والسنائير ويدخل فيه الطيور الخ التي تصطاد لأن هذه الصفة تعم هذه الأجناس اذا ثبت هذا فنقول:

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ يَفِيدُ تَخْصِيصَ هَذِهِ الْحَرَمَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأول: أَنَّ قَوْلَهُ: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كَذَا وَكَذَا يَفِيدُ الْحَصْرَ فِي اللُّغَةِ.

الثاني: أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَرَمَةُ ثَابِتَةً فِي حَقِّ الْكُلِّ لَمْ يَبْقَ لِقَوْلِهِ: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا فَائِدَةٌ فَثَبِتَ أَنَّ تَحْرِيمَ السَّبَاعِ وَذَوِي الْمَخْلَبِ مِنَ الطَّيْرِ مَخْتَصٌّ بِالْيَهُودِ فَوَجِبَ أَنْ لَا تَكُونَ مُحَرَّمَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَصَارَتْ هَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى حِلِّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَ هَذَا نَقُولُ مَا رَوَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَ كُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ وَذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ خَبَرٌ وَاحِدٌ عَلَى خِلَافِ كِتَابِ اللَّهِ فَوَجِبَ أَنْ لَا يَكُونَ مَقْبُولاً وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَقْوَى قَوْلُ مَالِكٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَنَا أَقُولُ أَمَّا أَوَّلًا فَلَا نَسْلَمُ تَخْصِيصَ ذِي الظُّفْرِ بِمَا قَالَهُ مِنَ الْحَمْلِ عَلَى الْمَخَالِبِ وَالْبَرِائِثِ لَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِخْتِلَافِ فِيهِ.

ثانياً: لَا نَسْلَمُ الْحَصْرَ الَّذِي إِدْعَاهُ، قَوْلُهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ فَائِدَةٌ، نَقُولُ فَائِدَتُهُ الْأَخْبَارُ عَنْ ثُبُوتِ التَّحْرِيمِ لَهُمْ وَهَذَا لَا يَنَافِي فِي ثُبُوتِهِ لَنَا أَيْضاً فَأَنَّ إِثْبَاتَ شَيْءٍ لَشَيْءٍ لَا يَنْفِي إِثْبَاتَهُ لِمَا عَدَاهُ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَا دَلِيلَ عَلَى الْحَصْرِ وَمَا ذَكَرَهُ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدُ إِسْتِحْسَانٍ وَهُوَ لَا يَدُلُّ عَلَى مَدْعَاهُ وَعَدَمُ الْحَصْرِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الْإِخْتِصَاصِ وَهُوَ مَعْلُومٌ.

ثالثاً: أَنَّ مَا رَوَى عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ فَقَدْ إِدْعَى الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ رَوَى مِنْ طَرِيقٍ مُتَوَاتِرَةٍ فَكَيْفَ يَقُولُ الرَّازِيُّ أَنَّهُ خَبَرٌ وَاحِدٌ.

قال القرطبي روي ذلك جماعة من الأئمة الثقات.

في
القرطبي
في
تفسيره

جزء ٨

الجلد
السادس

و العجب منه حيث إستند ما إستخرجه بوهمه و خياله الى مالك و قال على هذا التقدير يقوِّي قول مالك، والذي حَصَلَ لنا بعد التَّبَع التَّام هو خلاف قوله، فإنَّ مالكَ يعتقد عموم النَّهي عن أكل ذي نابٍ من السَّبَاع و عموم النَّهي ليس إلَّا في الحديث عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و مَنْ أراد الوقوف على أقوال العامة في هذا الباب فعليه بكتاب القرطبي و هو من أعظم المالكية.

و أمَّا على مذهبننا فلا خلاف في حرمة كلِّ ذي نابٍ من السَّبَاع و ذي مخلبٍ من الطَّيْرِ و لا نحتاج الى نقل الأقوال و الأخبار لعدم الخلاف فيه عندنا المخالف فهنيئاً له أكل الكلاب و السَّبَاع و كلِّ ما شاء ممَّا لم يذكر في الآية صريحاً و للبحث في ظواهر الكتاب مقام آخر و قد مرَّ شرطاً منه فيما مضى و سيأتي تفصيل الكلام فيه.



فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلَمْ شَهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

◀ اللغة

بَأْسُهُ، البؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكابة.
ذَاقُوا، الذوق وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقل تناوله فإن ما يكثر منه يقال له الأكل وإختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب.
تَخْرُصُونَ، الخرص الكذب وحقبة ذلك أن كل قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمين يقال له خرص سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم.
يَعْدِلُونَ أى يجعلون له عديلاً وقيل يعدلون بأفعاله عنه وينسبونها الى غيره وقيل يعدلون بعبادتهم عنه تعالى ويصح أن يكون من قولهم عدل عن الحق إذا جار عدولاً.

في القرآن
في تفسير
القرآن

جزء ٨

الجلد السابع

﴿الإعراب﴾

فَإِنْ كَذَّبُوكَ شَرِّطَ وَجوابه فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَلَا أَبَاءَنَا، عطف على الضمير في أشركنا قُلْ هَلُمَّ فيه لغتان:

أحدهما: أن تكون بلفظ واحد في الواحد و التثنية و الجمع و المذكر و المؤنث فعلى هذا هي إسم للفعل و بنيت لوقوعها موقع الأمر المبني ومعناها أحضروا شهداءكم.

الثانية: أنها تختلف فيقال هَلُمَّ هَلُمَّا وَهَلِّمُوا وَهَلِّمِي وَهَلِّمُنَّ، و على هذا فهي فعل و اختلفوا في أصلها فقال البصريون أصلها ألمم، أي أقصد فأدغمت الميم في الميم و تحركت الهمزة عن همزة الوصل ثم حذفت ألف، ها، التي هي للتثنية.

وقال الفراء أصلها، هل أم فألقت حركة الهمزة على اللام و حذفت ما حرم ما بمعنى الذي و قيل هي مصدرية و في موضعها وجهان:

أحدهما: هي بدل من الهاء المحذوفة.

الثاني: أنها منصوبة على الإغراء.

﴿التفسير﴾

فَإِنْ كَذَّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ و المراد بهم اليهود لأنهم زعموا أنهم حرّموا الشّروب لأن إسرائيل حرّمها على نفسه فحرّموها إتباعاً له دون أن يكون الله حرّم ذلك على لسان موسى.

وقال الجبائي أنه يرجع الى المشركين، و المعنى فأن كذبوك يا محمد في أنني حرّمْتُ ذلك على اليهود على لسان موسى فَقُلْ لَهُمْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَأَسِيعَةٍ و لذلك أمهلم مع تكذيبهم بالمؤاخذه عاجلاً قاله الجبائي و قيل أنه ذكر ذلك ترغيباً لهم في ترك التكذيب و تهيداً في فعله وَلَا يُرَدُّ بِأَسْهُ و

نَكَاتِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْ رَدِّ عِقَابِ اللَّهِ عَنْ الْعَصَاةِ الْمُسْتَحْقِقِينَ لِلْعِقَابِ مَعَ أَنَّهُ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ

أخبر الله تعالى نبيه بأنهم سيحتجون وسيتدلون في إقامتهم على شركهم و تحريمهم ما أحل الله من الأنعام التي تقدم وصفها بأن يقولوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا لِأَنَّ الْعَبْدَ مَقْهُورٌ تَحْتَ قُدْرَتِهِ فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَاءَ لَمْ يَكُنْ وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ أَيُّ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ أَيْضاً لِأَنَّهُ أَوْجَدَ الدَّاعِيَ فِينَا وَ حَيْثُ كَانَ كَذَلِكَ فَالْعَبْدُ لَا ذَنْبَ لَهُ فِي فَعْلِهِ وَ قَوْلِهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا أَيُّ عَدَمٍ تَخَلَّفَ الْمَعْلُولُ عَنِ الْعِلَّةِ أَنَّمَا يَتِمُّ فِي الْمَشِيئَةِ التَّكْوِينِيَّةِ أَعْنِي بِهَا الْإِبْجَادُ.

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ التَّشْرِيعِيَّةُ فِإِخْتِيَارِ الْعَبْدِ وَاسْطَةً بَيْنَ إِرَادَةِ اللَّهِ وَ فَعْلِ الْعَبْدِ وَ لِذَلِكَ كَثِيراً مَا نَرَى تَخَلُّفَ الْمَعْلُولِ عَنِ عِلَّتِهِ وَ أَنَّ شَيْئاً قُلْتُ الْإِرَادَةَ التَّشْرِيعِيَّةَ لَيْسَتْ عِلَّةً تَامَّةً لِفَعْلِ الْعَبْدِ حَتَّى يَقَالَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا مِثْلاً وَلِذَلِكَ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا فَقَالَ:

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا

أَيُّ كَذَلِكَ كَذَّبَ الْكَافَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِهِمْ فَقَالُوا أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ مِنَّا ذَلِكَ وَلَوْ أَرَادَ غَيْرَهُ لَمَا فَعَلْنَاهُ، وَ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْتَّخْفِيفِ أَيُّ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ كَمَا كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِهِ وَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا أَيُّ عِقَابِنَا فِي الْآخِرَةِ. وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُمْ قَالُوا مَا قَالُوا فِي الدُّنْيَا حَتَّى مَاتُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ بِكَذِبِهِمْ وَ إِفْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٍ وَ حَيْثُ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ قَالَ تَعَالَى (قُلْ) يَا مُحَمَّدُ لَهُوَلَاءِ الْمَشْرِكِينَ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ

مِنْ عِلْمٍ فِيمَا تَقُولُونَ وَتَدَّعُونَ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ كَلِمَةً، إِنْ، نَافِيَةٌ أَيْ لَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ أَيْ تَكْذِبُونَ وَتَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ.

قال في التبيان وفي هذه الآية دلالة على أَنَّ اللَّهَ تعالى لا يشاء المعاصي والكفر وتكذيب ظاهر لمن أضاف ذلك إلى اللَّه مع قيام أدلة العقل على أَنَّهُ تعالى لا يريد القبيح لأنَّ إرادة القبيح قبيحة وهو لا يفعل القبيح ولأنَّ هذه صفة نقص فتعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً انتهى.

أقول وجه الدلالة هو أَنَّ اللَّهَ حكم عليهم بالكذب فيما إدَّعوا من إضافة الشُّرك إلى مشيئة اللَّه أي ليس كذلك بل أنما أشركوا من عند أنفسهم بسوء سريرتهم وخبت طينتهم وحيث أَنَّهُ تعالى نفى الإضافة فالشُّرك ليس بمشيئته وهو المطلوب.

أَنْ قُلْتَ هَذَا الاستدلال يتم بناءً على التَّخفيف في، كذب، أي كذبوا في قولهم: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا.

و أما على التشديد كما هو المشهور بين القراء فليس كذلك لأنَّ المعنى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رسله في الحلال والحرام وبعبارة أخرى بناءً على التشديد فالإنكار لا يرجع إلى قولهم: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا بل يرجع إلى تكذيبهم الرِّسول لا ينافي أن يكون كفرهم بمشيئة اللَّه.

قُلْتُ أَنَّ اللَّهَ تعالى بيّن كذبهم في هذا القول بقوله: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ و من المعلوم أَنَّ تكذيب الصادق كذب وهو يدل على الأمرين قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدِيكُمْ أَجْمَعِينَ أي قُلْ يَا مُحَمَّدُ فِي رَدِّ إِحْتِجَاجِهِمْ أَنَّ اللَّهَ لو شاء منهم الشُّرك كما زعموا لما كان لله الحجة البالغة التي احتج بها على الكافرين اذ المفروض أَنَّهُ تعالى شاء منهم الكفر فكيف يعاقبهم عليه يوم القيامة وأنما تتمَّ الحجة عليهم لو شاء منهم الإيمان ولم يؤمنوا فبعث اللَّه رسله مبشرين ومنذرين إتماماً للحجة لقبح العقاب من غير بيان.

وأما قوله: فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ فليس معناه أنه تعالى لم يشاء منهم الهداية والإيمان بل معناه لو شاء الله لخلقكم كذلك أي غير قادرين على الكفر كما خلق الملائكة، وبعبارة أخرى خلقكم قادرين على الإيمان والكفر والطاعة والعصيان ليعبد إختياراً لا جبراً وهذا ممّا لا كلام فيه لأن الله قادرٌ على كلّ شيء فمن زعم أن قوله: فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ يدل على الجبر تعالى شاء الكُفْرَ والعصيان من الكافر والعاصي كما هو مذهب الأشاعرة فقد خرج عن طور العقل وهو كما ترى.

قال الرّازي فلو كان المراد من هذه الآية ما ذكرتم لوقع التناقض الصّريح في كتاب الله فأنّه يوجب أعظم أنواع الطّعن فيه وذلك أنّه تعالى حكى عن القوم أنّهم قالوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ثُمَّ ذكر عقبيه كذلك، كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فهذا يدلّ على أنّ القوم قالوا لما كان الكلّ بمشيئة الله تعالى و تقديره كانت التّكليف عبثاً فكانت دعوى الأنبياء باطلة و نبوّتهم و رسالتهم باطلة ثمّ أنّه تعالى بيّن أنّ التّمسك بهذا الطّريق في إبطال النّبوة باطل وذلك لأنّه إله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا إعتراض عليه لأحد في فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ومع هذا فيبيّث إليه الأنبياء ويأمره بالإيمان و ورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع فالحاصل أنّه تعالى حكى عن الكفّار أنّهم يتمسّكون بمشيئة الله في إبطال نبوة الأنبياء.

ثمّ أنّه تعالى بيّن أنّ هذا الإستدلال فاسد باطل فأنّه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله في كلّ الأمور دفع دعوة الأنبياء وعلى هذا الطّريق فقد سقط هذا الإستدلال بالكلية وجميع الوجوه التي ذكرتموها في التّقييح والتّهجين عائدة الى تمسّكم بثبوت المشيئة لله على دفع دعوة الأنبياء فيكون الحاصل أنّ هذا الإستدلال باطل وليس فيه البتّة ما يدلّ على أنّ القول بالمشيئة باطل.

ثمّ قال فإن قالوا هذا العذر أمّا يستقيم اذا قرأنا قوله: كَذَلِكَ كَذَّبَ بِالتّشْدِيدِ وأما اذا قرأناه بالتّخفيف فأنّه يسقط هذا العذر بالكلية، فنقول فيه وجهان:

الأول: أتما منع صحّة هذا القراءة والدليل عليه أنّنا بيّنا أنّ هذه السّورة من أوّلها الى آخرها تدلّ على قولنا فلو كانت هذه الآية دالّة على قولهم لوقع التّناقض ولخرج القرآن عن كونه كلام الله ويندفع هذا التّناقض بأن لا تقبل هذه القراءة فوجب المصير اليه.

الثّاني: سلّمنا صحّة هذه القراءة لكنّا نحملها على أنّ القوم كذبوا في أنّه يلزم من ثبوت مشيئة الله في كلّ أفعال العباد سقوط نبوة الأنبياء وبطلان دعوتهم واذ حملنا على هذا الوجه لم يبق للمعتزلة بهذه الآية تمسك البتّة و الحمد لله الذي أعاننا على الخروج من هذه العهدة القويّة وما يقوي ما ذكرنا ما روي أنّ ابن عباس قيل له بعد ذهاب بصره ما تقول فيمن يقول لا قدر فقال أن كان في البيت أحد منهم أتيت عليه و يليه أما يقرأ.

قال الله تعالى: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّا نَخْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ** ^(٢).

وقال أول ما خلق الله القلم قال له أكتب القدر فجري بما يكون الى قيام السّاعة وقال صلوات الله عليه المكذّبون بالقدر مجوس هذه الأمة انتهت كلام الرّازي بألفاظه و عباراته و أنّما نقلناه بطوله ليعلّم القاري ما فيه من الخبط و الزّلل و أنّه كيف حمل كلام الله على أوهامه الفاسدة الخارجة عن طور العقل و التّفكّل و حيث إنّجر البحث الى هنا فلا بدّ لنا من التّكلّم فيه بوجه أبسط لأنّ البحث من أهمّ الأصول الإعتقادية فنقول:

إعلم أنّ مدار كلام الرّازي على قراءة التشديد في، كذب، و قد سبق أنّ التشديد إحدى القراءتين و لا دليل على عدم جواز التّخفيف و هو أيضاً لم يقدّم دليلاً على عدمها هذا أولاً.

ثانياً: نقول قوله أنّه تعالى حكى عن الكفّار أنّهم يتمسكون بمشيئة الله في إبطال نبوة الأنبياء ثمّ أنّه تعالى بيّن أنّ هذا الإستدلال فاسد فأنّه لا يلزم من

ثبوت المشيئة لله في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء، ففيه أنه لو كان الأمر بمشيئة الله وأن العبد لا قدرة له على الإيمان مثلاً فلا معنى لبعث الرُّسل قطعاً إذ المفروض عدم قدرة العبد فيلزم أن يكون البعث غلطاً وعليه فلازم ثبوت المشيئة على ما زعمه هو دفع دعوة الأنبياء وبذلك قد ظهر لك أن الآية لا ربط لها إذعاه الرّازي من بطلان دعوة الأنبياء بل تدل على أن قولهم: **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا الْخ، كَذَبَ محض.**

ثالثاً: يظهر منها أنهم كذبوا الأنبياء في دعوتهم الناس بالإيمان بدعوى أن شرّكهم وكفرهم بمشيئة الله فهو خارج عن قدرتهم وإختيارهم فكأنهم قالوا للرّسول كيف تدعونا بالإيمان ولم نقدر عليه لأن الله شاء منا الكفر.

فقال تعالى: **كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** أي كذبوا الأنبياء في دعوتهم إلى الإيمان على سبيل الإختيار، فهم في الحقيقة كذبوا الإيمان عن إختيار وأين هذا من دعوى بطلان نبوتهم ورسالتهم ومحصل الكلام ليس البحث في الآية في إنكار النبوة وعدمه وإنما البحث في أنهم حيث إعتقدوا كفرهم بمشيئة الله فكانوا كاذبين في قولهم هذا أو مكذّبين للرّسول من حيث أنه كان يقول أنتم تقدرون على الإيمان.

وأما قول الرّازي أنه إله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا إعتراض عليه في فعله فهو يشاء الكفر من الكافر ومع هذا فيبعث إليه الأنبياء ويأمره بالإيمان وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع، فيقال في جوابه لاشك أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

إلا أنا نقول أنه لم يشاء الكفر من الكافر لكونه قبيحاً وهو منزّه عنه لا أنه لا يقدر عليه، فهو يفعل الحسن ويحكم بغير قبيح، إذ لو شاء الكفر من الكافر ومع ذلك أمره بالإيمان بسبب النبي، فهذا ممّا لا تقدر على تصوّره فضلاً عن تعقّله. وأما قوله وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع ففيه أن هذا معقول في الأوامر الإمتحانية على قول من يقول به كما أمر الخليل بذبح إسماعيل

مثلاً وأما الأمر بالإيمان والطاعة فهو ليس من هذا القبيل ألا ترى أنه تعالى رتب على تركه العقاب وهو دليل على جواز تركه وقد ثبت أن الأمر إذا صدر من المولى من غير إرادة لا عقاب على تركه.

نعم على فعله الثواب من حيث الإمتثال والفرق بين الأمرين واضح، تمسيكه بقول ابن عباس من أنه قال وبله أما يقرأ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ الخ فهو خارج عما نحن بصده، اذ لا يوجد مسلم لا يقول به.

فإن القول بثبوت القدر من المسلمات، إلا أن المراد بالقدر في الآية ليس ما فهمه الرّازي وأمثاله بل المراد به كمية الشيء وحدوده وذلك لأن تقدير الله الأشياء على وجهين:

أحدهما: بإعطاء القدرة.

الثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حيثما اقتضت الحكمة وذلك أن فعل الله ضربان:

ضرب أوجده بالفعل بمعنى إيجاده بالفعل بأن أبدعه كاملاً دفعة لا تعتريه الزيادة والتقصان الى أن يشاء أن يفنيه أو يبدله كالسّموات وما فيها.

وقسم آخر ما جعل أصوله موجودة بالفعل وأجزاء بالقوة وقدره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدره فيه كتقديره في النّواة أن يبت منها النّخل دون التفاح والزيتون وتقدير منى الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات، فقوله تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ لا ربط له بمورد البحث أصلاً وأما ما نقله عن ابن عباس أنه قال أول ما خلق الله القلم قال له أكتب القدر

فجرى بما يكون الى قيام الساعة، فهذا الحديث على فرض صحته حيث لم ينسبه الى المعصوم معناه أنه جرى القلم الى قيام الساعة في اللوح المحفوظ وهذا لا يدل على ثبوته من غير تغيير ولا تبديل الى قيام الساعة لقوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِي وَيُعَدُّ أُمَّ الْكِتَابِ^(١) وأما الحديث الذي نقله عن

رسول الله ﷺ المكذَّبون بالقدر مجوس هذه الأمة، فلا نعلم من أين نقله و المشهور عنه ﷺ القدريّة مجوس هذه الأمة نقله عنه ﷺ غير واحد من الرّواة في مآخذ العامّة والخاصّة فلو كان ما نقله الرّازي أيضاً حقّاً يلزم أن تكون الأمة بأجمعها من المجوس لأنّ الأمة بين المعتقد بالقدر والمكذّب به وهو كما ترى والحمد لله على كلّ حال.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِرُونَ

قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين تقدّم وصفهم، هلمّ شهداءكم، أي هاتوا شهداءكم و هلمّ كلمة موضوعة للجماعة بني مع، ها، فصار بمنزلة الصّوت نحو، صه، و من قال هلموا، فأنّه لم ينبه، مع، ها، بل قدره على الإنفصال الأوّل أفصح لأنّه لغة القرآن وهي لغة أهل الحجاز و أمّا أهل نجد فيقولون، هلمّ و هلمّا و هلموا و هلمي و هلميا و هلممن، قيل أصله، ها، ضمّ اليه، لم فبني و قيل، هلمّ ثمّ أنّه تارة يتعدّى و أخرى لا يتعدّى فهو على الأوّل بمعنى، هاتوا، مثل قوله: هلمّ شُهَدَاءَ كُمُ.

و على الثّاني، بمعنى، تعالوا، نحو، هلمّ الينا، هكذا قالوا ومعنى الآية قل يا محمد لهم هاتوا شهداءكم الذين يشهدون بصحة ما تدعون من أنّ الله حرّم هذا وحلّل هذا فإنّ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ لأنّهم لم يشهدوا على الوجه المقرّر في الشّهادة من أنّها لا تصحّ إلاّ ببيّنة عادلة تقوم بها الحجّة و اذا كانت الشّهادة على هذا المنوال فهي ليست بمسموعة بل هي كالعدم.

وقيل المراد شهداء من غيرهم أي هلمّ شهداءكم من غيركم ولن يجدوا ذلك أبداً ولو وجدوه ما وجب قبول شهادتهم لأنّها لا ترجع إلّا الى دعوى مجرّدة وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا نهى الله تعالى نبيّه والمراد به

أَمْتَهُ أَنْ يَعْتَقِدُوا مَذْهَبَ مَنْ إِيْتَقَدَ مَذْهَبَهُ هُوَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ أَيَّ وَلَا تَتَّبِعْ أَيْضاً مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ عَدَلَ عَنِ
الْحَقِّ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ مُتَابِعَةَ هَؤُلَاءِ فِي الْإِعْتِقَادِ يُوجِبُ خَسْرَانَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
فَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى فَسَادِ التَّقْلِيدِ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ جَائِزاً لَمَا
طَالَبَ اللَّهُ الْكَفَّارَ بِالْحُجَّةِ عَلَى صِحَّةِ مَذْهَبِهِمْ وَلَمَّا كَانَ عَجْزُهُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِهَا
ذَلاً عَلَى بَطْلَانِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ثُمَّ بَعْدَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا
مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْقَوْلَ بِالْحَرَامِ وَالْحَلَالِ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لَا يَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ
مُسْتَنْدَافاً إِلَى الْوَحْيِ أَمْرُ نَبِيِّهِ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى هَذَا الْأَصْلِ وَأَنْ يَسْمَعُوا مِنَ النَّبِيِّ
الَّذِي وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى^(١).



قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرقَ بَكم عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

◁ اللغة

إِمْلَاقٍ بكسر الالف مصدر قولهم أَمْلَقَ إِمْلَاقًا وهو الإفلاس من المال و الزاد وقيل الإملاق الفقر.

أَشُدَّهُ قيل واحده، شدة مثل أضَرَ جمع ضَرَّ والشدة القوة وهو إستحكام قوة شبابه وسنّه كما شدَّ النهار إرتفاعه وقيل واحدة، شدة مثل نعمة وأنعم. أَوْفُوا أمرٌ من الإيفاء وهو الوفاء من غير بخس.

◀ الإعراب

مَا حَرَّمَ مَا بِمَعْنَى الَّذِي وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ أَيْ حَرَّمَهُ وَقِيلَ هِيَ مُصَدَّرَةٌ أَلَّا تُشْرِكُوا فِي، أَنْ، وَجِهَانُ:

أَحَدُهُمَا: بِمَعْنَى، أَيْ، فَتَكُونُ، لَا، عَلَى هَذَا نَهْيًا.

الثَّانِي: أَنَّهَا مُصَدَّرَةٌ وَفِي مَوْضِعِهَا وَجِهَانُ:

أَحَدُهُمَا: هِيَ بَدَلٌ مِنَ الْهَاءِ الْمَحْذُوفَةِ أَوْ مِنْ، مَا، وَلَا، زَائِدَةٌ أَيْ حَرَّمَ رَبُّكُمْ أَنْ تَشْرِكُوا.

الثَّانِي: أَنَّهَا مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْإِغْرَاءِ وَالْعَامِلُ فِيهَا، عَلَيْكُمْ شَيْئًا مَفْعُولٌ تَشْرِكُوا، أَوْ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ أَيْ إِشْرَاكَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ بَدَلَانِ مِنَ الْفَوَاحِشِ بَدَلُ الْإِشْتِمَالِ وَمِنْهَا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ وَبِالْحَقِّ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ذَلِكَ مُبْتَدَأٌ وَصَيِّكُمْ بِهِ الْخَبَرُ بِالْقِسْطِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ مُقَسِّطِينَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ أَيْ أَوْفُوا الْكِيلَ تَامًا وَالْبَاقِي وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

◀ التفسير

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الْكَفَّارُ تَعَالَوْا، أَتْلُ أَيْ أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ.

الأول: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ أَيْ بِاللَّهِ شَيْئًا، إَعْلَمُ أَنَّ الشَّرْكَ عَلَى ضَرَبَيْنِ

أَحَدُهُمَا: الشَّرْكَ الْعَظِيمُ وَهُوَ إِثْبَاتُ شَرِيكَ لَه تَعَالَى يَقَالُ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَلَانِ وَذَلِكَ أَعْظَمُ كُفْرٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا^(١).

قال الله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ^(٢) والآيات كثيرة.

الثاني: الشُّرك الصَّغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وقد يعبر عنه بالرياء والتَّفَاق المشار اليه.

قال الله تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ^(٣).

وحيث أنَّ لفظ الشُّرك مشترك بين المعنيين فقوله: لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شيئاً يشمل العظيم والصَّغير.

الثاني: وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا الحسن عبارة عن كلِّ مبهج مرغوب فيه و ذلك ثلاثة أضرب مستحسنٌ من جهة العقل، ومستحسنٌ من جهة الهوى، ومستحسنٌ من جهة الحس، والحسنة يعبر بها عن كلِّ ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله والإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الأنعام على الغير يقال أحسن إلى فلان.

الثاني: إحسان في فعله و ذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً قال أمير المؤمنين عليه السلام النَّاسُ أَبْنَاءُ مَا يَحْسَنُونَ، أي منسوبون إلى ما يعملون و يعملونه من الأفعال الحسنة والإحسان أعم من الأنعام وهو فوق العدل لأنَّ العدل أن يعطي ما عليه و يأخذ ما له.

والإحسان، أن يعطي أكثر ممَّا عليه و يأخذ أقلَّ ممَّا له فالإحسان زائد على العدل فتحزِّي العدل واجب و تحزِّي الإحسان ندب و تطوُّع و قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٤).

إذا عرفت معنى الإحسان فنقول أمر الله تعالى بالإحسان بالوالدين وهما الأب والأم فقال وبالوالدين إحساناً، وقال في موضع آخر.

قال الله تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^(١).

قال الله تعالى: لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^(٢).

قال الله تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا^(٣).

الثالث: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ اختلفوا

في معنى الإملاق فقيل أنه الإفلاس من المال والزاد يقال أملق إملاقاً ومنه الملق لأنه اجتهد في تقرب المفلس للطمع في العطيّة، وقال ابن عباس و السدي وابن جريح وغيرهم الإملاق الفقر وكيف كان فقد نهاهم الله عن القتل لذلك لأنهم كانوا يقتلون أولادهم في عهد الجاهليّة خشيةً من الفقر فقال تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ لِأَجْلِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ ضَمِنَ رِزْقَهُمْ كَمَا ضَمِنَ رِزْقَكُمْ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا وَجْهَ لِقَتْلِهِمْ وَقِيلَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ بَنَاتِهِمْ وَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْأَبْنَاءِ وَالْبَنَاتِ لَصَدَقَ الْأَوْلَادُ عَلَى الْجَمِيعِ.

الرابع: وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ الْفَوَاحِشُ جَمَعَ فاحشة، قال الزجاج الفحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

وقوله: مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ قالوا في معناه أنهم كانوا لا يرون بالزّناء بأساً سراً ويمنعون منه علانيةً فنهى الله عن الحالتين وقال بعض المفسرين أنّما قال ذلك لتلا يظنّ أنّ الإِسْطِطَان جَائِز.

قول ثالث: وهو أنّ المراد من قوله: مَا ظَهَرَ هُوَ الزّناء، وما بطن هو المخالّة، والحق أنّ المراد به معناه العامّ الشّامِل للجمع.

الخامس: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ فَالْنَفْسُ الْمَحْرَم

قتلها هي نفس المسلم والمعاهد دون الكافر الحربي قتل والحق الذي يستباح به قتل النفس المحرمة ثلاثة أشياء.

قود بالنفس الحرام.

والزنا بعد إحصان.

والكفر بعد الإيمان.

ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ خُطَابَ لْجَمِيعِ الْخَلْقِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي لكي تعقلوا عنه ما وصاكم به فتعملوا به.

السادس: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ لا شك أن المراد بالقرب التصرف فيه و الأكل منه على غير الشرع حكم عام يشمل جميع الناس إلا أن اليتيم لما كان لا يقدر عن الدفاع عن نفسه و ماله خص بالذكر لأن الطمع في ماله أقوى منه في مال غيره لما ذكرناه ولذلك تأكد النهي في التصرف في ماله و المراد باليتيم من لا والده و قوله: إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إستثناء عن النهي و قيل في معناه، حفظه عليه الى أن يكبر فيسلم اليه، و قيل معناه تمييز مال اليتيم بالتجارة و الزراعة و أمثال ذلك و قيل معناه أن يأخذ عليه القيم المعروف دون الكسوة و قوله: حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ اختلفوا في حدّ الأشدّ فقليل هو الحلم، و قيل ثلاثون سنة و قيل ثمانية عشرة سنة و قيل لا حدّ له و إنما المراد به حتى يكمل عقله و لا يكون سفيهاً يحجر عليه و المعنى حتى يبلغ أشده فيسلم اليه ماله أو يؤذن في التصرف فيه و حذف لدلالة الكلام عليه قاله الشيخ في التبيان و قال القرطبي اختلف العلماء في أشدّ اليتيم فقال ابن زيد بلوغه و قال أهل المدينة بلوغه و إيناس رشده، و عند أبي حنيفة خمس و عشرون سنة، ثم قال و الأشدّ واحد لا جمع له بمنزلة ألأنك الرصاص و قد قيل واحده شدّ كفلس و أفلس وأصله من شدّ النهار أي أرتفع يقال أتيت به شدّ النهار و مدّ النهار قال الشاعر:

عهدي به شدّ النهار كأنما خضب اللبان و رأسه بالعظم

وقال الآخر:

تطيف به شدّ النهار طعيئةً طويلةً إنقاء اليمين سحوقٌ
وقال سيويه، واحدة شدّة وقال الجوهري وهو حسن في المعنى لأنه
يقال بلغ الغلام شدّته ولكن لا تجمع فعلة على أفعّل.
السابع: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
القسط العدل والمعنى أوفوا الكيل والميزان بالعدل أي بالإعتدال في الأخذ
وإعطاء عند البيع والشراء بحسب الوسع والطاقة وفيه إشارة إلى أنّ الأوامر
والتواهي إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرر فما لا يمكن
الإحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين ولا يدخل تحت قدرة البشر فمفعول
عنه وقيل الكيل بمعنى المكيال ولهذا عطف عليه بالميزان.

الثامن: وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ أي ولو كان الحق على مثل
قربائكم قال بعض المفسرين هذا في الأحكام والشهادات، والحق أن المراد
معناه العام أي قولوا الحق ولو في حق أقربائكم.
التاسع: وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصِيَّتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الوفاء
بالعهد من الواجبات التي لا بد لكل إنسان الإلتزام به سواء كان العهد ممّا عهده
الله إلى عباده أم ممّا إنعقد بين إنسانين.

قال الله تعالى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ^(١).

قال الله تعالى: وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا^(٢).

قال الله تعالى: الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ^(٣).

قال الله تعالى: أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ^(٤)
والآيات كثيرة في الباب جدًّا.

ثم أشار إلى جميع ما ذكر بقوله ذلكم وصيكم به لعلكم تذكرون، أي لئلا تغفلوا عنه فتركوا العمل به والقيام بما يلزم منه.

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ قَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَحَمَزَةُ وَإِنْ، بكسر الهمزة والباقون بفتحها فمن فتح الهمزة فقد عطف الكلام على، أن لا تشركوا، أو التقدير، ولأن هذا صراطي مستقيماً فأتبعوه، ومن كسر الهمزة فقد عطف الكلام على قوله: أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ أَي وَاَتْلُ، أَنَّ هَذَا، بمعنى أقول، أو إستأنف الكلام والمعنى أَنَّ هَذَا، الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ بِاتِّبَاعِ صِرَاطِهِ وَمَا شَرَّعَهُ لِلْحَقِّ وَأَمَّا سَمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى صِرَاطاً لِأَنَّ الْعَمَلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ طَرِيقٌ إِلَى الثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا أَنَّ الْعَصِيَانَ وَالْمُخَالَفَةَ طَرِيقٌ إِلَى الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ وَوَصَفَ الطَّرِيقَ بِالِاسْتِقَامَةِ لِأَنَّهُ لَا عُوجَ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ وَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِالِاتِّبَاعِ ثُمَّ قَالَ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ يَعْنِي سَبُلَ الشَّيْطَانِ وَأَهْلِ الْبِدْعِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ وَأَمَّا نَهْيُ اللَّهِ عَنْهُ لِأَنَّ اتِّبَاعَ غَيْرِ سَبِيلِهِ تَصَرُّفٌ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِهِ وَلَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا وَلِذَلِكَ قَالَ فَتَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ أَي عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ.

ذَلِكُمْ وَصِيكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَي أَمَرَكُمْ وَأَوْصَاكُمْ بِإِمْتِثَالِهِ لِكَيْ تَتَّقُوا عِقَابَهُ بِاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ فَهَذَا مَا وَعَظَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَحَيْثُ إِنْجَرَ الْكَلَامُ إِلَى هُنَا فَلَا بَأْسَ بِذِكْرِ بَعْضِ مَا وَرَدَ مِنَ الْأَثَارِ وَالْأَخْبَارِ فَنَقُولُ:

روي في كتاب مشكاة الأنوار من كتاب المحاسن عن سليمان بن خالد قال قال أبو عبد الله عليه السلام أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ أَلْمُتْنَهُ ^(١). فإذا إنتهى الكلام إلى الله فأمسكوا انتهى.

و من كتاب التوحيد بأسناده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ ما جزاء من أنعم الله عليه بالتوحيد إلا الجنة انتهى.

و عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أباءه عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ من مات ولم يشرك بالله شيئاً أحسن أو أساء دخل الجنة انتهى.

و عن الصادق عليه السلام أنه سأله رجل فقال له أن أساس الدين التوحيد والعدل إلى أن قال عليه السلام: وأما التوحيد فأن لا تجوز على ربك ما جاز عليك وأما العدل فأن لا تنسب إلى خالقك ما لامك عليه.

و عن ابن عباس قال جاء أعرابي إلى النبي فقال يا رسول الله علّمني من غرائب العلم قال ﷺ ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه قال الأعرابي وما رأس العلم يا رسول الله قال عليه السلام معرفة الله حق معرفته فقال الأعرابي ما معرفة الله حق معرفته قال ﷺ أن تعرفه بلام مثل ولا شبه ولا ند وأنه واحد أخذ ظاهره باطن أول آخر لا كفوله ولا نظير له فذلك حق معرفته انتهى.

و عن أبي ذر رجه الله قال خرجت ليلة من الليالي فاذا رسول الله ﷺ يمشي وحده وليس معه إنسان فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد وساق الحديث إلى أن قال قال رسول الله ﷺ ذلك جبرئيل عرض لي في جانب الحيرة وقال، بشر أمتك أنه من مات ولا يشرك بالله دخل الجنة قال قلت يا جبرئيل وأن زنى وأن سرق فقال نعم الحديث.

ومما ورد في الإحسان بالوالدين:

روي في هذا الكتاب من كتاب المحاسن عن الباقر عليه السلام قال سأل رسول الله ﷺ من أعظم حقاً على الرجل قال ﷺ والداه.

وعنه عليه السلام قال أن الرجل يكون باراً بوالديه وهما حيّان فاذا ماتا ولم يستغفر لهما كتب عاقاً لهما وأن الرجل يكون عاقاً لهما في حياتهما فاذا ماتا وأكثر الإستغفار لهما فكتب باراً.

وعنه عليه السلام قال أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أوصني فقال عليه السلام لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالإيمان والديك فأطعهما وبرهما حين كانا أو ميتين أن أمراك أن تخرج من أهلك و مالك فأفعل فإن ذلك من الإيمان انتهى.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال برّوا أباكم يبركم أبناءكم و غصّوا عن النساء يغصن عن نسائكم انتهى.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلام له إياكم و عقوق الوالدين فإنّ ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام و لا يجدها عاق و لا قاطع رحم الحديث.

و ممّا جاء في أموال اليتامى:

روى المجلسي رحمته الله بأسناده عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال لما نزل: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا^(١) أخرج كلّ من كان عنده يتيم و سألوا رسول الله في إخراجهم فأنزل الله وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ^(٢)

و عن الصادق عليه السلام عن أبيه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم من كفل يتيماً و كفل نفقته كنت أنا و هو في الجنة كهاتين و قرن بين إصبعيه المَسْبُوحَة و الوسطى انتهى.

و بأسناده عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا ذر أتني أحبّ لك ما أحبّ لنفسي أني أراك ضعيفاً فلا تأمرن على أنثنين و لا تؤلّين مال يتيم انتهى.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

الجلد السابع

و عن الصادق عن أباؤه قال: قال رسول الله ﷺ من عال يتيماً حتى يستغني عنه أوجب الله عز وجل له بذلك الجنة كما أوجب لأكل مال اليتيم النار انتهى.

و بأسناده عن العالم عليه السلام أنه قال: مَنْ أكل من مال اليتيم درهماً واحداً ظُلماً من غير حقٍ يخلده الله في النار و ساق الحديث الى أن قال و إياكم و أموال اليتامى لا تعرضوا لها و لا تلبسوها فمن تعرض مال اليتيم فأكل منه شيئاً كأنما أكل جذوة من النار. و روي إتقوا الله و لا يعرض أحدكم لِمال اليتيم فإنَّ الله جلَّ ثناءه يلي حسابه بنفسه مغفوراً له أو معذباً الحديث و الأحاديث في الباب كثيرة جداً و من أراد الإطلاع على أكثر ممَّا ذكرناه فعليه بالمطولات و لا سيما بحار الأنوار باب العشرة مع اليتامى^(١)



ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
 أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
 لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ
 أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
 (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى
 طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ
 لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا
 الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
 بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
 يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
 يَصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ
 رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا
 إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمْنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
 إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ
 الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ
 فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا
 كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ
 أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا
 وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

◀ اللغة

دِرَاسَتِهِمْ قال في المفردات درس الدَّار معناه بقى أثرها ولذلك فُسِّر الدُّروس بالإنحاء وكذا درس الكتاب ودرست العلم، تناولت أثره بالحفظ و لما كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبَّر عن إدامة القراءة بالدُّرس. صَدَفَ عنه أعرض عنه إعراضاً شديداً.

شَيْعاً الشَّيعَ الفرق التي يمالني بعضهم بعضاً على أمرٍ واحدٍ مع اختلافهم في غيره وقيل أصله الظُّهور من قولهم شاع الخبر يشيع إذا ظهر. وقال الرَّجَاج أصله الإِتباع من قولك شايعه على الأمر إذا تبعه.

◀ الإعراب

تَمَامًا مفعول له أو مصدر أي أتممناه تماماً ويجوز أن يكون حالاً في موضع الحال من الكتاب وَ هَذَا مبتدأ كِتَابٌ خبره وَأَنْزَلْنَاهُ صفة أو خبر ثانٍ وَمُبَارَكٌ صفة ثانية أو خبر ثالث، قرأ (مباركاً) بالنَّصب على الحال جازٍ مِمَّنْ كَذَّبَ الجمهور على التَّشْدِيدِ وقرأ بالتَّخْفِيفِ وهو في معنى التشديد فيكون مِمَّنْ كَذَّبَ مفعولاً ويجوز أن يكون حالاً يَوْمَ يَأْتِي الجمهور على النَّصب والعامل في الظَّرْفِ لَا يَنْفَعُ وقرى بالرَّفْعِ والخبر لا ينفع والعائد محذوف أي لا ينفع نَفْسًا إِيْمَانُهَا فيه لَمْ تَكُنْ مستأنفة وقيل هي في موضع الحال من الضمير المجرور أو على الصَّفة، لنفس وهو ضعيف عَشْرُ أَمْثَالِهَا بالاضافة أي فله عشر حسنات أمثالها وقرأ بالرفع والتنوين على تقدير فله حسنات عشر أمثالها وحذف التاء من عشر لأنَّ الأمثال في المعنى مؤنثة للأضافة الى المؤنث.

◀ التفسير

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ

أَنْ قُلْتَ ثُمَّ تَقْتَضِي التَّرَاخِي وَلاَزِمَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كِتَابُ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَةُ
بَعْدَ الْقُرْآنِ مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ.

قُلْتَ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ بِمَعْنَى الْوَاوِ أَيْ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لِأَنَّهُمَا
حُرَفَا عَطْفٍ وَقِيلَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ، ثُمَّ كُنَّا قَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ قَبْلَ إِنْزَالِنَا الْقُرْآنَ
عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَقِيلَ الْمَعْنَى قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ثُمَّ
أَتْلُ مَا آتَيْنَا مُوسَى تَمَاماً وَفِي قَوْلِهِ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَجَوْه.
أَحَدُهَا: مَعْنَاهُ، تَمَاماً عَلَى إِحْسَانِهِ أَيْ إِحْسَانِ مُوسَى.

ثَانِيهَا: تَمَاماً عَلَى الْمُحْسِنِينَ أَوْ تَمَاماً عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا، أَوْ تَمَاماً عَلَى
إِحْسَانِ أَنْبِيَآءِهِ.

ثَالِثُهَا: قَالَ الْحَسَنُ وَقِتَادَةُ لَتَمَامِ كِرَامَتِهِ فِي الْجَنَّةِ عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الدُّنْيَا.
رَابِعُهَا: قَالَ أَبُو عَلِيٍّ تَمَاماً عَلَى إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَى مُوسَى بِالنَّبَوَّةِ.

أَقُولُ هَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا إِسْتِحْسَانَاتٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا وَالحَقُّ فِي الْمَعْنَى أَنْ
يَقَالَ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الْعَبْدِ الَّذِي أَحْسَنَ الطَّاعَةَ وَتَجَنَّبَ
الْمَعْصِيَةَ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ أَوْ نَهَى عَنْهُ وَقَوْلُهُ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ أَنَّ كِتَابَ
مُوسَى فِيهِ تَفْصِيلُ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَحْزَمَاتِ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ وَبِعِبَارَةٍ
أُخْرَى فِيهِ مَا يُوْجِبُ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ وَحِلَاوَةَ النَّشْأَتَيْنِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي جَمِيعِ
الْكَتَبِ السَّمَاءِيَّةِ وَلِذَلِكَ قَالَ وَهُدًى وَرَحْمَةً أَيْ كَمَا أَنَّهُ يَفْصِلُ الْأَحْكَامَ
كَذَلِكَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ الْعَامِلِينَ
بِمَا فِيهِ لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ أَيْ لِكَيْ يَوْمِنَا بِجَزَاءِ رَبِّهِمْ، فَسَمِيَ
الْجَزَاءُ لِقَاءَ اللَّهِ تَفْخِيماً لَشَأْنِهِ وَتَعْظِيماً لَهُ مَعَ مِرَاعَاةِ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِجْزَازِ وَهَذَا
كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكاً فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا هَذَا، إِشَارَةٌ إِلَى
الْقُرْآنِ وَعَلَيْهِ إِجْمَاعُ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمَعْنَى، هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ
مُبَارَكُ الْخ.

فالبركة ثبوت الخير بزيادته ونموه وأصله الثبوت ومنه تبارك، أي تعالى بصفة إثبات لا أول له ولا آخر وهذا تعظيم لا يستحق غير الله تعالى ولو نصب على الحال لكان جائزاً إلا أن الرفع أولى لأنه يدل على لزوم الصفة للكتاب فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا أمر من الله تعالى بإتباعه والتدبر ما في آياته ثم العمل به أولاً والى إتقاء معاصيه وتجنب مخالفة كتابه بترك العمل بما فيه. ثانياً، وإذا كان العبد كذلك فهو قريب من رحمة الله ولذلك قال: لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وفيه إيماء الى أن الغرض من التقوى هو طلب ما عند الله من الرحمة والثواب وأن شئت قلت، معناه إتقوا على رجاء الرحمة لأنكم لا تدرون بما توافون في الآخرة.

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ

العامل في، أن، قوله: أُنْزِلْنَاهُ وتقديره، لأن لا تقولوا، فحذف، لا، لظهور المعنى في أنه أنزله لئلا يكون لهم حجة بهذا وقال الزجاج تقديره، كراهة أن تقولوا، ولم يجر حذف، لا، هاهنا، وكيف كان فالمعنى لأن لا تقولوا، أيها المسلمون أنما أنزل الكتاب.

وقيل الخطاب لأهل مكة والمعنى لأن لا تقولوا يا أهل مكة، أنما أنزل الكتاب، أي التوراة والإنجيل عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا أي على اليهود والنصارى وَإِنْ كُنَّا أن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والأصل، وأنه كنا، والمعنى وأن كنا غافلين عن تلاوة كتبهم لأنهم كانوا أهله دوننا.

وتقدير الآية أننا أنزلنا الكتاب الذي هو القرآن لئلا يقولوا أنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى ولم ينزل علينا، ولو أريد منا ما أريد ممن قبلنا لأنزل إلينا الكتاب كما أنزل على من قبلنا، وأنما فعلنا ذلك إتماماً للحجة عليكم يوم القيامة.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ

عطف على، أن تقولوا، أي ولئلا تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ) في المبادرة الى قبوله والتمسك به وذلك لحدة أذهاننا وثاقبة أفهامنا و غزارة حفظنا لا يأم العرب و وقائعها و خطبها و أشعارها و أمثالها على أننا أميون، هكذا قرَّره في الكشف فأجابهم الله تعالى بقوله: فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ أي منتم صادقين في دعواكم، فقد جاءكم بيِّنَةٌ، و شاهد من ربكم، و هو القرآن الذي هدى و رحمة لمن عمل بما فيه فلم لا تعملون به بل تكذبونه و تقولون أنه ليس من عند الله فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَايَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا أي أعرض عنها إعراضاً شديداً بعد التَّكْذِيب و الإنكار سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا بِالْإِعْرَاضِ عنها و ترك العمل بها سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ سوء العذاب شدته والبلاء للسبب أي سوء العذاب و شدته يوم القيامة مسبب عن الإعراض كما قال: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً^(١).

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ

قالوا معنى، يَنْظُرُونَ ينتظرون، و هل إستفهام معناه التَّفْي و تقدير الآية أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءهم أحد هذه الأمور الثلاثة و هي مجيئ الملائكة أو مجيئ الرِّب أو مجيئ الآيات القاهرة من الرِّب والمراد بقوله: إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هو أن تأتيهم لقبض أرواحهم أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أي أمر ربك يوم القيامة أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ كطلوع الشمس من مغربها.

فيه القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا

الجلد
١٣٢

و ذلك لأنَّ ظهور الآيات تحجب من قبول التَّوبَة قالوا فيه ثلاثة أقوال:
أحدها: ما روي عن النَّبي ﷺ أَنَّهُ قال بادروا بالأعمال قبل سِتَّة طلوع
 الشَّمس من مغربها، والدَّابة، والدَّجال، والدَّخان، وخويصة أحدكم أي
 موته، وأمر القيامة.

الثَّاني: قال ابن مسعود طلوع الشَّمس من مغربها والدَّجال ودابة الأرض.
الثَّالث: طلوع الشَّمس من مغربها رواها جماعة عن النَّبي وقوله: **أَوْ**
كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قيل أَنَّهُ صفة ثانية معطوفة على الصِّفة الأولى و
 المعنى أن إشراف السَّاعة اذا ظهرت ذهب أوان التَّكْلِيف عندها فلم ينفع
 الإِيْمان نفساً ما أمنت قبل ذلك و ما كسبت في إِيْمانها خيراً قبل ذلك ذكره
 الرَّاзи في تفسيره.

و قال السُّدي معناه أَنَّهُ لا ينفعه إِيْمانه حينئذٍ و أن إكتسب فيه خيراً إلا أن
 يكون مِمَّنْ أَمِنَ قبل ذلك.
 و قال الآخر المراد به التَّغْلِب لأنَّ الأكثر مِمَّنْ ينتفع بإِيْمانه حينئذٍ من كان
 كسب في إِيْمانه خيراً قبله.

و قال الطَّبْرسي رحمه الله في تفسيره بعد نقل الأقوال أَنَّ المعنى لا ينفع حينئذٍ
 إِيْمان من أَمِنَ من الكُفَّار و لا طاعة من أطاع من المؤمنين و من أَمِنَ من قبل
 نفعه إِيْمانه بإِنْفِرادِهِ و كذلك من أطاع من المؤمنين نفعته طاعته أيضاً قال أقوى
 الأقوال و أوضحها انتهى.

و به قال الشَّيْخ أيضاً في التَّبيان و الَّذي يختلج بالبال هو أَنَّ، أو، هاهنا
 بمعنى الواو و التَّقْدِير و كسبت في إِيْمانها خيراً و عليه فالمعنى واللَّه العالم أَنَّ
 عند إشراف السَّاعة لا ينفع نفساً إِيْمانها و أمَّا قبل إشراف السَّاعة فهو نافع اذا
 كان مقروناً بالعمل الصَّالح و أمَّا مجرَّد الإِعْتِقاد فلا و عليه فقوله: **أَوْ كَسَبَتْ**
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا يدلُّ على أَنَّ العمل شرط في صدق الإِيْمان و تحقُّقه هذا
 اذا قلنا أَنَّ، أو، بمعنى الواو.

و أما بناءً على ظاهر اللفظ وهو أن تكون كلمة، أو، للتخيير أو الإبهام فالمعنى أنه لا ينفع الإيمان ح إلا من آمن قبل ذلك، أو أمن حين إشرط الساعة ولكن كسب في إيمانه خيراً مضافاً على نفس الإيمان بالاستكثار من عمل البر وأنت ترى أن الأول أقوى، قُلِ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ أي قل لهؤلاء الكفار إنظروا ذلك اليوم الذي لا بد منه فأننا منتظرون حصوله بتحقق الآيات فيه.

روي في كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام والحديث طويل، وفيه ومعني قوله: هَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ فأنما خاطب نبيينا، هل ينظر المنافقون والمشركون إلا أن تأتيهم الملائكة فيعابنوهم أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يعني بذلك أمر ربك والآيات هي العذاب في دار الدنيا كما عذب الأمم السالفة في القرون الخالية.

وفي عيون الأخبار في باب ما جاء من الرضا عليه السلام من العلل بأسناده إلى أبي إبراهيم بن محمد الهمداني قال: قلت لأبي الحسن الرضا لأي علة أغرق الله تعالى فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده قال عليه السلام لأنه آمن عند رؤية البأس والايمن عندها غير مقبول وذلك حكم الله تعالى في السلف والخلف قال الله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا^(١) قال عز وجل: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا الحديث.

وعن تفسير العياشي عن زرارة وحمزان ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله في قوله: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ قال: طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة والدجال، والرجل يكون

مَصْرًا وَلَمْ يَعْلَ عَمَلُ الْإِيمَانِ ثُمَّ تَجِيَّ الْآيَاتُ فَلَا يَنْفَعُهُ إِيْمَانُهُ.
وَعَنْ كِتَابِ كِمَالِ الدِّينِ وَتَمَامِ النِّعْمَةِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام
قَالَ: فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ
نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ عليه السلام: الْآيَاتُ هُمُ الْأُتَمَّةُ
وَالْآيَةُ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ عليه السلام فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ
مِنْ قَبْلُ، قِيَامُهُ بِالسَّيْفِ وَإِنْ أَمَنَتْ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أِبَاءِهِ.
وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي بصير قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَوْمَ
يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا يَعْنِي خُرُوجَ الْقَائِمِ
الْمُنْتَظَرِ مِنَّا.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: مَا زَالَتِ الْأَرْضُ إِلَّا وَلِلَّهِ تَعَالَى
ذَكَرَهُ فِيهَا حِجَّةٌ يَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَيَدْعُوا إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَنْقُطُ الْحِجَّةُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَبْلَ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ فَإِذَا رَفَعْتَ الْحِجَّةَ أَغْلَقْتَ بَابَ التَّوْبَةِ وَلَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ
تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَرْفَعَ الْحِجَّةَ أُولَئِكَ شَرَارُ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ وَهُمْ
الَّذِينَ تَقُومُ عَلَيْهِمُ الْقِيَامَةُ.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ
تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ يَعْنِي فِي الْمِيثَاقِ، أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا،
قَالَ عليه السلام: الْإِقْرَارُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَآمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام خَاصَّةً
قَالَ لَا يَنْفَعُ إِيْمَانُهَا لِأَنَّهَا سَلِبَتْ

وَالْأَحَادِيثُ نَقَلْنَاهَا عَنْ تَفْسِيرِ نَوْرِ الثَّقَلَيْنِ ^(١).

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ
إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

قرأ حمزة والكسائي فارقوا و الباقون فَرَّقُوا بلا ألف مع تشديد الراء و المعنيان متقاربان لأنَّ القراءتين يؤلان الى شيء واحد ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ.

فقال بعضهم هم اليهود لأنهم كانوا يمالئون عبدة الأوثان على المسلمين. و قال قتادة هم اليهود و النَّصَارَى لأنَّ بعض النَّصَارَى يَكْفُرُ بعضاً وكذلك اليهود.

و قال الحسنهم جميع المشركين لأنهم جميعاً بهذه الصِّفة. و قال أبو جعفر الباقر عليه السلام هم أهل الضلالة و البدع من هذه الأمة و هو قول أبي هريرة و عائشة.

و قال صاحب الكشاف فَرَّقُوا دِينَهُمْ اِخْتَلَفُوا فيه كما اِخْتَلَفَ اليهود و النَّصَارَى و في الحديث اِفْتَرَقَتِ اليهود على إحدى و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلا واحدة و هي النَّاجية و اِفْتَرَقَتِ النصاري ثنتين و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلا واحدة و تَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثلاث و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلا واحدة و قيل فَرَّقُوا ببعض و كفروا ببعض انتهى.

وَكَانُوا شِيعَةً الشَّيْعَ الفرق التي يمالئ بعضهم بعضاً على أمرٍ واحدٍ مع اِخْتِلَافِهِمْ فِي غَيْرِهِ و أصله الإتياع من قولك شايعه على الأمر اذا تبعه لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ خطاب للنبي ﷺ وإعلام له أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ بمعنى أَنَّهُ ﷺ لَا يَجْتَمِعُ مَعَهُمْ فِي مَعْنَى مِنْ مَذَاهِبِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ لِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ و أن اِفْتَرَقُوا فِي غَيْرِهِ فَلَيْسَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ حَذَّرَهُمُ اللَّهُ مِنْ تَفَرُّقِ الْكَلِمَةِ وَ دَعَاهُمْ إِلَى الْاجْتِمَاعِ عَلَى مَا تَقُومُ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ.

ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ أَي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْكُمُ فِيهِمْ وَ يَنْبِئُهُمْ بِفَسَادِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَ التَّشْتِتِ وَ إَعْلَمَ أَنَّ الْآيَةَ الشَّرِيفَةَ فِيهَا نِقَاطٌ وَ حَقَائِقٌ لَا بَأْسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا إِجْمَالاً:

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

أحداها: أَنْ قوله: **فَرَّقُوا دِينَهُمْ** معناه أَنَّهُم اِخْتَلَفُوا فِيهِ اِخْتِلَافاً أَوْجِبَ التَّفَرُّقَ وَالتَّشْتُّتَ، وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ فَارَقُوا معناه تَرَكُوا دِينَهُمْ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَالأَوَّلُ أَوْلَى بِسِيَاقِ الْكَلَامِ وَلَئِنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا دِينَهُمْ بِالْكَلْبَةِ وَأَمَّا صَارُوا أَحْزَاباً وَفَرَقاً وَهُوَ وَاضِحٌ.

ثانيتها: أَنَّ أَكْثَرَ الْمَفْسِّرِينَ قَالُوا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الْيَهُودَ أَوْ النَّصَارَى أَوْ جَمِيعَ الْكَفَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ.

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِؤَلاءِ هُمُ أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْبَدْعِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الْجَمِيعَ بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَنْ فَرَّقَ دِينَهُ أَوْ فَارَقَ دِينَهُ فَهُوَ دَاخِلٌ فِيهَا وَعَلَيْهِ فَأَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْبَدْعِ الَّتِي فَرَّقُوا دِينَهُمْ أَوْ فَارَقُوهُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ مِنْ مَصَادِيقِ الْآيَةِ خَرَجَ عَنْهَا فِرْقَةٌ وَاحِدَةٌ وَبَقِيَ الْبَاقُونَ تَحْتَ الْحَدِيثِ وَالْعَجَبُ أَنَّ صَاحِبَ الْكَشَافِ نَقَلَ الْحَدِيثَ وَلَمْ يَبَيِّنِ الْمُرَادَ بِالْفِرْقَةِ الْوَاحِدَةِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْهَلَاكَةِ كَمَا لَمْ يَبَيِّنِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ هُمْ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ هِيَ الْفِرْقَةُ الْأَثْنِي عَشْرِيَّةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِمَامَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ وَأَحَدُ عَشَرَ مِنْ خُلَفَاءِهِ بَعْدَهُ أَخْرَجَهُمُ الْحُجَّةُ صَاحِبُ الزَّمَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي يَمْلَأُ اللَّهُ الْأَرْضَ بِهِ قِسْطاً وَعَدْلًا بَعْدَ مَا مَلَأَتْ ظُلُمًا وَجوراً وَلَنَعَمَ مَا قِيلَ:

وَلَمَّا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ ذَهَبَ بِهِمْ
رَكِبْتَ عَلَى إِسْمِ اللَّهِ فِي سَفْنِ النِّجَاةِ
وَأَمْسَكَتَ حَبْلَ اللَّهِ وَهُوَ وَلَاءُهُمْ
إِذَا افْتَرَقَتْ فِي الدِّينِ سَبْعُونَ فِرْقَةً
وَلَمْ يَكْ نَاجٍ مِنْهُمْ غَيْرُ فِرْقَةٍ
أَفِي الْفِرْقِ الْهَلَاكُ أَلْ مُحَمَّدٍ
مَذَاهِبُهُمْ فِي أَبْحَرِ الْقَيِّ وَالْجَهْلِ
وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِ الْمُصْطَفَى خَاتَمِ الرُّسُلِ
كَمَا قَدْ أَمَرْنَا بِالتَّمَسُّكِ بِالْحَبْلِ
وَتَيَّفَ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي مُحْكَمِ النَّقْلِ
فَقُلْ لِي بِهَا يَا ذَا التَّفَكُّرِ وَالْعَقْلِ
أَمْ الْفِرْقُ اللَّائِي نَجَتْ مِنْهُمْ قُلْ لِي

فَأَنْ قُلْتَ فِي التَّاجِينَ فَالْقَوْلَ وَاحِدٌ وَإِنْ قُلْتَ فِي الْهَلَكَ بَعْدَ عَنِ الْعَدْلِ
إِذَا كَانَ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ فَأَنْتَ رَضِيتَ بِهِمْ لَا زَالَ فِي ظِلِّهِمْ ظَلَمِي
فَخَلُّوا عَلَيَّ لِي وَلِيًّا وَنَسَلَهُ وَأَنْتُمْ مِنَ الْبَاقِينَ فِي أَوْسَعِ الْحِلِّ
ثالثها: أَنَّ التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ مَذْمُومٌ فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(١).
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^(٢).

وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ مِنْ أَعْظَمِ الدَّوَاهِي الَّتِي تَوْجِبُ
خُسْرَانَ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

رابعها: فِي قَوْلِهِ: لَسْتَ مِنْهُمْ قَالُوا مَعْنَاهُ أَنْتَ مِنْهُمْ بَرِيٌّ وَهُمْ مِنْكَ وَ
بِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنْكَ بَعِيدٌ عَنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَبَاطِيلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ فَالْعِقَابُ الْإِجْرَامُ عَلَى
تِلْكَ الْأَبَاطِيلِ مَقْصُورٌ عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَعَدَّاهُمْ.

وَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ أَنَّ كَانَ الْكَلَامَ مَعْنَاهُ هَذَا فَهُوَ مِنْ تَوْضِيحِ الْوَاضِحَاتِ
لَوْضُوحِ أَنَّ النَّبِيَّ لَيْسَ مِنْهُمْ وَالَّذِي نَفَهُمْ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الدِّينَ تَعَلَّقَ
بِالَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا أَتْبَاعًا لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَالْمَعْنَى أَنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شُعْبًا وَأَحْزَابًا غَيْرِ مُتَابِعِينَ لَكَ أَمَّا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَمَّا إِذَا كَانُوا
شُعْبًا لَكَ مُقْتَدِيًا بِكَ فِي دِينِهِمْ فَلَا عِقَابَ لَهُمْ لِأَنَّ التَّفَرُّقَ بِحَسَبِ الْأَرْءِ وَ
الْأَطْوَارِ لَا إِشْكَالَ فِيهِ إِذَا كَانُوا فِي دِينِهِمْ مُتَحَدِّينَ، وَهَذَا إِحْتِمَالٌ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ
النَّاسَ إِذَا تَفَرَّقُوا فِي دِينِهِمْ فَلَا مُحَالَةَ لَا يَكُونُ النَّبِيُّ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ
لَا يَكُونُونَ تَابِعِينَ لَهُ جَمِيعًا وَأَنْ إِدْعَاؤُ ذَلِكَ وَهُوَ وَاضِحٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَلُوسِيَّ الْبَغْدَادِيَّ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ الْمُسَمَّى بِرُوحِ الْمَعَانِي فِي هَذَا
الْمَقَامِ مَا هَذَا لَفْظُهُ:

قال رسول الله ﷺ إفترت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وإفترت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وستفترف أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وساق الكلام الى أن قال:

و من غريب ما وقع أن بعض متعصبي الشيعة الإمامية من أهل زماننا و اسمه، احمد، روي بدل إلا واحدة، في هذا الخبر إلا فرقة و قال أن فيه إشارة الى نجاة الشيعة فإن عدد لفظ فرقة بالجمل و عدد لفظ الشيعة سواء فكأنه قال عليه السلام إلا شيعة و المشهور بهذا العنوان هم الشيعة الإمامية فقلت له بعد عدة تزيينات لكلامه، ويلزم هذا النوع من الإشارة أن تكون كلباً لأن عدد كلب و عدد حمد، سواء فألقم الكلب حجراً انتهى كلامه لعنه الله.

و أنا أقول لا نعرف من علماء الشيعة من كان اسمه، حمد، ولعل اسمه كان أحمد، و مع ذلك ينبغي للألوسي أن يذكر أوصافه وأنه من هو و أين كان، و كيف يعقل أن يكون اسم شخص، حمد، اللهم إلا أن يكون اسمه، أحمد، أو حامد، فأسقط الألوسي الألف من اسمه لينطبق على ما قال هذا أولاً.

ثانياً أن قوله في الحديث، واحدة، معناه فرقة واحدة و لذلك قال واحدة ولم يقل واحد لكونها صفة للفرقة و عليه فأي فرق بين قولنا إلا واحدة و بين قولنا، إلا فرقة فما ذكره الألوسي دليل على جهله لكلام العرب و أن ذكر الصفة مستغن عن ذكر الموصوف في اللفظ لأنه موجود ملحوظ في ضمنها و أن لم يتلفظ به فقوله عليه السلام إلا واحدة تقديره إلا فرقة واحدة و هذا ظاهر لا خفاء فيه فلا فرق في ذكر الموصوف و حذف الصفة وبالعكس لدلالة كل واحدٍ منهما على الآخر.

ثالثاً: أن الحديث لا يختص بما ذكره الألوسي و نقله عن الترمذي و ابن ماجه و أمثالهما، و ذلك لأنه روي بطرق مختلفة و ألفاظ متفاوتة إلا أن المعنى في الجميع واحد.

وابعاً: نقول ما ذكره الألو سي في المقام لو كان فهو دليل على خبث طينته و سوء سريته و عدم طهارة نطفته التي خلق منها و ذلك لأنّ الولد الحلال لا يبغض أهل البيت و شيعتهم فلا يقول لمن تشيع و إعتقد النجاة بمتابعة أهل البيت عليهم السّلام ما قاله هذا الخبيث الطّريد

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

الحسن عبارة عن كلّ مبهج مرغوب فيه ثلاثة أضرب، متحسنّ من جهة العقل، و مستحسنّ من جهة الهوى و مستحسنّ من جهة الحسّ والحسنة يعبر بها عن كلّ ما يسرّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله و السيئة تضادها و هما من الألفاظ المشتركة كالحيوان الواقع على أنواع مختلفة كالإنسان و الفرس و غيرها اذا عرفت هذا فنقول.

قوله: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ أي من عمل بها فله عشر أمثالها أي فله عشر حسنات أمثالها من الثّواب و من جاء أي عمل بالسيئة فلا يجزى إلا مثل السيئة من العقاب.

قال بعض المحقّقين أنّ الواحد من العشرة مستحقّ و تسعة تفضّل بعضهم المعنى فله من الثّواب عشر حسنات أمثالها، و قيل و هذا لا يجوز لأنّ إعطاء غير العامل مثل ثواب العامل قبيح كما يقبح أن يعطى الأطفال مثل ثواب الأنبياء و مثل إجلالهم و إكرامهم و أن يرفع منزلتهم عليهم.

قالوا و إنّما لم يتوعّد على السيئة إلا بمثلها لأنّ الزائد على ذلك ظلم و الله يتعالى عنه و أمّا زيادة الثّواب على الجزاء تفضّل و إحسان فجاز أن يزيد عليه قال القرطبي و الحسنة هنا الإيمان أي من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكلّ عمل عمله في الدّنيا من الخير عشرة أمثاله من الثّواب و من جاء بالسيئة، يعني الشّرك فلا يجزى إلا مثلها و هو الخلود في النّار لأنّ الشّرك أعظم الذّنوب

و النَّارَ أَكْثَرُ الْعُقُوبَةِ ثُمَّ رَوَى عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ أَنَّهُ قَالَ الْحَسَنَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالسَّيِّئَةُ الشُّرْكُ انْتَهَى.

ولقائل أن يقول أي دليل دلّ على أن المراد بالحسنة لا إله إلا الله وبالسَّيِّئَةُ الشُّرْكُ، من الكتاب أو السُّنَّة أو أما قول أبي صالح الذي هو من آحاد النَّاس فلا يمكن تفسير كلام الله به هذا أولاً.

ثانياً: نقول لازم ما ذكره هذا القائل هو إختصاص السيئات بالمشركون و الحسنات بمن قال لا إله إلا الله و أن لم يعتقد بما قال كأكثر امسلمسن أمثال أبي سفيان و معاوية و يزيد و عبد الملك و الحجاج و أمثالهم ممن كانوا من القائلين بكلمة التوحيد، و لا يقول بهذه المقالة عاقل فضلاً عن مسلم.

نعم لا إله إلا الله، من الحسنات و هذا ممّا لا كلام فيه كما أن الشُّرْك من السيئات و أمّا أن المراد بالحسنة هو القول بلا إله إلا الله كيف إنفق وبالسَّيِّئَةُ الشُّرْك فلا دليل عليه بل الدليل على خلافه عقلاً و نقلاً.

ثالثاً: ظاهر قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ أَوِ السَّيِّئَةِ هُوَ الْعَمَلُ الْمُتَّصِفُ بِالْحَسَنِ أَوِ الْقَبِيحِ شُرْعاً و عقلاً وكلمة لا إله إلا الله ليست من سنخ الأعمال كما أن الشُّرْك و هو عدم الاعتقاد به أيضاً كذلك بل الحق أن التوحيد و الشُّرْك من سنخ الاعتقادات والله تعالى لم يقل من قال بالحسنة أو من يعتقد بالحسنة فله عشر أمثالها و من يعتقد بالسَّيِّئَةِ فلا يجزى إلا مثله بل قال من جاء بهما كذلك و هو ظاهر في العمل بل نقول في الآية دلالة على أن الإتيان بالحسنة حكمه كذلك سواء كان العامل بها موحداً أو كافراً كما أن الإتيان بالسَّيِّئَةِ أيضاً على هذا المنوال والدليل على ذلك قوله في آخر الآية وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

وجه الإستدلال هو أن الكافر لو أتى بالحسنة و لا يجزى عليها فهو ظلم. نعم لو يقال بعدم إستحقاق الكافر التفضل لا إشكال فيه و أمّا الجزاء بالمثل فلا بد منه قضاء لحكم الحق و لقوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ

يَعْمَلُ مِنْقَالِ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١) و عليه فأصل الجزاء في الحسنه و السيئه لا فرق فيه بين المسلم و الكافر و أمّا التّفَضُّل في الحسنات بقوله فله عشر أمثاله فهو مختصّ بالمؤمن أنّ دلّ عليه الدليل.

و السّر فيه هو أنّ الآية و أمثالها نزلت لأجل التّرعيب في الخيرات و التّجنب من السيئات و هذا حكم عامّ يشمل الجميع والقائل بالتّخصيص لا بدّ له من إقامة الدليل واذليس فليس هذاكله مع أنّ مقتضى العدل أيضاً ما ذكرناه. و أعلم أنّ في المقام إشكالاً ذكره القرطبي و غيره من مفسري العامّة و هو أنّ هذا الحكم منافٍ:

قال الله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ^(٢).

قال الله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً^(٣).

وجه التّنافي هو أنّه تعالى حكم في المقام بأنّ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، و حكم هناك بأكثر من ذلك.

و قد أجابوا عنه بأنّ المعنى في ذلك أنّ جزاء الله على الحسنات على التّضعيف للمثل الواحد الذي هو النّهاية في التّقييد في النّفوس و يضاعف الله عن ذلك بما بين عشرة أضعاف الى سبع مائة ضعف الى أضعاف كثيرة ففائدة ذلك أنّه لا ينقص من الحسنه عن عشر أمثالها لا أنّه لا يزداد ففيما زاد على ذلك يزيد على من يشاء من فضله و إحسانه.

و قال بعضهم المعنى من جاء بالحسنة فله عشر أمثال المستحق عليها و المستحقّ مقداره لا يعلمه إلاّ الله و ليس يريد بذلك عشر أمثالها في العدد.

وقال آخرون المعنى في ذلك أنَّ الحسنة لها مقدار من الثَّواب معلوم لله تعالى فأخبر الله أنَّه لا يقتصر بعباده على ذلك بل يضاعف لهم الثَّواب حتَّى تبلغ ذلك ما أراد و علم أنَّه أصلح لهم ولم يرد العشرة بعينها لكن أراد الأضعاف.

وقال قوم عني بهذه الآية الأعراب و أمَّا المهاجرون فحسانتهم سبع مائة. وقال قوم معنى عشر أمثالها، لأنَّه كان يؤخذ منهم العشر في الزَّكاة وكانوا يصومون في كلِّ شهر ثلاثة أيَّام والباقي لهم. وقال القرطبي العشر لسائر الحسنات والسَّبع مائة للتَّفقه في سبيل الله و الخاصَّ والعام فيه سواء.

ونقل عن بعضهم أنَّه قال العشرة للعوامَّ و سبع مائة للخوَّاص ثمَّ إختار الأوَّل لحديث ضريم بن فاتك عن النَّبي ﷺ وفيه و أمَّا حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها و أمَّا حسنة بسبع مائة فالتَّفقه في سبيل الله. وقال الرَّاзи، مذهبنا أنَّ الثَّواب تفضَّل من الله تعالى في الحقيقة وعلى هذا التَّقدير فلا إشكال في الآية انتهى.

و أنا أقول الحقَّ عندنا أنَّ الثَّواب إستحقاق بمعنى أنَّ العبد يستحقَّ بعمله الثَّواب إلَّا أنَّ ثواب الحسنة الواحدة واحد مثلها و ما زاد عليه فهو من الفضل و فضل الله تعالى غير متناهية و لا يمكن تحديده بحدٍّ من الحدود بل لا يبعد القول بتفاوته بتفاوت الإخلاص في العمل فمن كان إخلاصه أكثر كان فضل الله عليه أكثر و بالعكس و عليه فقوله بعشر أمثالها ليس للتحديد واقعاً بل المراد به أقلُّ مراتب الفضل و أمَّا نهايته فلا يعلمها إلَّا الله تعالى، أو أنَّ المراد به مجرَّد إعلام الكثرة و يدلُّ عليه قوله: **فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** وكيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى و العلم بأنَّ الفضل بيده يعطي العبد كيف يشاء على مراتب قرب العبد في العبودية و بعده عنها والله أعلم.

روى في أصول الكافي بأسناده عن حمزان بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام فهل للمؤمن فضل على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام والحدود غير ذلك فقال عليه السلام: لا هما يجريان في ذلك مجرى واحد ولكن للمؤمن فضل على المسلم في أعمالهما وما يتقربان به إلى الله عز وجل قلت أليس الله عز وجل يقول: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وزعمت أنهم مجتمعون على الصلاة والزكاة والصوم والحج مع المؤمن قال عليه السلام أليس قد قال الله عز وجل: فَيُضَاعَفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً فالمؤمنون هم الذين يضاعف الله عز وجل لهم حسناتهم لكل حسنة سبعين ضعفاً فهذا فضل المؤمن ويزيده الله في حسناته على قدر صحة إيمانه أضعافاً كثيرة ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة ^(١).

وأنت إذا تأملت في هذا الحديث لعلمت صحة ما قلناه في تفسير الآية. وعن تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا قال هي للمسلمين عامة والحسنة الولاية فمن عمل حسنة كتبت له عشرة والأحاديث كثيرة.



قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا
 قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَ
 مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَ
 بِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ
 أَغْنِيَ اللَّهُ أَنْعَى رَبِّيَا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا
 تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
 وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
 كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
 خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
 دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
 الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

◀ اللغة

قِيمًا، القِيمَ فيعمل من قام، كسَيْد من ساد وهو أبلغ من القائم قاله صاحب
 الكشاف ومعناه الثابت أي ثابتاً مقوماً لأُمور معاشهم ومعادهم، وقال الزجاج
 هو مصدر بمعنى القيام ووصف الذين به على سبيل المبالغة.

حَنِيفًا، الحَنَفُ هُوَ مِيلٌ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْإِسْقَامَةِ، وَالْجَنَفُ بِالْجِيمِ مِيلٌ عَنْ
 الْإِسْقَامَةِ إِلَى الضَّلَالِ، فَالْخِيفُ هُوَ الْمَائِلُ إِلَى الْإِسْقَامَةِ.

نُسُكِي، النُّسُكُ الْعِبَادَةُ.

أَبْغَى أَي أَطْلَبُ وَأَتَّخِذُ.

وَزَّرَ بِكَسْرِ الْوَاوِ الْإِثْمَ.

خَلَّاتِفَ جمع خليفة كصحائف جمه صحيفة.

◀ الإعراب

دينًا في نصبه ثلاثة أوجه:

الأول: هو بَدَل من الصَّراط على الموضع.

الثاني: أنه منصوب بفعل مُضمَر أي عَرَفَنِي دينًا.

الثالث: أنه مفعول، هَدَانِي.

قِيَمًا بالتَّشْدِيد صفة لدينٍ مِلَّةً بدل من دين أو على إضمار أعني حَنِيفًا حال أو على إضمار أعني لِلَّهِ أي ذلك كله لله.

◀ التفسير

قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أي قل يا مُحَمَّد لهؤلاء النَّاس إِنِّي هَدَانِي رَبِّي، والهداية تطلق على معنيين.

أحدهما: إراءة الطريق، وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(١).

ثانيهما: الإيصال إلى المطلوب وإلى هذا أشار بقوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٢) فبقوله: إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إشارة إلى المعنيين أي أَنَّ اللَّهَ تعالى أراني طريق الحقِّ وأوصلني إلى المطلوب والصَّراط المستقيم هي التي لا عوج فيها.

وأن شئت قلت هي الطريق الوسطى فأن اليمين والشَّمال مضلَّة والجادة الوسطى هي الحقُّ الحقيقي بالإتباع ولذلك نقول في كلِّ صلاة، إهدنا الصَّراط المستقيم وقد تكلمنا في هذا الباب في سورة الحمد دينًا قِيَمًا مِلَّةً إِبْرَاهِيمَ

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

الجملة السابعة

حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ بِكسر الدَّالِ يقال للطاعة و الجزاء و أستعير للشريعة و الذين الملة لكنه يقال إعتباراً بالطاعة و الإنقياد للشريعة، قاله الزاغب في المفردات، وقوله: قِيَمًا قرأ ابن عامر و أهل الكوفة بكسر القاف و تخفيف الياء و فتحها، و الباقون بفتح القاف و تشديد الياء و هو الأشهر و عليه المصاحف، وقوله: قِيَمًا أي ثابتاً مقوماً لأُمور معاشهم و معادهم.

و أما على القراءة الأخرى، أعني بها قِيَمًا فهو مَحْفَ عن قيام و قيل هو وصف نحو قومٍ عدي و سكانٌ سوى، و المعنى أنه تعالى عَرَفَنِي ديناً قِيَمًا. و قال القراء هو نصب على المصدر كأنه قال هداني إهتداءً و وضع ديناً موضعه، و الملة بكسر الميم و فتح اللام كالدين و هو إسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به الى جوار الله و الفرق بينهما و بين الذين أن الملة لا تضاف إلا الى النبي و لا تكاد تُوجد مضافةً الى الله و لا الى أحاد أمة النبي ﷺ و لا تستعمل إلا في حملة الشرائع دون آحادها، فلا يقال، ملة الله و لا يقال ملتني و ملة زيد كما يقال دين الله و دين زيد و ديني فكل ملة دين و لا عكس.

و أصل الملة من أملت الكتاب، و تقال الملة إعتباراً بالشئ الذي شرعه الله و الذين يقال إعتباراً بمن يقيمه إذ كان معناه الطاعة، و معنى الآية أن الله تعالى هداني و عَرَفَنِي ديناً قِيَمًا أي ثابتاً مقوياً لأُمور معاش الناس و معادهم و هو دين إبراهيم الخليل الذي كان حنيفاً أي مخلصاً لعبادة الله، أو مائلاً الى الإسلام ميلاً لازماً لا رجوع فيه فقوله: حَنِيفًا نصب على الحال من إبراهيم و أنما وصف دين النبي بأنه ملة إبراهيم ترغيباً فيه للعرب لجلالة إبراهيم في نفوسهم و غيرهم من أهل الأديان و قوله و ما كان من المشركين، مدح إبراهيم عليه السلام حيث شهد الله بأنه عليه السلام لم يشرك بالله طرفة عين و من كان

كذلك فهو مَوْحِد واقِعاً ولذلك كان حقيقياً بالإِتباع ومفهوماً الكلام أَنَّ المَشْرِك لا يَتَّبِع مطلقاً لأنَّ المَشْتَقَّ أعمَّ عَمَّا أَنْقَضِيَ عنه المَبْدَأ ولا يشترط فيه التَّلْبَس بالفعل وحيث أَنَّ الوَصِيَّ بعد النَّبِيِّ يجب متابعتة والإِنقياد له فالحكم ثابت له أيضاً المطلوب قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّه بِأَنْ يَقُولَ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي، كُلُّهَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قال بعضهم أَنَّ المراد بالصَّلَاة المفروضة وقيل صلاة اللَّيْلِ صلاة العيد لمناسبة النَّسَك وقيل غير ذلك والكلُّ لا دليل عليه والحقُّ أَنَّ المراد بها مطلق الصَّلَاة، وأمَّا النَّسك، فقد قيل معناه العبادة وقيل الذَّبِيحَة والأحسن حمله على العموم أيضاً إذ الخصوص لا دليل عليه ومعنى محيائي ومماتي لله أَنَّهُ لا يملكها إِلَّا اللهُ أو حياتي لطاعته ومماتي رجوعي إلى جزاءه و المقصود أَنَّ العبادة للعبد لا تكون إِلَّا بتوفيقٍ من الله كما أَنَّ الحياة والممات لا تكونان إِلَّا بإرادته تعالى لِأَنَّ الله هو الَّذي يحيي ويميت واللام في قوله: لِلَّهِ للإختصاص وفيه إشارة إلى أَنَّ العبادة خالصة له بمعنى أَنَّ غيره كائناتاً ما كان لا يليق أن يعبد وإلى هذه الدَّقِيقَة أشار بقوله رَبِّ الْعَالَمِينَ إذ لا رَبَّ للعالمين سواه.

ثُمَّ وصف الله ثانياً بَأَنَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ أي أَنِّي أعبد رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذي لا شريك له في الملك وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ أي أَنِّي مأمورٌ بعبادته كذلك وأنا أول المسلمين، المطيعين المنقادين له من هذه الأمة أو من جميع الخلق لقوله ﷺ أول ما خلق الله نوري قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ قل يا محمد لهؤلاء الكفار أغير الله أبغي، وأطلب، و الهمة للإبتكار أي لا أبغي غير الله ولا أتخذ ربّاً سواه، وهو ربُّ كُلِّ شَيْءٍ، أي و الحال أَنَّهُ تعالى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ والسرف فيه.

هو أنّه إذا ثبت أنّ الله ربّ كلّ شيءٍ فكلّ موجود سواء كان ما كان فهو مربوبٌ مخلوق له والعقل السليم يحكم بقبح إتخاذ المربوب ربّاً مع وجود الرّب الخالق له وذلك لأنّ المخلوق المربوب محتاج الى خالقه وربّه محتاج ممكن الوجود و عبادة الممكن للممكن من أقبح الأفعال لعدم الفرق بين العابد والمعبود في الفقر والإحتياج ولذلك قال على سبيل الإنكار، قل أغير الله أبغي ربّاً وهو ربّ كلّ شيء.

أَنْ هَذَا لَا يَكُونُ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا أَي لَا يَكُونُ جَزَاءَ عَمَلٍ كُلِّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَوَجْهَ إِتِّصَالِهِ بِمَا قَبْلَهُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُنِي فِي إِبْتِغَاءِ رَبِّ غَيْرِهِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِعُذْرٍ لِي فِي إِكْتِسَابِ غَيْرِي لَهُ لِأَنَّهُ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَقِيلَ أَنْ الْكُفَّارَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّا كُفَرْنَا وَكَانَ أُنْكَارًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ أَي أَنْكُمْ تَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّكُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا مُحَالَةَ فَهَنَّاكَ يَنْبَنُّكُمْ وَيُخَبِّرُكُمْ اللَّهُ بِالْحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْبَاطِلِ فَيَمْتَازُ الْمُحْسِنُ مِنَ الْمُسِيءِ بِمَا يَزُولُ مَعَهُ الشُّكُّ وَالْإِشْتِيَابُ وَيَقَعُ مِنْهُ النَّدَامَةُ فِي وَقْتٍ قَدْ فَاتَ فِيهِ إِسْتِدْرَاكُ الْخَطِيئَةِ وَأَيُّ خَسْرَانٍ أَعْظَمَ مِنْهُ.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ خَلَائِفَ بَفَتْحِ الْخَاءِ جَمْعُ خَلِيفَةٍ وَالْخِلَافَةُ هِيَ النِّيَابَةُ عَنِ الْغَيْرِ إِمَامًا لْغَيْبَةِ الْمُنُوبِ عَنْهُ وَأَمَّا لِمَوْتِهِ وَأَمَّا لِعِجْزِهِ وَأَمَّا لِتَشْرِيفِ الْمُسْتَخْلَفِ وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْأَخِيرِ اسْتَخْلَفَ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ فِي الْأَرْضِ وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَكَم خَلَائِفَ الْأَرْضِ.

إِمَّا لِأَنَّ أَهْلَ كُلِّ عَصْرٍ يَخْلُقُونَ أَهْلَ الْعَصْرِ الَّذِي قَبْلَهُ كُلَّمَا مَضَى وَاحِدٌ خَلْفَهُ آخَرَ عَلَى إِنْتِظَامٍ وَإِتِّسَاقٍ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى مَدَبِّرٍ حَكِيمٍ أَجْرَاهُ عَلَى هَذِهِ الصُّفَّةِ. وَأَمَّا لِأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُمْ خُلَفَاءَ الْجَانِّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ آدَمَ.

وقال قوم معناه أنا جعلناكم خلفاء سائر الأمم وكيف كان فقد ذكر الله تعالى هذا اللفظ في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: لَيْسَتْخَلِفْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^(١).

قال الله تعالى: عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ^(٢).
قال الله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى^(٣).

قال الله تعالى: وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ^(٤).
قال الله تعالى: وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ^(٥).

ومحصل الكلام هو أن سنة الله جرت على ذلك وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا بد له من الموت وإذا كان كذلك فينبغي له أن لا يعتمد على الدنيا وما فيها من المال والجاه والأولاد وغيرها فأنها في معرض الفناء والزوال كان كذلك لا يعتمد عليه.

وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ أَي جعلكم كذلك.

قال السدي معناه رفع بعضهم فوق بعض في الرزق وقوة الأجسام وحسن الصورة وشرف الإنسان وغير ذلك بحسب ما علم من مصالحهم، ويحتمل أن يكون المراد الرفعة في العلم والإيمان والفهم وغير ذلك والجامع هو أن الله تعالى لم يخلقهم على السواء في الصورة والسيرة والصفة بل خلقهم مختلفين متمايزين من جهات شتى على ما يقتضيه النظام، ففي نظام الكل كل منتظم، وفي قوله تعالى: لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ إشارة إلى أن هذا التفاوت و

١- النور = ٥٥

٢- الأعراف = ٢٩

٣- الأعراف = ١٦٩

٤- الأعراف = ٦٩

٥- الأعراف = ٧٤

الاختلاف من حيث الغنى والفقر والعلم والجهل وهكذا ليس منشأه العجز والضعف والبخل وأمثال ذلك مما لا يليق بجناحه بل أنما هو لأجل الإبتلاء والإختبار ليختبر الغنى بالفقر والفقير بالغنى والعالم بالجاهل والجاهل بالعالم والقوي بالضعيف والضعيف بالقوي وهكذا مضافاً الى أن حفظ النظام أيضاً يقتضي التفاوت بينهم من تلك الجهات وهو واضح إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ قالوا أنما وصف نفسه بأنه سريع العقاب مع وصفه تعالى بالإمهال ومع أن عقابه في الآخرة من حيث كان كل آت قريباً، فهو إذاً سريع كما قال: وَمَا أَفْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ^(١)

ويحتمل أن يكون المراد أنه سريع العقاب بمن إستحققه في دار الدنيا فيكون تحذير الواقع على الخطيئة على هذه الجهة، وقيل معناه أنه قادر على تعجيل العقاب فأحذروا فعاجلته.

ثم قال: وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ بعد قوله: سَرِيعُ الْعِقَابِ للدلالة على أن الله مع أنه سريع العقاب فهو غفورٌ ورحيمٌ أيضاً بمعنى أنه تعالى أرحم الراحمين في موضع العفو والمغفرة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنعمة فينبغي أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء وأنما قدم العقاب على الغفران والرحمة في هذا المقام مع أنه قد ثبت أن رحمته سبقت غضبه لأن الغفران والرحم لا ينحقق إلا بعد إستحقاق العقاب ففي الآية دلالة على أن الله يغفر المذنبين المستحقين للعقاب بعد التوبة أو مطلقاً وبعبارة أخرى أن شاء عذب وأن شاء غفر وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون والمراد بالعقاب في الآية معناه العام سواء كان في الدنيا أم في الآخرة أو فيهما فأن الأمور بيده.

* * *

سُورَةُ الْأَعْرَافِ ﴿٧٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي
صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
(٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ
قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
(٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ
قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ
إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ
بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَ
مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ
مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠)

◀ اللّغة

فِي صَدْرِكَ: الصّدر بفتح الصّاد الجارحة وجمعه صدور ثمّ أُستعير لمقدّم الشّي كصدر المجلس و الكلام وغيرهما.

حَرْجٌ: بفتح الحاء و الرّاء في الأصل مجتمع الشّي وتصور منه ضيق ما بينهما فقليل للضيق الحرج و يطلق على الإثم أيضاً.

بَأْسُنَا: البأس الشدّة و المكروه.

يَبَاتًا: البيات والتّبيت قصد العدو ليلاً.

◀ الإعراب

كِتَابٌ يجوز أن يكون خبراً لقوله، المص، و أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذا أو هو كتابٌ أُنْزِلَ صفة له مِنْهُ نَعَتْ للحرج و ذِ كَرَى يمكن أن يكون منصوباً على الحالّية من الضّمير في أنزل، و ما بينهما معترض، و أن يكون معطوفاً على موضع، لِتُنْذِر، و قيل أنّه في موضع رفع بناءً على أنّه معطوف على، كتاب، أو على أنّه خبر ابتداءٍ محذوف أي وهو، ذكرى، و قيل موضعه جرّ عطفاً على موضع، تنذر من رِبِّكُمْ متعلّق، بأنزل، أو متعلّق بمحذوف و يكون حالاً أي أنزل اليكم كائناتاً من ربكم، مِنْ دُونِهِ حال من أولياء و كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ كم، مبتدأ، و من قرية تبين و الخبر أَهْلَكْنَاهَا و تأنيث الضّمير لأنّ، كم، في المعنى قرى و قيل أنّ أَهْلَكْنَاهَا، صفة لقرة و الخبر فَجَاءَهَا بِأَسْنَاً وهو غلط لوجود الفاء و قيل، أنّ، كم، في موضع نصب بفعلٍ محذوف دلّ عليه، أَهْلَكْنَاهَا، والتّقدير كثيراً من القرى أَهْلَكْنَاهَا يَبَاتًا إسم للمصدر وهو في موضع الحال و قيل أنّه مفعول له، أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ الجملة حال، و أو لتفصيل الجمل أي جاء بعضهم بأسنا ليلاً و بعضهم نهاراً دَعَوْهُمْ يجوز أن يكون إسم كان و إلاّ أنّ قَالُوا الخبر و يجوز العكس بعلم في موضع الحال أي عالمين و أَلْوَزْنَ مبتدأ و يَوْمَئِذٍ خبره الْحَقُّ صفة للوزن أو خبر مبتدأ محذوف بِمَا كَانُوا ما مصدرية أي بظلمهم.

التفسير

الْمَصِّ: اختلفت كلمات المفسرين في أوائل السور بالحروف المقطعة فالمشهور أنها أسماء للصور وقد مر الكلام في هذا الباب في أول سورة البقرة. ونقل عن ابن عباس في هذا المقام أنه قال معناه، أنا الله أعلم وأفضل، والله أعلم.

كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

لا خلاف في أن المراد بالكتاب هو القرآن والتقدير هذا كتاب أنزل إليك، من الله تعالى: فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ قيل في معناه أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ، وقيل لا يضيق صدرك ألا يؤمنوا، فأنما عليك البلاغ والإنذار. وأما إيمانهم أو كفرهم فهو ليس بيدك.

وقال مجاهد وقتادة أن الحرج هنا الشك ولكن ليس هذا شك الكفر هو شك الضيق ومنه:

قال الله تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ^(١).

قال الله تعالى: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ^(٢).

وقال الحسن أي لا يضيق صدرك لتشعب الكفر بك خوفاً ألا تقوم بحقه وإنما أنزل إليك لتنذر به، وقال الفراء معناه لا يضيق صدرك بأن يكذبوك لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ أي أنما أنزلناه إليك لتنذر الناس به وأن يكون الكتاب أو الإنذار ذكرى للمؤمنين فالذكرى إسم للتذكير.

قال بعضهم الإنذار للكافرين والذكرى للمؤمنين لأنهم المتفعون به.

قال الرازي في المقام ما هذا لفظه.

و البحث العقلي فيه أن النفوس البشرية على قسمين:

نفوس بليدة جاهلة بعيدة عن عالم الغيب غريقة في طلب اللذات الجسمانية والشهوات الجسدانية، و نفوس مشرقة بالأنوار الإلهية مستعدة بالحوادث الروحانية فبعث الأنبياء والرسل في حق القسم الأول إنذار و تخويف فأنهم لما غرقوا في نوم الغفلة و رقدة الجهالة احتاجوا الى مواظ يوقظهم و الى منبه ينسبهم.

و أما في حق القسم الثاني فتذكير و تنبيه و ذلك لأن هذه النفوس بمقتضى جواهرها الأصلية مستعدة للإجذاب الى عالم القدس والاتصال بالحضرة الصمدية إلا أنه ربما غشيها من عالم الجسم فيعرض لها ذهول و غفلة فإذا سمعت دعوة الأنبياء و اتصل بها أنوار أرواح رسل الله تذكّرت مركزها و أبصرت منشأها و اشتاقت الى ما حصل هنالك من الروح و الراحة و الرّيحان فثبت أنه تعالى إنّما أنزل هذا الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حق طائفة و ذكرى في حق طائفة أخرى و الله أعلم إنتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

ونحن نقول ما ذكره و سمّاه بالبحث العقلي لا ربط له بتفسير كلام الله و مع ذلك لا يحكم العقل به و ذلك لأن النفوس الشريفة المشرقة بالأنوار الإلهية لا تكون كذلك إلا بمتابعة الأنبياء كما أن النفوس البعيدة عن عالم الغيب الغريقة في طلب اللذات الجسمانية و الشهوات الجسدانية أيضاً لا تكون كذلك إلا بالثمرد و مخالفة الأنبياء و اذا كان الأمر على هذا المنوال فنقول أن الله تعالى أنزل الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حق الكل و تذكيراً كذلك:

قال الله تعالى: الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا^(١).

قال الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا^(٢) وأمثال

ذلك من الآيات الكثيرة.

فالإنذار في حق طائفة دون طائفة أخرى كلام لا معنى له.

و أن أراد الرّازي بقوله هذا أن الله تعالى خلق بعض النفوس مستعدة مشرقة بالأنوار الإلهية وبعضها بليدة خبيثة شريرة غير مستعدة فنحن لا نقول به لأنه عين الجبر.

نعم هذا يتم على مسلك الرّازي لأنه معتقد به و ليت شعري كيف يقول العاقل أن بعض النفوس لا يحتاج الى الإنذار أليس معنى هذا الكلام أن الأنبياء إنما بعثوا الى الجهال دون العقلاء لأنهم لا يحتاجون الى الإنذار ومن المعلوم أن من لا يحتاج الى الإنذار لا يحتاج الى النبي قطعاً إذا عرفت هذا فأعلم أن معنى الآية هو أن الله تعالى أنزل الكتاب على رسوله لينذر به المؤمنين و يذكرهم و تخصيص المؤمنين بالذكر مع أن الرسول مبعوث الى المؤمن وغيره و منذرٌ و مذكرٌ للمؤمن وغيره لأن غير المؤمن لا ينتفع بالإنذار و بالتذكير غالباً كما قال هدى للمتقين، و أما الإنذار في حق طائفة و التذكير في حق طائفة أخرى فلا يساعده العقل و الثقل و العرف.

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

أمر الله المكلفين بمتابعة ما أنزل اليهم وهو القرآن ونهاهم عن متابعة غير الله تعالى أو غير الكتاب و المال واحد لأن متابعة الكتاب متابعة الله و بالعكس والأولياء جمع ولي وهو ضد العدو وقوله: قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ معناه الإستبطاء في التذكر و خرج مخرج الخبر وفيه معنى الأمر، أي تذكروا كثيراً ممّا يلزمكم من أمر دينكم و ما أوجبه الله عليكم ثم أخبر أنهم قليل ما تذكرون، و الماء زائدة و كم من قرية أهلكتها فجاءها بأسنا بيناتاً أو هم قاتلون قالوا لفظه، كم، موضوعه للتكثير كما أن لفظه، رب، للتقليل و ذلك لأن رب، حرف، و، كم، إسم و التعليل ضرب من النفي، إلا أن، كم، تدخل في الخبر بمعنى التكثير و أمّا في الإستفهام فلا، ثم إن الله تعالى أخبر الكفار على

وجه التّخويف والإيعاد أنّه أهلك كثيراً من القرى يعني أهلها لعصيانهم و كفرهم بالله وقال: **فَجَاءَهَا بِأُسْنًا بَيِّنَاتًا** أي جاء أهل القرية بأسنا و عذابنا في الليل أمرهم قائلون، يعني وقت القيلولة وهو نصف النّهار وأصله الرّاحة لأنّ معنى أقلتة البيع أرحته منه بإعفائي إيّاه من عقده وإمّا نزل العذاب كذلك لأنّ الأخذ بالشّدّة في وقت الرّاحة أعظم في العقوبة فلذلك حصّ الوقتين بالذّكر. قال القراء الفاء في قوله: **فَجَاءَهَا** بمعنى الواو أي وجائها وقال الرّماني هذا يجوز إذا كان له دليل وإذ ليس فليس فالفاء بمعناها، والحق أنّ الفاء ليست للتّعقيب وإمّا هي للتفسير كقولهم توضّأ فغسل كذا ثمّ كذا، وكلمة، أو، للتنويع أي جاء بالبأس مرّة ليلاً كقوم لوط ومرّة وقت القيلولة كقوم شعيب، وقوله: **بَيِّنَاتًا** نصب على الحال وهو مصدر أي فجائها بأسنا باثنتين وهكذا قوله: **أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ** جملة في موضع الحال والتّقدير، أو قاتلين.

أن قلت ظاهر قوله تعالى: **فَجَاءَهَا بِأُسْنًا بَيِّنَاتًا** هو أنّ البأس جاء بعد الإهلاك بدليل الفاء التي تفيد التّرجيب والتّأخير فإذا قلت جائني زيد فعمرو، معناه أنّ زيدا جاء قبل عمرو إلا أنّ التّرتيب كان متّصلاً بمعنى أنّ عمرو جاء بعد زيد ولكن كان مجيئه متّصلاً بمجيئ زيد وهذا هو الفرق بينهما وبين، ثمّ، حيث أنّها للتّرتيب الإنفصالي فقولنا جائني زيد ثمّ عمرو يدلّ على أنّ عمرو كان مجيئه بعد زيد متّصلاً أي بعد لحظة وساعة مثلاً.

قال ابن مالك في الفيّة، والفاء للتّرتيب باتّصالٍ وتّم إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: **أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأُسْنًا** يدلّ على مجيئ البأس والشّدّة بعد الإهلاك وهذا لا معنى له وقد أجيب عنه بوجوه:

أحدهما: أنّ الفاء بمعنى الواو التي تفيد الجمع بين المعطوف و معطوف عليه والمعنى جائهم الإهلاك والبأس معاً.

ثانيها: أنّ التّقدير وكم من قرية أردنا إهلاكها فجائها بأسنا الآية المعلوم أنّ البأس والعذاب بعد الإرادة.

ثالثها: أن الفاء للتفسير لا للتعقيب كما مرّ الكلام فيه.

رابعها: أن الهلاك وقع ببعض القوم أولاً وبالجمع ثانياً فالمعنى أهلكنا بعضهم فجاءهم بأسنا جميعاً.

خامسها: أن التقدير كمّ من قريّة أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا

سادسها: أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب فجاءها بأسنا بالإستئصال.

سابعها: أن المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إيّاهم في وقت كذا فمجيئ البأس على هذا هو الهلاك بعينه فَمَا كَانَ دَعْوِيَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ قِيلَ أَنْ الدَّعْوَى وَالدَّعَاءُ وَفَرَّقَ قَوْمٌ بَيْنَهُمَا بَأْنَ فِي الدَّعْوَى إِشْتِرَاكاً بَيْنَ الدَّعَاءِ وَالْإِدْعَاءِ الْمَالِ وَغَيْرِهِ وَأَصْلُهُ الطَّلَبُ.

وقال الرّازغب في المفردات الدُّعاء الى الشَّيْءِ الحثُّ على قصده والدَّعوة مختصةٌ بإدعاء النسبة وأصلها للحالة التي عليها الإنسان نحو القعدة والجلسة أنتهى.

قال بعضهم أن الدَّعْوَى في الآية بمعنى الإِدْعَاء أي وكان إدعاءهم كذا كما أنَّها بمعنى الدُّعاء في قوله تعالى: (وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وأنا أقول ما ذكره في المقام وهو أن الدَّعْوَى بمعنى الإِدْعَاء لا يساعده العقل ولا النُّقل وذلك لأنَّ الدُّعاء لمطلق الطَّلَب والإِدْعَاء لطلب إثبات الشَّيْءِ سواء كان محققاً فيه أم لا كما يقال فلان يدعي العلم أو المال فربما يكون في إدعاءه صادقاً محققاً وربما لا يكون ولذلك يقال البَيِّنة على المدَّعي واليمين على من أنكر، لأنَّ المدَّعي قد يطلب ما ليس له وهذا بخلاف الدُّعاء الذي لا يكون إلّا لمجرّد الطلب ولذلك قال بعض أهل اللُّغة المدَّعي من يكون في إثبات قضيّة على غيره، وقد يطلق الدَّعْوَى على القول ولا يبعد أن يكون المقام من هذا القبيل فمعنى قوله: فَمَا كَانَ دَعْوِيَهُمْ فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ الكلام في قوله وأخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

أي وآخر كلامهم وقولهم وأتينا قلنا ذلك لأنّ الدعوى بمعنى الإدعاء أو بمعنى الطلب لا يستقيم في المقام، إذ لا معنى لقولنا فما كان إدعاءهم كذا وهو واضح لا خفاء فيه وعليه فمعنى الآية أنّ الكفار لما وقعوا فيما وقعوا من العذاب والبأس ما كان قولهم عند رؤيتهم البأس والعذاب إلا أنّ قالوا إنا كنا ظالمين أي أنهم أقروا بكفرهم وظلمهم إلا أنّ الإقرار بعد الإنكار حين رؤية العذاب لا نفع فيه فلنسئلكم الذين أرسل إليهم ونسئلكم المرسلين الثون في قوله ونسئلكم في الموضوعين للتأكيد يتلقى به القسم وأتينا بنى المضارع مع نون التأكيد لأنّه أتينا دخلت عليه طلباً للتصديق، أقسم الله تعالى في هذه الآية أنّه يسأل المكلفين الذين أرسل إليهم رسله وأقسم أيضاً أنّه ليسأل المرسلين وهم الأنبياء الذين بعثوا إليهم فالسؤال عن الأنبياء عن الإبلاغ وعن المكلفين عن الإمتثال والإنقياد وهذا لا ينافي علمه تعالى بما كان منهم لأنّه أتينا أخرجه مخرج التهديد والتوعيد والزجر ليتأهب العباد لذلك السؤال

(فلنقصّ عليهم بعلم وما كنّا غائبين) قسم آخر وفيه إخبار منه تعالى أنّه يقصّ عليهم بما عملوه لعلهم بجميع ذلك وأتينا أتى بنون الجمع إمّا لأنّ هذا على كلام العظماء من الملوك لأنّ أفعالهم تضاف إلى أولياءهم وأما لأنّ الملائكة تقصّ عليهم بأمر الله وأصل القصّ ما يتلوا بعضه بعضاً ومنه المقصّ وفي قوله بعلم ذكروا وجهين:
أحدهما: معناه بإتينا عالمون.

ثانيهما: بمعلوم كما قال ولا يحيطون بشيء من علمه، أي من معلومه وقوله: كنّا غائبين أي أنّه لا يخفى علينا شيء لأنّ الغائب البعيد عن حضرة الشيء قيل فيه دلالة على أنّه تعالى ليس بجسم.

فمن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه أحوال القيامة وفيه، فيقام الرُّسل فيسألون عن تأديّة الرِّسالات التي حملوها إلى أممهم فأخبروا أنّهم قد أدّوا ذلك إلى أممهم وتساءل الأمم فيجحدون

فيقولون ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ فتشهد الرُّسل رسول الله فيشهد بصدق الرُّسل وبكذب من جحدها من الأمم فيقول لكل أمةٍ منهم، بلى قد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كل شيءٍ قدير.

أي مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرُّسل اليكم رسالاتهم و في تفسير علي بن إبراهيم في هذه الآية قال الأنبياء عمّا حملوا من الرُّسالة و في قوله فلنقصنّ عليهم الآية قال لم تغب عن أفعالهم.

وأعلم أنّ في المقام إشكالاً لا بدّ من التنبيه عليه وهو أنّه تعالى قال هاهنا، فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ولا خلاف في أنّ المراد بقوله أرسل إليهم هو الناس، فهذا صريح في أنّهم مسؤولون غداً يوم القيامة مع أنّه صرّح في موضع آخر بعدم السؤال:

قال الله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ^(١).

قال الله تعالى: وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ^(٢) فكيف الجمع

بينهما وقد أجيب عنه بوجوه:

أحدهما: أنّه تعالى يسألهم سؤال توبيخ و تبكيّة ونفى أن يسألهم سؤال إسترشاد وإستعلام.

الثاني: نفى السؤال عند حصولهم في العقوبة وأثبت السؤال قبلها.

الثالث: لا يسألون عن الأعمال لأنّ الكتب مشتملة عليها ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم الى الأعمال و عن الصّوارف التي صرفتهم عنها. و أقوى الوجوه الأوّل و هو أنّه يسألهم قبل دخولهم في النار فإذا دخلوها إنقطع عنهم سؤالهم ثمّ أنّ السؤال في اللّغة على أربعة أقسام:

أحدها: الإسترشاد والإستعلام كقولك أين زيد و من عندك و من المعلوم عدم جوازه عليه تعالى لأنّه لا يخفى عليه شيء و هو علام الغيوب فلا معنى للإستعلام والإستفهام في حقّه.

الثاني: للتوبيخ و التّقرير و هو خبر في المعنى كقولك، ألم أحسن اليك فكفرت نعمتي:

قال الله تعالى: **أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ** ^(١).

قال الله تعالى: **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ** ^(٢).

قال الله تعالى: **أَلَمْ تَكُنْ أَتَايَ تُثَلِّىٰ عَلَيْكُمْ** ^(٣).

و يعبر عنه بالاستفهام الإنكاري الذي هو في معنى الإثبات و منه قول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحٍ
وذلك لأنّ الشاعر لو كان سائلاً حقيقة لما كان مادحاً.

الثالث: للتخصيص و فيه معنى، ألا، كقولك هلاً تقوم، و ألا تضرب زيداً أي قم و أضرب زيداً.

الزبايع: سؤال تقرير بالعجز و الجهل كقولك للرجل هل تعلم الغيب و هل تعرف ما يكون غداً و هل تقدر أن تمشي على الماء و منه قول الشاعر:

و هل يصلح العطار ما أفسد الدهر.

أي ليس يصلح إذا عرفت السؤال و أقسامه فقد علمت أنّ سؤال الخالق عن العبد على سبيل الاستعلام و الاستخبار لا معنى له لأنّه تعالى كان عالماً بأعمالهم قبل خلقهم فلا محالة يكون للتوبيخ و التّقرير و أمّا سؤاله للمرسلين فهو توبيخ للكفار و تقرير لهم حقيقة و أمّا بالنسبة الى المرسلين فلا والله أعلم بحقيقة كلامه.

وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

الْوِزْنَ معرفة قدر الشَّيْ يُقال وَزَنْتُهُ وَزَنَّا وَزِنًا، لَكِنَّ المتعارف منه عند العامة ما يَقْدَرُ بالقسط والقَبَان قاله في المفردات والموازين بفتح الميم جمع ميزان وهو ما يَقْدَرُ به الوزن أي أَنَّهُ سبب وآلة له وقال بعضهم الوزن في اللُّغة هو مقابلة أحد الشَّيْئَيْنِ بالآخر حتَّى يظهر مقداره وهو قَرِيبٌ ممَّا ذكره الرَّاعِبُ ثمَّ أَنَّ الوزن قد يستعمل في غير ذلك تشبيهاً به فيقال وزن الشعر بالعروض ومنها قولهم فلان يزن كلامه أو لا وزن لكلامه ومنه قول الشَّاعر:

وإذا وضعت أباك في ميزانهم رَجَحُوا وشال أبوك في الميزان

ومن المعلوم أَنَّ هذا الإستعمال مجاز لا حقيقة، وأما كَيْفِيَّةُ الميزان يوم القيامة فلا نعلمها واقعاً فما قيل أو يقال مجرَّد حديث وهم، ولذلك قال بعضهم الوزن في الآية كناية عن العدل في الآخرة وَأَنَّهُ لا ظلم فيها على أحدٍ و يؤَيِّده ما رواه في الاحتجاج عن أبي عبد الله في حديث طويل وفيه قال السَّائِلُ أوليس توزن الأعمال قال عَلَيْهِ السَّلَامُ لا، لَأَنَّ الأعمال ليست بإحسام وإنَّما هي صفة ما عملوا وإنَّما يحتاج إلى وزن الشَّيْ من جهل عدد الأشياء يعرف ثقلها وخفتها وَأَنَّ الله لا يخفى عليه شَيْءٌ قال فما معنى الميزان قال عَلَيْهِ السَّلَامُ العدل، قال فما معناه في كتابه فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ قال فمن رَجَحَ عمله، وفي تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى: **وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقُّ** قال عَلَيْهِ السَّلَامُ المجازاة بالأعمال أن خيراً فخير وأن شراً فشر وهو قوله فمن ثقلت موازينه الآية وعن كتاب الخصال عن محمد بن موسى قال سمعت أبا عبد الله يقول أَنَّ الخير يثقل على أهل الدُّنْيَا على قدر ثقله في موازينهم يوم القيامة وَأَنَّ الشرَّ خَفَّ على أهل الدُّنْيَا على قدر خفته في موازينهم يوم القيامة. فَأَن قيل ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالى: **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** ومن خَفَتْ موازينه.

قُلْنَا إِنَّمَا جَمَعَهُ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِالْمِيزَانِ الموزونات من الأعمال أو أَنَّهُ تعالى جمعه لِأَنَّهُ ميزان يقوم مقام موازين ويفيدنا فائدتها لِأَنَّهُ يوزن به ذرَّات الأعمال وما كان منها في عظم الجبال.

أقول وقد ورد في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام على ميزان الأعمال، معناه أن الله تعالى يوزن أعمال العباد بولاية أمير المؤمنين فما كان من الأعمال على أساس الولاية فهو حقّ وما لم يكن فهو باطل فقوله تعالى: **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** أي من ثقلت موازينه بولاية عليّ و الأئمة من بعده **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ومن خفّت موازينه بسبب عدم الولاية **فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** والى هذا المعنى أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله يا عليّ أنت قسيم الجنة والنار.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ

قد ظهر معنى هذه الآية من الآية السابقة وذلك لأنه إذا كان المفلحون من ثقلت موازينهم فلا محالة يكون الخاسرون من خفّت موازينهم وذلك لأنّ الخفة والثقل متضادان لا يمكن الجمع بينهما كما أنّ الفلاح والخسران أيضاً كذلك فكلّ عملٍ يومئذٍ لا يخلو منهما فإذا كان الثّقل من الأعمال يوجب الفلاح فيكون الخفيف منها موجباً للخسران لإستحالة إجتماعها وإرتفاعهما و أمّا قوله: **خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** فيه دلالة على أنّ العاصي قد أضرب بنفسه بسبب عصيانه بمعنى أنّ وباله عليه لا على غيره وقوله: **يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ** فقالوا في معناه أي ظلمهم بآيات الله مثل كفرهم بها وجحدهم إياها.

أقول هكذا فسروا كلام الله.

قال الرّازي، في المقام قال أكثر المفسرين المراد من قوله: **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ** الكافر والدليل عليه القرآن والخبر والأثر، أمّا القرآن فقوله تعالى: **فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** ولا معنى لكون الإنسان ظالماً بآيات الله إلاّ كونه كافراً بها منكراً لها فذلّ هذا على أنّ المراد من هذه الآية أهل الكفر إنتهى.

ولقائل أن يقول من أين علمت أن الظلم بآيات الله الكفر بها والإنكار لها حتى تكون الآية مختصة بالكافر، وما الدليل على ما أديعت فإن كان الدليل هذه الآية فهو مصادرة بالمطلوب وإن كان غيرها فما هو ولا ينبغي لمن آمن بالله واليوم الآخر أن يفسر كلام الله بمقتضى وهمه وخياله.

ثانياً: لو كان المراد بقوله: **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ** الكافر فقط يلزم أن لا يكون من المسلمين من خفت موازينه أحد، وإذا كان كذلك فكأنهم ممن ثقلت موازينه إذ لا واسطة بين الثقل والخفة ولازم هذا القول هو أن المسلمين كلهم مفلحون والكفار كلهم خاسرون أما الكفار فلا كلام في خسارتهم المسلمون فكيف يقال بفلاح كلهم أليس لازم ذلك أن لا يدخل النار أحد من المسلمين لأنه ممن ثقلت موازينه وأن فعل في الدنيا ما فعل من المعاصي والقبايح، لأنه لم ينكر الآية أو الآيات ولم يكفر بها، وهل يقول بهذه المقالة السخيفة عاقل فضلاً عما يدعي الإسلام إن قلت فما معنى الآية قلنا معناها أن الظالمين بها، على صنفين صنف يكفر بها وينكرها وهم الكفار وصنف لا يكفر بها ولا ينكرها بل يعتقد بها ويتلوها في الأيام والليالي ويتمن بها ويتبرك بها في الظاهر ولكن لا يعمل بها بل يعمل على خلافها ويدخل في هذا الصنف كثير من المسلمين بل أكثرهم فالظلم على الآيات لا ينحصر بالكفر بها والإنكار لها بل يشمل الكفر والإعراض عنها عملاً:

قال الله تعالى: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَلْحَقَ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا** ^(٤).

قال الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا^(١).

وأمثال ذلك من الآيات الدالة على أنَّ الإعراض عن الآيات عدٌّ من الظلم بها كثيرة ومن المعلوم أنَّ المراد بالإعراض عنها هو الإعراض من حيث العمل لا من حيث الاعتقاد والقراءة ولا الإعراض بمعنى الكفر بها فحسب لأنَّ الخطاب فيها للمسلمين فلو كانوا المراد بالظلم بها هو الكفر بها فقط كما زعمه الرّازي وأمثاله فما معنى هذه الآيات ومحصّل الكلام هو أنَّ الظلم بالآيات أعم من الكفر بها أو الاعتقاد بها والعمل علي خلافها كما هو كذلك بالنسبة الى المسلمين وعليه فأكثرهم من مصاديق قَوْلِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ هذا كلّهُ إذا حملنا قوله تعالى بآياتنا، على الآيات القرآنية وأما إذا حملنا الآيات على الأعم منها ومن الآيات التكوينية الكاملة أعني بها رسول الله ﷺ والأئمة الأثني عشر بعده فالأمر أوضح على رغم الرّازي وأتباعه والمراد بالظلم عليهم هو إنكار فضائلهم وعدم الإنقياد لهم والرّد عليهم وإيذائهم وقتلهم وسبهم وهكذا ولا يخفى على المحقّق الخبير المنصف أنَّ المسلمين فعلوا جميع أقسام الظلم الجسمي والروحي في حقهم مضافاً الى إنكارهم وصايتهم وإمامتهم بعد رسول الله وإيذائهم شخص رسول الله ﷺ بإيذاء بضعته فاطمة الزهراء وردّهم عليه ﷺ قوله: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه الى آخر الكلام.

ولعمري أنَّ هذا الظلم الذي وقع منهم في حقّ الرّسول وأولاده من أكبر مصاديق الظلم في الإسلام وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون إنّا لله وإنا اليه راجعون.

وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

أي ولقد ثَبَّنَّاكُمْ وقَدَّرْنَاكُمْ في الأرض والمعاش عند جميع النّحويين لا يهزم ومتى همز كان لحناً لأنّ الباء فيها أصلية لأنّه من عاش يعيش ولم تعرض فيها علّة كما عرضت في أوائل وهي في (مدينة) زائدة ولذا تجمع على (مدائن) ومحصل المعنى هو أنّه تعالى أخبر على وجه الإمتنان على خلقه بأصناف نعمته أنّه مكّن عباده في الأرض ليتصرّفوا فيها بما شاءوا وأرادوا وأصل التّمكين إعطاء ما يَصَحّ معه الفعل مع إرتفاع المنع لأنّ الفعل كما يحتاج الى القدرة يحتاج الى الألة والسبب كما يحتاج الى رفع المنع فالتّمكين عبارة عن حصول جميع ذلك.

ومن المعلوم أنّ الله تعالى خلق الإنسان ومكّنه وهذا لا يحتاج الى مزيد بيان وفي قوله: **وَجَعَلْنَا لَكُمْ** أي في الأرض، معاش، إشارة الى نكتته أخرى وهي أنّ التّمكين فيها لأجل تحصيل المعيشة التي تتوقّف عليها إدامة الحياة فإنّ الإنسان يحتاج الى الغذاء والمسكن واللباس وغيرها وكلّ هذه من الأرض وقوله: **قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** إشارة الى أنّ شكر المنعم واجب عقلاً ومع ذلك قليل من عبادي الشكور وقد مرّ الكلام في معنى الشكر سابقاً مفصلاً.



وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
 اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ
 السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ
 أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
 مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ
 أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)
 قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ
 الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
 صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ
 أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ
 شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ
 أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

◁ اللغة

خَلَقْنَاكُمْ، الخلق إحداث الشيء على تقدير يقتضيه الحكمة لا زيادة عليه
 حتى يدخل في الإسراف ولا ناقصاً عنه فيدخل في الإقتار.
 صَوَّرْنَاكُمْ، التصوير عبارة عن إثبات صورة للمادة فأَنَّ المادة هي الأصل و
 الصورة فرعٌ عليها ومن المعلوم أَنَّ الصورة في كل مادة بحسبها.
 اسْجُدُوا، السجود هو وضع الجبهة على الأرض في الشرع وأما في أصل
 اللغة فهو بمعنى الانخفاض من قول الشاعر:
 ترى ألاكُم فيها سَجْدًا للحوافر

الْصَّاعِرِينَ، الصَّاعِرُ هُوَ الذَّلِيلُ بِصَغَرِ الْقَدْرِ.
 أَغْوَيْتَنِي، الإِغْوَاءُ الإِهْلَاكُ.
 مَذْءُومًا أَيَّ مَعِيًّا وَقِيلَ أَيُّ مَذْمُومًا.
 مَذْخُورًا، الذَّحْرُ الطَّرْدُ أَيُّ مَطْرُودًا.

◀ الإعراب

لَمْ يَكُنْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَقَوْلُهُ أَنْ لَا أَيْضًا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَإِذْ ظَرْفُ
 لِيَتَجَدَّ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارِ الْجَارِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيُّ خَلَقْتَنِي كَانَتْ مِنْ نَارِ مَذْءُومًا
 حَالٌ وَمَذْخُورًا أَيْضًا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي مَذْءُومًا لَمْ يَنْ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ

◀ التفسير

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ الْخَطَابُ لِبْنِي آدَمَ وَالْمَعْنَى خَلَقْنَا جَنْسَكُمْ
 أَيُّ مَادَّتِهِ مِنَ الصَّلْصَالِ وَالْحَمَاءُ الْمَسْنُونُ وَهُوَ الْمَاءُ وَالطَّيْنُ اللَّازِبُ الْمَتَغَيِّرُ
 الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ وَهُوَ أَبُونَا آدَمَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ^(٣).

وَالْأَصْلُ فِيهِ هُوَ الْمَاءُ الَّذِي يَسْمَى بِالْمُنَى وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ:

خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ^(٤).

أَمَّا قَوْلُهُ: ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ مَعْنَاهُ جَعَلَكُمْ مَصُورًا مِنْ تِلْكَ الْمَادَّةِ أَيُّ جَعَلَ اللَّهُ
 مِنْهَا صُورَةَ بَشَرٍ سَوِيٍّ قَابِلًا لِلْحَيَاةِ.

٢٨ - الْحَجَرُ = ٢٨

٢٦ - الْحَجَرُ = ٢٦

٤ - الطَّارِقُ = ٦ و ٧

٣ - الرَّحْمَنُ = ١٤

وقال بعضهم المعنى قَدَرْنَا إيجادكم تقديراً ثم صَوَّرْنَا ما دَتَّكم تصويراً و ذلك لأنَّ معنى الخلق في أصل اللُّغة التَّقْدِير ثم أطلق على إيجاد الشَّيْءِ المقدَّر على صفةٍ مخصوصة قال في أساس البلاغة على ما حكى عنه، خلق الخراز الأديم (أي الجلد) والخِيط الثوب، قَدَرَه قبل القطع، وأَخْلَق لي هذا الثوب، ثم قال ومن المجاز، خلق الله الخلق أي أوجده، على تقدير أوجبه الحكمة إلا أنَّ هذا المجاز اللُّغوي صار حقيقة شرعية وهذا التفسير أظهر من حيث اللُّغة و ذلك لأنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الإنسان يقدَّر الله خلقه ثم يَصُور المادَّة التي يخلقه منها في بطن أمه انتهى كلامه.

أنا أقول ما ذكره في أساس البلاغة لا بأس به بل هو الحقُّ الحقيقي بالإتباع و ذلك لأنَّ مرحلة الإيجاد بعد التَّقْدِير فأنَّ الموجد لا يوجد شيئاً قبل تقديره ولو كان الخلق بمعنى الإيجاد لقال الله تعالى ولقد أوجدناكم ثم صَوَّرْنَاكم وحيث لم يقل ذلك فلا محالة فيه نكتته وهي أنه تعالى لم يوجد شيئاً إلا بعد تقدير أوجبه الحكمة وهذا هو الفرق بين الفعل العَبَث وغيره:

قال الله تعالى: **وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ^(٣) وأمثال ذلك من الآيات كثيرة.

و الدَّلِيل عليه من العقل هو أنه قد ثبت عند الفلاسفة أنَّ شَيْئِيَّة الشَّيْءِ بصورته لا بمادته و ذلك لأنَّ المادَّة صرف القوَّة لا فعلية لها قبل الصُّورة كان الأمر على هذا المنوال فلا يعقل إيجاد المادَّة قبل التَّصوير بمعنى أن يقال أنه

تعالى أوجد المادّة ثمّ صوّرها لأنّ وجود المادّة بدون الصّورة محال بل الحقّ أنّ المادّة بدونها لا شيء محض ولذلك يقال أنّها صرف القوّة وحيث أنّ الله تعالى قال: **خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ** فجعل التّصوير بعد الخلق وأتى بثمّ، الّتي تفيد التّرتيب الإنفصالي الّذي يدلّ على تأخير التّصوير عن الخلق بزمان لا يعلمه إلّا الله تعالى نستكشف منه أنّ الخلق ليس بمعنى الإيجاد بل هو بمعنى التّقدير في علمه تعالى ثمّ تصويره على وفق المصلحة ومقتضى الحكمة. وأن شئت قلت إخراج المادّة من القوّة إلى الفعل وبذلك قد ظهر لك أنّ ما روي عن ابن عباس من أنّهم خلقوا في أصلاب الرّجال وصوروا في أرحام النّساء.

وعن غيره أنّهم خلقوا في ظهر آدم ثمّ صوروا في الأرحام. وعن ثالث أمّا خلقناكم فأدم وأمّا ثمّ صوّرناكم فذرّيته وأمثال ذلك من الأقوال الّتي ذكرها المفسّرون. لا محصّل له فالقول الفعل فيه هو أنّ التّقدير في علم الله و التّصوير في أرحام الأمّهات هذا ما فهمناه من الكلام.

ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

قد تقدّم البحث في حقيقة الملك في أوائل البقرة وهكذا الكلام في الشّيطان والسّجدة بما لا مزيد عليه وقلنا هناك أنّ السّجدة في الأصل بمعنى الخضوع وفي الشّرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض وسجدة الملائكة لأدم كانت من سنخ الأوّل وأمّا السّجدة بالمعنى الثّابت في الشّريعة فلا تجوز إلّا لله تعالى لأنّها بهذا المعنى سجدة العبوديّة ولا معبود سوى الله تعالى.

بقي في المقام شيء لم نذكره فيما مضى ولم يذكره المفسّرون أيضاً وهو أنّه تعالى قال في حقّ إبليس، **لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** ولم يقل، ولم يسجد

مثلاً مع أنه أوفق بسياق الكلام ظاهراً و التَّحْقِيقُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ أوفق وأنسب بسياق الآية من غيره رعايةً للسَّجْعِ.

ثانياً: أَنَّ ما ذكره تعالى يَدُلُّ على خروج إبليس ممَّنْ أمروا بالسَّجْدَةِ و المعنى أَنَّهُ لم يكن ممَّنْ سجد مع أَنَّهُ كان مأموراً بها هذا كله مع أَنَّ المألَّ فيهما واحد.

قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

أي قال الله تعالى لإبليس ما منعك أي شيءٍ منعك من السَّجود لأدم و عليه فاللَّام في قوله: إِلَّا تَسْجُدَ، زائدة تُفيد التَّحْقِيقَ و التَّوكِيدَ كما في قوله تعالى:

قال الله تعالى: لِنَبِّأَ أَنْذَرًا أَهْلَ الْكِتَابِ (١) ومعناه ليعلم.

قال الله تعالى: لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ (٢).

قال الله تعالى: فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٣) أي أقسم بيوم القيامة و أقسم بمواقع النُّجُوم و أيضاً يَدُلُّ على زيادتها.

قال الله تعالى: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي (٤).

حيث لم يذكر كلمة (لا) وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج والأكثرين و عليه قول الشاعر:

أبى جوده لا البخل وإستعجلت به نعم من فتى لا يمنع الجود قاتله
معناه أبى جوده البخل.

وقيل أَنَّهُ ليست بزائدة بل هي مفيدة و التَّقْدِيرُ أَيَّ شَيْءٍ منعك عن ترك السَّجود فيكون الإستفهام على سبيل الإنكار ومعناه ما منعك عن ترك السَّجود.

وقيل معناه، ما دعاك أن لا تسجد، وفي المقام قول ثالث وهو أنّ معنى،
ألاّ تسجد، ما الحال ألاّ تسجد أو ما أحوجك اليه.

وقال الفراء لما تقدّم الجحد في أوّل الكلام أكّد بهذا كما قال الشاعر:

ما إن رأينا مثلهنّ لمعشرٍ سود الرؤوس فوالج ومنول
فكلمة، ما، للنفى وهكذا كلمة (إن) ومع ذلك جمع بينها تأكيداً.

أن قلت كيف قالَ ما مَنَعَكَ والحال أنّه لم يكن ممنوعاً كغيره من الملائكة.

قلتُ المنع بمعنى الصّرف وقد ثبت أنّ الصّارف عن الشّيء بمنزلة المانع

منه كما أنّ الدّاعي اليه بمنزلة الحامل عليه هكذا قيل.

ولقائل أن يقول لا موقع لهذا السّؤال أصلاً لأنّ المفروض أنّ الإستفهام

للإنكار والتّقدير عدم وجود المانع في الأصل وهو ظاهر فتقدير الكلام أنّه لم

يكن لك مانع عن السّجود.

ونقل الرّازي في المقام عن القاضي أنّه قال ذكر الله المنع وأراد الدّاعي

فكأنّه قال وما دعاك الى أن لا تسجد لأنّ مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة

يتعجّب منها ويسأل عن الدّاعي إليها.

أنا أقول لا فرق بين أن يكون المقدّر هو الدّاعي أو غيره كما لا يخفى.

نعم لنا مع الرّازي في المقام بحث وهو أنّه بل جميع الأشاعرة يقولون بأنّ

أفعال العباد وأن كانت مستندة اليهم في الظّاهر إلّا أنّها في الواقع أفعال الله و

المخلوق ليس إلّا آلة واسطة للفعل ولأجل هذه العقيدة الرّديئة السّخيفة ترى

الرّازي في كتابه هذا كثيراً ما يصرّح بأنّ الموجد والخالق للدّاعي في العبد هو

الله تعالى ومعنى كلامه هذا أنّ العبد لا يقدر على الشّيء لأنّ فعله مستند الى

الدّاعي والدّاعي ممّا أوجده الله تعالى في العبد فهو مقهور مغلوب في فعله.

وهذه الآية و أمثالها تدل على خلاف ما اعتقده اذ لو كان الدّاعي الى ترك

السّجود في الشّيطان ممّا أوجده الله فيه بمعنى أنّه كان خارجاً عن إختياره كما

هو المفروض فما معنى ذمّ إبليس على ترك السّجود ولم لم يقل في جواب

الله تعالى حيث قالَ مَا مَنَعَكَ الْخِ أَنِّي لَمْ أَقْدِرْ عَلَى السَّجُودِ لِأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى تَرْكِ السَّجُودِ أَوْ قَعْنِي فِيهِ وَأَنْتَ يَا رَبِّ أَوْجَدْتَ الدَّاعِيَ فِي نَفْسِي فَلَمْ تَذُمَّنِي عَلَى تَرْكِ السَّجُودِ وَحَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى ذَمُّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَجَابَ بِغَيْرِ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّهُ تَرَكَ السَّجُودَ بِسُوءِ سِرِّيرَتِهِ وَخَبْثِ ذَاتِهِ وَإِخْتِيَارِهِ الْمَطْلُوبِ. ثُمَّ أَنَّ الرَّازِيَّ جَعَلَ الدَّاعِيَ قَوْلَهُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ قَوْلَ إِبْلِيسَ لَيْسَ مِنَ الدَّاعِي بَلْ حِكَايَةٍ عَنْ جَوَابِ إِبْلِيسَ حِينَ ذَمَّهُ تَعَالَى عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنَ السَّجُودِ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْجَوَابَ غَيْرَ مُطَابِقٍ لِلسُّؤَالِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَسْأَلْ عَنْ إِبْلِيسَ أَيُّكُمَا أَفْضَلُ أَنْتَ أَوْ أَدَمُ، بَلْ سَأَلَ عَنْ عِلَّةِ تَرْكِهِ السَّجُودَ لِأَدَمَ فَكَانَ يَجِبُ عَلَى إِبْلِيسَ الْجَوَابَ عَمَّا سَأَلَ عَنْهُ. فَقَوْلُهُ فِي الْجَوَابِ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ الْخِ لَا يَرْبُطُ لَهُ بِالسُّؤَالِ أَصْلًا وَمَعَ ذَلِكَ نَتَكَلَّمُ فِي كَلَامِهِ هَذَا فَنَقُولُ:

قَوْلُهُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ أَيُّ مِنْ أَدَمَ وَإِسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ وَهَذَا الْإِسْتِدْلَالُ يَتِمُّ بِنَاءً عَلَى كَوْنِ النَّارِ خَيْرٍ مِنْ طِينٍ أَوَّلُ الْكَلَامِ إِذْ لَمْ يَذَلِّ دَلِيلٌ مِنَ الْعَقْلِ أَوْ الثَّقَلِ عَلَيْهِ بَلْ الدَّلِيلُ ثَابِتٌ عَلَى عَكْسِهِ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهِ سَابِقًا بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْكَلَامِ هُوَ أَنَّهُ قَدْ ثَبِتَ قَبِيحُ تَقْدِيمِ الْمَفْضُولِ عَلَى الْفَاضِلِ عَقْلًا فَلَوْ ثَبِتَ أَنَّ النَّارَ أَفْضَلُ مِنْ طِينٍ فَلَا مُحَالَةَ مَا يَوْجَدُ مِنَ النَّارِ أَفْضَلُ مِمَّا يَوْجَدُ مِنْ طِينٍ وَحَيْثُ أَنَّ إِبْلِيسَ مَخْلُوقٍ مِنْ نَارٍ وَأَدَمُ مِنْ طِينٍ فَيَنْتِجُ أَنَّ إِبْلِيسَ أَفْضَلُ مِنْ أَدَمَ وَلاَ زَمَ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَسْجُدَ أَدَمُ لِإِبْلِيسَ وَإِلَّا يَلْزَمُ تَقْدِيمُ الْمَفْضُولِ عَلَى الْفَاضِلِ وَهُوَ كَمَا تَرَى وَالْجَوَابُ أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَهِيَ قَبِيحُ تَقْدِيمِ الْمَفْضُولِ عَلَى الْفَاضِلِ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي إِثْبَاتِ الْأَفْضَلِيَّةِ نَعَمْ إِذَا ثَبِتَ الْمَدْعَى فَالْقَاعِدَةُ تَنْطَبِقُ عَلَيْهَا وَأَتَى لَهُ وَلِغَيْرِهِ إِثْبَاتُ ذَلِكَ.

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ قِصَّةَ أَدَمَ مَعَ قِصَّةِ إِبْلِيسَ فِي الْقُرْآنِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ: أَحَدُهَا: فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

ثانيها: في هذه السورة.

ثالثها: في سورة الحجر.

رابعها: في سورة بني إسرائيل.

خامسها: في سورة الكهف.

سادسها: في سورة طه.

سابعها: في سورة ص.

أما الكلام في هذه السجدة فنقول فيها ثلاثة أقوال، فقبل أن المراد منها مجرد التعظيم لا نفس السجدة.

وقيل المراد منها السجدة إلا أن المسجود له في الحقيقة هو الله تعالى فكان آدم بمنزلة القبلة.

والقول الثالث: هو أن المسجود له هو آدم واقعاً كما هو ظاهر الآية و الأقوى عندي هو القول الأول.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ أمر الله تعالى إبليس بالهبوط من الجنة أو من السماء على اختلاف القولين فيه.

قال بعض المفسرين الهبوط والنزول واحد والفرق بينهما بالإعتبار فإن كان السقوط يقتضي التّنزل الى جهة السفّل بمنزلة بعد منزلة يعبر عنه بالنزول وأن كان على جهة الإنحدار في المرور الى السفّل دفعة واحدة يسمّى بالهبوط. وقال الرّاغب في المفردات الهبوط الإنحدار على سبيل القهر كهبوط الحجر و الإنزال يقال في الأشياء التي له اشرف و مجد كإنزال الملائكة و القرآن و المطر و غير ذلك انتهى وكيف كان فقوله تعالى فأهبط منها، يدل على سقوطه.

وأما قوله تعالى: **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** فالمشهور عند المفسرين أن كلمة، ما، نافية والمعنى ليس لك أن تتكبر فيها فهو أي التكبر بمنزلة العلة للسقوط والهبوط له قال الراغب في المفردات التكبر يقال على وجهين: **أحدهما**: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره وعلى هذا وصف الله تعالى بالتكبر فقال العزيز الجبار المتكبر. **الثاني**: أن يكون متكلفاً لذلك متشعباً وذلك في وصف عامة الناس نحو قوله: **فَبِئْسَ مَفْؤَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ^(١) انتهى.

أقول الكبرياء الترفع عن الإنقياد وذلك لا يستحقه غير الله تعالى إذ هو الذي لا ينقاد لغيره وما سواء منقاد له تعالى. روي عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى، الكبرياء رداً في العظمة إزارى فمن نازعني في واحدٍ منهما قصمته انتهى. **أقول** حيث أن إبليس لعنه الله لبس رداء الكبرياء بزعمه وجعل نفسه أفضل من آدم ولذلك ترك السجود له فقد قصم الله ظهره وقال له **فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** والصاغر هو الدليل بصغر القدر يقال تصاغرت إليه نفسه ذلاً ومهانة، والأصل الصغر.

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ

حكى الله تعالى عن إبليس أنه سأل الله تعالى أن ينظره الى يوم يبعثون قيل فيه دلالة على أن إبليس كان مقرراً بالبعث وأيضاً كان عالماً بأن آدم سيكون له ذرية ونسل يعمرن الأرض ثم يموتون وأن منهم من ينظر فيكون طلبه الإنظار بأن يغويهم ويوسوس اليهم فالضمير في قوله: **يُبْعَثُونَ**، عائد على ما دل عليه المعنى إذ ليس في اللفظ ما يعود اليه.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

في تفسير القرآن

وقال قوم الإنظار الى وقت البعث وهو وقت النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ حين يقوم النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ومقصوده أَنَّهُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ فَلَمْ يَعْطِهِ اللَّهُ ذَلِكَ بَلْ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ وقيل أنظره الى النَّفْخَةِ الْأُولَى لِأَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ الى يوم الوقت المعلوم والمراد منه اليوم الذي يموت فيه الأحياء كلهم.

وقال آخرون لم يوقت الله تعالى له أجلاً بل قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. وأما قوله في الآية الأخرى الى يوم الوقت المعلوم المراد منه الوقت المعلوم في علم الله ونقل عن السُّدِّي أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَجِبْهُ إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ، لِأَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَوْمُ بَعث لَا يَوْمُ مَوْتٍ وَلَكِنْ أَنْظَرَهُ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ وَيَقْوِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْظُرَ أَحَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ إِبْلِيسَ سَأَلَ تَأْخِيرَ الْجَزَاءِ بِالْعُقُوبَةِ إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ لَمَّا خَافَ مِنْ تَعْجِيلِهَا فَأَنْظَرَ عَلَى هَذَا. وقال آخرون أنظر الى يوم القيامة وهذا الوجه قوّاه أكثر المفسرين و إستدلوا عليه بأنه لا يجوز أن يعلم الله أحداً من المكلفين الذين ليسوا بمعصومين أنه يبيقيهم الى وقت معين لأنّ في ذلك إغراء له بالقبح من حيث أنه يعلم أنه باق على ذلك الوقت فيرتكب القبيح فإذا قارب الوقت جدّد التوبة فيسقط عنه العقاب.

إِنْ قُلْتَ كَيْفَ أَجِيبُ إِبْلِيسَ إِلَى الْأَنْظَارِ وَأَتَمَّا طَلَبَ الْإِنْظَارَ لِيُفْسِدَ أَحْوَالَ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَغْوِيهِمْ.

قُلْتَ الْوَجْهَ فِيهِ هُوَ إِبْتِلَاءُ الْعِبَادِ وَإِخْتِبَارُهُمْ وَأَيْضاً لَمَّا فِي مَخَالَفَتِهِ مِنْ عَظَمِ الثَّوَابِ وَنَظِيرِ ذَلِكَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا مِنْ أَصْنَافِ الزَّخَارِفِ وَأَنْوَاعِ الْمَلَذِّ وَالْمَلَاهِي وَمَا رَكِبَهُ مِنَ الْأَنْفُسِ مِنَ الشَّهَوَاتِ لِيَمْتَحَنَ بِهَا عِبَادَهُ وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ مَتْنًا فِي هَذَا الْبَحْثِ فِي مَقَامٍ آخَرَ بِوَجْهِ أَبْسَطٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ قَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ

اختلفوا في الباء في قوله: قَبِمَا فَقِيلَ أَنَّهَا لِلْقِسْمِ مُصَدَّرَةٌ وَالْمَعْنَى، فَأَقْسَمَ بِأَعْوَالِكَ لِأَقْعُدَنَّ وَأَتَمَّا أَقْسَمَ بِالْإِغْوَاءِ لِأَنَّهُ كَانَ تَكْلِيفًا وَالتَّكْلِيفُ مِنْ أَحْسَنِ أَعْمَالِ اللَّهِ لِكَوْنِهِ تَعْرِضًا لِسَعَادَةِ الْأَبَدِ فَكَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَقْسَمَ بِهِ.

وَقِيلَ مَا، لِلِاسْتِفْهَامِ كَأَنَّهُ قِيلَ بِأَيِّ شَيْءٍ أَغْوَيْتَنِي ثُمَّ ابْتَدَأَ، لِأَقْعُدَنَّ، الْمَقَامَ إِحْتِمَالِ ثَلَاثٍ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ أَيْ فَبِسَبَبِ إِغْوَاءِكَ أَيَّامِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ أَوْ بِسَبَبِ وَقُوعِي فِي الْغِيِّ لِأَجْتِهَدَنَّ فِي إِغْوَاءِهِمْ حَتَّى يَفْسُدُوا بِسَبَبِي كَمَا فَسَدَتْ بِسَبَبِهِمْ ذَكَرَ هَذِهِ الْوُجُوهُ الزَّمْخَشَرِي فِي الْكَشَافِ ثُمَّ لَنَا فِي الْمَقَامِ أَبْحَاثٌ لَا بَأْسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا إجمالاً:

أحدها: قوله: قَبِمَا أَغْوَيْتَنِي اختلفوا في المراد بِالْإِغْوَاءِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَى أَغْوَيْتَنِي.

أَضَلَّلْتَنِي وَقِيلَ مَعْنَاهُ، لَعَنْتَنِي وَقِيلَ أَهْلَكْتَنِي، أَوْ خَيَّبْتَنِي، وَقِيلَ أَلْقَيْتَنِي خَاوِيًا وَقِيلَ جَعَلْتَنِي فِي الْغِيِّ وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ وَقَالَ قَوْمٌ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ أَنْتَ إِمْتَحَنْتَنِي بِالسَّجُودِ لِأَدَمَ فغَوِيَتْ عِنْدَهُ قَالَ الرَّازِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ، الْغِيُّ جَهْلٌ مِنْ إِعْتِقَادٍ فَاسِدٍ إِلَى أَنْ قَالَ وَقِيلَ مَعْنَى غَوَى فَسَدَ عَيْشُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ غَوَى الْفَصِيلُ انْتَهَى.

أقول الإِغْوَاءُ الْإِضْلَالُ فَقَوْلُهُ أَغْوَيْتَنِي أَيْ أَوْقَعْتَنِي فِي الضَّلَالَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّكَ أَمَرْتَنِي بِالسَّجُودِ لِأَدَمَ فَلَوْلَا أَمْرُكَ أَيَّامِي بِالسَّجُودِ لَهُ لَمَا وَقَعْتَ فِيمَا وَقَعْتَ مِنَ الطَّرْدِ وَاللَّعْنِ وَالْعَذَابِ وَأَتَمَّا نَسَبَ الْإِغْوَاءَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْوَجْهِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كَانَ مُخْتَارًا فِي السَّجُودِ وَعَدَمِهِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسَّجُودِ وَكَانَ إِبْلِيسَ دَاخِلًا فِي الْحَكْمِ أَعْنِي بِهِ الْأَمْرَ فَاطَاعَ الْكُلَّ وَعَصَى هُوَ وَحْدَهُ فَلَوْ كَانَ الْجَبَرُ حَاكِمًا كَانَ حَاكِمًا عَلَى الْكُلِّ عَلَى

الكلّ ولو كان الإختيار حاكماً فكذلك فكيف يقول القائل بالجبر أنّ إبليس كان مجبوراً و أمّا غيره ممّن كانوا مأمورين بالسّجود كانوا مختارين.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

أمّا أصحابنا فقالوا الإغواء إيقاع الغي في القلب و الغي هو الاعتقاد الباطل و ذلك يدلّ على أنّه كان يعتقد أنّ الحقّ و الباطل أنّما يقع في القلب من الله تعالى انتهى كلامه.

و نحن نقول إيقاع الحقّ و الباطل في القلب لا يوجب الجبر لأنّ الإختيار واسطة بين ما وقع في القلب و ما صدر عن الفاعل في الخارج اذ لو لم يكن الإختيار يلزم إيجاد ما في القلب في الخارج قهراً و ليس كذلك ألا ترى أنّ الملائكة سجدوا لأدم فإن كان إيقاع الحقّ و الباطل في القلب من الله تعالى فلا وجه لطاعة بعض و مخالفة بعض اذ الكلّ كانوا في نمط واحد في هذا المضمار و المفروض عدم وجود الإختيار في الكلّ.

فإن قلت أنّ الله تعالى أوقع في قلب إبليس الحقّ و الباطل و أجبره على الفعل دون غيره من المأمورين بالسّجود.

قلت كيف يعقل ذلك أليس أمرهم بالسّجود واحد و أعجب من ذلك قول الرّازي بعد ما نقلناه عنه حيث قال أنا نقيم البرهان اليقيني على أنّ المغوي لإبليس هو الله تعالى و ذلك لأنّ الغاوي لا بدّ له من مغوٍ كما أنّ المتحرّك لا بدّ له من محرّك و الساكن لا بدّ له من ساكن و المهتدي لا بدّ له من هادٍ فلمّا كان إبليس غاوياً فلا بدّ له من مغوٍ و المغوي له أمّا أن يكون نفسه أو مخلوقاً آخر أو الله تعالى و الأوّل باطل لأنّ العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية.

الثاني: باطل و إلّا لزم أمّا التّسلسل و أمّا الدّور و الثّالث هو المقصود انتهى كلامه.

و الجواب أنّا نختار الشقّ الأوّل من الوجوه و هو أن يكون المغوي نفسه قوله لأنّ العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية نقول في جوابه لا

إشكال عقلاً في إختيار العقل الغواية مع العلم يكونها غواية اذا غلب هواه على عقله و صار مفتوناً بالدنيا و زخارفها كما هو شأن أهل الدنيا فأن قلنا بأنهم ليسوا من العقلاء يلزم تخصيص الأكثر.

وأن قلنا بأنهم إختاروا الغواية مع عدم العلم بها فهو أيضاً كذلك بل نقول أن الذين إختاروا الغواية مع العلم بها بعد رسول الله ﷺ كانوا أكثر من الجهال الذين إختاروها من غير علم بها و يكفيك في إثبات المدعى قول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المعروفة بالشقشقية حيث قال:

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَى الطَّيْرِ الْخ.

فأن قال الرازي كلامنا في الغواية وإختيارها مع العلم بها وأبو بكر كان معتقداً بعدم الغواية و أن الخلافة حق له.

نقول في جوابه ليس الأمر كما زعمت فأن حب الشيء يعمي و يصم و للبحث فيه مقام آخر.

و محصل الكلام هو أن قوله العاقل لا يختار الغواية مع العلم بها كلام لا طائل تحته و عليه فكان إبليس غاوياً و المغوي له نفسه و هو المطلوب فنسبة الإغواء الى الله تعالى كفر و إلحاد.

ثانيها: قوله: لَا أَقْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ قيل قعوده على الصراط معناه أنه يقعد على طريق الحق ليصد عنه بالإغواء حتى يصرفه الى طريق الباطل عداوة له و كيداً.

و أما الصراط المستقيم فقد مر الكلام فيه عند قوله تعالى: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ في سورة الحمد.

ثالثها: ثُمَّ لَا تَبْتِهَتْهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ في تفسير هذه الجهات الأربع قولان:

أحدهما: قال ابن عباس و قتادة وإبراهيم بن الحكم والسُّدي وغيرهم قالوا معناه لأتَيْنَهُمْ من قبل دنياهم وأخرتهم ومن جهة حسناتهم وسيئاتهم فالأيدي كناية عن الآخرة والخلف عن الدنيا والأيمان عن الحسنات والشَّمائل عن السيئات.

ثانيهما: قال مجاهد من حيث يبصرون ومن حيث لا يبصرون. وفي المقام قول ثالث نسب إلى أبي علي قال معناه لا تَيْنَهُمْ من كل جهة يمكن الإحتيال عليهم بها.

أقول هذا هو الحقّ الحقيق بالإتباع وذلك لأنّ القول الأوّل والثَّاني لا دليل عليهما والظاهر أنّ التعبير بالأيدي والخلف والأيمان والشَّمائل كناية عن الإحتيال من كل جهة.

وقال الرّازي بعد نقله الأقوال من المفسّرين وأمّا حكماء الإسلام فقد ذكروا فيها وجوهاً أخرى: أولّها: وهو الأقوى الأشرف أنّ في البدن قوى أربعة هي الموجبة لفوات السّعادات الرّوحانية:

أحدها: القوّة الخياليّة التي يجتمع فيها مثل المحسوسات وصورها موضوعة في البطن المقدّم من الدّماغ وصور المحسوسات أنما ترد عليها من مقدّمها واليه الإشارة بقوله من بين أيديهم.

ثانيتهما: القوّة الوهميّة التي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة لها وهي موضوع في البطن المؤخّر من الدّماغ واليه الإشارة بقوله من خلفهم.

الثالثة: الشّهوة وهي موضوعة في الكبد وهي من يمين البدن.

والقوّة الرّابعة: الغضب وهو موضع في البطن الأيسر من القلب فهذه القوى الأربع هي التي تتولّد عنها أحوال توجب زوال السّعادات الرّوحانية والشّياطين الخارجة ما لم تستعن بشيء من هذه القوى الأربع لم تقدر على إلقاء

الوسوسة فهذا هو السَّبب في تعيين هذه الجهات الأربع وهو وجه حقيقي شريف انتهى كلامه.

ثم نقل بعد ذلك وجوهاً إستحسانية إستخراجية من خيالات باطلة وأوهام كاسدة التي لا يمكن الإعتماد عليها عقلاً ونقلاً ولا سيما في تفسير كلام الله الذي قال رسول الله ﷺ فيه من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. والعجب من الرّازي وأمثاله حيث لم يفرّقوا بين كتاب الله وكتاب أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة ولم يعلموا أنّ تفسير القرآن لابدّ له أن يؤخذ من أهله ومن يضلّل الله فما له من هادٍ مضافاً إلى أنّ ما ذكره الرّازي ونقله عن حكماء الإسلام فعلى فرض صحّة النّقل لا ربط له بالتفسير وإنطباع كلام الله عليه.

روي الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان عن أبي جعفر عليه السلام قال: **ثُمَّ لَا تَيَسَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ لَا تَيَسَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ**، معناه أهون عليهم أمر الآخرة، وعن من خلفهم أمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم، وعن أيماهم، أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة، وعن شمائلهم، بتحبيب اللذات اليهم وتقليب الشهوات على قلوبهم انتهى وفي نهج البلاغة من كتاب له إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أنّ معاوية قد كتب إليه يريد خديعته بإستلحاقه.

وقد عرفت أنّ معاوية كتب إليك يسترّل لبك ويستفلّ غربك فاحذره فأثمّا هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقترحم غفلته ويستلب غزته انتهى.

وفي روضة الكافي بأسناده عن زرارة قال قلت له قوله عز وجل: **لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَيَسَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ** قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: يا زرارة أئما عمد لك ولأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم انتهى.

وفي تفسير القمّي في هذه الآية، ما لفظه **إِمَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** فهو من قبل الآخرة لأخبرتهم لا جنة ولا نار ولا نشور، وأما **خَلْفَهُمْ** يقول من قبل دنياهم

أمرهم بجمه الأموال وأمرهم أن لا يصلوا في أموالهم رحيماً ولا يعطوا منها حقاً وأمرهم أن يقللوا على رزياتهم وأخوفهم عليهم الضيعة، وأما عَنْ أَيْمَانِهِمْ يقول من قبل رينهم فأن كانوا على ضلالة زيتها لهم وأن كانوا على هدى جهدت عليهم حتى أخرجهم منه، وأما عَنْ شِمَائِلِهِمْ يقول من قبل اللذات والشهوات يقول الله: **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ** ^(١) إنتهى موضع الحاجة منه.

أقول فهذه الروايات الواردة في تفسير الآية هي المعتمد عليها في بيان معنى المراد فيها وعلى الله التوكل وبه الاعتصام.

قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ

حكى عن عاصم (لَمَنْ) بكسر اللام بحذف الخبر وتقديره لمن تبعك النار، وهذه القراءة متروكة والمشهور هو فتح اللام كما عليه المصاحف والمعنى قال الله تعالى لأبليس لما استكبر وعصى **أَخْرِجْ مِنْهَا** أي من الجنة أو من السماء، مذمومًا، أي معيبًا وقيل مذمومًا مَدْحُورًا أي مطرودًا وقال قتادة، مذمومًا، أي لعيننا الكلبي، ملومًا، والكل متقارب المعنى.

وأعلم أن قوله: مَذْمُومًا، بالهمز وهو من ذأمة إذا عبته وقرأ مذمومًا، بالواو من غير همز بناءً على أن يكون أصله مديماً لأن الفعل منه ذأمة يذيمه ذيمًا فأبدلت الياء واوًا كما قالوا في مكيل مكول وفي ثيب مثوب وكيف كان فالمعنى واضح لا خفاء فيه وقد روي في بعض القراءات مذمومًا، بالميم ومعناه واحد لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أي من أولاد آدم **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ** أي لأملأَنَّ جهنم منك ومن تبعك أجمعين أعاذنا الله من متابعتهم ووفقنا على مخالفته بحق محمد وآله الأطهار آمين، رب العالمين.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ
 حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
 الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ
 لَهُمَا مَا وَرَىٰ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِيهِمَا وَقَالَ مَا
 نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا
 مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا
 إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّيَهُمَا بِغُرُورٍ
 فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا
 يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْهُمَا
 رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ
 لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا
 رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ أَهْبِطُوا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
 وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

اللغة

فَوَسَّوَسَ، الوسوسة الدُّعاء إلى أمرٍ بضربٍ خفيٍّ كالهمهمة قال الشاعر:
 وسوس يدعوا مخلصاً ربَّ الفلن سراً وقد أَوَّنَ تأوين العقق
 ليُبْدِيَ، الإبداء الإظهار وصدّه الإخفاء وكلُّ شيءٍ أزيل عنه السَّاتر فقد
 أُبْدِيَ.

وَرَى، المَوَارَاةَ جَعَلَ الشَّيْءَ وراءَ ما يستره و مثله المساترة و ضده المكالفة.

سَوَاتِيهِمَا، قيل للفرج سواة لأنه يسوء صاحبه إظهاره و قيل كلما قبح إظهاره سواة.

وَقَاسَمَهُمَا، المقاسمة لا تكون إلا بين اثنين و القسم كان من إبليس لأن آدم مقسم له و إنما قال قاسمهما، لأنه من قبيل عاقبت اللص و طارقت النبل و ناولت الرجل و غير ذلك لأن في الجميع معنى المقابلة فكأن إبليس قابل آدم في المنازعة باليمين قال الشاعر:

و قاسمهما بالله جهداً لأنتم ألد من السلوى اذا ما نشورها
بِعُرُورٍ: العُرُور بضم الغين المعجمة إظهار النصح مع إبطان الغش و أصله الغر لما فيه من إظهار حال و إخفاء حال و منه الغرر لخفاء ما لا يؤمن فيه.
آهَبُوا: الهبوط النزول بسرعة و الباقي واضح.

الإعراب

فَذَلِيلُهُمَا الألف بدل من ياء مبدلة من لام والأصل دَلِيلُهُمَا، من الدلال أجزى
يبدال اللام لما اجتمع في الكلمة ثلاث لامات بِعُرُورٍ في موضع الحال من
الضمير المنصوب أي وهما مغترين طِفْقًا في حكم كاد و معناها الأخذ في
الفعل و الإعراب في باقي الكلمات واضح.

التفسير

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ قد مرَّ تفسيرها في سورة البقرة آية (٣٥) فراجع أن شئت و الذي نقول به في المقام هو أن النهي في الآية نهى تنزيه دون حظر و تحريم لعصمة الأنبياء.

و أما على مذهب أهل السنة فالنهي للتحريم و إنما الاختلاف بينهم في أن

الذنب الصّادر عن آدم وحواء كان كبيراً أو صغيراً وعلى فرض كونه صغيراً هل وقع من آدم سهواً ونسياناً أو من باب الخطأ في التأويل بمعنى أنّ المنهي عنه كان جنس الشجرة فحمله آدم على شجرة بعينها فأخطأ في التأويل والحق ما ذكرناه عن كون النهي للتنزيه فقط وقد فصلنا الكلام في المراد بالنهي وسائر ما يتعلّق من المباحث حول الآية هناك فلا وجه للإعادة ثانياً.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِيهِمَا
أي فوسوس لأدم وحواء الشيطان بمعنى أنّه ألقى اليهما الوسوسة أي تكلم معهما كلاماً خفياً.

أن قلت أليس الشيطان مطروداً كما قال الله تعالى: **أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا** فإن قلنا أنّ الضمير في قوله: **مِنْهَا** راجع إلى الجنة فالمعنى أخرج منها وإن قلنا أنّه راجع إلى السماء فالمعنى أخرج من السماء وعلى التقديرين كان خارجاً من الجنة فكيف وسوس لهما ومن أين صدرت منه الوسوسة.
قال بعض المفسرين أنّه كان يوسوس من الأرض إلى الجنة أو إلى السماء بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى له.

وقال آخرون بل كان آدم وإبليس في الجنة لأنّ هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض، وذهب بعضهم إلى أنّ إبليس دخل في جوف الحيّة ودخلت الحيّة في الجنة.

وفي المقام قول رابع وهو أنّ آدم وحواء ربما قرباً من باب الجنة إبليس واقفاً من خارجها على بابها فيقرب أحدهما من الآخر وتحصل الوسوسة هناك.

والظاهر أنّ اللام في قوله: **لِيُبْدِيَ** لام التعليل وقيل لام كي، لأنّه قصد إبداء سواتيهما وقال قوم أنّها لام الصيرورة لأنّه لم يكن له علم بهذه العقوبة المخصوصة فيقصدها وقيل لام العاقبة من قبيل قوله تعالى: **فَالنَّقْطَةُ الُّ** **فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا** ^(١) ثمّ أنّهم اختلفوا في تخصيص السّوءة بالذكر.

فقال الرّمخشري فيه دليل على أنّ كشف العورة من عظام الأمور وأنّه لم يزل مستهجنًا في الطّباع مستقبلاً في العقول والحقّ أنّ الأمر وأن كان كذلك إلّا أنّ المراد بهما ليس خصوص الفرج والدُّبر بل المراد بهما جميع بدنهما أو أنّهما ذكرا على سبيل الكناية أو لأنّ السّوّاة أقيح ما يظهر من بني آدم.

وَقَالَ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَلِمَةً، ما نافية والمعنى أنّ الشّيطان قال لأدم وحوّاء ما نهاكما ربكما عن هذه الشّجرة المخصوصة أي أنّ النّهي لم يتعلّق بها إلّا أنّ تَكُونَا مَلَكَائِنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ قيل الإستثناء مفرغ من المفعول من أجله أي ما نهاكما ربكما لشئٍ إلّا كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين في الجنّة والمعنى أنّ الشّيطان أوهمهما أنّهما إذا أكلتا من هذه الشّجرة تغيّرت صورتهم إلى صورة الملك وأنّ الله تعالى قد حكم بذلك وبأن لا يبيد حياتهما إلّا إذا أكلتا منها.

ونقل الطّبرسيّ رحمته في تفسيره عن المُرْتَضَى رحمته أنّه قال يحتمل أن يكون المراد بقوله: **إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِنِ** أنّه أوهمهما أنّ المنّهي عن تناول الشّجرة الملائكة خاصّة والخالدين دونهما.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ

أي المخلصين النّصيحة في دعاءكما إلى التّناول من هذه الشّجرة ولذلك تأكّدت الشّبهة عندهما إذ ظنّا أنّ أحداً لا يقدم على اليمين بالله تعالى إلّا صادقاً فدعاهما ذلك إلى تناول الشّجرة.

فَدَلَّيْهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطِيفَا بِخَصِيفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ

أي أوقعهما الشّيطان في المكروه بأن غرّهما بيمينه.

وقيل معناه دلّاهما من الجنّة إلى الأرض.

وقيل معناه أخذلهما و خلاهما.

وقيل حطَّهما عن درجتهما بغروره و المأل واحد، و الجامع أنه غرَّهما بسبب اليمين فلما ذاقا الشجرة، أي ابتدأ آدم و حواء بالأكل و نالا منها شيئاً يسيراً لأنَّ الذوق ابتداء الأكل و الشرب لتعرف الطعم قيل و فيه دلالة على حرمة ذوق الشئ المحرم فضلاً عن إستيفاءه و قضاء الوطر منه.

أقول هو كذلك بعد العلم بالحرمة بسبب النهي و أمّا في صورة الجهل فلا، و حيث أن آدم و حواء كانا عالمين بها بسببها فلا جرم تغلق الذم بهما قوله: **بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا** معناه ظهرت لهما عوراتهما أي ظهر لكل واحد منهما عورة صاحبه، (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أي أخذوا يجعلان ورقة ليسترا سواتهما و هذا أنما كان لأنَّ المصلحة إقتضت إخراجهما من الجنة و إهباطهما الى الأرض لا على وجه العقوبة فإنَّ الأنبياء لا يستحقونها و ناديهما **رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** أي و نادى الله تعالى آدم و حواء و قال: لهما ألم أنهكما، و الإستفهام للإكثار أي نهيتكما عن تلكما الشجرة لكنّه لما خاطب إثنين قال **تلكما والكاف حرف الخطاب، و أقل لكما، أي ألم أقل لكما، أي قلت لكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** و ذلك لأنّه إمتنع من السجود لآدم و قال: **لَأُقْعِدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ.**

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

أي قال آدم و حواء ربنا ظلمنا أنفسنا، بمخالفة النهي وإن لم تغفر لنا و ترحمنا أي و أن لم ترحمنا لنكنن من الخاسرين.

و قال صاحب الكشف و سميّاذ منهما و أن كان صغيراً مغفوراً، ظلماً على عادة الأولياء في إستعظامهم الصّغير من السيئات انتهي.

و كيف كان أنهما قد أقرّا و إعترفا بذنبيهما و طلبا التوبة و المغفرة و هذا يدل

على صلاحهما وحسن عاقبتهما وأنهما لم يقصدا بذلك التَّمرّد والطَّغيان قال بعضهم سعد آدم بخمسة أشياء وشقي إبليس بخمسة أشياء.
أما آدم:

١ - فقد اعترف بالمُخالفة.

٢ - وندم عليها.

٣ - ولام نفسه.

٤ - وسارع إلى التَّوبة.

٥ - ولم يقنط من الرَّحمة.

أما إبليس:

١ - لم يقر بالذنب.

٢ - ولم يندم.

٣ - ولم يسلم نفسه بل أضاف إلى ربه الغواية.

٤ - وقنط من الرَّحمة.

٥ - ولم يسارع إلى التَّوبة.

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى

حِينٍ

أي قال الله تعالى لهؤلاء الثلاثة إهبطوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو يعني أن العداوة ثابتة بينكم لا تزول البتة وقوله: وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ قيل المراد بالمستقر هو أن الأرض موضع إستقرار لكم معناه الإستقرار بعينه لأن المصدر يجيء على وزن المفعول نحو قوله: وَنُذِلْكُمْ مُذْخَلًا كَرِيمًا^(١) أي إدخالاً كريماً وقوله ومتاع إلى حين، فالمراد أنكم تتفعون وتستلذون بما في الأرض من الأمتعة والأغذية والألبسة وغيرها إلى الحين قصيراً كان أو طويلاً

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد
السادس

وقيل معناه الى القيامة قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ والمعنى واضح.

لأنَّ الحياة والموت والخروج للبعث يوم القيامة في هذه الأرض قال الله تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى^(١)

وقوله: **إِلَى حِينٍ** قال الراغب الحين وقت بلوغ الشئ وحصوله وهو مبهم المعنى ويتخصّص بالمضاف اليه نحو قوله ولات حين مناص. **تنبيه:**

قال بعض المفسرين قد أكثر المفسرون المتكلمون في هذه القصة من إستخراج الإشكالات والجواب عنها بأنواع من التّمحلات وهى مبنية على ما جروا عليه من أنّ آدم كان نبياً ورسولاً وأنّ الرّسل معصومون من معاصي الله فكيف وسوس له الشّيطان فأغواه وكيف أقسم له فصدقه فيما يخالف خبر الله وكيف أطمعه في أن يكون ملكاً أو خالداً فطمع وهو يستلزم إنكار البعث كان لم يصدّق فكيف أطاعه وهل الأمر له بالأكل من الجنّة أمر وجوب أم إباحة و هل النّهي للشّجرة للتّحريم أو الكراهة الى آخر ما هنالك حتّى زعم بعضهم أنّ معصية كانت صوريّة وزعم بعض الصّوفية أنّ حقيقة هذه المسألة لا تعرف إلاّ بالكشف أو إلاّ في الآخرة و سياق الكلام الى أن قال أنّ آدم لم يكن نبياً عند بدء خلقه إتفاقاً ولا موضع للرّسالة في ذلك الطّور والظاهر من الآيات الواردة في الرّسل ومن بعض الأحاديث الصّحيحة أنّه لم يكن رسولاً مطلقاً وأنّ أوّل الرّسل نوح **عليه السلام** وعصمة الأنبياء من كلّ معصية قبل النّبوة وبعدها لم ينقل إلاّ عن بعض الرّوافض ولا يظهر دليل العصمة ولا حكمتها فيه.

ثمّ قال هذا ما ألهمه الله تعالى من بيان معاني هذه الآيات بما يدلّ عليه الأسلوب العربي مع مراعاة سنن الله تعالى في الخليفة انتهى موضع الحاجة من كلامه^(٢).

ثم ذكر صاحب الكتاب من الإسرائيليات في قصّة آدم فصلاً مشبعاً من أراد الإطلاع عليه فليرجع الى كتابه.

ونحن نقول أمّا في إستخراج الإشكالات من المفسّرين في هذه القصّة و الجواب عنها فهذا ممّا لا كلام لنا فيه و ذلك لأنّ حقيقة الأمر في هذه القصّة علينا مجهولة لا علم لنا بكيفيّة الأمر و دقائقها و خفاياها إلّا ما يدّل عليه ظاهر الآيات.

و أمّا قوله و آدم لم يكن نبياً و رسولاً عند بدء خلقه إتفاقاً فهو أيضاً حقّ لا مرية فيه و الأخبار تدلّ عليه إلّا أنّ الرّسالة غير النّبوة فقوله أنّ أوّل الرّسل نوح عليه السلام لا ينافي كون آدم و بعده الى زمان نوح أنبياء و لم يقل أحد بأنّ آدم كان رسولاً فكأنّ المتشكل لم يفرق بين النّبي و الرّسل و كيف كان فنحن أيضاً نقول بمقاله إجمالاً.

و أمّا قوله و عصمة الأنبياء من كلّ معصية قبل النّبوة و بعدها لم ينقل إلّا عن بعض الرّوافض.

فنقول مراده عن بعض الرّوافض، هو الشيعة الإمامية الاثنى عشرية لأنهم إتفقوا على عصمة الأنبياء قبل النّبوة و بعدها بل يقولون بعصمة الأوصياء أيضاً و قد إستدلوا على ذلك من العقل و النّقل بما لا مزيد عليه و لولا خوف الإطاعة لذكرنا بعض الأدلّة العقليّة و النّقليّة في المقام رغماً لأنوف المخالفين. و أمّا في قصّة آدم فالظاهر من آثار أهل البيت أنّه لم يكن نبياً عند بدء خلقه و لذلك لا يضره هذا المقدار من الذّنب الصّغير الذي تعبّر عنه بترك الأولى ولو كان غير ذلك لما كان صالحاً للنّبوة أصلاً لأنّ النّبي كما لا يجوز عليه الذّنب بعد النّبوة لا يجوز عليه قبلها لقوله تعالى: لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ^(١) و قد ثبت أنّ المشتقّ أعمّ عمّا إنقضى عنه المبدء.

فعن عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بأسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون قال عليه السلام: بلى، قال: فما معنى قول الله عز وجل: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ^(١) قال عليه السلام: أن الله قال لأدم: أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ^(٢) وأشار لهما إلى شجرة الحنطة فتكونا من الظالمين و لم يقل و لا تأكلا من هذه الشجرة و لا ممّا كان من جنسها فلم يقربا تلك الشجرة و أنما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان اليهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة و أنما نهاكما أن تقربا غيرها و لم ينهكما عن الأكل منها إلا أن يكونا ملكين أو تكونا من الخالدين و قاسمهما أني لكما لمن الناصحين و لم يكن آدم و حواء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً فدليهما بغرور، فأكلا منها ثقةً بيمينه بالله و كان ذلك من آدم قبل النبوة و لم يكن ذلك بذنب كبيراً إستحقّ به دخول النار و أنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلما إجتباه الله تعالى و جعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة و لا كبيرة.

قال الله تعالى: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ إجتباه ربه فتاب عليه و قال عز وجل: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ^(٣) انتهى.

و عن تفسير علي بن إبراهيم، حدّثني أبي رفعه قال سأل الصادق عليه السلام عن جنة آدم أمن جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة فقال عليه السلام كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر ولو كان من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً قال عليه السلام فلما أسكنه الله الجنة أتى جهالة إلى الشجرة لأنه خلق خلقاً لا تبقى إلا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والأكنان والتناكح ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلا بالتوفيق فجاء إبليس فقال له أنكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهيكما الله عنها صرتما ملكين و بقيتما في الجنة أبداً وإن لم تأكلا منها أخرجكما من الجنة و حلف لهما أنه لهما ناصح كما قال حكاية عنه ما نهيكما ربكما عن هذه الشجرة إلى قوله: لَمِنْ النَّاصِحِينَ فقبل آدم قوله فأكلا من الشجرة و كان كما حكى الله، بدت لهما سوءاتهما، و سقط عنهما ما ألبسهما الله من لباس الجنة و أقبلتا يستتران بورق الجنة، و ناديهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة و أقل لهما أن الشيطان لكما عدو مبین فقالا كما حكى الله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية فقال الله لهما، أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قال عليه السلام إلى يوم القيامة انتهى.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لما أخرج الله آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل فقال يا آدم أليس الله خلقك بيده و نفخ فيك من روحه و أسجد لك ملائكته و زوجك أمته حواء و أسكنك الجنة و أباحها لك و نهاك مشافهةً أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها و عصيت الله فقال آدم يا جبرئيل أن إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح فما ظننتُ أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً انتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي البصائر و الدّراية اذ لا ملجأ لنا في حلّ مشكلات الكتاب إلّا الأخذ من العترة الطّاهرة الّتي جعلها النّبي عدلاً للكتاب في قوله كتاب الله و عترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً فهذا ما يظهر لنا من الأخبار في قصّة آدم و حواء و ما وراء ذلك فهو داخل في قولهم أسكتوا عمّا سكت الله عنه فإنّ أسرار كلام الله لا يعلمها إلّا الله و الرّاسخون في العلم و ما نقلناه من الأخبار نقلناه عن تفسير نور الثّقلين^(١) و الحمد لله ربّ العالمين.



يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٠)

◀ اللغة

يُوَارِي يقال وارىت كذا اذا سترته و توارى، إستتر.

سَوَاتِكُمْ أي عوراتكم وقد مرّ الكلام فيها.

و رِيشًا ريش الطائر معروف و هو للطائر كالثياب للإنسان و لذلك قد يستعار منه و قد يستعار لإصلاح الأمر يقال رشْتُ فلاناً فإرتاش أي حسن حاله.

يَفْتَنَنَّكُمْ الْفِتْنَةُ هِيَ الْإِخْتِبَارُ وَالْإِبْتِلَاءُ.
يَنْزِعُ النَّزْعَ قَلْعَ الشَّيْءِ مِنْ مَوْضِعِهِ الَّذِي هُوَ مَلْبَسٌ لَهُ.

◀ الإعراب

قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي ولباسُ التَّقْوَى بالنَّصْبِ والباقون بالرَّفْعِ فمن نصبه عطفه على قوله رِبْشًا وَ ذَلِكَ وَ خَيْرٌ خبره والجملة خبر لباس وقيل لباسُ التَّقْوَى خبر مبتدأ محذوف تقديره وساتر عوارتكم لباس التَّقْوَى أو على العكس أي ولباسُ التَّقْوَى ساتر عوارتكم يَنْزِعُ عَنْهُمَا الجملة في موضع الحال من ضمير الفاعل في، أخرج، أو من الأبوين هُوَ وَ قَبِيلُهُ هو توكيد لضمير الفاعل ليحسن العطف عليه وَ أَقِيمُوا معطوف على موضع القسط على المعنى أي أمر ربِّي فقال أقسطوا وأقيموا وقيل في الكلام حذف تقديره فأقبلوا وأقيموا والَّذِينَ منصوب بمخلصين كما، الكاف نعتٌ لمصدر محذوف أي تعودون عوداً كبداكم.

فَرِيقًا هَدَى وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ الأول منصوب بهدئ والثاني بفعل محذوف تقديره وأضل فريقاً ويحتمل أن يكون فريقاً في الموضعين حال وهدي وصفٌ للأول حَقَّ عَلَيْهِمُ وصفٌ للثاني.

◀ التفسير

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا

لما ذكر الله تعالى قصة آدم وفيها ستر السَّوآت وجعل له في الأرض مستقراً ومتاعاً ذكر ما إمتن به على أولاد آدم وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يوارى السَّوآت والرياش الذي يمكن به إستقرارهم في الأرض وإستمتاعهم بما حوّلهم.

قيل هذه الآية نزلت وهكذا الثلاث بعدها فيمن كان من العرب يتعرى في البيت في طوافه وقيل أنها نزلت في مقام الإمتنان على بني آدم وأن الله تعالى أنعم الله عليهم بما ذكر فيها كما أنعم عليهم بغيره والدليل على ما ذكرناه هو أن المخاطب بها كل بني آدم وكيف كان فقد ذكر في الآية أنه أنزل عليهم اللباس من السماء كما هو المستفاد من الإنزال وظاهر الأمر أنه ليس كذلك.

قيل في الجواب أنه ذكر المسبب وأراد به السبب وذلك لأنه ينبت بسبب نزول المطر من السماء ما يتها منه اللباس، وقيل أنه بمعنى خلق كما في قوله تعالى وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، أي خلق وقوله: **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**^(١) أي خلقنا والحاصل أن البركات تنسب إلى أنها تأتي من السماء وما نحن فيه من هذا القبيل فهذه الآية خطاب منه تعالى لأهل كل زمان من أولاد آدم والمراد باللباس كلما يصلح للباس من ثوب وغيره من نحو الدرع يغشي به البيت من نطع أو كسوة.

وأما الريش فقليل هو اللباس الفاخر الذي يلبس للزينة ومنه ريش الطائر. وقال بعضهم الريش عبارة عن سعة الرزق ورفاهية العيش وأكثر أهل اللغة على أن الريش ما يستر من لباس أو معيشة وقال قوم المراد به الأثاث قال صاحب الكشاف لباس الزينة أستعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته أي أنزلنا عليكم لباسين، **لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ** ولباساً يزينكم لأن الزينة غرض صحيح انتهى.

ولا يخفى أن عطف الريش على اللباس يقتضي المغايرة وأنه قسيم له والأقوال في الباب كثيرة والحق أن المراد بالرياش المتاع والمال وباللباس كل ما يلبس فإن المال يُستر به العرض كما أن اللباس يستر به الجسد قال الله تعالى: **أَلْمَالُ وَالْأَنْفُسُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**^(٢).

لِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ إِيَّاكُمْ فِي
لباس التقوى أيضاً، فقال ابن زيد هو ستر العورة.

وقال زيد بن علي الدرعي والمغفر والساعدان لأنه يَتَّقِي بها في الحرب.
وقيل الصوف ولبس الخشن، وقيل ما يقي من الحر والبرد، وقيل لباس
المتقين في الآخرة.

وعن ابن عباس أنه العمل الصالح، وقيل العفة، وقيل الإيمان، وأقوى
الأقوال وأحسنها هو أن المراد به العفاف وذلك لأن العفيف لا تبدوا له عورة
وأن كان عارياً من الثياب والفاجر باد العورة وأن كان كاسياً من الثياب.
ثم قال تعالى ذلك، أي أن الذي فعلناه بكم من حجج الله التي دلتكم على
توحيده من الله، لعلهم يذكرون، أي لكي يتفكروا فيها ويشكروا على ما أنعم
الله عليهم من النعم التي لا تحصى فتحصل لنا من الآية أن الله تعالى أنزل أي
خلق وجعل لأولاد آدم لباساً يوارى به سواته، ولباساً يستر به عرضه وهو
المال والمتاع، ولباساً يستر به قبائحه وهو الدين والعفاف ويعبر عن الأول
باللباس وعن الثاني بالرّيش وعن الثالث بالتقوى فمنهم من حصل له واحداً
منها ومنهم من حصل له أثنان ومنهم من حصل له الثلاثة وهو الموفق المؤيد
من عند الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ

لما ذكر قصة آدم وبين فيها عداوة الشيطان لأدم وأولاده أتبعها بتحذير
أولاده من قبول وسوسة الشيطان وخديعته ومكره وذلك لأنه بوسوسته و
مكره صار سبباً لخروج آدم وحواء من الجنة ومن كان قادراً على إخراج آدم
أبو البشر وهو هو، فهو على إخراج أولاده أقوى وأقدر ولذلك قال الله تعالى:
يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ أَي لا يوقعكم إلى المعاصي من الجهة التي
تميل إليها النفوس وتشتهيه كما هو دأبه وديدنه.

كما أخرج أبويكم من الجنة أي كما أغوى أبويكم حتى خرجا من الجنة وأما نسب الإخراج إليه لما كان باغواؤه وجرى ذلك مجرى ذم الله تعالى فرعون بأنه يذبح أبناءهم وأما أمر بذلك وتحقيق الذم فيها راجع إلى فعل القتل المذموم. **يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا** أي نازعاً عنهما لباسهما وذلك لأنه في موضع الحال من الشيطان وأما فعل ذلك لكي تبدو سوأتهما فيريهاها وغرضه في ذلك هو أن يغمها ذلك ويسوءهما أن تبدوا ولغيرهما كما بدا لهما لأن ذلك صفة كل من له مروة وأما لباسهما.

فقيل كان لباسهما الظفر وقيل كان لباسهما نوراً وقيل كان من ثياب الجنة. **إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ** يعني أن الشيطان يراكم والمراد بقبيله قيل هو نسله وذريته وعليه فالمعنى أن الشيطان وذريته يرونكم وأنتم لا ترونهم إما لأن أبصارهم أحد من أبصارنا وإما لأن أجسامهم شفافة وأجسامنا كثيفة.

وقال بعضهم أن الله تعالى خلق في عيونهم إدراكاً ولذلك يرون الإنس ولم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس ولذلك لا يرونهم. **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ.**

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (١) وقد حكى الله تعالى عنه أنه قال: **لَأُعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ** (٢).

قال الله تعالى: **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ** (٣).

قال القاضي معنى قوله جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، هو أننا حكمنا بأن الشياطين أولياء لمن لا يؤمن ومعنى قوله أرسلنا الشياطين على الكافرين هو أننا خلينا بينهم وبينهم انتهى.

واعترض عليه الرّازي وقال، اذا قال القائل أنّ فلاناً جعل هذا الثوب أبيض أو أسود لم يفهم منه أنّه حكم به بل يفهم منه أنّه حصل السّواد أو البياض فيه فكذلك هاهنا وجب حمل الجعل على التأثير والتّحصيل لا على مجرّد الحكم انتهى.

و أنا أقول تفسير الجعل بالحكم لا يخلو عن مسامحة و الأحسن تفسيره بالعلم أي علمنا ذلك اللهم إلا أن يقال أنا حكمنا بذلك لأننا علمنا به فالمراد بالحكم ليس معناه المصطلح الذي لا مردّ له.

و أمّا قول الرّازي بحمل الجعل على التأثير و التّحصيل ففيه أنّه يتم اذا كان الجعل مركباً لا بسيطاً و الجعل في المقام بسيط فكأنّه لم يفرق بين الجعلين فقال ما قال و عليه فالمعنى أنا أوجدنا الشياطين كذلك لا جعلناهم كذلك حتّى لا يقدر الشيطان على خلاف ذلك فالإغواء والإضلال مقتضى جبلّيته و طبيّته و ماهيّته لا مقتضى وجوده فإنّه دقيق.

وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَ جَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

الفحش و الفحشاء و الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال، قيل أنّها و ما بعدها نزلت في قوم من المشركين الذي كانوا يبدون سواتهم في طوافهم و لذلك قال ابن عطية و الفاحشة و أن كان اللفظ عامّاً إلا أنّ المراد بها كشف العورة في الطّواف و قيل المراد بها هنا الشّرك و قيل البحيرة و السّائبة و الوصيعة و الحامي و قيل الكبائر كلّها و هو الحقّ اذ حمل اللفظ على الخصوص لا دليل عليه و كيف كان فاذا قيل لهم لم تفعلون هذا قالوا وجدنا عليه آباءنا، و الله أمرنا بها، أي أنّ آباءنا كانوا كذلك فلولا أمر الله ما فعلوه قطعاً.

فَقَالَ تَعَالَى لَنُبَيِّهَ لَنَبِيِّهِ: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

قال الله تعالى: وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(١).

قال الله تعالى: أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٣) والآيات كثيرة.

نعم هذا أي الأمر بالفحشاء من الشيطان وأتباعه:

قال تعالى فيه: إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٤).

قال الله تعالى: أَلَشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ^(٥).

والسرفيه هو أن الفحشاء قبيح والله تعالى منزلة عن القبائح قولاً وعلاً لأن القبح عيب ونقص والواجب تعالى كامل بالذات والصفات فلا يتصف بالقبائح ومن كان كذلك كيف يأمر به.

وأما الشيطان وأتباعه فالأمر فيهم بالعكس وقد ثبت أن كل حزب بما لديهم فرحون أل ترى أن العادل يأمر بالعدل والظالم يأمر بالظلم والسارق يأمر بالسرقة وهكذا والى هذه النكتة أشير بقوله أتقولون على الله ما لا تعلمون نعم أن الله تعالى متصف بالعدل ولذلك يأمر به كما قال: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ فهو أمر بالقسط لأنه بذاته قائم به:

قال الله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ^(٦).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

٢- الأعراف = ٨٠

٤- البقرة = ١٦٩

٦- آل عمران = ١٨

١- النحل = ٩١

٣- النور = ١٩

٥- البقرة = ٢٦٨

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ (١).

قال الله تعالى: وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٢).

قال الله تعالى: وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (٣).

وقد روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَيْهِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ انْتَهَى.

وعن كتاب التوحيد بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تعالى يَأْمُرُ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ الحديث.

وعن تفسير علي ابن إبراهيم في هذه الآية قال الذين عبدوا الأصنام فَرَّدَ اللَّهُ عليهم:

فَقَالَ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٤).

وَاقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ هُنَا بحثان:

أحدهما: في قوله وَاقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ.
ثانيهما: في قوله وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فقليل فيه وجوه:

أحدها: ما ذهب اليه مجاهد والسدي وابن زيد قالوا معناه تَوَجَّهوا الى قبله كل مسجد في الصَّلَاة على إستقامة.

ثانيها: قال الزَّيْع أي تَوَجَّهوا بالإخلاص لله لا للوثن ولا لغيره.

ثالثها: قال الفراء معناه اذا دَخَلَ عليك وقت الصَّلَاة في مسجد فصل فيه ولا تَقُلْ أتى مسجد قومي.

أقول هذه الوجوه وأن إعتمدوا عليها في التَّفاسير إلا أنها لا ترجع الى مُحْصَل كما هو ظاهر والحقُّ أَنَّ الكلام خرج مخرج الإستعارة وذلك لأنَّ الوجه لا يصحُّ عليه القيام وعليه فالمعنى فَوَجَّهوا وجوهكم عند كل مسجد ويجوز أن يكون معنى ذلك، فتَوَجَّهوا بجملتكم نحو كل مسجد لأنَّ وجه الشَّيْ عبارة عن جملته.

وقيل أراد بالإقامة تحرِّي الإستقامة وبالوجه التوجُّه نقله الرَّاغِب في المفردات وما ذكرناه أولى.

البحث الثاني: في تفسير قوله وَ أَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أمرهم بالدَّعاء والتَّضرع اليه تعالى على وجه الإخلاص وأصل الإخلاص على ما قيل هو إخراج كلِّ شائبٍ من الخبث والمراد به في لسان الشَّرْع هو توجيه العبادة الى الله تعالى خالصاً وقد أُشير الى هذا المعنى في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبِذْ إِلَيْهِ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**^(٢).

قال الله تعالى: **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**^(٣).

قال الله تعالى: **قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي** ^(١).

قال الله تعالى: **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ^(٢).

قال بعض العرفاء الإخلاص تصفية العمل من كل شوبٍ وهو على ثلاث درجات:

الأولى: إخراج رؤية العمل من العمل و الخلاص من طلب العوض على العمل و النزول عن الرضا بالعمل.

أقول المراد بإخراج رؤية العمل هو أن لا يعتدّ بعمله ولا يرى أنّه من كسبه بل هو بتوفيق من الله و من المعلوم أنّ العمل إذا صدر هكذا فإنّ العامل لا يرى فيه إستحقاق الثّوى بل يراه محض الموهبة أجراه الله على يده وبهذا يخلص من طلب العوض اليه.

والدرجة الثانية: الخجل من العمل مع بذل المجهود و توفير الجهد بالإحتماء من الشّهود و رؤية العمل في نور التّوفيق من عين الجود.

والدرجة الثالثة: إخلاص العمل بالإخلاص من العمل، و لتوضيح هذه الكلمات مقام آخر.

و عن المحاسن عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: في قوله تعالى: حَنِيفاً مُسْلِماً أي خالصاً مخلصاً لا يشوبه شيء انتهى.

و من كتاب روضة الواعظين قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: **أَنْ لِّكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ وَ مَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِخْلَاصِ حَتَّى لَا يُحِبَّ أَنْ يَحْمَدَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَمَلِ اللَّهِ.** و منه أيضاً قال أبو عبد الله عليه السلام: **قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ أَشْرَكَ مَعِيَ فِي عَمَلِهِ لَا أَقْبَلُهُ إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصاً أَنْتَهَى.**

و قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَعْلَمْ مَا لِلَّهِ عِنْدَهُ أَنْتَهَى** ^(٣).

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ إِخْتَلَفُوا فِي الْمَرَادِ مِنْهُ عَلَى أَقْوَالٍ.

أحدها: معناه كما بدأكم الله حفاة عراة كذلك نعيدكم حفاة عراة روي عن النبي ﷺ قال يحشرون عراة حفاة عزلاً.

ثانيها: ما روي عن ابن عباس و جابر أنهم يبعثون على ما ماتوا عليه المؤمن على إيمانه والكافر على كفره.

ثالثها: ما نقل عن الزجاج قال كما أحياكم في الدنيا أول مرة كذلك يحييكم في الآخرة وليس بعثكم بأشد من ابتداء إنشاءكم وهذا احتجاج عليهم في إنكارهم البعث.

رابعها: أنه إعلام من الله بأن من كتب عليه أنه من أهل الشقاوة والكفر في الدنيا هم أهل ذلك في الآخرة وكذلك من كتب له السعادة والإيمان في الدنيا هم أهل ذلك في الآخرة لا يتبدل شيء مما أحكمه ودبره ويؤكد هذا المعنى قراءة أبي تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة وعلى هذا يكون الوقف على، تعودون، غير حسن لأن فريقاً نصب على الحال وفريقاً عطف عليه والجملة من هدى، ومن حقّ، في موضع الصفة لما قبله.

أقول أحسن الأقوال هو القول الثالث فإن ظاهر الآية يقتضي ما ذكره الزجاج وهو أن العود مثل البدأ ففي الحقيقة تكون الآية حجة على منكري البعث و سيأتي الكلام في هذا الباب مفصلاً في محله إن شاء الله تعالى: **فَرِيقًا هَدَى وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ** قد مرّ في بحث الإعراب وجه النصب في فريقاً، في الموضوعين وأن فريقاً.

الثاني منصوب بفعل مقدّر أي وأضلّ أو خذل فريقاً حقّ عليهم الضلالة قال في الكشف، فريقاً هدى، وهم الذين أسلموا أي وفقهم للإيمان وفريقاً حقّ عليهم الضلالة أي كلمة الضلالة وعلم الله أنهم يضلّون ولا يهتدون.

وقال الرّازي في المقام احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهدى والضلال

من الله تعالى، أقول لا دلالة للآية على ما ذكره أصلاً وذلك لأنه تعالى قد أخبر بهذا الكلام أنَّ النَّاسَ على صنفين.

صنف منهم على الهدى وصنف آخر على الضلال ولم يقل أنَّهما من الله تعالى فيهم بأنَّ الله خلقهم كذلك ومن المعلوم أنَّ الأخبار والإعلام حاكيان عن علم المخبر بما أخبر به وقد ثبت أنَّ العلم الأزلي لا يكون علّة للفعل عند العقلاء ولذلك قال تعالى: **إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ** فلو كان الأمر كما زعمه الرّازي من أنَّ الهدى والضلال بيده تعالى فلا وجه لقوله: **إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ** إذ المفروض أنَّه تعالى خلقهم كذلك بل للشيطان أن يقول يارب أنت خلقتهم كذلك فما ذنبي وهو واضح لمن أنصف وتجنّب عن العناد واللجاج والعجب من الرّازي وأمثاله وذلك لأنَّ الله تعالى علّل كلامه هذا بأنَّهم **إِتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ** وهو يقول غير ذلك وأما قوله: **وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ** أي هؤلاء الكفار يظنون كذلك ولم يعلموا أنَّ متابعة الشيطان أصل الضلالة و مخ الشقاوة كما أنَّ متابعة الدين أصل السعادة والهداية وهذا ممّا لا خفاء فيه نعم في الآية دلالة على عدم كفاية الظن في الدين وأنه لا بدّ فيه من الاعتقاد الجازم وهو لا يحصل إلا بمتابعة النبي في كلّ عصر وزمان هذا في الأصول وأما الفروع فقد يكفي فيها الظن.



يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ
(٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ
الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رِيسَى
الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ
وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا
يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

◀ اللغة

يَا بَنِي، بنى جمع ابن وأنما نصب لأنه نداء مضاف والأبن هو الولد الذكر و
البنث هو الولد الأنثى فقوله يا بني آدم يشمل الكل من الذكور والإناث.
الْفَوَاحِش جمع فاحشة وقد سبق الكلام فيها والباقي واضح.

◀ الإعراب

عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ظرف لخذوا وليس بحالٍ للزينة قُلْ هِيَ هي مبتدأ و
خَالِصَةً خبره يَوْمَ الْقِيَمَةِ ظرف لخالصة ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ بدلان من
الفواحش وِبِغَيْرِ الْحَقِّ متعلق بالبغي جَاءَ أَجْلُهُمْ هو مفرد في موضع الجمع
وقرأ ابن سيرين أجالهم على الأصل.

◀ التفسير

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ قال المفسرون المراد بالزينة الثياب وذلك لأن المشركين كانوا يتعرون عند طوافهم بيئته الحرام و يبدوون عوراتهم فقال تعالى خذوا زينتكم من الكساء واللباس عند كل مسجد.

قال الطبري أن النساء كن يطفن بالبيت عرا بغير ثياب إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة فنزلت الآية خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وروي في ذلك أخباراً كثيرة كلها ناظرة الى هذا المعنى، وقال صاحب الكشف خذوا زينتكم أي ريشكم ولباس زينتكم عند كل مسجد وكانوا يطوفون عرا.

وقال البضاوي خُذُوا زِينَتَكُمْ ثيابكم لموااة عوراتكم عند كل مسجد لطواف أو صلاة، وقال الرازي نقلاً عن ابن عباس أن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عرا، الرجال بالنهار والنساء بالليل وكانوا إذا وصلوا الى مسجد منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عرا وقالوا لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب وساق الكلام الى أن قال فأنزل الله تعالى هذه الآية أي إلبسوا ثيابكم وقال في موضع آخر المراد من الزينة لبس الثياب والدليل عليه قوله تعالى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ^(١) يعني الثياب وقال في موضع آخر و أيضاً فقد أجمع المفسرون على أن المراد بالزينة هاهنا لبس الثوب الذي يستر العورة انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وقال في تفسير روح البيان الزينة وأن كانت إسماعاً لما يتزين به من الثياب الفاخرة إلا أن المفسرين أجمعوا على أن المراد بها هاهنا الثياب التي تستر العورة استدلالاً بسبب نزول الآية وهو أن حاصل أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عرا الى آخر ما قال.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد الثاني

وقال الألوسي، في تفسير روح المعاني خُذُوا زِينَتَكُمْ أي ثيابكم لمواراة عوراتكم عند كلِّ مسجد أي طواف أو صلاة، وبه قال الشيخ رحمته في التبيان والطبرسي في المجمع وغيرهما من المفسرين مِنَّا ومنهم ولم أجد فيما بأيدينا مخالفاً والحاصل أنهم أجمعوا واتَّفَقوا على أنَّ المراد بالزينة الثياب وأخذها لبسها عند كلِّ مسجدٍ للصلاة أو الطَّواف وإستفادوا من الآية وجوب السَّاتر عند كلِّ صلاةٍ وقال صاحب تفسير الميزان أخذَ الزَّينة عند كلِّ مسجد هو التَّزيين الجميل عند الحضور في المسجد وهو أنما يكون بالطَّبع للصلاة و الطَّواف فيرجع المعنى الى الأمر بالتَّزيين الجميل للصلاة ونحوها الى آخر ما قال إذا عرفت هذا فنقول.

ما ذكروه في معنى الزَّينة وأنَّ المراد بها الثَّياب واللبَّاس لانفهم وجهه و ذلك لأنَّه لو كان المراد بها ما ذكروه فلم لم يقل خذوا ثيابكم أو لباسكم عند كلِّ مسجدٍ وبعبارةٍ أخرى ما الوجه في العدول عن الثَّياب أو اللِّباس بالزَّينة الدَّليل على هذا العدول مع أنَّ لفظ الزَّينة لا يطلق على الثَّياب أصلاً بل الزَّينة أمرٌ طار على الثَّياب لا نفس الثَّياب يقال ثوبٌ مزِين أو لباسٌ كذلك ولم يقل أحد من أهل اللُّغة أنَّ الزَّينة تطلق على الثَّوب واللبَّاس وعليه فقول المفسرين في هذا المقام لا دليل عليه.

أن قلت كلام المفسرين في تفسير الآية حجة ولا سيَّما إتفاقهم عليه. قلت كلاً إلَّا إذا كان كلامهم مؤيداً باللُّغة أو النِّص أو دليل العقل والكلِّ في المقام مفقود وعلى المدَّعي الإثبات والذي يختلج بالبال في حلِّ الإشكال هو أنَّ المراد بالزَّينة في الآية الشَّريفة هو معناها المتعارف عندهم وهو السَّلاح وذلك لأنَّهم كانوا في عهد الجاهلية متلبسين بالسَّلاح في جميع الأمكنة وكانوا يعدُّون حمل السَّلاح زينة لأنفسهم وكانوا إذا دخلوا المسجد الحرام دخلوا مسلحين فهاهم الله تعالى عن دخول المسجد كذلك فقال: خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ فَأَنَّ حكم الأمثال واحد وأنما أمرهم بذلك

تشريعاً للمساجد وأنها بيوت العبادة والخضوع لا مكان الحرب والسلاح و هذا لا ربط له بما ذكره من وجوب السّتر في الصّلاة فإنّ وجوبه فيها علمٌ بدليل آخر كغيره من شرائط الصّلاة وعليه فقوله تعالى: **خُذُوا زِينَتَكُمْ** معناه إتركوها عند دخول المساجد أي لا تدخلوها متزينين بالسّلاح متلبّسين به فإنّ المسجد ليس معركة القتال حتّى يحتاج إلى السّلاح بل السّلاح في المسجد عبارة عن الدّعاء كما ورد أنّ سلاح المؤمن الدّعاء هذا ما خلج ببالي في معنى الآية والله أعلم بمراده منها.

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

هذا حكم آخر حكم الله به على عباده وهو الأمر بالأكل والشرب في جميع الأمكنة والأزمنة سواء كان في المسجد أم في غيره والنهي عن الإسراف في الأكل والشرب ومن المعلوم أنّ الأمر للإباحة لا للوجوب ثم أنّ المراد بالإسراف هو الخروج عن حدّ الاستواء في زيادة المقدار وقيل المراد الخروج عن الحلال إلى الحرام وهذا ليس بشئ والمعنى الأول هو الصحيح. قال الرّاعب في المفردات السّرف تجاوز الحدّ في كلّ فعلٍ يفعله الإنسان يقال تارةً إعتباراً بالقدر وأخرى بالكيفية ولذا قيل ما أنفق في غير طاعة الله فهو سرف وأن كان قليلاً، وقد ذمّ الله تعالى المسرفين في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ^(١).

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ** ^(٢).

قال الله تعالى: **ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ^(٥).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨٤

المجلد السابع

٢- غافر = ٣٤

١- غافر = ٢٨

٤- الأعراف = ٨١

٣- المائدة = ٣٢

٥- يونس = ٨٣

قال الله تعالى: **وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ^(١).

والآيات كثيرة ويستفاد منها أَنَّ الإسراف يطلق على العصيان ومنه.

قال الله تعالى: **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ** ^(٢).

وعلى الكفر والبقاء عليه ومنه:

قال الله تعالى: **وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ** ^(٣).

وفي إستيفاء الحق.

قال الله تعالى: **وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا** ^(٤).

وعلى الإسراف في المال حتَّى في الإنفاق.

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا** ^(٥).

وعلى الظلم فأنه أيضاً تجاوز عن الحد كما.

قال الله تعالى: **وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ^(٦).

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ

قيل زينة الله ما حسنته الشريعة وقرّته مما يتّجمل به من الثياب وغيرها و أضيف الى الله لأنه تعالى أوجدها وأباحها والطيبات هي المستلذات من المأكول والمشروب.

وقيل هي المحللات ومعنى الإستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء وتوبيخ محرّميها وذلك لأنّهم في عهد الجاهلية كانوا يحرمون أشياء على أنفسهم من لحوم الطيبات وألبانها فقال الله تعالى ردّاً عليهم وإنكاراً لفعلهم قُلْ لَهُمْ يَا

محمّد من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده من الثياب والطيبات من الرزق من الأطعمة والأشربة ولذلك قالوا الأصل في الأشياء الإباحة.

وأما الحرمة فتحتاج الى دليل **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** قيل معناه قل يا محمّد هي، أي الطيبات والزينة، **لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** أي هي للمؤمنين فيها بمعنى أنهم أحقّ بها من غيرهم وفي قوله خالصة يوم القيامة، وجهان:

أحدهما: أنهم لا يعاقبون عليها يوم القيامة.

ثانيهما: أنها خالصة للمؤمنين يوم القيامة دون المشركين وأن كانوا يشركهم فيها في الحياة الدنيا.

فعن أمالي الشيخ عليه السلام بأسناده الى أمير المؤمنين عليه السلام والحديث طويل يقول عليه السلام فيه : أعلموا يا عباد الله أنّ المتّقين جازوا عاجل الخير وأجله شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم أباحهم الله في الدنيا ما كفاهم به وأغناهم قال الله عزّ وجلّ: **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**، سكنوا الدنيا بأفضل ما أكلت شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا في دنياهم معهم من طيبات ما يأكلون وشربوا من طيبات ما يشربون ولبسوا من أفضل ما يلبسون وسكنوا من أفضل ما يسكنون وتزوّجوا من أفضل ما يتزوّجون وركبوا من أفضل ما يركبون وأصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا وهم غداً جيران الله يتمنّون عليه فيعطيه ما يتمنّون لا تردّ لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من اللذة فإلى هذا يا عباد الله يشقاق اليه من كان له عقل انتهى (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ٨

الجزء الثامن

أقول الأحاديث الواردة في الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لتفسير الآية فلا نحتاج الى أكثر منه وإلا فقد ورد في الأخبار أَنَّ الأئمة عليهم السلام كانوا يلبسون الثياب الفاخرة حائبة خزّ وطيلسان خزّ فاذا قيل لهم فيه قالوا: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ.

فعن يوسف بن إبراهيم قال دخلت على أبي عبد الله وعليّ كجبة خزّ و طيلسان خزّ فنظر إليّ فقلت جعلت فداك عليّ جبة خزّ و طيلسان خزّ ما تقول فيه قال، ولا بأس بالخزّ قلت و سداه إبريسم فقال عليه السلام لا بأس به فقد أصيب الحسين بن عليّ عليه السلام و عليه جبة خزّ انتهى.

و عن أحمد بن محمد عن أبي الحسن عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين يلبس الثوب بخمس مائة دينار و المطرف بخمس مائة دينار يشتمو فيه فاذا ذهب الشتاء باعه و تصدّق بثمنه انتهى.

و في خبر عمر بن عليّ عن أبيه عن الحسين عليه السلام أنّه كان يشتري الكساء الخزّ بخمسين ديناراً الحديث و الأخبار كثيرة^(١).

ثم قال تعالى: كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي لمن يعلم معنى الآيات.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ الْآثِمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

لما أنكر الله تعالى في الآية السابقة على من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق على ما مرّ تفصيل الكلام فيه أفاد في هذه الآية ما حرّمه عليهم فقال لرسوله صلى الله عليه وآله قل يا محمد أنما حرّم ربّي الفواحش الآية و المحرّمات فيه خمسة هي الأصول لجميع المحرّمات:

أحدها: الفَوَاحِش واليه أشار بقوله: **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ** وقد مرّ تفسير الفاحشة وأنها عبارة عن كلّ فعلٍ أو قولٍ قبيح ولا فرق فيها بين الفاحشة الظاهرة وغيرها لأنّ الملاك فيها القُبْح موجود في الجليّة والخفيّة.

وقال قوم المراد بها الكبائر من الذنوب كما أنّ الإثم عبارة عن صفاتها وهذا القول لا يعتمد عليه اذ يلزم أن لا يكون الزّناء والسّرقة والكفر من الإثم ولا يقول به أحد.

قال بعض المفسّرين أنّ الفاحشة وأن كانت بحسب أصل اللّغة إسماءً لكلّ ما تفاحش وتزايد في أمرٍ من الأمور إلّا أنّه في العرف مخصوص بالزّناء والدليل عليه أنّه تعالى قال في الزّناء أنّه كان فاحشة ولأنّ لفظ الفاحشة اذا أُطلق لم يفهم منه إلّا ذلك فوجب حمل الفاحشة على الزّناء فقط ثمّ حمل ما ظهر منها على الزّناء علانية وما بطن منها ما يقع على سبيل العشق والمحبة، أو أنّ المراد بها ظهر منها الملامسة والمعانقة، وما بطن منها الدّخول انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ولقائل أن يقول لو كان المراد بالفواحش الزّناء فقط فحقّ الآية أن يقال قل **أَمَّا حَرَّمَ رَبِّيَ** الفاحشة وحيث أتى بصيغة الجمع نفهم من اللفظ معناه العامّ الشّامل للزّناء وغيره هذا أولاً وثانياً نمنع كون الفاحشة في العرف مخصوص بالزّناء نعم هو من أجلّ مصاديقها في العرف وإلّا فاللواط أيضاً فاحشة استدلاله بأية الزّناء حيث عبّر عنه بالفاحشة فهو لا يدلّ على مدّعه لأنّ إطلاق الفاحشة على الزّناء ممّا لا كلام فيه وأنما الكلام في الإنحصار والآية لا تدلّ عليه وهو ظاهر.

ومنه يعلم فساد ما ربّته على تحقيقه فإنّ الملامسة والمعانقة ليستا من الزّناء لا عرفاً ولا لغةً ولا شرعاً.

كما أَنَّ العشق والمحبة أيضاً كذلك و من أطلق على العاشق والمحبة و الملامس الزَّاني فكلامه هذا ليس من التفسير بشئ بل هو خارج عن طور العرف واللغة والعقل.

قال في المفردات الفُحش و الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال و هو معنى عام و تخصيصه بالزَّناء فقط يحتاج الى دليل و اذ ليس فليس.

اذا عرفت هذا فمعنى كلام الله هو أَنَّ الله حرَّم الفواحش قولاً و فعلاً ظاهراً و باطناً أي علانية و خفية فمن فسَّر قوله: وَ مَا بَطَّنَ بما في الضمير و القلب فقد تحسَّف لأنَّ نيَّة الذَّنْب و إضماره لا يعدُّ ذنباً فضلاً عن كونه فاحشة و لذلك لا يعاقب عليه فهو إشارة الى المعاصي التي يرتكبها العبد في الخفاء.

ثانيها: الإثم و هو إسم للأفعال المبطنة عن الثواب و جمعه أثم قال الله تعالى: فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ^(١) أي في تناولهما إبطاء عن الخيرات أعم من الفحش و الفاحشة و لذلك قالوا تسمية الكذب إثماً لكونه من جملة الإثم كتسمية الإنسان حيواناً لكونه من جملته و كيف كان فهو أيضاً من المحرّمات كالفواحش قال الله تعالى: يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ^(٢) و عليه فكل فعل أو قول فيه إبطاء في الخيرات فهو إثم.

ثالثها: البغي بغير الحق قال بعض المفسرين أن كان المراد بالفواحش جميع الكبائر و بالإثم جميع الذنوب فالبغي و الشرك لا بد و أن يكونا داخلين تحت الفواحش و الأثم إلا أن الله تعالى خصهما بالذكر تنبيهاً على أنهما أقبح أنواع الذنوب و أن كان المراد بالفواحش الزَّناء و بالإثم الخمر و الشرك على هذا التقدير غير داخلين تحت الفواحش و الإثم.

وأنا أقول البغي عبارة عن طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتحرى، تجاوزه أولم يتجاوزه قاله الرَّاغب في المفردات و عليه فالبغي ليس معناه مطلق الطَّلَب إذا لم يقيد بالتجاوز و هو على قسمين:

ممدوحٌ ومذمومٌ، فالممدوح هو تجاوز العدل إلى الإحسان و الفرض إلى التطوع، والمذموم هو تجاوز الحق إلى الباطل أو تجاوزه إلى الشبه ولأجل ذلك قال تعالى: **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ^(١) فخص العقوبة بغيره بغير الحق يقال أبغيتك على طلبه إذا عرفت معنى البغي فقد علمت أن البغي على إطلاقه غير مذموم ولأجل ذلك قيده الله تعالى بغير الحق فقال البغي بغير الحق وهذا هو المذموم المحرم، أطلقوا الباغي على أصحاب الجمل والنهروان و صفين وكل من خرج على الإمام فهو باغ بغير الحق فالخلفاء الغاصبين كلهم باغون إذ طلبهم الخلافة لم يكن بحق و حيث لم يفرق الجمهور بين البغي بالحق والبغي بغير الحق زعموا أن كل من خرج على السلطان فهو باغ قال الرازي و أيضاً قد يراد بالبغي الخروج على سلطان الوقت، ولم يعلم أن الخروج على سلطان الوقت إذا كان بحق فهو ليس من البغي بل هو من الواجبات و ذلك فيما إذا كان السلطان ظالماً جائراً غير واجدٍ لشرائط الإمارة ألا ترى أن الحسين ابن علي عليه السلام خرج على سلطان وقته و هو يزيد الملعون فمن زعم أن هذا الخروج كان من مصاديق البغي المنتهي عنه فقد خرج عن الإسلام و محصل الكلام هو أن البغي بغير الحق الذي أشير إليه في الآية هو الذي يعبر عنه بالفساد في الأرض أحياناً و مصاديقه أكثر من أن تحصي لأن الباغي بهذا المعنى هو الظالم بعينه فإن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير محله و مانحن فيه من هذا القبيل ولا شك أن الظلم والفساد والبغي كذلك حرام محرم و قد أشار الله تعالى في كثير من الآيات بقبحه و دمه:

قال الله تعالى: **فَلَمَّا أَنْجِيتُهم إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ^(٣).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

قال الله تعالى: **وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَجْعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ** ^(١).

و غيرها من الآيات.

رابعها: قوله **وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا** لا شك أن الشُّرك من المحرمات بل هو أقبحها وأخبثها، وهو على قسمين: كبيرٌ وصغيرٌ، والأول عبارة عن الشُّرك بالله تعالى بإثبات شريك له يقال أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفرٍ بحيث قال الله تعالى فيه. **قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** ^(٣).

قال الله تعالى: **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** ^(٤) والآيات كثيرة.

الثاني: الشُّرك الصغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وقد يعبر عنه بالرياء والنفاق وإلى هذا أشار بقوله.

قال الله تعالى: **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ^(٥).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** ^(٦).

قال الله تعالى: **وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ^(٧).

وأمثالها من الآيات ومن المعلوم أن المحرم في الشريعة المطهرة هو كلا القسمين إلا أن أحدهما أعظم من الآخر وهذا مما لا كلام فيه والأدلة العقلية

والتقليد من الكتاب والسنة كلها حاكم بقبحه وما كان قبيحاً عقلاً وشرعاً فهو حرام مضافاً الى إجماع الأمة وإثما الكلام في قوله: مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا حيث أَنَّ الله تعالى قَيَّدَ الشَّرْكَ المحرَّم في المقام به، قال الرَّاظي وفيه سؤال هو أَنَّ هذا يوهم أَنَّ في الشَّرْكَ بالله ما قد أنزل به سلطاناً، وجوابه المراد منه أَنَّ الإقرار بالشَّيْء الذي ليس على ثبوته حجة ولا سلطان ممتنع فلما إمتنع حصول الحجة والتنبية على صحة القول بالشَّرْكَ فوجب أن يكون القول به باطلاً على الإطلاق وهذه الآية من أقوى الدلائل على أَنَّ القول بالتقليد باطل إنتهى كلامه.

أقول السُّلْطَان، الحجة والبرهان والمقصود من الكلام هو أَنَّ العاقل لا يتبع في اعتقاده ما لا حجة ولا برهان له على إثباته وحيث أَنَّ الشَّرْكَ بالله داخل فيما لا حجة على صحته ينبغي أن لا يعتقده وليس لهذا الكلام مفهوم ليؤخذ به بل هو أصل من الأصول العقلية وفيه ردُّ على من قال أو يقول.

قال الله تعالى: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ^(١).

قال الله تعالى: قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا غَابِظِينَ^(٢).

قال الله تعالى: بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا^(٣) وأمثالها من الآيات.

فيقال لهم أنتم قلّدتهم آبائكم لا حجة وبرهان وهذا هو السر في عدم جواز التقليد في الأصول ألا ترى أَنَّ الله تعالى قال في كتابه.

قال الله تعالى: تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٤).

قال الله تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ^(٥).

قال الله تعالى: ءَالِهَةٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٦).

١- الأنبياء = ٥٣

٢- البقرة = ١١١

٣- التمل = ٦٤

١- الزخرف = ٢٣

٢- لقمان = ٢١

٣- الأنبياء = ٢٤

وإذ ليس لكم برهان على ما إعتقدتم به فأنتم من السفهاء و صورة
القياس هكذا، الشُّرك بالله لم ينزل به سلطان ولا حجة، وكلُّ شيء لا
حجة فيه لا ينبغي الاعتقاد به فالشُّرك لا ينبغي الاعتقاد به.
خامسها: قوله وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ وذلك لأنه
مستلزم للكذب على الله تعالى وهو من كبائر الذنوب ألا ترى أنه
يبطل الصوم ومع ذلك يوجب الكفارة إذا كان عن عمدٍ ولا يختص
الكلام بالشُّرك فقط بل هو محرّم في جميع الأمور وهو واضح.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
الأمة كلّ جماعة يجمعهم أمر ما أما دينٌ واحد أو زمان واحد أو مكان
واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً وجمعها أُممٌ.
ولا تختص هذه اللفظة بالإنسان فقط.

قال الله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ^(١).

أي كلّ نوع منها على طريقة قد سخّرها الله عليها بالطبع فهي من بين
ناسجة كالعنكبوت وبانية كالسّرفة ومدخرة كالنمل ومعتمدة على قوت وقته
كالصّفور والحمّام إلى غير ذلك من أنواع الحيوانات وأصنافها فقوله تعالى:
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ يَشْمَلُ الْكُلِّ حَيْثُ أَنَّه تعالى قد قضى على الجميع بالموت:
قال الله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ
الْإِكْرَامِ^(٢).

وأما قوله: فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ أَلْخَ الْأَجَلَ بفتح الجيم المدّة المضروبة للشّي
ولذلك يقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان أجل فيقال دنا أجله عباة عن دنو

الموت وأصله إستيفاء الأجل أي مدّة الحياة فقوله تعالى: **وَبَلَّغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجَّلْتُمْ لَنَا** ^(١) أي حدّ الموت وقيل حدّ الهرم وهما في التّحقيق واحد قاله الرّاعب في المفردات وقال بعض المفسّرين الأجل الوقت المضروب لإنقضاء المهل لأنّ بين العقد الأوّل الذي يضرب لنفس الأجل وبين الوقت الآخر مهلاً مثل أجل الدّين وأجل الوعد وأجل العمر وقال أبو عليّ في الآية دلالة على أنّ الأجل واحد لأنّه لا يجوز أن يكون الظّالم بقتل الإنسان قد إقتطعه عن أجله وكيف كان فمعنى الآية هو أنّ الأجل اذا جاء فلا تقديم فيه ولا تأخير وليس لمن جاء أجله أن يطلب التّقديم أو التّأخير.

أن قلت ما معنى قوله: **وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** فإنّ حضور الأجل إمتنع عقلاً و قوعه في الوقت المتقدّم عليه.

قلت معنى قوله: **فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ** اذا قرب أجلهم كما تقول العرب جاء الشّئ اذا قرب وقته ومع مقاربة الأجل يصحّ التّقدّم عليه تارةً و التّأخر عنه أخرى.

وأما ذكر السّاعة فهو كناية عن عدم التّقديم و التّأخير لأنّ هذا اللفظ أقلّ أسماء الأوقات وليس المراد بها معناها الحقيقي لأنّ التّقديم و التّأخير فيه لا يمكن ولو بلحظة فضلاً عن ساعة وهو واضح بل محسوس مشهود.



يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ ثَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَ قَالَتْ أُولِيهِمْ لِأُخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

◀ اللغة

نَصِبُهُمُ النَّصِيبَ الْحِظَّ.

أَدَارُكُوا بِتَشْدِيدِ الدَّالِ و ألف بعدها وأصلها، تداركوا فأبدلت التاء دالاً و أسكنت ليصَحَّ إدغامها ثم أجلبت لها همزة الوصل ليصَحَّ النطق بالسّاكن و قرئ في الشّاذ، تداركوا، على الأصل أي أدرك بعضهم بعضاً، و قرئ اذ إدركوا بقطع الهمزة عمّا قبلها وكسرها على نيّة الوقف على ما قبلها والإبتداء بها، و قرئ، اذا إدراكوا، بألف واحدة ساكنة ولكل وجه.

يَلْجَ الْوَلُوجُ الدَّخُولَ.

◀ الإعراب

مِنْ قِيلِكُمْ ظَرْفٌ لَخَلْتُ وَقِيلَ صِفَةٌ لِأَمَمٍ وَمِنْ الْجِنِّ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي خَلْتُ أَوْ صِفَةٌ أُخْرَى لِأَمَمٍ، فِي النَّارِ مَتَعَلِّقٌ بِأَدْخَلُوا جَمِيعًا حَالٌ ضِعْفًا صِفَةٌ لِعَذَابٍ وَهُوَ بِمَعْنَى مُضْعَفٌ أَوْ مُضَاعَفٌ وَكَذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ نَجَزَى عَلَى أَنَّهُ وَصَفٌ لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ غَوَاشٍ جَمَعَ غَاشِيَةٌ وَالتَّنْوِينُ فِيهَا لِلصَّرْفِ أَوْ بَدَلٍ مِنَ الْيَاءِ مِنْ غَوَاشِي.

◀ التفسير

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ وَقُلْنَا أَنَّهُ جَمَعَ ابْنُ عَلِيٍّ مَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ إِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ أَصْلُهُ، إِنْ، مَا، فَإِنْ حُرِفَ شَرْطٌ دَخَلَتْ عَلَيْهِ، مَا، وَلَدَخُولُهَا دَخَلَتْ التَّوْنُ الثَّقِيلَةُ فِي، يَأْتِيَنَّكُمْ وَلَوْ قَالَ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ لَمْ يَجْزِ لَأَنَّ، مَا جَعَلْتَهُ فِي حَكْمٍ غَيْرِ الْوَاجِبِ هَكَذَا قِيلَ رُسُلٌ جَمَعَ رَسُولٌ وَأَنَّمَا جَمَعَ لِأَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرٍ يَأْتِيَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فَصَارَ كَأَنَّهُ خُطَابٌ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ الْقَصَصَ وَصَلَ الْحَدِيثَ بِالْحَدِيثِ فِي وَصَلَ الْحَدِيثَ الْمَمْتَنِعَ بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ.

وهذا خطاب من الله تعالى لجميع بني آدم المكلفين منهم أنه يبعث اليهم رُسلاً من أنفسهم أي من جنس البشر يقصّون عليهم آيات الله وهو ما أنزله عليهم من كتبه ونصب لهم من أدلته ولذلك قال: **أَيَاتِي** ثم قال تعالى: **فَمَنْ أَتَقَى وَ أَصْلَحَ** أي من أخذ منكم بالتقوى وأصلح من حيث العمل وفيه إشارة إلى أن مجرد الاعتقاد لا يكفي إذا لم يكن مقروناً بالعمل الصالح فالمُتَّقِي من عمل صالحاً موافقاً للشريعة المقدسة ومن كان كذلك **فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** أي من إتقى معاصي الله واجتنبها وأصلح بأن فعل الصالحات لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فيها.

وحيث أن الإتصاف بالتقوى لا يمكن إلا بمتابعة الشريعة وهي موقوفة على متابعة الأنبياء فصّح أن نقول في الآية **حُتُّ** على النَّاسِي بالأنبياء في أقوالهم وأفعالهم إذ لا يمكن تحصيل المراد بدون ذلك وهو ظاهر ولذلك قال تعالى: **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** وذلك لأن تكذيب الآيات يوجب تكذيب الرُّسُل وتكذيب الرُّسُل يوجب تكذيب الله تعالى كما أن الإستكبار عنها أيضاً كذلك و من المعلوم أن تكذيب الله كفر به والكافر مخلّد في النار قطعاً.

وأما ما ذهب اليه بعض المفسرين من أن الآية تدل بالمفهوم على أن الفاسق لا يخلّد فيها لأنه ليس بمكذب ولا يستكبر فهو كلام لا طائل تحته وذلك لأن إثبات الخلود في النار للمكذّبين والمستكبرين لا ينفي وجوده لغيرهم أيضاً فإن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه هذا أولاً.

وأما ثانياً: ففي كثير من الآيات قد حكم الله بالخلود فيها لغير المكذّبين والمستكبرين.

قال الله تعالى: **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا^(٢).
وأمثالها من الآيات كثيرة و من المعلوم أنّ المجرم والقاتل قد يكون مسلماً و هو ظاهر.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ

الفاء للتفريع وكلمة، من، للإستفهام الإنكاري والمراد به الأخبار عن عظم جرم من يفترى على الله كذباً أو كذب بآيات الله وفيه دلالة على أنّ تكذيب الله أو تكذيب آياته لأنه يرجع الى تكذيبه، من أقبح أنواع الظلم وأفحشها لأنه يرجع الى الكفر، ف قوله: مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا معناه يقول على الله ما لم يقله و قوله: أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ معناه كذب ما قاله الله و الأول هو الحكم بوجود ما لم يوجد مثل القول بالشريك له تعالى أو إثبات البنات و البنين له.

الثاني: هو الحكم بإنكار ما يوجد مثل إنكار كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله و مثل إنكار النبوة و الإمامة و هذا لا يختص بالكفار فقط بل يشمل كثير من المسلمين مِمَّنِ افْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا في أحكامه فقالوا هذا حكم الله مثلاً أو قالوا بالتجسم في حقه، أو كذبوا بآيات الله التي أنزلها في كتابه أو على لسان نبيه. و قد أشار الله تعالى الى كثير منها في كتابه فمن المفترين من ادّعى الوحي و لم يوح اليه.

قال الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ^(٣).

و منهم من يضلّ الناس بغير علم.

قال الله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ^(١).

قال الله تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا خَلَلٌ وَ هَذَا حَرَامٌ يَنْفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ^(٢).

و الآيات كثيرة جداً. و عليه فنقول جميع المذاهب التي وجدت بعد رسول الله غير مذهب أهل البيت من مصاديق هذه الآية و نظائرها لأن رؤساء المذاهب و أئمتهم قالوا فيها ما شاءوا حكموا فيها من عند أنفسهم أو إستندوا أحكامهم الى من لا يعتمد عليه في الشرع المعلوم أن الحكم في الدين كذلك من أظهر مصاديق الإفتراء و هذا مما لا يخفى على أهل الإنصاف.

أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ أَي أولئك الذين إفتروا على الله أو كذبوا بأياته ينالهم نصيبهم من الكتاب و إختلفوا في معناه ف قيل المراد هو ما ذكره الله تعالى في كتابه من أنواع العذاب للمكذبين.

قال الله تعالى: فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى، الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى^(٣).

قال الله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ^(٤).

و غير ذلك مما كتب الله في اللوح المحفوظ.

وقيل المراد به، الرزق و العمر و العمل من الخير و الشر في الدنيا.

وقيل جميع ما كتب الله لهم و عليهم.

وقيل معناه ينالهم نصيبهم من خير أو شر في الدنيا.

و نقل الرّازي عن ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبیر أن معناه ينالهم ما سبق لهم في حكم الله و في مشيئة من الشقاوة و السعادة فأن قضى الله لهم بالختم على الشقاوة و أبقاهم على كفرهم و أن قضى لهم بالختم على السعادة نقلهم الى الإيمان و التوحيد و قيل غير ذلك مما لا فائدة كثيرة في نقله.

أقول لا يفهم معنى الكلام حتى يُعلم معنى الكتاب لأنه تعالى قال: **أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ** فإن كان المراد به القرآن فيحكم بصح القول الأول وهو أن المراد من النصيب ما أوعدهم الله في كتابه من أنواع العذاب في الآخرة وهكذا سائر الأقوال بناءً على أن ما ذكره في القرآن مطابق لما أثبتته في اللوح المحفوظ وهذا ممّا لا إشكال فيه ظاهراً.

وأما ما ذكره الرّازي ونسبه الى ابن عبّاس ومجاهد وسعيد ابن جبير فلا يمكن المساعدة عليه إلا على القول بالجبر ونحن لا نقول به لأنّ ضرورة الدّين قاضية ببطلانه وصريح العقل يحكم بفساده كما مرّ الكلام فيه غير مرّة هذا كلّ على مذاق القوم وأنّ المراد بالكتاب هو اللّوح المحفوظ. و التّحقيق أنّ الكتاب يطلق على معان، منها ما قدّره الله تعالى من الحكمة. ومنه قوله تعالى: **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ^(١).

ومنها التّقدير والقضاء:

ومنه قوله: **لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ^(٢) أي ما قدّره وقضى.

ومنها العِلْم:

ومنه قوله: **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ^(٣).

وقوله: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ** ^(٤).

أي في علم الله وحكمه.

ومنها الحُجّة الثابتة من جهة الله:

ومنه قوله: **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا**

كِتَابٍ مُنْبِرٍ ^(٥) أي بغير حُجّةٍ وُترهان وغير ذلك من المعاني اذا

عرفت هذا فنقول:

٢- التوبة = ٥١

٤- التوبة = ٣٦

١- الانعام = ٥٤

٣- الرعد = ٣٨

٥- الحج = ٨

حمل الكتاب في قوله: **يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ** على علم الله أو على تقديره وقضائه أولى من حمله على القرآن أو على اللوح المحفوظ والمعنى أولئك الذين يفترون على الله كذباً أو كذبوا بآيات الله ينالهم نصيبهم وحظهم مما علم الله في حقهم أو قدره لهم والأحسن حمله على الحجة والبرهان لأن الله تعالى قد أرسل اليهم الرسول وبذلك قد تمت حجة عليهم فلم يبق لهم عذراً في تكذيب الله وتكذيب آياته ويدل عليه قوله: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** والمراد بالرسول الملائكة التي تنزل عليهم لقبض أرواحهم قالوا أي قالت الملائكة لهم أين ما كنتم تدعون في الحياة الدنيا من دون الله من الأوثان والأصنام التي لم ينفعوهم في هذه الحال فقولهم لهؤلاء المكذبين أين ما كنت تدعون، إشارة إلى أن الأصنام والأوثان التي عبدوها لم تقم حجة على صحة الاعتقاد بهم بل الأمر بالعكس وإذا كان كذلك فلا محالة ينالهم نصيبهم من تكذيبهم الله أو تكذيب آياته وحيث أنهم يعجزون عن الجواب يقولون في جواب الملائكة **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا أَي ضَلُّوا مِن كُنَّا ندعوه من دون الله عَنَّا وَشَهِدُوا هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ وَالْمَكْذِبِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** أي أقرؤا عليها أنهم كانوا كافرين جاحدين بالله وكافرين لنعمه بعبادتهم الأنداد من دون الله وقد ثبت أن المقر يؤخذ بإقراره فما ينالهم من العذاب نصيبهم حسب الإقرار والإعتراف بذنبهم وما ربك بظلام للعبيد.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ

هذا حكاية عن قول الله تعالى للكفار يوم القيامة وأمره لهم بالدخول في النار في جملة الأمم الذين تبعوا من قبلهم من الجن والإنس وذلك لأن حكم الأمثال واحد.

كَلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتُ أَخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا

أي كلما دخلت طائفة من هؤلاء المكذبين في النار لعنت أختها، أي لعنت طائفة أخرى التي أضلّتهم بزعمهم الفاسد وقيل يعني في دينها لا في نسبها والمعنى أن أهل النار لعن بعضهم بعضاً ويعادي بعضهم بعضاً كما قال الله تعالى: **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا^(١)**.

حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا حَتَّى غَايَةً لَمَّا قَبِلَهَا وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ فَوْجًا فَوْجًا لَا عَنَاءَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى إِنْتِهَاءِ تَدَارِكِهِمْ وَتَلَاحُقِهِمْ وَإِجْتِمَاعِهِمْ فِي النَّارِ.

قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ

يعني قالت الفرقة المتأخرة التابعة للفرقة المتقدمة المتبوعة وتشير إليها هؤلاء أضلّونا، عن طريق الحق وأغورنا فأتيتهم عذاباً ضِعْفًا وَالضُّعْفُ المثل الزائد على مثله فإذا قال القائل أضعف هذا الدرهم معناه أجعل معه درهماً آخر لا ديناراً وكذلك أضعف الاثنين، اجعلها أربعة وحكي أن المضعف في كلام العرب ما كان ضعفين والمضاعف ما كان أكثر من ذلك.

والحاصل أن هذا الكلام دعاء منهم عليهم قال الله في جوابهم، لكل ضعف أي أنتم مثلهم وهؤلاء مثلكم في الإستحقاق للعذاب والخلود في النار وفي قوله: **وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ** إشارة إلى عدم علم كل طائفة من عذاب الأخرى وقرئ أبو بكر عن عاصم (ولكن لا يعلمون) بالياء والمعنى واحد و أنما يفترق بالخطاب والغيبة.

وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِيهِمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

لَمَّا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْفِرْقَةِ الْمَتَأَخِّرَةِ مَا قَالَتْ لَهَا حَكَايَ عَنِ الْأُمَّةِ الْمَتَقَدِّمَةِ أَنَّهَا قَالَتْ لِلْفِرْقَةِ الْمَتَأَخِّرَةِ (فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فِي تَرْكِ الضَّلَالِ عَلَى قَوْلٍ أَوْ لِمَسَاوَاتِكُمْ لَنَا فِي الْكُفْرِ عَلَى قَوْلٍ آخَرَ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْنَا وَأَنَا مَتَسَاوُونَ فِي إِسْتِحْقَاقِ الضَّعْفِ

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَمَّا حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا مَضَى أَنَّ مَنْ إِفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَكْمٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ الْمَكْذِبِينَ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ الْمَعْرُضِينَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ إِسْتِكْبَاراً وَعِنَاداً لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَقَرِئَ بِغَيْرِ التَّشْدِيدِ أَيْضاً وَكَيْفَ كَانَ فِي تَفْسِيرِهِ أَقْوَالُ:

أحدها: معناه لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ولا لما يريدون به طاعة الله أي لا يصعد لهم صالح تفتح أبواب السماء له وهذا منتزَع عن قوله تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ^(١)

ثانيها: لا تفتح لهم أبواب السماء.

ثالثها: لا تفتح لهم أبواب السماء في القيامة ليدخلوا منها إلى الجنة أي لا يؤذون لهم في الصعود إلى السماء.

أقول القول الثاني هو الحق وقد روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أَنَّهُ قَالَ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَتَرْفَعُ أَعْمَالُهُمْ وَأَرْوَاهُمُ إِلَى السَّمَاءِ فَتَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُهَا وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَيَصْعَدُ بِعَمَلِهِ وَرُوحِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى السَّمَاءِ نَادَى مُنَادٍ أَهْبَطُوا إِلَى سَجِينٍ وَهُوَ وَادِي حَضْرَمُوتَ يُقَالُ لَهُ بَرَهُوتُ انْتَهَى.

و عن عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ و قد سأله بعض اليهود عن مسائل، أما أقفال السموات فالشرك بالله و مفاتيحها قول لا إله إلا الله انتهى.

و عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تفتح أبواب السماء في خمس مواقيت، عند نزول الغيث، و عند الزحف، و عند الأذان، و عند قراءة القرآن مع زوال الشمس و عند طلوع الفجر.

و لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ

أي لا يدخلون فيها هؤلاء المكذبين بآيات الله و المستكبرين عنها.

قال بعض المفسرين سواء كانوا معاندين في ذلك أو غير عالمين بذلك و أنما تساوياً فيه لأن من ليس بعالم قد أزيحت عنه باقمة الحجة و نصب الأدلة على تصديق آيات الله و ترك الاستكبار عنها إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إذا كان الجاهل مقصراً و أما إذا كان قاصراً فلا.

لأن المقصر في حكم العامد بخلاف القاصر كما ثبت في موضعه قوله:

حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ.

أعلم أن الله تعالى قد علّق دخول هؤلاء المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها في الجنة على ولوج الجمل في سمّ الخياط و من المعلوم أن ولوج الجمل في سمّ الخياط محال فدخلوهم الجنة محال لأنّ المعلق على المحال محال و توضيحه، أنّ الجمل من أكبر الحيوانات عند العرب جسماً و سمّ الخياط معناه ثقب الإبرة و قرأ ابن سيرين بضمّ السين و قال صاحب الكشف يروي سمّ بالحركات الثلاث و من المعلوم أنّ ولوج الجمل في تلك الثقبه الضيقة من المحال و الموقوف على المحال محال فيجب أن يكون دخولهم الجنة محالاً مأيوساً منه قطعاً و هو المطلوب و أما قوله: وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ فمعناه واضح لا خفاء فيه.

قال الله تعالى في وصفهم: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى^(١).

قال الله تعالى: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا^(٢).

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
 جَهَنَّمَ بفتح الجيم والهاء والتون إسم للنار الله الموقدة قليل وأصلها فارسي
 معرّب وهو جهنم والله أعلم، والمهاد كالمهد الفراش ما تهَيّ للصبي قال في
 المفردات المهد والمهاد المكان الممهّد الموطأ يقال مهّدت لك كذا، هيأته و
 سوّيته والغواش جمع غاشية وهي اللباس المجلّل ومنه غاشية السّرج، و
 معنى الآية هو أنّ الله تعالى هيأ لهؤلاء المكذّبين المستكبرين من جهنّم مهاد
 أي موضع المهاد.

وقيل فراش من نارٍ ومن فوقهم غواش أي لباس مجلّل من النار.
 وقال بعضهم الغوشي هي اللّحف وهي أزر اللّيل محشوة كانت أو غير
 محشوة وأنما يجوزون كذلك لظلمهم من حيث أنّهم كذبوا آيات الله و
 استكبروا عنها والى هذا المعنى أشار بقوله: وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
 وقال بعض المفسرين في قوله: وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ هذه إستعارة فكأنّه
 جعل لهم من النار أمهدة مفترشة وأغشية مشتملة فيكون إستغلالهم بحرّها
 كإستقرارهم على جمرها نعوذ بالله من ذلك وفي قوله: وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ أي مثل ما نجزي هؤلاء المكذّبين المستكبرين عنها نجزي كلّ ظالم
 وكلّ كافرٍ والوصف بالظالم يقتضي لحوق الذّم به في العرف فاذا تحقّق
 الوصف تحقّق ما أوّعه الله عليه.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَفِّ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ
تَجَرَّيْ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ
هَدَيْنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا
أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
(٤٣) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ
قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا
وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ
لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَبَيْنَعُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ
يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (٤٧)

فضاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

◀ اللغة

وَنَزَعْنَا، النزع الجذب من مقره كنزع القوس عن كبده ويستعمل ذلك
في الإعراض ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب.

مِنْ غِلٍّ، الْغَلْلُ أَصْلُهُ تَدَّرَعُ الشَّيْءُ وَتَوْسُطُهُ وَمِنْهُ الْغُلْلُ لِلْمَاءِ الْجَارِي بَيْنَ الشَّجَرِ وَالْغُلُّ بَضْمٌ الْغَيْنِ مَخْتَصٌّ بِمَا يَقِيدُ بِهِ وَالْغُلُّ بِكَسْرِ الْغَيْنِ الْعِدَاوَةُ. الْأَعْرَافِ سَوْرٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

قال بعضهم الأعراف المكان المرتفع أخذ من عرف الفرس ومنه الديك وكل مرتفع من الأرض يسمّى عرفاً لأنه بظهوره أعرف ممّا إنخفض. وقال بعض أهل اللغة هو جمع، عرف والعرف ما إرتفع من رملٍ أو مكانٍ.

◀ الإعراب

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَبْتَدَأٌ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا خبره والتقدير، منهم محذوف العائد مِنْ غِلٍّ هو حال من، ما تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الجملة في موضع الحال من الضمير المجرور بالإضافة والعامل فيها معنى الإضافة وَمَا كُنَّا الْوَائِلِحَالِ وَقِيلَ أَنَّهَا مُسْتَأْنَفَةٌ أَنَّ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ فِي أَنْ، وجهان:

أحدهما: هي بمعنى، أي، ولا موضع لها وهي تفسير للنداء.

الثاني: أَنَّهَا مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَإِسْمُهَا مُحذُوفٌ وَالْجُمْلَةُ بَعْدَهَا خَبَرُهَا أَيْ وَنُودُوا أَنَّهُ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ وَهَاءُ ضَمِيرِ الشَّانِ وَمَوْضِعُ الْكَلَامِ كُلُّهُ نَصَبٌ بِنُودُوا، وَجَزَّ عَلَى تَقْدِيرِهِ، بَأَنَّهُ.

أَنَّ قَدْ وَجَدْنَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى أَيْ، وَأَنْ تَكُونَ مُخَفَّفَةً حَقًّا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا وَأَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا ثَانِيًا نَعَمْ حَرَفٌ يَجَابُ بِهِ عَنِ الْإِسْتِفْهَامِ فِي إِثْبَاتِ الْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ وَنَوْنُهَا وَعَيْنُهَا مَفْتُوحَتَانِ.

الَّذِينَ يَصْدُودُونَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جَزْأً وَنَصْبًا وَرَفْعًا أَنَّ سَلَامٌ أَيْ أَنَّهُ سَلَامٌ أَوْ أَيْ سَلَامٌ.

◀ التفسير

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا مَضَى مِنَ الْآيَاتِ مَا أَعَدَّ لِلْمُكَذِّبِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ

يوم القيامة من العذاب أخبر في هذه الآية و ما بعدها بما أعدَّ للمؤمنين الصالحين يوم القيامة من النعم و الدرجات العاليات في الجنة فقال والَّذِينَ آمَنُوا، بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِجَمِيعِ مَا أْتَى الرَّسُولَ بِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَفِي قَوْلِهِ هَذَا إِشَارَةٌ بِدَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ مَجْرَدَ الْإِعْتِقَادَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ لَا يَكْفِي إِذَا لَمْ يَقْتَرْنَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الْإِيمَانَ بِإِعْتِقَادٍ وَعَمَلٍ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا مَجْرَدَ الْإِعْتِقَادِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَقَوْهُ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: وَالَّذِينَ آمَنُوا.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْمَعْطُوفَ وَالْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا كَأَنَّهُ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ.

وَحَاصِلُ السُّؤَالِ هُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْإِيمَانُ مُشْرُوطًا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَمَا حَدُّ الْعَمَلِ وَمُقَدَّرُهُ، فَقَالَ تَعَالَى فِي الْجَوَابِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا أَيَّ لَا تُكَلِّفُ مَكْلَفًا فِي تَكْلِيفِهِ الْمَقْرَّرَةِ فِي الشَّرِيعَةِ إِلَّا بِقَدْرِ وَسْعِهِ أَيَّ إِمْكَانِهِ وَقُدْرَتِهِ فَمَا خَرَجَ عَنْ قُدْرَةِ الْمَكْلَفِ لَا نَرِيدُهُ مِنْهُ وَمِنْ هُنَا نَقُولُ:

أَنَّ الْقُدْرَةَ شَرْطٌ فِي التَّكْلِيفِ فَأَنَّ التَّكْلِيفَ بِمَا لَا يَطَاقُ غَيْرُ مَعْقُولٍ فَمِنْ الْوَاجِبَاتِ مِثْلًا الصَّلَاةِ، فَإِذَا قَدَّرَ الْمَكْلَفُ عَلَى الْإِيتِيَانِ بِهَا قَائِمًا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْقِيَامِ يَجِبُ عَلَيْهِ الْقُعُودُ وَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْقُعُودِ يَجِبُ عَلَيْهِ الْإِضْطِجَاعُ وَالِاسْتِلْقَاءُ وَهَكَذَا وَكَذَا الْكَلَامُ فِي الصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَهَذَا فِي الْوَاجِبَاتِ.

وَأَمَّا الْمُسْتَحَبَّاتُ فَبطريقٍ أَوْلَى وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِ الْمَجْبُورَةِ حَيْثُ قَالُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّفَ الْعَبْدَ مَا لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ وَلَا يَطِيقُهُ.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أَيَّ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ اقْتَرَنَ إِيمَانُهُمُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ أَيَّ خَلَّصْنَاهُمْ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْغَلِّ.

قال بعضهم نزع الغُلّ في الجنة تصفية الطّباع وإسقاط الوسوس وإعطاء كلّ نفس منها ولا يتمنّى أحد ما لغيره.
وقال الآخر، أي أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدّنيا.
نقل الرازي في تفسيره لهذا الكلام ما يفضي الى التعجّب أنّه بعد نقله ما نقلناه عنه في معنى الغُلّ وهو إزالة الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدّنيا قال ما لفظه:

ومعنى نزع الغُلّ تصفية الطّباع وإسقاط الوسوس ومنعها من أن ترد على القلوب فإنّ الشّيطان لما كان في العذاب لم يتفرّغ لإلقاء الوسوس في القلوب وإلى هذا المعنى أشار عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال أني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم، ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ انتهى كلامه.

وأنا أقول هذا الذي ذكره الرازي ونسبه الى أمير المؤمنين كذب محض وإفراء عليه بلا كلام ووزره عليه ألم يعلم الرازي أنّ عليّاً تقاعد عن نصرة عثمان لما حوَصر بالمدينة وأنّ طلحة والزبير نكثا بيعته وسلا سيف البغي عليه في حرب الجمل فلو لم يكن في قلوبهما غلّ فكيف أقدما على ما أقدما من النّكث والحرب معه عليه السلام وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عليّ حربك حربي وسلمك سلمي ولولم يكن في قلب عليّ عليه السلام منهما شيء فكيف أمر بقتلها وحارب أصحاب الجمل ومن المعلوم أنّ قلب المؤمن وطبعه خال من الغلّ بالنسبة الى المؤمن لا الى المنافق وحيث أنّ عليّاً كان مع الحقّ والحقّ معه وأعداءه كائنات من كان على الباطل ومن المعلوم أنّ الحقّ والباطل لا يجتمعان فلو فرضنا أنّ قلب الطرفين كان خالياً من الغلّ يلزم اجتماع النقيضين في شيء واحد والعاقل لا يقول به ولم يتفرّد الرازي بنقل ذلك بل نقله عن تفسير الكشاف للزمخشري وهو نقله عن الطبري فهو أول من نقل ذلك ثمّ تبعه عليه غيره من مفسري العامة الذين لا يعلمون في نقلهم الأحاديث إلا التقليد واحداً

بعد واحد كما حكى الله تعالى عن المشركين حيث قال حكاية عنهم إنا وجدنا آباؤنا على ذلك الآية ولم يعلموا أن من أمر بقتال الناكثين كيف يقول ما نسبوه اليه و أنما تعجبت من الرّازي دون غيره لأنه أعقلهم و أعلمهم ومع ذلك هو من أهل المعقول فكيف يقول بما هو خارج عن العقل السليم نعوذ بالله من الهفوات ثم أن الرّازي ذكر في المقام وجهاً آخر وهو أن المراد منه أن درجات أهل الجنّة متفاوتة بحسب الكمال و النقصان فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتّى أن صاحب الدّرجة النّازلة لا يحسد صاحب الدّرجة الكاملة. قال صاحب الكشّاف هذا التأويل أولى من الوجه الأول حتّى يكون هذا في مقابلة ما ذكره الله من تبرّي أهل النّار من بعض انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول أني راجعت الكشّاف ولم أرفيه ما نقله الرّازي ونسبه اليه ولعلّه ذكره في موضع آخر أقول يظهر من الأخبار الواردة في المقام أن المراد بالغلّ العدواة تنزع من قلوب المؤمنين في الجنّة تجري من تحتهم الأنهار و قالوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَيْنا لِهَذَا ذكر الله تعالى في وصف الجنّة أن الأنهار تجري من تحت أقدامهم فإذا رأوا هذه النعم الوافرة قالوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَيْنا و أرشدنا بسبب أنبياءه، لهذا الذي يكون فيه و ما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَيْنا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنا بِالْحَقِّ أي لولا هداية الله و إرشاده لنا بسبب أنبيائه لما بلغنا الى هذا المقام الرّفيع لقد جاءت رسل ربنا بالحق و لم يقولوا إلا بالحق و لم يأمرُوا إلا بالحق و اذا كان كذلك فمن تبعهم فأولئك هم الفائزون و من خالفهم هم الخاسرون و تُودُّوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ تَتَمَوْها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي نودوا هؤلاء المؤمنين من قبل الله تعالى فيقال لهم أن تِلْكُمْ الْجَنَّةُ كأنها صارت ميراثاً لكم بسبب أعمالكم فهذه إستعارة خفية غير جلية و ذلك لأنّ الإستعارة على قسمين:

خَفِيَّةٌ وَجَلِيَّةٌ وَإِنَّمَا قُلْنَا أَنَّهُا خَفِيَّةٌ لِأَنَّ حَقِيقَةَ المِيرَاثِ فِي الشَّرْعِ هُوَ مَا
أَنْتَقَلَ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ مَلِكِ الْغَيْرِ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى جِهَةِ الْإِسْتِحْقَاقِ وَأَمَّا صِفَةُ اللَّهِ
تَعَالَى بِأَنَّهُ الْوَارِثُ لَخَلْقِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَكُنَّا نَحْنُ أَوْلَاوِثِينَ^(١)**.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٢)**.

فَهُوَ مُجَازٌ وَالْمُرَادُ أَنَّهُ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ وَتَقَوُّضِ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ وَ قَدْ
أَسْتَعْمَلَ ذَلِكَ أَيْضاً فِي نَزُولِ قَوْمٍ دِيَارِ قَوْمٍ بَعْدَهُمْ وَأَخَذَ قَوْمٍ أَمْوَالِ قَوْمٍ بَعْدَ
اجْتِلَاءِهِمْ وَحَرَبِهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ.

**وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا^(٣)**.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: **وَأَوْزَنَّاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
وَأَرْضًا لَمْ تَطُورْهَا^(٤)**.

وَلَيْسَ يَصَحُّ إِيْرَاثُ الْجَنَّةِ مِثْلَ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرْنَاهَا لِأَنَّ الْجَنَّةَ لَا
يَسْكُنُهَا قَوْمٌ بَعْدَ قَوْمٍ قَدْ فَارَقُوهَا وَانْتَقَلَوْا عَنْهَا وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: **أَنْ
تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أَوْزَنَّاكُمْ** عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي قَدَّمَاهُ إِسْتِعَارَةٌ وَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ
هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا عَمِلُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا أَعْمَالاً إِسْتَحَقُّوا بِهَا الْجَزَاءَ وَالثَّوَابَ وَ
لَمْ يَصَحَّ أَنْ يُؤْفَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَكَأَنَّهُمْ
إِسْتَحَقُّوا دَخُولَهَا فَحَسَنَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَنْ يُوصَفُوا بِأَنَّهُمْ أَوْزَنُوا وَأَنْ لَمْ يَكُنْ
سَكْنَاهُمْ لَهَا بَعْدَ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنْتَقَلَوْا عَنْهَا وَسَوَّغَ ذَلِكَ أَيْضاً إِخْتِلَافَ حَالِ
الدَّارَيْنِ وَإِنْتَقَالَهُمْ مِنَ الْأُولَى إِلَى الْآخِرَةِ فَكَأَنَّ مَا عَمِلُوا فِي الدَّارِ الْأُولَى كَانَ
سَبَباً لِمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْتَحَقُّ الْمِيرَاثُ بِالسَّبَبِ هَكَذَا حَقَّقَهُ
بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا

أصحاب الجنة هم المؤمنون الذين وصفهم الله بالإيمان والعمل الصالح و نزع الغل من صدورهم و أما أصحاب النار فهم المكذبون بآيات الله و المستكبرون عنها فلما إستقر كل طائفة في مقرها من الجنة و النار فنادى أصحاب الجنة أصحاب النار أي قالوا لهم أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا من دخول الجنة و الإلتذاذ بنعمها حقاً فهل أنتم وجدتم ما وعد ربكم من العذاب في النار حقاً قالوا نعم و الظاهر أن الإستفهام للانكاري أي قد وجدنا و وجدتم ما وعد الله و أوعده عليه قوله حقاً إشارة إلى أن وعد الله حق لا خلاف فيه أو المراد أن دخول الجنة حق المؤمن كما أن دخول النار حق للكافر.

فَأَذَنَ مُؤَدِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

الأذان الإعلام أي فأعلم معلّم و هو ملك يأمره الله تعالى فينادي بينهم يسمع أهل الجنة و أهل النار، و قيل هو إسرافيل صاحب الصور و قيل جبرائيل ثم أنه تعالى وصف الظالمين الملعونين.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ
ذكر من أوصاف الظالمين ثلاثة:

أحدها: أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالصَّدُّ الْمَنْعُ أَي يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَ الْكَلَامِ خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِسْتِعَارَةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ دِينَهُ وَ مَعْنَى يَبْغُونَهَا عِوَجًا أَي يَبْتَغُونَ عَنْهَا الْمَتَحَاوُلَ وَ يَطْلُبُونَ مِنْهَا الْفَسْحَ وَ الْمَخَارِجَ وَ يُوْهَمُونَ بِالشَّبَهَاتِ أَنَّهَا مَعُوجَةٌ غَيْرُ قَوِيمَةٍ وَ مُضْطَرِبَةٌ غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ هَكَذَا قِيلَ.

ثانيها: قوله **وَيَنْفَعُونَهَا عَوْجًا** أي يطلبون لها العوج بالشُّبه التي يلبسونها ويوهمون أنها تقدح فيها فأَنَّ **العِوَجَ** بكسر العين قد يكون في الطريق وقد يكون في الدِّين وبعبارة أخرى هم أصحاب الشُّبه.

ثالثها: أنهم بالآخرة هم كافرون أي أنكروا الآخرة ومن أنكروا الآخرة أنكر المعاد ومنكر المعاد كافر لأنَّه من ضروريَّات الدِّين وهو واضح.

وإنما عبَّر تعالى عن هؤلاء الظَّالِمِينَ لأنَّ الظلم عبارة عن وضع الشَّيْءِ في غير محلِّه من كان كذلك فهو ظالم حقاً.

وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ أي بين أصحاب الجنة وأصحاب النَّار حجاب.

والحِجَاب بكسر الحاء المهملة الحاجز المانع من الإدراك وقيل بين الجنة والنَّار حجاب والقول الأول أشهر وأوفق بالقواعد الأدبية **وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ** الأعراف المكان المرتفع أخذ من عرف الفرس ومنه عرف الذِّبْكَ وكلُّ مرتفع من الأرض يسمَّى عرفاً لأنَّه بظهوره أعرف ممَّا أنخفض قال الشَّاعر:

وظلت بأعراف تغالي كأنها رماحٌ نحاسها وجهه الرَّمح راکز
وعليه فالمراد بالأعراف المكان المرتفع وقال قوم أنها سور بين الجنة والنَّار عن مُجاهد والسَّدي، وقيل هو أحد ممثِّل بين الجنة والنَّار وأمثال ذلك من الأقوال ثمَّ أنهم اختلفوا في الذين هم على الأعراف أعني بهم الرِّجال في قوله وعلى الأعراف رجال فقال بعضهم هم فضلاء المؤمنين وعن الجبائي هم الشَّهداء، وقيل هم عدول الآخرة وقال أبو جعفر **عليه السلام** هم الأئمة ومنهم النَّبي ذكر هذه الوجوه في التَّبيان.

أقول اختلفت كلمات مفسري العامة في معنى الرِّجال على أقوال مختلفة متشعبة لا يمكن الإعتماد عليها إذ لا دليل على صحتها أو صحة بعضها من العقل والنقل ما يمكن الوثوق به قال الطبري في تفسيره لهذه الآية هم قوم من بني آدم واستوت حسناتهم وسيئاتهم فجعلوا هنالك الى أن يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته أيّاهم.

ثم نقل عن حذيفة وعن سعيد بن جبير وابن مسعود وأمثالهم روايات على إثبات مدعاه، وقال أيضاً، هم قوم غزوا في سبيل الله عصاة لأبائهم فقتلوا فأعتقهم الله من النار بقتلهم في سبيله وحسبوا عن الجنة بمعصية آبائهم فهم آخر من يدخل الجنة وذكر أحاديث.

وقال أيضاً أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء، وقال آخرون بل هم ملائكة وليسوا ببني آدم وذكر بعد هذه الأقوال أحاديث ولم يعلم أنّ هذه الأقوال بعيدة عن الصواب لأن الله تعالى يقول: **وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيئاتِهِمْ** ومن كان كذلك لا بدّ من أن يكون نبياً أو وصياً لا من كان استوت حسناته سيئاته أو من غزوا في سبيل الله عصاة لأبائهم وأمثال ذلك من الأباطيل التي لا يقبلها العقل السليم.

وإذا كان الطبري وهو بين العامة وتفسيره من أحسن التفسيرات بإتفاقهم أخذوا في تفاسيرهم منه ما أخذوا ونقلوا عنه ما نقلوا هذا حاله وحال كتابه فما ظنك بأمثال السيوطي والرازي وصاحب الكشف والألوسي وغيرهم و لذلك تراهم كالغريق يتشبّث بكلّ حشيش في تفسير كلام الله فكأنهم لم يسمعوا كلام الرسول حيث قال من فسّر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار و ليت شعري ما التفسير بالرأي والذي نقول في تفسير كلام الله هو أنّ المراد بالرجال النّبي والأئمة عليهم السلام لا غيرهم كائناً من كان ويدل عليه العقل والنقل.

وأما العقل:

فمعلوم لأنّ هذا المقام من أعلى الدّرجات بحيث لا يكون فوقه مقام وهذا شأن النّبي وأوصيائه.

وأما النّقل:

ففي تفسير القُمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: الأعراف كُتبان بين الجنّة والنّار والرجال الأئمّة عليهم السّلام يقفون على الأعراف مع شيعتهم وقد سيق المؤمنون الى الجنّة بلا حساب فيقول الأئمّة لشيعتهم من أصحاب الذّنوب أنظروا الى أخوانكم في الجنّة قد سيّقوا اليها بلا حساب.

وعنه عليه السلام: كلّ أمةٍ يحاسبها إمام زمانها ويعرف الأئمّة أولياءهم وأعداءهم بسيماهم وهو قوله تعالى: وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا الى الجنّة بلا حساب و يعطوا أعداءهم كتابهم بشمالهم فيمروا الى النّار بلا حساب.

وعن كتاب معاني الأخبار في خطبة لعلي عليه السلام يذكر فيها نعم الله عزّ وجلّ وفيها يقول ونحن أصحاب الأعراف أنا وعمّي وأخي وابن عمّي فالق الحبّ والنوى لا يلج النّار لنا محبّ ولا يدخل الجنّة لنا مبغض لقول الله عزّ وجلّ: وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ

وفي أصول الكافي بأسناده عن صفوان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء ابن الكوا الى علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، و على الأعراف رجال يعرفون كلّاً بسيماهم، فقال عليه السلام: نحن الأعراف نعرف أنصارنا بسيماهم ونحن الأعراف الذين لا يعرف

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِسَبِيلٍ مَعْرِفَتَنَا وَنَحْنُ الْأَعْرَافُ يَعْرِفُنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَنَاهُ وَ لَا يَدْخُلُ
النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَنَاهُ وَأَنْكَرَنَاهُ انْتَهَى.

و عَنْ كَشْفِ الْمَحَبَّةِ لِأَبْنِ طَاوُوسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ
الْحَدِيثِ طَوِيلٍ وَ فِيهِ: فَأَلَوْصِيَاءُ قَوَامٍ عَلَيْكُمْ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ لَا
يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَ عَرَفُوهُ وَ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ
وَأَنْكَرُوهُ لِأَنَّهُمْ عَرَفَاءُ الْعِبَادِ عَرَفَهُمُ اللَّهُ أَيَّاهُمْ عِنْدَ اخْتِزَانِ الْمَوَاقِيقِ
عَلَيْهِمْ بِالطَّاعَةِ فَوَصَّفَهُمْ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: وَ عَلَى الْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَيِّمَاتِهِمْ وَ هُمُ الشَّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ وَ النَّبِيُّونَ
شُهَدَاءُهُمْ بِأَخْذِهِمْ مَوَاقِيقَ الْعِبَادِ بِالطَّاعَةِ انْتَهَى.

و عَنْ تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ بِأَسْنَادِهِ عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: أَنَا يَعْسُوبُ
الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنَا أَوَّلُ السَّابِقِينَ وَ خَلِيفَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ أَنَا قَسِيمُ
الْجَنَّةِ وَ النَّارِ وَ أَنَا صَاحِبُ الْأَعْرَافِ.

و عَنْ هِشَامٍ وَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَ عَلَى
الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَيِّمَاتِهِمْ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَ
عَلَيْكُمْ عَرَفًا عَلَى قِبَائِلِكُمْ لَتَعْرِفُونَ مَنْ فِيهَا مِنْ صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ قُلْتُ
بَلَى قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنَحْنُ أَوْلَئِكَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَيِّمَاتِهِمْ
انْتَهَى.

و عَنْ زَادَانَ عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ
لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَرَّاتٍ، يَا عَلِيُّ أَنْكَ وَ الْاَوْصِيَاءُ مِنْ بَعْدِكَ
أَعْرَافُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَكُمْ وَ عَرَفْتُمُوهُ وَ لَا
يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَكُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ انْتَهَى.

و عَنْ سَعْدِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ عَلَى
الْأَعْرَافِ رِجَالٌ الْخ.

يا سعد هم آل محمد عليهم السلام لا يدخل الجنة إلا من عرفهم و عرفوه و لا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه انتهى.
و عن الثمالي قال سأل أبو جعفر عليه السلام: وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ فقال أبو جعفر عليه السلام: نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبب معرفتنا و نحن الأعراف الذين لا يدخل الجنة إلا من عرفنا و عرفناه يدخل النار إلا من أنكرنا و أنكرناه ذلك بأن الله لو شاء أن يعرف الناس نفسه لعرفهم و لكن جعلنا سببه و سبيله و بابه الذي يؤتى انتهى.

أقول الأحاديث التي نقلناها في المقام نقلناها عن ^(١).
و نقلها المجلسي رحمته الله في البحار أيضاً و قد خَصَّ المجلسي رحمته الله باباً لذلك و ذكر فيه أحاديث كثيرة.

رواه بأسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ أَخْبَرَهُ.

قال النبي و عليّ ابن أبي طالب و فاطمة و الحسن و الحسين - عليهم السلام - على سور بين الجنة و النار يعرفون المحبين لهم ببياض الوجوه و المبغضين لهم بسواد الوجوه إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد الله و قد سُئِلَ عن قول الله عزّ و جلّ و بينهما حجاب فقال: سور بين الجنة و النار قائم عليه مُحَمَّد و عليّ عليهما السلام و فاطمة و الحسن و الحسين و خديجة - عليهم السلام - فينادون أين محبونا أين شيعتنا فيقبلون اليهم فيعرفونهم بأسمائهم و أسماء آبائهم و ذلك قوله تعالى: يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ فيأخذون بأيديهم فيجوزون بهم على الصراط و يدخلونهم الجنة ^(٢) إنتهى.

وفي الباب أحاديث كثيرة إن شئت الإطلاع عليها فراجعه وقد تحصل مما ذكرناه أن المراد بالرجال الذين على الأعراف، ليس إلا النبي والأنمة عليهم السلام وهو المطلوب.

وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

فمعناه أن هؤلاء الرجال الذين على الأعراف، نادوا أصحاب الجنة و يقولون لهم سلام عليكم وأما قوله: لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ فقد اختلفوا في معناه.

قال الرّازي معناه أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة ومع ذلك فهم يطمعون في دخولها.

وقال بعضهم، يطمعون بمعنى يتيقنون أي وهم يتيقنون ما أعد لهم من الزلفى.

وقال صاحب الكشف أنه إستئناف كأن سائلاً سأل عن أصحاب الأعراف فقبل لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ يعني حالهم أن دخولهم الجنة إستأخر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم يياسوا انتهى كلامه.

وبه قال الطبري والقرطبي وغيرهم من مفسري العامة.
وقال الطبرسي رحمته الله في قوله: لَمْ يَدْخُلُوهَا أي لم يدخل الجنة بعد وهم يطمعون أن يدخلوها.

وقال الشيخ في التبيان، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلهم الله بشفاعته النبي والإمام عليه السلام انتهى.

أقول وهذا هو الحق بالإتباع لا ما ذكره الطبري وأمثاله من العامة من أن أهل الأعراف لم يدخلوها ومع ذلك فهم يطمعون في دخولها خصوصاً على ما فسرنا أهل الأعراف وقلنا أن المراد بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأنمة (عليهم

السلام) اذ على هذا القول كيف يمكن أن يقال أنهم لم يدخلوها و مع ذلك فهم يطمعون و من المعلوم أنَّ الذي يطمع أن يدخل الجنة هو المذنب العاصي فقول الشيخ في التبيان هو المتبع. والله أعلم.

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

هذا إخبار عن الله تعالى عن الرجال الذين على الأعراف فقال وإذا صرفت أبصارهم، الصَّرف هو العدول بالشئ من جهة إلى جهة أي هؤلاء الذين على الأعراف إذا تَوَّجَّهوا بأبصارهم تلقاء أصحاب النار وهي جهة المقابلة لهم قالوا رَبَّنَا لا تجعلنا مع القوم الظَّالِمِينَ، أي لا تجعلنا وأياهم في النار و أنما قالوا ذلك مع علمهم بأنَّ الله لا يفعل بهم ذلك لما لهم في ذلك من السُّرور فيجوز لهم أن يسألوا السلامة من العذاب وهو واضح لا خفاء فيه.



وَ نَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَّعْرِفُونَهُمْ
 بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا
 كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا
 يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ
 عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَ نَادَىٰ أَصْحَابُ
 النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ
 أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى
 الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
 وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا
 نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَجْحَدُونَ (٥١)

◀ اللغة

أَفِضُوا، الإفاضة اجراء المائع من علي ومنه قولهم أفاضوا في الحديث
 أي أخذوا بينهم من أوله لأنه بمنزلة أعلاه.
 لَهُوًا، اللهو بفتح اللام و سكون الواو و ما يشغل الإنسان عما يعنيه و يهمله
 يقال لهيت عن كذا إشتغلت بهو و قد يعبر عن كل ما به إستماع باللهو.
 لَعِبًا يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصدًا صحيحًا.
 غَرَّتْهُمْ، الغرور كل ما يغتر الإنسان من مال و جاء و شهوة و شيطان و قد فُسر
 بالشيطان اذ هو أخبث الغارزين و بالدنيا لأنها تغر و تضر و تمر و الغرر الخطر من الغر.

◀ الإعراب

مَا أَغْنَىٰ يَجوز أن تكون ما، نافية وأن تكون إستفهاماً أَنْ أَفِضُوا يجوز أن
 تكون، أن، مصدرية و أن تكون تفسيرية الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ يجوز فيه الجرّ

و النَّصْبِ وَ الرَّفْعِ لَهُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ وَ التَّفْسِيرُ مَلْهُوٌّ بِهِ وَ مَلْعُوبٌ بِهِ (عَلَى عِلْمٍ) حَالٌ مِنَ الْهَاءِ أَوْ مِنَ الْفَاعِلِ أَيْ فَضَّلْنَاهُ عَالَمِينَ (هُدًى وَ رَحْمَةً) حَالَانِ أَيْ ذَا هُدًى وَ ذَا رَحْمَةٍ وَ قَرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ.

◀ التفسير

وَ نَادَى أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ

قد مرَّ الكلام في أصحاب الأعراف و أنما قال ونادى، بصيغة الماضي مع أن هذا النداء لا يكون إلا في المستقبل وهو يوم القيامة لأن المستقبل إذا كان محقق الوقوع فهو في حكم الماضي أو أنه على وجه الحكاية والحذف، والتقدير إذا كان يوم القيامة نادى أصحاب الأعراف.

قالوا أن النداء معناه الدعاء إلا أن في النداء إمتداد الصوت ورفعته وليس كذلك الدعاء لأنه قد يكون بعلامة كالإشارة من غير صوت ولا كلام ثم أن في هذه الآية أخبار و حكاية من الله تعالى أن أصحاب الأعراف ينادون قومًا من الكفار الذين يعرفونهم بسيماهم من سواد الوجوه وضروب من تشويه الخلق يفترون به من أهل الجنة ويقولون لهم مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكَبِرُونَ فعلى القول بكون، ما، نافية معناه ما نفعكم عنكم يوم القيامة جمعكم الأموال والعدد في الدنيا أو ما نفعكم جماعتكم التي استندتم إليها في دار الدنيا.

و أما على الإستفهام فالمعنى أَيْ شَيْءٍ نَفَعَكُمْ مِمَّا جَمَعْتُمْ وَأَمَّا مَا، فِي قَوْلِهِ: وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكَبِرُونَ فهي مصدرية قطعاً أي وكونكم تستكبرون و قرأت فرقة تستكبرون بالناء مثلثة من الكثرة وهي شاذة ومحصل الكلام في الآية هو أنه ما أغنى عنكم جمعكم وإستكباركم عن الإيمان في الدنيا يوم القيامة بل أوقعكم في العذاب والعقاب والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله:

قال الله تعالى: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا^(١).

قال الله تعالى: وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ^(٢).

قال الله تعالى: وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ^(٣).

أَهْوََاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ

اختلفوا في القائل لهذا القول فقليل هم أصحاب الأعراف و عليه أكثر المفسرين و المعنى أنهم يقولون هذا مشيرين الى أهل الجنة و هذا يدل على عظم شأن أصحاب الأعراف و أنهم ذو المنازل الرفيعة.

القول الثاني: أنه من قول الله في أصحاب الأعراف قال بعض المفسرين فقلوه: **أَهْوََاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ** من كلام أصحاب الأعراف و قوله: **أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ** من كلام الله تعالى و لابد هاهنا من إضمار و التقدير فقال الله لهم هذا.

أقول الحق أن أدخلوا الجنة أيضاً كلام أصحاب الأعراف اذ لا دليل على الإضمار و التقدير لأنه من المجاز و هو خلاف الأصل و عليه فقول أصحاب الأعراف أدخلوا الجنة، خطاب للمؤمنين بدخلوهم الجنة و المعنى أدخلوها لا خائفين و لا محزونين و فائدة الآية تقرير الزاثنين على ضعفاء المؤمنين حتى حلفوا أنهم لا خير لهم عند الله فقليل لهم أدخلوا الجنة على أكمل سرور و أتم كرامة.

وَ نَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

فيه القرآن في تفسيره

جزء ٨

المجلد السابع

حكى الله تعالى عن أصحاب النار هم المُخلّدون في عذابها أنهم ينادون أصحاب الجنة ويقولون لهم أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله من نعيم الجنة والإفاضة إجراء المانع من كل ومنه قولهم أفاضوا في الحديث أي أخذوه بينهم من أوّله لأنّه بمنزلة أعلاه **قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** هذا جواب أهل الجنة لأهل النار فقولهم: **حَرَّمَهُمَا** أي منعهما فهو تحريم المنع لا تحريم العبادة.

قال بعض المفسرين وأنما لم يدرك أهل الجنة مع خيريتهم رقة على أهل النار لأنّ من الخيرية القسوة على أعداء الله وأعداءهم وذلك من تهذيب طباعهم كما يبغض المسي ويحبّ المحسن انتهى موضع الحاجة من كلامه. **أقول** الحقّ في عدم الرقة عليهم هو أنّ الله تعالى حرّم طعام أهل الجنة على أهل النار وعليه فأهل الجنة لا يؤذن لهم الإفاضة على أهل النار وأن شئت قلت لا يقدرّون عليها وهو واضح ولذلك قال تعالى حكاية عنهم أنّ الله حرّمهما على الكافرين.

ثمّ أنّه تعالى بيّن حال الكافرين فقال: **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا** يحتمل أن يكون هذا الكلام في موضع جرّ بأن يكون صفة للكافرين كما قلنا و يحتمل أن يكون ذلك من قول أهل الجنة وتقديره أنهم **قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** الذين كانوا كذلك وفي المقام احتمال ثالث. وهو أن يكون إخباراً من الله تعالى لهم على وجه الدّم وعليه فالكلام في موضع رفع وكيف كان فالمعنى أنهم إتخذوا في دار الدنيا دينهم للهو واللعب بمعنى أنهم طلبوا صرف الهّم بالتّهزي بالدين وعيب المؤمنين.

قال الرّاعب اللّهُو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه يقال لهوت بكذا و لهيت عن كذا إشتغلت عنه بلهوى وقد يعبر عن كلّ ما به إستمع باللهو. وقال، ولعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً انتهى.

أقول ذكر الرّازي في تفسير الكلام وجهين:

أحدهما: أنّ الذي إعتقدوا فيه أنّه دينهم تلاعبوا به و ما كانوا فيه مجدين.

الثاني: أنّهم إتخذوا اللهو و اللعب ديناً لأنفسهم انتهى.

والذي حصل لنا في معنى الكلام هو أنّ الكفار لم يكن لهم دين أصلاً أن كان المراد بهم المشركين اللهم إلا أن يقال المراد بالدين في المقام هو كلّ ما يتدين به و يعتقد به الإنسان حقّاً كان أو باطلاً كما:

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْمَعْنَى أنّ الحياة صارت سبباً لغرورهم لأنّ الحياة الدّنيا لا تغرّ في الحقيقة و الغرور بضمّ الغين كلّ ما يغرّ الإنسان من مالٍ و جاهٍ و شهوةٍ و شيطان و قد فسّر الشيطان لأنّه أحبّ الغارّين و بالدنيا لما قيل أنّ الدّنيا تغرّ و تضرّ و تمرّ:

قال الله تعالى: **وَ لِكِنِّكُمْ فَتَنَّتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ أَرْبَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمْ الْأُمَانِي^(١)**.

قال الله تعالى: **وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا^(٢)**.

قال الله تعالى: **فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللّهِ الْغُرُورُ^(٣)** و الآيات كثيرة.

قال بعضهم الغرور تزيين الباطل للوقوع فيه و أنّما إغترّوا بالدّنيا لظّنهم البقاء فيها و لم يعلموا أنّ الدّنيا فانية و حيث أنّ العقل يحكم بعدم الإعتداد على ما لا بقاء له فلا غرور أحبّ و أفسد من الإعتداد على الدّنيا و زخارفها فإنّ الدّنيا منشأ الشّرور و الأفات و لذلك قال رسول الله ﷺ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة.

ثُمَّ أَنْ أَعْظُمِ الْأَفَاتِ وَأَشَدَّ الْبَلِيَّاتِ لِمَنْ غَرَّتْهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْغَفْلَةُ عَنِ الْآخِرَةِ
وَالْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَدْ يَعْبُرُ عَنْهَا بِالنَّسْيَانِ لِأَنَّهُمَا مُتَلَازِمَانِ وَإِلَى هَذَا
الْمَعْنَى أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: **فَالْيَوْمَ نَنْسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَ**
مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ والمراد باليوم هو يوم القيامة.

وَأَمَّا نَسْيَانِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ فَقِيلَ مَعْنَاهُ نَتْرَكُهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا بِأَنْ نَجْعَلَهُمْ فِي النَّارِ،
فَسَمِيَ الْجَزَاءُ عَلَى تَرْكِهِمْ طَاعَةَ اللَّهِ، نِسْيَانًا كَمَا قَالَ: **وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ**
مِثْلُهَا^(١).

وَالْجَزَاءُ لَيْسَ سَيِّئَةً، وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى يِعَامِلُهُمْ مَعَامِلَةَ الْمُنْسِيينَ فِي
النَّارِ لِأَنَّهُ لَا يَجَابُ لَهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يَرْحَمُ لَهُمْ عِبْرَةٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، أَيِ نَسْيَانِنَا إِيَّاهُمْ مُتَفَرِّغٍ عَلَى
نَسْيَانِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَكَأَنَّ نَسْيَانَهُمْ صَارَ سَبَبًا وَعِلَّةً لِنَسْيَانِنَا إِيَّاهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّ
نَسْيَانِنَا إِيَّاهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْجَزَاءِ لِنَسْيَانِهِمْ لِقَاءَ هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي لَا بَدَلَ لِكُلِّ أَحَدٍ الْوُرُودِ
عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** فَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْغَفْلَةِ وَالنَّسْيَانِ أَيِ
أَنَّهُمْ كَانُوا فِي دَرَا الدُّنْيَا مِنَ الْجَاحِدِينَ بِآيَاتِنَا وَالْجَحْدُ الْإِنْكَارُ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ وَ
أَمَّا كَلِمَةُ، مَا، فِي قَوْلِهِ كَمَا نَسُوا، وَفِي قَوْلِهِ: **وَمَا كَانُوا مُصْدِرِيهِ وَالتَّقْدِيرُ**
كَنَسْيَانِهِمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَكَوْنِهِمْ جَاحِدِينَ لِآيَاتِنَا.



وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَ
 رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
 تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ
 قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ
 شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
 نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
 عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَ
 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِلَّا
 لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)
 أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
 إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
 اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

△ اللغة

فَصَّلْنَاهُ، التَّفْصِيلُ ضِدُّ الْأَجْمَالِ.

تَأْوِيلُهُ، التَّأْوِيلُ مصدر باب التَّفْصِيل يُقال أَوَّلُ تَأْوِيلًا نحو صَرَّفَ تصريفاً
 هو من الأول يُقال آَل إذا رجع وعليه فالتأويل الإرجاع.

شُفْعَاءَ، جمع شَفِيعٍ والشَّفِيع من يشفع لغيره وأصل الشَّفَاعَة الإنضمام
 الى آخر ناصراً له وسائلاً عنه وأكثر ما يُستعمل في إنضمام من هو أعلى حرمة
 ومرتبة الى من هو أدنى ومنه الشَّفَاعَة في القيامة.

يَفْتَرُونَ، الإِفْتِرَاءُ الإِفْسَادُ وقيل معناه إفتراءٌ، عليه الكذب إختلقه والفريه الكذب وإختلاقه.

أَسْتَوَى أَيِ اسْتَوَى قَالَ الشَّاعِرُ.

قَدْ اسْتَوَى بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ
أَيِ اسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ بَدُونَهُمَا.
يُعْشَى: التَّغْشِيَةُ التَّغْطِيَةُ.

◀ الإِعْرَابُ

عَلَى عِلْمٍ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، فَصَلَّنَاهُ مُشْتَمِلًا عَلَى عِلْمٍ فَيَكُونُ حَالًا مِنْ الْهَاءِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ الْفَاعِلِ أَيِ فَصَلَّنَاهُ عَالَمِينَ أَيِ عَلَى عِلْمٍ مِمَّا هَدَى وَ رَحْمَةً حَالَانِ أَيِ ذَاهِدِي وَ ذَارِحَةً وَقَرَأَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنْ خَبَرَ مَبْتَدَأً مَحذُوفٌ يَوْمٌ يَأْتِي هُوَ ظَرْفٌ لِيَقُولَ فَيَسْتَفْعُوا النَّأ هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى جَوَابِ الْإِسْتِفْهَامِ أَوْ نَزْدَ الْمَشْهُورِ الرَّفْعَ لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعٍ مِنْ شَفْعَاءِ تَقْدِيرِهِ، أَوْ هَلْ نَزْدَ يُعْشَى اللَّيْلُ فِي مَوْضِعِهِ وَجِهَانِ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي خَلْقٍ، وَخَبَرٌ إِنْ عَلَى هَذَا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ. الثَّانِي: أَنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ يَطْلُبُهُ حَالٌ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ مِنَ النَّهَارِ وَحَثِّثًا حَالٌ مِنَ اللَّيْلِ لِأَنَّهُ الْفَاعِلُ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ النَّهَارِ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ، يَطْلُبُ اللَّيْلُ النَّهَارَ مَحْثُوثًا، وَ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ أَيِ طَلَبًا حَثِّثًا وَ الشَّمْسُ يَقْرَأُ بِالنَّصْبِ وَ التَّقْدِيرُ وَ خَلَقَ الشَّمْسُ، وَ مِنْ رَفْعِ إِسْتَأْنَفٍ خُفِيَةً بَضْمَ الْخَاءِ وَ كَسَرَهَا وَ هُمَا لَغْتَانِ وَ الْمَصْدَرَانِ حَالَانِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ وَ مِثْلُهُ، خَوْفًا وَ طَمَعًا قَرِيبٌ خَبَرٌ إِنْ.

◀ التَّفْسِيرُ

وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ أَيِ وَلَقَدْ جِئْنَا هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ الَّذِينَ تَقَدَّمُ ذِكْرَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَى عِلْمٍ قِيلَ الْمَرَادُ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنُ وَ أَصْلُ الْكِتَابِ صَحِيفَةٌ فِيهَا

كتابة والكتابة حروف مسطورة تدل بتأليفها على معانٍ مفهومة وقوله: **فَصَلَّنَاهُ** أي ميّزنا معاني الكتاب على وجه يزول معه اللبس وقوله: **عَلَى عِلْمٍ** معناه نحن عالمون به.

وقال بعض المفسرين معناه، **فَصَلَّنَاهُ** بإيضاح الحق من الباطل، وقيل نزلناه في فصولٍ مختلفة، وقرأ ابن محيص والجحدري، **فَصَلَّنَاهُ** بالصّاد المنقوطة وعلية فالمعنى فضلناه على جميع الكتب عالمين بأنّه أهلٌ للتّفضيل عليها **أقول** هذه قراءة شاذة لا يعابها والحق فيها هو الصّاد المهملة كما عليه المصاحف.

وأما قوله: **هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** أي أنّ القرآن كذلك وأنما جعله هدىً ورحمةً للمؤمنين دون غيرهم مع أنّه نعمة على جميع المكلفين من حيث أنّهم عرضوا به للهداية غير أنّ المؤمن لما إهتدى به كانت النّعمة بذلك عليه أعظم فأضيف اليه وغير المؤمن لم يتعرّض للهداية فلم يهتد فالمؤمنون على صفة زائدة قاله الشيخ في التّبيان وقال الرّازي وقوله: **لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** يدل على أنّ القرآن جعل هدىً لقوم مخصوصين والمراد أنّهم هم الذين إهتدوا به دون غيرهم فهو كقوله تعالى في أوّل سورة البقرة **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** وإحتج أصحابنا بقوله: **فَصَلَّنَاهُ عَلَى عِلْمٍ** على أنّه تعالى عالم بالعلم خلافاً لما يقوله المعتزلة من أنّه ليس لله علم انتهى كلامه.

وأنا أقول ما ذكره الرّازي من أنّ قوله: **لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** يدل على أنّ القرآن جعل هدىً لقوم مخصوصين، لا يصح إلا على القول بالجبر كما هو مذهبه ومذهب غيره من الأشاعرة وذلك لأنّ القرآن لو جعل كذلك فلا يمكن لغير المؤمن الإهتداء به لأنّه ليس من المخصوصين بالإهتداء والمفروض أنّه مكلف به مسؤول عنه يوم القيامة ولا نعني بالجبر إلا هذا.

والحق في حلّ الإشكال هو أن يقال أنّ القرآن جعل هدىً لجميع النّاس إلا أنّ الإهتداء به مشروط بالإيمان فغير المؤمن لا يهتدي به لفقد الشرط فيه

الإيمان ومن المعلوم أنه تحت قدرته فتخصيص الإهداء بالمؤمن ليس من أجل أن غير المؤمن لا يقدر عليه بل تخصيصه به لأجل أنه أي المؤمن أوجد الشرط وهو الإيمان باختياره وغيره لم يوجد كذلك.

وأما قوله وإحتج أصحابنا بقوله: **فَصَلَّنَاهُ عَلَى عِلْمٍ** على أنه تعالى عالم بالعلم خلافاً لما يقوله المعتزلة من أن ليس لله علم، فلا نفهم معناه وأنه تعالى كيف يكون عالماً بالعلم، وما معناه فإن كان مراده أن الله تعالى عالم بجميع الأشياء بسبب العلم فهو من تحصيل الحاصل وأن كان المراد أنه تعالى عالم بعلمه بمعنى أنه عالم ويعلم أنه عالم فهو أيضاً لا خفاء فيه إذ لو لم يعلم أنه عالم فهو جاهل واقعاً والواجب منزه عنه وكيف كان هذا الكلام منه مطروداً مردوداً.

وأما بالنسبة إلى المعتزلة من أنه ليس لله علم، فالظاهر أن مرادهم من نفي العلم الزائد على ذاته وأما نفي العلم بالكلية فلا يقول عاقل به إذ نفي العلم عين الجهل وهو كما ترى والذي يختلج بالبال في تفسير الكلام هو أن قوله: **عَلَى عِلْمٍ** إشارة إلى نكتته خفية وهي أنه تعالى كان عالماً بأن الكفار لا يؤمنون ومع ذلك أنزل الكتاب وفضله بذكر القصص والأحكام والمواعظ إتماماً للحجة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عنها فكأنه قال ولقد جئنا هؤلاء الكفار بكتاب كذلك على علم منا بأنهم لا يؤمنون بسوء سريرتهم وخبث طبيعتهم وعنادهم للحق.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ

أي هل ينتظرون لأن النظر قد يكون بمعنى الإنتظار قال أبو علي معناه هل ينتظر بهم أو هل ينتظر المؤمنون بهم إلا ذلك وأما أضافه إليهم مجازاً لأنهم كانوا جاحدين لذلك غير متوقعين وأما كان ينتظر بهم المؤمنون لإيمانهم بذلك وإعتراضهم به.

وقال بعض المفسرين معناه هل ينتظرون إلا مال أمره وعاقبته وقيل ماله يوم القيامة وقال السدي في الدنيا كوقعة بدر ويوم القيامة أيضاً.

وقال الزمخشري ما يؤول اليه من تبين صدقه وظهور صحته ما نطق به الوعد والوعيد يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق إخبار عن الله تعالى عن الكفار وإعترافهم بالإعراض عن حجج الله وبيناته والإقرار بتوحيده ونبوة أنبياءه وإقرارهم بأن ما جاءت به الرسل كان حقاً ثبت أن الحق ما شهد بصحته العقل كما أن الباطل ما شهد العقل بفساده والمراد بالنسيان في الآية هو أنهم حيث أعرضوا عنه في الدنيا فكأنه صار منسياً، أو أنهم تركوا العمل به فكأنهم نسوه.

ومحصل الكلام هو أنه لما تبين لهم الخطأ والانحراف عن الحق ندموا لا محالة على عدم متابعة الرسل والإعراض عما جاءوا به فقالوا كما حكى الله عنهم.

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

وحيث أن الشفيع هو السائل لصاحبه إسقاط العقاب والعذاب عن المشفع فيه والعفو عن خطيئته فلا جرم قالوا فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا عند الله ليسقط عنا العقاب أو نرد، ونرجع إلى الدنيا فنعمل فيها غير ما عملنا فيها قبل الموت فهو من قبيل قولهم: رَبِّ أَرْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ^(١).

والجواب الجواب هو قوله تعالى: كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا^(٢) ولذلك قال: قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَزُلْ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وأي خسران للإنسان أقيح وأفحش من الخسران في الدين وتوضيح ذلك هو أن الخسر والخسران إنتقاص رأس المال وقد ينسب ذلك إلى الإنسان فيقال خسر فلان وقد ينسب إلى الفعل فيقال خسرت تجارتها.

بَابُ التَّوَقُّفِ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ

جزء ٨

بَابُ التَّوَقُّفِ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ

قال الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ وَ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْمَقْتَنِيَّاتِ الْخَارِجَةِ كَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَكْثَرُ.
و فِي الْمَقْتَنِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ كَالصَّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ وَالْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ وَالثَّوَابِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْخُسْرَانَ الْمُبِينِ وَقَالَ: **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ** ^(١) انْتَهَى.

أَقُولُ لَا شَكَّ أَنَّ خُسْرَانَ الْمَالِ وَالْجَاهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خُسْرَانِ النَّفْسِ حَقِيرٌ لَا يُعْبَأُ بِهِ لِأَنَّ الْمَالِ وَالْجَاهِ فِي مَعْرُضِ الزَّوَالِ وَمَعَ ذَلِكَ قَدْ تَكُونُ فِي زَوَالِهَا مَصْلَحَةٌ لِلْعَبْدِ مَضَافًا إِلَى أَنَّ زَوَالَهُمَا قَابِلٌ لِلْجَبْرَانِ حَتَّى فِي الدُّنْيَا فَعَلَى هَذَا لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ التَّأْسُفُ عَلَى زَوَالِهِمَا كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي وَصِيَّتِهِ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام.

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَنْ لَا تَبْغِيَ الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمْ وَلَا تَأْسَفُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُيِّعَ عَنْكُمْ. بَلْ نَقُولُ أَنَّ ذَهَابَ الْمَالِ أَوْ الْجَاهِ لَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الْخُسْرَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ بَلْ هُوَ خُسْرَانٌ فِي مَالِهِ وَجَاهِهِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ غَيْرِ الْإِنْسَانِ قِطْعًا وَأَمَّا الْخُسْرَانُ فِي الْحَقِيقَةِ مَا يَنْسَبُ إِلَى النَّفْسِ النَّاطِقَةِ الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْإِنْسَانُ حَقِيقَةً فَأَنَّ شَيْئِيَّةَ الشَّيْءِ بِصُورَتِهِ لَا بِمَادَّتِهِ وَالنَّفْسُ هِيَ الصُّورَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَمَا ثَبَتَ وَ قَرَّرَ فِي مَحَلِّهِ وَ لِأَجْلِ هَذِهِ الدَّقِيقَةِ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْخُسْرَانَ الْمُبِينِ فِي الْمَقْتَنِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ فَقَطْ دُونَ الْمَقْتَنِيَّاتِ الْخَارِجَةِ:

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ^(٥).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
 الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(١) والآيات كثيرة اذا عرفت هذا فنقول:
 قوله تعالى: قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ إشارة الى هذه الدققة أي أنهم سقطوا
 عن مقام الإنسانية ووقعوا في مراتع الحيوانية.
 وقوله: وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ إشارة الى أن إفترائهم صار موجباً
 لخسرانهم لأنهم بالافتراء تركوا العمل ولا نعني بالخسران إلا هذا.
 قال بعض المفسرين في الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة من وجهين:
أحدهما: أنهم كانوا قادرين على الإيمان والعمل في الدنيا فلذلك طلبوا
 تلك الحال ولو لم يكونوا قادرين لما طلبوا الرد الى الدنيا والى مثل حالهم
 الأولى.

والآخر بطلان مذهبهم في تكليف أهل الآخرة اذ لو كانوا مكلفين لما طلبوا
 الرجوع الى الدنيا ليؤمنوا بل كانوا يؤمنون في الحال انتهى كلامه.
أقول ما ذكره لا بأس به وإلا فالقول بالجبر باطل عقلاً ونقلاً وللبحث فيه
 مقام آخر.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
 عَلَى الْعَرْشِ

إعلم أن الله تعالى لما ذكر أمر المعاد عقبه بذكر الدلائل الدالة على ربوبيته
 وخالقيته وكمال قدرته وعلمه وأنه تعالى هو الذي خلق الخلق وأوجدهم
 من العدم فهو الخالق العليم القادر الذي أوجد الممكنات فقال: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

أحدها: أن خالق الكل واحد وبه يثبت التوحيد ذاتاً وفعلأً وأنما قلنا ذلك
 لأنه تعالى قال: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَي أن

بناءً على قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

جزء ٨

بجاء

الَّذِي رَبَّكُمْ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَأَتَمَّا قَالَ فِي حَقِّكُمْ، السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ، خَلَقَ، لِنَتْنِهِ وَهِيَ أَنَّ الرَّبَّ فِي الْأَصْلِ التَّزْيِيَةِ وَهُوَ إِنْشَاءُ الشَّيْءِ حَالًا
فَحَالًا إِلَى حَدِّ التَّمَامِ فَهُوَ مُسْتَعَارٌ لِلْفَاعِلِ وَلَا يَقَالُ الرَّبُّ مُطْلَقًا إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى
الْمُتَكَفِّلُ لِمَصْلَحَةِ الْمَوْجُودَاتِ.

وَأَمَّا بِالْإِضَافَةِ فَيَقَالُ لَهُ تَعَالَى وَلِغَيْرِهِ فَيَقَالُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَيَقَالُ رَبُّ الدَّارِ وَ
رَبُّ الْفَرَسِ وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ يَوْسُفَ أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ.
وَعَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ قَالَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا،
أَيُّ آلِهَةٍ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُمُ الْبَارِي وَمُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ وَالْمُتَوَلَّى لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ.
وَأَمَّا الْخَلْقُ فَهُوَ التَّقْدِيرُ الْمُسْتَقِيمُ وَلَيْسَتْ تَعْمَلُ فِي إِبْدَاعِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ
وَلَا إِحْتِدَاءٍ فَقَوْلُهُ: رَبِّكُمْ اللَّهُ، أَيُّ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْشَأَكُمْ حَالًا فَحَالًا وَالْيَاسِي هَذَا
الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ،
ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْخَالِقِينَ^(١).

وَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِالْإِنْسَانِ فَقَطْ بَلْ يَشْمَلُ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجَمَادَاتِ
وغيرها لِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَكَفِّلُ لِمَصْلَحَةِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا.
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ^(٢).
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْكَرِيمِ^(٣) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

و السّر في الجميع هو أنّ المخلوق كائناً ما كان حادث وكلّ حادث متغيّر فيصدق عليه الإنشاء حالاً فحالاً اذ لا نعني بالتغيّر إلّا هذا فهو تعالى ربّ العالمين بل كلام.

أن قلت لو كان الأمر كذلك فلم قال خلق السموات والأرض والمفروض أنّه تعالى ربّ السموات والأرض والعرش أيضاً.

قلت لعلّ الوجه في تخصيص السموات والأرض بالذكر هو أنّه تعالى خلق السموات والأرض على وجه الإبداع من غير أصل ولا إحتذاء فكأنّه أمرنا بالتفكير فيه لأنّه أعظم وأكبر.

قال الله تعالى: **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ** ^(١).

و أمّا قوله: **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** مع أنّه كان قادراً على إنشاءها دفعةً واحدة فقد قيل فيه وجوه:

أحدها: أنّ تدبير الحوادث على إنشاء شيء بعد شيء على ترتيب أدلّ على كون فاعله عالماً قديراً يصرفه على إختياره ويجريه على مشيئته.

ثانيها: قال الرّماني يجوز أن يكون الإعتبار بتصور الحال في الأخبار و معناه إذا أخبر الله تعالى بأنّه **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** كان فيه لطف للمكلّفين وكان ذلك وجه حسنه.

ثالثها: قال أبو عليّ ذلك لإعتبار الملائكة بخلق شيء بعد شيء، ذكر هذه الوجوه في التبيان.

و قال الطّبري في تفسيره يقول تعالى أنّ سيدكم ومصلح أموركم أيّها النّاس هو المعبود الذي له العبادة من كلّ شيء الذي **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** وذلك يوم الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة.

في التفسير في قوله تعالى

جزء ٨

الجلد السادس

ثمّ نقل عن مجاهد أنّه قال بدء الخلق العرش والماء والهواء و خلقت الأرض من الماء وكان بدء الخلق يوم الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس و جمع الخلق يوم الجمعة وتهودت اليهود يوم السبت و يوم من السّنة الأيّام كألف سنةٍ ممّا تعدّون انتهى.

وقال الشيخ الطنطاوي في تفسيره المسمّى بالجواهر في هذا المقام ما هذا لفظه، فأنظر كيف ذكر أنّه خلق السّموات والأرض في أوقات ستّة بحيث أدار المادّة اللطيفة المسمّاة (بالأثير) وحركها في أزمان قديمة العهد جدّاً فكان منها شمس و شمس ثمّ دارت الشّمس ومنها شمسنا الآن والأنا من السنين فإنفصلت منها الكواكب السّيارة ومنها أرضنا وإفصل القمر من الأرض ثمّ كان المعدن والنبات والحيوان والإنسان فهذه هي الأيّام السّنة التي خلق الله فيها السّموات والأرض فأولها الشّمس فالأرض ومعها السّيارات فالمعدن فالنبات فالحيوان فالإنسان هذه هي الأيّام السّنة التي خلق الله فيها عالمنا انتهى كلامه وقال البيضاوي، في ستّة أيّام أي في ستّة أوقات كقوله ومن يولّهم يومئذ دبره، أو في مقدار ستّة أيّام فإنّ اليوم المتعارف زمان طلوع الشّمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ وفي خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليل للإختيار وإعتبار النظائر و حتّى على التّاني في الأمور انتهى.

وقال السيوطي في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال بدأ الله بخلق السّموات والأرض يوم الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس و الجمعة وجعل كلّ يوم ألف سنة.

وبأسناده عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله بيدي فقال يا أبا هريرة أنّ الله خلّق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش فخلق التّربة يوم السبت والجبال يوم الأحد والشّجر يوم الاثنين وأدم يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعاء والدّواب يوم الخميس وأدم يوم الجمعة آخر ساعةٍ من النّهار انتهى.

ونقل صاحب كشف الأسرار عن سعيد بن جبیر أنه قال قدّر الله تعالى خلق السموات والأرض في لمحّة أو لحظة وأتما خلقهنّ في ستّة أيام تعليماً لخلقهنّ الرّفق والتّثبت في الأمور قال وعلمنا بالستّة الحساب الذي لا سبيل الى معرفة شيء من أمر الدّنيا والدّين إلّا به كما قال لتعلموا عدد السّنين والحساب ثمّ أنّ أصل جميع الحساب من ستّة ومنها يتفرّع سائر العدد بالغاً ما بلغ انتهى.

وقال الرّازي أنّ المراد أنّه تعالى خلّق السموات والأرض في مقدار ستّة أيام وهو كقوله: **وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**^(١) والمراد على مقدار البكرة والعشي في الدّنيا لأنّه لا ليل ثمّ ولا نهار.

أقول هذه الأقوال التي نقلناها عن تفاسيرهم تدلّ على أنّهم لم يأتوا بشيء في تفسير الآية فالإشكال باقٍ بحاله.

وقال القرطبي وذكر هذه المدّة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل اذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون ولكنّه أراد أن يعلم العباد الرّفق والتّثبت في الأمور ولتظهر قدرته وللملائكة، شيئاً بعد شيء ثمّ قال وحكمة أخرى خلقها في ستّة أيام لأنّ لكلّ شيء عنده أجلاً وبيّن بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب لأنّ لكلّ شيء عنده أجلاً وهذا كقوله ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستّة أيام وما مسّنا من لغوب انتهى.

وقد يقال أنّ تدبير الحوادث على إنشاء شيء بعد شيء على ترتيب أدلّ على كونه فاعلاً قادراً عالماً يصرفه على إختياره ويجريه على مشيئته.

وقال أبو علي، ذلك لإعتبار الملائكة بخلق شيء بعد شيء، وقيل غير ذلك وأنت تعلم أنّ هذه الوجوه كلّها إستحسانات وإستخراجات ظنيّة لا يمكن الإعتماد عليها في تفسير الآية وسيأتي الكلام في هذا المعنى في المستقبل في سورة طه إن شاء الله.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فَقِيلَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتَوَاءِ الْإِسْتِيلَاءَ وَالْمَعْنَى اسْتَوَى عَلَيْهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

ثُمَّ اسْتَوَى بِشَرْ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مَهْرَاقٍ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ اسْتَوَى أَمْرُهُ أَيَّ أَنَّهُ مَسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ وَقَدْ صَحَّ
الْوَصْفُ بِأَنَّهُ مَسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَرْشًا قَبْلَ وَجُودِهِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ وَلَفْظَةُ الْعَرْشِ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ مَعَانٍ كَثِيرَةٍ.
فَالْعَرْشُ سَرِيرُ الْمَلِكِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ^(١).

وَالْعَرْشُ السَّقْفُ وَكُلُّ مَا عَلَا وَأُظِّلَ فَهُوَ عَرْشٌ.

وَالْعَرْشُ الْمَلِكُ وَالسُّلْطَانُ وَالْعَزَّ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ قَلَّتْ غُرُوشُهُمْ بَعْتِيَّةُ ابْنِ الْحَارِثِ بْنِ شَهَابٍ
وَالْعَرْشُ الْخَشَبُ الَّذِي يَطْوِي بِهِ الْبِثْرَ بَعْدَ أَنْ يَطْوِي أَسْفَلَهَا بِالْحِجَارَةِ.
وَالْعَرْشُ أَرْبَعَةُ كَوَاكِبَ صَغَارٍ أَسْفَلَ مِنَ الْعَوَاءِ يُقَالُ لَهَا عَجَزُ الْأَسَدِ وَيُسَمَّى
عَرْشُ السَّمَاءِ.

وَالْعَرْشُ مَا يَلَاقِي ظَهْرَ الْقَدَمِ وَفِيهِ الْأَصَابِعُ ثُمَّ قَالَ وَكَلِمَةُ اسْتَوَى، أَيْضًا
تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى اسْتَقَرَّ، وَبِمَعْنَى عَلَا، وَبِمَعْنَى قَصَدَ، وَبِمَعْنَى سَاوَى، وَ
بِمَعْنَى تَسَاوَى وَقِيلَ بِمَعْنَى اسْتَوَى وَأَنْشَدُوا فِيهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

هُمَا اسْتَوَيَا بِفَضْلِهِمَا جَمِيعًا عَلَى عَرْشِ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ زَوْرِ
وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ أَنَّهُ قَالَ لَا نَعْرِفُ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوَى أَنْتَهَى.
أَقُولُ أَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ مَعَانِي الْعَرْشِ فَلَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَلْفَاظِ لَهَا
وَجْهٌ مُخْتَلَفٌ بِحَسَبِ الْإِسْتِعْمَالَاتِ وَأَمَّا قَوْلُهُ لَا نَعْرِفُ اسْتَوَى بِمَعْنَى
اسْتَوَى، فَهُوَ خِلَافٌ مَا صَرَّحَ بِهِ أَكْثَرُ اللَّغَوِيِّينَ.

قَالَ فِي الْمَنْجَدِ، اسْتَوَى عَلَى سَرِيرِ الْمُلِكِ كُنَايَةً عَنِ التَّمْلِكِ، وَالتَّمْلِكُ هُوَ
التَّسْلُطُ بِعَيْنِهِ.

نعم قد يجيء بمعنى الإستقامة و الإستقرار و القصد و أمثال ذلك و كيف كان فلنرجع الى تفسير الكلام فنقول:

أما حقيقة العرش ففي غاية الخفاء اذ لا علم لنا و لا لغيرنا بها في حقّه تعالى. نعم العرش بمعناه اللّغوي لا خفاء فيه و هو غير مرادٍ قطعاً في المقام اذ لا مقرّ له تعالى عقلاً و شرعاً و هو واضح و اذا كان كذلك فلا محالة يحمل على ما هو المناسب في المقام من كونه كناية أو إشارة الى مملكته و سلطانه و إستيلاءه و إحاطته تعالى بجميع الممكنات.

قال بعض المفسّرين من العامة سأل رجل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال كيف إستوى، فأطرق رأسه ملياً و علتة الرّحضاء ثم قال الإستواء معلوم و الكيف غير معقول و الإيمان به واجب و السّؤال عنه بدعة و ما أظنّك إلا ضالاً ثم أمر به فأخرج انتهى.

أقول أنظر الى إمام أهل السنّة و مبلغ علمه و جوابه عن سؤال السائل و حمل كلام السائل على البدعة و نسبته الضلالة اليه و الأمر بإخراجه عن المجلس فاعتبروا بأولي الأبصار فلو قال في الجواب لا أعلم معناه كان أولى له إلا أنّ هذا و أمثاله من ثمرات السّقيفة الملعونة و ليس هذا أوّل قارورة كسرت في الإسلام و لنعم ما قيل:

إذا كان الغراب دليل قوم سيهديهم سبيل الهالكين

يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا تَغْشِيهِ التَّغْطِيَةُ و المعنى أنّه يذهب اللّيل نور النهار ليتمّ قوام الحياة في الدّنيا بمجيئ اللّيل و النهار فاللّيل لِّلِسْكُون و النهار للحركة و فحوى الكلام يدّل على أنّ النهار يغشيه اللّيل و هما مفعولان لأنّ التّضعيف و الهمزة معدّيان.

و قال بعضهم معناه يجلّل اللّيل النّهار أي يدخل عليه و قيل معناه أقبل عليه و قوله: يَطْلُبُهُ حَثِيثًا معناه أنّه مستمرّ على منهاج واحدٍ و طريقة واحدة

من غير فتور يوجب الإضطراب كما يكون في السَّوق الحثيث وقيل أنَّ معنى الحثيث السَّريع بالسَّوق قال أهل اللُّغة، الحثيث و الحثوث السَّريع يقال ولَّى حثيثاً أي مسرعاً، ثمَّ أنَّ نسبة الطَّلَب الى اللَّيل مجازيَّة و هو عبارة عن تعاقبه اللّازم فكأنَّه طالب له لا يدركه بل هو في أثره بحيث يكاد يدركه هذا كَلَّه بناءً على رفع اللَّيل و نصب النَّهار كما هو الظَّاهر و عليه المشهور من المفسِّرين و قيل بالعكس بأن يكون اللَّيل مفعولاً و النَّهار فاعلاً أي يغشي النَّهار اللَّيل قال الرَّازي في المقام ما هذا لفظه.

يطلبه حثيثاً يحتمل أن يكون المراد يلحق اللَّيل بالنَّهار وأن يكون المراد النَّهار باللَّيل و اللفظ يحتملها معاً و ليس فيه تغيير والدليل على الثَّاني قراءة حميد بن قيس يغشي اللَّيل النَّهار بفتح الياء و نصب اللَّيل و رفع النَّهار أي يدرك النَّهار اللَّيل و يطلبه حثيثاً انتهى.

أقول هذه القراءة مردودة مطروحة.

أما أولاً: فلا تها خلاف المشهور بل لا نعلم موافقاً لها في القراء فهي شاذة نادرة في حكم العدم.

ثانياً: اللفظ المتقدِّم هو الفاعل في أمثال المقام كما في قولك ضرب موسى عيسى إلا أن يدل دليل على خلافه واذ ليس في المقام فليس.

ثالثاً: أنَّ نسبة التَّغطية الى اللَّيل أولى منها الى النَّهار لأنَّ الغطاء نوع من الظُّلَّة فلا يقال يغشى النَّهار اللَّيل كما لا يقال أنَّ النَّور يغشى الظُّلَّة نعم النَّور يرفع الظُّلَّة و الفرق بين الرُّفع والتَّغطية واضح.

وابعاً: لو قلنا بهذه القراءة لزم فتح الياء في، يغشى، كما اعترف به القائل و عليه فيكون الفعل لازماً و اذا كان كذلك فحقَّ الكلام أن يقال يغشى باللَّيل النَّهار و لا يقول به أحد فتحصل ممَّا ذكرناه أنَّ المعنى يطلب اللَّيل النَّهار سريعاً على سبيل الكناية فإنَّ تغطية اللَّيل النَّهار كناية عن طلبه فكأنَّ أحدهما يطلب

الآخر بسرعةٍ ومع ذلك لا يصل أحدهما إلى الآخر فهو نظير قوله تعالى: لَا
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ^(١).

ثم قال: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهٖ كَأَنَّهُ جَوَابُ
سؤالٍ مقدَّر وهو أنه لم يكون كذلك فقال تعالى في الجواب ما قال والوجه في
صحَّة الجواب ظاهر لأنَّ المخلوق تحت قدرة الخالق ولا يمكن له الفرار من
حكومته وحيث ثبت أنَّ الشَّمْسَ والقمر والنَّجوم وغيرها من جنس
المخلوق فلا محالة تكون تحت قدرة الخالق ولا نعني بالتَّسخير إلَّا هذا و
لذلك قال تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يمكن أن
يراد بالخلق والأمر عالم الخلق وعالم الأمر ويمكن أن يراد بهما معناهما
اللَّغوي ومن المعلوم أنَّ الجمع مهما أمكن أولى من الطَّرْح وعليه فالمعنى أنَّ
الله تبارك وتعالى موجد العالمين أعني بهما عالم التَّكوين وعالم التَّشريع كما
أنَّ له الإيجاد ومن له الإيجاد فله الأمر ومَحْصَل الكلام هو أنَّ الأمر بيده مؤثِّر
في الوجود إلَّا هو تبارك الله ربَّ العالمين فيفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد وهو
على كلِّ شيءٍ قدير.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

خُفْيَةً بضمَّ الخاء وبكسرهما وهما لغتان والمشهور فيها الضَّم، والتَضَرُّع
التَّذَلُّ وهو إظهار الذُّل في النَّفس، أمر الله تعالى عباده المكلَّفين أن يدعوه و
الدَّعاء طلب الفعل والمعنى أدعوا ربَّكم تذلُّلاً وفي الخفاء دون العلانية.
ثمَّ أن الظَّاهر أنَّ الدَّعاء هو مناجاة الله بندائه لطلب أشياء ولدفع أشياء و
قيل أنَّ الدَّعاء في المقام العبادة أي أعبدوا ربَّكم متضرَّعين ومخفين.

فيه القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

وقد ورد في بعض الأحاديث أنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً أنكم تدعون قريباً وكان الصحابة حين أخبرهم الرسول بذلك قد جهروا بالذكر أمر الله تعالى بالدعاء مقروناً بالتذلل والإستكانة والإختفاء إذ ذاك أدعى للإجابة والعبد عن الرياء والدعاء خفية أفضل من الجهر ولذلك أثنى الله على زكريا عليه السلام إذ نادى ربه نداءً خفياً^(١) وفي الحديث خير الذكر الخفي وقواعد الشريعة مقررة أن السر فيما لم يفترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر.

وقد روي بعض المفسرين أن النبي كان في غزاة فأشرف على واد فجعل الناس يهللون ويكبرون ويرفعون أصواتهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أيها الناس أربعوا على أنفسكم أما أنكم لا تدعون أصم ولا غائباً أنكم تدعون سميعاً قريباً أنه معكم انتهى.

وقد روي سليمان بن عمر وقال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساهٍ فاذا دعوت فأقبل بقلبك ثم إستيقن الأجابة.

وعن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن أباة عليهم السلام قال: مرَّ النبي على رجلٍ وهو رافع بصره إلى السماء يدعو فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غص بصرك فأنتك لن تراه وقال عليه السلام ومرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على رجل رافع يديه إلى السماء وهو يدعو فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقصر من يدك فأنتك لن تناله.

وعن الرضا عليه السلام عن أباة عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن موسى بن عمران لما ناجى ربه قال أبعد أنت مني فأناديك أم قريب فأناجيك فأوحى الله جل جلاله إليه أنا جليس من ذكرني الحديث.

والسُّر فيه هو أنَّ الله تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد ومع ذلك أنه يعلم السُّر وأخفى وإذا كان كذلك فالصَّوت الجَلِّي ورفع اليد الى السَّماء وهكذا رفع الرُّأس والبصر إليها لا تأثير لها في أصل المدَّعى وأتماهي تحكي عمَّا في القلب فالقلب هو الأصل.

في هذا المقام وقد قال تعالى أنا عند قلوب المنكسرة فاذا توجَّه القلب إليه بالخضوع والتَّذلل فهو يكفي في الوصول إلى المقصد مُضافاً إلى أنه أبعد من الرِّياء المذموم وفي قوله: إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ إشارة إلى نكته خَفِيَّة لا بدَّ للدَّاعي من التوجَّه إليها وهي أن لا يتعدَّى ولا يتجاوز حدَّ الحقِّ والإعتدال في دعاءه مث أن يطلب منه تعالى منازل الأنبياء أو ما لا يجوز أن يعمل به في الدُّنيا لإختلاله بالنِّظام وأمثال ذلك ممَّا هو خارج عن حدِّ الإعتدال فأنَّ الإعتداء وهو تجاوز حدَّ الحقِّ مذموم عند الله على كلِّ حالٍ.

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

نهى الله تعالى عباده عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، والفساد فيها يحصل بالإضرار بما تمنع الحكمة منه كما أنَّ الإصلاح النَّفع بما تدعو الحكمة إليه وقيل إفساد الأرض بالقتل للمؤمنين والإعتداء عليهم، والعمل فيها بمعاصي الله كما أنَّ إصلاحها العمل فيها بطاعة الله.

قال بعض المفسِّرين من العامة هذا نهْي عن إيقاع الفساد في الأرض إدخال ماهيَّته في الوجود فيتعلَّق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض كإفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان ومعنى بعد إصلاحها بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين. وما روي عن المفسِّرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل إذ إدعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه كالظلم بعد العدل أو الكفر بعد الإيمان أو المعصية بعد الطَّاعة فيمسك الله المطر ويهلك

الحرث بعد إصلاحها بالمطر والخصب أو يقتل المؤمن بعد بقاءه أو بتكذيب الرُّسل بعد الوحي أو بتغيير الماء المعين وقطع الشجر والثمر ضراراً وهكذا. وقال الرّازي معناه ولا تفسدوا شيئاً في الأرض فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء وبإفساد الأموال بالغصب والسَّرقة ووجوه الحيل و إفساد الأديان بالكفر والبدعة وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزَّناء واللواطه و بسبب القذف وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات لأنّ المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول.

ف قوله: **وَلَا تُفْسِدُوا** منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود والمنع من إدخال ماهية الإفساد في الوجوه يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة ثم قال.

وأما قوله: **بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقها على الوجه المطابق لمنافع الخلق الموافق لمصالح المكلفين ويحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الرُّسل وإنزال الكتب كأنه قال تعالى، **لَمَّا أَصْلَحْتَ** مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها ولا تقدموا على تكذيب الرُّسل وإنكار الكتب و التمرّد عن قبول الشرائع فإنّ ذلك يقتضي وقوع الاختلال في الأرض فيحصل الإفساد بعد الإصلاح وذلك مستكره في بداة العقول انتهى كلامه.

وقال الطبري معناه لا تشركوا بالله في الأرض ولا تعصوه فيها وذلك هو الفساد فيها ثم قال بعد إصلاحها يقول بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته بابتعائه فيهم الرُّسل دعاة إلى الحق وإيضاحه حججه لهم انتهى.

وقال الطبرسي رحمه الله معناه النهي عن قتل المؤمنين وإضلّالهم والعمل بالمعاصي في الأرض بعد أن أصلحها الله بالكتب والرُّسل عن السُّدي والحسن والضحاك والكليبي وقيل بعد أن أمر بالإصلاح فيها. قال الحسن وإصلاحها إتباع أوامر الله تعالى إلى آخر ما قال.

أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا إشكال فيه اذ الفساد يصدق عليه قطعاً في الواقع ونفس الأمر وذلك لأن الفساد عبارة عن خروج الشئ عن حد الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ويزاده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس و البدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة فكل من أخرج شيئاً عن حد اعتداله و استقامته فهو مفسد فقوله تعالى: **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** معناه لا تخرجوا الأشياء أي شيء كان عن حد اعتداله الذي جعله الله فيه فإن الله تعالى جعل لكل شيء قدراً و وضعه في موضعه الذي يليق به وإلى هذا المعنى أشير بقوله بعد إصلاحها فإن إصلاح الأرض عبارة عن نظامها.

قال بعض مفسري العامة سأل أبو بكر بن عياش عن قوله تعالى: **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** فقال أن الله تعالى بعث محمداً إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد فمن دعى إلى خلاف ما جاء به محمد فهو من المفسدين في الأرض.

ثم قال و الإفساد بعد الإصلاح أظهر قبحاً من الإفساد على الإفساد فإن وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذ هو لم يحفظه و يجري على سننه فكيف إذ هو أفسد وأخرجه عن موضعه ولذلك خصه بالذكر وإلا فالإفساد مذموم و منهي عنه في كل حال فحجة الله على الخلوفاً و الخلائف من المسلمين المفسدين لما كان من إصلاح السلف الصالحين أظهر من حجته على الكافرين الذين هم أحسن حالاً من سلفهم الغابرين انتهى كلامه.

و أنا أقول أن كان الأمر كذلك فأول من دعى إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ هو أصحاب السقيفة حيث أنكروا الولاية و ما جاء به النبي في غدير خم بقوله من كنت مولاه فهذا علي مولاه الخ.

و أبو بكر حيث قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث و هو مخالف لصريح كتاب الله و عمر حيث قال بحرمة المتعة على خلاف قول رسول الله ﷺ و هكذا وهكذا وللبحث فيه مقام آخر.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا** فهو أمرٌ منه تعالى لهم أن يدعوه خائفين من عقابه طامعين في ثوابه والخوف يكون بالعصيان والأمن بالإيمان والطمع توقع المحبوب ونقيضه اليأس وهو القطع بإنتفاء المحبوب **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** الرَّحْمَةُ بفتح الراء رِقَّةٌ تقتضي الإحسان الى الموحوم وقد تستعمل في الرِقَّة المجردة وتارةً في الإحسان المجرد عن الرِقَّة فإذا وصف به البارئ فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرِقَّة وعلى هذا روي أَنَّ الرَّحْمَةَ من الله أنعام وأفضال ومن الأدميين رِقَّةٌ وتعطفٌ وحيث أَنَّ الرَّحْمَةَ منطوية على معنيين، الرِقَّة والإحسان ركز تعالى في طبائع الناس الرِقَّة وتفرّد بالإحسان إذا عرفت هذا فمعنى الآية أَنَّ إحسان الله قريبٌ من المحسنين وذلك لأنَّ جزاء الإحسان ليس إلا الإحسان.

قال الله تعالى: **هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**^(١).

قال الله تعالى: **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لِنُفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**^(٢).

قال الله تعالى: **وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**^(٣).

وفي المقام بحثان:

الأول: أن الرَّحْمَةَ مؤنثة فقياسها أن يُخبر عنها أخبار المؤنث فيقال قريبة، وقد أجيبت عنه.

أما أولاً: بأنَّ الرَّحْمَةَ بمعنى الإحسان.

ثانياً: بأنَّها مصدر وحقَّ المصدر التذكير كقوله تعالى: (فمن جاءه موعظة).

ثالثاً: بأنَّ الرَّحْمَةَ والرحم واحد وهى بمعنى العفو والغفران.

رابعاً: بأنَّ ما لا يكون تأنيثه حقيقةً جاز تذكيره.

خامساً: بأنَّ الرَّحْمَةَ هنا المطر قاله الأخفش.

الثاني: لم قال تعالى قريب من المحسنين ولم يقل واصل اليهم مثلاً و نحن بعد الفحص في التفاسير لم نجد شيئاً في هذا المعنى والذي يختلج بالبال في التعبير بالقرب هو أن المحسن إذا كان إحسانه على سبيل الإخلاص له تعالى فهو يحسن اليه وأن كان بغير ذلك فلا و عليه فالمحسن أقرب الى إحسان الله من حيث أنه أتى بالفعل و أما غير المحسن فهو أبعد من إحسانه لأنه لم يأت به ونظير ذلك:

قال الله تعالى: **اعْبُدُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ^(١).

قال الله تعالى: **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ^(٢).

والله تعالى أعلم بكلامه اللهم إلا أن يقال أن الرحمة أنما تحصل بعد الموت وحيث أن الدنيا تزداد بعداً في كل ساعة وأن الآخرة تزداد قرباً في كل ساعة فصَحَّ أن يقال أن رحمة الله قريب من المحسنين فتعالى الله.



وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ
مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ
الَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي
رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ
رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
(٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ
أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
عَمِينَ (٦٤)

◀ اللغة

الرِّيحُ بفتح الراء جمع ریح وهو على ما قيل الهواء المتحرك، وأما الرِّيحُ
بكسر الراء فقد إختص بالتنن.

بُشْرًا بضمّ الباء و سكون الشّين و يقرأ بفتح الباء و سكون الشّين مصدر بشرته إذا بشرته و يقرأ بالتّون و الشّين مضمومتين و هو جمع و فى واحده وجهان.

أحدهما: تُشور مثل صبور و صبر و على هذا يجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل أي ينشر الأرض، و يجوز أن يكون بمعنى مفعول كركوب بمعنى مركوب أي منشورة بعد الطّي و يجوز أن يكون جمع ناشر مثل نازل و نزل. أَقَلْتُ، الإقلال حَمَلَ الشّيء بأسره حتّى يقل فى طاقة الحامل بقوّة جسمه يقال استقل بحمله إستقلالاً.

سَحَابًا السّحاب الغيم الجاري فى السّماء مشتقاً من الأسحاب يقال سحبه سحباً و أسحبه.

ثِقَالًا، الثّقال جمع ثقل.

سُقْنَاهُ، السّوق حثّ الشّيء فى السّير حتّى يقع الإسراع فيه يقال ساقه يسوقه سوقاً.

نَكِدًا، النّكد العسر بشدّة الممتنع من إعطاء الخير على وجه البخل. نَصَرَفُ التّصريف التّغيير.

أَلْمَلَأَ الجمع.

فى ضلّالٍ، الضّلالة ضدّ الهداية و باقى اللّغات لا خفاء فيه.

◀ الإعراب

يَخْرُجُ بُنَاتُهُ يقرأ الفعل بفتح الياء على صيغة المعلوم و عليه فالنّبات فاعله و يقرأ بضمّ الياء على صيغة المجهول، و يقرأ بضمّ الياء و كسر الرّاء من باب الأفعال و نصب النّبات على المفعوليّة و الأشهر هو القول الأوّل المصاحف بِإِذْنِ رَبِّهِ متعلّق بيخرج إلّا نَكِدًا بفتح النّون و كسر الكاف و هو الحال و يُقرأ بفتحها على أنّه مصدر أي ذا نكد و يقرأ الفعل بضمّ الياء و كسر الرّاء و نكدًا

مفعوله مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ قِيلَ، مَنْ، زائدة، وإله، مبتدأ ولكم، الخبر الخبر محذوف وغيره، بالرفع فيه وجهان:

أحدهما: هو صفة لإله، على الموضع.

الثاني: هو بدل من الموضع مثل لا إله إلا الله.

مِنْ قَوْمِهِ حال من الملاء وَلَنُرِيَنَّكَ من رؤية العين فيكون في ضلالي حالاً و يجوز أن يكون من رؤية القلب فيكون مفعولاً ثانياً أَبْلَغَكُمْ يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون صفة لرسول على المعنى لأنَّ الرسول هو الضمير في، لكني، ويجوز أن يكون حالاً وَوَاعَلَمُ مِنْ اللَّهِ بمعنى أعرف فيتعدي الى مفعول واحد وهو ما، وهي بمعنى، الذي أو نكرة موصوفة مِنْ رَبِّكُمْ صفة لذكر على رَجُلٍ يجوز أن يكون حالاً أي نازلاً على رجلٍ وأن يكون متعلقاً بجاءكم على المعنى لأنه في معنى نزل اليكم وفي الكلام حذف مضاف أي على قلب رجل أو لسان رجل في أَلْفَلْكَ حال من، من، أو من الضمير المرفوع في، معه عَمِينَ والأصل فيه عميين فسكنت الأولى وحذفت.

التفسير

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا مَضَى أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالتَّجُومَ مَسَخَرَاتٍ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

أي أَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا هُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ.

قِيلَ الْإِرْسَالُ هُوَ الْإِطْلَاقُ بِتَحْمِيلٍ مَعْنَى كَمَا تَقُولُ أُرْسَلْتُ فَلَتَأَيَّ حَمَلَتِهِ رِسَالَةً، وَالرِّيَّاحُ بَفَتْحِ الرَّاءِ جَمْعُ رِيحٍ وَهُوَ مَعْرُوفٌ مَشْهُودٌ، بِشَرَى أَيِّ ذَاتِ

بشارة أو نشرى، أي ينشر الأرض أو نشرى، بفتح التَّوْن وهو مصدر، نشر بعد الطِّي أو من قولك، أنشر الله الميت فنشر أي عاش ونصبه على الحال على جميع التقادير بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ معناه قَدَّامَ رحمته كما يقدم الشئ بين يدي الإنسان كما قال تعالى: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ^(١) أي تولَّيت خلقه كما يقول الإنسان عملت بيدي، والرَّحمة يراد بها الغيث و عليه فمعنى الكلام هو الذي يرسل الرِّيح ذات بشارة بين يدي رحمته وفيه إشارة إلى أنَّ الرِّيح من أعظم النِّعم هو كذلك.

وتوضيحه هو أنَّه تعالى لَمَّا ذكر الدَّلَّائل على كمال الاهيَّة وقدرته وعلمه من العالم العلوي أتبعها بالدَّلَّائل من العالم السفلي وهي محصورة في أثار العالم العلوي ومنها الرِّيح والسَّحاب والمطر وفي المعدن والنبات والحيوان و يترتَّب على نزول المطر أحوال النَّبات وذلك هو المذكور في الآية المعلوم أنَّ بقاء الحيوان والإنسان بالنَّبات وهي من بركات الأمطار وهي من بركات السَّحاب وانتشار السَّحاب لا يكون إلَّا بسبب الرِّيح فثبت أنَّ الرِّيح من أعظم النِّعم وهو المطلوب.

وإعلم أنَّنا قد ذكرنا قولهم أنَّ الرِّيح هو الهواء المتحرَّك وهذا المعنى ممَّا إنْفَقوا عليه فنقول كلَّ متحرِّك لا يكون تحرُّكه لذاته ولا للوازم ذاته وإلَّا لدامت الحركة بدوام ذاته فلا بدَّ له من محرِّك غير ذاته ثمَّ أنَّ هذا المحرِّك الفاعل لا بدَّ من أن يكون فاعلاً مختاراً إذ في الفاعل الإضرطاري يعود المحذور الفاعل المختار هو الله تعالى فوجود الرِّيح ونشرها على النِّظام الأحسن يدُل على وجود خالقها ومحرِّكها وهو المطلوب وأمَّا ما قالت الفلاسفة في سبب الرِّيح فلا يعتمد عليه.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

فعن الاحتجاج قال الصادق عليه السلام للزنديق الذي سأله مسائل الرياح، لو حبست أياماً لفسدت الأشياء جميعاً وتغيرت وسأله عن جوهر الرياح فقال عليه السلام الرياح هواء إذا تحرك سُمي ريحاً فإذا سكن سُمي هواء وبه قوام الدنيا و او كفت الرياح ثلاثة أيام لفسد كل شيء على وجه الأرض وتنت وذلك أن الرياح بمنزلة المروحة تذبّ وتدفع الفساد عن كل شيء وتطيبه فهي بمنزلة الروح إذا خرج عن البدن تنت البدن وتغير تبارك الله أحسن الخالقين إنتهى.

وفي الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام أن لله عز وجل رياح رحمة ورياح عذاب فأن شاء الله أن يجعل الرياح من العذاب رحمة فعل قال عليه السلام ولن يجعل الله.

الرحمة من الرياح عذاباً وذلك أنه لم يرحم قوماً قط أطاعوه وكانت طاعتهم إياه وبالاً عليهم إلا من بعد تحولهم عن طاعته قال وكذلك فعل بقوم يونس لما آمنوا رحمهم الله الحديث ^(١)

أقول يظهر من هذا الحديث وأمثاله أن الرياح على أقسام وسيأتي البحث فيها حتى إذا أقلت سحباً ثقلاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء لما ذكر في صدر الآية أنه: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَكَأَنَّهُ قِيلَ ولم أرسلها، فقال تعالى: حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ أَلْحَ أَي أرسلها الإقلال السحاب الثقال أي حملها وانتقالها من موضع الى موضع ومكان الى مكان وفائدة هذا الإقلال هي سوقها الى بلد ميت الذي أندست مشاريبه وتعت مزارعه والهاء في، به، راجع الى السحاب أي فأنزلنا بسبب السحاب ماء ويظهر من هذا الكلام أن سبب الماء هو السحاب وهو كذلك فإن الله تعالى أبى أن يجزي الأمور إلا بأسبابها فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ أي فأخرجنا بسبب الماء الماطر على الأرض

أقسام الثمرات وأنواعها كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي كما أخرجنا الثمرات كذلك نخرج الموتى بعد موتها نحيتها لعلكم تذكرون أي لكي تذكرون بأن تتذكروا وتفكروا وتعتبروا فأَنْ من قدر على إنشاء الأشجار والثمار في البلد الذي لا ماء فيه ولا زرع فإنه يقدر على إحياء الموتى بأن يعيدها على ما كانت عليه بأن يخلق فيها الحياة والقدرة.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ البلد الطَّيِّب ما فيه أسباب التلذذ وضده الخبيث وهو ما فيه أسباب النكرة، والبلد هو الأرض التي تجمع الخلق الكثير والمقصود أَنَّ الأرض تنقسم بحسب ذاتها الى قسمين:

قسمٌ منها طيبٌ وقسمٌ آخر خبيث فالطيب منها يخرج نباته بإذن ربه و الخبيث لا يخرج إلا نكداً وهذا أمرٌ مشهود ومحسوس بالنسبة الى الأرض فإننا نرى بعض الأرض لا ينبت شيئاً وبعضها ينبت القليل الذي لا ينتفع به هو المسمى بالنكد وبعضها ينبت أنواع الأشجار والثمار والرياحين قال بعضهم أَنَّ في هذه الآية قولان:

أحدهما: وهو المشهور أَنَّ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر بالأرض الخيرة والأرض السنخة وشبه نزول القرآن بنزول المطر فشبه المؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار والثمار الأرض السنخة فهي وأنزل المطر عليها لم يحصل فيها من نبات إلا النزر القليل فكذلك الروح النقية الطاهرة عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع من الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة والروح الخبيثة الكدرة وأن اتصل به نور القرآن لم يظهر فيه من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل.

القول الثاني: أنه ليس المراد من الآية تمثيل المؤمن والكافر وإنما المراد أن الأرض السَّخنة يَقلُّ نفعها وثمرها ومع ذلك فإنَّ صاحبها لا يهمل أمرها بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعا منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة فمن طلب هذا النَّفع اليسير بالمشقة العظيمة فلائذ يطلب النَّفع العظيم الموعود به في الدَّار الآخرة بالمشقة التي لا بدَّ من تحملها في إداء الطَّاعات كان ذلك أولى إنتهى.

أقول قد ثبت في محلِّه أن لكلِّ آية من آيات القرآن تنزيلاً وتأويلاً ففي المقام يكون نزول الآية في الأرض وبيان أن لها خاصيتين. خبيثة و غير خبيثة وأما تأويلها فهو يشمل الإنسان و ذلك لأنَّ الإنسان خلق منها، لقوله تعالى: **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ** و اذا كانت مادَّة خلقه الإنسان الأرض و التراب فما ثبت فيها ثبت في الإنسان قهراً و هذا أمرٌ معقول لا يحتاج الى تجسُّم الإستدلال و هو واضح.

قال الرَّاзи في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

المسئلة الثانية: هذه الآية دالَّة على أن السَّيد لا ينقلب شيئاً وبالعكس و ذلك لأنَّها دلَّت على أن الأرواح قسمان:

منها، ما تكون في أصل جوهرها طاهرة نقيَّة مستعدَّة لأن تعرف الحقَّ لذاته و الخير لأجل العمل به و منها تكون في أصل جوهرها غليظة كدرة بطيئة القبول للمعارف الحقيقيَّة و الأخلاق الفاضلة كما أن الأراضي منها ما تكون سَبَّخة فاسدة و ساق الكلام الى أن قال و ممَّا يقوى هذا الكلام إنَّا نرى النَّفوس مختلفة في هذه الصِّفات فبعضها مجبولة على حبِّ عالم الصِّفاء و الألهيات منصرفة عن اللذات الجسَّمانية كما قال تعالى: **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** (١).

ومنها، قاسية شديدة القسوة والنقرة عن قبول هذه المعاني كما قال: **فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**^(١).

ومنها، ما تكون شديد الميل إلى قضاء الشهوة متباعدة عن أحوال الغضب. ومنها، ما تكون شديد الميل إلى إمضاء الغضب وتكون متباعدة عن أعمال الشهوة بل نقول من النفوس ما تكون عظيمة الرغبة في المال دون الجاه. ومنها، ما يكون بالعكس إلى أن قال وإذا تأملت في هذا النوع من الاعتبار تيقنت أن أحوال النفوس مختلفة في هذه الأحوال إختلافاً جوهرياً ذاتياً لا يمكن إزالته ولا تبديله وإذا كان كذلك إمتنع من النفس الغليظة الجاهلة المائلة بالطبع إلى أفعال الفجور أن تصير نفساً مشرقة بالمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة ولما ثبت هذا كان تكليف هذا النفس بتلك المعارف اليقينة والأخلاق الفاضلة جازياً مجرى تكليف ما لا يطاق فثبت بهذا البيان أن السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه وأن النفس الطاهرة يخرج نباتها من المعارف اليقينة والأخلاق الفاضلة بإذن ربها والنفس الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكداً قليل العائدة والخير كثير الفضول والشر انتهى كلامه.

ونحن نقول قياس النفوس بالأرض قياس مع الفارق وذلك لأن التكليف لا يتعلق بالأرض ويتعلق بالنفس فلو كان بعض النفوس بمقتضى خلقته وجبلته غير قابل للإهداء ولا يمكن إزالته ولا تبديله فكيف يكون متعلقاً للتكليف ثم كيف يعاقب أو يثاب وقد قال الله تعالى: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**^(٢) مضافاً إلى حكم العقل بقبحه ليس فيه بطلان الثواب والعقاب وتعطيل الأحكام والشرائع الإلهية، هذا كله مضافاً إلى أن القول بأن النفوس سعيدة و شقية بحسب الخلقة وأصل الإيجاد لا معنى له والحديث مطعون فيه سنداً و مطرودٌ عقلاً ولا يقول بهذه المقالة إلا المعتقد بالجبر الذي دل على بطلانه العقل والنقل وللبحث فيه مقام آخر.

كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ أَيْ يَشْكُرُونَ عَلَى تِلْكَ النُّعْمِ
الجليلة و المواهب العظيمة الَّتِي يَعجز الإنسان عن شكرها لكثرتها وكثرة
منافعها الَّتِي لَا يَعلمها إِلَّا خالقها و الإقرار بالعجز عن الشُّكر كمال الشُّكر و
الحمد لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

إِعلم أَنَّهُ تعالى لَمَّا بَيَّنَّ فيما مضى مَا دَلَّ عَلَى وجود الصَّانِع و علمه و قدرته
و حكمته و قرَّرَ الدَّلَائِلَ الظَّاهِرَةَ و البَيِّنَاتِ القَاهِرَةَ و البراهين الباهرة في تقرير
المبدأ و المعاد إتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السَّلام بعد ذكر قصَّة آدم في
أوائل سورة البقرة و بدأ بقصَّة نوح عليه السلام لِأَنَّهُ أَوَّلُ المرسلين من أولي العظم
الَّذِينَ عَلَيْهِم مدار النبوة و الرِّسالة فقال: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا الْخ و يقع البحث
في مسائل.

الأولى: أَنَّهُ إِسم منصرف مع العجمة و التَّعريف لسكون وسطه كلوط
سَمِّيَ نُوحًا لِأَنَّهُ كَانَ يَنوح عَلَى نَفْسِهِ خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ وَ نَحِيَ نَفْسَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ
قَوْمُهُ مِنَ الضَّلَالَةِ قِيلَ وَ هُوَ أَوَّلُ نَبِيٍّ بَعْدَ إِدْرِيسَ وَ كَانَ نَجَارًا وَ رَأَيْتُ فِي بَعْضِ
التَّوَارِيخِ أَنَّ إِسْمَهُ كَانَ عَبْدَ الْغَفَّارِ وَ سَمِّيَ نُوحًا لَمَّا مَرَّ ذَكَرُهُ وَ وَلِدَ فِي الْعَامِ
الَّذِي مَاتَ فِيهِ آدَمُ وَ بَعِثَ فِي الْأَلْفِ الثَّانِيَةِ وَ هُوَ ابْنُ أَرْبَعِ مِائَةٍ وَ قِيلَ بَعَثَ وَ هُوَ
إِبْنُ خَمْسِينَ سَنَةً وَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام عَاشَ نُوحٌ أَلْفِي سَنَةً وَ
خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا ثَمَانِ مِائَةٍ وَ خَمْسُونَ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ وَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسِينَ عَامًا فِي قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ وَ سَبْعَ مِائَةٍ بَعْدَ نَزْوِلِهِ مِنَ السَّفِينَةِ وَ نَضَبَ
الْمَاءِ وَ مَصَرَ الْأَمْصَارَ وَ أَسْكَنَ وَلَدَهُ فِي الْبِلَادِ، وَ أَمَّا نَسَبُهُ، فَهُوَ إِبْنُ لَامِكِ بْنِ
مَتَوْشَخِ بْنِ أَخْنُوخَ وَ هُوَ إِدْرِيسُ النَّبِيُّ بْنُ مَهْلَاثِيلَ بْنِ بَرْدِ بْنِ قَيْنَانَ بْنِ أَنْوَشِ بْنِ
شِيثَ بْنِ آدَمَ عليه السلام.

المسألة الثانية: أن الله تعالى أشار الى قصة نوح في مواضع كثيرة منها سورة يونس، منها سورة هود، منها سورة الأنبياء، منها سورة المؤمنين، منها سورة الشعراء، منها العنكبوت، منها الصافات، منها القمر، منها التحريم، منها الحاقة ومنها نوح و سنتكلم فيها إن شاء الله تعالى في مواضعها.

المسألة الثالثة: قرأ الكسائي، غيره بكسر الراء على أنه نعت للإله على اللفظ والباقون بالرفع على أنه صفة له على الموضع لأن التقدير ما لكم إله غيره وقال صاحب الكشاف قرأ غير بالحركات الثلاث وقال أما النصب فعلى الاستثناء وأما الرفع والجركما تقدم.

المسألة الرابعة: نقل الرازي في المقام عن الواحدي أنه قال في الكلام حذف وهو خبر، ما، لأنك إذا جعلت، غيره، صفة لقوله، إله، لم يبق لهذا المنفي خبر والكلام لا يستقل بالصفة والموصوف لأنك إذا قلت زيد العاقل و سكت لم يفد ما لم تذكر خبره ويكون التقدير ما لكم من إله غيره في الوجود انتهى كلام الواحدي.

وقال الرازي في الجواب إتفق النحويون على أن قولنا لا إله إلا الله لا بد فيه من إضمار والتقدير لا إله في الوجود، أو لا إله لنا إلا الله ولم يذكروا على هذا الكلام حجة فإنا نقول لم لا يجوز أن يقال دخل حرف النفي على هذه الحقيقة وعلى هذه الماهية فيكون المعنى أنه لا تحقق لحقيقة الإلهية إلا في حق الله و إذا حملنا الكلام على هذا المعنى إستغنينا عن الإضمار الذي ذكره فأن قالوا صرف الى الماهية لا يمكن لأن الحقائق لا يمكن نفيها فلا يمكن أن يقال لا سواد بمعنى إرتفاع هذه الماهية وأما الممكن أن يقال أن تلك الحقائق غير موجودة ولا حاصلة.

و يجب إضمار الخبر فنقول هذا الكلام بناءً على أن الماهية لا يمكن إنتفاؤها وإرتفاعها وذلك باطل قطعاً إذ لو كان الأمر كذلك لوجب إرتفاع رفع

الوجود لأنَّ الوجود أيضاً حقيقة من الحقائق و ماهية فلم لا يمكن إرتفاع سائر الماهيات فأن قالوا إذا قلنا لا رجل و عنيانا به رفع كونه موجوداً فهذا التفي لم ينصرف الى ماهية الوجود و أنما إنصرف الى كون ماهية الرجل موصوفة بالوجود فنقول تلك الموصوفية يستحيل أن تكون أمراً زائداً على الماهية و على الوجود إذ لو كانت الموصوفية ماهية والوجود ماهية أخرى لكانت الماهية موصوفة أيضاً بالوجود و الكلام فيه كما قبله فيلزم التسلسل و يلزم أن لا يكون الموجود الواحد موجوداً واحداً بل موجودات غير متناهية و هو محال ثم نقول موصوفية الماهية بالوجود.

أما أن يكون أمراً مغايراً للماهية والوجود.

و أما أن لا يكون كذلك فأن لم يكن أمراً مغايراً لها.

يكون لذلك المغاير ماهية و وجود و ماهية لا تقبل الإرتفاع.

و يعود السؤال المذكور فنبت بما ذكرنا أنَّ الماهية أن لم تقبل التفي و الرفع إمتنع صرف حرف التفي الى شيء من المفهومات فأن كانت الماهية قابلة للتفي و الرفع فخيئذ.

يمكن صرف كلمة، لا، في قولنا لا إله إلا الله الى هذه الحقيقة و حينئذ لا يحتاج الى إلتزام الحذف و الإضمار الذي يذكره النحويون فهذا كلام عقلي صرف وقع في هذا البحث الذي ذكره النحويون انتهى كلام الرازي بألفاظه و عباراته. و أنما نقلنا كلامه بطوله مع أنه لا فائدة فيه لتعلم أنَّ الرجل دأبه التشكيك في الحقائق ولأجل ذلك سمى بإمام المشككين و إلا فأَي نفع فيما ذكره في المقام ثم كيف تعلّق التفي بالماهية مع قطع النظر عن الوجود و هي إعتبارية محضة لا حكم لها إلا بإعتبار وجودها فالمتفي فيها مع قطع النظر عن وجودها لا معنى له فأنها من حيث هي ليست إلا هي لا موجودة و لا معدومة و ما لا يكون موجودة و لا معدومة فكيف يحكم عليه بالتفي أو الإثبات و محصل

الكلام هو أن الماهية قبل إتصافها بالوجود لا حكم لها نفيًا وإثباتًا وبعده يحكم عليها باعتبار وجودها لا من حيث هي وعلى هذا، فصرف كلمة، لا، في قولنا **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** إلى الحقيقة أو الماهية كما إدّعاها الرّازي مع قطع النظر عن وجودها كلام لا طائل تحته والمفروض أنه لا حكم لها، فنحتاج إلى إلتزام الحذف والإضمار وهو المطلوب، هذا كلّ مضافاً إلى أنه تعالى صرف الوجود ولا ماهية له إلاّ إنّيته أعني بها الماهية بالمعنى الأعمّ التي يعبر عنها بالذّات فلو فرضنا إنفكاك الماهية عن الوجود في الواجب تعالى وقلنا بتعلّق النفي بالماهية دون الوجود لزم التّركيب في ذاته وهو كما ترى فالحقّ في المقام هو الإضمار وهو المطلوب.

المسألة الخامسة: أن قوله: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ** يفيد إثبات التّكليف للنبى في كلّ عصرٍ وزمانٍ وذلك لأنّ الرّسول يقال تارة للقول المحتّم كقول الشّاعر:

ألا أببلغ أبا حفصٍ رسولاً وتارة لمّتحمل القول والرّسالة
وأما قوله: **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** فهو يدلّ على التّوحيد وفيه إشعار بأنّ الرّسول أو النّبي مأمورٌ من عند الله بذلك وهو الأصل في جميع التّكليف لأنّ أوّل الدين معرفته وكمال معرفته التّصديق به وكمال التّصديق به توحيده الخ.
فالتّوحيد أصل الشّجرة والنّبوة والأمانة فرعها وهذا واضح لا خلاف فيه.

المسألة السادسة: قوله: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** المراد به يوم القيامة والمقصود أنّ العذاب مترتّب على ترك العبادة في دار الدّنيا بعد تمامية الحجّة وحيث كان كذلك فقوله: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ** معناه إنّيئن أو أقطع بالخوف ليس على وجه الشك بل على وجه اليقين لأنّ الخوف قد يكون مع اليقين كما يكون مع الشك ألا ترى أنّ الإنسان يخاف من الموت ولا يشكّ في كونه.

قَالَ أَلَمَلًا مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَتَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

إختلفوا في المراد بالملاء فقال قوم أنهم الجماعة من الرجال سموا بذلك لأنهم يملأون المحافل.

وقيل أنهم الأشراف والسادة وقيل أنهم الرؤساء لأنهم يملأون الصدر بعظم شأنهم ومنه قوله تعالى: (أولئك الملاء من قريش) وعليه فالمعنى قال جمع من أشراف قومه أنا لنراك في ضلال مبين.

وإختلفوا في معنى الرؤية على أقوال:

أحدها: أنه من رؤية القلب الذي هو العلم.

ثانيها: أنه من رؤية العين فكأنهم قالوا نراك بأبصارنا على هذه الحال.

ثالثها: أنه من الرأي الذي هو غالب الظن فكأنه قال أنا لنظنك في ضلال مبين أي خطأ ظاهر وقيل أنهم أرادوا بالضلال هاهنا العدول عن الصواب إلى الخطأ فيما زعموا مخالفتهم أي أنه فيما دعاهم إليه من إخلاص العبادة.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

أي قال نوح في جوابهم ليس بي ضلالة كما تزعمون وذلك لأن الضلالة هي العدول عن الحق إلى الباطل وأنا أدعوكم من الباطل إلى الحق وهذا ضد الضلالة وضد الضلالة لا يكون إلا حقاً ويستفاد هذا المعنى من قوله: وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وذلك لأن الرسول من جانب الحق لا يقول إلا حقاً لأنه يؤدي عن الله تعالى كما هو معنى الرسالة وصورة القياس هكذا أنا رسول من الله تعالى إليكم، وكل رسول لا يقول إلا حقاً فإنا لا أقول إلا حقاً المطلوب.

وأن شئت قلت معنى، من، هاهنا لإبتداء الغاية ومعناه أن الله هو الذي إبتدأ بالرسالة وكل مبتدئ بفعل فذلك الفعل منه.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

في هذا الكلام توضيح لما مضى والمعنى أَنِّي أَبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوءَةِ وَالْمَعَادِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ مَا أَقُولُ، مِنْ عِنْدِ نَفْسِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ فَأَنَّ فِيهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

قال الزَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ النَّصْحُ تَحْزِي فَعِلٍ أَوْ قَوْلٍ فِيهِ صِلَاحٌ صَاحِبُهُ هُوَ مَنْ قَوْلِهِمْ نَصَحْتُ لَهُ الْوَدَّ أَيَّ أَخْلَصْتُهُ وَنَاصِحُ الْعَسَلِ خَالِصُهُ انْتَهَى.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَنْصَحَ لِأُمَّتِهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ لِأَنَّهُ يَأْتِي لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا فِيهِ صِلَاحُ الْأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحَيْثُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِذَلِكَ أَنْكَرُوا رِسَالَتَهُ وَنُبُوتَهُ وَهَذَا كَالْمَرِيضِ الْجَاهِلِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى طَبِيبِهِ.

وَقِيلَ النَّصِيحَةُ إِخْلَاصُ النِّيَّةِ مِنْ شَائِبِ الْفُسَادِ فِي الْمَعَامَلَةِ وَهُوَ أَيْضاً يَرْجِعُ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَأَيُّ شَخْصٍ أَخْلَصَ نِيَّةً مِنَ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ الْمُؤَيَّدِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: أَوْعَجِبْتُمْ، لِلْعُطْفِ دَخَلَ عَلَيْهَا أَلْفُ الْإِسْتِفْهَامِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَقْرِيعٌ مِنْ نُوحٍ لِقَوْلِهِ عَلَى صُورَةِ الْإِسْتِفْهَامِ بَأَنَّهُمْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ وَالْمَعْنَى أَوْ عَجِبْتُمْ يَا قَوْمُ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ، أَرَادَ بِهِ نَفْسَهُ، كَأَنَّهُمْ إِسْتَبَعَدُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ رَسُولٌ إِلَى خَلْقِهِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ إِعْتَقَدُوا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْإِرْسَالِ التَّكْلِيفُ لَا مَنْفَعَةٌ فِيهِ لِلْمَعْبُودِ لِكَوْنِهِ مُتَعَالِيًا عَنِ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ أَوْ أَنَّهُمْ جَوَّزُوا التَّكْلِيفَ إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا مَا عَلِمَ حُسْنُهُ بِالْعَقْلِ فَعَلْنَاهُ وَمَا عَلِمَ قُبْحُهُ تَرْكْنَاهُ، أَوْ أَنَّهُمْ إِعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الرَّسُولِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ أَوْلى مِنْهُ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ وَعَلَى فَرَضٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ فَلَيْمَ لَا يَكُونَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَشْرَافِ وَالْكُلِّ مُحْتَمَلٌ وَالْمَرَادُ بِالذِّكْرِ.

قيل هو حضور المعنى للنفس وهو على وجهين:

ذكر البيان و ذكر البرهان فذكر البيان إحضار المعنى للنفس و ذكر البرهان الشهادة بالمعنى في النفس وكلا الوجهين يحتمل في الآية هكذا قيل .

أقول الظاهر أنَّ المراد بالذكر في الآية هو التوحيد و النبوة و المعاد وأن شئت قلت هو شريعة نوح التي جاء بها من عند الله كما قال أبلغكم رسالات ربِّي فكأنه قال لا تعجبوا يا قوم أن جاءكم دين من ربكم لتهتدوا به على رجل منكم يعني على رجلٍ من جنس البشر أو من طائفتكم و قبيلتكم و ذلك لأن فيه مصلحة عظيمة و حيث أنَّ في المقام مظهره سؤالٍ و هو أنه ما الفائدة في هذا الإرسال فيقال له فوائد:

أحدها: الإنذار و التخويف من عذاب الله يوم القيامة والى هذا المعنى أشير بقوله: **لِيُنذِرَكُمْ**.

ثانيها: الإرشاد الى التقوى التي هي رأس كل فضيلة و اليه أشير بقوله: **وَلِتَتَّقُوا**.

ثالثها: شمول رحمة الله لهم في الدنيا و الآخرة كما قال: **وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** أي لكي ترحمون و فيه إشارة الى أنَّ رحمة الله لا تشمل مَنْ لا يخاف و من لا تناله التقوى أنَّ رحمة الله قريب من المحسنين، و المحسن هو الخائف المتقي لا غير و في الكلام دلالة على أنَّ الله أراد منهم الإيمان و التقوى خلافاً للمجبرة حيث قالوا بأنَّ الله لم يرد منهم الإيمان.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ

أي أنَّ قوم نوح لم يقبلوا منه النصح فتمردوا و عصوه فصارت عاقبة أمرهم الى الهلاك في الدنيا و العذاب في الآخرة تكون عاقبة المكذبين و أمَّا نوح و من كان معه و صدقه فأنجيناهم من العذاب و في هذه الآية أشار الله تعالى الى الطوفان و لنذكر كيفيته إجمالاً:

فنقول روي في البحار بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال، بقي نُوح في قومه ثلاث مائة سنة يدعوهم الى الله فلم يجيبوه فهم أن يدعوا عليهم فوافاه عند طلوع الشمس اثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السماء الدنيا وهم العظماء من الملائكة فقال لهم نوح من أنتم فقالوا نحن اثني عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السماء الدنيا وأَنْ مسيرة غلظ سماء الدنيا خمس مائة عام ومن سماء الدنيا الى الدنيا مسيرة خمس مائة عام وخرجنا عند طلوع الشمس ووافيناك في هذا الوقت ونسألك أن لا تدعو على قومك.

قال نوح أجلّتهم ثلاث مائة سنة فلما أتى عليهم ست مائة سنة ولم يؤمنوا هم أن يدعوا عليهم فوافاه اثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السماء الثانية فقال نوح من أنتم قالوا نحن اثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السماء الثانية وغلظ سماء الثانية مسيرة خمس مائة عام ومن سماء الثانية الى سماء الدنيا مسيرة خمس مائة عام وغلظ سماء الدنيا مسيرة خمس مائة عام ومن سماء الدنيا الى الدنيا مسيرة خمس مائة عام خرجنا عند طلوع الشمس ووافيناك ضحوه نسألك أن لا تدعو على قومك فقال نُوح قد أجلّتهم ثلاث مائة سنة فلما أتى عليهم تسع مائة سنة ولم يؤمنوا هم أن يدعوا عليهم فأنزل الله عزّ وجلّ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون فقال نُوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، أنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً، فأمره الله عزّ وجلّ أن يغرس النخل فأقبل يغرس النخل فكان قومه يَمْرُون به فيسخرّون منه ويستهزؤون به ويقولون شيخ قد أتى له تسع مائة يغرس النخل وكانوا يرمونه بالحجارة فلما أتى لذلك خمسون سنة وبلغ النخل وإستحكم أمر بقطعه فسخرّوا منه وقالوا بلغ النخل مبلغه قطعه أن هذا الشيخ قد خرف وبلغ منه الكبر وهو قوله تعالى وكلّمّا مرّ عليه ملاء من قومه سخرّوا منه قال إن تسخرّوا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرّون فسوف تعلمون فأمره الله أن يتخذ السفينة وأمر جبرئيل أن ينزل عليه ويعلمه

كيف يَتَّخِذُهَا فَقَدَّرَ طُولَهَا فِي الْأَرْضِ أَلْفَ وَمِائَتِي ذِرَاعَ وَ عَرْضُهَا ثَمَانِ مِائَةَ ذِرَاعَ وَ طُولَهَا فِي السَّمَاءِ ثَمَانُونَ ذِرَاعاً فَقَالَ يَارَبِّ مَنْ يَعْنِينِي عَلَى إِتْخَاذِهَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ نَادٍ فِي قَوْمِكَ مَنْ أَعَانَنِي عَلَيْهَا وَ نَجَرْتُ مِنْهَا شَيْئاً صَارَماً يَنْجِرُهُ ذَهَباً وَ فِضَّةً فَنَادَى نُوحٌ فِيهِمْ بِذَلِكَ فَأَعَانُوهُ عَلَيْهِ وَ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَ يَقُولُونَ يَتَّخِذُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ.

قال أبو عبد الله عليه السلام لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلَاكَ قَوْمِ نُوحٍ عَقَمَ أَرْحَامَ النِّسَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَلَمْ يَلِدْ فِيهِمْ مَوْلُودٌ فَلَمَّا فَرَّغَ نُوحٌ مِنْ إِتْخَاذِ السَّفِينَةِ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَنَادِيَ بِالسَّرْيَانِيَةِ لَا يَبْقَى بَهِيمَةً وَ لَا حَيَوَانٌ إِلَّا حُضِرَ فَأَدْخَلَ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ مِنْ أَجْناسِ الْحَيَوَانِ زَوْجَيْنِ فِي السَّفِينَةِ وَ كَانَ الَّذِينَ أَمْنُوا مَعَهُ مِنْ جَمِيعِ الدُّنْيَا ثَمَانِينَ رَجُلًا وَ كَانَ بَحْرُ السَّفِينَةِ فِي مَسْجِدِ الْكَوْفَةِ فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ هَلَاكَهُمْ كَانَتْ إِمْرَأَةُ نُوحٍ تَخْبِزُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَعْرِفُ بِفَارِ التَّنُورِ فِي مَسْجِدِ الْكَوْفَةِ وَ كَانَ نُوحٌ إِتَّخَذَ مِنْ كُلِّ ضَرْبٍ مِنْ أَجْناسِ الْحَيَوَانِ مَوْضِعاً فِي السَّفِينَةِ وَ جَمَعَ لَهُمْ فِيهَا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْغِذَاءِ وَ صَامَتِ إِمْرَأَتُهُ لَمَّا فَارَ التَّنُورَ فَوَضَعَ عَلَيْهَا طِيناً وَ خَتَمَهُ حَتَّى أَدْخَلَ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ السَّفِينَةَ ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّنُورِ فَقَصَّ الْخَاتَمَ وَ رَفَعَ الطِّينَ وَ انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ وَ جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ مِنْهُمِرٌ عَلَى أَمْرِ قَدَرٍ، وَ حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دَسَرَ

وَ سَأَلَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ فَدَارَتِ السَّفِينَةُ وَ ضَرَبَتْهَا الْأَمْوَاجُ حَتَّى وَافَتْ مَكَّةَ وَ طَافَتْ بِالْبَيْتِ وَ غَرِقَ جَمِيعُ الدُّنْيَا إِلَّا مَوْضِعَ الْبَيْتِ وَ أُنْمَا سَمِّيَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ لِأَنَّهُ أَعْتَقَ مِنَ الْغَرَقِ فَبَقِيَ الْمَاءُ يَنْضَبُ مِنَ السَّمَاءِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً الْأَرْضَ الْعَيُونَ حَتَّى إِرْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ فَسَحَتْ السَّمَاءُ فَرَفَعَ نُوحٌ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ يَارَحْمَنُ أَتَقْنُ، وَ تَفْسِيرُهَا رَبِّ أَحْسَنَ فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ تَبْلَعَ مَاءَهَا وَ هُوَ

قوله: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي^(١) أَي أَمْسِكِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى فَبَلَعَتْ الْأَرْضُ مَاءَهَا وَإِسْتَوَتْ السَّفِينَةُ عَلَى جَبَلِ الْجُودَى بِالْمَوْصِلِ جَبَلِ عَظِيمِ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ الْعَمِي الضَّلَالُ عَنْ طَرِيقِ الْهَدْيِ فَهُمْ كَالْعَمِيِّ فِي أَنَّهُمْ لَا يَبْصُرُونَ طَرِيقَ الرِّشْدِ فَهُمْ عَمِي عَنْ الْحَقِّ وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ فِي خِلَالِ الْآيَاتِ بِوَجْهِ أَبْسَطِ فَأَنَّ الْآيَاتِ الْوَارِدَةَ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَفِيهَا عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
 مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ أَلَمْأَلَأُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ
 إِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ
 بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ
 أَمِينٌ (٦٨) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
 خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ
 بَسْطَةً فَادْكُرُوا الْآلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)
 قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
 آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ
 غَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
 وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا
 إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ
 الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

◁ اللغة

أَلَمْأَلَأُ بفتح الميم جماعة من الناس وقيل أشرافهم وأعيانهم وقد مرّ الكلام

فيه.

سَفَاهَةً مصدر قولك سَفِهَ سَفْهًا وسَفَاهَةً وسَفَاهًا. قال الرَّاعِبُ السَّفْهَ خَفَّةٌ فِي الْبَدَنِ وَأَسْتَعْمَلَ فِي خَفَّةِ النَّفْسِ لِنَقْصَانِ الْعَقْلِ وَفِي الْأُمُورِ الدَّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ فَقِيلَ سَفِهَ نَفْسَهُ.

خُلَفَاءَ جَمْعُ خَلِيفَةٍ.

بَسْطَةً، الْبَسْطُ السَّعَةُ يُقَالُ بَسَطَ الشَّيْءَ بَسْطًا نَشَرَهُ.

رَجَسَ، الرَّجَسُ الشَّيْءُ الْقَذِرُ يُقَالُ رَجَسَ رَجْسًا وَرَجَالُ أَرْجَاسٍ.

دَابِرٌ قَالَ الرَّاعِبُ وَالذَّابِرُ يُقَالُ لِلْمَتَأَخِّرِ وَلِلتَّابِعِ إِمَّا بِإِعْتِبَارِ الْمَكَانِ أَوْ بِإِعْتِبَارِ الزَّمَانِ أَوْ بِإِعْتِبَارِ الْمَرْتَبَةِ.

◀ الإعراب

هُودًا بَدَلُ مَنْ، أَخَاهُمْ، مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَى عَادَ وَكَذَلِكَ أَوَائِلُ الْقِصَصِ الَّتِي بَعْدَهَا نَاصِحٌ أَمِينٌ هُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ فِي الْخَلْقِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ بَسْطَةٍ وَأَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِزَادِكُمْ الْآءُ جَمْعٌ وَاحِدُهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ:

إِلَى بُكْسَرِ الْهَمْزَةِ وَآلِفٍ وَاحِدٍ بَعْدَ اللَّامِ، وَبِفَتْحِ الْهَمْزَةِ كَذَلِكَ وَبِكُسْرِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ اللَّامِ وَيَاءٌ بَعْدَهَا وَخْذَةٌ هُوَ مَصْدَرٌ مَحْذُوفٌ الزَّوَائِدُ وَفِي مَوْضِعِهِ وَجْهَانٌ: أَحَدُهُمَا: هُوَ مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ اللَّهِ أَيْ لِنَعْبُدَ اللَّهَ مُفْرَدًا مُوَحَّدًا، وَثَانِي هُوَ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِينَ أَيْ مُوَحِّدِينَ لَهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ ظَرْفٌ أَيْ لِنَعْبُدَ اللَّهَ عَلَى حِيَالِهِ.

مِنْ رَبِّكُمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ رَجَسٍ وَأَنْ يَتَعَلَّقَ، بِوَقْعِ فِيْ أَسْمَاءِ أَيْ ذَوِي أَسْمَاءٍ أَوْ مَسْمِيَّاتٍ مَا تَرَكَّ اللَّهُ مَا نَافِيَةٌ.

◀ التفسير

إِعلم أَنَّ هَذَا هُوَ الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ وَهِيَ قِصَّةُ هُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ فَقَوْلُهُ: وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا الْوَائِلُ لِلْعُطْفِ أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ عَادِ أَخَاهُمْ وَالتَّقْدِيرُ لَقَدْ

أرسلنا نوحاً إلى قومه وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.
 قيل أُنِ التَّطاول بينهما لا يضرُّ لأنَّ تفصيل القصص يقتضي ذلك ثمَّ أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا
 على أَن هوداً ما كان أخاً لهم في النسب ولا في الدِّين بل كان واحداً من تلك القبيلة.
 وقيل معناه أَنَّهُ كان من بني آدم ومن جنسهم لا من جنس الملائكة القدر
 يكفي في تسمية هذه الأخوة وعليه فالمعنى أَنَّا بعثنا إلى عاد واحداً من
 جنسهم وهو البشر ليكون الفهم والأنس بكلامه أكمل وما بعثنا اليهم من غير
 جنسهم مثل ملك أو جَنِّي وأما نسب هود فقيل هو هود بن شالخ بن أرفخشذ
 بن سام بن نوح.
 وأما عاد فقللوا أَنَّهُمْ كانوا باليمن بالأحقاف، والأحقاف الرَّمْل الذي بين
 عَمَانَ إلى حضرموت.

قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
 أي قال هو لقومه أعبدوا الله الذي ليس إلّا هو أفلا تتقون منه وأما قال
 ذلك لأنَّ حقيقة العبادة لا يستحقّها غيره تعالى فإذا كان الإله في الوجود
 منحصراً به فلا محالة لا يعبد غيره.

وأما قوله: أَفَلَا تَتَّقُونَ فهو وأن كان بصورة الإستفهام إلّا أَن معناه، فهلاًَّ
 تَتَّقُونَ لأنَّ المراد حَضُّهُمْ على تقوى الله وإتقاء معاصيه لا الإستفهام واقعاً.

قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
 الْكَاذِبِينَ

قد مرَّ الكلام في معنى المَلَأَ في الآية السَّالِفَةِ^(١) أَنَّ المراد به الجماعة و
 قيل الأشراف والأعيان من النَّاس وكيف كان قالوا في جواب هود ما قالوا في
 جواب نوح والفرق أَن قوم نوح قالوا في جواب نوح أَنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.

وفي المقام قالوا أَنَّا لنراك في سفاهةٍ و المأل واحد و اللفظ مختلف لأنّ الضال يكون سفيهاً و بالعكس غالباً، و فرق آخر بين المقامين و هو أنّ الملاء من قوم نوح لم يكونوا متّصفين بالكفر و أمّا في قوم هود فكانوا متّصفين به، ألا ترى أنّه قال هناك قال الملاء من قومه و في المقام قال: قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مع أنّ ظاهر الأمر يقتضي كفر الجميع و أنّي بعد الفحص في كلمات المفسّرين لم أجد وجهاً لذلك و الذي يختلج بالبال هو أنّ قوم نوح كانوا كافرين لأنّهم لم يؤمنوا به أصلاً و أمّا قوم هود الذين قالوا ما قالوا، أمّنوا به ثمّ كفروا بعد إيمانهم و ذلك لأنّ ظاهر قوله: قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا يقتضي ما ذكرناه و العلم عند الله.

ثمّ أنّ قوم نوح نسبوه إلى الضلالة و قوم هود نسبوه إلى السفاهة. قال بعض المفسّرين في الفرق بين الصّورتين أنّ نوحاً كان يخوّف الكفار بالطوفان العام و كان أيضاً مشغولاً بإعداد السفينة فعند هذا قال قومه أَنَّا لنراك في ضلالٍ مبين و لم يظهر شيء من العلامات التي تدلّ على ظهور الماء في تلك المفازة و أمّا هود عليه السلام فما ذكر شيئاً إلاّ أنّه زيف عبادة الأوثان و نسب من اشتغل بعبادتها إلى السفاهة و قلّة العقل فلمّا ذكر هود هذا الكلام في أسلافهم قبلوه بمثله و نسبوه إلى السفاهة ثمّ قالوا: إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ في إدعاء الرّسالة إنتهى.

أقول ما ذكره في الفرق لا يرجع إلى محصل و ذلك لأنّ الجامع في الصّورتين هو إنكارهم الرّسالة و أمّا المقابلة بالمثل و أمثال ذلك من الإحتمالات و الإستخراجات الظّنية فلا دليل عليه و الحقّ أن يقال أنّ الضلالة هي الإنحراف من الحقّ إلى الباطل و السفاهة هي الخفة في العقل، و حيث أنّ قوم نوح كانوا معتقدين بضلالة نوح و أنّه أنحرف عن الحقّ فقالوا: إِنَّا لنراك في ضلالة، و أمّا قوم هود كانوا معتقدين بسفاهة هود و أنّه خفيف العقل فقالوا إِنَّا لنراك في سفاهة هذا هو الذي يقتضيه ظاهر الكلام و أمّا قولهم: إِنَّا لَنَظُنُّكَ

مِنَ الْكَاذِبِينَ فَقَالُوا أَنْ تَكْذِيبَهُمْ إِيَّاهُ كَانَ عَلَى الظَّنِّ دُونَ الْيَقِينِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَتَاهُمْ أَرَادُوا بِالظَّنِّ الْعِلْمَ وَالْمَعْنَى إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَالْحَقُّ أَنَّ ظَاهِرَ الْكَلَامِ يَقْتَضِي الْأَوَّلَ لِأَنَّ حُصُولَ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ بَعِيدٌ جَدًّا فَأَنَّ الْخَبَرَ بِمَا هُوَ هُوَ يَحْتَمِلُ الصَّدَقَ وَالْكَذِبَ فَمَنْ أَيْنَ حَصَلَ لَهُمُ الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ بِكَذِبِهِ وَهَذَا ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

أي قال هود في جواب قومه يا قوم ليس بي سفاهة كما تزعمون ولكني رسول من رب العالمين (و من المعلوم أنَّ الرسول من أَعْقَلَ النَّاسِ فَمَنْ كَانَ رَسُولًا لَا يَكُونُ سَفِيهًا وَمَنْ كَانَ سَفِيهًا لَا يَكُونُ رَسُولًا هَذَا أَوَّلًا).

ثَانِيًا: مقتضى الرسالة أنَّ الرسول لا يقول إلَّا من الله تعالى فقولِي لَكُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ، أَنْ كَانَ دَلِيلًا عَلَى السَّفَاهَةِ فَلَمْ يَقُولُوا أَنِّي سَفِيهٌ بَلْ قَوْلُكُمْ هَذَا يَرْجِعُ إِلَى سَفَاهَةِ اللَّهِ لِأَنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ لَكُمْ مَا أَقُولُ وَنِسْبَةِ السَّفَاهَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كُفْرٌ وَزَنْدَقَةٌ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَدْعُو مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ بَلْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِ مِنْهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ^(١).

أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ

هذا الكلام بمنزلة التفسير لقوله: وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَي لَمَّا ثَبَتَ رِسَالَتِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا مُحَالَهَ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِهِ وَفِي قَوْلِهِ: نَاصِحٌ أَمِينٌ إِشَارَةٌ إِلَى أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكُونُ إِلَّا نَاصِحًا لِأُمَّتِهِ لِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ فَهُوَ مَبْلَغٌ عَنِ اللَّهِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَكَلَّمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ نَافِعٌ لِلْأُمَّةِ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَلَا نَعْنِي بِالنَّصِيحَةِ إِلَّا هَذَا فَالنَّبِيُّ نَاصِحٌ لِلأُمَّةِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.
ثَانِيهَا: أَنَّ النَّبِيَّ أَمِينٌ وَمَقْصَدُ الْأَمَانَةِ هُوَ تَأْذِيَةُ الْحُكْمِ إِلَى الْخَلْقِ بِلَا زِيَادَةٍ
 وَلَا نَقْصَانٍ.

أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ
 قَدْ مَرَّ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَقُلْنَا هُنَاكَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ، الدَّعْوَةُ
 إِلَى الْحَقِّ، وَالْمَعْنَى أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ يَدْعُوَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ، أَيْ مِنْ
 قَبِيلَتِكُمْ أَوْ مِنْ جَنْسِ الْبَشَرِ لِيُنْذِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسُخْطِهِ.

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً
فَاذْكُرُوا الْآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

خُلَفَاءَ بِضَمِّ الْخَاءِ وَفَتْحِ اللَّامِ جَمْعُ خَلِيفَةٍ وَهُوَ الْكَائِنُ بِدَلِّ غَيْرِهِ لِيَقُومَ
 بِالْأَمْرِ مَقَامَهُ فِي تَدْبِيرِهِ وَخُلَفَاءَ جَمْعُهُ عَلَى التَّذْكِيرِ مِثْلُ ظَرِيفٍ وَظَرْفَاءٍ وَلَوْ
 جَمْعُهُ عَلَى الْإِلْفِ لَقَالَ خِلَافٌ نَحْوُ كَرِيمَةٍ وَكَرَائِمٍ وَوَرَدَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ قَالَ
 تَعَالَى **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ** ^(١).

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ قَوْمَ هُودٍ كَانُوا بَقَايَا قَوْمِ نُوحٍ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِبَقَائِهِمْ حِينَ
 أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْغَرَقِ ثُمَّ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَزَادَهُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً أَيْ قُوَّةً وَ
 شُوكَةً.

وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْبَسْطِ بَسْطُ الْيَدَيْنِ إِذَا فَتَحَتْ عَلَى أُبْعَدِ أَقْطَارِهَا وَلِذَلِكَ قَالَ:
فَاذْكُرُوا الْآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَالحَاصِلُ أَنَّ شُكْرَ الْمُنْعَمِ وَاجِبٌ عَقْلًا وَ
 حَيْثُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالْبَقَاءِ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ الشُّكْرُ وَهُوَ يَحْصُلُ بِالْإِنْقِيَادِ وَ
 الطَّاعَةِ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْغَافِلِينَ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ تَوْجِبُ سَلْبَ النِّعْمَةِ وَحُكْمَ الْأَمْثَالِ وَ

أحد فكما أن العصيان والتّمرّد في قوم نوح أفناهم عن صفحة الأرض فكذلك أنتم وما ربك بظلام للعبيد.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ

قالوا أي قال القوم لنبيهم هُود، أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر أي نترك ما كان يعبد آبائنا من الأصنام والأوثان، فأتنا بما تعدنا، من العذاب أن كنت من الصادقين وأما قالوا ذلك لأن هوداً عليه السلام دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع وهو أن الأصنام جمادات والجماد لا قدرة له على شيء قطعاً وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم وهي لا تليق إلا لمن يصدر عنه نهاية الأنعام ولذلك كان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويطروا عبادة الأصنام.

وحيث لم يكن للقوم دليل على بطلان قول هود وصحة ما اعتقدوه من عبادة الأصنام قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده الخ وهذا الذي قالوه في جواب هود عاطل باطل لا يعتمد عليه في مقام الاستدلال بل يدل على أنهم كانوا مقلّدين لأبائهم ولم يعلموا أن التقليد في الإعتقادات باطل ويظهر من ظاهر الكلام أنهم أي قوم هود لم ينكروا عبادة الله بالكلية وإنما أنكروا توحيده في العبادة.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ فالمشهور بينهم أن المراد ما تعدنا، من العذاب ولقائل أن يقول أن كان المراد بالعذاب الموعد المذكور في هذه الآية هو قوله: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ كما هو ظاهر المفسرين فهو ما كان حاصلًا في ذلك الوقت وأن كان المراد به غيره فما هو.

قال بعضهم معناه أنه تعالى أحدث إرادة في ذلك الوقت بوقوع العذاب لأن بعد كفرهم وتكذيبهم حدثت هذه الإرادة.

وقال بعضهم والمعنى إرادة إيقاع العذاب عليكم حصلت من الأزل الى الأبد لو لم تؤمنوا به وأمثال ذلك من الأقوال والإحتمالات كثيرة.

والحق أن يقال أن العذاب المذكور في قولهم يستفاد من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح الخ حيث أن في هذا الكلام إشعار بالعذاب تلويحاً وأن لم يذكر تصريحاً لأن قوم نوح وقعوا فيما وقعوا من العذاب بسبب العصيان وعدم إطاعتهم عن نبيهم وحكم الأمثال واحد و اذا كان كذلك فكأن هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ أو عدهم و خوفهم و هددهم بهذا الكلام فقالوا في جوابه: فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا.

وهذا الذي ذكرناه وأن لم يكن مصرحاً به في كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أنه ليس ببعيد.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ

أي قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه قد وقع عليكم بسبب إنكاركم و عصيانكم من ربكم رجس و غضب و الغضب معنى يدعو الى الإنتقام و نقيضه الرضا و هو معنى يدعو الى الإنعام.

وقيل الغضب هو إرادة العقاب بمستحقه و مثله السخط و محصل الكلام هو أنكم صرتم مستحقين لغضب الله و سخطه أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ الإستفهام للإكثار و المعنى لا تجادلوني اذ لا حجة لكم في هذه المجادلة التي تنحصر بأسماء سميتموها أنتم و آباءكم و هذه الأسماء أي أسماء الأصنام و الأوثان لا مسمى لها واقعاً لأن مسماها جماد و هو لا يكون معبوداً قطعاً.

وأنما قال لهم ذلك لأنهم أنكروا التوحيد كما مر و جعلوا الأصنام شركاء لله تعالى أو أنكروا المعبود الحقيقي رأساً و اعتقدوا بالوهمية الأصنام و كيف كان لا ينبغي للعاقل أن يتشبث بهذه الموهومات في باب الاعتقادات والدّيانات.

وقوله: مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ معناه من برهانٍ أي ما أنزل الله بها من برهانٍ ولا نصب عليها حجةٌ وتوضيح ذلك هو أنَّ البينة على المدعى وحيث أنكم تدعون في هذه الأسماء ما تدعون ولا تقدرون على إقامة الحجة على مدعاكم فدعواكم باطلة من رأسها.

وأما أنا فأتاكم بسلطانٍ مبينٍ أنَّ الله تعالى هو المعبود وحده دون من سواه وأني رسوله ومن المعلوم أنَّ المجادلة بين من لا يجد دليلاً على مدعاه يجد دليلاً عليه لا معنى لها ولأجل هذا قال: أَتُجَادِلُونَنِي الخ على سبيل الإنكار إشعاراً بأنَّ هذا خارج عن قانون الجدال.

فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ أي اذا خرجتم عن قانون الصواب وركبتم مركب العناد واللجاج وأنكرتم الحق فانتظروا عذاب الله فإنه نازل بكم قطعاً فإني معكم من المنتظرين.

فَأَنجِنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ

أي فأنجينا هوداً والذين معه ممن آمنوا به برحمةٍ مِنَّا، وقطعنا دابر الذين كذبوا قيل معناه قطعنا أصلهم وقيل إستأصلناهم عن آخرهم.

والدابر الكائن خلف الشيء ونقيضه القابل فيكون القابل الأخذ للشيء من قبل وجهه وفي قوله: كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ إشارة إلى علة إستأصلهم وهلاكهم وهي تكذيبهم الآيات وعدم الإيمان بها وهكذا تكون عاقبة المجرمين فاعتبروا يا أولي الأبصار من عاقبة الظالمين الكافرين.

ولنذكر قصة قوم عاد ونزول العذاب عليهم على سبيل الإختصار روى في البحار عن الصدوق بأسناده عن وهب أنه قال كان من أمر عاد أنَّ كلَّ رَمَلٍ على ظهر الأرض وضعه الله لشيء من البلاد كان مساكن في بلادها وقد كان الرَّمَل قبل ذلك في البلاد ولكن لم يكن كثيراً حتَّى زمان عاد وأنَّ ذلك الرَّمَل كانت

قصوراً مشيّدةً وحصوناً ومدائن ومصانع ومنازل وبساتين وكانت بلاد عاد
أخصب بلاد العرب وأكثرها أنهاراً فلماً غضب الله عليهم وعتوا على الله
تعالى وكانوا أصحاب الأوثان يعبدونها من دون الله فأرسل الله عليهم الرّيح
العقيم وأنما سميت العقيم لأنها تلقحت بالعذاب وعقمت عن الرّحمة و
طحنت تلك القصور والحصون والمدائن والمصانع حتّى عاد ذلك كلّهم رملاً
رقيقاً تسفيهه الرّيح وكانت تلك الرّيح ترفع الرّجال والنساء فتهب بهم صعداً ثمّ
ترمى بهم من الجوّ فيقعون على رؤوسهم منكّسين وكانت عاد ثلاثة عشر قبيلة
وكان هود في حسب عاد وثروتها وكان أشبه ولد آدم بآدم صلوات الله عليها
وكان رجلاً آدم كثير الشّعر حسن الوجه ولم يكن أحد من النّاس أشبه بآدم منه
إلا ما كان من يوسف بن يعقوب فلبث هود فيهم زماناً طويلاً يذعوهم الى الله
وينهاهم عن الشّرك بالله تعالى وظلم النّاس ويخوّفهم بالعذاب فلجّوا وكانوا
يسكنون أحفاف الرّمال وأنه لم يكن أمة أكثر من عاد ولا أشدّ منهم بطشاً فلما
رأوا الرّيح قد أقبلت اليهم قالوا الهود أتخوفنا بالرّيح فجمعوا ذراريهم وأموالهم
في شعب من تلك الشّعاب ثمّ قاموا على باب ذلك الشّعب يردّون الرّيح عن
أموالهم وأهاليهم فدخلت الرّيح من تحت أرجلهم بينهم وبين الأرض حتّى
قلعتهم فهبّت بهم صعداً ثمّ رمت بهم من الجوّ ثمّ رمت بهم الرّيح في البحر و
سلّط الله عليهم الدّر فدخلت في مسامعهم وجاءهم من الدّر ما لا يطاق قبل
أن يأخذهم الرّيح وسيّرههم من بلادهم ومال بينهم وبين موادهم حتّى أتاهاهم
الله فقد كان سخرّ لهم من قطع الجبال والصّخور والعمد والقوّة على ذلك و
العمل به شيئاً لم يسخره لأحدٍ كان من قبلهم ولا بعدهم وأنما سميت ذات
العماد من أجل أنّهم يسلخون العمد من الجبال فيجعلون طول العمد مثل
طول الجبل الذي يسلخونه منه من أسفله الى أعلاه ثمّ ينقلون تلك العمد
فينصبونها ثمّ يبنون فوقهم القصور وقد كانوا ينصبون تلك العمد إعلماً في
الأرض على قوارع الطّريق وكان كثرتهم بالدّهناء (بالمُهناخ) وبيرين وعالج

إلى اليمن إلى حضرموت و سأل وهب عن هود أكان أبا اليمن الذي ولدهم فقال لا ولكنه أخو اليمن الذي في التّواريّة تنسب إلى نوح فلمّا كانت العصبية بين العرب وفخرت مضر بأبيها إسماعيل أدعت اليمن هوداً أباً ليكون لهم أباً والدّاً من الأنبياء وليس بأبيهم ولكنه أخوهم ولحق هود ومن آمن معه بمكة فلم يزلوا بها حتّى ماتوا وكذلك فعل صالح بعده وقد سلك فجّ الرّوحاء سبعون ألف بنتى حجاجاً عليهم ثياب الصّوف محظمين إبلهم بجمال الصّوف يلبّون الله بتلبية شتى منهم هود وصالح وإبراهيم وموسى وشعيب ويونس صلوات الله عليهم وكان هود رجلاً تاجراً انتهى^(١).

وبأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: لمّا بعث الله تعالى هوداً أسلم له العقب من ولد سام وأما الآخرون فقالوا من أشدّ منّا قوّة فأهلكوا بالريّح العقيم وأوصاهم هود وبشّرهم بصالح انتهى.

وبأسناده عنه عليه السلام قال: كانت أعمار قوم هود أربع مائة سنة و كانوا يُعذّبون بالقحط ثلاثين سنة فلم يرجعوا عمّا رأوا ذلك بعثوا وفداً لهم إلى جبال مكة وكانوا لا يعرفون موضع الكعبة فمضوا واستسقوا فرفعت لهم ثلاث سحابات فقالوا هذه حقاً يعني التي ليس فيها ماء وسمّوا الثّانية فاجياً وإختاروا الثّالثة التي فيها العذاب قال والريّح عصفت عليهم وكان رئيسهم يقال له الخلجان فقال يا هود ما ترى الرّيح إذا قبلت أقبل معها خلق كأمثال الأباعر معها أعمدة هم الذين يفعلون بنا الأفاعيل فقال أولئك الملائكة فقال أترى ربك أن نحن آمنّا به يديننا منهم فقال لهم هود أنّ الله تعالى لا يديل أهل المعاصي من أهل الطّاعة فقال له الخلجان وكيف لي بالرجال الذين هلكوا فقال له هود يبذلك بهم من هو خير لك منهم فقال لا خير في الحياة بعدهم فأختار اللّحاق بقومه فأهلكه الله.

و بالأسناد عن الصدوق بسنده عن وهب، قال لما تمّ لهود أربعون سنة أوحى الله اليه أن أنت قومك فأدعهم الى عبادتي و توحيدتي فإن أجابوك زدتهم قوّة و أموالاً فبينما هم مجتمعون إذ أتاهم هود فقال يا قوم **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** فقالوا يا هود لقد كنت عندنا ثقة أميناً، قال فأني رسول الله اليكم دعوا عبادة الأصنام فلما سمعوا ذلك منه بطشوا به و خنقوه و تركوه كالميت فبقى يومه و ليلته مغشياً عليه فلما أفاق قال يا ربّ آتني قد عملت ترى ما فعل بي قومي فجاء جبرائيل و قال يا هود أنّ الله يأمرك أن لا تفتّر عن دعاءهم و قد وعدك أن يلقي في قلوبهم الرّعب فلا يقدرون على ضربك بعدها فاتاهم هود فقال لهم قد تجبّرتم في الأرض و أكثرتم الفساد فقالوا يا هود أترك هذا القول فإنّا أن بطشنا بك الثّانية نسيت الأولى فقال دعوا هذا و أرجعوا الى الله و توبوا اليه فلما رأى القوم ما لبسهم من الرّعب علموا أنّهم لا يقدرون على ضربه الثّانية فأجتمعوا بقوّتهم فصاح بهم هود صيحة فسقطوا لوجوههم.

ثمّ قال هود يا قوم قد تماديتم في الكفر تمادى قوم نوح و خليق أن أدعوا عليكم كما دعى نوح على قومه فقالوا يا هود أنّ آلهة قوم نوح كانوا ضعفاء وأنّ آلهتنا أقوىاء و قد رأيت شدّة أجسامنا و كان طول الرّجل منهم مائة و عشرين ذراعاً بذراعهم و عرضه ستّون ذراعاً و كان أحدهم يضرب الجبل الصّغير فيقطعه فمكث على هذا يدعوهم سبع مائة و ستين سنة فلما أراد الله هلاكهم حَقَفَ الأحقاف حتّى صارت أعظم من الجبال فقال لهم هود ألا ترون هذه الرّمال كيف تحقّقت أنّي أخاف أن تكون مأمورة فأغتم هود **عَلَيْهِ السَّلَامُ** لما رأى من تكذيبهم و نادته الأحقاف قرّ يا هود دعينا فإنّ لعاد منّا يوم سوء فلما سمع هود ذلك قال يا قوم إتّقوا الله و أعبدوه فإن لم تؤمنوا صارت هذه الأحقاف عليكم عذاباً و نعمة فلما سمعوا ذلك أقبلوا على نقل الأحقاف فلا تزيد إلّا

كثرة فرجعوا صاغرين فقال هود يا ربّ قد بلغت رسالاتك فلم يزدادوا إلاّ كفراً فأوحى الله اليه يا هود أتني أمسك عنهم المطر فقال هود يا قوم قد وعدني ربّي أن يهلككم ومُرّ صوته في الجبال وسمع الوحش صوته والسباع والطير فأجتمع كلّ جنس منها يبكي ويقول يا هود أتهلكنا مع الهالكين فدعى هود ربّه في أمرها فأوحى الله اليه أتني لا أهلك من لم يعص بذنّب من عصاني تعالى الله علوّاً كبيراً انتهى^(١).

أقول اختلفوا في موضع قبر هود فقيل أنّه بغار بحضرموت وروي المؤرخون عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ قبره على تلّ من رمل أحمر بحضرموت وقيل أنّه دفن في مكّة في الحجر وقيل أنّه دفن قريباً من أمير المؤمنين عليه السلام والله أعلم بحقائق الأمور مضافاً الى أنّه لا يهمنّا البحث فيه وهو واضح.



وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
 اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
 فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
 عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ
 بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ
 سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا
 فَادْكُرُوا الْآيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
 أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
 مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ
 أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ
 وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ
 لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

◁ اللغة

ثَمُودَ بفتح الثاء إسم قبيلة وقيل أنه إسم لحي مذكر، فعلى الأول هو غير
 منصرف وعلى الثاني منصرف.

نَاقَةُ اللَّهِ، النَّاقَةُ الْأُنْثَى مِنْ الْجَمَالِ وَالْأَصْلُ فِيهَا التَّوْطِئَةُ وَالتَّذَلُّيلُ مِنْ قَوْلِهِمْ بَعِيرٌ مَنُوقٌ أَيُّ مُوْطَأً مَذَلَّلٌ.

آيَةٌ، الْآيَةُ الْعَلَامَةُ.

وَلَا تَعْتَوُوا أَيُّ لَا تَضْطَرُّوْا.

فَعَقَرُوا، الْعَقْرُ الْجَرْحُ الَّذِي يَأْتِي عَلَى أَصْلِ النَّفْسِ.

عَتَوْا أَيُّ تَجَاوَزُوا.

الرَّجْجَةُ بَفَتْحِ الرَّاءِ وَسُكُونِ الْجِيمِ هِيَ حَرَكَةُ الْقَرَارِ الْمَزْعَجَةُ لَشِدَّةِ الزَّعْرَةِ يُقَالُ رَجَفَ بِهِمُ السَّقْفُ رَجُوفًا إِذَا إِضْطَرَبَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَقِيلَ هِيَ الصَّيْحَةُ قَالَهُ الْمَجَاهِدُ وَالسَّنْدِيُّ.

◀ الإِعْرَابُ

آيَةٌ حَالٌ مِنَ النَّاقَةِ مِنْ سَهْوِهَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ، قُصُورًا، وَأَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا ثَانِيًا لَتَتَّخِذُونَ (وَمِنْ) لِإِبْتِدَاءِ الْغَايَةِ لِمَنْ أَمَنْ هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ، لِلَّذِينَ إِسْتَضْعَفُوا، بِإِعَادَةِ الْجَارِ.

◀ التَّفْسِيرُ

لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْمَ عَادَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ عَلَى مَا مَرَّ ذَكَرَهُ وَبَيَّانَهُ شَرَعَ فِي قِصَّةِ قَوْمِ ثَمُودَ فَقَالَ: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ذَكَرْنَا وَجِهَ التَّعْبِيرِ بِالْأَخِ فِي قِصَّةِ عَادَ وَقُلْنَا أَنَّ هُودًا لَمْ يَكُنْ أَخَاهُمْ نَسَبًا وَأَنْمَا كَانَ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ فِي الْمَقَامِ أَيْضًا نَقُولُ أَنَّ صَالِحًا كَانَ مِنْ قَبِيلَةِ ثَمُودَ وَالْوَاوُ لِلْعُطْفِ أَيُّ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قِيلَ فِي وَجْهِهِ تَسْمِيَتُهُمْ أَنْمَا سَمَّيْتَ الْقَبِيلَةَ ثَمُودًا لِقَلَّةِ مَاءِهَا مِنَ الثَّمَدِ وَهُوَ الْمَاءُ الْقَلِيلُ وَقِيلَ سَمَّيْتَ ثَمُودًا لِأَنَّهُ إِسْمُ أَبِيهِمُ الْأَكْبَرِ وَهُوَ ثَمُودُ بْنُ عَادَ بْنِ أَرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَيْفَ كَانَ قَالُوا أَنَّ ثَمُودًا كَانَتْ فِي سَعَةِ مِنَ الْعَيْشِ، فَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ

وعبدوا غيره وأفسدوا في الأرض فبعث الله لهم صالحاً نبياً وكان من أفضلهم حسباً وهو صالح بن أصف بن كاشح بن أروم بن ثمود بن جاثر بن أرم بن سام بن نوح بعث إليهم وهو ابن ستّة عشر سنة وكان لقوم ثمود سبعون صنماً يعبدونها من دون الله فلما رأى ذلك منهم قال لهم:

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فهو الذي خلقكم وجعل لكم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة لعلكم تشكرون فما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون وسمّيتوها ألهة وتعبدونها فلم يجيبوه إلا بالإنكار والطغيان كما هو شأن المعاند في كلّ زمانٍ فأتبعوا آباءهم وأسلافهم من قوم نوح وهود في الكفر والإلحاد ولم يعتبروا ممّا وقع عليهم من أنواع العذاب المسبب عن الكفر فوقعوا فيما وقعوا من الخسران والوبال

قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

أي أية ظاهرة جليلة شاهدة على صدق مقالي وصحة نبوتي بحيث لا تقدرون على إنكارها وهي هذه ناقة الله لكم آية أي أنّ البينة التي تشهد بصحة نبوتي عبارة عن هذه الناقة التي هي لكم آية وعلامة على صدق مقالي. ولما أبهم في قوله قد جاءكم بينة من ربكم بيّن، ما الآية، فكأنه قيل له ما البينة على صدق مدّعاك فقال صالح في الجواب هذه ناقة الله وأضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً كما يقال بيت الله وروح الله أو لأنّ الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكرٍ أو أنثى ولأنّه لا مالِك لها غير الله وأنها حجة على القوم ولما أودع الله فيها من الآيات وكيف كانت لاشكّ أنّها كانت من آيات الله و عجائب صنعه.

فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أَي أتركوها بحالها ولا تتعرضوا لها قوله
تأكل في أرض الله إشارة إلى أنها تأكل مما خلق الله تعالى في أرضه فليس في
بقاءها مشقة عليكم.

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ

نَهَاهُمْ عَنْ مَسِّهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَذَى وَهَذَا تَنْبِيهُ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى إِذَا كَانَ قَدْ
نَهَاهُمْ عَنْ مَسِّهَا بِسُوءٍ إِكْرَامًا لِآيَةِ اللَّهِ فَتَنْهِيهِ عَنْ نَحْرِهَا وَعَقْرِهَا وَمَنْعِهَا عَنِ الْمَاءِ
وَالْكِلَاءِ أَوْلَى وَأَحَرَّى وَالْمَسُّ وَالْأَخْذُ هُنَا إِسْتِعَارَةٌ وَفِي هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ
مَسَّهَا بِسُوءٍ، وَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ هُوَ مَا حَلَّ بِهِمْ إِذْ عَقَرُوهَا وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
أَشَدُّ وَأَخْزَى.

روى في البحار بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: قد كان بعث الله
صالحاً فدعاهم إلى الله فلم يجيبوه وعتوا عليه فقالوا له أن كنت كما تزعم نبياً
رسولاً فادع الله يخرج لنا ناقة من هذه الصخرة وكانت صخرة يعظمونها
ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها فأخرجها لهم كما طلبوا
منه وأوحى الله إلى صالح أن قل لهم أن الله جعل لهذه الناقة شرب يوم ولكم
شرب يوم فكانت الناقة إذا شربت يومها شربت الماء كله فيكون شراهم ذلك
اليوم من لبنها فيحلبونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومه ذلك
فاذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى ماءهم فشربوا ذلك اليوم ولا تشرب الناقة
فمكثوا بذلك ما شاء الله حتى عتوا ودبروا في قتلها فبعثوا رجلاً أحمر أشقر لا
يعرف له أب ولد الزنا يقال له قدار ليقتلها فلما توجهت الناقة إلى الماء ضربها
ضربة ثم ضربها أخرى فقتلها ومرّ فصليها حتى صعد إلى جبل فلم يبق منهم
صغير ولا كبير إلا أكل منها فقال لهم صالح أعصيتم ربكم أن الله يقول أن تبتم
قبلت توبتكم وإن لم ترجعوا بعثت إليكم للعدا في اليوم الثالث.

فقالوا يا صالح أثنتا بما تعدنا أن كنت من الصادقين.

فقال لهم أنكم تصبحون غداً وجوهكم مصفرة واليوم الثاني محمرة واليوم الثالث مسودة فإصفرت وجوههم فقال بعضهم يا قوم قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاة لا نسمع ما يقول صالح ولو هلكنا وكذلك في اليوم الثاني والثالث فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ صرخة خرفت أسماعهم وفلقت قلوبهم فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم ثم أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقتهم انتهى.

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ

ذَكَرَ صالح قومه بما ذكر به هود فذكر أولاً نعماً خاصة وهى جعلهم خلفاء بعد الأمة التى سبقتهم وإسكانهم الله فى الأرض فأل المباءة المنزل فيها. تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا أى تبنون من سهول الأرض قصوراً وذلك لأن القصور التى كانت أجزاءها متخذة من لين الأرض كالجيار والأجر والجص وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ يُبُوتًا النحاتة ما يسقط من المنحوت يقال نحت الخشب والحجر ونحوهما من الأجسام الصلبة والمقصود أن الله تعالى أقدركم على إنحات الجبال فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ أى إذا كان الله تعالى جعلكم خلفاء وأسكنكم أرضه وأقدركم على الاستفادة منها بأحسن الوجه فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ونعمائه ولا تعثوا أى تضطربوا فى الأرض مفسدين، فَأَنَّ الفساد والإفساد من أشنع المعاصي وأقبح الكفران وقد قال الله تعالى: وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^(١).

فِي الْقُرْآنِ
وَفِي تَفْسِيرِهِ
الْقُرْآنِ

جزء ٨

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ
أَي قال المستكبرون الكافرون للمستضعفين المؤمنين بصالح النبي ﷺ
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ

قال المتكبرون للمؤمنين المستضعفين أتعلمون أنَّ صالحاً مرسل من ربِّه أم لا تعلمون و غرضهم بذلك الإستبعاد لأنَّ صالحاً كان نبياً مرسلأً من عند الله فأجابوهم وقالوا اأنا بما ارسل صالح به من عند ربِّه مومنون معتقدون لا شك فيه.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

اى قال الذين استكبروا عن العبودية و اتبعوا الشيطان لهؤلاء الضعفاء المؤمنين نحن كافرون بما آمنتم به من التوحيد والنبوة والمعاد.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنَبِّئُ بِنَا تَعِدُّنَا إِنَّا كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

في هذه الآية أخبار من الله تعالى عمأ فعل المستكبرون من قوم صالح و أنهم عقروا الناقة التي هي آية الله في الأرض ذكرنا تفصيله و فى قولهم: يا صالحُ أَتُنَبِّئُ بِنَا تَعِدُّنَا إِنَّا كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إشعار بأنك أن لم تأتنا بما تعدنا من العذاب فلست من المرسلين كما هو مفهوم الكلام و ذلك لأنَّ النبي لا يكون إلا صادقاً، نقل عن السدي أنه قال كانت الناقة فى اليوم الذي تشرب فيه الماء تمر بين الجبلين فتعلوهما ثم تأتي فتشرب فتحلب ما يكفى الكَلَّ و كأنها كانت تصب اللبن صبأً و فى اليوم الذي يشربون الماء فيه لا تأتيهم معها فصيل لها فقال لهم صالح يولد فى شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يديه فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم ثم ولد العاشر فأبى أن يذبحه أبوه فنبت نباتاً سريعاً ولما كبر الغلام جلس مع قوم يصيبون من الشراب فأرادوا ماء يمزجونه به وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء و أشد ذلك عليهم فقال الغلام هل لكم فى أن أعقر هذه الناقة فشدها عليها فلما بصرت به شدت عليه فهرب منها الى خلف صخرة فأحاشوا عليه فلما مرت به تناولها فعقرها فسقطت فذلك

قوله فنادوا صاحبهم فتعاطى وعقر، وأظهروا كفرهم وعتوا عن أمر ربهم فقال لهم صالح أُنْ آية العذاب أن تصبحوا غداً حمراً إلى آخر القصة وقد مضى الكلام فيها وإلى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** أي فأخذتهم الإضطراب الشديد فأصبحوا في دارهم جاثمين أي لزموا مكانهم فلم يبرحوا منه يقال جثم الطائر والأرنب يجثم جثوماً وهو كالبروك من البعير وكيف كان هو إستعارة للمقيمين وذلك لأنهم لما علموا بالعذاب بعد مشاهدة آثاره تحنطوا وتكفّنوا فماتوا في طرفة عين كبيرهم وصغيرهم فلم يبق الله منهم ثاغية ولا راغية ولا شيئاً يتنفّس إلا أهلكها فأصبحوا في ديارهم موتى ثم أرسل الله عليهم النار مع الصيحة من السماء فأحرقتهم أجمعين، عن الثعلبي في تفسيره بأسناده عن النبي ﷺ قال يا علي أتدري من أشقى الأولين قال قلت لله ورسوله أعلم قال ﷺ عاقر الناقة ثم قال ﷺ أتدري من أشقى الآخرين قال قلت لله ورسوله أعلم قال ﷺ قاتلك إنتهى موضع الحاجة منه.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ

أخبر الله تعالى أن صالحاً تولّى وأعرض عن قومه بعد ما عقروا الناقة ولم يتوبوا عما فعلوا وقال لهم يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي وقلت لكم يا قوم إعبدوا الله ونصحت لكم وقلت هذه ناقة الله فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء ثم قلت لكم بعد عقر الناقة توبوا إلى الله فلم تقبلوا فإنّي بعد ذلك قد علمت أنكم لا تحبون الناصحين قال الرّازي.

فأن قيل ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنّها ناقة الله.

قلنا فيه وجه قيل أضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً كقوله بيت الله.

وقيل لأنّه تعالى خلقها بلا واسطة.

وقيل لأنها لا مالك لها غير الله

وقيل لأنها حجة الله على القوم وساق الكلام الى أن قال وعن النبي ﷺ أنه قال يا علي أشقى الأولين عاقر الناقة وأشقى الآخرين قاتلك إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

وأنا أقول أن الله تعالى قد أجرى الحق على لسان الرازي حيث نقل عن النبي أن قاتل على الشقى الآخرين ما منهم فأنه منه عجيب وقع ذالك كلامه هذا حجة عليه وعلى امثاله يوم القيامة وأما ما قاله في وجه التخصيص فلا اشكال فيه وهو كذا لك ولاكن قد غاب عنه احسن الوجوه الدال على أنها ناقة الله وهو ان هذه الناقة من آيات الله في الدنيا والآخرة وبعبارة أخرى هذه ناقة الله في الآخرة أيضاً لما روى سعيد بن جببر عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو أخذ بيد علي بن أبي طالب وهو يقول يا معشر الأنصار يا معشر بني هاشم يا معشر بني عبد المطلب أنا محمد رسول الله ﷺ أني خلقت من طينة موحومة في أربعة من أهل بيتي أنا وعلي وحمزة وجعفر، فقال قاتل يا رسول الله هؤلاء معك ركبان يوم القيامة فقال ﷺ أنه لن يركب يومئذ إلا أربعة أنا وعلي وفاطمة وصالح نبي الله فأما أنا فعلى البراق، وأما فاطمة إبنتي فعلى ناقة الغضباء وأما صالح فعلى ناقة التي عقرت، وأما علي فعلى ناقة من نور زمامها من ياقوت عليه حلطان خضراوتان إنتهى تفسير^(١).

أقول هذه الرواية رواها المجلسي رحمه الله في البحار أيضاً بطرق مختلفة ثم أن صالحاً بعث وهو ابن ستة عشر سنة ومات وهو ابن عشرين ومائة سنة أكثر والله أعلم.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا
سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْسَ
يَنْطَهَرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ
مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

◀ اللغة

لُوطًا بضم اللام إسم علم وإشتقاقه من لاط يَلُوطُ لُوطًا وَلِيَطَّ الْحَدِيثُ
الولد ألوط أي ألصق بالكبد، وهذا أمر لا يلتاط بعنصري أي لا يلتصق بقلبي،
ولطت الحوض بالطين لوطاً ملطته به وقولهم تلوط فلان اذا تعاطى فعل قوم
لوط فمن طريق الإشتقاق فإنه أشتق من لفظ لوط التاهي عن ذلك لا من لفظ
المتعاطين له قاله الراغب في المفردات.

الْفَاحِشَةُ، الْفُحْشُ وَالْفَحْشَاءُ وَالْفَاحِشَةُ مَا عَظُمَ قُبْحُهُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ.

أَنْسَ بضم الألف لغة في النَّاسِ.

مِنَ الْغَابِرِينَ الغابر الماكث بعد مضي ما هو معه.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٨

المجلد السابع

◀ الإعراب

وَلُوطًا أي وأرسلنا لوطاً، وأذكر لوطاً ما سَبَقَكُمْ بِهَا في موضع الحال من
الفاحشة أو من الفاعل في، أتأتون، تقديره مبتدأين شَهْوَةً مفعول من أجله أو

مصدر في موضع الحال مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ صفة لرجال مَطْرًا هو مفعول أمطرنا و المطر هنا الحجارة.

◀ التفسير

وَلَوْ طَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ

الواو للعطف أي وأرسلنا لوطاً، أو للإستئناف والتقدير أذكر لوطاً والأول أقوى وأظهر بسياق الكلام فأَنْ الله تعالى ذكر قصة نوح أولاً وقصة هود ثانياً وقصة صالح و ثمود ثالثاً فهذه قصة رابعة.

قال التحويون أتما صرف لوط ونوح لخفته فأنه مركب من ثلاثة أحرف مساكن الوسط، قال لوط لقومه الذين بعث إليهم أتأتون الفاحشة يعني أفعلون السيئة القبيحة التي ما سبقكم بها أحد من العالمين.
قال صاحب اكشاف من الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الإستغراق والثانية للتبعية.

قال الرّازي فأن قيل كيف يجوز أن يقال ما سبقكم بها من أحد من العالمين مع أنّ الشهوة داعية الى ذلك العمل أبداً.

والجواب أنا نرى كثيراً من الناس يستقذر ذلك العمل فإذا جاز في الكثير منهم إستقذاره لم يبعد أيضاً إنقضاء كثير من الأعصار بحيث لا يقدم أحد من أهل تلك الأعصار عليه.

قال وفيه وجه آخر وهو أن يقال لعلهم بكلّيتهم أقبلوا على ذلك العمل والإقبال بالكلية على ذلك العمل ممّا لم يوجد في الأعصار السابقة انتهى.

أقول وفيه وجه آخر وهو أنّهم أي قوم لوط كانوا لا ينكحون إلا الغرباء وهذا ممّا لم يسبقهم اليه أحد في الأعصار السابقة وكيف كان لا شك أنّ نفس العمل مع تلك الخصوصيات والكيفيات ممّا لا يسبقهم اليه أحد من الأمم.

ذكروا في وجه ذلك أن قوم لوط كان من أفضل قوم خلقهم الله عز وجل فطلبهم إبليس لعنه الله الطلب الشديد وكان من فضلهم وخيرهم أنهم إذا أخرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء فأتى إبليس وكان يعتادهن عبادتهم وكانوا إذا رجعوا ضرب إبليس ما يعملون قال بعضهم لبعض تعالوا نرصد هذا الذي يخرب متاعنا فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان فقالوا أنت الذي تخرب متاعنا فقال نعم مرة بعد مرة واجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيتوه عند رجل فلما كان الليل صاح فقال مالك فقال كان أبي ينومني على بطنه فقال نعم فثم على بطني قال فلم يزل بذلك الرجل حتى علمه أن يعمل بنفسه فأولاً علمه إبليس والثانية علمه هو ثم إنسل ففر منهم فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويعجبهم منه شيء لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتى إكتفى الرجال بعضهم ببعض ثم جعلوا يرصدون مآز الطريق فيفعلون بهم حتى ترك مدينتهم النساء ثم تركوا نساءهم فأقبلوا على الغلمان فلما رأى إبليس لعنه الله أنه قد أحكم أمره في الرجال جاء في دار النساء فصير نفسه امرأة ثم قال أن رجالكم يفعلون بعضهم ببعض قالوا نعم قد رأينا ذلك وعلى ذلك يعظهم لوط ويوصيهم حتى استكفت النساء بالنساء.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ
لا شك أن المراد بالفاحشة في الآية هو اللواط بدليل قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ومن المعلوم أن هذا لا يتحقق إلا باللواط والإتيان كناية عن الوطي والعمل بهم وفي قوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ إشارة إلى تجاوزهم عن حد الاعتدال وقيل معناه أنتم مسرفون في كل الأعمال فلا يبعد منكم أيضاً إقدامكم على هذا الإسراف المذموم الشيخ في التبيان معناه الإضراب عن الأول إلى جميع المعاييب من عبادة الأوثان وإتيان الذكران وترك ما قام به البرهان وتقديره أنكم مستوفون لجميع المعاييب إتيان الذكران و

غيره و يحتمل أن يكون معناه، بل أنتم لإسرافكم لا تفلحون و الإسراف الخروج عن حدّ الحقّ الى الفساد إنتهى.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا أَجَابَ بِهِ قَوْمَ لُوطٍ حِينَ قَالَ لَهُمْ أَنْتُمْ لِيَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ كَأَنَّهُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، إِيخْرِجُوهُمْ، يَعْنِي لُوطًا وَ أَهْلَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، مِنْ قَرْيَتِكُمْ، أَيِ مِنْ مَدِينَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ، قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَتَطَهَّرُونَ مِنْ إِيْتَانِ الرِّجَالِ فِي الْأَدْبَارِ فَعَابُوهُمْ بِمَا يَجِبُ أَنْ يَمْدَحُوا بِهِ، وَ قِيلَ أُرِيدَ بِالتَّطَهَّرِ التَّنَزُّهُ أَيِ إِيخْرِجُوهُمْ لِأَنَّهُمْ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ أَفْعَالِكُمْ فَلَا يَفْعَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ أَيِ فَأَنْجَيْنَا لُوطًا وَ أَهْلَهُ يَعْنِي الْمُخْتَصِّينَ بِهِ إِلَّا إِمْرَأَتَهُ أَيِ زَوْجَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، الْبَاقِينَ فِي عَذَابِ اللَّهِ وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ أَيِ وَ أَمْطَرْنَا عَلَى قَوْمِ لُوطٍ مَطَرًا مِنَ السَّمَاءِ وَ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ.

عن أبي جعفر (عليه السلام) و أمّا القرية التي أمطرت مطر السوء فهي سدوم قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجيل يقول من طين و سيأتي تفصيل الكلام في قصّة لوط في سورة هود إن شاء الله.



وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
 اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
 إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)
 وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ
 أَدْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ
 مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ
 يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ
 خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
 مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
 كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ
 عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا
 يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا
 وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا
 افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
 الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠)

◀ اللغة

مَدِينَ بفتح الميم و سكون الدال المهملة و فتح الياء على وزن مريم، إسم قبيلة و قيل أصله، مديان، و هو مديان بن إبراهيم و هؤلاء ولده، و مدين لا ينصرف للتصريف و العجمية.
 تَبَخَّسُوا، البَخْسُ النَّقْصُ.
 تَصُدُّونَ الصَّدَّ المنع.
 تَبْعُونَهَا، البَغْيُ الطَّلَبُ.
 الرِّجْفَةُ بفتح الراء الإضطراب و القلق و الزلزلة.
 جَائِمِينَ الجثوم البروك على الركبة و قد مرَّ الكلام فيه.

◀ الإعراب

تُوعِدُونَ حال من الضمير في تعدوا مَنْ أَمَنَ مفعول تصدون وَتَبْعُونَهَا حالاً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ المصدر في موضع نصب على الإستثناء الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبِيًّا فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: مبتدأ و في الخبر وجهان:

أحدهما: (كان لم يغنوا فيها) و ما بعده جملة أخرى أول بدل من الضمير في يغنوا أو نصب بإضمار أعنى.

الثاني: أنَّ الخبر، الَّذِينَ كَذَّبُوا شعبيّاً كانوا، وكان لم يغنوا على هذا حال من الضمير في كذبوا.

والوجه الثاني: أن يكون صفة لقوله الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ.

الثالث: أن يكون بدلاً منه و على الوجهين يكون، كان لم، حالاً.

◀ التفسير

وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

إِعلم أنَّ هذا هو القصة الخامسة و هي قصة شعيب والواو للعطف أي و

أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً وقد إتفقوا على أن هذه الأخوة كانت في النسب لا في الدين وقيل في نسب شعيب هو شعيب بن مكيل بن سجن بن مدين بن إبراهيم وقيل هو شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم وكيف كان لما أرسله الله إلى قومه وهم قبيلة مدين قال لهم: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَلَاتَعْبُدُوا غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا شعور لها فما أقيح بالرجل العاقل أن يعبد الجماد والنبات وأمثال ذلك قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يعني أتتكم حجة من الله ومعجزة دالة على صدق قلبي وبذلك قد تَمَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ من الله تعالى فلا عذر لكم عنده فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَمَرَ شعيب قومه أولاً بإيفاء الكيل والميزان والكيل مصدر كنّي به عن الآلة التي يكال بها كما أن الميزان عبارة عن الآلة التي يوزن بها، ثم نهاهم عن شيء عام وهو قوله أشياءهم والبخس والنقص.

قال الرَّاعِبُ في المفردات: البخس نقص الشيء على سبيل الظلم، ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وقد مرّ الكلام فيه وقلنا الفساد هو خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج أو كثيراً والذي يخرج عنه يسمى بالمفسد وإنما نهى عنه عقلاً وشرعاً لأنه من مصاديق الظلم ثم قال ذلکم أي إيفاء الكيل والميزان وعدم التتقيص في الأشياء وعدم الإفساد في الأرض، خير لكم في الدنيا والآخرة أن كنتم مؤمنين بالله وبالمعاد أما في الدنيا فلا أنه يوجب حفظ النظم وأما في الآخرة فلا أنه يوجب الدخول في الجنة وأما أن لم تكونوا مؤمنين فلا كلام لنا معكم.

فيه القرآن في تفسيره

جزء ٨

الجلد السابع

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا

قِيلَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْعُدُونَ عَلَى طَرِيقٍ مِنْ مَقْصَدٍ شَعِيبًا لِلْإِيمَانِ بِهِ فَيَخَوْفُونَهُ بِالْقَتْلِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ نَهَايَهُمْ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَظُهُورُ الْآيَةِ مِمَّا لَا يَنْكَرُ وَيَعْلَمُ مِنْهُ أَنََّّهُمْ أَيُّ قَوْمٍ شَعِيبَ كَانُوا يَقْعُدُونَ فِي الطَّرِيقِ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَعَانِدِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍِ وَزَمَانٍ أَلَا تَرَى أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ وَلَمْ يَقْنَعُوا بِذَلِكَ بَلْ كَانُوا يَخَوْفُونَ وَيَقْتُلُونَ مَنْ آمَنَ بِهِ كَمَا قَتَلُوا يَاسِرَ وَسَمِيَّةَ وَأَمْثَالَهُمَا وَلَأَجَلَ ذَلِكَ وَقَعَتِ الْهَجْرَةُ إِلَى الْحَبْشَةِ بَلْ إِلَى الْمَدِينَةِ فَكَانَتْ هَجْرَتُهُمْ مِنْ مَكَّةَ عَنْ إِضْطِرَارٍ لَا عَنْ إِخْتِيَارٍ وَهُوَ وَاضِحٌ وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي عَصْرِ كُلِّ نَبِيٍّ فَإِنَّ عَدَمَ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ شَيْءٌ وَمَنْعُ الْغَيْرِ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَالثَّانِي أَقْبَحُ وَأَشْنَعُ مِنَ الْأَوَّلِ.

وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أَيُّ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كَثَّرَ عِدَدَكُمْ، وَقِيلَ إِذْ كَثَّرَكُمْ بِالْغِنَى بَعْدَ الْفَقْرِ، وَقِيلَ كَثَّرَكُمْ بِالْقُدْرَةِ بَعْدَ الضَّعْفِ، فَأَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ وَلَا تَكْفُرْ بِهَا بِالْعَصْيَانِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ، مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ حَيْثُ أَتَتْهُمْ لَمَّا كَفَرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَشَدَّ وَأَبْقَى.

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

الطَّائِفَةُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، قَسَمَ الْقَوْمَ عَلَى قَسْمَيْنِ:

قَسَمَ مِنْهُمْ أَمَنُوا بِهِ وَقَسَمَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبَقُوا عَلَى كُفْرِهِمْ مَقَالٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ لِأَنَّهُ لَا يَحْكُمُ

إِلَّا بِالْعَدْلِ وَ أَنْمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَ يُؤْذِنُهُمْ فَكَأَنَّهُ قَالَ أَصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ فَإِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا الْيَوْمَ الَّذِي يَقُولُ الْكَافِرُ فِيهِ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ الطَّاهِرِينَ.

هذا آخر المجلد الثامن في تفسير الجزء الثامن و يتلوه الجزء التاسع أوله
قال: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا.



الجزء

التاسع

قَالَ أَلَمْأَلَّا الَّذِينَ أَشْتَكَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ

قد مرّ الكلام في الملاء وقلنا هم الجماعة من الأشراف والرؤوساء وهم الذين قالوا لشعيب ما قالوا وكان منشأ هذا القول إستكبارهم وإمتناعهم عن قبول الحق فقالوا لشعيب لنخرجنك والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا، معنى، لتعودن قولان:

أحدهما: على توهمهم أنه كان فيها على دين قومه.

الثاني: أن الذين إتبعوا شعيباً قد كانوا فيها.

قال بعضهم وفي الإخراج والعود طباق معنوي، وعاد لها إستعمالان:

أحدهما: أن تكون بمعنى صار.

الثاني: بمعنى رجع إلى ما كان عليه فعلى الأول لا إشكال في قوله: أَوْ لَتَعُودَنَّ إذ صار فعلاً مسنداً إلى شعيب وأتباعه ولا يدل على أن شعيباً كان في ملتهم.

وعلى المعنى الثاني يشكل لأن شعيباً لم يكن في ملتهم قط لكن أتباعه كانوا فيها وأجيب عنه بوجوه:

أحدها: أن يراد بعود شعيب في الملة حال سكوته عنهم قبل أن يبعث لا حالة الضلال فإنه كان يخفي دينه إلى أن أوحى الله إليه.

الثاني: أن يكون من باب تغليب حكم الجماعة على الواحد لما عطفوا أتباعه على ضميره في الإخراج سحبوا عليه حكمهم في العود وأن كان شعيب بريئاً مما كان عليه أتباعه قبل الإيمان.

الثالث: أن رؤوساءهم قالوا ذلك على سبيل التلبيس على العامة والإيهام أنه كان منهم قال أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ أي قال شعيب لهؤلاء المستكبرين، أيقع منكم أحد هذين الأمرين وهو الإخراج عن القرية أو العود إلى ما كان القوم

عليه أو لو كنّا كارهين لذلك، الهمة للإستفهام والواو الحال تقديره أتعيدوننا في ملّتكم في حال كارهتنا ومع كوننا كارهين، وعبارة أخرى معنى الكلام، هو أنّنا مع كراهتنا لذلك مع ما عرفناه من بطلانه لا نرجع.

قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا

وهذا أيضاً إخبار من الله عمّا قال شعيب لقومه وحاصله أنّا إن عدنا في ملّتكم كما تقولون إذا قد إفترينا على الله كذباً، وذلك لأنّ شعيباً كان رسولاً من الله اليهم والذين آمنوا به وإتبعوه إعتقدوا برسالته وأنّه على الحقّ وإذا كان الأمر على هذا المنوال فالرجوع الى الكفر بعد إدعاء الرّسالة معناه تكذيب نفسه وإنّ ما إدّعه كان كذباً وأنّ الله لم يرسله اليهم ولا نعني بالإفتراء على الله إلاّ هذا.

وأما قوله: **بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا** ففيه إشارة الى أنّ الخروج من الكُفر الى الإيمان لا يكون إلاّ بتوفيق منه وحيث أنّ الله وفّقنا للإيمان ونجّينا عن القوم الكافرين فكيف نرجع الى ملّتكم.

وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا

إخبار عن قول شعيب لهم أنّه ليس له ولمن آمن معه أن يعودوا في ملّتهم و يرجعوا فيها إلاّ بعد مشيئة الله ذلك وقيل في معنى هذه المشيئة مع حصول العلم بأنّه تعالى لا يشاء عبادة الأصنام والأوثان وجوه:

أحدها: أنّ في ملّتهم أشياء كان يجوز أن يتّعبد الله بها فلو شاءها منهم لوجب عليهم الرجوع فيها

الثاني: أنّه اذا فعل ما شاء الله كان ذلك طاعة الله تعالى

الثالث: أنّه علّق ما لا يكون بما علم أنّه لا يكون على وجه التّبعيد كما قال

الشاعر:

إذا شاب الغراب أثيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

وهذا كما قال الله تعالى: **حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ^(١).

قالوا في وجه ذلك أنه كما لا يشاء الله عبادة الأصنام والقبايح لأن ذلك لا يليق بحكمته كذلك لا أعود في ملّتكم.

الرابع: أن الهاء في قوله، فيها، راجعة إلى القرية فكأنه قال وما لنا أن نعود في قريتكم غانمين لكم ظاهرين عليكم بعد إذ نجّينا الله منها بخروجنا منها سالمين إلا أن يشاء الله أن ينصرنا عليكم ويشاء منا الرجوع فيها وذهبه الوجه ذكرها الشيخ في التبيان.

وأن أقول لا شك أن، ما، في قوله: وَمَا يَكُونُ نَافِيَةً بمعنى ليس والضمير في قوله، فيها، يرجع إلى الملة ظاهراً فالمعنى ليس لنا أن نعود في ملّتكم إلا أن يشاء الله ربنا، علق الرجوع على المشيئة أي أن يشاء الله نرجع وأن لم يشاء لا نرجع وذلك لأن العبد تابع لأمر مولاه إلا أن في الرجوع احتمالين: **أحدهما:** الرجوع ظاهراً وهو أقوى احتمالاً.

ثانيهما: الرجوع واقعاً وهو الذي لا يوافق حكمة الله.

وأما من قال أنه من قبيل التعليق على المحال فهو في فسحة عن الإشكال لأن معنى الكلام على هذا الفرض هو أن رجوعنا إلى ملّتكم موقوف على مشيئة الله لقوله إلا أن يشاء الله وحيث أن هذه المشيئة أي الرجوع عن الحق إلى الباطل محال لأنه لا يوافق حكمته فالرجوع إلى ملّتكم محال. هذا كله إذا قلنا أن الضمير في قوله: **فِيهَا** يعود إلى الملة أمّا لو قلنا بهوده إلى القرية كما هو أحد الإحتمالين فالإشكال مندفع من أصله لأن العود إلى القرية لا ينافي الإيمان وهو ظاهر وقد أطال الكلام في المقام بعض المفسرين من العامة.

وذكر أدلة الأشاعرة والمعتزلة في استدلال كل واحد من الفريقين على مدّعا من الجبر والإختيار والإنصاف أن الآية بمعزل عن الجبر وللبحث فيه مقام آخر.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا فففيه مسألتان:

الأولى: أَنَّهُ تَعَالَى عَالَمٌ بِكُلِّ الْأَشْيَاءِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِمَّا لَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ لِأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ.

الثانية: فِي تَعَلُّقِ هَذَا الْكَلَامِ بِالْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَأَنْ شِئْتُ قُلْتُ فِي وَجْهِ الرِّبْطِ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ أَعْنِي قَوْلُهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا، وَقَوْلُهُ: وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا فَتَقُلُّ عَنِ الْقَاضِي أَنَّهُ قَالَ أَنَّ قَوْلَ شَعِيبٍ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ مَعْنَاهُ إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ الْمَصْلَحَةَ فِي تِلْكَ الْعِبَادَاتِ فَحِ يَكْلَفُنَا بِهَا وَالْعَالَمُ بِالْمَصَالِحِ لَيْسَ إِلَّا مَنْ وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَلِذَلِكَ أَتْبَعَهُ بِهَذَا الْقَوْلِ انْتَهَى.

وَفِيهِ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الْأَفْعَالِ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي نَفْسِ الْفِعْلِ وَلَيْسَتْ بِجَعْلٍ جَاعِلٍ فَقَوْلُهُ إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ الْمَصْلَحَةَ فِي تِلْكَ الْعِبَادَاتِ لَا مَعْنَى لَهُ وَتَوْضِيحُهُ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ لَا يَخْلُو مِنْ أَمْرَيْنِ: **أحدهما:** أَنَّ فِعْلَهُ أَوْلَى مِنْ تَرْكِهِ.

ثانيهما: بِالْعَكْسِ فَإِنَّ كُلَّ الْفِعْلِ أَوْلَى فَهُوَ كَاشِفٌ عَنْ وَجُودِ الْمَصْلَحَةِ فِي ذَاتِهِ وَأَنْ كَانَ التَّرْكُ أَوْلَى فَهُوَ كَاشِفٌ عَنْ وَجُودِ الْمَفْسَدَةِ فِي ذَاتِهِ فَمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ وَهَكَذَا فِي جَانِبِ الْمَفْسَدَةِ وَلَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ الشَّيْءِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ بِحَسَبِ ذَاتِهِ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَقَوْلُهُ إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ فِيهِ الْمَصْلَحَةَ، لَا نَفْهَمُ مَعْنَاهُ.

وَقَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الْقَاضِي مَا هَذَا لَفْظُهُ:

وَقَالَ أَصْحَابُنَا وَجْهٌ تَعَلَّقَ هَذَا الْكَلَامُ بِمَا قَبْلَهُ هُوَ أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا قَالُوا الشَّعِيبُ أَمَّا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ قَرْيَتِنَا وَأَمَّا أَنْ تَعُودَ إِلَيْنَا فَقَالَ شَعِيبٌ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، فَرُبَّمَا كَانَ فِي عِلْمِهِ حَصُولُ قِسْمٍ ثَالِثٍ وَهُوَ أَنْ نَبْقَى فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَعُودَ إِلَى مِلَّتِكُمْ بَلْ يَجْعَلُكُمْ مَقْهُورِينَ تَحْتَ أَمْرِنَا ذَلِيلِينَ خَاضِعِينَ تَحْتَ حُكْمِنَا وَهَذَا الْوَجْهَ أَوْلَى مِمَّا قَالَهُ الْقَاضِي لِأَنَّ قَوْلَهُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا لِاتَّقِ بِهَذَا الْوَجْهَ لَا بِمَا قَالَهُ الْقَاضِي انْتَهَى كَلَامُهُ.

أقول هذا الرجل لا يعلم ما يقول في كثير من الموارد ومنها هذا المورد لأن ما احتمله في المقام أي ربط بينه وبين قوله إلا أن يشاء الله مضافاً إلى أن حصول القسم الثاني وهو البقاء في القرية خارج عن الإحتمال لأن الأمر دائر بين الإخراج والعود وهو واضح لا خفاء فيه والذي يختلج بالبال في وجه الربط هو أن المشيئة هاهنا بمعنى العلم لا بمعنى الإرادة وعليه فالمعنى أن الله تعالى عالم بحقيقة الأمر ولذلك قال بعد هذا الكلام.

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

أي على الله توكلنا في جميع الأمور ومن يتوكل على الله فهو حسبه و قوله: رَبَّنَا أَفْتَحْ الخ فيه رغبة منه إليه تعالى أن يحكم بينه وبين قومه بالحق فإنه تعالى أحكم الحاكمين.

وقال بعض المفسرين معناه أنزل بهم ما يستحقون من العقوبة لكفرهم بالله، وأنت ترى أن الكلام لا يدل عليه أصلاً.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ

حكى الله تعالى عن الجماعة الكافرة الجاحدة بآيات الله ونبوته شعيب للباقيين منهم حيث أقسموا عليهم وقالوا لهم لئن إتبعتم شعيباً وصدقتم بنبوته أنكم إذا لخاسرون والخسران ذهاب رأس المال فكأنهم قالوا متابعتكم إياه بمنزلة رهاب رأس المال لأنكم لا تنتفعون بإتباعه فتخسرون في إشتغالكم بما لا تنتفعون به وبإقتضاء عمركم اذ لم تكسبوا فيه نفعاً لأنفسكم.

وقيل معناه أنكم إذا لهاكون، وقيل لمفتنون والمأل واحد وهو أي أنكم إذا لخاسرون جواب القسم.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ
 (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبِيًّا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ
 كَذَبُوا شُعْبِيًّا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى
 عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
 وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ
 (٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا
 أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)
 ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ
 قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ
 بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى
 آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ
 بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى
 أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨)
 أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ
 مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَ
 نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

◁ اللغة

الرَّجْفَةُ بفتح الراء و سكون الجيم وفتح الفاء الإضطراب و الزلزلة و هى
 حركة تزلزل الأقدام و توجب الهلاك لشدةها.

فَأَصْبَحُوا، الْأَصْبَاحُ الدَّخُولُ فِي الصَّبَاحِ كَمَا أَنَّ الْإِمْسَاءَ الدَّخُولُ فِي الْمَسَاءِ.

جَائِمِينَ، الْجَثُومُ البروك على الرِّكْبَةِ يقال جثم هذا الأمر على قلبي أي ثَقُلَ عليه لثبوته على تلك الحال.

يَعْنُوا، غَنَىً بِالْمَكَانِ إِذَا قَامَ بِهِ يَغْنِي غِنَاءً وَغِنْيًا وَالْمَعْنَى لَمْ يَقِيمُوا إِقَامَةً مُسْتغْنِيًا بِهَا عَنْ غَيْرِهَا.

فَتَوَلَّى أَعْرَضَ عَنْهُمْ.

أَسَى، الْأَسَى شِدَّةُ الْحُزْنِ أَيْ أَحْزَنَ.

بَأْسُنَا، الْبَأْسُ الْعَذَابُ.

◀ الإِعْرَابُ

كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي كَذَّبُوا أَوْ صِفَةٌ لِقَوْلِهِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ حَتَّى عَفَوْا أَيْ إِلَى أَنْ عَفَوْا أَيْ كَثُرُوا فَأَخَذْنَا هُمْ مَعُطُوفٌ عَلَى عَفَوْا أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى يَقْرَأُ بَفَتْحِ الْوَاوِ عَلَى أَنَّهَا لِلْعُطْفِ دَخَلَتْ عَلَيْهِ هَمْزَةُ الْإِسْتِفْهَامِ وَيَقْرَأُ بِسُكُونِهَا وَهِيَ لِأَحَدِ الشَّيْئَيْنِ يَنَاتَا حَالٌ مِنْ بَأْسُنَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَقَدْ يَقْرَأُ بِالتَّوْنِ وَكَيْفَ كَانَ فَهُوَ فَاعِلٌ لِقَوْلِهِ أَوْ لَمْ يَهْدُ وَ قِيلَ فَاعِلُهُ ضَمِيرُ اسْمِ اللَّهِ.

◀ التَّفْسِيرُ

فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ قَدْ مَضَى تَفْسِيرُهَا فَلَا مَعْنَى لِأَعَادَتِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانَ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ الْأُولَى فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ، كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا، أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا وَشَبَّهَهُمْ بِمَنْ لَمْ يَغْنُ فِيهَا وَالْمَعْنَى كَانَ لَمْ يَقِيمُوا نَاعِمِي الْبَالِ رَخِي الْعَيْشِ فِي دَارِهِمْ وَفِيهَا قُوَّةُ الْأَخْبَارِ عَنْ هَلَاكِهِمْ وَحُلُولِ

المكروه بهم و التنبية على الاعتبار بهم كقوله: فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأُنْصِ^(١) وكقول الشاعر:

كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحِجُونِ إِلَى الصِّفَا أَنْصِ و لم يسمر بمكة سامر
و قال ابن عباس كأن لم يعمرُوا، و قال قتادة كأن لم ينعموا.

و قال الأخفش كأن لم يعيشوا، و قيل كأن لم يكونوا و الكل قريب المعنى صاحب الكشف في هذا الإبتداء معنى الاختصاص كأنه قيل: الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا المخصوصون بأن أهلكوا أو استؤصلوا كأن لم يقيموا في دارهم لأنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا شُعَيْبًا قد أنجاهم الله تعالى: الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن هُمُ الْخَاسِرِينَ هذا أيضاً مبتدأ و خبر و فيه أيضاً معنى الاختصاص أي هم المخصوصون بالخسران العظيم دون إتباعه فأتهم هم الرابحون و فى هذا الاستئناف لهذا الإبتداء و هذا التكرير مبالغة في ردِّ مقالة الملاء لأشياعهم و تسفيه لرأيهم و إستهزاء بنصحهم لقومهم و استعظام لما جرى عليهم، و هاتان الجملتان منبثتان عن ما فعل الله بهم في مقاتلتهم حيث قالوا، لنخرجنك يا شعيب، فجاء الإخبار بإخراجهم بالهلاك و أي إخراج أعظم من إخراجهم، و قالوا لأن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون، فحكم الله تعالى عليهم بالخسران ثم أن وجه التشبيه في قوله: كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا.

أَنَّ حال المكذبين يشبه حال من لم يكن قط في تلك الديار لما أخذتهم الرجفة بالهلاك و هذا مما يتحسر عليه الناس أعظم الحسرة كما قال الشاعر:

بلى نحن أهلها فأبادنا صُروف الليالي والجُدود العوائر

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

هذا إخبار عن شعيب النبي ﷺ مع قومه لما أبلغهم رسالات ربه فلم

يقبلوها بل كذبوها وجحدوا ما أتى به ولما رأى من القوم ذلك فتولى شعيب وأعرض عن قومه المكذبين وقال لهم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، أي أتى لم آل جهداً في نصيحتكم وإرشادكم إلى الحق فلم تقبلوا مني ما كان فيه خيركم وصلاحكم في الدارين ووقعتم من الهلاك والعذاب وأنما قال شعيب ذلك لمن هلك تحسراً وتحزناً عليهم ولذلك قال: فَكَيْفَ أُنْسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ أي فكيف أحزن على قوم كافرين.

والمقصود من هذا الكلام هو أن ما نزل بكم من العذاب وأن كان عظيماً ألا أنه كان حقاً ومطابقاً للعدل لأنه كان بعد إتمام الحجة مضافاً إلى أنه كان بسبب جنائتكم على أنفسكم فلا ينبغي أن أحزن عليكم كيف والباعث على نزول العذاب أنتم وأنفسكم لا غيركم فلا يلومن إلا نفسه فإن ربك ليس بظلام للعبيد.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَآءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ

القرية بفتح القاف مجتمع الناس في المنازل المتجاورة مما هو دون المدينة وكذلك تسمى المدينة أيضاً قرية، والنبي مشتق من النبأ وهو الخبر سمي به لأنه يؤدي ويخبر عن الله تعالى بلا واسطة من البشر. وقيل هو من كان ينبي بالوحي عنه تعالى وأما البأساء والضراء ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: البأساء الجوع والضراء الآلام من الأمراض والشدائد.

ثانيها: ما نالهم من الشدة في أنفسهم والضراء ما نالهم في أموالهم.

ثالثها: أن البأساء الجوع والضراء الفقر.

قالوا وفي معنى، لعل قولان:

أحدهما: أنما عاملناهم معاملة الشاك في إيراد أسباب التضرع مظهرة عليهم في الحجة.

الثاني: أن يكون بمعنى اللّام وتقديره ليضرّعوا، وأصل يضرّعون يتضرّعون فأدغمت التّاء في الضّاد ومعنى الآية على ما قيل هو إخباره تعالى فيها أنّه لم يرسل رسولا إلى أهل قرية إلاّ وأخذ أهلها بالبأساء والضّراء تغليظاً في المحنة وتشديداً للتكليف ليلين قلوبهم ولكي يتضرّعوا الى ربّهم في كشف ما نزل بهم في ذلك لعلمه بما لهم من الصّلاح لكي يتضرّعوا.

وقال الآخرون لمّا ذكر تعالى ما حلّ بالأُمم السّالفة من بأسه و سطوته عليهم آخر أمرهم حين لا تجدى فيهم الموعظة ذكر تعالى أنّ تلك عادته في إتباع الأنبياء إذ اصرّوا على تكذيبهم والذي نفهم منها هو أنّ الله تعالى يُحبّ التّضرّع والدّعاء من العبد لأنّه رابطة بينه وبينه ومن المعلوم أنّ التّضرّع لا يكون إلاّ بعد البأس والضّر والشّدّة والمحنة وهو لا يكون إلاّ بعد التّكليف وهو لا يكون إلاّ بعد إرسال الرّسول فينتج أنّ إرسال الرّسول لأجل التّضرّع و سوق العبد الى مقام القرب وكيفية العبوديّة وهذا من أنفع الأمور التي تتوقّف على بعث النّبي الى النّاس.

ويحتمل أن يكون المراد هو إتمام الحجّة على النّاس أي إنّنا لا نعذب أحداً إلاّ بعد إتمام الحجّة الظّاهرة وهى الرّسول.

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

كلمة، ثمّ، تفيد التراخي أي بعد التّضرّع الى الله بدّلنا مكان السيئة الحسنة والتبديل وضع أحد الشّيئين مكان الآخر فلمّا رفعت السيئة عنهم و وضعت الحسنة كانت السيئة مبدلة بالحسنة.

وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة المراد بالسيئة والحسنة هاهنا الشّدّة والرّخاء وقال أبو عليّ جرى في هذا الموضع على سبيل المثل.

والذي يظهر من الكلام هو أنّ الله بعد تضرّع العبد اليه يستجيب دعوته لقوله

تعالى: **أَذْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ^(١) وبعد الإستجابة يبدّل سيئاته بالحسنات، حتّى عفوا، أي حتّى كثروا، وأصله التّرك من قوله تعالى: **فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ** ^(٢). أي ترك له وعفوا تركوا حتّى كثروا وقيل حتّى كثروا وتناسلوا، وقال مجاهد كثرت أموالهم وأولادهم وقال ابن بحر أي حتّى أعرضوا من قولهم عفى عن ذنبه أي أعرض عنه **وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضُّرُّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** أي أنّ الكفّار قال بعضهم لبعض أنّ هكذا عادة الدّهر فكونوا على ما أنتم عليه من الكفر كما كان آبؤكم فلم ينفكوا عن تلك الحال فينتقلوا فأخذناهم بالعذاب بغتة أي فجأة وهم لا يشعرون، أي لم يشعروا بنزول العذاب إلّا بعد حلوله.

أَقُول يظهر من ذيل الآية وهو قوله تعالى: **وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضُّرُّاءُ وَالسَّرَّاءُ الخ.**

أنّ المراد بالسّيئة الشّدة وبالحسنة الرّخاء كما ذهب إليه ابن عبّاس فمعنى الكلام، ثمّ بعد تضرّع المتضرّعين بدلنا شدّتهم بالرّخاء أي فقرهم بالغناء وذلّهم بالعزّ وهكذا حتّى كثروا فيه أي وقعوا في الرّخاء كثيراً وغرقوا في نعم الله فلمّا رأوا ذلك أي خرجوا من الشّدة ودخلوا في الرّخاء أخذهم الغرور والطّغيان والتمرد والعصيان فرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل التّضرّع من الكفر وإستدلّوا على ذلك **وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضُّرُّاءُ وَالسَّرَّاءُ** كما قد مسّنا وليس هذا بشي جديد فكما أنّهم لم يخرجوا عن عقيدتهم فكذلك نحن لا نترك ما إعتقدنا عليه فصاروا كافرين بأنعم الله فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون أي هؤلاء الكفّار لم يشعروا بالعذاب إلّا بعد حلوله وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ عذاب الله في الدّنيا والآخرة ثمرة الكفر والعصيان والتمرد والطّغيان ففي الحقيقة يكون العذاب معلولاً لأعمال العباد وإلى هذا المعنى أشير.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ
الْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

قرأ ابن عامر لَفَتَحْنَا بتشديد التاء و الباقون بتخفيفها و عليه المصاحف
مضافاً الى أَنَّ التشديد في التاء لا وجه له، و معنى، لو، إمتناع الشيء لإمتناع
غيره كما أَنَّ لولا، معناه إمتناع الشيء لوجود غيره.

يقول الله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ التي أهلكناها وهم قوم لوط و صالح
و شعيب و غيرهم آمنوا بالله و برسوله و اتَّقُوا بفعل الواجبات و ترك
المحرّمات لفتحنا عليهم بركات و هي الخيرات النامية و أصله الثبوت فَنُمُو
الخير يكون كناية عن ثبوته بدوامه فبركات السماء بالمطر و بركات الأرض
بالبّات و الثمار كما وعد نوح بذلك أُمّته قال، يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا^(١) و
قيل بركات السماء إجابة الدّعاء و بركات الأرض تيسير الحوائج و لكن لم
يؤمنوا و لم يتَّقوا بل كَذَّبُوا رسلي فأخذناهم بما كانوا يكسبون بأعمالهم و
أقوالهم و ليس جزاء الكفر إلاّ العذاب، و الأصل فيه هو أَنَّ الله تعالى لم يخلق
عباده للعذاب و العقاب بل خلقهم ليعرفوه و اذا عرفوه عبدوه و اذا عبدوه
إستغنوا بطاعته عن طاعة ما سواه.

و هذا هو كمال الإنسان في الدّنيا و لأجل ذلك أرسل الأنبياء و أنزل الكتب
السّماوية و قرّر الدّين و جعل التّكاليف و هو المقصود الأصلي من خلق
الإنسان قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(٢) أي ليعرفون، ثمّ أنّه
قد ثبت عقلاً و نقلاً أَنَّ الله تعالى جواد على الإطلاق غنيّ عمّا سواه رؤوف
بعباده، فاذا كان العبد عمل بوظيفة العبوديّة كما هو مقرر في الشّريعة المقدّسة
فلا جرم تنزل عليه بركات من السّماء و الأرض كما هو مقتضى الأصل و هو
ظاهر.

ثم أفاد الله تعالى أن العذاب قد يكون في حال اليقظة وقد يكون في حال النوم والغفلة.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ

الإستفهام في المقامين للإكثار عليهم أي لا ينبغي أن يأمنوا عذابه في جميع الأحوال، والأمن سكون النفس إلى الحال المنافية لإنزعاجها والأمن والثقة والطمأنينة نظائر وضد الأمن الخوف.

والبأس العذاب والمقصود أنه تعالى خوفهم بنزول العذاب في الوقت الذي يكونون فيه غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وإلى ذلك أشار بقوله: **بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ** وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على المرء التشاغل بالكسب والأكل وأمثال ذلك وإليه الإشارة بقوله: **ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ** أي يشتغلون بأمور الدنيا التي هي لعب ولهو وتفاخر، وأنما أتى في الآية الأولى بالفاء وقال: **أَفَأَمِنَ**.

وفي الثانية: بالواو فقال، **أَوْ أَمِنَ**، لأن الفاء تدل على أن الثاني أدى إليه الأول كأنه قيل أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله من أجل ما هم عليه من تضييع أمر الله لأنه يشبه الجواب وليس كذلك الواو بل هي لمجرد العطف.

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ

قالوا أنما دخلت الفاء في أفأمنوا بعد الواو في **أَوْ أَمِنَ** لأن فيها معنى بعد كأنه قيل أبعد هذا كله أمنوا مكر الله ثم صار الفاء في **فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ** كأنها جواب لمن قال قد آمنوا، والمكر بفتح الميم أخذ العبد بالضر من حيث لا يشعر إلا أنه قد كثر استعماله في الحيلة عليه.

قال الخليل المكر الإحتيال بإظهار خلاف الإضمار.

قال الرَّاعِبُ في المفردات المكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلة ضربان، محمود، ومذموم، فالمحمود أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قوله: **وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** والمذموم أن يتحرى به فعل قبيح ومنه قوله ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله، وقال في الأمرين ومكروا مكرأ ومكرنا مكرأ وقال بعضهم من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من إعراض الدنيا ولذلك قال أمير المؤمنين **عليه السلام** من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع في عقله انتهى كلامه في المفردات.

قال بعض المفسرين في قوله: **أَقَامِنُوا مَكْرَ اللَّهِ** أن المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون قاله على وجه التحذير وسمي هذا العذاب مكرأ توسعاً لأن الواحد مآ إذا أراد المكر لصاحبه فأنه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر به فسمي العذاب مكرأ لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، ومن المعلوم أنه لا يأمن نزول عذاب الله على هذا الوجه إلا القوم الخاسرون وهم الذين لغفلتهم جهلهم لا يعرفون ربهم فلا يخافونه ومن هذه سبيله فهو أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة لأنه أوقع نفسه في الدنيا في الضرر وفي الآخرة في أشد العذاب انتهى كلامه.

أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ

الواو للعطف والهمزة للإستفهام الإنكاري والهداية الدلالة المؤدية إلى البغية والمعنى أولم نبين للذين متعنهم في الأرض بعد إهلاكنا من كان قبلهم فيها وجعلنا آباؤهم المالكين لها بعدهم إنا لو شئنا أصبناهم بعقاب ذنوبهم وأهلكناهم بالعذاب كما أهلكنا الأمم الماضية.

أقول الهداية لها معنيان:

أحدهما: الإيصال الى المطلوب وهذا هو الذي ذكروه في المقام.

الثاني: إراءة الطريق بدون الإيصال و المناسب لتفسير الآية و غيرها من الآيات هو المعنى الثاني أعني به إراءة الطريق بسبب إرسال الرّسل و إنزال الكتب.

قال الله تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(١)**.

و أنما رجحنا المعنى الثاني لأنّ العبد بعد الوصول الى المطلوب لا يرجع الى الكفر و أنما يرجع اليه من لا يصل اليه فقله: **أَوَلَمْ يَهْدِ معناه** أولم يبين لهم الحق بواسطة الأنبياء أنّ حكمهم حكم من كان من قبلهم فكما أخذنا الأمم الماضية بذنوبهم كذلك نأخذ الأمم اللاحقة.

و أما قوله: **وَنَظَبُعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**.

فقال الرّازي إستدل أصحابنا على أنّه تعالى قد يمنع العبد من الإيمان بقوله: **وَنَظَبُعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** و الطبع الختم و الرّين و الكنان و الغشاوة و الصدّ و المنع واحد على ما قرّناه في آيات كثيرة انتهى كلامه.

أقول ما ذكره الرّازي من أنّ الطبع و الختم الى آخره واحد لا يصح فإنّ الطبع و الختم يقال على وجهين:

أحدهما: أنّهما مصدران من قولك ختمت و جعلت و معناهما على هذا تأثير الشّي كنقش الخاتم و الطابع.

الثاني: الأثر الحاصل عن النّقش و يتجوّز بذلك تارة في الإستيثاق من الشّي و المنع منه إعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب و الأبواب. و تارة في تحصيل أثر عن شّي إعتباراً بالنّقش الحاصل و تارة يعبر منه بلوغ الآخر و منه قوله ختمت القرآن أي انتهيت الى آخره إذا عرفت هذا فنقول.

أنّ الإنسان إذا تناهى في إعتقاد باطل أو إرتكاب محظور و لا يكون منه

تمسك بوجه الى الحق يورثه ذلك هيئة تمرنه على إستحسان المعاصي و
كأنما يختم بذلك على قلبه وهذا مما أجرى الله به العادة فقوله تعالى: **نَطْبَعُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ** وقوله: **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**^(١) وقوله: **خَتَمَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ**^(٢).

وأمثال ذلك مما ورد في كلام الله تعالى ليس معناه أن الله تعالى قد منع
وصد القلوب عن قبول الحق ومع ذلك كلّفهم فإن هذا مما لا يقبله العقل
السليم وعلى هذا النحو إستعارة الإغفال:

في قوله تعالى: **وَلَا تَطْغُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا**^(٣).
وإستعارة الكن:

في قوله: **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**^(٤).
وإستعارة القساوة:

في قوله: **وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**^(٥) وأمثال ذلك من الآيات.
فثبت وتحقق أن هذه الألفاظ أنما أستعملت على سبيل الكناية و عليه
فمعنى قوله: **وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ليس معناه نمنع ونصد
قلوبهم عن إستماع الحق كما قال الرازي ومن تبعه من المجبرة بل معناه أنهم
تمرّنوا على المعاصي وأداموا عليها حتى صارت المعاصي عندهم مستحسنة
بحيث لا يرون قبحها فكأنه طبع على قلوبهم وهذا كما يقال لمن يكذب دائماً
أو غالباً طبع على قلبه الكذب.

وعلى البخيل طبع على قلبه البخل وعلى الرّحيم طبع على قلبه الرّحمة و
هكذا والله أعلم بحقائق الأمور.

٢- البقرة = ٨
٤- الانعام = ٢٥

١- النحل = ١٠٨
٣- الكهف = ٢٨
٥- المائدة = ١٣

قال بعض المحققين ختمه شهادته تعالى عليه أنه لا يؤمن و عليه فمعنى قوله: **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** أو نطبع على قلوبهم معناه أن الله يشهد و يعلم أنه لا يؤمن بالله و هذا أيضاً لا يرجع الى محصل فإن مجي الختم و الطبع بمعنى الشهادة مما لا يساعده العقل ولا اللغة و هو واضح فتأمل.



تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا
كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ
الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ
بَعْدِهِم مُوسَى بَايَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ
فَطَلَّمُوا بِهَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ
(١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ
رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ
(١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧)
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ
الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ
(١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ (١١٠)

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

اللغة

الْقُرَى بضم القاف جمع قرية وهي مجتمع الناس دون البلد وقد تطلق
على أهل البلد وقد مر الكلام فيها.
نَقُصُّ، القصص إتباع الحديث يقال فلان يقصّ الأثر أي يتبعه.

أَنْبِئَانَهَا، الْأَنْبَاءُ جَمْعُ النَّبَأِ وَهُوَ الْخَبَرُ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ الشَّانُ وَبِهَذَا يَفْتَرِقُ
عَنِ الْخَبَرِ وَمِنْهُ أَخَذَ إِسْمَ النَّبِيِّ لِأَنَّهُ يَخْبِرُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.
مِنْ عَهْدٍ، الْعَهْدُ الْعَقْدُ الَّذِي تَقْدَمُ لَتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَى إِدَاءِ الْحَقِّ.
وَمَلَائِكُهُ، قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْمَلَاءِ وَقُلْنَا أَنَّهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَشْرَافِ أَوْ
مَطْلُقُ الْجَمَاعَةِ.

عَصَاهُ، الْعَصَا عُودٌ كَالْقَضِيبِ يَابَسٌ وَأَصْلُهُ الْإِمْتِنَاعُ بِيَسِهِ يَقَالُ عَصَى
يَعْصِي إِذَا إِمْتَنَعَ.
تُعْبَانُ بَضْمُ النَّاءِ حِيَّةٌ ضَخِيمَةٌ طَوِيلَةٌ وَقِيلَ هُوَ أَعْظَمُ الْحَيَّاتِ وَهُوَ الذَّكْرُ وَ
الْكَلَامُ فِيهِ طَوِيلٌ.
نَزْعٌ، النَّزْعُ هُوَ إِزَالَةُ الشَّيْءِ عَنْ مَكَانِهِ الْمَلَابَسُ لَهُ الْمُتَمَكَّنُ فِيهِ كَنَزْعِ الرِّدَاءِ
عَنِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ وَالْقَلْعُ وَالْجَذْبُ نِظَائِرٌ.
فَإِذَا هِيَ بَيَضَاءُ إِذَا هَاهُنَا لِلْمَفَاجَاةِ وَالْبَيَضَاءِ ضِدُّ السَّوْدَاءِ.

◀ الإعراب

لَا كُثْرَتُهُمْ هُوَ حَالٌ مِنْ عَهْدٍ وَمِنْ زَائِدَةِ أَيِّ مَا وَجَدْنَا عَهْدًا لَأَكْثَرِهِمْ وَإِنْ
وَجَدْنَا إِنْ مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَإِسْمُهَا مَحْذُوفٌ أَيِّ وَإِنَّا وَجَدْنَا كَيْفَ كَانَ
كَيْفٌ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ خَبَرٌ كَانَ عَاقِبَةُ إِسْمِهَا وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِقَوْلِهِ،
فَانْظُرْ حَقِيقٌ مُبْتَدَأٌ أَنْ لَا أَقُولُ خَبَرُهُ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ شَدَّدَ الْيَاءَ فِي عَلَيَّ، وَعَلَيَّ
مَتَعَلِّقٌ بِحَقِيقٍ فَإِذَا هِيَ إِذَا لِلْمَفَاجَاةِ وَهِيَ مَكَانٌ وَمَا بَعْدَهَا مُبْتَدَأٌ وَتُعْبَانُ
خَبَرُهُ.

◀ التفسير

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةَ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ عَلَى مَرَّةٍ تَفْصِيلُهُ أَخْبَرَ
عَنِ أَهْلِ الْقُرَى الَّتِي ذَكَرَهَا سَابِقًا وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ تِلْكَ، إِلَيْهَا فَقَالَ: تِلْكَ الْقُرَى

الَّتِي مَرَّتْ الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِيهَا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا الْكَافِ فِي قَوْلِهِ: عَلَيْكَ إِشَارَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَي نَقْصُهَا عَلَيْكَ أَيَّهَا النَّبِيُّ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْكَلَامِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا الْيَوْمَ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ يَوْمَ الْمِيثَاقِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا كَانُوا لِيُخَالِفُوا عِلْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَقَالَ الْآخَرُ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا أَسْلَافَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ الَّتِي اقْتَرَحَوْهَا فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بَعْدَهَا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ قَبْلُهَا.

وقال الكرمانى: من قبل يعود على الرّسل تقديره من قبل مجي الرّسل لم يسلب منهم إسم الكفر والتّكذيب بل بقوا كافرين مكذّبين كما كانوا قبل الرّسل.

وقال الزمخشري: فما كانوا ليؤمنوا عند مجي الرّسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله قبل مجي الرّسل والأقوال كثيرة متشّعة في متون التفسير.

وأنا أقول لعل منشأ هذا الإختلاف هو قوله: مِنْ قَبْلُ وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ، فَأَنْ قُلْنَا أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الرُّسُلِ فَالْمَعْنَى مَا كَانُوا هَؤُلَاءِ الْكَافَرُ لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ مَجِي الرُّسُلِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْبُؤِ وَالْمَعَادِ أَي كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ مَجِي الرُّسُلِ لِمَا رَأَوْا الْمَعْجَزَاتِ، وَأَنْ قُلْنَا أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْعَذَابِ، فَمَعْنَاهُ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ قَبْلَ مَجِي الْعَذَابِ فَلَا مُحَالَةَ وَقَعُوا فِي الْعَذَابِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي مَعْلُومِنَا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَهَذَا الْمَعْنَى الْآخِرُ مِمَّا اخْتَلَجَ بِالْبَالِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِكَلَامِهِ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي الطَّبَعِ وَالتَّخْتِمْ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَجِهَ التَّشْبِيهِ ظَاهِرُ أَي مِثْلُ ذَلِكَ الطَّبَعِ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ الْقُرَى حِينَ انْتَفَتَ عَنْهُمْ قَابِلِيَّةُ الْإِيمَانِ بِسَبَبِ طُغْيَانِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَتَمَرُّنِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي وَ

تساوي أمرهم في الكفر قبل المعجزات وبعدها يطبع الله على قلوب الكافرين ممن أتى بعدهم لوحدة الملاك فيهم جميعاً.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ

كلمة، ما، نافية وأختلفوا في المراد بالعهد فقليل هو الذي عاهدوا عليه في صلب آدم.

وقيل: هو الإيمان بدليل قوله: إلا من إتخذ عند الله عهداً، وهو لا إله إلا الله.

وقيل: المراد به ما جعله الله في عقولهم من وجوب شكر المنعم والقيام بحقه.

وقيل: ما عهد اليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

أقول: قد ورد في كثير من الآيات ما يدل على هذا:

قال الله تعالى: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً^(١).

قال الله تعالى: أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ^(٢).

قال الله تعالى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ^(٣).

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ^(٤) وغيرها من

الآيات.

إنما قال لأكثرهم ولم يقل لجميعهم لأن في بني آدم من يفى بعهده وهو مما لا ينكر وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ان مخففة من الثقلية وإسمها محذوف أي وإنا وجدنا أكثرهم أي أكثر الناس لفاسقين.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

هذا هو القصة السادسة من القصص التي ذكرها الله تعالى لنتيجه لتعتبر بها أمته الى يوم القيامة وهي قصة موسى بن عمران عليه السلام فقال: **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى** أي من بعد الأنبياء الذين كانوا قبل موسى من آدم عليه السلام الى موسى ويحتمل أن يكون المراد نوح وهود وصالح وشعيب الذين بعثوا الى الناس فكذبوهم وأنزل الله العذاب عليهم وأهلكهم جميعاً وهكذا قوم بني إسرائيل وكيف كان فقد بعث موسى الى قومه، وقد ذكر الله في قصة موسى ما لم يذكره في سائر القصص وذلك لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره من الأنبياء وكما أن عدوه فرعون كان أقوى من أعداء سائر الأنبياء وأيضاً جهل قومه كان أفحش وأعظم من سائر الأقوام وفي قوله تعالى: **بِآيَاتِنَا** إشارة الى أن النبي لا بد له من آية ومعجزة بها يمتاز عن غيره إذ لو لم يكن مختصاً بها لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره بل لم يكن قبوله أولى من عدمه والآيات جمع الآية وهي العلامة سميت بها لأنها علامة صدق النبي وأنه مبعوث من قبل الله فهي تدل على أن النبي له رابطة بعالم الغيب وإنما أتى بها بصيغة الجمع فقال بآياتنا لأنه تعالى أعطاه آيات كثيرة و معجزات كثيرة **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأْنَاهُ فِرْعَوْنَ**، بكسر الفاء وسكون الراء وفتح العين إسم أعجمي وقد اعتبر أرامته فقيل تفرعن فلان إذا تعاطى فعل فرعون كما يقال أبلس وتبلس ومنه قيل للطغاة الفراعنة والأبالسة والمراد بالملأ الجماعة من إتباع فرعون أو من خواصه وأقاربه **فَظَلَمُوا بِهَا** أي جحدوا بالآيات وأنكروها وقيل جعلوا بدل الإيمان الكفر بها لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه الذي هو حقه ولما كان حق المعجزة القبول بمقتضى العقل فإنكارها بمنزلة وضعها في غير محلها **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** والتعبير بالمفسدين، للإشعار بأن فرعون وملائه كانوا من المفسدين في الأرض وهو كان كذلك بل هو من أعظم مصاديق المفسدين فيما نعلم وعاقبة الفساد والإفساد هو الخسران بلا كلام **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ**

رَبِّ الْعَالَمِينَ مبعوث إليك وإلى قومك، و، من، في قوله من رب العالمين لا ابتداء الغاية لأن المرسل المبتدأ بالرسالة وإنهاءها المرسل اليه، وموسى على وزن مفعول والميم فيه زائدة لكثرة زيادتها كالهزمية التي صارت أغلب من زيادة الألف أخيراً، وهو أي، موسى، إسم لا ينصرف للعجمة والمعرفة و فرعون كذلك حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ أي قال موسى لفرعون بعد إعلامه الرسالة من الله رب العالمين، حَقِيقٌ عَلَى أي أن الرسول لا يقول إلا الحق فكأنه قال أنا رسول الله إليك وإلى قومك والرسول لا يقول إلا الحق ينتج إنني لا أقول إلا الحق وصورة القياس هكذا، أنا رسول الله، وكل رسول لا يقول إلا الحق، فأنا لا أقول إلا حقاً وهو المطلوب، أما الصغرى فثابتة لقوله: إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

و أما الكبرى وهي أن الرسول لا يقول إلا الحق فهي ثابتة عقلاً ونقلًا لأن الرسول لا بد أن يكون معصوماً مأموناً عن الخطأ قولاً وفعلًا وإلا لا يعتمد عليه.

قال المفسرون: حَقِيقٌ عَلَى، أي واجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق و قال بعضهم أي جدير و خليف علي كذا لأنني نبي من رب العالمين و شأن المخبر عن الله أن لا يقول إلا الحق، و قال قوم تم الكلام عند قوله: حَقِيقٌ و قوله: عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ مبتدأ و خبر قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ هذا الكلام كأنه جواب عن سؤال مقدّر و هو أن موسى عليه السلام لما قال لفرعون يا فرعون إنني رسول من رب العالمين إلى قوله: إِلَّا الْحَقَّ كأنه قال فرعون في جواب موسى ما الدليل على صدق مدعاك فقال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم، تدل على صدق مقالتي لو كنتم تعقلون وإنما قال من ربكم ولم يقل من ربي إشعاراً بأن لك رب فكيف تدعي الألوهية و أنت مخلوق له فقولك إنا ربكم الأعلى كذب محض ودعوى بلا برهان ثم قال له، فأرسل معي بني إسرائيل، أي أطلق عنهم و خلّهم فرعون قد

إستخدمهم في الأعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب والأحجار الثقيلة و عند ذلك قال فرعون لموسى فأت بالبينة التي تدعيه كما حكى الله عنه.

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

وهذا أعني المطابقة بالبينة حق لا كلام فيه لأن البينة على المدعي وحيث أن موسى كان مدعياً للرسل فالبينة عليه ولذا لم يرد على فرعون في قوله هذا بل أتى بها كما قال تعالى: **فَأَتَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ.**

إعلم أن فرعون طلب من موسى آية من الآيات الدالة على صدق مدعاه والطبيعة الكلية توجد بوجود فردها كما أنها تعدم بعدم جميع الأفراد فلو أتى موسى بآية واحدة كانت كافية وافية ولكنه أتى بآيتين بدل الواحدة إتماماً للحجة وإفحاماً للخصم فأول دلالة آيتين، على المدعي أشد وأثبت من دلالة آية واحدة فأتى موسى بهما ليهلك من هلك عن بينة.

فَالْبَيْنَةُ الْأُولَى: هي صيرورة العصا ثعباناً.

الثانية: نزع اليد وهى بيضاء للنظرين، وإتما بدأ موسى بالعصا دون سائر المعجزات لأنها تحتوي على معجزات كثيرة.

منها، أنه ضرب بها باب فرعون ففزع من قرعها فشاب رأسه فخضب بالسواد فهو أول من خضب بالسواد.

ومنها، إنقلابها ثعباناً وإنقلاب خشبته لحماً ودماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز ويحصل من إنقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصل في غيره.

ومنها، ضربه بها الحجر فينفجر عيوناً.

ومنها، ضربه بها فتنبت.

ومنها، محاربته بها اللصوص والسباع القاصدة غنمه.

ومنها، إشتعالها في الليل كإشتعال الشمعة.

ومنها، صبر ورتها كالرّشا لينزح بها الماء من البئر العميقة.

ومنها، تلقّفها الحبال والعصي التي للسحرة وإبطالها لما صنعوه من كيدهم وسحرمهم وغير ذلك من الآثار المترتبة على العصا، وليعلم أنّ الإلقاء حقيقةً هو في الإجماع ومجاز في المعاني نحو ألقى المسئلة.

قال ابن عباس والسُّدي صارت العصا حيّة عظيمة شعراء فاعرة فاها ما بين لحيتها ثمانون ذراعاً وقيل أربعون نقل أنّها وضعت أحد لحيتها بالأرض والأخر على سور القصر وذكروا من إضطراب فرعون وفزعه وهربه ووعده موسى بالإيمان أن عادت إلى حالها.

فعن العياشي عن عاصم رفعه قال أنّ فرعون بنى سبع مدائن يتحصن فيها من موسى وجعل فيما بينها أجاماً وغياضاً وجعل فيها الأسد ليتحصن بها من موسى فلمّا بعث الله موسى إلى فرعون فدخل المدينة فلمّا رآه الأسد تبصّبت وولّت مدبرة قال ثمّ لم يأت مدينة إلاّ انفتحت له بابها حتّى انتهى إلى قصر فرعون الذي هو فيه قال فقعده على بابه وعليه مدرعة من صوف ومعه عصاه فلمّا خرج الإذن قال له موسى إستأذن لي على فرعون فلم يلتفت إليه قال فمكث بذلك ما شاء الله يسأله أن يستأذن له فلمّا أكثر عليه قال له أما وجد ربّ العالمين من يرسله غيرك قال فغضب موسى فضرب الباب لعصاه فلم يبق بينه وبين فرعون بابٌ إلاّ انفتحت حتّى نظر إليه فرعون وهو في مجلسه فقال أدخلوه فدخل إليه وهو في قبة له مرتفعة كثيرة الإرتفاع ثمانون ذراعاً قال فقال موسى له أنّي رسول ربّ العالمين اليك فقال فرعون فأت بها أن كنت من الصّادقين قال فألقى عصاه وكان له شفتان فاذا هي حيّة قد وقع إحدى الشّفتين في الأرض والشّفة الأخرى في أعلى القبة قال فنظر فرعون في جوفها وهي تلتهب نيراناً قال، وأهوت إليه ما حدث وصاح يا موسى خذها انتهى^(١).

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الطَّبْرَسِيُّ فِي الْمَجْمَعِ قِيلَ أَنَّ
 فرعون قال له هل معك أية أخرى قال موسى نعم فأدخل يده في جيبه وقيل
 تحت إبطه ثم نزعها أي أخرجها منه وأظهرها فإذا هي بيضاء أي لونها أبيض
 نوري ولها شعاع تغلب نور الشمس وكان موسى ^{عليه السلام} آدم فيما يروي ثم أعاد
 اليد إلى كمه فعادت إلى لونها الأول انتهى كلامه.

وعن ابن عباس قال، صارت نوراً ساطعاً يضيئ له ما بين السماء والأرض له
 لمعان مثل لمعان البرق فخرّوا على وجوههم.

وقال الطَّبْرَسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ فَرَأَاهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
 يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى كَمِّهِ فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ وَذَكَرَ فِي الْبَابِ
 رَوَايَاتٍ كُلُّهَا بِهَذَا الْمَضْمُونِ.

أقول قد مرّ الكلام في قصّة موسى وبنِي إسرائيل في سورة البقرة مفصلاً و
 ذكرنا هناك نسب موسى وقومه وقصّة فرعون وملائته فلانعيد الكلام بذكرها
 ثانياً وسيأتي عند تفسير الآيات الواردة في قصّة موسى وفرعون في
 المستقبل أيضاً.

وَأَمَّا قِصَّةُ الْعَصَا فَقِيلَ أَنَّهُ أَعْطَاهُ مَلِكٌ حِينَ تَوَجَّهَ إِلَى مَدِينٍ وَقِيلَ أَنَّ عَصَا
 آدم من أس الجنة حين أهبط وكان يدور بين أولاده حتّى إنتهت التّوبة إلى
 شعيب فكان ميراناً له مع أربعين عصا كانت لأبائه فلما إستأجر شعيب موسى
 أمره بدخول بيت فيه العصا وقال له خذ عصاً من تلك العصى فوقع تلك
 العصا بيد موسى فإسترده شعيب وقال خذ غيرها حتّى فعل ذلك ثلاث
 مرّات في كلّ مرّة يقع يده عليها دون غيرها فتركها في يده في المرّة الرابعة
 فلما خرج من عنده متوجّهاً إلى مصر ورأى ناراً أتت الشّجرة فناداه الله أن يا
 موسى أتني أنا الله وأمره بإلقاءها فصارت حيّة فولّى هارباً فناداه الله سبحانه
 خذها ولا تخف فأدخل يده بين لحيها فعادت عصا فلما أتى فرعون ألقاها

بين يديه على ما تقدّم بيانه انتهى ما ذكره الطبرسي في قصّة العصا قال **أَلَمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** هذا ما حكاه الله تعالى عن أشرف قوم فرعون أنهم لما رأوا ما رأوا من الإعجاز قالوا أن هذا أي موسى لساحرٌ عليم، حملوا إعجاز موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** على السحر كما هو دأب المعاند والجاهل و في قوله: **عَلِيمٌ** إشارة الى علم موسى بالسحر ومهارته فيه فإنّ العليم مبالغة في العلم والمعنى أنّه وصل في هذا العلم الى نهايته.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

أي يريد موسى أن يخرجكم من أرضكم، بإزالة ملككم بتقوية أعداءكم عليكم وقال بعضهم لبعض ماذا تأمرون، ويحتمل أن يكون قالوا ذلك لفرعون على خطاب الملوك ويحتمل أن يكون هذا من كلام فرعون وأنّه خاطب الملاء من قومه وأتباعه وقال لهم ماذا تأمرون أن نفعل بموسى.



قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ
 حَاشِرِينَ (١١١) يَا تُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلَيْهِمْ (١١٢) وَ
 جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا
 نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ
 الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ
 إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا
 أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَ
 جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
 أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)
 فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)
 فغلبوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى
 السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)

◁ اللغة

أَرْجِهْ بفتح الألف أمرٌ من أَرْجِه الأمر إذا تأخر عن وقته.
 الْمَدَائِن جمع المدينة.

حَاشِرِينَ قيل هم أصحاب الشرط.

سَاحِرٍ إسم فاعل من السَّحَر وأصل السَّحَر خفاء الأمر منه خيط السَّحارة
 لخفاء الأمر فيها.

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ، الرَّهْبَةُ والرُّعْبُ مخافة مع تحرُّزٍ وإضطرابٍ.
 صَاغِرِينَ، الصَّاغِرُ الدَّلِيلُ الحقير.

◀ الإعراب

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْجئه يقرأ بالهمزة ضمّ الهاء من غير إشباع وهو الجديّد ويقرأ بالإشباع وهو ضعيف لأنّ الهاء خفيفة فكان الواو التي بعدها تتلو الهمزة قريب من الجمع بين ساكنين ويقرأ بكسر الهاء مع الهمز وهو أيضاً ضعيف لأنّ الهمز حرف صحيح ساكن فليس قبل الهاء ما يقتضي الكسر إمّا أَنْ تُلْقَى في موضع أن، والفعل وجهان: أحدهما: رفع أي أمرنا بالإلقاء.

الثاني: نصب أي إمّا أن تفعل الإلقاء وَاسْتَرْهَبُوهُمْ التاء للطلب أي طلبوا إرهابهم وقيل هو بمعنى إرهابهم مثل، قرّ واستقرّ أَنْ أَلْقَى يجوز أن تكون، أن، مصدرية وأن تكون بمعنى، أي تَلَقَّفْ مضارع وماضيه، لقف مثل علم، و الأصل تَلَقَّفْ فأدغمت الأولى والثانية و وصلت بما قبلها فأغنى عن همزة الوصل يقرأ بفتح اللام وتشديد القاف مع تخفيف التاء مثل، تَكَلَّمَ قَالُوا أَمَّا يجوز أن يكون حالاً أي فإنقلبوا صاغرين قد قالوا ويجوز أن يكون مستأنفاً رَبِّ مُوسَى بدل ممّا قبله، والباقي واضح لا خفاء فيه.

◀ التفسير

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً، سَحَار بتشديد الحاء وألف بعدها والباقون ساحر على وزن الفاعل ومعنى الآية. أنّ قوم فرعون قالو بعد استشارته أيّامهم بأن يؤخر وإخاه إلى أن يرسل في بلاد مملكته حاشرين.

وقال ابن عباس هم الشرط وقال مجاهد والسّدي يحشرون من يعلمونه من السّحرة والعالمين بالسّحر ليقابل بينهم وبين موسى جهلاً منهم بأن ذلك ليس بسحر.

وقال محمد بن إسحاق لمّا رأى فرعون من آيات الله ما رأى قال لن تغالب موسى إلاّ بمن هو منه فإنّخذوا غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم الى قرية. قال البغوي هي الغر ما يعلمونهم السحر كما يعلمون الصبيان في المكتب فعلموهم سحراً كثيراً وواعد فرعون موسى ثمّ دعاهم وسألهم فقال ماذا صنعتم قالوا ما علمناهم من السحر ما لا يقاومهم به أهل الأرض إلاّ أن يكون أمراً من السماء فأثّه لا طاقة لنا به.

وقال بعض المفسرين، معناه وأرسل في مدائن صعيد مصر رجالاً يحشروا اليك ما فيها من السحرة وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد وقيل أنّهم أي السحرة كانوا سبعين ساحراً سوى رئيسهم وكان الذي يعلمهم رجالاً مجوسياً من أهل نينوى بلدة يونس عليه السلام وهي قرية بالموصل. قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه:

أقول هذا النّقل مشكل لأنّ المجوس أتباع زرادشت وهو أنما جاء بعد مجي موسى عليه السلام انتهى كلامه.

وأنا أقول أمّا أنّ هذا النّقل مشكل فلا كلام لنا فيه اذ لا دليل عليه وأمّا قوله أنّ زرادشت جاء بعد مجي موسى، ففيه أنّ زرادشت لم يثبت وجوده في العالم وعلى فرض وجوده لم يثبت نبوته وعلى فرض الثبوت لم يعلم زمان نبوته فقوله جاء بعد مجي موسى يحتاج الى الإثبات وهو أشكل.

وأما قوله تعالى: يَا تُوتُوك بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فهو يدلّ على أنّ السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان فقال بعضهم أنّ عدّتهم كان اثني عشر ألفاً وقيل بضعة و ثلاثون ألفاً وقيل سبعون ألفاً وقيل غير ذلك والحقّ أنّ عدّتهم لا يعلمها إلاّ الله.

فيه القرآن في تفسيره

جزء ٩

الجلد الثاني

وعن ابن عباس أنّهم كانوا سبعين ساحراً وجاء السحرة فزعون قالوا إنّ لنا لأجراً إنّ كنّا نحن الغالبين، قال نعم وإنّكم لمن المقرّبين أي لمّا أمر فرعون بإحضار السحرة فقالوا له أي لفرعون أنّ لنا لأجراً أي جعلاً أن كنّا نحن

الغالبين على موسى في سحرنا هذا فقال فرعون نعم وأنكم لمن المقربين عندنا ومن المعلوم أن من كان مقرباً عند السلطان فله ما يشاء.

قال بعض المفسرين في الآية دليل لقوم فرعون على حاجته وذلته لو إستدلوا وأحسنوا النظر لنفوسهم لأنه لم يحتج إلى السحرة إلا للذلة وعجزه وكذلك في طلب السحرة الأجر دليل على عجزهم عما كانوا يدعون من القدرة على قلب الأعيان لأنهم لو كانوا قادرين على ذلك لاستغنوا عن طلب الأجر من فرعون ولقلبوا الصخر ذهباً ولقلبوا فرعون كلباً وإستولوا على ملكه.

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ أَي قال السحرة لموسى كذلك وقد أنصفوا في قولهم هذا قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ

أي قال موسى لهم ألقوا أعطاهم موسى التقدّم في الإلقاء وثوقاً بالحقّ وعلماً بأنه تعالى سيبطله فلما ألقوا ما ألقوا من السحر سحروا أعين الناس، أي أروا العيون بالحيل والتّخيلات ما لا حقيقة له وفي هذا الكلام دلالة على أن السحر لا يقلّب عيناً وأنما هو من باب التّخيل والتّمويه وقوله: اسْتَرْهَبُوهُمْ واستفعل هنا بمعنى أفعال والرّهبة الخوف والفرع وأنما وصف السحر بعظيم لقوّة ما خيل أو لكثرة آلاته من الحبال والعصي قيل أنّهم جاءوا بحبال من أدم وأخشاب مجوّفة مملّوءة زيبقاً وأوقدوا في الوادي ناراً فحميت بالنار من تحت وبالشّمس من فوق فتحركت وركب بعضها بعضاً وهذا من باب الشّعبة وقيل غير هذا وقال بعض المفسرين ووصف السحر بأنه عظيم، لبعده مرام الحيلة فيه وشدّة التّمويه به فهو لذلك عظيم الشأن عند من يراه من الناس ولأنّه على ما ذكرناه من الخلاف في عدّة السحرة من سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً كان مع كلّ واحدٍ حبل وعصا فلما ألقوها وخيل إلى النّسا أنّها تسعى إستعظموا ذلك وخافوه فلذلك وصفه الله بأنه سحرٌ عظيم انتهى كلامه.

قول الحق أن يقال أن ما جاءوا به كان عظيمًا في أعين الناس لا أنه كان عظيمًا واقعًا وذلك لأن ما لا حقيقة له لا يوصف بالعظمة واقعًا وإنما يوصف بها ظاهراً في أعين الناس.

وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

أي لما أتوا بالسحر العظيم أوحينا الى موسى أن ألقى عصاك فألقى عصاه فصارت حيّة فاذا هي تلقف أي تبتلع تناولاً بفيها بسرعة منها، ما يأفكون، الإفك هو قلب الشيء عن وجهه ومنه المؤتفكات، المنقلبات، والإفك الكذب لأنه قلب المعنى عن جهة الصواب ولذلك قال تعالى فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون، أي ظهر الحق على يد موسى فلا محالة بطل ما كانوا يعملون من التّخيلات والتّمويهات لأنّ الحقّ والباطل لا يجتمعان قال الله تعالى: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا^(١).

فَعَلَبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ، وَ أَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ

أخبر الله تعالى أنه لما ألقى موسى عصاه وصارت حيّة وتلفقت ما أفكت السّحرة أنهم أي غلبوا هنالك وأنقلبوا صاغرين، أي صاروا مغلوبين ورجعوا أدلاء والصّاغر الدّليل والمعنى أنهم غلبوا في مكان اجتماعهم أو ذلك الوقت وذلك أنّ الانقلاب أن كان قبل إيمان السّحرة فهم شركائهم في ضمير إنقلبوا وأن كان بعد الإيمان فليسوا داخلين في الضّмир ولا لحقهم صغار يصفهم الله به لأنّهم آمنوا وأستشهدوا وهذا إذا كان الانقلاب حقيقة أمّا إذا لوحظ فيه معنى الصّيرورة فالضمير في وأنقلبوا شامل للسّحرة وغيرهم ولذلك فسره بعض المفسّرين بقوله وصاروا أدلاء مبهوتين وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ أي

بناءً على القرآن في السّحرة

جزء ٩

الجزء ٩

خَرَوْا سَجْدًا كَأَنَّمَا أَلْقَاهُمْ فَلَقٍ لِّشِدَّةِ خُرُورِهِمْ، وَقِيلَ لِمَ يَتَمَالَكُوا مِمَّا رَأَوْا فَكَأَنَّهُمْ أَلْقَوْا، قَالُوا أَنَّ سَجُودَهُمْ كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى لَمَّا رَأَوْا مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ فَتَيَقَّنُوا بِنَبْوَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتَعْظَمُوا هَذَا النَّوعَ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ، أَلْقَاهُمْ اللَّهُ سَجْدًا، وَ قِيلَ سَجِدُوا مُوَافِقَةً لِمُوسَى وَهَرُونَ فَأَتَهُمَا سَجْدًا لِلَّهِ شُكْرًا عَلَى وَقُوعِ الْحَقِّ وَ بَطْلَانِ عَمَلِ السَّحَرَةِ فَوَافَقُوهُمَا إِذْ عَرَفُوا الْحَقَّ فَكَأَنَّمَا أَلْقَاهُمْ، قَالَ قَتَادَةُ كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ كَفَّارًا سَحَرَةً وَ آخِرَ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بِرَّةٍ.

أَقُولُ الْحَقُّ أَنَّ السَّجْدَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ أَلْقَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ لَيْسَتْ بِمَعْنَى الْمَصْطَلَحِ عِنْدَ الْمُتَشَرِّعِ أَعْنِي بِهِ وَضْعَ الْجِهَةِ عَلَى الْأَرْضِ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ، بَلِ الْمُرَادُ بِهَا فِي الْمَقَامِ هُوَ مَعْنَاهَا اللَّغْوِي وَهُوَ التَّطَامُنُ وَالتَّذَلُّلُ وَالتَّوَاضِعُ وَ الْخُشُوعُ فِي قِبَالِ عِظَمَةِ اللَّهِ وَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَيْ السَّحَرَةُ قَبْلَ رُؤْيِهِمْ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى كَانُوا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ثُمَّ صَارُوا بَعْدَهَا مُتَوَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ فِي جَنْبِ عِظَمَتِهِ وَ قُدْرَتِهِ وَ كَيْفَ كَانَ فَالْآيَةُ تَدَلُّ عَلَى خُضُوعِهِمْ وَ أَنَّهُمْ صَارُوا مُنْقَادِينَ مُطِيعِينَ مُؤْمِنِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ حِكَايَةً عَنْهُمْ قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ **الْعَالَمِينَ** الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فَأَنَّ الْعَالَمِينَ يَصْدُقُ عَلَى جَمِيعِ مَا سِوَى اللَّهِ وَ لِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ أَنَّ مُوسَى وَ هَرُونَ كَانَا دَاخِلِينَ فِي الْعَالَمِينَ وَ لَازِمَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ رَبَّهُمَا كَمَا كَانَ رَبٌّ غَيْرُهُمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فَمَنْ آمَنَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ آمَنَ بِرَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ أَيْضًا فَمَا وَجَهَ تَخْصِيصُهُمَا بِالذِّكْرِ حَيْثُ قَالَ: رَبِّ **مُوسَى وَ هَرُونَ**.

وَالْجَوَابُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَكُنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي إِعْتِقَادِ فِرْعَوْنَ وَ أَتْبَاعِهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، فَلَوْ قَالَ السَّحَرَةُ أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَ أَكْتَفَوْا بِهَذَا الْكَلَامِ لَقَالَ فِرْعَوْنَ وَ مَنْ تَبِعَهُ أَرَادَ السَّحَرَةَ مِنْ كَلَامِهِمْ هَذَا فِرْعَوْنَ فَأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَلَمَّا قَالُوا رَبِّ **مُوسَى وَ هَرُونَ أَزَالُوا الشُّبْهَةَ عَنْ قُلُوبِ الْحَاضِرِينَ، فَهَذَا مِنْ قِبَلِ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ رَبِّ**

مُوسَى وَ هَارُونَ إِشَارَةً إِلَى نَكَتِهِ خَفِيَّةٍ دَقِيقَةٍ وَ هِيَ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ، الَّذِي أَقْدَرَهُمَا عَلَى إِبْطَالِ السَّحَرِ بِسَبَبِ الْمَعْجِزَةِ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّبَّ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هُوَ إِلَهُ مُوسَى وَ هَارُونَ.

وَ أَمَّا فِرْعَوْنُ فَإِنَّ كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ لَكَانَ قَادِرًا عَلَى دَفْعِهِ أَيْضًا وَ التَّالِي بَاطِلٌ فَالْمَقْدَمُ مِثْلُهُ فَهُوَ لَيْسَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ وَ لَنَعْمَ مَا قِيلَ:
 قُلْ لِلَّذِي يَدْعِي فِي الْعِلْمِ فِلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَ غَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ



قَالَ فِرْعَوْنُ اامْتَنُم بِهِ قَبْلَ اَنْ اَدْنَ لَكُمْ اِنْ هَذَا
لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِى الْمَدِيْنَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا
اَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ (١٢٣) لَا تُطِيعَنَّ اَيِّدِيَكُمْ وَ
اَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَا صَلِّبَتْكُمْ اَجْمَعِيْنَ
(١٢٤) قَالُوا اِنَّا اِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ (١٢٥) وَمَا
تَنْفَعُ مِنَّا اِلَّا اَنْ اَمَّنَّا بِاَيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا
اَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَقَّنَا مُسْلِمِيْنَ (١٢٦) وَقَالَ
الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ اَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ
لِيُفْسِدُوْا فِى الْاَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ الْهَيْكَةَ قَالَ
سَنُقْتِلُ اَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِيْ نِسَاءَهُمْ وَ اِنَّا فَوْقَهُمْ
قَاهِرُوْنَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اَسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ
وَ اصْبِرُوْا اِنَّ الْاَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهَا مَنْ يَّشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَ الْاَعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ (١٢٨) قَالُوا اَوْذَيْنَا مِنْ
قَبْلِ اَنْ تَاْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى
رَبُّكُمْ اَنْ يُّهْلِكَ عَدُوْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِى
الْاَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ (١٢٩)

◀ اللغة

لَمَكْرٌ، المَكْرُ، قيل الإغترار بالحيلة الى خلاف جهة الإستقامة وقيل هو
سرف الغير عما يقصده بحيلة.

تَنْفَعُ مضارع ماضيه نَفَعٌ والنَّفْعُ الإنكار يقال نفعت الشيء ونفعته اذا أنكرته
أم باللسان وأما بالعقوبة قاله الرَّاغب في المفردات.

أَفَرَأَيْتُمُ الْفَرَاعَ خِلافَ الشُّغْلِ يُقَالُ أَفَرَعْتُ الدَّلْوَ صَبَبْتُ مَا فِيهِ.
أَلَمَلًا الْجَمَاعَةُ.

◀ الإعراب

أَمْتُمْ قد يقرأ بهمزتين على الإستفهام وقد يقرأ بهمزة واحدة على لفظ الخبر فيجوز أن يكون خبراً في المعنى وأن يكون بحذف همزة الإستفهام وما تَنْفِمْ بكسر القاف وفتحها يُورِثُهَا يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون حالاً من الله.

◀ التفسير

قَالَ فِرْعَوْنُ أَمْتُمْ بِهِ أَي قَالَ فِرْعَوْنُ لِلسَّحرة أَمْتُمْ بِهِ أَي بَرَبِّ الْعَالَمِينَ قَبْلَ أَنْ أَذِنَ لَكُمْ أَي أَمْتُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ مِنْ غَيْرِ إِسْتِثْنَانِ مَنِيَّ إِنَّ هَذَا أَي أَنَّ هَذَا الْإِيمَانَ مِنْكُمْ لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ إِحْتَلَمَوْهَا أَنْتُمْ وَ مُوسَى فِي مِصْرَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا إِلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ وَ تَوَاطَأْتُمْ عَلَى ذَلِكَ لَغَرَضٍ لَكُمْ وَ هُوَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا الْقَبْطَ وَ تَسْكُنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ.
وَ أَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا قَالَ تَمْوِيهَا عَلَى النَّاسِ لَثَلَا يَتَّبِعُوا السَّحرة فِي الْإِيمَانَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ جِزَاءَ مَكْرِكُمْ هَذَا مَنِيَّ، قَبْلَ أَنَّ مُوسَى اجْتَمَعَ مَعَ رُئِيسِ السَّحرة شَمْعُونَ فَقَالَ لَهُ مُوسَى أَرَأَيْتَ أَنْ غَلَبْتُكُمْ أَتُؤْمِنُونَ بِي فَقَالَ لَهُ نَعَمْ فَعَلِمَ بِذَلِكَ فِرْعَوْنُ فَقَالَ مَا قَالَ.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَى أَنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالسَّحَرِ أَقْرَبُ نَبْوةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ خَافَ أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ حُجَّةَ قُوَّةٍ عِنْدَ قَوْمِهِ عَلَى صِحَّةِ نَبْوةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَلْقَى فِي الْحَالِ نَوْعَيْنِ مِنَ الشَّبْهَةِ إِلَى أَسْمَاعِ الْعَوَامِ لِتَصِيرَ تِلْكَ الشَّبْهَةُ مَانِعَةً لِلْقَوْمِ مِنْ إِعْتِقَادِ صِحَّةِ نَبْوةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فالشبهة الأولى: قوله: إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ والمعنى أَنَّ إيمان هؤلاء السحرة بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس لقوة الدليل بل لأجل أَنَّهُمْ تَوَاطَوْا مع موسى أَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِكَ وَنَقَرُ بِنُبُوتِكَ فَهَذَا الْإِيمَانُ أَنَّمَا حَصَلَ بِهَذَا الطَّرِيقِ.

وَالشَّيْبَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ غَرَضَ مُوسَى وَالسَّحَرَةِ فِيمَا تَوَاطَوْا عَلَيْهِ إِخْرَاجَ الْقَوْمِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَإِبْطَالِ مُلْكِهِمْ وَ مَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ أَنَّ مَفَارِقَةَ الْوَطَنِ وَالنَّعْمَةَ الْمَأْلُوفَةَ مِنْ أَصْعَبِ الْأُمُورِ فَجَمَعَ فِرْعَوْنَ اللَّعِينُ بَيْنَ الشَّيْبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَا يَوْجَدُ أَقْوَى مِنْهَا فِي الْبَابِ أَنْتَهَى.

وَرَوَى الطَّبْرِيُّ عَنِ السُّدِّيِّ فِي حَدِيثٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ مُوسَى وَآمِيرَ السَّحَرَةِ إِلْتَقَيَا فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ غَلْبَتَكَ أَتُؤْمِنُ بِي وَتَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ الْحَقُّ قَالَ السَّاحِرُ لَا تَتَيْنَنَّ غَدًا بِسِحْرٍ لَا يَغْلِبُهُ سِحْرُ فَوَاللَّهِ لَاؤْمِنَنَّ بِكَ إِنْ غَلَبْتَنِي وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا وَيَسْمَعُ قَوْلَهُمَا فَهَذَا هُوَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ أَنْتَهَى.

أَقُولُ مَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ عَنِ السُّدِّيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ بِالْمَوْهُومَاتِ أَشْبَهَ إِذْ كَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يَتَكَلَّمَ السَّاحِرُ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ وَفِرْعَوْنُ يَنْظُرُ وَيَسْمَعُ وَهُوَ كَيْفَ كَانَتِ الْقَضِيَّةُ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ أَمْنُوا بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ بِصَرِيحِ الْآيَةِ بَلْ نَقُولُ لَا تَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُمْ أَمْنُوا بِنُبُوءَةِ مُوسَى اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ بَابِ الْمُلَازِمَةِ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ.

لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

هَدَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ بِالصَّلْبِ أَمَّا قَطْعُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ، فَقِيلَ مَعْنَاهُ هُوَ الْقَطْعُ مِنْ جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ أَمَّا مِنَ الْيَدِ الْيُمْنَى وَالرَّجْلِ الْيُسْرَى أَوْ مِنَ الْيَدِ الْيُسْرَى وَالرَّجْلِ الْيُمْنَى وَأَمَّا الصَّلْبُ فَمَعْلُومٌ لَا خِفَاءَ فِيهِ.

رَوَى فِي الْبَحَارِ عَنِ الصَّدُوقِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ بَنَى سَبْعَ مَدَائِنَ فَتَحَصَّنَ فِيهَا مِنْ مُوسَى فَلَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ فِرْعَوْنَ جَاءَهُ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْأُسُودُ بَصَبَصَتْ بِأَذْنَابِهَا وَلَمْ يَأْتِ مَدِينَةَ إِلَّا أَنْفَتَحَ لَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ هُوَ فِيهَا فَقَعَدَ عَلَى الْبَابِ وَ عَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ وَمَعَهُ عَصَاهُ فَلَمَّا خَرَجَ الْأَذْنُ قَالَ لَهُ مُوسَى أَنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْكَ فَلَمْ يَلْتَفِتْ فَضْرَبَ بِعَصَاهُ الْبَابَ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ بَابٌ إِلَّا أَنْفَتَحَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ أَنَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ أَتُنْتَنِي بِأَيَّةٍ فَأَلْقَى عَصَاهُ وَكَانَ لَهَا شُعْبَتَانِ فَوَقَعَتْ إِحْدَى الشَّعْبَتَيْنِ فِي الْأَرْضِ وَالشَّعْبَةُ الْأُخْرَى فِي أَعْلَى الْقُبَّةِ فَنَظَرَ فِرْعَوْنَ إِلَى جَوْفِهَا وَهِيَ تَلْتَهَبُ نَاراً وَأَهْوَتْ إِلَيْهِ فَأَحْدَثَ فِرْعَوْنَ وَصَاحَ يَا مُوسَى خُذْهَا وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ جُلَسَاءِ فِرْعَوْنَ إِلَّا هَرَبَ فَلَمَّا أَخَذَ مُوسَى الْعَصَاهُ هَمَّ فِرْعَوْنَ بِتَصْدِيقِهِ فَقَامَ إِلَيْهِ هَامَانَ وَقَالَ بَيْنَا أَنْتَ إِلَهُ تَعْبُدُ لِعَبْدٍ وَاجْتَمَعَ الْمَلَأُ وَقَالُوا هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَلَمَّا أَلْقَوْا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمُ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَالْتَقَمَهَا كُلُّهَا فِي السَّحَرَةِ أَثْنَانِ وَ سَبْعُونَ شَيْخاً خَرُّوا سُجْداً ثُمَّ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ مَا هَذَا سِحْرٌ لَوْ كَانَتْ سِحْرًا لَبَقِيتُ حِبَالَنَا وَعَصِيَّتَنَا الْحَدِيثُ (١).

وَمَحْضَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَصَلَبَهُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ عَلَى شَاطِئِ نَهْرِ مِصْرَ.

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ

أَيُّ قَالَ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ بَعْدَ تَهْدِيدِهِ أَيَّامَهُمُ بِالْقَتْلِ إِنَّا لَا نَخَافُ مِنَ الْقَتْلِ وَ ذَلِكَ لِإِنَّا رَاجِعُونَ بِالتَّوْحِيدِ وَ الْإِخْلَاصِ وَ الْإِنْقِلَابِ إِلَى اللَّهِ هُوَ الْإِنْقِلَابُ إِلَى

فِيهِ التَّوْحِيدُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٩

المجلد التاسع

جزاءه و غرضهم التَّسْلِي في الصَّبْر على الشَّدة لما فيه من المثوبة مع مقابلة وعيده بوعيدٍ أشدَّ منه وهو عقاب الله في الدنيا والآخرة.

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ

السَّحرة لفرعون و ما تنقم منّا، أي و ما تطعن علينا و لا تكرّه منّا إلا إيماننا بالله و تصديقنا بآياته التي جاءتنا، ربّنا أفرغ علينا صبراً، أي أصبب علينا الصَّبْر عند القطع و الصَّلْب حتّى لا نرجع كفّاراً بعد الإيمان و تَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ لا كافرين و ذلك لأنّ الإنسان إذا رأى القطع و الصَّلْب يرجع عمّا كان غالباً بوسوسة الشَّيْطان إلا أن يكون مؤيِّداً من عند الله و لذلك رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا أي إجعلنا صابرين على الشَّدة والعذاب في طريق الحقّ و هو من أحسن الدَّعاء. ثمّ أنّ هذا الإستثناء في قوله و ما تنقم منّا إلا أن آمنا بآيات ربّنا، شبيه بالإستثناء في قول الشّاعر:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب
وإلا فالإيمان بالله هو أصل المفاخر والمناقب على رغم أنف فرعون.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ

الظّاهر أنّهم قالوا في ذلك لفرعون بعد قتل فرعون السَّحرة و صلبهم على جذوع النَّخل، و الملأ الجماعة و المراد بهم في الآية جماعة من قوم فرعون الذين كانوا حاضرين في مجلسه و يعبر عنهم بأعوان الظَّلمة، فأنّهم قالوا لفرعون أنذر موسى، أي أتركه و قومه من بني إسرائيل ليفسدوا في الأرض، أي في أرض مصر، و قيل لما أسلم السَّحرة قالوا ذلك أي قبل قتل فرعون إيّاهم فقالوا له أتركهم أحياء ليظهروا خلافك و يدعوا النَّاس الى مخالفتك

ليغلبوا عليك فيفسد به ملكك وروي عن ابن عباس أَنَّهُ لَمَّا آمَنَ السَّحَرَةُ أَسْلَمَ
 مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سِتْ مِائَةَ أَلْفِ نَفْسٍ وَاتَّبَعُوهُ وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَيَذَرُكَ وَ
 إِلَهَتَكَ فَمَعْنَاهُ يَذَرُكَ وَإِلَهَتَكَ مُوسَى، أَيِ يَتْرُكُ وَيَتْرُكُ آلِهَتَكَ وَاسْتَخْلَفُوا فِي
 قَوْلِهِ وَإِلَهَتَكَ فَقِيلَ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَعَلَى هَذَا كَانَ يَعْبُدُ وَيَعْبُدُ
 كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، وَقَالَ السَّيِّدِي كَانَ فِرْعَوْنَ
 يَعْبُدُ مَا يَسْتَحْسِنُ مِنَ الْبَقَرِ وَعَلَى ذَلِكَ أَخْرَجَ السَّامِرِيُّ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُؤَافُ
 فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى^(١) وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ لَهُ أَصْنَامٌ يَعْبُدُهَا قَوْمُهُ
 تَقَرُّباً إِلَيْهِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ (وَيَذَرُكَ وَإِلَهَتَكَ) بِمَعْنَى وَعِبَادَتَكَ وَقَالَ كَانَ
 فِرْعَوْنَ يَعْبُدُ وَلَا يَعْبُدُ وَقَالَ آخَرُونَ، أَنَّ آلِهَتَكَ، أَنَّمَا هُوَ تَأْنِيثٌ إِلَهُ وَجَمْعُهُ
 آلِهَتَكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

تَرْوِحُنَا مِنَ اللَّعِبَاءِ قَصِراً فَأَعْلَجْنَا الْإِلَهَةَ أَنْ تَوُوبَا
 يَعْنِي الشَّمْسُ، قَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ نَقْلِهِ الْأَقْوَالِ الْمَخْتَلِفَةَ
 مَا هَذَا لَفْظُهُ الَّذِي يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ فِرْعَوْنَ أَنْ قُلْنَا أَنَّهُ مَا كَانَ كَامِلَ الْعَقْلِ لَمْ يَجْزِ
 فِي حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِسْرَالُ الرَّسُولِ إِلَيْهِ وَأَنْ كَانَ عَاقِلاً لَمْ يَجْزِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِي
 نَفْسِهِ كَوْنَهُ خَالِقاً لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَجْزِ فِي جَمْعِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعُقُلَاءِ أَنْ
 يَعْتَقِدُوا فِيهِ ذَلِكَ لِأَنَّ فُسَادَهُ مَعْلُومٌ بِضُرُورَةِ الْعَقْلِ بَلِ الْأَقْرَبُ أَنْ يَقَالَ أَنَّهُ كَانَ
 دَهْرِيّاً يَنْكُرُ وَجُودَ الصَّانِعِ وَكَانَ يَقُولُ مَدْبِراً هَذَا الْعَالَمِ السَّفَلِيِّ هُوَ الْكَوَاكِبِ.
 وَأَمَّا الْمَجْدِي فِي هَذَا الْعَالَمِ لِلْخَلْقِ وَلِتِلْكَ الطَّاعَةِ وَالْمَرْبِيِّ لَهُمْ هُوَ نَفْسُهُ
 فَقَوْلُهُ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى أَيِ مَرْبِيكُمْ وَالْمَنْعَمُ عَلَيْكُمْ وَالْمَطْعَمُ لَكُمْ وَقَوْلُهُ مَا عَلِمْتُ
 لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، أَيِ لَا أَعْلَمُ لَكُمْ أَحَداً يَجِبُ عَلَيْكُمْ عِبَادَتُهُ إِلَّا أَنَا وَإِذَا كَانَ
 مَذْهَبُهُ ذَلِكَ لَمْ يَبْعُدْ أَنْ يَقَالَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ أَصْنَامٌ عَلَى صُورِ الْكَوَاكِبِ وَيَعْبُدُهَا وَ
 يَتَقَرَّبُ إِلَيْهَا عَلَى مَا هُوَ دِينَ عِبْدَةِ الْكَوَاكِبِ وَعَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ فَلَا إِمْتِنَاعَ فِي حَمْلِ
 قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَذَرُكَ وَإِلَهَتَكَ عَلَى ظَاهِرِهِ فَهَذَا مَا عِنْدِي فِي هَذَا الْبَابِ أَنْتَهَى.

في القرآن في تفسير القرآن
 الجزء ٩
 المجلد
 رقم

وأنا أقول ما ذكره في تفسير الآية من الإستحسانات العقلية بل الوهمية لا ربط له بالمقام ولا يؤيده العقل الخالي عن شوائب الأوهام وذلك لأن قوله و أن كان عاقلاً لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالقاً للسموات والأرض الخ. كلام لا طائل تحته فأَنْ مقام الإقرار اللساني غير مقام الاعتقاد فأَنْ الإنسان العاقل كثيراً ما يدعى بلسانه ما يخاف اعتقاده ومنشأ ذلك هو حب الدنيا. قال رسول الله ﷺ حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ.

فإذا كان الإنسان محباً للرئاسة والزعامه ورأى أنه لا يصل الى مطلوبه و محبوبه إلا بقلب الحقائق والدعاوي الكاذبة الباطلة فلا محالة يقول بلسانه ما ليس في قلبه و يدعى ما ليس يعتقد في نفسه وهذا الأصل سار و جارٍ في الناس الى يوم القيامة إلا أن الدعاوي متفاوتة متغايرة فمنهم من يدعى الألوهية ومنهم من يدعى النبوة ومنهم من يدعى الوصاية والامامة وهكذا و المفروض أن جميعهم من العقلاء و محصل الكلام هو أن مقام الأدعاء اللساني غير المقام الاعتقاد القلبي فقول فرعون أنا ربكم الأعلى لا ينافي اعتقاده على خلافه ألا ترى أن أبا بكر يدعى خلافة رسول الله مع علمه بأن خليفة رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والدليل عليه قول علي عليه السلام في الخطبة الشقشقية حيث قال عليه السلام:

أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرُّخَى، الخ....

و قول أبي بكر، أقيلوني إقيلوني لست بخيركم و علي فيكم و أمثال ذلك من النصوص الدالة على كونه غاصباً لمقام الخلافة عالمأ عامداً مع علمه و اعتقاده بعدم أهليته لها حباً منه للرئاسة والخلافة و أشنع منه إدعاء معاوية و أمثاله للخلافة ليس معاوية و غيره من الخلفاء في زمرة العقلاء، فأقض ما أنت قاض ثم أعجب.

قَالَ سَنُقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ فَاهِرُونَ

أَيَّ قَالَ فِرْعَوْنَ لِلْمَلَأِ سَنَقْتَلُ أَبْنَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنَسْتَحْيِي أَيَّ نَسْتَبْقِي نِسَاءَهُمْ لِلْمَهْنَةِ وَالْخِدْمَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ نَجْدَةٌ وَلَا عِنْدَهُمْ مَنَعَةٌ وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا التَّهْدِيدَ وَقَعَ مِنْهُ فِي غَيْرِ الزَّمَانِ الْأَوَّلِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى سَنَعِيدُ عَلَيْهِمْ مَا كُنَّا فَعَلْنَا بِهِمْ مِنْ قَبْلِ مَنْ قَتَلَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِسْتَحْيَا نِسَاءَهُمْ لِيَقْتُلَ رَهْطَهُ الَّذِينَ يَقَعُ مِنْهُمْ الْفُسَادُ وَالْفُوقِيَّةُ هُنَا بِالْمَنْزِلَةِ وَالتَّمَكُّنُ فِي الدُّنْيَا وَقَوْلُهُ قَاهِرُونَ، يَقْتَضِي تَحْقِيرَ مُوسَى وَقَوْمِهِ وَالْمَعْنَى إِنَّا كُنَّا غَائِبِينَ قَاهِرِينَ عَلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ قَبْلَ هَذَا وَالْآنَ أَيْضاً كَذَلِكَ.

أَوِ الْمَعْنَى أَنَّ غَلْبَةَ مُوسَى لَا أَثَرَ لَهَا فِي مَلِكُنَا وَإِسْتِيلَانَا وَلِتَلَايَتَوْهُمْ الْعَامَّةُ أَنَّهُ الْمَوْلُودُ الَّذِي تَحَدَّثَ الْمَنْجَمُونَ عَنْهُ وَالكَهَنَةُ بِذَهَابِ مَلِكُنَا عَلَى يَدِهِ فَيَمْنَعُهُمْ ذَلِكَ عَنْ طَاعَتِنَا وَالْحَاصِلُ إِنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْغَلْبَةِ وَالْقُدْرَةِ.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

لَمَّا تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ جَزَعُوا وَتَضَجَّرُوا وَخَافُوا مِنْ سَطْوَةِ فِرْعَوْنَ فَسَكَنَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَرَهُمْ بِالِاسْتِعَانَةِ وَالِاسْتِمْدَادِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبِالصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ ثُمَّ سَلَّاهُمْ وَوَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ وَذَكَرَهُمْ مَا وَعَدَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِهْلَاكِ الْقَبْطِ وَتَوْرِيثِهِمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ أَيُّ أَرْضِ مِصْرَ أَوْ مَطْلُقِ الْأَرْضِ لَيْسَتْ خَالِصَةً لِفِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِهِ بَلْ هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى يَجْعَلُهَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، أَيُّ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ لَهُمْ، الدَّارُ الْآخِرَةُ، وَقِيلَ السَّعَادَةُ وَالشَّهَادَةُ، وَقِيلَ الْجَنَّةُ، وَالْجَامِعُ هُوَ أَنَّ الْخَاتِمَةَ الْمَحْمُودَةَ لِلْمُتَّقِينَ. وَأَمَّا قَالَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وَلَمْ يَقُلْ لَكُمْ مِثْلًا، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ التَّقْوَى فَكَأَنَّهُ قَالَ تَمَسْكُوا بِالتَّقْوَى فَإِنَّ حَسْنَ الْعَاقِبَةِ فِي الدَّارِينَ لِلْمُتَّقِينَ.

قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

أي قال بني إسرائيل لموسى أؤذينا من قبل أن تأتينا، بإبتلاءنا بذبح أبناءنا مخافة ما كان يتوقع فرعون من هلاك ملكه على يد المولود الذي يولد منا من قبل أن تأتينا، وأما قالوا ذلك لأن فرعون كان يعذبهم بأنواع العذاب قبل مجي موسى فكان يقتل أبناءهم ويستخدم نساءهم.

وأما بعد مجي موسى كان فرعون يتوعددهم ويأخذ أموالهم ويكلفهم الأعمال الشاقة وحاصل كلامهم إننا لم ننتفع بمجيتك وهذا يدل على أنه جرى فيهم القتل والتعذيب مرتين قال الحسن كان فرعون يأخذ منهم الجزية قبل مجي موسى وبعده وهذا كان إستبطاء منهم لما وعدهم موسى من النجاة فجدد لهم الوعد وقال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون قال سبويه، لعل وعسى، طمع وإشفاق.

وقال الحسن، عسى من الله واجبة، وقال الفارسي، عسى، هاهنا يقين، وتوضيح المقام إجمالاً هو أن موسى لما جاء وعدهم بالنصر والغلبة وزوال تلك المضار فظنوا أنها تزول على الفور فلما رأوا أنها ما زالت رجعوا إليه في معرفة كيفية ذلك الوعد فبين لهم موسى أن الله سينجز لهم ذلك الوعد في الوقت الذي قدر له وبهذا التقرير يندفع الإشكال وهو أن هذا القول من بني إسرائيل كفر بالله وإنكار وإكراه لمجي موسى وأما قوله: **فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** أي فينظر الله كيف تعملون بعد إستخلافكم في الأرض وفيه إشارة إلى أن الله تعالى ينظر إلى أعمال عباده ولا يغفل عنها فإذا وقعوا في النعمة لم يشكروا عليها فهو تعالى يزيل عنهم النعمة ويلبسهم لباس النقمة، قيل أن معنى ينظر هاهنا، يعلم، وقيل معناه يرى وكلاهما مجاز لأن النظر هو الطلب لما يدرك وهذا لا يجوز عليه.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصِ مِنْ
 الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ
 الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا
 بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ
 لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا
 بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
 (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَ
 الْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
 فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا
 وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
 بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً كَمَا
 كُنَّا نَعِدُكَ (١٣٤) فَانْزَلْنَا مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 كَمَا كُنَّا نَعِدُكَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
 بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)

اللغة

بِالسِّنِينَ، السِّنِينَ بكسر السين والتّون جمع سنة وهي تطلق على الحول و
 تطلق على الجذب ضدّ الخصب و بهذا المعنى تكون من الأسماء الغالبة و
 المراد بالسِّنِينَ القموط و الجدوب.
 يَطَّيَّرُوا أي يتشأموا.
 الرِّجْزُ بكسر الراء العذاب.

◀ الإعراب

وَنَقِصَ مِنَ الشَّجَرَاتِ تَتَعَلَقُ بِنَقِصٍ وَالمَعْنَى وَبَتَقْصُ الشَّجَرَاتِ يَطِيرُوا أَيْ يَطِيرُوا وَقَرِي شَادَاً تَطِيرُوا، عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي مَهْمَا فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:
أحدها: أَنْ، مَه، بِمَعْنَى أَكْفَفَ وَمَا إِسْمٌ لِلشَّرْطِ.

الثاني: أَنْ أَصْلُ مَه، مَا الشَّرْطِيَّةُ زِيدَتْ عَلَيْهَا، مَا، كَمَا زِيدَتْ فِي قَوْلِهِ، أَمَّا يَأْتِينَكُمْ، ثُمَّ أَبْدَلَتْ الْأَلْفُ الْأُولَى هَاءً لَثَلًا تَتَوَالَى كَلِمَتَانِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ.

الثالث: أَنَّهَا بِأَسْرَها كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ غَيْرُ مَرْكَبَةٍ وَمَوْضِعُ الْإِسْمِ عَلَى الْأَقْوَالِ كُلِّهَا النَّصْبُ تَأْتِيْنَا وَالهَاءُ فِي، بِهِ، تَعُودُ عَلَى ذَلِكَ الْإِسْمِ الطُّوفَانُ قِيلَ هُوَ مَصْدَرُهُ هُوَ جَمْعُ طُوفَانَةٍ وَهُوَ الْمَاءُ الْمَغْرُوقُ الْكَثِيرُ وَالْجَرَادُ جَمْعُ جَرَادَةٍ الذَّكَرُ وَالأُنْثَى سِوَاهُ وَالْقَمَلُ بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ وَضَمِّ الْقَافِ وَيَقْرَأُ بِالتَّخْفِيفِ مَعَ فَتْحِ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ قِيلَ هُمَا لَغَتَانِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي الشِّيَابِ وَنَحْوِهَا أَيَّاتٍ حَالٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ يَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ الْبَاءُ بِأَدْعٍ، أَيْ بِالشَّيْءِ الَّذِي عَلَّمَكَ اللَّهُ الدَّعَاءَ بِهِ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ لِلْقِسْمِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ هُمْ مَبْتَدَأٌ وَيَنْكُثُونَ الْخَبَرُ وَاذِلْ لِلْمُفَاجَأَةِ.

◀ التفسير

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ أَيْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْقَحْطِ وَالجَدْبِ أَصْلُ الْأَخْذِ التَّنَاوُلُ بِالْيَدِ وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ إِبْتِلَاءِهِمْ فِي الْمَدَّةِ الَّتِي كَانَ أَقَامَ بَيْنَهُمْ مُوسَى يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَّا السِّنُونَ فَكَانَتْ لِבَادِيَتِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَأَمَّا نَقِصٌ مِنَ الشَّجَرَاتِ فَكَانَ فِي أَمْصَارِهِمْ وَهَذِهِ سِيرَةُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ يَبْتَلِيهَا بِالنَّعْمِ لِيَزْدَجِرُوا وَلِيَتَذَكَّرُوا بِذَلِكَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النُّعْمِ فَأَنَّ الشَّدَّةَ تَجْلِبُ الْإِنَابَةَ وَالخَشْيَةَ وَرَقَّةُ الْقَلْبِ وَالرَّجُوعُ إِلَى طَلَبِ لُطْفِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ وَكَذَا فَعَلَ اللَّهُ بِقُرَيْشٍ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنَى يَوْسُفَ.

وروي أنه يبس لهم كل شيء حتى نيل مصر ونقصوا من الثمرات حتى كانت النخلة تحمل الثمرة الواحدة، وقوله: **لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ** معناه لكي يتفكروا في ذلك ويرجعوا الى الحق وأما قال لعلمهم وهي موصوفة للشك الذي لا يجوز في كلام الله لأنهم عوملوا معاملة الشاك مظهرة في القول كما جاء الابتلاء والاختبار مثل ذلك والآية تدل على بطلان مذهب المجبرة من أن الله تعالى يريد الكفر والمعاصي وجه الدلالة أنه تعالى بين أنه فعل بهم ذلك لكي يذكروا ويرجعوا فقد أراد منهم الإذكار فكأنه قال من أجل أنهم يذكروا.

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى قالوا المراد بالحسنة هاهنا النعمة من الخصب والسعة في الرزق والعافية والسلامة والمراد بالسئية النقمة من الجذب وضيق الرزق والمرض والبلاء وفيه ضرب من المجاز لأن الحسنة في الحقيقة ما حسن من الفعل في العقل كما أن السئية ما قبح من الفعل والمعنى أنه تعالى أخبر عن قوم فرعون أنه اذا جاءهم الخصب والسعة والنعمة من الله قالوا لنا هذه، يعني أنا نستحق ذلك على العادة الجارية لنا من سعة أرزاقنا في بلادنا ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليه ويؤدوا حق النعمة، وأن تصبهم سئية يعني جذب وقحط و بلاء، يطَّيَّروا بموسى ومن معه أي تشأموا به.

أَلَا إِنَّمَا طَآئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ معناه أن الله تعالى هو الذي يأتي بطائر البركة وطائر الشؤم من الخير والشر والنفع والضّر فلو عقلوا طلبوا الخير والسلامة من الشر من قبله بسبب الطاعة والانقياد:

قال الله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ^(١).

في القرآن تفسير

جزء ٩

الجلد الثاني

قال الله تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ^(١).

محصل الكلام هو أن أزمة الأمور بيد الله وهو الغني المطلق وما سواه كائناً من كان محتاج اليه وهو القادر على كل شيء وغيره لا قدرة له واقعاً فإذا شاء أعطى وإذا شاء يمنع فالتطير والتشائم لا معنى له ولنعم ما قيل بالفارسية: چه خود ميکنی اختر خویش را بد مدار از فلک چشم نیک اخترى را قال الزمخشري في الكشف معناه أن سبب خيرهم وشرهم عند الله حكمته ومشيئته والله تعالى هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسئنة ويجوز أن يكون معناه إلا أنما سبب شؤمهم عند الله وهو علمه المكتوب عنده يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله تعالى في قوله: أَلَنَارٌ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا وَلَا طَائِرُ أَشْأَمَ مِنْ هَذَا.

وقال بعض المفسرين سمي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان يعتقد أنما كلما يصيبه أنما هو بحسب ما يراه في الطائر فهي لفظة مستعارة.

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

والمعنى أن آل فرعون قالوا ذلك وفيه إشارة إلى أن أخذهم بالجدوب ونقص الثمرات لم يزددهم إلا طغياناً وكفراً وذلك لأنهم لم يكتفوا بنسبة ما يصيبهم من السيئات إلا أن ذلك بسبب موسى ومن معه حتى واجهوه بهذا القول الدال على أنه لو أتى بما أتى من الآيات فأنهم لا يؤمنون بها ولذلك أتوا بمهما التي تقتضي العموم.

ثم فسروا بأية على سبيل الاستهزاء في تسميتهم ذلك آية ولذلك عللوا الإتيان بقولهم: لِنَسْحَرَنَّ بِهَا وبالغوا في إنتفاء الإيمان بأن صدر الجملة بقولهم: نَحْنُ وأدخلوا الباء في، بمؤمنين، أي أن إيماننا لك لا يكون أبداً.

أقول ما حكاه الله تعالى عن قوم فرعون، يدل على عنادهم للحق لا أنهم كانوا يعرفونه فأئ المعاند لا يقبل الحق لعناده لا لجهله به والعناد من أقبح الصفات للإنسان مسلماً كان أو كافراً ولأجل ذلك قالوا العناد لا دواء له إلا الهلاك.

فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ.

الفاء في قوله: فَارْسَلْنَا للتفريع أي لما لم تنفعهم الموعظة والمعجزة لشدة عنادهم وطمغيانهم وصلت التوبة الى إهلاكهم ينزل العذاب عليهم فأرسلنا عليهم الطوفان وهو جمع طوفانة عند البصريين ومصدر كالزحجان عند الكوفيين ومعناه الماء المفرق على قول ابن عباس وقال قتادة وابن جبير وأبو مالك والضحاك هو المطر الذي أرسل عليهم دائماً في الليل والنهار ثمانية أيام متواليات.

وقيل ذلك مع ظلمة شديدة بحيث لا يرون شمساً ولا قمرأ ولا يقدر أحد أن يخرج من داره، وقيل المراد بالطوفان في المقام أن قوم فرعون أمطر الله عليهم حتى كادوا يهلكون وبيوت القبط وبني إسرائيل مشتبكة فامتلات بيوت القبط ماءً حتى قاموا فيه الى تراقيهم فمن جلس غرق ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف ودام عليهم سبعة أيام.

وقيل طم فيض النيل عليهم حتى ملأ الأرض سهلاً وجبلاً وقال ابن عطية هو عام في كل شيء يطوف إلا أن استعمال العرب له أكثر في الماء والمطر الشديد ومنه قول الشاعر:

غير الجدة من عرفانه خرق الريح وطوفان المطر

وقيل هو هنا الموت الجارف وزوته عائشة عن الرسول ﷺ.

وقيل هو الطاعون بلغة اليمن وروي عن ابن عباس في حديث أنه معمي عني به شيء أطافه الله بهم والأقوال فيه كثيرة لا فائدة في ذكرها فأَنَّ المعنى واضح لا خفاء فيه وكيف كان فقالوا لموسى أدع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا ورفع عنهم فما آمنوا فثبت لهم في تلك السنة من الكلاء والزَّرع ما لم يعهد مثله فأقاموا شهراً فنبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكلت عامة زرعهم وثمارهم ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيت والثياب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ففزعوا الى موسى وعده التوبة فكشف عنهم سبعة أيام وخرج موسى عليه السلام الى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد الى النواحي التي جئن منها، فقالوا ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهراً فسَلَطَ الله عليهم القمَلُ واختلفوا في المراد به.

فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة هو الذَّباء وهو صغار الجراد قبل أن تثبت له أجنحة ولا يطير، وقال بعضهم هو السُّوس الذي يقع في الحنطة. وقال الحسن دَوَاب سود صغار وقيل هو الجعلان وقيل هو ضرب من القردان، وقيل هو البراغيث وقيل غير ذلك.

أقول الحق أَنَّ الجراد يطير ويأكل الزَّرع ويقال له بالفارسية ملخ، والقمَل بضم القاف وفتح الميم المشددة لا يطير ويقال له بالفارسية (شپش) قيل أَنَّ موسى عليه السلام مشى الى كتيب أهيل فضربه بعصاه فانتشر كله قملاً بمصر فأكل ما أبقاها الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين جلد القبطي وقميصه ويمتلي الطعام ليلاً ويطحن أحدهم عشرة أجزاء أجربة فلا يرد منها إلا يشيراً وسعى في أبشارهم وشعورهم وأهداب عيونهم ولزمت جلودهم فضجوا وفزعوا الى موسى عليه السلام فرفع عنهم فقالوا قد تحققتنا الآن أنك ساحر وعزة فرعون لا نصدقك أبداً فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع فملأت أنيتهم وطعامهم مضاجعهم ورمت بأنفسها في القدور وهي تغلي وفي التناير وهي تفور وإذا تكلم أحدهم وثبت الى فيه.

قال ابن جبير وكان أحدهم يجلس في الصَّفادع الى ذقنه فقالوا لموسى أرحمنا هذه المرة ونحن نتوب التوبة النصوح ولا نعوذ عليهم العهود فكشف عنهم فنقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدَّم.

قال الجمهور صار ماءهم دماً حتّى أن الإسرائيليين يضع الماء في القبطي فيصير فيه دماً وعطش فرعون حتّى أشفى على الهلاك فكان يَمَصُّ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً إجاجاً.

وقال سعيد بن المسيّب سأل عليهم النيل دماً وأما قوله: **آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ** فالمراد بالآيات المفصلات هو المعجزات المبيّنات الظّاهرات الدّالات الواضحات التي أراهم الله على يد موسى وبدون الوساطة كما مرّ تفصيل الكلام فيها إلا أنّهم استكبروا وأعرضوا عنها لجاحاً وعناداً والتّعبير بالاستكبار لأنّ منشأ العناد الكبر فكل معانيد مستكبر ومن المعلوم أنّ من كان كذلك يكون مجرماً وأي جرم أفحش وأقبح من العناد الذي يترتب عليه العذاب في الدنيا والآخرة ومارك بظلام للعبيد. قال ابن قتيبة سمّاها مفصلات لأنّ بين الآية ولأية مفصلاً من الزّمان قيل كانت الآية تمكث من السّبب الى السّبب ثمّ يبقون عقيب رفعها شهراً في عافية ثمانية أيّام وقيل غير ذلك وحكمة التفصيل فيها بالزّمان أنّه يمتحن فيه أحوالهم في الوفاء والنكث للعهود فتقوم عليهم الحجّة والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله:

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ

الرّجّز بكسر الرّاء العذاب قال تعالى: **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ** أي على قوم فرعون العذاب من الطّوفان والجراد والقمل وغيرها قالوا يا موسى أدع لنا

رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ مِنَ الْعَذَابِ لِأَن كَشَفْتَ أَي أزلت و رفعت عَنَّا الرَّجْزَ
لنُؤْمِنَ لَكَ أَي نقول بنبوتك ولنرسلن معك بني إسرائيل أي نطلقهم ونرفع
اليَد عنهم و ذلك لأنهم كانوا يَمنعون بني إسرائيل عن متابعة موسى و يعذبهم
بأنواع العذاب، فلمَّا كَشَفْنَا أَي رفعنا و أزلنا عنهم الرَّجْزَ و العذاب الى أَجلِ هم
بالغوه، قيل أَي أَجل الموت و لا يبعد أن يكون المراد به الأجل المضروبة المغنِية
من ناحيتهم إذا هم يَنكثون، أَي نكثوا عهودهم و مواثيقهم و رجعوا الى ما كانوا
عليه من الكفر و الطغيان على ما مرَّ تفصيل الكلام فيه و قال بعض المفسرين
الرَّجْزُ هنا الطَّاعون نزل بهم و مات منهم في ليلة سبعون ألف قبطي، و في قولهم:
أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ و أضافة الربِّ الى موسى دلالة على عدم الإقرار بأنَّه ربُّهم حيث
لم يقولوا: أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ و في قولهم لنؤمِّن لك دلالة على أنَّه أي موسى طلب
منهم الإيمان كما أنَّه طلب منهم إرسال بني إسرائيل و قدّموا الإيمان في
كلامهم لأنَّه المقصود الأعظم و أسندوا الكشف الى موسى دون الله تعالى فلم
يقولوا لأن كشف الله عَنَّا الرَّجْزَ لأنهم لم يقرّوا بالتَّوحيد و هو واضح.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ

الفاء للتفريع أي أنَّهم لما نكثوا عهودهم و مواثيقهم غير مرَّة فلا جرم
أنقمنا منهم، أي أحللنا بهم النَّقمة و هي ضِدُّ النَّعمة فأن كان الإنتقام هو
الإغراق فتكون الفاء تفسيرية و إلّا كان المعنى فأردنا الإنتقام منهم و الباء في،
بأنهم، سببية و المراد بالآيات هي المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام
و الضمير في، عنها، يعود الى الآيات أي غفلوا عنها، و قيل يعود الى النَّقمة
الدَّال عليها قوله: فَانْتَقَمْنَا أي كانوا عن النَّقمة و حلولها غافلين فالغفلة على
القول الأول عني به الإعراض عن الشَّيْء لأنَّ الغفلة عنه و التَّكذيب لا يجتمعان
لأنَّها تستدعي عدم الشُّعور بالشَّيْء و التَّكذيب يستدعي معرفته.

وأما على القول الثاني فهي بمعناها ومعنى الآية إنتقمنا من فرعون وقومه فأغرقناهم في اليم وكان سبب ذلك تكذيبهم بآياتنا التي ظهرت على موسى وإعراضهم عنها بعدم قبولهم الآيات وفي الآية إشعار بأن الله تعالى لم ينتقم منهم إلا بعد تمامية الحجة كما هو مقتضى العدل.

قال بعض المفسرين المراد بالانتقام هو سلب النعمة بالعذاب واليم البحر ونقل عن صاحب الكشف أنه قال اليم البحر الذي لا يدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم ماءه، وقيل المراد باليم هو بحر نيل وأمثال ذلك من الأقاويل التي لا دليل على صحتها ولا يعلم مأخذها كثيرة والذي نعتقده بصريح الآية هو إغراقهم في اليم وأما أن اليم ما هو وكيف هو أين هو فالله أعلم.



وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ
 مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ
 تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ
 قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي
 إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ
 أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا
 لَهُم آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ
 هَؤُلَاءِ مُمْتَرِينَ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ
 عَلَى الْغَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتِلُونَ أَبْنَاءَ كُمْ
 وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 عَظِيمٌ (١٤١) وَ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ
 أَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ
 قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ
 أَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

◀ اللغة

وَأَوْرَثْنَا، الوارثة والإرث في الأصل إنتقال فنية اليك عن غيرك من غير
 عقد ولا ما يجري مجرى العقد و سمي بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية
 الموروثة ميراث وإرث قاله الرَّاغب في المفردات.

يُسْتَضَعْفُونَ، الإستضعاف طلب الضعف بالإستعانة والقهر وقد أستعمل
 إستضعفته بمعنى وجدته ضعيفاً بامتحاني إياه.
 بَارَكْنَا فِيهَا ثبوت الخير الإلهي في الشيء.
 وَدَمَرْنَا، التدمير إدخال الهلاك على الشيء.
 يَعْرِشُونَ بضم الراء وكسرهما والكسر أفصح والعرش في الأصل شيء
 مسقف والمراد.

به هنا ما كانوا يبغونه من الأبنية والقصور.
 يَعْكُفُونَ، العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له و
 منه الإعتكاف في الشرع وهو الإحتباس في المسجد على سبيل القربة يقال
 عكفه على كذا أي حبسته عليه. مُتَبَرِّكٌ بضم الميم وفتح التاء والباء وتشديد
 الراء، والمهلك المدمر عليه والتبار الهلاك.
 يَسْؤُمُونَكُمْ أصل السؤم مجاوزة الحد ومنه السؤم في البيع وهو تجاوز
 الحد في السعر الى الزيادة والمعنى يولونكم إكراهاً ويحملونكم إذلاً.
 وَوَاعَدْنَا، المواعدة الوعد من الطرفين.

◁ الإعراب

وَ أَوْرَثْنَا يَتَّعَدَى الى مفعولين فالأول، القوم، وفى الثانى ثلاثة أوجه:
 أحدها: مشارق الأرض ومغاربها.

ثانيها: قوله: الَّتِي بَارَكْنَا أي الأرض الَّتِي بارَكنا.

ثالثها: أَنَّ المفعول الثانى محذوف وتقديره، الأرض، أو الملك مَا كَانَ
 يَصْنَعُ مَا، بمعنى الذى وإسم، كان، هو ضمير، ما، وخبرها يصنع فرعون و
 العائد محذوف أي يصنعه كَمَا لَهُمُ إِلَهَةٌ فِي، ما، ثلاثة أوجه:
 أحدها: هي مصدرية والجملة بعدها صلة لها.

الثَّانِي: أَنَّهُ بِمَعْنَى، الَّذِي، والعائد محذوف وألهة بدل منه تقديره، كالَّذِي هو لهم والكاف وما عملت فيه صفة لإله، أي إلهاً مماثلاً للَّذِي لهم.

الثَّالِث: أَنْ تَكُونَ مَا كَافَةً لِلْكَافِ مَا هُمْ فِيهِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ، مَا، مرفوعة بمتبّر، وأن تكون، مَا، مبتدأ و متبّر خبر مقدّم.

أَغْيَرُ اللَّهِ فِيهِ وَجْهَانِ:

أُخِذَ هُمَا: هُوَ مَفْعُولُ أَغْيَرَ لَكُمْ فَحُذِفَ اللَّامُ، وَإِلَهًا، تَمَيِّيزٌ.

الثَّانِي: أَنَّ إِلَهًا مَفْعُولُ أَغْيَرَ لَكُمْ غَيْرَ اللَّهِ صِفَةً لَهُ قَدِّمَتْ عَلَيْهِ فَصَارَتْ حَالًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا وَأَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا ثَلَاثِينَ لَيْلَةً هُوَ مَفْعُولُ ثَانٍ لَوَاعِدُنَا وَفِيهِ حُذِفَ مُضَافٌ تَقْدِيرُهُ إِيَّانِ ثَلَاثِينَ أَوْ تَمَامِ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً حَالِ تَقْدِيرِهَا فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ كَامِلًا وَقِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ، ثُمَّ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ بَلَغَ وَهُزُونٌ بَدَلَ أَوْ عَطَفَ بَيَانٌ.

◀ التفسير

لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْيَمِّ جَعَلَ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْلاكِ وَالضِّيَاعِ وَالْعَقَارِ وَجَمِيعِ مَا كَانَ فِرْعَوْنَ حَاكِمًا وَمَسْلُطًا عَلَيْهِ وَبِالْجُمْلَةِ جَمِيعِ مَتْرُوكَاتِهِمْ وَأَمْلاكِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمَجَازِيَّةِ لِقَوْمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَصَارَ وَارِثِينَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَهَذَا الْإِرْثُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَغْرَقَهُمْ فِي الْيَمِّ وَأَرَاخَ النَّاسَ مِنْهُمْ قَالَ.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا

أي جعلنا ما بقي منهم إرثاً لقوم بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين قبل ذلك والمراد بالأرض هو أرض مصر وقيل أرض الشام ومصر.

وقيل أرض الشام فقط وقال الزجاج كان من بني إسرائيل داوود وسليمان

وهما ملكا جميع الأرض فيصدق قوله: **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ** لأنهما من القوم و المراد بالمشارك والمغارب التي باركنا فيها، هو نواحي أرض مصر أو أرض مصر والشام على إختلاف في تفسير الأرض والبركة فيها بالماء والشجر أو بالخصب والأنهار وكثرة الأشجار وطيب الثمار.

وقيل المراد بالبركة البركة بإقدام الأنبياء وكثرة مقامهم بها و دفنهم فيها و على هذا يتخرج على من قال أرض الشام لأن الأنبياء كانوا فيها حياً وميتاً و الدليل عليه كثرة قبورهم فيها.

وقيل: **بَارَكْنَا**، جعلنا الخير فيها دائماً ثابتاً وهذا يشير الى أنها مصر وكيف كان فمعنى الآية أننا جعلنا قوم بني إسرائيل وارثين لأرض مصر وأطرافها و نواحيها التي كانت مملوءة بالخير والبركة.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا

إختلفوا في المراد بالكلمة، فقال قوم الكلمة الحسنى، هي قوله تعالى: **وَرُبِّدْ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتِخْلَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**^(١) و عليه فالمعنى أننا وعدناهم سابقاً وأتممناه بهلاك فرعون وقومه وجعلناهم أئمة وجعلناهم الوارثين وبذلك قد تمت كلمة ربك وأنما وصفها بالحسنى وأن كانت كلمات الله كلها حسنة لأنه تعالى وعدهم بما يحبون.

وقال مجاهد المعنى ما سبق لهم في علمه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه، وقيل هي قوله تعالى: **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ**^(٢) وقيل الكلمة النعمة والحسنى تأنيث الأحسن وهي صفة للكلمة وكانت الحسنى لأنها وعد بمحسوب وأما قوله: **بِمَا صَبَرُوا** فهو بمنزلة العلة والسبب لانتقال الملك والأموال اليهم و عليه فالبراء للسببية أي أورثناهم كذلك بسبب صبرهم على الشدة والمحنة في طريق الحق و **دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ**

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد التاسع

وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ أَي أَهْلَكْنَا فرعون و ما كان يصنع من الإستعباد و الإفساد في أمر موسى و ما كانوا يعرشون، أي يبنونه من الأبنية و القصور و محصل الكلام أَنَا أَهْلَكْنَا فرعون و قومه و أعمالهم و آثارهم بحيث لم يبق منهم عينٌ و لا أثر إلا اللَّعْنَةُ في الدنيا و العذاب في الآخرة فاعتبروا يا أولي الأبصار هذا آخر ما إقتض الله تعالى من نبأ فرعون و القبط و تكذيبهم بأيات الله و ظلمهم و ما نزل عليهم من العذاب ثم إلتبعه إقتصاص نبأ بني إسرائيل و ما أحدثه بعد إنقاذهم من مملكة فرعون و إستعباده و معاينتهم الآيات العظام و مجاوزتهم البحر من عبادة البقرة و طلب رؤية الله جهرةً و غير ذلك من أنواع الكفر و المعاصي.

ليعلم حال الإنسان و أنه كما وصف ظلومٌ جهولٌ كفور إلا من عصمه الله قليل من عبادي الشكور، و ليبيي رسول الله ﷺ ممَّا رأى من بني إسرائيل بالمدينة و هكذا أمته في كلِّ عصرٍ و زمانٍ الى زماننا هذا و الله لا يهدي القوم الظالمين.

و جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

المجاوزه الإخراج عن الحدِّ يقال جاوز الوادي جوازا إذا قطعه و خلفه وراءه، أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أجاز قوم موسى و قطع بهم البحر و أنجاهم من العدو و أغرق عدوهم فرعون و قومه و أنهم أي قوم موسى بلغوا بعد العبور عن البحر الى قومٍ عاكفين على أصنامٍ لهم و معنى العكوف اللزوم للأمر بالإقبال عليه و المراعاة له و منه الإعتكاف لأنَّ المعتكف يلزم المسجد و يراعي الوظائف المقررة له على طبق الشريعة بقصد العبادة ثم أنهم لمَّا رأوا ذلك قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً نعبده كما لهؤلاء القوم ألهة قال لهم موسى أنكم قوم تجهلون، و أنما حكم موسى ﷺ بجهلهم لأنَّ هذا الكلام منهم بعد

ما رأوا الآيات والمعجزات التي توالى على فرعون وقومه من إبطال السحر و
اليد البيضاء وأمثالهما يدّل على جهلهم وأنهم لم يؤمنوا واقعاً بموسى
لثوهمم أنّه يجوز عبادة غير الله ولم يعلموا أنّ موسى عليه السلام أتى ببعث ليدعوا
الناس الى عبادة الله الذي لا إله إلا هو لا شريك له في الملك.

وقال بعض المفسرين أراد موسى بقوله: **تَجْهَلُونَ** أي تجهلون من صفات
الله ما يجوز عليه وما لا يجوز.

وقال بعض المفسرين من العامة أنّ ذلك أي تجاوزهم البحر كان يوم
عاشوراء فصاموا شكراً لله، ولم يذكروا لهذا القول مأخذاً ودليلاً فهو كسائر
أقوالهم المذكورة في تفاسيرهم ولا نعني بالتفسير بالرأي إلا هذا وكيف كان
فالعهد على القائل به.

قال ابن جريح كانت تلك الأصنام التي رأوها قوم موسى تماثيل بقربان
أول قصّة العجل.

قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عنه وإعلم أنّ من المستحيل أن يقول العاقل
لموسى أجعل لنا إلهاً وخالقاً ومدبراً لأنّ الذي يحصل بجعل موسى وتقديره
لا يمكن أن يكون خالقاً ومدبراً له ومن شكّ في ذلك لم يكن كامل العقل و
الأقرب أنّهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يعين لهم أصناماً و تماثيل يتّقربون
بعبادتها الى الله وهذا القول هو الذي حكاه الله عن عبدة الأوثان حيث قالوا
ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وأنا أقول ما ذكره لا بأس به لأنّ عبادة غير الله كفر على كلّ حال بإجماع
جميع الأنبياء والعقلاء **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّوا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**
التّبار الهلاك والمعنى أنّ هؤلاء مهلك مدمر وقوله: **بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**
قيل البطلان عدم الشّيء أمّا بعدم ذاته أو بعدم فائدته ومقصوده والمراد من
بطلان علمهم أنّه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا دفع ضرر.

أقول لا نحتاج في تفسير البطلان الى هذه التّكلفات و ذلك لأنّه قد ثبت عقلاً ونقلاً أنّ ما سوى الله باطلٌ عاطلٌ كائنٌ ما كان كما قال لبيد:

ألا كُلُّ شَيْءٍ ما حَلَا الله باطلٌ وكلّ نعيم لا محالة زائلٌ

ونعني بالبطّان ما لا بقاء له في ذاته ومن المعلوم أنّ ما سوى الله لا بقاء له بذاته لأنّه قائم بالغير ومعلول له و اذا كان كذلك فهو باطلٌ و الباطل لا يعيد لأنّه في معرض الفناء والدُّثور فكلّ معبودٍ في العالم غير الواجب تعالى باطل صنماً كان أو بقراً أو ناراً أو غير ذلك وهذا معنى قوله: و **باطِلٌ ما كانوا يَعْمَلُونَ** اي باطلٌ في حدّ ذاته ولا شك أنّ من عبد الباطل فهو جاهل وهو المطلوب.

قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِعْكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ

قالوا في معناه أطلب لكم غير الله تعالى وهو فضّلكم على العالمين أي و الحال أنّه فضّلكم على العالمين والحقّ أنّ البغي ليس بمعنى الطّلب المطلق بل هو بمعنى طلب التّجاوز عن الحدّ وهذا هو الفرق بين البغي والطّلب و عليه فقولهم: **أَبْنِعْكُمْ** أي أطلب لكم، معناه أطلب لكم ما لا ينبغي لي ولكم و ذلك لأنّ في هذا الطّلب تجاوزٌ عن الحدّ أي عن حدّ العبوديّة أو المعبوديّة.

أما الأول: فواضح لأنّ حدّ المخلوق أن لا يشرك بالله فمن أشرك به فقد تجاوز عن حدّه و دخل في الكفر.

أما الثاني: فلأنّ المعبود في الحقيقة هو الله تعالى و أمّا غيره كائنٌ ما كان فليس بمعبود لأنّه مخلوق و تسمية المخلوق بالمعبود بعينه التّجاوز عن حدّه اذا عرفت هذا فنقول:

معنى الآية أغير الله أطلب لكم إلهاً و أكون متجاوزاً عاصياً في هذا الطّلب و الحال أنّه تعالى فضّلكم على العالمين وفي قوله هذا إشارة الى نكتته وهي أنّ الألوهية ثابتة لمن فضّلكم على العالمين وهو الله الواحد الأحد خالق

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَمَّا غَيْرُهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مِثْلَكُمْ مُرَدُّدٌ إِلَيْكُمْ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا لَكُمْ.

ثانيًا: أَنْ شَكَرَ الْمُنْعَمَ وَاجِبٌ عَقْلًا وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِأَنْوَاعِ النُّعْمِ وَأَخْرَجَكُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنِّ وَأَهْلَكَ عَدُوَّكُمْ فِي الْيَمِّ وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا أَنَّهُ فَضَّلَكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَأْدِيَةَ الشُّكْرِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ عَنِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَصُورَةَ الْقِيَاسِ هَكَذَا، أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَكُلَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْبُدَ فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَعْبُودُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ وَالْمَرَادُ بِالْعَالَمِينَ هُوَ عَالَمِي زَمَانِهِمْ قَالَهُ الْحَسَنُ أَبُو عَلِيٍّ.

وَإِذْ أَتَجَنَّبْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

قد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة^(١) فلا نحتاج إلى التّطويل في المقام والحاصل أذكروا اذنجيناكم من آل فرعون أي خلّصناكم لأنّ النّجاة الخلاص ممّا يخاف إلى رفعة من الحال، وأصل السّوم مجاوزة الحدّ.

والمراد به في المقام هو تجاوز العذاب عن الحدّ وهو كناية عن شدّته ثمّ أشار بقتل أبناؤهم واستحياء نساءهم أي إستبقاء نساءهم لأنّ فرعون كان يأمر بقتل الأبناء وإستبقاء النّساء للإستخدام وفي قوله: وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ إشارة إلى عظم ما وقع بهم من المحنة والشدّة على ما مرّ تفسيره هناك.

قال المفسّرون المراد بالبلاء هاهنا النّعمة، وقد يكون بمعنى النّعمة وأصله المحنة فتارة تكون المحنة بالنّعمة وأخرى بالنّعمة وبالخير تارة وبالشرّ أخرى.

فِي
الْقُرْآنِ
فِي
تَفْسِيرِهِ

جزء ٩

بِالْقُرْآنِ
بِالْقُرْآنِ

وَأَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ

قرأ أبو عمر و و وعدنا موسى بغير ألف و الباقون، واعدنا بالألف على المفاعلة و هو الأشهر و عليه المصاحف كلها و قراءة أبو عمر و ضعيفة جداً و معنى، وَاَعَدْنَا أَنَّ الوعد كان من الطرفين كما هو مقتضى المفاعلة. قال المفسرون أَنَّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل و هو بمصر أن أهلك الله عدوهم أتاهاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون و ما يذرون فلما أهلك الله فرعون سأل موسى رَبِّهِ تعالى الكتاب فأمره الله بصوم ثلاثين يوماً و هو شهر ذي القعدة و عشر ذي الحجة ولو قال أربعين ليلة لم يعلم أنه كان الإبتداء أول الشهر و لا أَنَّ الأيام كانت متوالية و لا أَنَّ الشهر بعينه هذا قول القراء و أكثر المفسرين.

و قال الآخرون أَنَّ المعنى واعدناه ثلاثين ليلة يصوم فيها و يتفرد للعبادة بها ثم أتممت بعشر الى وقت المناجاة و قيل في العشر نزلت التوراة فلذلك أفردت بالذكر.

و في المقام قول ثالث و هو المنسوب الى أبي جعفر عليه السلام و هو أَنَّ أول ما قال لهم موسى أَنِّي أتأخر عنكم ثلاثين يوماً ليسهل عليهم ثم زاد عليهم عشراً و ليس في ذلك كذب لأنه اذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها. و قال الحسن كان الموعد أربعين ليلة في أصل الوعد كما قال في سورة البقرة: **وَأَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** و فصله هاهنا على وجه التأكيد فقال ثلاثين ليلة و أتممناها بعشر و هذه الوجوه ذكرها في التبيان.

و أما قوله: **فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** فالميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال و المعنى أَنَّ ميقات رب موسى قد تم بزيادة العشرة على الثلاثين و فيه إيحاء الى أَنَّ عدد الأربعين عدد الكامل التام.

وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ

وَأَمَّا كَانَ ذَلِكَ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَصَارَ هَارُونَ خَلِيفَةً لِمُوسَى فِي قَوْمِهِ فِي
غَيْبَتِهِ وَقَوْلُهُ: وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ يَعْنِي الَّذِينَ كَانُوا يَفْسُدُونَ فِي
الْأَرْضِ وَهَذَا الْأَمْرُ إِرْشَادِي لَا غَضَاضَةَ فِيهِ.

روي السيوطي في الدر المنثور في تفسير هذه الآية بأسناده عن ابن عباس
أنَّهُ قَالَ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِقَوْمِهِ أَنِّ رَبِّي وَعَدَنِي ثَلَاثِينَ لَيْلَةً أَنِ الْقَاهُ وَأَخْلَفَ هَارُونَ
فِيكُمْ فَلَمَّا فَصَلَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ زَادَهُ اللَّهُ عَشْرًا فَكَانَتْ فَتَنَتُهُمْ فِي الْعَشْرِ الَّتِي
زَادَهُ اللَّهُ الْحَدِيثُ وَأَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: وَلَا أَعْدُنَا مُوسَى
ثَلَاثِينَ لَيْلَةً خَلَفَ مُوسَى أَصْحَابَهُ وَأَسْتَخْلَفَ عَلَيْهِمْ هَارُونَ فَمَكَثَ عَلَى
الطُّورِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةُ فِي الْأَلْوَاكِ فَقَرَّبَهُ الرَّبُّ نَجِيًّا وَكَلَّمَهُ وَ
سَمِعَ حَرِيفَ الْقَلَمِ وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ لَمْ يَحْدَثْ فِي الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً حَتَّى هَبَطَ مِنَ الطُّورِ
إِنْتَهَى.



وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ
 أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنِ أَنظُرْ إِلَى
 الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا
 تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا
 فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ
 عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا
 آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي
 الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ
 شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
 بِأَخْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)
 سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا
 بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ
 إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

◀ اللغة

لِمِيقَاتِنَا، الميقات بكسر الميم ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال.
 أَرِنِي أَمْرٌ مِنْ، أَرَى.

فَإِنْ أَسْتَقَرَّ، الْإِسْتِقْرَارُ الثَّبَاتُ.

تَجَلَّى أصل الجلو الكشف الظاهر يقال رجل أجلى، إذا إنكشف بعض رأسه عن الشعر ثم أَنَّ التَّجَلَّى قد يكون بالذات نحو قوله والنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى، و قد يكون بالأمر والفعل كما في المقام.

دَكَأَ، الدَّكَأُ بفتح الدال الأرض اللينة السهلة.

صَعِقًا، الصَّعِقَةُ الغَشِيَّةُ.

أَصْطَفَيْتُكَ، الإِصْطِفَاءُ الإِخْتِيَارُ.

الْأَلْوَا حِ جمع لَوْح بفتح اللام وأصل اللَّمْع يقال لَاحَ يَلُوحُ لَوْحًا إِذَا لَمَعَ و تَلَأَلَ.

أَلْعَى بفتح الغين الضلالة.

◁ الإِعْرَابُ

جَعَلَهُ دَكَاً أي صَيَّرَهُ فهو مَتَّعِدٌ إِلَى إثنين فمن قرأ دَكَاً جعله مصدرًا بمعنى المدكوك وقيل تقديره ذَا دَكَاً، و من قرأ بِالْمَدِّ جعله أَرْضٍ دَكَاءً أو نَاقَةً دَكَاءً الَّتِي لَا سَنَامَ لَهَا وَصَعِقًا حَالِ مَقَارِنَةٍ سَأَوْرِيكُمْ قَرْنِي فِي الشَّاذِ بِوَاوٍ بَعْدَ الْهَمْزَةِ هِيَ نَاشِئَةٌ عَنِ الْإِشْبَاعِ وَفِيهِ بُعْدٌ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا مَبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ حَبِطَتْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ هَلْ يُجْزَوْنَ وَحَبِطَتْ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، كَذَّبُوا.

◁ التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ

قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْمِيقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى دَعَاهُ إِلَى الْمِيقَاتِ فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى إِلَى الْمِيقَاتِ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، اِخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْكَلَامِ وَأَنَّهُ كَيْفَ كَانَ التَّكَلُّمُ عَلَى أَقْوَالٍ:

قَالَ الْقَاضِي وَهُوَ مِنْ مَفْسَرِي الْعَامَّةِ سَمِعَ مُوسَى وَالسَّبْعُونَ كَلَامَ اللَّهِ.

وقال ابن عطية خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديمة الذي هو صفة ذات.

وقال ابن عباس وابن جبير أدنى الله تعالى موسى حتى سمع صريف الأقاليم في اللوح المحفوظ.

وقال الزمخشري كلّمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه محفوظاً في اللوح.

وروي أن موسى كان يسمع الكلام في كل جهة، وعن ابن عباس كلّمه أربعين يوماً وأربعين ليلة وكتب له الألواح وقيل أنما كلّمه في أول الأربعين. وقال الرازي دلّت الآية على أنه تعالى كلّم موسى عليه السلام والناس مختلفون في كلامه.

فمنهم من قال كلامه عبارة عن الحروف المؤلفة المنتظمة.

ومنهم من قال كلامه صفة حقيقية مغايرة للحروف والأصوات.

أما القائلون بالقول الأول فالعقلاء المخلصون إتفقوا على أنه يجب كونه حادثاً كائناً بعد أن لم يكن.

وزعمت الحنابلة والحشوية أن الكلام مركب من الحروف والأصوات قديم وهذا القول أحسن من أن يلتفت العاقل إليه وذلك أنني قلت يوماً أنه تعالى أما أن يتكلم بهذه الحروف على الجمع وعلى التعاقب والتوالي.

الأول: باطل لأن هذه الكلمات المسموعة المفهومة أنما تكون مفهومة اذا كانت حروفها متوالية وأما اذا كانت حروفها توجد دفعة واحدة فذلك لا يكون مفيداً البتة.

الثاني: يوجب كونها حادثاً لأن الحروف اذا كانت متوالية فعند مجيء الثاني ينتضى.

الأول: فالأول حادث لأن كلّمًا ثبت عدمه إمتنع قدمه.

الثاني: حادث لأنّ كلّ ما كان وجوده متأخراً عن وجود غيره فهو حادث فثبت أنّه بتقدير أن يكون كلام الله عبارة عن مجرد الحروف والأصوات فهو محدث اذا ثبت هذا فنقول:

للناس هنا مذهبان:

الأول: أنّ محلّ تلك الحروف والأصوات الحادثة هو ذات الله وهو قول الكرامية.

الثاني: أنّ محلّها جسم مباين لذات الله تعالى كالشجرة وغيرها وهو قول المعتزلة.

أما القول الثاني، وهو أنّ كلام الله صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات فهو قول أكثر أهل السنّة والجماعة وتلك الصّفة قديمة أزليّة والقائلون بهذا القول اختلفوا في الشّيء الذي سمعه موسى عليه السلام.

فقال الأشعرية أنّ موسى سمع تلك الصّفة الحقيقية الأزليّة قالوا وكما لا يتّعدر رؤية ذاته مع أنّ ذاته ليست جسماً ولا عرضاً فكذلك لا يبعد سماع كلامه مع أنّ كلامه لا يكون حرفاً ولا صوتاً.

وقال أبو منصور الماتريدي الذي سمعه موسى عليه السلام أصوات مقطّعة و حروف مؤلّفة قائمة بالشّجرة فأما الصّفة الأزليّة التي ليست بحرف ولا صوت فذاك ما سمعه موسى البتّة فهذا تفصيل مذاهب النّاس في سماع كلام الله انتهى كلام الرّازي.

وقال البيضاوي وكلّمه ربّه، من غير وسط كما يكلم الملائكة وفيما روي أنّ موسى عليه السلام كان يسمع هذا الكلام من كلّ جهة تنبيه على أنّ سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين انتهى كلامه.

أقول أقوال العامّة في تفاسيرهم وغيرها في المقام كثيرة ولكن فيما ذكرناه كفاية فإنّ البعرة تدلّ على البعير والدّرة على الكثير مضافاً إلى أنّ هؤلاء رؤوساء القوم وعلماءهم الذين أذعنوا بزعامتهم في هذا الميدان.

وقال الطبرسي رحمته الله منا، وكلمه ربّه، من غير سفير أو وحي كما كان يكلم الأنبياء على السنة الملائكة ولم يذكر من أي موضع أسمعته كلامه وذكر في موضع آخر أنّه أسمعته كلامه من الشجرة فجعل الشجرة محللاً للكلام لأنّ الكلام عرض لا يقوم إلاّ بجسمٍ وقيل أنّه في هذا الموضع أسمعته كلامه من الغمام انتهى.

وقال الفيض رحمته الله في الصافي، وكلمه ربّه، من غير واسطة كما يكلم الملائكة.

وقال في تفسير الميزان، والمراد بالكلام هو ما شافه به الله سبحانه من غير واسطة ملك وعبارة أخرى هو ما يكشف به عن مكنون الغيب وأما أن يكون نوع الكلام الدائر بيننا معاشر الإنسان فلا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول هذه كلماتهم في تفاسيرهم حول الكلام في المقام والذي يختلج بالبال هو أنّ الله تعالى كلم موسى وهذا ممّا صرح القرآن به ولا بحث لنا فيه و أمّا أنّ كَيْفِيَّةَ التَّكَلُّمِ على أي نحو كان فهو أمرٌ مجهولٌ لنا بعد العلم بمغايرة كلام الله لكلام الأدميين والله تعالى أعلم بكيفية كلامه.

قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ أَي قال موسى في الميقات بعد تكلم الله معه ربّ أرني أنظر إليك، الظاهر أنّ الرؤية التي سألها موسى كانت رؤية بالنظر أعني بالحاسة بقرنية قوله: أَنْظُرْ فَإِنَّ النَّظَرَ لا يصدق على الرؤية القلبية التي يعبر عنها بالبصيرة بل هو ظاهر في الرؤية الظاهرة بسبب الحاسة ومن المعلوم أنّ الرؤية بهذا المعنى لا يجوز عليه تعالى بل هو مستحيل وإذا كان كذلك فكيف يجوز لموسى وهو من الأنبياء العظام أن يسألها ربّه وأجابوا عنه.

أَمَّا أَوَّلًا: بأنّه سأل الرؤية لقومه حين قالوا له:

لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ^(١).

و بدلالة قوله: أَنْهَلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا ^(٢).

ثانياً: أنه أي موسى سأل العلم الصّروري الذّي يحصل في الآخرة ولا يكون في الدّنيا ليزول عنه الخواطر والشّبّهات والرّؤية تكون بمعنى العلم كما تكون الإدراك بالبصر:

قال الله تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْأَنْفِيلِ^(١)**.

وللأنبياء أن يسألوا ما يزول عنهم الوسوس و الخواطر كما سأل إبراهيم ربّه:

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى^(٢).

غير أنّ سأل ما يطمئن قلبه الى ذلك و تزول عنه الخواطر و الوسوس فبيّن الله تعالى له أنّ ذلك لا يكون في الدّنيا.

الثالث: أنه سأل آية من آيات الساعة التي يعلم معها العلم الذي لا يختلج فيه الشكّ كما يعلم في الآخرة وهذا قريب من الثاني.

وقال الحسن و الربيع و السّدي أنّه سأل الرّؤية بالبصر على غير وجه التشبيه، وهذه الوجوه ذكرها في التّبيان و أنت ترى بعد التأمّل فيها أنّها لا ترجع الى محصل.

أمّا الجواب الأوّل: فهو خلاف ظاهر الكلام و ذلك لأنّ سؤال الرّؤية لقومه لأجل أنهم قالوا لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة لا يدفع الإشكال.

أمّا أولاً: فلاّن القوم لجهلهم قالوا ما قالوا و أمّا موسى عليه السلام لكونه من أعظم الأنبياء و علمه بأنّ الله تعالى لا يرى كيف سأل ربّه هذا بل ينبغي له أن يقول لهم أنّ ربّي لا يرى.

ثانياً: لو كان الأمر على هذا المنوال لكان ينبغي لموسى أن يقول أنّ القوم يقولون كذا وكذا و يسألون الرّؤية ولمّا لم يقل ذلك بل قال **رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**.

في القرآن
في تفسير
القرآن

جزء ٩

بسم الله
الحمد لله

علمنا أنَّ السَّؤال لم يكن للقوم بل كان لموسى نفسه.

أمَّا الجواب عن الثَّاني: أنَّ الرُّؤية بمعنى العلم خلاف الظَّاهر.

نعم الرُّؤية القَلْبِيَّة قد تكون بمعنى العلم وما نحن فيه ليس كذلك لأنَّه قال بعد قوله: أَرِنِي أَنْظُرُ إِلَيْكَ فَإِنَّ ذِكْرَ النَّظَرِ بعد قوله: أَرِنِي قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّ المراد بالرُّؤية الرُّؤية بِالْحَاسَّةِ.

هذا أَوَّلًا وَثَانِيًا قوله أَنَّهُ سَأَلَ الْعِلْمَ الضَّرُورِي الَّذِي يَحْصُلُ فِي الْآخِرَةِ لَا فِي الدُّنْيَا.

لَا نَفْهَمُ مَعْنَاهُ فَإِنَّ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الرُّؤية فَهِيَ لَنْ تَحْصُلَ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَأَنَّ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهَا فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْبَحْثِ إِذِ الْكَلَامُ فِي الرُّؤية وَالسَّؤال كَانَ عَنْهَا لَا عَنِ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ أَيْ عِلْمِ كَانَ.

الجواب عن الثَّالث: فَوَاضِحٌ لِأَنَّ السَّؤالَ لَيْسَ مِنْ آيَاتِ السَّاعَةِ بَلِ السَّؤالُ عَنِ الرُّؤية فِي الدُّنْيَا وَأَيُّ رِبْطٍ بَيْنَ الرُّؤية وَآيَةٍ مِنْ آيَاتِ السَّاعَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْحَسَنِ وَالتَّبَيُّعِ وَالسَّدِيدِ أَنَّهُ سَأَلَ الرُّؤية بِالْبَصَرِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ التَّشْبِيهِ فَهُوَ كَلَامٌ لَا مَعْنَى لَهُ لِأَنَّ الرُّؤية بِالْبَصَرِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ التَّشْبِيهِ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى فِي الْحَقِيقَةِ أَنَّهُمْ زَادُوا عَلَى أَصْلِ الْإِشْكَالِ إِشْكَالًا آخَرَ أَصْعَبَ مِنَ الْأَوَّلِ فَهَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ عَاطِلَةٌ فَاسِدَةٌ.

قَالَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ قَالَ أَصْحَابُنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَجُوزُ أَنْ يَرَى وَتَقْرِيرُهُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

الأوَّل: أَنَّ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ الرُّؤية وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ عَارِفًا بِمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنَعُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَلَوْ كَانَتِ الرُّؤية مَمْتَنَعَةً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لَمَا سَأَلَهَا وَحَيْثُ سَأَلَهَا عَلِمْنَا أَنَّ الرُّؤية جَائِزَةٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى قَالَ الْقَاضِي الَّذِي قَالَهُ الْمُحْصِلُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ أَرْبَعَةٌ:

أحدّها: ما قاله الحسن وغيره أنّ موسى عليه السلام ما عرف أنّ الرّؤية غير جائزة على الله تعالى ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً برّبّه وبعده و توحيده فلم يبعد أن يكون العلم بإمتناع الرّؤية وجوازها موقوفاً على السّمع. ثانيها: أنّ موسى عليه السلام سأل الرّؤية على لسان قومه فقد كانوا جاهلين بذلك يكرّرون المسألة عليه يقولون: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ^(١) فَسَأَلَ موسى الرّؤية لا لنفسه فلمّا ورد المنع منها ظهر أنّ ذلك لا سبيل اليه وهذه طريقة أبي عليّ وأبي هاشم.

ثالثها: أنّ موسى سأل ربّه من عنده معرفة باهرة بإضطرار وأهل هذه التأويل مختلفون فيه فمنهم من يقول سأل ربّه المعرفة الصّورية ومنهم من يقول بل سأله إظهار الآيات الباهرة الّتي عندها تزول الخواطر والوساوس عن معرفته وأن كانت من فعله كما نقوله في معرفة أهل الآخرة وهو الّذي اختاره الكعبي.

رابعها: المقصود من هذا السّؤال أن يذكر الله تعالى من الدلائل السّمعية ما يدّل على إمتناع رؤيته حتّى يتأكد الدليل العقلي بالدليل السّمعى وتعاوض الدلائل أمرٌ مطلوب للعقلاء وهو الّذي ذكره أبو بكر الأصم فهذا مجموع أقوال المعتزلة في تأويل هذه الآية.

ثمّ أنّ الرّازي أبطل هذه الأقوال الأربعة الّتي نقلها القاضي عن المعتزلة فقال:

أما الوجه الأوّل: فضعيف ويدلّ عليه وجوه:

الأوّل: إجماع العقلاء على أنّ موسى عليه السلام ما كان في العلم بالله أقلّ منزلةً ومرتبةً من أراذل المعتزلة فلمّا كان كلّهم عالمين بإمتناع الرّؤية عليه تعالى و فرضنا أنّ موسى عليه السلام لم يعرف ذلك كانت معرفته بالله أقلّ درجةً من معرفة كلّ واحدٍ من أراذل المعتزلة وذلك باطل بإجماع المسلمين.

فصل في بيان تفسير القرآن

جزء ٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الثاني: أن المعتزلة يدعون العلم بأن كل ما كان مرئياً فإنه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل فإمّا أن يقال أن موسى حصل له هذا العلم أو لم يحصل له فإن كان الأول كان تجويزه لكونه تعالى مرئياً يوجب تجويز كونه حاصلًا في الحيز والجهة و تجويز هذا المعنى على الله تعالى يوجب الكفر عند المعتزلة فيلزمهم كون موسى عليه السلام كافراً وذلك لا يقوله عاقل وأن كان الثاني فنقول لما كان العلم بأن كل مرئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل علماً بديهيّاً ضرورياً ثم فرضنا أن هذا العلم ما كان حاصلًا لموسى لزم أن يقال أن موسى لم يحصل فيه جميع العلوم الضرورية ومن كان كذلك فهو مجنون فيلزمهم الحكم بأنه عليه السلام ما كان كامل العقل بل كان مجنوناً وذلك كفر بإجماع الأمة فثبت أن القول بأن موسى عليه السلام ما كان عالماً بإمتناع الرؤية مع فرض أنه تعالى ممتنع الرؤية يوجب أحد هذين القسمين الباطلين فكان القول باطلاً والله أعلم.

أمّا التّأويل الثاني: وهو أنه عليه السلام سأل الرؤية لقومه لا لنفسه فهو أيضاً فاسد ويدلّ عليه وجوه:

الأول: أن الأمر لو كان كذلك لقال موسى رب أرني ينظر واليك ولقال الله تعالى لن يروني فلما لم يكن كذلك بطل هذا التّأويل.

الثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلباً للمحال لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة منعهم عنه بقوله أنكم قوم تجهلون.

الثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال.

فأما أن لا يذكر شيئاً من تلك الدلائل البتة مع أن ذكرها كان فرضاً مضيقاً كان هذا نسبة لترك الواجب الى موسى عليه السلام وأنه لا يجوز.

الرابع: أن أولئك القوم الذين طلبوا الرؤية أما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى أو ما آمنوا بها فإن كان الأول كفاهم في الإمتناع عن ذلك السؤال الباطل

مجرد قول موسى عليه السلام فلا حاجة الى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام وأن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب لأنهم يقولون له لا نسلم أن الله منع من الرؤية بل هذا قول إفتريته علي الله تعالى فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة للقوم في قول موسى أرني أنظر إليك.

أما التآويل الثالث: فبعيداً أيضاً ويدل عليه وجوه:

الأول: أن على هذا التقدير يكون معنى الآية أرني أمراً أنظر الى أمرك ثم حذف المفعول والمضاف إلا أن سياق الآية يدل على بطلان هذا وهو قوله: **أَنْظُرْ إِلَيْكَ** قال: لن تراني فلما تجلّى ربّه للجبل ولا يجوز أن يحمل جميع هذا على حذف المضاف.

الثاني: أنه تعالى أراه من الآية ما لا غاية بعدها كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وإظلال الجبل فكيف يمكن بعد هذه الأحوال طلب أية ظاهرة قاهرة.

الثالث: أنه عليه السلام كان يتكلم مع الله بلا واسطة ففي هذه الحالة كيف يليق به أن يقول أظهر لي أية ظاهرة قاهرة تدلّ على أنك موجود ومعلوم أن هذا الكلام في غاية الفساد.

الرابع: أنه لو كان المطلوب أية تدلّ على وجوده لأعطاه تلك الآية كما أعطاه سائر الآيات ولكان لا معنى لمنعه عن ذلك فثبت أن هذا القول فاسد.

أما التآويل الرابع: وهو أن يقال أن المقصود منه إظهار آية تقوي ما دلّ العقل فهو أيضاً بعيد لأنه لو كان المراد ذلك لكان الواجب أن يقول أريد يا إلهي أن يقوّي إمتناع رؤيتك بوجوه زائدة على ما ظهر في العقل وحيث لم يقل ذلك بل طلب الرؤية علمنا أن هذه التآويلات فاسدة.

الحجة الثانية: من الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على أنه تعالى جازر الرؤية وذلك لأنه لو كان مستحيل الرؤية لقال لا أرى ألا ترى أنه لو كان في يد رجل حجر فقال له إنسان ناولني هذا لأكله فأنه يقول له هذا لا يؤكل ولا

يقول له لا تأكل ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة لقال له لا تأكلها أي هذا ممّا يؤكل ولكنّك لا تأكله فلمّا قال تعالى: لَنْ تَرِيْنِيْ وَلَمْ يَقُلْ لَا أَرَىْ عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ جَائِزُ الرُّؤْيَا.

الحجّة الثّالثة: من وجوه المستنبطة من هذه الآية أنّه تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائزٍ والمعلّق على الجائز جائز فيلزم كون الرؤيّة في نفسها جائزةً أنّما قلنا أنّه تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائزٍ لأنّه علّق رؤيته على إستقرار الجبل بدليل قوله فأن إستقر مكانه فسوف تراني وإستقرار الجبل أمرٌ جائز الوجود في نفسه فثبت أنّه تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائز الوجود في نفسه اذا ثبت هذا وجب أن تكون رؤيته جائزة الوجود في نفسها لأنّه لمّا كان ذلك الشرط أمراً جائز الوجود لم يلزم من فرض وقوعه محال فبتقدير حصول ذلك الشرط أنّا أن يترتب عليه الجزاء الذي هو حصول الرؤيّة فأن ترتّب عليه حصول الرؤيّة لزم القطع بكون الرؤيّة جائزة الحصول وأن لم يترتب عليه حصول الرؤيّة قدح هذا في صحیحة قوله متى حصل ذلك الشرط حصلت الرؤيّة و ذلك باطل.

فأن قيل أنّه تعالى علّق حصول الرؤيّة على إستقرار الجبل حال حركته وإستقرار الجبل حال حركته محال فثبت أنّ حصول الرؤيّة معلّق على شرطٍ ممتنع الحصول لا على شرطٍ جائز الحصول فلم يلزم صحّة ما قلتموه والدليل على أنّ الشرط هو إستقرار الجبل حال حركته أنّ الجبل أمّا أن يقال أنّه حالّ ما، جعل إستقراره شرطاً لحصول الرؤيّة كان ساكناً أو متحركاً فأن كان الأوّل لزم حصول الرؤيّة بمقتضى الإشتراط وحيث لم تحصل علمنا أنّ الجبل في ذلك الوقت ما كان مستقراً ولمّا لم يكن مستقراً كان متحركاً فثبت أنّ الجبل حال ما جعل إستقراره شرطاً لحصول الرؤيّة كان متحركاً لا ساكناً فثبت أنّ الشرط هو كون الجبل مستقراً حال كونه ساكناً فثبت أنّ الشرط الذي علّق الله على حصوله الرؤيّة هو كون الجبل مستقراً حال كونه متحركاً وأنّه شرطٌ محال.

والجواب هو أن إعتبار حال الجبل من حيث هو مغاير لإعتبار حاله من حيث أنه متحرك أو ساكن وكونه ممتنع الخلو عن الحركة والسكون لا يمنع إعتبار حاله من حيث أنه متحرك أو ساكن ألا ترى أن الشيء لو أخذته بشرط كونه موجوداً كان واجب الوجود ولو أخذته بشرط كونه معدوماً كان واجب العدم ولو أخذته من حيث هو مع قطع النظر عن كونه موجوداً أو كونه معدوماً كان ممكن الوجود فكذا هاهنا الذي جعل شرطاً في اللفظ هو إستقرار الجبل و هذا القدر ممكن الوجود فثبت أن القدر الذي جعل شرطاً أمرٌ ممكن الوجود جائز الحصول وهذا القدر يكفي لبناء المطلوب.

الحجة الرابعة: من الوجوه المستنبطة من هذه الآية في إثبات جواز الرؤية قوله تعالى: **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** وهذا التجلي هو الرؤية ويدل عليه وجهان:

الأول: أن العلم بالشيء يجلي لذلك الشيء وإبصار الشيء يجلي لذلك الشيء إلا أن الإبصار في كونه مجلياً أكمل من العلم به وحمل اللفظ على المفهوم الأكمل أولى.

الثاني: أن المقصود من ذكر هذه الآية تقرير أن الإنسان لا يطبق رؤية الله بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى إن ذلك وتفترت أجزائه ولولا أن المراد من التجلي ما ذكرناه لم يحصل هذا المقصود فثبت أن قوله تعالى: **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** هو أن الجبل لما رأى الله تعالى إن ذلك أجزائه متى كان الأمر كذلك ثبت أنه تعالى جائز الرؤية أقصى ما في الباب أن يقال أن الجبل جماد والجماد يمتنع أن يرى شيئاً إلا أننا نقول لا يمتنع أن يقال أنه تعالى خلق في ذات الجبل الحياة والعقل والفهم ثم خلق فيه رؤية متعلقة بذات الله تعالى والدليل عليه أنه تعالى قال يا جبال أوبي معه والطير وكونه مخاطباً بهذا الخطاب مشروط بحصول الحياة والعقل فيه فكذا هاهنا فثبت بهذه الوجوه الأربعة دلالة هذه الآية على أنه تعالى جائز الرؤية انتهى كلام

الرّازي و أنّما نقلناه بعين عباراته حفظاً للأمانة مضافاً الى ما فيه من الفائدة من جهة تقريره مسلك الأشاعرة في الباب وهو رئيسهم و علامتهم و ليس منهم من يوازيه في المعقول و المنقول و الإحاطة بالأقوال و الأراء اذا عرفت هذا فنقول:

أمّا ما قاله الرّازي في معنى الكلام و كيفيته فلا كلام لنا فيه فعلاً و أنّما الكلام في حججه التي أقام على جواز الرؤية تأييداً لمذهبه الفاسد الكاسد في جواز الرؤية و هي أربعة و قد نقلناها بطولها و تفصيلها من تفسيره لهذه الآية. أمّا الحجّة الأولى: و هي أنّ الآية دالة على سؤال موسى الرؤية مع أنّه كان عارفاً بما يجب و يجوز و يتمتع على الله تعالى فلو كانت ممتنعة عليه تعالى لما سأله الخ.

فالجواب عنها من وجوه:

أحدها: أنّ السؤال أنّما كان بسبب قومه لا لنفسه لأنّه كان عالماً بإمكانه أن يد هذا الجواب بوجوه:

منها، حكاية طلب الرؤية من بني إسرائيل في مواضع كقوله تعالى فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم:

قال الله تعالى: **وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ^(١)**

و منها، أنّ موسى أضاف ذلك الى السّفهاء:

قال الله تعالى: **فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَ إِنِّي أَتَّهِلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السّفهَاءُ مِنَّا^(٢)**.

و إضافة ذلك الى السّفهاء تدل على أنّه كان بسببهم و من أجلهم حيث سألو ما لا يجوز عليه تعالى.

فأن قيل أن كان الأمر على هذا المنوال فلم أضاف السؤال الى نفسه و وقع الجواب مختصاً به.

قلنا لا يمتنع وقوع الإضافة على هذا الوجه مع أن السؤال كان لأجل الغير اذ كانت هناك دلالة تؤمن من اللبس فلهذا يقول أحدنا اذا شفع في حاجة في حاجة غيره للمشفوع اليه أسألك أن تفعل بي كذا و تجنبني الى ذلك و يحسن أن يقول المشفوع اليه قد أجبتك و شفعتك و ما جرى مجرى ذلك على أنه قد ذكر في هذا الخبر ما يغني عن هذا الجواب فقول الرازي في الحجّة الأولى و حيث سألها علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى، لا محصل له نعم هذا يتم لو كان موسى سائلاً لنفسه و قد عرفت أنه ليس كذلك، و لا أقل من وجود الإحتمال و اذا جاء الإحتمال بطل الإستدلال و هو المطلوب.

أما الجواب عن الحجّة الثانية: التي تمسك بها الرازي و غيره من الأشاعرة من أنه تعالى لو كان مستحيل الرؤية لقال في جواب موسى، لا أرى.

فنقول قوله تعالى: لَنْ تَرِنِي أدل و أثبت للمدعى من قوله لا أرى، لوجود كلمة، لن، التي لنفي الأبد الشامل للدنيا و الآخرة، بخلاف، لا أرى، لأن هذا الكلام أي عدم الرؤية منصرف الى الرؤية في الدنيا فقط أي لا أرى في الدنيا. و أما عدم الرؤية في الآخرة فلا يستفاد من الكلام.

و أما تمثيله بالحجر و التفاهة فهو من المغالطة، و ذلك لأن الإنسان إذا قال لغير ناولني هذا الحجر لأكله فأنت يقول له هذا لا يؤكل و لا يقول له لا تأكل.

وجه المغالطة في هذا الكلام هو أن الله تعالى لم يقل لموسى لا ترى أو لا تراني بل قال لَنْ تَرِنِي و وضع كلمة لا التي للنفي موضع كلمة، لَنْ التي لنفي الأبد مغالطة جداً و هكذا الكلام في تمثيله بالتفاحة فأن قول القائل لا تأكلها غير قوله لن تأكلها لفظاً و معنىً.

في القرآن في قوله تعالى

جزء ٩

الجزء ٩

ثانياً: نقول أي فرق بين قول القائل هذا الحجر لا يؤكل، وقوله لن تأكله مثلاً ثم أي فرق بين قولنا إن الله لا يرى وقولنا لن تراه، إلا بالخطاب وعدمه وحيث كان موسى مخاطباً لهذا الكلام فقال تعالى لن تراني وهذا ظاهرٌ.

أما الحجة الثالثة: وهي أن الله تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائز وهو إستقرار الجبل والمعلّق على الجائز جائز، وتقديره أن إستقرار الجبل أمرٌ ممكنٌ في نفسه والمعلّق على الممكن ممكن فالرؤية ممكنة.

والجواب أن التعليق يقع على قسمين:

أحدهما: أن يكون الغرض منه بيان وقت المعلّق وتحديد وقعه بزمانٍ خاص مثل قولنا أن جاءك زيد يوم الجمعة فأكرمه، أو مكانٍ خاصّ مثل أن يقول أن جاءك زيد في المسجد فأكرمه أو صفة خاصة مثل أن يقال أن جاءك زيد قائماً أو راكباً أو أكلاً فأكرمه ففي هذه الموارد لانعني بالتعليق إلا وجود الإكرام بعد تحقق هذه الأمور لا مطلقاً.

ثانيهما: أن يكون المطلوب فيه مجرد بيان تحقّق الملازمة وعلاقة الإستلزام بأن يكون لإفادة النسبة التي بين الشرط والجزاء مع قطع النظر عن وقوع شيء من الطرفين وعدم وقوعه.

ولا شك أن التعليق بالمعنى الأول خارج عن مورد البحث وهو ممّا لا كلام لنا فيه والخصم أيضاً لا يقول به في المقام.

وأما التعليق بالمعنى الثاني فهو محلّ البحث فنقول لا يخفى على العاقل أنّه لا علاقة بين إستقرار الجبل ورؤيته تعالى في نفس الأمر ولا ملازمة بينهما أصلاً مضافاً إلى أن إفادة مثل هذا الحكم وهو تحقّق علاقة اللزوم بين هاتين القضيتين لا يليق بسياق مقاصد القرآن مع ما فيه من بعده عن مقام سؤال الكليم فإنّ المناسب لمّا طلب الرؤية بيان وقوعه ولا وقوعه لا مجرد الإفادة بين الأمرين من علاقة اللزوم فالصواب أن يقال أن المقصود من هذا التعليق بيان

أَنَّ الجزء لا يقع أصلاً بتعليقه على ما لا يقع ثم هذا التعليق أن كان مستلزماً للعلاقة بين الشرط والجزء فوجب أن يكون إمكان الشرط مستتباً لإمكان الجزء لأنَّ ماله هذه العلاقة مع المحال لا يكون ممكناً على ماهو المشهور من أنَّ مستلزم المحال محال وإلا فلا وجه لوجوب إمكان الجزء والأول وإن كان شائع الإرادة من اللفظ إلا أنَّ الثاني أيضاً مذهب معروف للعرب كثير الدوران بينهم وهو عمدة البلاغة ودعامتها ومن ذلك قول الشاعر:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

ومعلوم أنَّ مشيب الغراب وصيرورة القار كاللبن لا ملازمة بينهما وبين إتيان الشاعر أهله ونظيره في القرآن تعليق خروج أهل النار منها على ولوج الجمل في سمّ الخياط والعاقل لا يدعي العلاقة بينهما وإذا كان هذا النوع من التعليق شائعاً كثير الوقوع في كلامهم فلا ترجيح للإحتمال الأول بل الترجيح معنا فأنَّ البلاغة في ذلك بل نقول إذا تحققت العلاقة في الواقع بينهما وعلق عليه لمكان تلك العلاقة فليس له ذلك الموضع من حسن القبول وأيضاً لا يخفى على ذي فطرة أنَّ إلزام تحقق علاقة لزوم بين إستقرار الجبل في تلك الحال وبين رؤيته تعالى بحيث لو فرض وقوع ذلك الإستقرار إمتنع أن لا تقع رؤيته تعالى مستبعداً جداً يكاد يجزم العقل بطلانه.

فإذا المقصود من ذلك الكلام مجرد بيان إنتفاءه بتعليقه على أمر غير واقعي ويكفي في ذلك عدم وقوع المعلق عليه ولا يستدعي إمتناع المعلق إمتناعه ولو سلم فنقول أنَّ المعلق عليه هو الإستقرار مطلقاً بل في المستقبل و عقيب النظر بدلالة الفاء و، إن، وذلك لأنَّه إذا دخل الفاء على، إن، يفيد إشتراط التعقيب لا تعقيب الإشتراط فالشرط هاهنا وقوع الإستقرار عقيب النظر والنظر ملزوم لوقوع حركة الجبل عقيب فوقه السكون عقيب محال لإشتماله وقوع الشئ عقيب ما يستعقب منا في ذلك الشئ ويستلزم وقوعه عقيب وأما

أَنَّ النَّظَرَ لَا يَسْتَلْزِمُ إِنْدَكَكَ الْجَبَلِ وَتَزَلْزَلَهُ وَ لَا عِلَاقَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَأَنَّمَا هُوَ مُصَاحِبَةٌ إِتْفَاقِيَّةٌ فَمَمْنُوعٌ وَلَعَلَّ النَّظَرَ مَلْزُومٌ لِلْحَرَكَةِ كَمَا أَنَّ إِسْتِقْرَارَ الْجَبَلِ مَلْزُومٌ لِرُؤْيَيْهِ تَعَالَى وَتَحَقُّقُ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ النَّظَرِ وَ الْحَرَكَةِ لَيْسَ بِأَبْعَدَ مِنْ تَحَقُّقِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْإِسْتِقْرَارِ وَالرُّؤْيَةِ.

أَمَّا الْحِجَّةُ الرَّابِعَةُ: فَقَدْ إِدْعَى فِيهَا قَوْلُهُ أَنَّ التَّجَلِّيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا هُوَ الرُّؤْيَةُ وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِوَجْهَيْنِ:
وَأَفَادَ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ يَجَلِّي لِذَلِكَ الشَّيْءِ وَإِبْصَارَ الشَّيْءِ أَيْضاً يَجَلِّي وَ الْإِبْصَارُ فِي كَوْنِهِ مَجَلِّياً أَكْمَلَ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ وَ حَمَلَ اللَّفْظَ عَلَى الْمَفْهُومِ الْأَكْمَلَ أَوَّلَى.

فَفِيهِ أَمَّا أَوَّلًا، فَبِأَنَّ الْإِبْصَارَ فِي كَوْنِهِ مَجَلِّياً أَكْمَلَ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ، أَوَّلُ الْكَلَامِ وَ أَيْ دَلِيلٌ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ وَ عَلَى الْخِصْمِ أَوَّلًا إِثْبَاتٌ ذَلِكَ ثُمَّ حَمَلَ اللَّفْظَ عَلَى الْمَفْهُومِ الْأَكْمَلَ بَلْ نَقُولُ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ لِأَنَّ رُؤْيَةَ الْقَلْبِيَّةِ أَكْمَلَ وَأَتَمُّ مِنْ رُؤْيَةِ الْبَصَرِ فَحَمَلَ اللَّفْظَ أَعْنَى بِهِ التَّجَلِّيَ عَلَى الْعِلْمِ أَوَّلَى، مُضَافاً إِلَى كَوْنِهِ أَوْفَقَ لظَوَاهِرِ الْكِتَابِ وَ السَّنَةِ مِنْ حَمَلِهِ عَلَى الْإِبْصَارِ الَّذِي يَكْذِبُهُ الْعَقْلُ وَ النُّقْلُ.

وَأَمَّا مَا أَفَادَهُ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي مِنْ أَنَّ الْجَبَلَ لَمَّا إِنْدَكَكَ بَعْدَ التَّجَلِّيِ مَعَ عَظَمَتِهِ فَالْإِنْسَانَ مَعَ صَغَرِهِ مِثْلًا كَيْفَ يُطَبِّقُ رُؤْيَيْهِ وَ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى الْجَوَازِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ إِلَّا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُطَبِّقُ الرُّؤْيَةَ فَأَنَّ عَدَمَ الطَّاقَةِ لَا يَلْزِمُ الْإِسْتِحَالَةَ.

وَالْجَوَابُ أَنَّ عَدَمَ الطَّاقَةِ دَلِيلٌ عَلَى الْإِسْتِحَالَةِ إِذْ لَوْ كَانَتِ الرُّؤْيَةُ مُمْكِنَةً فِي حَدِّ نَفْسِهَا فَلَمْ لَا يُطَبِّقُ الْإِنْسَانُ أَتْيَاهَا وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ كَانَتِ الرُّؤْيَةُ فِي حَدِّ نَفْسِهَا مُمْكِنَةً فَلَا مَعْنَى لِعَدَمِ طَاقَةِ الْإِنْسَانِ الرُّؤْيَةَ وَ أَنَّ كَانَتِ غَيْرَ مُمْكِنَةً فَتُبَيَّنَ الْمَطْلُوبُ: بَلْ نَقُولُ أَنَّ كَانَتِ رُؤْيَيْهِ تَعَالَى مُمْكِنَةً جَائِزَةً فَهُوَ تَعَالَى فِي حَدِّ ذَاتِهِ مُمْكِنٌ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ وَ لَيْسَ بِوَاجِبِ الْوُجُودِ وَ التَّالِيِ بَاطِلٌ فَالْمَقْدَمُ مِثْلُهُ بَيَانُ الْمَلَاظِمَةِ أَنَّ الرُّؤْيَةَ مِنْ صِفَاتِ الْمَرْتَبِيِّ وَإِمْكَانِ الصِّفَةِ يَسْتَدْعِي إِمْكَانَ الْمَوْصُوفِ.

أما المقدمة الأولى: وهى كون الرؤية من صفات المرئي فلا كلام فيه لأن الرؤية صفة وكل صفة تستدعي موصوفاً.

أما المقدمة الثانية: وهى أن إمكان الصفة يستدعي إمكان الموصوف لأن الموصوف لا يخلو حاله من الوجوب والإمكان فأن كان ممكناً فهو المطلوب وأن كان واجباً فصفاته أيضاً واجبة لأن واجب الوجود بالذات واجب الوجود من جميع الجهات وأن كان ممكناً فصفاته أيضاً ممكنة فأن الصفة تابعة للموصوف في الوجوب والإمكان وهذا كما ترى.

وأيضاً لو كان الواجب جائز الرؤية لكان في جهة من الجهات إذ من شرائط تحقق الرؤية كون المرئي في جهة وكل موجود وقع في جهة فهو ممكن محدود وكل ممكن محدود فهو مخلوق وكل مخلوق ليس بواجب الوجود هف فثبت وتحقق أنه تعالى لا يرى ويمتنع أن يرى لخروجه عن كونه واجب الوجود الذي هو منزّه عن صفات المخلوقين من التقابل والوضوح والجهة وغيرها.

وأيضاً، لو كان مرئياً فلا محالة يكون متشكلاً بشكل وصورة خاصة صورة تحتاج الى مادة لإستحالة وجود الصورة بدون المادة ولازم ذلك أن يكون المرئي مركباً منهما وكل مركب منهما جسم هذا خلف وهكذا الكلام في الشكل، لأنه أيضاً يحتاج الى محل يقع فيه.

أن قلت لا نسلم أن المرئي لابد له من صورة وشكل بل نقول أنه يرى ولا صورة ولا شكل له.

قلنا هذا مستحيل ولا أظن أن الخصم يدعي ذلك لأن وجود الصورة أو الشكل بدون المادة محال بالضرورة.

وأيضاً لابد لكل رؤية من إحاطة المدرك على المدرك وأن شئت قلت من إحاطة الرائي على المرئي فيكون الرائي محيطاً والمرئي محاطاً فيلزم أن يكون الواجب محاطاً لكونه مرئياً وكل محاط محدود إذ لا نعني بالمحاط إلا

المحدودية وكلّ محدود متناه إذ لو لم يكن متناهياً لا يكون محدوداً وكلّ متناه فهو ممكن فهو تعالى ممكن هـ.

و أيضاً يلزم الانقلاب و ذلك لأنّ المدرك أعني به الرائي لا يمكن له الإحاطة على المرئي الغير المتناهي و صيرورته غير متناه و لازم ذلك صيرورة المتناهي غير متناه و هكذا الكلام في المرئي لأنه محاطٌ على الفرض محاطٌ فهو محدود و كلّ محدود فهو متناه فيلزم صيرورة غير المتناهي متناهياً و لا نعني بالإنقلاب إلا هذا و قد أجمعوا على استحالة الانقلاب في الماهية و الذات. نعم الانقلاب في الصورة ممّا لا إشكال فيه كأنقلاب الماء هواء و ما نحن فيه ليس من هذا القبيل ضرورة أنّ غير المتناهي لا يكون متناهياً و بالعكس و مع حفظ التناهي و عدمه في الرائي و المرئي لا تتحقق الرؤية لعدم تحقّق المحاط و المحيط و هو معلوم فثبت أنّ الرؤية غير ممكنة و هو المطلوب هذا كلّ في الاستدلال على عدم جواز الرؤية عقلاً و أما الاستدلال عليه بالنقل فمن وجوه ثلاثة:

أحدها الكتاب، و ثانيها السُّنة و ثالثها، الإجماع فهي بضميمة العقل الذي مرّ الكلام فيه، توجب استحالة الرؤية بالأدلة الأربعة: الكتاب، و السُّنة، و الإجماع و العقل و ما قامت على بطلانه الأدلة الأربعة فهو باطل في حدّ ذاته، أمّا الكتاب.

فمنه قوله تعالى في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها حيث قال: لَنْ تَرَانِي يَا مُوسَى وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ كَلِمَةَ، لَنْ لِنَفِي الْأَبَدِ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَأَيَّدْنَاهُ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَغَرَضُنَا الْآنَ نَصُّ الْكِتَابِ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ الرُّؤْيَةِ.

و منها قوله تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى آلَاءَ اللَّهِ

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ^(١).

وقد مرّ الكلام فيها هناك و قلنا أنّ الرّؤية لو كانت ممكنة جائزة فلا معنى لقوله: فَأَخَذْتُكُمْ الصَّاعِقَةَ وَإِنَّمَا أَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ لِإِسْتِعْذَانِهِمُ الْمُحَالِ الَّذِي يلزم منه الكفر.

و أمّا السُّنة، فالأخبار الواردة في الباب كثيرة جدّاً فمنها:

ما رواه في البحار بأسناده عن عبد الله بن عباس في قوله عزّ وجلّ فلما أفاق قال سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قال، يقول سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ من أن أسألك رؤية وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى قال الصّدوق عليه السلام أنّ موسى عليه السلام علم أنّ الله تعالى لا يجوز عليه الرّؤية وإنّما سأل الله أن يريه ينظر اليه عن قومه حين ألحوا عليه في ذلك و ساق الحديث الى أن قال و الأخبار التي رويت في هذا المعنى و أخرجها مشايخنا رضي الله عنهم في مصنّفاتهم عندي صحيحة وإنّما تركت إيرادها في هذا الباب خشية أن يقرأها جاهل بمعانيها فنكذب بها فيكفر بالله عزّ وجلّ و هو لا يعلم و الأخبار التي ذكرها أحمد بن محمد بن عيسى في نوادره والتي أوردها محمد بن أحمد بن يحيى في جامعهم في معنى الرّؤية صحيحة لا يردها إلا مكذب بالحقّ أو جاهلّ به و ألفاظها ألفاظ القرآن و لكلّ خبر معنى ينفي التشبيه و التّعطيل و يثبت التّوحيد و قد أمرنا الأئمة صلوات الله عليهم أن لا نكلّم النّاس على قدر عقولهم و معنى الرّؤية هنا الواردة في الأخبار، العلم، و ذلك لأنّ الدّنيا دار شكوك و إرتياب و خطرات فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله و أموره في ثوابه و عقابه ما تزول به الشّكوك و يعلم قدرة الله عزّ وجلّ و تصديق ذلك في كتاب الله، قوله لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاؤك فبصرك اليوم حديد فمعنى ما روي في الحديث أنّه عزّ وجلّ يرى، أن يعلم علماً يقيناً:

قال الله تعالى: أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ^(١).

بناءً على القرآن في تفسيره

جزء ٩

الجلد التاسع

قال الله تعالى: أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ^(١).

قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ^(٢).

و أشباه ذلك كلُّها من رؤية القلب وليست من رؤية العين و أما قول الله عزَّوجلَّ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فَمَعَنَاهُ لَمَّا ظَهَرَ عَزَّوَجَلَّ لِلْجَبَلِ بَآيَةً مِنْ آيَاتِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْجِبَالُ سَرَابًا وَ الَّتِي يَنْسِفُ الْجِبَالُ نَسْفًا تَدَكِّدُكَ الْجَبَلِ فَصَارَ تَرَابًا لِأَنَّهُ لَمْ يَطُقْ حَمْلَ تِلْكَ الْآيَةِ وَ قَدْ قِيلَ أَنَّهُ بَدَّالَهُ نَوْرُ الْعَرْشِ وَ تَصْدِيقُ مَا ذَكَرْتَهُ مَا حَدَّثَنَا بِهِ تَمِيمُ الْقُرَشِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ حَمْدَانَ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ قَالَ:

حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْمَأْمُونِ وَعِنْدَهُ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِيَّ بْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: لَهُ الْمَأْمُونُ يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَلَيْسَ فِي قَوْلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلَى فَسَأَلَهُ عَنْ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ لَهُ فَمَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِيَنِي كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلِيمَ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عُمَرَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، فَقَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ كَلِيمَ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عُمَرَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اعْزُّ أَنْ يُرَى بِالْأَبْصَارِ وَ لَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَ قَرَّبَهُ نَجِيًّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ كَلَّمَهُ وَ قَرَّبَهُ وَ نَاجَاهُ فَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتَ وَ كَانَ الْقَوْمُ سَبْعَ مِائَةِ أَلْفٍ رَجُلٍ فَأَخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَةَ أَلْفٍ ثُمَّ أَخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَ مِائَةٍ ثُمَّ أَخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِ رَبِّهِ فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ، فَأَمَاتَهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ وَ صَعَدَ مُوسَى إِلَى الطُّورِ وَ سَأَلَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى أَنْ يُكَلِّمَهُ

بِسْمِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٩

العبد
الرجل

وَيُسْمِعُهُمْ كَلَامَهُ فَكَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ وَسَمِعُوا كَلَامَهُ مِنْ فَوْقَ وَ
 أَسْفَلَ وَ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ وَ وَرَاءَ وَ أَمَامَ لِأَنَّ اللَّهَ أَحَدَثَهُ فِي الشَّجَرَةِ ثُمَّ
 جَعَلَهُ مُنْبِعًا مِنْهَا حَتَّى سَمِعُوهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ فَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ
 لَكَ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي سَمِعْنَاهُ كَلَامَ اللَّهِ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَلَمَّا قَالُوا
 هَذَا الْقَوْلَ الْعَظِيمَ وَ اسْتَكْبَرُوا وَ عَتَوْا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ عَلَيْهِمُ
 صَاعِقَةً فَأَخَذَتْهُمْ بِظُلْمِهِمْ فَمَاتُوا فَقَالَ مُوسَى يَا رَبِّ مَا أَقُولُ لِبَنِي
 إِسْرَائِيلَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَيْهِمْ وَ قَالُوا أَنْكَ ذَهَبْتَ بِهِمْ فَقَتَلْتَهُمْ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
 صَادِقًا فِيمَا أَدْعَيْتَ مِنْ مُنَاجَاةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ وَ بَعَثَهُمْ مَعَهُ
 فَقَالُوا أَنْكَ لَوْ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُرِيكَ تَنْظُرَ إِلَيْهِ لِأَجَابِكَ وَ كُنْتَ تُخْبِرُنَا
 كَيْفَ هُوَ فَتَعْرِفُهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ فَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى
 بِالْأَبْصَارِ وَ لَا كَيْفِيَّةَ لَهُ وَ إِنَّمَا يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ وَ يُعْلَمُ بِأَعْلَامِهِ فَقَالُوا لَنْ
 نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَسْأَلَهُ فَقَالَ مُوسَى يَا رَبِّ أَنْكَ قَدْ سَمِعْتَ مَقَالَهَ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِصَلَاحِهِمْ فَأَوْحِ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهِ يَا مُوسَى
 اسْأَلْنِي مَا سَأَلُوكَ فَلَنْ أَوْأَخِذُكَ بِجَهْلِهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى رَبِّ
 أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ
 مَكَانَهُ، وَ هُوَ يَهْوَى، فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ، بِآيَاتِهِ،
 جَعَلَهُ دَكَاً وَ حَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ،
 يَقُولُ رَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ عَنْ جَهْلٍ قَوْمِي وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ
 مِنْهُمْ بِأَنَّكَ لَا تُرَى فَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ لِلَّهِ دَرَكٌ يَا أَبَا الْحَسَنِ الْخَبَرُ.

مَا رَوَاهُ فِي الْبَحَارِ أَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنْ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ أَنَّهُ قَالَ قُلْتُ
 لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام جُعِلَتْ فِدَاكَ أَخْبِرْنِي عَمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ
 مِنَ الرُّؤْيَةِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا يُرَى، فَقَالَ عليه السلام: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ مَنْ وَصَفَ
 اللَّهَ بِخِلَافِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفَرِيَةَ عَلَى اللَّهِ قَالَ اللَّهُ لَا
 تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، هَذِهِ الْأَبْصَارُ

ليست هي الأعين إنّما هي الأبصار التي في القلوب لا تقع عليه الأوهام ولا يُدرك كيف هو إنتهى.

ما رواه أيضاً عن محمد الحلي أنه سأل الصادق عليه السلام فقال: رأى رسول الله ربّه قال عليه السلام: نعم رآه بقلبه فأما ربنا جلّ جلاله فلا تُدركه أبصار حدق الناظرين ولا يُحيط به إسماع السامعين.

وأيضاً سُئل عنه عليه السلام هل يرى الله في المعاد فقال عليه السلام: سبحانه تبارك وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً أنّ الأبصار لا تُدرك إلا ماله لون وكيفيّة والله خالق الألوان والكيفيّة إنتهى.

ما رواه بأسناده عن هشام قال كنتُ عند الصادق جعفر بن محمد اذ دخل عليه معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعين فقال: له معاوية بن وهب يابن رسول الله ما تقول في الخبر الذي روي أنّ رسول الله رأى ربّه على أي صورةٍ رآه.

و عن الحديث الذي رَوَاهُ أنّ المؤمنين يرون ربهم في الجنة على أي صورة يرونه فتبسم عليه السلام ثم قال: يا معاوية ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه لا يعرف الله حق معرفته ثم قال عليه السلام يا معاوية أنّ محمداً صلى الله عليه وآله لم ير الرب بمشاهدة العيان وأنّ الرؤية على وجهين:

رؤية القلب، ورؤية البصر فمن عني برؤية القلب فهو مُصيب ومن عني برؤية البصر فقد كفر بالله وبآياته تقول رسول الله من شبهه الله بخلقه فقد كفر ولقد حدّثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي عليه السلام ف قيل يا أبا رسول الله هل رأيت ربك فقال عليه السلام كيف أعبد من لم أره لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان فاذا كان المؤمن يرى ربّه بمشاهدة البصر فإنّ كلّ من جاز عليه البصر والرؤية فهو مخلوق ولا بدّ للمخلوق من خالقٍ

فقد جعلته اذاً مُحدثاً مخلوقاً و مَنْ شَبَّهه بخلقه فقد اِتَّخَذَ مَعَ اللّٰه شريكاً و يلهم أولهم اُولَمْ يَسْمَعُوا يقول الله لا تُدرِكه الأبصار و هو يُدرِك الأبصار و هو اللّٰطيف الخبير.

وقوله: لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ و اِنَّمَا طَلَعَ مِنْ نوره على الْجَبَلِ كضوء يخرج من سَمِّ الْخِيَاطِ فَدَكَدَكَتِ الْاَرْضَ وَصَعَقَتِ الْجِبَالَ وَخَرَّ مُوسَى صَعْقاً اَي مَيِّتاً فَلَمَّا اَفَاق وَرَدَّ عَلَيْهِ رُوحه قال سُبْحَانَكَ تَبَّتْ اِلَيْكَ مِنْ قَوْلٍ مَنْ رَعِمَ اَنْتَ تَرَى وَرَجَعْتُ اِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ اَنَّ الْاَبْصَارَ لَا تُرْكَ وَأَنَا اَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ و اَوَّلُ الْمُقَرَّرِينَ بِاَنَّكَ تَرَى و لَا تُرَى وَاَنْتَ بِالْمَنْظَرِ الْاَعْلَى.

ثُمَّ قَالَ ﷺ اَنَّ اَفْضَلَ الْفَرَائِضِ وَاَوْجِبُهَا عَلَى الْاِنْسَانِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ و الْاِقْرَارُ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَحَدِّ الْمَعْرِفَةِ اَنْ يَعْرِفَ اَنَّهُ لَا اِلَهَ غَيْرُهُ و لَا شَبِيهَ لَهُ و لَا نَظِيرَ و اَنَّهُ قَدِيمٌ مُثَبَّتٌ وَجُودُهُ غَيْرُ مُقَيَّدٍ (فقيد خ ل) موصوف من غير شبيهه و لا مُبْطَل لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ و هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ و بَعْدَهُ مَعْرِفَةُ الرَّسُولِ وَالشَّهَادَةُ بِالنَّبُوَّةِ و اَدْنَى مَعْرِفَةِ الرَّسُولِ الْاِقْرَارُ بِنَبُوَّتِهِ و اَنْ مَا اَتَى بِهِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ اَمْرٍ اَوْ نَهْيٍ فَذَلِكَ مِنْ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ و بَعْدَهُ مَعْرِفَةُ الْاِمَامِ الَّذِي بِهِ تَأْتَمُّ (يَأْتَمُّ خ ل) بِنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ و اِسْمُهُ فِي حَالِ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ و اَدْنَى مَعْرِفَةِ الْاِمَامِ اَنَّهُ عَدِلُ النَّبِيِّ اِلَّا دَرَجَةُ النَّبُوَّةِ و وَارِثُهُ وَاَنْ طَاعَتُهُ طَاعَةُ اللّٰهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ فِي كُلِّ اَمْرٍ وَالرَّدُّ اِلَيْهِ و الْاِخْذُ بِقَوْلِهِ و يَعْلَمُ اَنَّ الْاِمَامَ بَعْدَ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ عَلِيٌّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ و بَعْدَهُ الْحَسَنُ ثُمَّ الْحُسَيْنُ ثُمَّ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ ثُمَّ مُحَمَّدٌ بْنُ عَلِيٍّ ثُمَّ اَنَا ثُمَّ بَعْدِي مُوسَى ابْنِي عَلِيٍّ ابْنَهُ و بَعْدَهُ مُحَمَّدٌ ابْنَهُ و بَعْدَهُ عَلِيٌّ ابْنَهُ و بَعْدَ عَلِيٍّ الْحَسَنُ ابْنَهُ وَ الْحَجَّةُ مِنْ وُلْدِ الْحَسَنِ.

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَامَعَاوِيَةَ جُعِلَتْ لَكَ أَصْلًا فِي هَذَا فاعْمَلْ عَلَيْهِ فَلَوْ كُنْتَ تَمُوتُ عَلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ لَكَ حَالِكٌ أَسْوَأُ الْأَحْوَالِ فَلَا يَغْنُرُكَ قَوْلٌ مِنْ رَعْمٍ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَى بِالْبَصَرِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ قَالُوا أَعْجَبَ مِنْ هَذَا أَوْلَمْ يُنْسَبُوا آدَمَ إِلَى الْمَكْرُوهِ أَوْلَمْ يُنْسَبُوا إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَا نَسَبُوهُ أَوْلَمْ يُنْسَبُوا دَاوُدَ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ الطَّيْرِ أَوْلَمْ يُنْسَبُوا يَوْسُفَ الصَّدِيقِ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ زَلِيخَا أَوْلَمْ يُنْسَبُوا مُوسَى إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنَ الْقَتْلِ أَوْلَمْ يُنْسَبُوا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ زَيْدٍ أَوْلَمْ يُنْسَبُوا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ حَدِيثِ الْقَطِيفَةِ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ تَوْبِيخَ الْإِسْلَامِ لِيَرْجِعُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَعْمَى اللَّهُ أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَعْمَى قُلُوبَهُمْ تَعَالَى اللَّهُ عَنْهُ عُلُوًّا كَبِيرًا انْتَهَى.

أَقُولُ وَأَمَّا نَقْلُنَا الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَائِدَةِ وَأَنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ مَحَلِّ الْبَحْثِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا نَقْلْنَاهَا^(١).
ثُمَّ أَنَّ الْأَخْبَارَ الْوَارِدَةَ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ وَلَنَكْتَفِي بِذِكْرِ هَذَا الْمَقْدَارِ مِنَ السَّنَةِ حَذْرًا عَنِ الْإِطْنَابِ وَالْإِطَالَةِ.

أَمَّا الْإِجْمَاعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَدَمِ الرُّؤْيَةِ فَهُوَ مَوْجُودٌ وَلَمْ يَخَالَفْ فِيهِ مِنْ يَعْأُ بِهِ إِلَّا الْأَشَاعِرَةُ وَحَيْثُ أَنَّ الْمَخَالَفَ فِي الْإِجْمَاعِ مَعْلُومٌ لَنَا فَلَا يَضُرُّ بِالْإِجْمَاعِ مِضَافًا إِلَى أَنَّهُمْ أَيُّ الْأَشَاعِرَةِ أَنْكَرُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَصُولِ الْمُسْلِمَةِ بَلْ أَنْكَرُوا الْحَسَنَ وَالْقَيْحَ الْعَقْلِيِّينَ وَإِعْتَقَدُوا جَوَازَ الظُّلْمِ عَلَيْهِ تَعَالَى وَقَالُوا بِالْجَبْرِ الَّذِي هُوَ مُحْكُومٌ فِي الْإِسْلَامِ بَلِ الْقَاتِلُ بِهِ فِي حَدِّ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْأَبَاطِيلِ وَالْخَرَافَاتِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي لَنَا التَّعَرُّضُ لَهَا وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَمَحْضَلُ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ هُوَ أَنَّ الْإِمَامِيَّةَ وَالْمَعْتَزِلَةَ وَجَمِيعَ أَهْلِ السَّنَةِ يَقُولُونَ بِعَدَمِ جَوَازِ الرُّؤْيَةِ وَاسْتِحْالَتِهَا وَالْأَشَاعِرَةُ وَالْمُشَبَّهَةُ قَالُوا بِجَوَازِهَا وَ

لتفصيل الكلام مقام آخر فأنه خارج عن موضوع الكتاب و هذا المقدار كاف في رفع الشبهة لمن كان له عقل سليم و فطرة مستقيمة و لنرجع الى تفسير كلامه تعالى بحوله و قوته .

قَالَ لَنْ تَرِيْنِي وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِيْنِي
قوله: لَنْ تَرِيْنِي جواب من الله تعالى لموسى أنه لا يراه على الوجه الذي سأله وفيه دلالة على أنه تعالى لا يرى في الدنيا و الآخرة لأن كلمة، لن، لنفي الأبد كما قال تعالى: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا^(١).

و قوله: فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ أي فَأَنْ اِسْتَقَرَّ الجبل مكانه بعد التَّجَلِّي في حال ما جعله دَكًّا مَنقُطَعًا و من المعلوم استحالة كون الشَّيْءِ متحركاً و ساكناً في حالة واحدة، فكانت الرؤية المعلقة بذلك أيضاً محال لأنه لا يعلّق بالمحال إلا المحال.

و أما قول من قال أَنَّ الجبل إعتبر مع قطع النَّظَر عن الحركة و السُّكون فهو شطط من الكلام بدليل قوله بعد ذلك فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا أي مستوياً بالأرض، أو مدقوقاً مع الأرض و هو دليل على أَنَّ الجبل لم يؤخذ مع قطع النَّظَر عن الحركة و السُّكون و هذا واضح.

وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

قال ابن عباس و الجبائي و الحسن و ابن زيد أنه وقع مغشياً عليه من غير أن يكون مات بدليل قوله: فَلَمَّا أَفَاقَ و لا يقال للميت اذا عاش، أفاق.

و قال قتادة معناه، مات، و أما قوله سبحانه تبّت اليك، فقيل فيه ثلاثة أقوال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ لَنْ تَرِيْنِي وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِيْنِي

جزء ٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحدها: أَنَّهُ تَابَ لِأَنَّهُ سَأَلَ قَبْلَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ.

ثانيها: أَنَّهُ تَابَ مِنْ صَغِيرَةٍ ذَكَرَهَا.

ثالثها: أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالرَّجُوعِ إِلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ كَانَ لَمْ يَعْصِ قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّنِ بَعْدَ نَقْلِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَهَذَا هُوَ الْمَعْتَمَدُ عِنْدَنَا دُونَ الْأَوَّلِينَ عَلَى أَنَّهُ يَقَالُ لِمَنْ جَوَزَ الرُّؤْيَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ مُوسَى أُنْمَا سَأَلَ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ فَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَابَ فَلَا بَدَ لَهُمْ مِنْ مِثْلِ مَا قُلْنَاهُ مِنَ الْأَجُوبَةِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** فَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ لَا يَرَاكَ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِكَ وَقِيلَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ وَنَعَمْ مَا قَالَ فِي الْمَقَامِ مَا هَذَا لَفْظَةً **فَلَمَّا أَفَاقَ** مِنْ صَعْقَتِهِ قَالَ سُبْحَانَكَ، أَيِ أَنْزَهَكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْكَ مِنَ الرُّؤْيَا وَغَيْرِهَا **تُبْتُ إِلَيْكَ** مِنْ طَلَبِ الرُّؤْيَا **وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** بِأَنَّكَ لَسْتَ بِمَرْتَبِي وَ لَا مَدْرَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَوَاسِ.

فَأَنْ قُلْتَ فَإِنْ كَانَ طَلَبُ الرُّؤْيَا لِلْغَرَضِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ فَمِمَّ تَابَ.

قُلْتَ مِنْ إِجْرَائِهِ تِلْكَ الْمَقَالَةُ الْعَظِيمَةُ وَأَنْ كَانَ لِفَرْضِ صَحِيحٍ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ فِيهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَانْظُرْ إِلَى إِعْظَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْرَ الرُّؤْيَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَكَيْفَ أَرْجَفَ الْجَبَلَ بِطَالِبِيهَا وَجَعَلَهُ دَكًّا وَكَيْفَ أَصْعَقَهُمْ وَلَمْ يَخْلُ كَلِمَتُهُ مِنْ نَفْيَانِ ذَلِكَ مَبَالِغَةً فِي إِعْظَامِ الْأَمْرِ وَكَيْفَ سَبَّحَ رَبَّهُ مَلْتَجًا إِلَيْهِ وَتَابَ مِنْ إِجْرَاءِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ عَلَى لِسَانِهِ وَقَالَ: **أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ثُمَّ تَعَجَّبَ مِنْ الْمُتَسَمِّينَ بِالْإِسْلَامِ الْمُتَسَمِّينَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ كَيْفَ اتَّخَذُوا هَذِهِ الْعَظِيمَةَ مَذْهَبًا وَ لَا يَغْرُنُكَ تَسْتَرُّهُمْ بِالْبَلْكَفَةِ فَإِنَّهُ مِنْ مَنْصُوبَاتِ أَشْيَاخِهِمْ وَ الْقَوْلُ مَا قَالَ بَعْضُ الْعَدْلِيَّةِ:

لَجَمَاعَةٍ سَمَّوْا هَوَاهِمَ سُنَّةٍ وَجَمَاعَةٍ هَمَّتْ لِعَمْرِي مُوَكَّفَةٍ
قَدْ شَبَّهَوْهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا شَنَعَ الْوَرَى فَتَسْتَرَوْا بِالْبَلْكَفَةِ

ثُمَّ قَالَ وَتَفْسِيرَ آخَرَ وَهُوَ أَنْ يَرِيدَ بِقَوْلِهِ: **أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ** عَرَفَنِي نَفْسَكَ تَعْرِيفًا وَاضِحًا جَلِيلًا كَأَنَّهَا إِرَاءَةٌ فِي جِلْدِهَا بِأَيَّةٍ مِثْلَ آيَاتِ الْقِيَامَةِ الَّتِي تَضْطَرُّ الْخَلْقَ إِلَى مَعْرِفَتِكَ، وَأَنْظُرَ إِلَيْكَ أَعْرَفَكَ مَعْرِفَةً بِإِضْطِرَارٍ كَأَنِّي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي أَيْ لَنْ تَطِيقَ مَعْرِفَتِي عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَلَنْ تَحْتَمِلَ قُوَّتَكَ تِلْكَ الْآيَةَ الْمَضْطَّرَةُ أَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ فَأَنِّي أُرِدُّ عَلَيْهِ وَأُظْهِرُ لَهُ آيَةً مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ فَأَنْ ثَبِتَ لَتَجْلِيهَا وَإِسْتَقَرَّ مَكَانَهُ وَلَمْ يَتَضَعَّضْ فَسُوفَ ثَبِتَ لَهَا وَتَطِيقَهَا.

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أَيْ فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ **جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا لِعِظَمِ مَا رَأَى فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ** مِمَّا اقْتَرَحْتَ وَتَجَاسَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِعَظَمَتِكَ وَجَلَالِكَ وَإِنْ شِئْتَ لَا يَقُومُ لِبَطْشِكَ وَبِأَسْكَ إِنْتَهَى مَا أوردنا نقله من كلامه.

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ أَعْيَانِ عُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَلَمًا يُوْجِدُ بَلَّ لَا يُوْجِدُ مِثْلَهُ فِيهِمْ وَإِنَّمَا نَقَلْنَا كَلَامَهُ لَتَعْلَمَ أَنَّ مَسْأَلَةَ إِمْتِنَاعِ الرُّؤْيَةِ عَلَيْهِ تَعَالَى لَا إِخْتِصَاصَ لَهَا بِالْعَدْلِيَّةِ فَقَطْ بَلْ هِيَ مَخْصُوصَةٌ بِكُلِّ مَنْ لَهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ مِنْ آيَةٍ طَائِفَةٌ كَانَتْ وَأَمَّا مَنْ كَانَ عَقْلُهُ مَشْهُوبًا بِالْوَهْمِ وَالْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ الْكَاسِدَةِ الْمُنْبِعِثَةِ، مِنَ الْوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فَقَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ وَلَيْسَ بِكَثْرَةِ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا أُتِيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ

قَرَأَ أَهْلَ الْحِجَازِ، بِرِسَالَتِي، عَلَى التَّوْحِيدِ وَالباقون بِرِسَالَاتِي عَلَى الْجَمْعِ، الْإِصْطِفَاءَ إِسْتِخْلَاصَ الصَّفْوَةِ لِمَا لَهَا مِنَ الْفَضِيلَةِ، وَالْفَضَائِلِ عَلَى وَجْهِ كَثِيرَةٍ أَجْلَهَا قَبُولُ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَالأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ وَلِهَذَا الْمَعْنَى إِصْطَفَى مُوسَى حَتَّى إِسْتَحَقَّ الرِّسَالَةَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي، فَبِهِ بَيَانٌ مَا بِهِ إِصْطِفَاؤُهُ وَهُوَ أَنْ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَخَصَّهُ بِكَلَامِهِ بِلَا وَاسِطَةٍ وَهُمَا نِعْمَتَانِ عَظِيمَتَانِ إِمْتَنَّ بِهِمَا

عليه ولذلك أمره الله تعالى بالشكر عليهما فقال: فَخُذْ مَا أُتِيْتُكَ وَكُنْ مِنْ
الشَّاكِرِينَ فَأَنْ شَكَرَ الْمُنْعَمَ وَاجِبَ عَقْلاً وَشُرْعاً.

و المراد بالأخذ في قوله: فخذ، المواظبة عليهما حق المواظبة بتأدية حق
الرسالة و حفظ العبودية الكاملة و في تقديم الرسالة على الكلام إشعار بأن
الرسالة من أجل المناصب الإلهية بل هي أشرف المقامات بعد الألوهية و
لأجل ذلك قرن الله طاعة الرسول بطاعته و معصيته بمعصيته .
و أما قول بعضهم أَنَّ الرسالة لما كانت أسبق زماناً فلذلك قدمها فلا وجه له.

وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِّكُلِّ
شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ
الْفَاسِقِينَ

الألواح جمع لوح و اللوح صحيفة مهيأة للكتابة فيها قيل أَنَّ الألواح كانت
من خشب نزلت من السماء، و لا دليل عليه كما أَنَّ قولهم صعق موسى يوم
الجمعة يوم عرفة و أفاق فيه و أعطي التوراة يوم النحر كل ذلك من الحدسيات
التي لا مأخذ لها.

قال الزاوي و ذكروا في عدد الألواح و في جوهرها و طولها أنها كانت عشرة
ألواح و قيل سبعة و قيل أنها كانت من زمردة جاء بها جبرئيل عليه السلام و قيل من
زبرجدة خضراء و ياقوتة حمراء.

و أما كيفية الكتابة فقال ابن جريح كتبها جبرئيل بالقلم الذي كتب به الذكر و
استمد من نهر النور ثم قال و أعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية
تلك الألواح و على كيفية تلك الكتابة فأن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل
قوي وجب القول به و إلا وجب السكوت عنه انتهى كلامه و هو حق لا مرية
فيه.

أقول معنى الآية وأثبتنا له أي لموسى في الألواح أو فرضنا وأوجبنا فيها من كل شيء موعظةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ أي فصلنا الأحكام فيها ثم أمر موسى بالأخذ بها أي بالألواح فقال فخذها بقوة والأخذ بها كناية عن العمل بها والمواظبة عليها، وأمر قومك من بني إسرائيل يأخذوا بأحسنها قيل معناه أي بحسنها.

وقيل معناه مرهم يا موسى أن يحملوا أنفسهم على الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب كقوله: **وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ** وقوله: **فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**.

وقيل الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح وأحسن هذه الثلاثة الواجبات والمندوبات.

وقال بعض المفسرين في قوله: **وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ** يعني تمييزاً لكل ما يحتاجون إليه، وفي قوله، فخذها بقوة، معناه بجهد وإجتهد وقيل بصحة عزيمة ولو أخذها بضعف نيّة لأدّاه إلى فتور العمل به وفي قوله: **وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** معناه يأخذوا بأحسن المحاسن وهي الفرائض والنوافل وأدونها في الحسن المباح لأنّه لا يستحق عليه حمد ولا ثواب.

وقال الجبائي أحسنها الناسخ دون المنسوخ المنهي عنه لأنّ العمل به قبيح وقيل أريد بأحسنها إلى ما دونه من الحسن ألا ترى أنّ إستيفاء الدين حسن وتركه أحسن والقصاص حسن والعفو أحسن وإختاره الشّرخ في التّبيان. وأما قوله عزّ وجلّ: **سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** فقال الحسن ومجاهد والجبائي، يعني جهنّم وقال قتادة هي منازلهم لتعتبروا بها وبما صاروا إليه من النّكال فيها.

وقيل المعنى سأوريكم مصارع الكفّار وذلك أنّه لمّا أغرق فرعون وقومه أوحى إلى البحر أن أقذف أجسادهم إلى السّاحل ففعل فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم مصارع الفاسقين.

و قال الكلبي، ما مرّوا عليه اذا سافروا من مصارع عاد و ثمود و القرون
الذين أهلكوا، و قال ابن زيد هو من رؤية القلب أي سأعلمكم سير الأولين و ما
حلّ بهم من النكال.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

لَمَّا ذَكَرَ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ذَكَرَ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِؤُلَاءِ الْفَسَاقِ مِنْ صَرْفِهِ وَ
مَنْعِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ آيَاتِهِ لِفَسَقِهِمْ وَ خُرُوجِهِمْ عَنْ طُورِهِمْ إِلَى وَصْفٍ لَيْسَ لَهُمْ ثُمَّ
ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ مَا اسْتَحَقُّوا بِهِ إِسْمَ الْفَسْقِ ثُمَّ أَتَاهُمْ إِخْتَلَفُوا فِي
الْمَصْرُوفِ عَنْهُ فَقَالَ قِتَادَةُ مَعْنَاهُ سَأَصْرِفُهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ وَ الطَّعْنِ وَ التَّحْرِيفِ
وَ التَّبْدِيلِ وَ التَّغْيِيرِ.

و قال ابن جبير سأصرفهم عن الاعتبار و الاستدلال بالدلائل و الآيات على
هذه المعجزات و بدائع المخلوقات.

و قيل معناه سأصرفهم عن دفع الإنتقام و قيل غير ذلك و أمّا الآيات فقليل
هي التسع التي أعطاهما، و المتكبرون هم فرعون و قومه صرف الله قلوبهم عن
الإعتبار بالآيات بما إنهمكوا فيه من اللذات و الشهوات في هذه الدنيا الدنية
قوله: بِغَيْرِ الْحَقِّ إشارة إلى أَنَّ التَّكْبَرَ قَدْ يَكُونُ بِالْحَقِّ مِثْلَ تَكْبَرِ الْمُسْلِمِ عَلَى
الْكَافِرِ وَ تَكْبَرِ الْفَقِيرِ عَلَى الْغَنِيِّ.

وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ بِأَنَّهُمْ إِنْ يَرَوُا كُلَّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ التَّكْوِينِيَّةِ أَوْ التَّشْرِيعِيَّةِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا
لِعِنَادِهِمْ وَ لِحَاجَتِهِمْ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّكْبَرَ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ أَقْبَحِ الصِّفَاتِ لِأَنَّ
مَرْجِعَهُ إِلَى التَّكْبَرِ عَلَى اللَّهِ.

ثُمَّ وَصَفَهُمْ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ: وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا مَعْنَاهُ
أَنَّهُمْ مَتَى رَأَوْا سَبِيلَ الصَّلَاحِ عَدَلُوا عَنْهُ وَلَمْ يَتَّخِذُوهُ طَرِيقًا لَهُمْ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ بِهِ.

ثالثاً: بقوله: **وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** يعني وإن يروا ضد الرُّشد وهو العُيَّ والضلالة سلوكه وإرتكبوا معصية الله فيه **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** والمعنى أنهم استمروا كذبهم وصار لهم ذلك ديدناً حتى صارت تلك الآيات لا تخطر ببالهم فحصلت الغفلة عنها والنسيان لها حتى كانوا لا يذكرونها ولا شيئاً منها، قيل أن الصِّرف كان مسبباً عن التَّكْذِيب والغفلة من جميعهم وقيل بالعكس أي كان الصِّرف سبباً للتَّكْذِيب وكيف كان فقله: **وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** إستئناف أي من شأنهم أنهم كانوا غافلين عن الآيات والتدبر فيها فأورثتهم الغفلة التَّكْذِيب بها.

وقيل أن معنى الآية، سأصرف عن آياتي، ولا أظهرها لهم كما أظهرتها للمؤمنين ويريد بذلك المعجزات الباهرات، لعلمي بأن في إظهارها مفسدة لهم بها يزدادون عندها كُفراً.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

في هذه الآية أخبر الله تعالى عن عاقبة حال المكذِّبين بآيات الله والبعث والنشور في الآخرة بحبط أعمالهم التي عملوا بها في دار الدنيا ومن حبط عمله فقد خسر خسراً مبيهاً ثم أشار بأن حبط أعمالهم ليس الاجزاء لأعمالهم فالإستفهام للإبتكار والتوبيخ والمعنى ليس يجزون إلا ما كانوا يعملون إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً وأعلم أن أصل الإحباط الفساد وهو مشتق من الحبط وهو داء يأخذ البعير في بطنه من فساد الكلاء عليه يقال حبطت الإبل تحبط إذا أصابها ذلك وإذا عمل الإنسان عملاً على خلاف الوجه الذي أمر به يقال أحبط بمنزلة من يعمل شيئاً ثم يفسده فقله تعالى: **حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** إخبار منه تعالى أن من كذب بآياته وجحد البعث والنشور تنحبط أعماله لوقوعها على خلاف الوجه الذي أمر به ويستحق بها المدح و

الثَّوَابُ فيصير وجودها كعدمها و الحبوط سقوط العمل حتَّى كأنَّه لم يعمل به
و عليه فالإحباط ليس من الظلم بل هو عين العدل و لذلك قال على سبيل
الإنكار هل يجزون إلَّا ما كانوا يعملون، من الخير و الشر كما قال هل جزاء
الإحسان إلَّا الإحسان.



وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا
 جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا
 يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَ
 لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
 قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ
 غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي
 أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَا حَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ
 أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ
 اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ
 الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)
 قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ ادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ
 وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ
 عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ
 رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ
 عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَ فِي نُسَخَتِهَا
 هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

△ اللغة

حُلِيِّهِمْ قرأ حمزة و الكسائي بكسر الحاء و اللّام و الباقون بضم الحاء و كسر
 اللّام و تشديد الياء، و قرأ يعقوب بفتح الحاء و سكون اللّام و تخفيف الياء و قال

أَنَّهُ إِسْمٌ جَنَسٍ يَقَعُ عَلَى الْكَثِيرِ وَالتَّعْلِيلِ، مَفْرَدُهُ حَلِيَّةٌ كَتَمَرٌ وَتَمْرَةٌ وَمَنْ قَرَأَ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَاللَّامِ أَتْبَعَ الْكُسْرَةَ الْكُسْرَةَ وَكَرِهَ الْخُرُوجَ مِنَ الضَّمَّةِ إِلَى الْكُسْرَةِ وَمَنْ قَرَأَ بِضَمِّ الْحَاءِ وَكَسَرَ اللَّامِ فَلَا تَهْ جَمْعٌ، حَلِيٌّ، نَحْوُ ثَدْيٍ وَثَدْيٍ.
عَجَلًا، الْعَجَلُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الْجِيمِ وَاللَّامِ وَلَدُ الْبَقْرَةِ الْقَرِيبُ الْعَهْدُ بِالْوِلَادَةِ وَهُوَ الْعَجُولُ أَيْضًا وَأَنْمَا أَخَذَ مِنْ تَعْجِيلِ أَمْرِهِ لَصُغْرِهِ.
جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ، الْجَسَدُ جِسْمُ الْحَيَوَانِ مِثْلُ الْبَدَنِ وَالْخَوَارُ بِضَمِّ الْخَاءِ صَوْتُ الثَّوْرِ وَهُوَ صَوْتُ غَلِيظٍ كَالْجَوَارِ، وَبِنَاءٍ، فَعَالٌ، يَدُلُّ عَلَى الْآفَةِ كَالطَّرَخِ وَالْعَوَارُ وَالْعَطَاشُ وَالنَّبَاحُ.
غَضْبَانٌ أَسْفًا، الْغَضَبُ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَهُوَ يَضَادُّ الرِّضَا وَالْأَسْفُ الْغَضَبُ الَّذِي فِيهِ تَأْسَفُ عَلَى فَوْتِ مَا سَلَفَ وَقِيلَ أَسْفًا أَيَّ حَزِينًا.
سَكَتَ أَيَّ سَكَنَ.

◀ الإعراب

عَجَلًا مفعول إتَّخَذَهُ وَجَسَدًا نعت أو بدل أو بيان من حَلِيَّهِمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِعَجَلٍ قَدَّمَ فَصَارَ حَالًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَتَّعِلًا بِإِتَّخَذَ وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي مَحْذُوفٌ أَيَّ إِلَهًا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ قَائِمٌ مَقَامَ الْفَاعِلِ وَالتَّقْدِيرُ سَقَطَ التَّدَمُّ فِي أَيْدِيهِمْ غَضْبَانٌ (غَضْبَانٌ) حَالٌ مِنْ مُوسَى وَأَسْفًا حَالٌ آخِرٌ بَدَلٌ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي غَضْبَانٍ يَجُزَّةٌ إِلَيْهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ مُوسَى وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الرَّأْسِ قَالَ آبَنُ أُمَّ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَالْكَسْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَاءِ الْمَحْذُوفَةِ فَلَا تُشْمِتُ الْجُمْهُورَ عَلَى ضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ الْمِيمِ وَالْأَعْدَاءُ مَفْعُولُهُ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ مُبْتَدَأٌ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوٌّ رَحِيمٌ خَبَرُهُ وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ أَيَّ غَفُورٌ لَهُمْ أَوْ رَحِيمٌ بِهِمْ وَفِي نُسْخَتِهَا الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الْأَلْوَحِ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ فِي اللَّامِ ثَلَاثَةٌ أَوْجَه:

أحدها: هي بمعنى من أجل ربهم، فمفعول يَرْهَبُونَ على هذا محذوف أي يرهبون عقابه.

الثاني: هي متعلقة بفعل محذوف تقديره والذين هم يخشعون لربهم.
الثالث: هي زائدة.

◀ التفسير

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ
أخبر الله تعالى في هذه الآية عن قوم موسى بعد مفارقة موسى أيّاهم و
مضّيه الى ميقات ربه أنّهم اتّخذوا من حلّيتهم عجلاً جسداً له خوار، وقيل في
إضافة الحلّي اليهم لكونهم ملكوه ممّا كان على قوم فرعون حين غرقوا و
لفظهم البحر فكان كالغنيمة لهم ولذلك أمر هارون بجمعه حتّى ينظر موسى
إذا رجع في أمره، أو ملكوه إذ كان من أموالهم الّتي إغتصبها القبط بالجزية الّتي
كانوا وضعوها عليهم.

وقيل أنّ بني إسرائيل كان لهم عيد يتزيّنون فيه ويستعيرون من القبط
الحلي فيأستعاروا على القبط لذلك اليوم فلمّا أغرق الله القبط بقيت تلك
الحلي في أيدي بني إسرائيل فجمع السّامري تلك الحليّ وكان رجلاً مطاعاً
فيهم ذا قدرٍ وكانوا قد سألو موسى أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه فصاغ السّامري
عجلاً ثمّ إختلف النّاس فقال قوم كان أخذ كفّاً من تراب حافر فرس جبرائيل،
فألّقه في جوف ذلك العجل فأنقلب لحمًا ودمًا وظهر منه الخوار مرّة واحدة
فقال السّامري هذا إلهكم وإله موسى، وقال الآخرون أنّه كان قد جعل ذلك
العجل مجوفاً ووضع في جوفه أنابيب على شكلٍ مخصوص وكان قد وضع
ذلك التّمثال على مهبّ الرّيح فكانت الرّيح تدخل في جوف الأنبيب ويظهر
منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل.

وقال بعض آخر أنه جعل ذلك التمثال أجوف وجعل تحته في الموضع الذي نصب فيه العجل من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار نقل الرّازي بعد نقله هذه الأقوال عن صاحب القول الأخير أنه قال والناس قد يفعلون الآن في هذه التصاوير التي يجرون فيها الماء على سبيل الفوارات ما يشبه ذلك فهذا الطريق وغيره أظهر الصوت من ذلك التمثال ثم ألقى الى الناس أن هذا العجل إلههم وإله موسى انتهى.

ويظهر من الأخبار الواردة في الباب أن موسى عليه السلام كان يقول لبني إسرائيل إذا فرّج الله عنكم وأهلك أعداءكم آتيكم بكتاب من عند ربكم يشتمل على أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره وأمثاله فلما فرّج الله عنهم أمره الله تعالى أن يأتي للميعاد ويصوم ثلاثين يوماً عند أصل الجبل فظن موسى أنه بعد ذلك يأتيه (يعطيه) الكتاب فصام ثلاثين يوماً فلما كان في آخر الأيام أستاذك قبل الفطر فأوحى الله عز وجل إليه يا موسى أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك صم عشرًا آخر ولا تستك عند الإفطار ففعل ذلك موسى وكان وعده الله أن يعطيه الكتاب بعد أربعين ليلة فأعطاه آياه فجاء السامري فشبهه على مستضعفي بني إسرائيل فقال وعدكم موسى أن يرجع اليكم من بعد ليلة عشرون ليلة وعشرون يوماً تمت أربعون (خطأ) موسى ربه وقد أتاكم ربكم أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم الى نفسه بنفسه وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه اليه فأظهر لهم العجل الذي كان عمله فقالوا كيف يكون العجل إلها قال لهم أنما هذا العجل يكلمكم منه ربكم كما كلم موسى من الشجرة فلما سمعوا منه كلاماً قال الإله في العجل كما في الشجرة فضلوا بذلك وأضلوا فلما رجع موسى الى قومه قال يا أيها العجل أكان فيك ربنا كما يزعم هؤلاء فنطق العجل وقال عز ربنا أن يكون العجل حاوياً له أو شيء من الشجرة والأمكنة عليه مشتملاً لا والله يا موسى ولكن

السَّامِرِي نَصَبَ عَجَلًا مَّوْخَرَهُ إِلَى حَائِطٍ وَخَفَرَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ فِي الْأَرْضِ
وَأَجْلَسَ فِيهِ بَعْضُ مَرَدَّدَتِهِ فَهُوَ الَّذِي وَضَعَ فَاهُ عَلَى دَبْرِهِ وَتَكَلَّمَ لَمَّا قَالَ هَذَا
إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى الْخَبِرِ.

أَقُولُ الْأَقْوَالُ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ فِي الْمَقَامِ مُخْتَلِفَةٌ وَالَّذِي لَا خِلَافَ
فِيهِ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ هُوَ وَقُوعُ أَصْلِ الْقَضِيَّةِ عَلَى مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ.
وَأَمَّا كَيْفِيَّتُهَا فَلَا طَرِيقَ لَنَا إِلَى الْعِلْمِ بِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ أَلَمْ يَرَوْا
أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ الْإِسْتِفْهَامُ
لِلْإِنْكَارِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمُ وَالْتَعَجُّبُ مِنْ جَهْلِهِمْ فَقَالَ
أَوَلَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ أَنَّهُ أَيْ الْعَجَلُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ
وَمَعَ ذَلِكَ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا وَكَانُوا ظَالِمِينَ بِعِبَادَتِهِمْ آيَاهُ أَوْ فِي اتَّخَاذِهِمْ لَهُ إِلَهًا.
تَنْبِيْهُ:

إِلْعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْتَبِرُ النَّاسَ وَيَمْتَحِنُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ،
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ^(٣).

وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ وَمَا نَحْنُ فِيهِ أَعْنَى بِهِ قِصَّةُ السَّامِرِيِّ وَالْعَجَلِ أَيْضًا مِنْ هَذَا
الْقَبِيلِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِمْتَحَنَ قَوْمَ مُوسَى بِالْعَجَلِ وَالسَّامِرِيِّ لِمِيزِ
الْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ وَالْمُؤْمِنِ الْحَقِيقِيِّ مِنَ الْمُسْتَعَارِ لِيَهْلِكَ مِنْ هَلِكٍ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ
يَحْيَى مِنْ حَيٍّ عَنْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ وَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِقَوْمِ مُوسَى وَغَيْرِهِ

من الأنبياء قبل الإسلام بل هذه السيرة المستمرة باقية الى الآن و الى يوم القيامة إذا عرفت هذا فنقول.

ذكر الله تعالى في القرآن قصصاً كثيرة في هذا الباب من آدم الى آخر الأنبياء و ذكر فيها أنواع الوقائع و الحوادث الواقعة على الأمم السالفة و ليس غرضه من ذكر القضايا نقل القصة و الحادثة فقط بل الغرض من ذكرها أن تعتبر الأمة الإسلامية بها و توجهت أن الإشكال ليس في الإسم بل أساس الفتنة هو المسمى سواء سمى بالسامري و العجل أو بغيرهما فإن السامري و العجل موجودان في كل زمان بأسماء مختلفة إلا أن الإنسان الذي يدعي العقل و الفهم و الإيمان لا ينبغي له أن يتبع كل ناهق و يميل مع كل ريح بل ينبغي له أن يتفكر في دينه و دنياه و ياتم بمن هو أهل للانتماء و يأخذ بحجزه من يرشده الى الله و لولا مخافة الإطالة لأطنبت الكلام في هذه المقالة ولكن فيما أشرنا اليه كفاية لأولي الدراية.

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

قيل معناه قوله: سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنادم عند ما يجده ممّا كان خفي عليه و يقال أيضاً سقط في يديه أي صار الذي كان يضربه في يديه.

و قال أبو عبيدة يقال لمن ندم على أمرٍ و عجز عنه سقط في يده.

قال الزاري أعلم أنهم إتفقوا على أن المراد من قوله: سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ أَنَّهُ إِشْتَدَّ نَدَمُهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَل و اختلفوا في الوجه الذي لأجله حسنت هذه الإستعارة ثم ذكر وجوهاً لأبأس بنقلها.

فالأول: قال الزجاج معناه سقط الندم في أيديهم أي في قلوبهم كما يقال حصل في يده مكروه و أن كان من المحال حصول المكروه الواقع في اليد إلا أنهم أطلقوا على المكروه الواقع في القلب و النفس كونه واقعاً في اليد فكذا هاهنا.

الوجه الثاني: قال صاحب الكشف أنما يقال لمن ندم سقط في يده لأن من شأن من إشتد ندمه أن يعرض يده غمماً فيصير ندمه مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها.

الوجه الثالث: أن السقوط عبارة عن نزول الشيء من أعلى إلى أسفل و لهذا قالوا سقط المطر ويقال سقط من يدك شيء وأسقطت المرأة فممن أقدم على عمل فهو أنما يقدم عليه لإعتقاده أن ذلك العمل خير و صواب وأنه يورثه شرفاً و رفعة فإذا بان له أن ذلك العمل كان باطلاً فاسداً فكأنه قد انحط من الأعلى إلى الأسفل و سقط من فوق إلى تحت فلهذا السبب يقال للرجل إذا خطأ، كان ذلك منه سقط شبهوا ذلك بالسقطة على الأرض فثبت أن إطلاق لفظ السقوط على الحالة الحاصلة عند الندم جائز مستحسن.

الوجه الرابع: حكى الواحدي عن بعضهم أن هذا مأخوذ من السقيط و هو ما يغشي الأرض بالعدوات شبه الثلج يقال منه سقطت الأرض كما يقال من الثلج ثلجت الأرض و ثلجنا أي أصابها الثلج ومعنى سقط في يده أي وقع في يده السقيط و السقيط يذوب بأدنى حرارة و لا يبقى فمن وقع في يده السقيط لم يحصل منه على شيء قط فصار هذا مثلاً لكل من خسروا في عاقبته و لم يحصل من سعيه على طائل و كانت الندامة آخر أمره.

الوجه الخامس: قال بعض العلماء الندام أنما يقال له سقط في يده لأنه يتحير في أمره و يعجز عن أعماله و الألة الأصلية في الأعمال في أكثر الأمر هي اليد و العاجز في حكم الساقط فلما قرن السقوط بالأيدي علم أن السقوط في اليد أنما حصل بسبب العجز التام و يقال في العرف لمن لا يهتدي لما يصنع ضلّت يده ورجله.

الوجه السادس: أن من عادة الندام أن يطأطي رأسه و يضعه على يده معتمداً عليه و تارة يضعها تحت ذقنه و شطر من وجهه على هيئة لو نزعته يده لسقط على وجهه فكانت اليد سقوطاً فيها لتتمكن السقوط فيها و يكون

قوله: **سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ** بمعنى سقط على أيديهم كقوله لأصلبُنْكُمْ في جذوع النَّخْلِ أي عليها والله أعلم انتهى كلامه.

أَقُولُ أُنَمَا نقلنا أقوال المفسرين في المقام لتعلم أنهم لم يأتوا بشيء يداوي به الداء والذي يختلج بالبال في معنى المراد بعد الإذعان بكون الكلام جي به على سبيل الكناية والإستعارة هو أَنَّ السَّقُوطَ كناية عن الكفر والشرك بعبادة الله بسبب ما صنعه السَّامِرِي ومتابعتهم إياه في أنه إلههم وإله موسى وظنهم أنهم وصلوا إلى ما وصلوا من التوحيد فهذا هو الذي كان في أيديهم بعد مفارقة موسى وإِتِّخَاذَهُم العجل رباً من الإعتقاد ثم أنهم لمَ رأوا أَنَّ ما إِتَّخَذُوهُ إلهاً باطل في نفسه فَأَنَّ العجل وأمثاله لا يكون إلهاً فقد ندموا على ما فعلوا و إعتقدوا به فسقط ما في أيديهم من الإعتقاد الباطل و وقع الحق في موضعه فعبر عن هذا بالسَّقُوطَ أَلَا تَرَى أَنَّ الغني إذا صار فقيراً ليس في يده شيء من المال فهكذا الإعتقاد الباطل إذا ظهر فساده على المعتقد يقال سقط ما في يده خالية.

والدليل على ما إستظهرناه هو قوله: **وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا** أي رأوا أنهم قد ضلُّوا بإِتِّخَاذَهُم العجل ومتابعتهم السَّامِرِي **قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** فيه إخبارٌ عما قال القوم حين تبين لهم ضلالهم و سقط ما في أيديهم، وذلك لأنهم إعترفوا بذنبهم وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا، لنكونن من الخاسرين في الدنيا والآخرة فَأَنَّ ذَنْبَ الكفر عظيم جداً أعاذنا الله منه ومن جميع الذنوب ومن يغفر الذنوب إلا الله ومن يرحم العبد إلا خالقه والى من يلتجئ العبد إذا عصى ربه ثم أنهم إختلفوا فيمن عبد العجل.

فقال بعض المفسرين كلهم عبدوا العجل إلا هارون بدليل قوله تعالى حكايةً عن موسى، ربّ أغفر لي ولأخي، ولو كان هناك مؤمن غيرهما لدعا له.

وقال الآخرون أنما عبد العجل بعضهم بدلالة ما ورد من الأخبار عن النبي في هذا المعنى ولا مشاحة فيه.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا

أي لَمَّا رَجَعَ موسى من الميقات إلى قومه في حال الغضب والأسف، روي أنه لَمَّا قَرَّبَ موسى من محلة بني إسرائيل بعد رجوعه من الميقات سمع أصواتهم فقال هذه أصوات قوم لاهين فلَمَّا تَحَقَّقَ عكوفهم على عبادة العجل داخله الغضب والأسف وألقى الألواح.

وقال الطبري أخبره تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع غاضب ويدل على هذا القول قوله تعالى: فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّامِرِيُّ^(١) وغضبنا من صفات المبالغة والغضب غليان القلب بسبب حصول ما يؤلم وذكروا أن موسى عليه السلام كان سريع الغضب وكان هارون ألين منه خلقاً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل منه.

والأسف والحزن قَالَ يَتَسَمَّا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي معناه بشئ ما عملتم خلفي، أي بعد مفارقتي إياكم أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ الإستفهام للإعجاب.

قال الزمخشري يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، روي أن الشامري قال لهم حين أخرج إليهم العجل هذا إلهكم وإله موسى أن موسى لن يرجع وأنه قد مات فبنوا أمرهم على موت موسى وأن الميعاد قد بلغ آخره فحدثوا أنفسهم بموت موسى وفعلوا ما فعلوا من عبادة العدل.

وقيل معناه أَعَجَلْتُمْ ميعاد ربكم أربعين ليلة، وقيل أَعَجَلْتُمْ سخط ربكم، و قيل أَعَجَلْتُمْ بعبادة العجل وَاللَّيْ أَلْوَا حَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ أي وألقى موسى ألواح التوراة وكان حاملاً لها فوضعها على الأرض غضباً على ما فعله قومه من عبادة العجل وحمية لدين الله وكان على ما قيل شديد الغضب.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

و عن ابن عباس أَنَّ موسىَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَلْقَاهَا تَكَسَّرَتْ فَرَفَعَ أَكْثَرَهَا الَّذِي فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَبَقِيَ الَّذِي فِيهِ نَسْخَتُهُ الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ.

قال بعض المفسرين الظاهر أَنَّهُ أَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ لِأَنَّهُمَا كَانَتَا مَشْغُولَتَيْنِ بِهِمَا (بِهَا) وَأَرَادَ إِمْسَاكَ أَخِيهِ وَجَرَّهُ وَلَا يَتَأْتِي ذَلِكَ إِلَّا بِفَرَاغٍ يَدَيْهِ لَجَرِّهِ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ دَلِيلَ عَلَى عَدَمِ تَكْسَرِهَا ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ. فْقِيلَ أَخَذَ بِرَأْسِهِ أَيْ أَمْسَكَ رَأْسَهُ جَارَهُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ بِشَعْرِ رَأْسِهِ.

و قِيلَ بِذَوَائِبِهِ وَلِحِيَّتِهِ وَقِيلَ بِلَحِيَّتِهِ، وَقِيلَ بِأُذُنِهِ وَكَيْفَ كَانَ فَالظَّاهِرُ أَنَّ سَبَبَ هَذَا الْأَخْذِ هُوَ غَضَبُهُ عَلَى أَخِيهِ وَكَيْفَ عَبْدُوا الْعَجَلَ وَهُوَ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ فِيهِمْ وَأَمْرُهُ بِالْإِصْلَاحِ وَأَنْ لَا يَتَّبِعَ سَبِيلَ الْمَفْسُودِينَ وَكَيْفَ لَمْ يَزَجِرْهُمْ وَكَفَّهَمُ عَنْ ذَلِكَ.

و قال الزَّمَخْشَرِيُّ أَيْ بِشَعْرِ رَأْسِهِ يَجْرَهُ إِلَيْهِ بِذَوَائِبِهِ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي اسْتَفْرَزَهُ وَذَهَبَ بِفُطْنَتِهِ وَظَنًّا بِأَخِيهِ أَنَّهُ فَرَّطَ فِي الْكَفِّ.

قَالَ ابْنُ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي

قرأ الحرميان وأبو عمرو وحفص، ابن أمّ، بفتح الميم وعليه فأصله يابن أمّاه فحذفت الألف تخفيفاً كما حذفت في يا غلام وأصله يا غلاماه وسقطت هاء السكت لأنه درج فعلى هذا الإسم معرب إذ الألف منقلبة عن ياء المتكلم فهو مضاف إليه ابن.

و قال سيبويه هما إسمان بنيا على الفتح كإسم واحد كخمسة عشر، وقرأ باقي السبعة بكسر الميم وعليه فأصله يابن أمّي، حذفت الياء وبقيت الكسرة للدلالة على حذفها وعلى التقديرين لا خلاف في كونه منادى حذفت حرف النداء من أول الكلام والكسر أحسن من الفتح وأن كان الفتح أشهر وعليه

المصاحف ثم أن في هذا النداء نوع إستضعافٍ وترَفِّقٍ وكان هارون شقيقه و من عادة العرب التَّلَطُّف بذكر الأمِّ كما قال يابن أميِّ و يا شقيق نفسي .
 وقال آخر، يابن أميِّ فدتك نفسي و مالي و أنما ذكر الأمِّ دون الأب، قيل لأنَّ أمَّهما كانت مؤمنة و أما أبوه فكان مقطوعاً عن القرابة بالكفر.
 أنا أقول هذا لا يصح في مذهبننا و أنما يصح على مذهب أهل السنَّة لأنَّ أباء الأنبياء كلَّهم كانوا مؤمنين اذ لا يولد النُّبي المعصوم من الكافر.
 و أما أهل السنَّة فلا يشترطون ذلك و لذلك حكموا بكفر عبد الله و أبوطالب و للبحث فيه مقام آخر.

بل الوجه في تخصيصه الأمِّ بالذكر هو أنَّ حقَّها أعظم من حقِّ الأب لمقاساتها الشَّدائد في حملة و تربيته و الشَّفقة عليه ذكره بحقَّها قال رسول الله ﷺ: **أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ.**

و محضَّ الكلام هو أنَّ موسى لما أخذ برأس أخيه يجزَّه اليه غضباً عليه ممَّا فعله القوم في غيبته و هارون كان فيهم، قال هارون لموسى يابن أمِّ، أنَّ القوم إستضعفوني فلم يلتفتوا الى نصحي و موعظتي بل قاربوا أن يقتلونني، و فيه دلالة على أنَّ هارون قد بالغ في الإنكار عليهم حتَّى همُّوا بقتله و معنى إستضعفوني، أي إعتقدوني ضعيفاً.

و قيل معناه غلبوا عليَّ لكثرتهم و قد قال الله تعالى: **لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ^(١) و المقصود أنَّ هارون لم أَل جهداً في قومه و لكن العوام اذا أرادوا شيئاً حقاً كان أو باطلاً لا يمكن ردعهم و منعهم عمَّا أرادوا و شاءوا، و هذا لا يختص به بل موسى أيضاً خاف من غلبة الجهال.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما شككت في الحقِّ مذ أريته لم يُوجس موسى عليه السلام خيفةً على نفسه بل أشفق من غلبة الجهال و دول الضلال، بل

نقول كل الأنبياء كانوا كذلك فضلاً عن أوصيائهم فهذا أمير المؤمنين عليه السلام وصي رسول الله ﷺ مع قدرته وشجاعته وهيبته وسطوته صار بعد رسول الله مظلوماً مقهوراً من غلبة الجهال فأنهم إستضعفوه وكادوا يقتلوه ألا ترى أنه عليه السلام لما جعلوا الحبل في عنقه وجزّوه إلى المسجد ليبيع أبا بكر و رأى عليه السلام القبر الشريف إستشهد بهذه الآية فقال متوجّهاً إلى القبر يابن أم أن القوم إستضعفوني وكادوا يقتلونني، وأنما قال عليه السلام ذلك لأنه من رسول الله كان بمنزلة هارون من موسى، لقوله ﷺ: يا علي أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

والحاصل أن هارون لم يكن مقصراً وأنما فعل موسى ما فعل بأخيه من الأخذ برأسه وجرّء اليه، لغضبه الذي عرض عليه بسبب إنحراف القوم و عبادتهم العجل وهذا أمرٌ قهري لكل مؤمنٍ له حميّة و غيره في دينه فلا لوم على هارون لعدم كونه مقصراً ولا على موسى لطريان الغضب الناشئ عن الحميّة و الغيرة فلا تُشِمْتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي لا تفعل بي ما يوجب شماتة الأعداء و الشّماتة سرور العدو بسوء العاقبة و لا تجعلني مع القوم الظّالمين، أي أتّي وأن كنت فيهم حين عبدوا العجل إلا أتّي ما كنت معهم فيما فعلوا أي ما كنت راضياً به و فرق واضح بين الكون في النّاس و الكون مع النّاس.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: كن في النّاس و لا تكن معهم والى هذه الدّقيقة أشير بقوله تعالى حكاية عن موسى حيث قال:

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

فلما ظهر لموسى براءة ساحة هارون بأن له عذراً عقلياً و شرعياً وهو خوفه على نفسه مع عدم تقصيره في الموعظة قال موسى عند ذلك رب اغفر لي و

لأخي الآية و أنما بدأ في الدّعاء بنفسه فقال: **أَغْفِرْ لِي** ثم قال ولأخي، لأنه **عَلَيْهِ السَّلَام** كان ح نبيّاً مرسلأ فكان أفضل من هارون وأقرب الى الله منه وقد ورد أن رسول الله **ﷺ** كان اذا دعا بدأ بنفسه.

والسّر فيه هو أن الدّعاء اذا كان على هذا المنوال فهو أقرب الى القبول، اذ لا وسيلة الى الله تعالى أقرب من الإنسان الكامل، ثم قال موسى **وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** أي أدخلني وأخي في رحمتك الواسعة التي وسعت كلّ شيء وكيف لا تدخلنا في رحمتك والحال أنت أرحم الراحمين.

وإعلم أن هذا الدّعا من موسى كان إنقطاعاً منه الى الله تعالى وتقرّباً اليه لا أنّه كان وقع منه أو من أخيه قبيح صغير أو كبير ليحتاج أن يستغفر منه، فمن قال أن قوله: **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي** دالّ على وقوع الذّنب منه أو منهما بدليل أن طلب الغفران لا يكون إلا عن العصيان والذّنب و اذا كان كذلك فيجوز الخطأ على الأنبياء كغيرهم، فقد أخطأ خطأ فاحشاً.

أما أولاً: فلاّنه لا دليل على المدّعى اذ لقائل أن يقول من أين ثبت لكم أن الغفران يستدعي الذّنب والعصيان .

ثانياً: قد ثبت عقلاً ونقلأ أن الأنبياء كانوا معصومين عن الخطأ كيف وقد ورد أن رسول الله **ﷺ** كان يقول أتني لأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرّة، فعلى قول الخصم يلزم أن يكون الرّسول من العصاة وأنّه ارتكب في كلّ يوم سبعين ذنبأ يقول به عاقل فضلاً عن مسلم.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ

قالوا في هذه الآية حذف وتقديره أن الذين إتخذوا العجل إلهأ ومعبودأ سينالهم الآية.

قلت لا نحتاج الى هذا التقدير لدلالة القرينة على ما ذكروه اذ من المعلوم أنَّ إتخاذهم العجل كان لأجل المعبودية و القرينة الحالية أو المقالية تدل عليه كان ففي الآية تهديد و وعيد من الله تعالى على قوم بني إسرائيل الذين عبدوا العجل بأنه سينالهم من ربهم غضب و ذلة.

و في قوله: وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ أي الكاذبين و المتحرصين عليه الذين بدّلوا نعمة الله و ضيّعوها لأنّ الشّرك بالله تعالى كفر لأنّه تضييع لحقّ نعمة الله كتضييعه بالجدد للنّعمة في عظم المنزلة.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

لما تّوعد الله قوم بني إسرائيل الذين عبدوا مع الله غيره أي أشركوا به أو كفروا به بالإنكار و عبدوا العجل و عدهم في هذه الآية فقال: وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا أي تابوا بعد السيئات يعني رجعوا الى الله و ندموا على ما فعلوه من القبائح و المعاصي و عزموا على أن لا يعودوا الى مثلها و آمنوا بما أوجب الله عليهم، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ففي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً بعد التوبة بشرائطها التي وردت الآثار ووردت الآثار بها و ستتكلّم فيها في المستقبل إن شاء الله تعالى.

بناء القرآن في تفسير القرآن

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَ فِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ

أي ولما سكن غضب موسى ورجع الى حال الإعتدال الذي كان عليه قبل الغضب أخذ الألواح من الأرض.

قال بعضهم سمّي ذلك أي السكون سكوتاً و أن كان الغضب لا يتكلّم لأنّه

لما كان بفورته دالاً على ما في النفس على المغضوب عليه كان بمنزلة الناطق بذلك فإذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة الساكت عما كان متكلماً به و السكوت في هذا الموضع أحسن من السكون لتضمنه معنى سكوته عن المعاتبة لأخيه مع سكون غضبه وكيف كان فقد عبّر عن السكون بالسكوت مجازاً.

وأما قوله: وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ أَي في نسخة الألواح وذلك لأنّ الألواح كانت حاوية لما هو هدى و حجة و بيان و رحمة للذين هم لربهم يرهبون، لا للعصاة الطّغاة فإنّ المؤمن يخاف و العاصي لا يخاف.



وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا
فَلَمَّا اخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ
مِنْ قَبْلُ وَ إِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا
إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي
مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ
خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَ أَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي
أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
فَسَأْكُتِبُهَا لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُوْتُونَ الزَّكَاةَ وَ
الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهِيهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ
إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ
آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوْهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ
الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

◀ اللغة

أَلَرَّجَفَةُ بَفَتْحِ الرَّاءِ وَالْفَاءِ وَ سَكُونِ الْجِيمِ الْإِضْطِرَابُ الشَّدِيدُ.
فَتَشْتَكُ، الْفِتْنَةُ بِكَسْرِ الْفَاءِ أَصْلُ الْفِتْنِ إِدْخَالُ الذَّهَبِ النَّارِ لِتُظْهِرَ جُودَتَهُ مِنْ
رِدَائِهِ ثُمَّ اسْتَعْمَلَتْ فِي الْإِسْتِيلَاءِ وَالْإِخْتِيَارِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِسَبَبِ
الْإِمْتِلَاءِ وَالْإِخْتِبَارِ تَظْهِرَ جُودَتَهُ مِنْ رِدَائِهِ.

أَلْخَبَائِثُ بَفَتْحِ الْخَاءِ جَمْعُ خَبِيثٍ وَ هُوَ النَّجَسُ، الرَّذِي الْمُسْتَكْرَه.
إِضْرَهُمْ، الْإِصْرُ عَقْدُ الشَّيْ وَ حَبْسُهُ بِقَهْرِهِ وَالْمَرَادُ فِي الْمَقَامِ الْأُمُورِ الَّتِي
تُثَبِّطُهُمْ وَ تَقَيِّدُهُمْ عَنِ الْخَيْرَاتِ وَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الثَّوَابَاتِ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ الثَّقُلُ.
عَزَّزُوهُ، التَّعْزِيرُ النُّصْرَةُ مَعَ التَّعْظِيمِ.

◀ الإعراب

وَ أَخْتَارَ إِخْتَارًا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ أَحَدُهُمَا بِحَرْفِ الْجَرِّ وَ قَدْ حُذِفَ هَاهُنَا
وَ التَّقْدِيرُ مِنْ قَوْمِهِ أَتَهْلِكُنَا قِيلَ هُوَ اسْتِفْهَامُ أَيِ أَتَعْمَنَّا بِالْإِهْلَاكِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ
التَّنْفِي أَيِ مَا نَهْلِكُ مِنْ لَمْ يَذَنْبُ وَ مِنْهَا حَالٌ مِنَ السَّفَهَاءِ تُضِلُّ بِهَا يَجُوزُ أَنْ
يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْكَافِ فِي فَتْنِكَ هُذُنًا وَ هُوَ مِنْ هَادِ
يَهُودٍ إِذَا تَابَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِي الَّذِينَ ثَلَاثَةٌ أَوْجِهَ:
أَحَدُهَا: هُوَ، جَرَّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ.
الثَّانِي: نَصَبٌ عَلَى إِضْمَارِ أَعْنِي.

الثَّالِثُ: رَفَعَ أَيِ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً وَ الْخَبَرُ، بِأَمْرِهِمْ،
وَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ يَجِدُونَهُ أَيِ يَجِدُونَ إِسْمَهُ وَ مَكْتُوبًا حَالٌ وَ عِنْدَهُمْ
ظَرْفٌ لِمَكْتُوبٍ أَوْ يَجِدُونَهُ بِأَمْرِهِمْ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا، لِلَّذِينَ، وَ أَنْ يَكُونَ
مُسْتَأْنَفًا، وَ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ النَّبِيِّ أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي مَكْتُوبٍ إِضْرَهُمُ الْجُمْهُورُ
عَلَى الْإِفْرَادِ وَ هُوَ جَنْسٌ.

۱- الاعراف = ۵۵

صار دكاً وخرَّ موسى صعقاً، وفي هذه أختير السَّبْعون لميقات الله وأخذتهم الرَّجْفة ولم تأخذ موسى ^{إِلَّا} وللفضل الكثير الذي بين أجزاء الكلام لو كانت قصّة واحدة انتهى كلامه.

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ حكاية عما قال موسى لِلَّهِ تعالى وأنه ناداه وقال يا رَبِّ لو شئت أهلكني وإياهم من قبل هذا الوقت أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا قيل معناه النَّفي وأن كان بصورة الإنكار كما تقول، أستمعني وأسكت عنك، أي لا يكون ذلك فالمعنى أنك لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا فبهذا نسألك رفع المحنة بالإهلاك عنا، ثم، أنهم إختلفوا في سبب الرَّجْفة فقال بعضهم سببها سكوتهم وإغصائهم على عبادة العجل. وقيل عقوبة على سؤالهم الرؤية، وقيل عقوبة لتشططهم في الدّعاء المذكور، أو سببه سماع كلام هارون وهو ميّت.

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ

والضمير في، هي، يفسره سياق الكلام أي أنت هو الذي فتنتهم. قال بعضهم لما أعلمه الله أنّ السبعين عبدوا العجل تعجّب موسى وقال إن هي إلا فتنتك، وقيل لما أعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال يارب ومن أخاره قال أنا قال موسى فأنت أضللتهم أن هي إلا فتنتك. وقال الرّمخشري أي محتك وبلاءك حين كلمتني وسمعت كلامك فاستدلوا بالكلام على الرّؤية استدلالاً فاسداً حتّى إفتنوا وضلّوا تضلّ بها الجاهلين غير الثّابتين في معرفتك وتهدي العالمين الثّابتين بالقول الثّابت وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه لأنّ محنته أنما كانت سبباً لأنّ ضلّوا واهتدوا فكأنّه أضلهم بها وهداهم على الاتّساع في الكلام انتهى.

أَنْتَ وَلِيُّنَا الْقَائِم بِأَمْرِنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ.

تنبيه:

يستفاد من هذه الآية أَنَّ اللَّهَ تعالى هو العالم بالأسرار و الضمائر لا غيره فهذا موسى بن عمران وهو من أعظم الأنبياء إختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربّه فوق خيرته على المنافقين حتّى عبّر عنهم بالسّفهاء فقال أتهلكنا بما فعل السّفهاء، و اذا كان إختياره موسى كذلك فما ظنّك بغيره كائنًا من كان لأجل ذلك قالت الإماميّة لابدّ أن يكون الوّصي منصوباً من الله تعالى على لسان نبيّه إختياراً للأمة بل ولشخص الرّسول في تعيين الوّصي.

وقد روي الصدوق في كتاب إكمال الدّين و اتمام النّعمة بأسناده الى سعد بن عبد الله القمي عن الحجّة القائم عليه السلام حديث طويل، و فيه قلتُ فأخبرني يابن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من إختيار الإمام لأنفسهم، قال مُصلح أم مُفسد، قلتُ مُصلح قال فهل يجوز أن تقع خيّرتهم على المُفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد.

قلتُ: بلى قال فهي العلة وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك ثمّ قال عليه السلام أخبرني عن الرّسل الذين إصطفاهم الله عزّ وجلّ وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالوحي والعصمة وهم أعلام الأمّة أهدى الى الإختيار منهم مثل موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما اذ هما بالإختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنّان أنّه مؤمن قلت لا. قال: هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه إختيار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربّه عزّ وجلّ سبعين رجلاً ممّن لا يشكّ في إيمانهم وإخلاصهم فوق خيرته على المنافقين قال الله عزّ وجلّ: وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا الى قوله: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتّى نرى الله جهرّة فأخذتكم الصّاعقة بظلمهم، فلما وجدنا

إختيار من قد إصطفاه الله عزَّ وجلَّ للنُّبوة واقعاً على الأفسد دُون الأصلح و هو يَظُنُّ أَنَّهُ الأصلح دُون الأفسد عَلِمْنَا أَنَّ الإختيار لا يجوز إلا لِمَن يعلم ما تخفي الصدُّور و ما تَكُنُّ الضَّمائر ويتَّعرف عليه السَّرائر وأن لا خطر لإختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لَمَّا أرادوا أَهْل الصَّلاح انتهى.

إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتَكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ

فليس من الحجج الظاهرة على القدرية كما نقل الرّازي عن الواحدي و ذلك لأنَّ الفتنة بمعنى الإختبار والإمتحان و من المعلوم أَنَّهُ عند الإمتحان يكرم الرّجل أو يهان فالمعنى أن هي إلا إختبارك و إمتحانك لعبادك و أَنما نسب الإضلال و الهداية اليه تعالى لأنَّ إختباره العباد صار سبباً لظهور ما في سرائرهم و ضمائرهم من الإيمان و الكفر لا أَنَّهُ تعالى أَضَلَّهُم على سبيل القهر و الجبر كما زعمت الأشاعرة و ذلك لأنَّ إختيار العبد واسطة بين الإرادة و الفعل و قد إستدل الرّازي على مدّعه بوجوه:

أحدها: أَنَّ القدرة الصّالحة للإيمان و الكفر لا يترّجح تأثيرها في أحد الطرفين على تأثيرها في الطّرف الآخر إلا لأجل داعية مَرَّجة و خالق تلك الدّاعية هو الله تعالى و عند حصول تلك الدّاعية يجب الفعل و اذا ثبت هذه المقدّمات ثبت أَنَّ الهداية من الله و أَنَّ الإضلال منه.

أقول هذه الحجّة من أقوى حجج الرّازي في جميع الموارد و قد ذكرها مراراً في كتابه و لم يبيّن تلك الدّاعية و أَنّها ما هي و أيّ شيء أراد منها فأن أراد بها المصلحة التي رآها الفاعل في الفعل أو التّرك فهي الإختيار بعينه، و أن أراد بها الإرادة التي خلقها الله تعالى للعبد فهي ملحوقة بالإختيار بمعنى أَنَّ الإختيار واسطة بينها و بين الفعل، و إن أراد شيئاً آخر لا نعلمه فعلية بالبيان و الإظهار هذا.

ثانيها: قال أن أحداً من العقلاء لا يريد إلا الإيمان والحق والصدق فلو كان الأمر بإختياره وقصده لوجب أن يكون كل واحد مؤمناً محققاً وحيث لم يكن الأمر كذلك ثبت أن الكل من الله.

الجواب عنه أنه ما أراد بقوله من العقلاء، فأن كان مراده منهم العقلاء الواقعي الذين ورد في حقهم في الشريعة أن العقل ما عبد به الرحمن و أكتسب بها الجنان، فهؤلاء العقلاء لا يريدون إلا الإيمان والحق والصدق وهم مؤمنون حقاً لا كلام لنا وله فيهم، وأن كان مراده من العقلاء الذين يتسمون بالعقل لدى العرف والعوام، فهم لا يريدون الإيمان والصدق والحق دائماً بل قد يريدون وقد لا يريدون وذلك لأنهم عبيد الدنيا والذين لعق على ألسنتهم، فكل ما كان فيه مصلحة دنياهم يريدونه وإلا فلا.

فقوله لوجب أن يكون كل واحد مؤمناً محققاً، هو أول الكلام بل نقول أنه لا يريد الإيمان مع علمه بأن الإيمان حق ولا يريد الصدق مع علمه بأنه حق وليس ذلك إلا لأنه مختار في فعله والعجب من الرازي مع أنه يدعي العلم كيف يتفوه بهذه الكلمات العاطلة الباطلة التي لا قيمة لها نعوذ بالله من الهفوات وتفصيل الكلام في هذا البحث موضع آخر فثبت وتحقق أن العبد مختار في فعله وما ربك بظلام للعبيد فمن أحسن أحسن لنفسه ومن أساء فعليها وهذا هو الحق. **وَ أَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ** هذا تمام الأخبار عما قال موسى وقومه وأنهم سألوا الله المغفرة وأن يكتب لهم في هذه الدنيا حسنة وهي النعمة.

وقال في المفردات الحسنة يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله والسيئة تضادها وأنما سألوا أن يكتب لهم ولم يسألوا أن يجعل لهم لأن ما كتب من النعمة أثبت هكذا قيل وقوله في الآخرة تقديره وأكتب لنا في الآخرة أيضاً النعمة التي هي الثواب **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** الهود الرجوع برفق ومنه التهويد وهو مشي كالذبيب وصار الهود في التعارف التوبة

و عليه فالمعنى أَنَا تَبْنَا إِلَيْكَ مِمَّا لَنَا عَلَيْهِ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَلَامِ إِشَارَةٌ إِلَى أَمْرَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ الْعَذَابَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْعَصِيانِ بَلْ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْمَشِيئَةِ فَالْعَبْدُ الْعَاصِي يَعْذَبُ لَوْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا يَعْذَبُ أَنْ لَمْ يَشَاءَ.

ثانيهما: أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبُهُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَسَأَ كُتِبَ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: فَسَأَ كُتِبَ يَرْجِعُ إِلَى الرَّحْمَةِ وَ أَنَّهَا تَكْتُبُ لِلْمُتَّقِينَ وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ وَ أَمَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ مِنْهَا قِيلَ ذَكَرَ الزَّكَاةَ لِأَنَّهَا مِنْ أَشَقِّ الْفَرَائِضِ وَ قَدْ وَرَدَ فِي الْأَثَرِ، أَنَّ مَنْ مَنَعَ قِيرَاطًا مِنْ زَكَاةٍ مَالِهِ فَلَيْمَتْ أَنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَ أَنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا، أَيْ أَنَّ مَانِعَ الزَّكَاةِ خَارِجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يَدْخُلُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ^(١).

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ

فكَانَتْ سَأَلَ سَائِلٍ عَنْ مَصَادِيقِ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا فَقِيلَ فِي الْجَوَابِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ أَيَّ مَنْ تَمَامَ صِفَاتِهِمْ مُتَابِعَةُ الرَّسُولِ الَّذِي أَوْصَافُهُ مَسْطُورَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْمُرَادُ بِهَذَا النَّبِيِّ هُوَ رَسُولُ الْإِسْلَامِ وَ الْخُطَابُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ مُحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ تَمَّتْ عَلَيْهِمْ فَلَا عَذْرَ لَهُمْ فِي عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ الرَّسُولَ بِكَوْنِهِ أُمِّيًّا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ، وَ قِيلَ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأُمَّةِ وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ عَلَى جَبَلَةِ الْأُمَّةِ قَبْلَ إِسْتِفَادَةِ الْكِتَابَةِ، وَ قِيلَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأُمِّ وَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَلَى مَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ قَبْلَ تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ.

فِي الْقُرْآنِ فَانْظُرْ فِي الْقُرْآنِ

جزء ٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه منسوب الى مكة وهى أم القرى، وقيل أنه نسب الى العرب لأنها لم تحسن الكتابة وأما أنهم أي أهل الكتاب كانوا يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل فهو كذلك إلا أنهم كتبوا أوصافه المذكورة فيهما على العوام ولو أظهروها لهم لأتبعوه قطعاً، قيل لما سمع إبليس، ورحمتي وسعت كل شيء، تناول لها إبليس فلما سمع قوله فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة يشس وبقيت اليهود والنصارى فلما تمادت الصفة تبين أن المراد أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يشس النصارى واليهود من الآية.

وقال بعض المفسرين عرض الله هذه الخلال (الخصال. غ. ل) على قوم موسى فلم يتحملوها فلما إنطلق وفد بني إسرائيل الى الميقات قيل لهم خطت لكم الأرض مسجداً و طهوراً إلا عند محاض، أو قبر، أو حمام، و جعلت السكينة في قلوبهم فقالوا لا نستطيع فأجعل السكينة في الثابوت و الصلاة في الكنيسة نقرأ التوراة إلا عن نظير ولا نصلي إلا في الكنيسة فقال الله تعالى فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال بعض المفسرين قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ من بقية خطابه تعالى لموسى وفيه تبشير له ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذكر لصفاته صلى الله عليه وآله وسلم وإعلام له أيضاً أنه ينزل كتاباً يسمى الإنجيل ومعنى الإتيان الإقتداء فيما جاء به إعتقاداً قولاً و فعلاً و جمع هنا بين الرسالة والنبوة لأن الرسالة في بني آدم أعظم وأشرف من النبوة.

و قرأ يعقوب وغيره الأمي بفتح الهمزة من أم إذا قصد والمعنى أن هذا النبي مقصد للناس وموضع أم، وأما قوله مكتوباً في التوراة والإنجيل. قال التبريزي في التوراة، أي ساقيم له نبياً من أخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فيه ويقول لهم كلما أوصيته فيها وأما النبي فقد باركت عليه جداً و سأدخره لأمة عظيمة.

وفي الإنجيل يعطيكم الفارقليط آخر يعطيكم معلم الذّهر كلّهُ.
وقال المسيح أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحقّ الذي لا يتكلم من
قبل نفسه ويمدحني ويشهد لي، وغير ذلك من الأوصاف التي هي مذكورة
فيهما.

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهِيهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ الظَّاهِرِ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا
لِلنَّبِيِّ ﷺ

أحدها: أنّه يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، والمعروف كلّ
قولٍ أو فعلٍ يعرف حسنه عقلاً وشرعاً والمنكر بخلافه وهما من أصول
الدّعوة بل الدين كلّهُ ليس إلّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنّ الأحكام
الدينية على المشهور خمسة يعبر عنها بالأحكام الخمسة التّكليفية وهى
الواجب والتّنب والمباح والحرام والمكروه.
فالواجب والتّنب والمباح تعتدّ من المعروف والحرام والمكروه من
المنكر:

قال الله تعالى: **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ** ^(١).

قال الله تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ
تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ^(٢).

قال الله تعالى: **يَا بَنِي آدَمَ اقِمِ الصَّلَاةَ وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ
الْمُنْكَرِ** ^(٣) والآيات كثيرة وقد تكلمنا فيها فيما مضى مفصلاً.

ثانيها: ويحلّ لهم الطّيبات، الطّيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النّفس
والطّعام الطّيب في الشّرع ما كان متناولاً من حيق ما يجوز وبقدر ما يجوز
المكان الذي يجوز فأثّه متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وأجلاً لا يستوخم.

قال الله تعالى: فَكُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَ أَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ^(١).

قال الله تعالى: كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ^(٢).

قال الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ^(٣) و غيرها من الآيات.

ثالثها: وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ الخبيث ما يكره رداءً وخساسةً محسوساً كان أو معقولاً وأصله الردي وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبیح في القعال ومعنى قوله: وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ أي يحرم الرسول عليهم ما لا يوافق النفس من المحظورات ومن المعلوم أن التحليل والتحريم في الواقع من الله وأن كان ظاهراً من الرسول كغيرهما من الأحكام في الشريعة.

رابعها: ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، يعني يضع أي يرفع عن الناس إصرهم يعني الثقل (الثقل) بأمور محرمة وفي تكليفها مشقة كتحریم العروق والغدد وتحریم السبب وكانت كالأغلال في أعناقهم كما يقولون هذا طوق في عنقك.

وقيل المراد ما إمتحن به بنو إسرائيل من قبل نفوسهم وقرض ما يصيبه البول من أجسادهم وإلتزام للمكاره في كل شيء يخالفون الله فيه.

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوْهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ^١ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

والمعنى فالذين صدقوا بهذا النبي وعزروه أي عظموه بمنعهم كل من أباد كيده ونصروه لساناً وفعلأً فعملوا بما أمرهم به وتركوا ما نهاهم عنه وإتبعوا

النُّور الَّذِي مَعَهُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ سَمَاءَ نَوْرًا لِأَنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ كَمَا يَهْتَدَى بِالنُّورِ إِلَّا أَنَّ
النُّورَ الْحَسِّيَّ يَهْتَدَى بِهِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ وَالنُّورَ الْمَعْنَوِيَّ الْعَقْلِيَّ أَعْنِي بِهِ
الْقُرْآنَ يَهْتَدَى بِهِ فِي الْمَعْقُولَاتِ وَالسُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ النُّورَ مِنْ خَاصِيَّتِهِ أَنَّهُ
ظَاهِرٌ بِالذَّاتِ وَمُظْهِرٌ لِلغَيْرِ وَالْقُرْآنَ أَيْضًا كَذَلِكَ فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ تَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى الَّتِي لَا انفِصَامَ لَهَا أَبَدًا ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَيُّ بَأْسٍ مِنْ فِعْلٍ مَا قَلَنَاهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ بِثَوَابِ رَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ
الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

أمر الله ورسوله أن يخاطب الخلق جميعاً ويقول لهم إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يعني أرسلني إليكم من
له التَّصَرُّفُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِلَا دَافِعٍ وَلَا مَنَازِعٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ
يُمِيتُ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَمْرُ النَّبِيِّ الْخَلْقِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا وَ
يُصَدِّقُوا بِتَوْحِيدِهِ وَيَقْرَأُوا بِنُبُوَّةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ
بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فَقَالَ: وَاتَّبِعُوهُ أَيُّ وَاتَّبِعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أَيُّ لَكِي
تَهْتَدُونَ وَفِي هَذِهِ آيَةِ لَطَائِفٍ لَا بَأْسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا إجمالاً:

أول: أَنَّ رِسَالَتَهُ عَامَّةٌ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ بِخِلَافِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ بَلْ أَكْثَرِهِمْ
لَوْلَا كُلُّهُمْ عَلَى إختلاف فيه حيث أَنَّهُمْ بَعَثُوا لَا إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ بَلْ إِلَى
بَعْضِهِمْ وَاضِحٌ.

الثاني: تَعْيِينُهُ الْمُرْسَلِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَى الْخَلْقِ وَهُوَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى.

الثالث: الْإِشَارَةُ إِلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ إِنِّي رَسُولُ إِلَيْكُمْ مِنْ قَبْلِ

هذا المعبود الذي وصفته لكم وحيث أن هذه الأوصاف لا يوجد في غيره تعالى فهو الذي يليق بأن يكون معبوداً لا غيره وهو المطلوب.

وإذا كان كذلك، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الغاء للتفريع ظاهراً والمعنى لا عذر لكم في عدم الإيمان بالله لأنه متفرد بالوحدانية متصرف في ملكوت السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

الزابع: أن من يدعوا غيره إلى التوحيد والإيمان بالله ينبغي أن يكون مؤمناً لأن معطي الشيء لا يكون فاقداً له وحيث أن النبي في الحقيقة معطي طريق الإيمان إلى الخلق فاللزام له الإيمان أولاً ثم الدعوة ثانياً وإلى هذه النكتة أشار بقوله: **الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ.**

الخامس: أن الإهتداء في متابعة النبي قولاً وعملاً وهو مما لا خلاف فيه فمن تبع الرسول كذلك فقد إهتدى قطعاً ولذلك فسرنا، قوله: **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** بقولنا لكي تهتدون إذ الترجي في كلام الله لا معنى له مضافاً إلى أن المتابعة والإهتداء من قبل العلة والمعلول والله أعلم بكلامه.



وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا
أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ
أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا
عَلَيْهِمُ الْأَغْمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَ
لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ
أَسْكِنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ
قُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَسَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
خَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا
تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَ
إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ
أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى
رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا
بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا
قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)

◀ اللغة

يَعْدِلُونَ، العَدَلُ ضدُّ الظَلَمِ أي لا يجورون.
أَسْبَاطًا، الأسْبَاطُ أولاد الولد جمع سِبْط.
أُمَمًا، الأُمَم جمع أُمَّة وهي الجماعة.
فَانْبَجَسَتْ، الإنبجاس الإنفجار بضم الألف قال الزمخشري اسهم جمع غير
تكسير نحو رخاء وثناء.

الْمَنَ وَالسَّلْوَى، المَن بفتح الميم وتشديد التَّوْن شيء كالطَّل فيه حلاوة
يسقط على الشَّجَر والسَّلْوَى بفتح السين طائر.
حِطَّةً بكسر الحاء وفتح الطاء المشددة كلمة أمر بها بني إسرائيل ومعناه
حِطٌّ عَنَّا ذُنُوبَنَا وقيل معناه قولوا صواباً.
خَطِيئَاتِكُمْ، الخطيئات جمع الخطيئة وهي الذنب مأخوذ من الخطأ.
رِجْزًا، الرِّجْز بكسر الراء في الأصل الإضطراب والمراد به هاهنا العذاب و
العقوبة.

شُرْعًا بضم الشين وفتح الراء المشددة جمع شارع.
عَتَوْا أية أعرضوا والباقي واضح.

◀ الإعراب

قَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ فِيهِ وَجْهَانِ:
أحدهما: أَنْ قَطَعْنَا بِمَعْنَى صَيَّرْنَا فَيَكُونُ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَفْعُولًا ثَانِيًا.
الثاني: أَنْ كَيُونُ حَالًا أَيْ فَرَّقْنَاهُمْ فِرْقًا.

عَشْرَةً بِسُكُونِ الشَّيْنِ وَفَتْحِهَا وَكُسْرُهَا، لَغَاتٍ قَدْ قَرِئَ بِهَا أَسْبَاطًا بَدَلَ مِنْ أَتْنَتِي عَشْرَةً لَا تَمَيِّزُ لِأَنَّهُ جَمْعُ أُمَمَانَعَتْ لِأَسْبَاطٍ أَوْ بَدَلَ بَعْدَ بَدَلَ وَأَتْنَتِي عَشْرَةً لِأَنَّ التَّقْدِيرَ أَتْنَتِي عَشْرَةً أُمَّةٌ أَنْ أَضْرِبُ أَنْ مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ بِمَعْنَى، أَيِ، إِذْ يُعْدُونَ قِيلَ هُوَ ظَرْفٌ لِحَاضِرَةٍ إِذْ تَأْتِيهِمْ ظَرْفٌ لِيَصْعَدُونَ وَحِثَانُهُمْ جَمْعُ حُوتٍ أَبْدَلَتْ الْوَاوُ يَاءً لِسُكُونِهَا وَكُسْرُ مَا قَبْلَهَا شَرْعًا حَالٌ مِنَ الْحَيْثَانِ يَوْمٌ لَا يَسْبِتُونَ ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ، لَا تَأْتِيهِمْ، مَعْذَرَةٌ بِالرَّفْعِ أَيِ مُوعِظَتُنَا مَعْذَرَةٌ وَبِالنَّصْبِ عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ أَيِ وَعِظَتُنَا لِلْمَعْذَرَةِ وَقِيلَ هُوَ مَصْدَرٌ أَيِ لَتَعْذَرَهُ مَعْذَرَةٌ، يَعْذَابُ بِئْسَ بَفَتْحِ الْبَاءِ وَبَعْدَهَا يَاءٌ سَاكِنَةٌ وَبَعْدَهَا هَمْزَةٌ مَفْتُوحَةٌ وَرَوِي مَكْسُورَةٌ عَلَى وَزْنٍ، فَيَعْلُ، هُوَ نَعْتُ لِلْعَذَابِ مِثْلُ شَدِيدٍ، وَقِيلَ هُوَ يَفْتَحُ الْبَاءَ وَكُسْرُ الْهَمْزَةِ وَيَاءٌ سَاكِنَةٌ بَعْدَهَا عَلَى وَزْنٍ فَعِيلٌ فَهُوَ أَيِ بَيْسٍ، عَلَى الْأَوَّلِ وَصَفٌ كُضْيِغَمٌ وَحِيدٌ.

على الثاني: مأخوذ من البأس.

◀ التفسير

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

كلمة، من، تبعيضية أي بعضهم كانوا كذلك وإختلفوا في معناه.

فعن ابن عباس والسدي أنهم قوم وراء الصين.

وقال أبو جعفر هم قوم خلف الرمل لم يغيروا ولم يبدلوا ومحصل الكلام

هو أن قوم موسى كلهم لم يكونوا ضالاً بل كان منهم معتدون.

قال السائب هم قوم من أهل الكتاب آمنوا بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كعبد الله بن

سلام وأصحابه.

وقال قوم هم أمة من قوم موسى تمسكوا بشرعه قبل نسخه ولم يبدلوا و

لم يقتلوا الأنبياء.

وقال الزمخشري هم المؤمنون الثَّابِتُونَ من بني إسرائيل الذين كانوا يهدون النَّاسَ بكلمة الحقِّ ويدلونهم على الإستقامة ويرشدونهم بالحقِّ ويعدلون بينهم في الحكم ولا يجورون.

وقال ابن جريح وغيره أنَّهم قومٌ إغْتَرَبُوا من بني إسرائيل ودخلوا سرياً مشوا فيه سنة ونصفاً تحت الأرض حتَّى خرجوا وراء الصَّيْنِ فهم هناك يقيمون الشَّرْعَ الى آخر ما نقلوه في كتبهم ولا ريب أنَّه بالأسطورة أولى منه بالتفسير اذ لقائل أن يقول أين كان هذا السَّرب الَّذي دخلوا فيه ومشوا سنة ونصفاً تحت الأرض، ولم يكن هناك مأْكول ولا مشروب والعجب من الزمخشري حيث قال ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتَّى خرجوا من وراء الصَّيْنِ وهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا.

وذكر عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّ جبرئيل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم فكلَّمهم فقال لهم جبرئيل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمَّد النَّبِيُّ الأُمِّي فأمنوا به وقالوا يا رسول الله أنَّ موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه مِنِّي السَّلام فردَّ محمَّد ﷺ على موسى ﷺ السَّلام ثمَّ أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكَّة ولم تكن نزلت فريضة غير الصَّلَاة والزَّكَاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السَّبْتَ.

وعن مسروق قريُّ بين يدي عبد الله فقال: رجل أتني منهم الى آخر ما ذكره من الأباطيل التي لا يقبلها العقل السليم.

والَّذي نقول في معنى الآية هو أنَّ أمة موسى كانوا على صنفين:

صنف منهم كانوا من الأشقياء الَّذِينَ كفروا بنعمة ربِّهم وجحدوا آياته وأعرضوا عن شريعة موسى وإشتغلوا بعبادة العجل وأنكروا التَّوحيد والنُّبوة والمعاد. وصنَّفَ آخر لم يكونوا كذلك بل كانوا يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، الَّذي ذكرناه لا يختصُّ بأمة موسى فإنَّ كُلَّ أمةٍ كانت كذلك وهذا واضح لا خفاء فيه فلا نحتاج الى تلك الأساطير التي ذكروها في تفاسيرهم.

وقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: لَمَّا سُأِلَ عَنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ قَوْمُ
 مُوسَى هُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، يَعْنِي الَّذِينَ أَسْلَمُوا واقِعاً.
 وَقَطَّعْنَاهُمْ أَثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا أَي فَرَّقْنَاهُمْ وَمَيَّزْنَاهُمْ فَأَنَّ
 التَّقْطِيعَ التَّفْرِيقَ وَأَمَّا فَرَّقَهُمْ لِيَكُونَ رَجُوعُ أَمْرٍ كُلِّ سَبْطٍ إِلَى رَئِيسِهِ لِيُخَفِّفَ
 أَمْرَهُمْ عَلَى مُوسَى عليه السلام وَلِتَلَّا يَتَحَاسَدُوا فَيَقَعَ الْهَرَجُ وَلِهَذَا فَجَّرَ لَهُمْ أَثْنَتَى
 عَشْرَةَ عَيْنًا لِتَلَّا يَتَنَازَعُوا وَيَقْتَتِلُوا عَلَى الْمَاءِ وَلِهَذَا جَعَلَ لِكُلِّ سَبْطٍ نَقِيبًا لِيَرْجِعَ
 بِأَمْرِهِمْ إِلَيْهِ وَالسَّبْطُ بِكَسْرِ السَّيْنِ وَلَدُ الْوَلَدِ وَالْمَقْصُودُ فَرَّقْنَاهُمْ أَثْنَتَى عَشْرَةَ
 أَسْبَاطًا أُمَمًا، لِإِخْتِلَافِ رَتَبَتِهِمْ وَجَعَلْنَا فِي رَأْسِ كُلِّ فِرْقَةٍ سَبْطًا مِنْهُمْ لِتَلَّا
 يَخْتَلِفُوا فِصَارُوا بِذَلِكَ أُمَمًا أَثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقِيَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
 أَي لَمَّا اسْتَسْقَى قَوْمُ مُوسَى أَي طَلَبُوا مِنْهُ الْمَاءَ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اضْرِبْ
 بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَضْرَبَ مَسْوًى بِعَصَاهُ الْحَجَرِ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ
 عَيْنًا بَعْدَ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْإِنْجَاسُ الْإِنْفِجَارُ وَقِيلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا أَنَّ
 الْإِنْجَاسَ خُرُوجَ الْمَاءِ الْجَارِي بَقَلَّةٍ وَالْإِنْفِجَارَ خُرُوجَهُ بِكَثْرَةٍ فَلِذَلِكَ ذَكَرَهُ هُنَا
 بِالْإِنْجَاسِ وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِالْإِنْفِجَارِ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنْاسٍ مَشْرَبَهُمْ أَي قَدْ
 عَلِمَ كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَسْبَاطِ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ
 الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى أَي جَعَلْنَا لَهُمْ مِنَ الْغَمَامِ ظِلَّةً تَكْتُمُهُمْ لَمَّا إِنْجَاجُوا إِلَى ذَلِكَ
 فِي النَّيِّهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الظِّلَّةَ السُّتْرَةَ الَّتِي تَقِي مِنَ حَرَارَةِ الشَّمْسِ وَالْأَغْلَبُ عَلَيْهَا
 الْعُلُوُّ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى فَقَدْ قَلْنَا فِي شَرْحِ اللَّغَاتِ أَنَّ الْمَنَّ شَيْءٌ كَالظِّلِّ فِيهِ حَلَاوَةٌ
 يَسْقُطُ عَلَى الشَّجَرِ وَالسَّلْوَى طَائِرٌ وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ تَعَالَى سَهْلٌ عَلَيْهِمُ الشَّرَابُ وَ
 الطَّعَامُ قَالَ: كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا ظَلَمُونَا
 وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَالْمَقْصُودُ إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْوَاعِ
 النِّعَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ شُكْرَ الْمُنْعَمِ وَاجِبٌ عَقْلًا إِلَّا أَنَّهُمْ

لم يشكروا عليها بل كفروا بها وبذلك ظلموا على أنفسهم لأنهم لو لم يكفروا بها وكانوا من الشاكرين لكثرتها عليهم ولكنهم لم يشكروا عليها.
فلا محالة وقعوا فيما وقعوا من العقوبات في الدنيا والآخرة.
وَأَمَّا قَالَ تَعَالَى: وَمَا ظَلَمُونَا وَمَا ظَلَمُونَا لِلَّهِ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعَهُ كَمَا لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ وَعَلَيْهِ فَمَنْ أَطَاعَ لِنَفْسِهِ وَمَنْ عَصَى فَعَلِيهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

أي إذا قيل لقوم موسى أعني بهم بني إسرائيل إسكنوا هذه القرية، وهي بيت المقدس على قول بعضهم وأرض الشام على قول آخرين وكانوا مأمورين بدخولها وإخراج من فيها من الكفار وبذلك أمرهم الله ووعدهم أن يوسع عليهم الرزق فيها لياكلوا من حيث شاؤوا ما يريدون من أنواع الأغذية والرزق. والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ.

أي في كل ناحية منها، وقولوا: حِطَّةٌ أي قولوا حط عنا ذنوبنا وهو بمنزلة الإستغفار والتوبة، وقرأ الحسن حطة، بالنصب على المصدر، ويجوز أن ينتصب بقولوا على حذف التقدير أي وقولوا قولاً حطة فحذف، ذا، و صار حطة وصفاً للمصدر المحذوف كما تقول قلت حسناً وقلت حقاً ثم أمرهم ثانياً بعد السكون في القرية والأكل من أنواع الأغذية والرزق والإستغفار والتوبة والدعاء بحط الذنوب، بالدخول من باب معين في هذا الموضع الذي كانوا فيه فقال لهم وأدخلوا الباب سجداً، يعني متواضعين قيل وكان ذلك قبل دخولهم الى بيت المقدس.

وقال ابن عباس كان هناك باب ضيق أمروا بأن يدخلوه ركعاً فدخلوه على أستاذهم، وقوله: نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ جواب الأمر وفيه معنى الجزاء والتقدير إن فعلتم ذلك الذي أمرناكم به غفرنا لكم خطيئاتكم.

وقرأ أبو عمرو، خطاياكم على وزن قضاياكم والمعنى واحد،
سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ، منكم نعماً وفضلاً في الدنيا والآخرة ولا يقتصر لهم على
نعم هذه القرية.

قال بعض المفسرين، رفع حطة، على تقدير مسألتنا حطة أو مطلوبنا حطة
وأن نصب جاز بمعنى حطَّ عَنَّا حطة. ثم قال وقوله: سُجِّدًا نصب على الحال
من دخول الباب.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا
مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية عنهم أنهم بدّلوا ما قال الله لهم. وأمرهم به و
التبديل تغيير الشئ برفعه الى بدل.

فقال الحسن أنهم قالوا حنطة بدل حطة فبدّلوا كلام الله بقولهم حنطة، قوم
أنهم قالوا قولاً ينافي في الاستغفار ويخالف التوبة وقالوا ما يدل على الإصرار
وقيل غير ذلك من الأقوال.

والحق أن هذه الأقوال لا دليل عليها من الأخبار والذي تدل عليه الآية هو
مجرد التبديل وأما أنه بأي شئ كان فلا أثر له في الآثار.

نعم دلّت الآية على أنهم بدّلوا القول الذي قيل لهم بقول آخر وبه تحقّق
العصيان منهم فصاروا مستحقين بنزول العذاب عليهم بذلك واليه الإشارة
بقوله: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ أي على المبدلين رجزاً، أي عذاباً وعقوبة من السماء
بما كانوا أي بسبب ما كانوا يظلمون وأما عبّر عن التبديل بالظلم لأنّ تبديل
حكم الله بحكم آخر مخالفة ومعصية له ومن المعلوم أن معصية الله ظلم
على النفس لأنها سبب للعذاب والعقوبة في الدارين فصَحّ أن يقال: وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

قال بعضهم أن أصل الرجز الميل عن الحق فمنه الرّجاجة وما يعدل به
الحمل إذا مال عن خفة ولذلك يعبر عن عبادة الوثن بالرجز.

وَسَأَلْنَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا

أمر الله نبيه أن يسألهم، أي بني إسرائيل الذين كانوا في زمان النبي عن القرية التي كانت حاضرة البحر قيل أن بعض اليهود المعارضين للرَّسُولِ ﷺ قالوا له لم يكن بني إسرائيل عصيان ولا معاندة لما أمروا به فنزلت هذه الآية مؤبخة لهم ومقررة كذبهم ومعلمة ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والمسخ وكانت اليهود تكتُم هذه القصَّة فهي ممَّا لا يعلم إلا بكتَاب أو وحي فاذا أعلمهم بها من يقرأ كتابهم علم أنه من جهة الوحي وقوله: عَنِ الْقَرْيَةِ فِيهِ حَذَفَ أَي عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي إِسْمِهَا فَقِيلَ هِيَ، أَيْلَة، قَالَه ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وقيل، مدين، وقيل هي، مقنى، بالقاف ساكنة وقال ابن زيد هي، مقناة، طبرية، وقيل أريحا، وبيت المقدس وقيل قرية بالشَّام لم تسمَّ بعينها، ومعنى حاضرة البحر بقرب البحر مبنية بشاطئه وقيل يحتمل أن يريد معنى الحاضرة على جهة التَّعْظِيمِ لَهَا أَي هِيَ الْحَاضِرَةُ فِي قَرْيِ الْبَحْرِ فَالتَّعْدِيرُ حَاضِرَةُ قَرْيِ الْبَحْرِ أَي يَحْضُرُ أَهْلُ قَرْيِ الْبَحْرِ إِلَيْهَا لِبَيْعِهِمْ وَشِرَاءِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ وَقَوْلُهُ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ أَي يَجَاوِزُونَ أَمْرَ اللَّهِ فِي الْعَمَلِ يَوْمَ السَّبْتِ وَهَذَا مُرَادٌ مِنْ فَسْرِ الْكَلَامِ بِالظُّلْمِ فَقَالَ مَعْنَاهُ إِذْ يَظْلَمُونَ فِي السَّبْتِ. وَأَمَّا قَالَ اللَّهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ تَوَالِي النَّهْيِ عَنِ الْعَمَلِ فِيهِ وَالِإِشْتَغَالِ بِصَيْدٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ كَانَ عَصْيَانُهُمْ، وَقِرْيٌ، يَعْدُونَ، بِتَشْدِيدِ الدَّالِّ مِنَ الْإِعْدَادِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْدُونَ أَلَاتِ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ وَهُمْ مَأْمُورُونَ بِأَنْ لَا يَشْتَغَلُوا فِيهِ بِغَيْرِ الْعِبَادَةِ.

قال الزَّمَخْشَرِيُّ، السَّبْتُ بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ الْبَاءِ مُصْدَرٌ سَبَتِ الْيَهُودُ إِذَا عَظُمَتْ سَبْتُهَا بَتَرَكَ الصَّيْدَ وَالِإِشْتَغَالَ بِالتَّعْبُدِ فَمَعْنَاهُ يَعْدُونَ فِي تَعْظِيمِ هَذَا الْيَوْمِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: يَوْمَ سَبْتِهِمْ يَوْمَ تَعْظِيمِهِمْ وَقَوْلُهُ: إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِينَئِذٍ مَعَنَاهُمْ اذْ عَدَوْا فِي وَقْتِ اِثْنَيْنِ الْحَيْتَانِ، وَالْحَيْتَانِ بِكسر الحاء جمع حوت و قوله، شُرْعاً بَضْمُ الشَّيْنِ وفتح الراء المشددة أي ظاهرة، و المقصود أنَّ الحيتان تأتي ظاهرة فكانوا يحتالون بحسبها يوم السَّبْتِ ثُمَّ يأخذونها في يوم الأحد و قال قومٌ جاهرُوا بِأخذِها يومَ السَّبْتِ وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ قال بعضهم في كيفية القضية أَنَّهُمْ تَطَرَّقُوا الى المعصية بأن حضروا حفراً يخرج اليها ماء البحر على إحدودها فإذا جاء الحوت يوم السَّبْتِ و حصل في الحفرة القوا في الأحدود حجراً فمنعوه الخروج الى البحر فاذا كان الأحد أخذوه فكان هذا أوّل التطريق.

و قال ابن رومان كانوا يأخذ الرجل خيطاً و يضع فيه و هقة و ألقاها في ذنب الحوت و فى الطرف الآخر مضروبٌ و تركه كذلك الى أن يأخذ، في الأحد ثُمَّ تَطَرَّقَ النَّاسُ حين رأوا من يصنع هذا لا يتبلى حتّى كثر صيد الحوت و شرايه في الأسواق و أعلن الفسقة بصيده و قالوا ذهبت حرمة السَّبْتِ.

و في قوله تعالى: كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ إشارة بل صراحة بأن ذلك كان إمتحاناً لهم

من الله تعالى و هو كذلك فَأَنَّ الله تعالى يختبر عباده كيف يشاء.

قال الزَّجَاجُ يحتمل أن يكون و يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ أي لا تأتِيهِمْ شُرْعاً و يكون، نبلوهم، مسأناً، و الأوّل قول أكثر المفسرين.

قال بعض المفسرين و الوجه في تشديد المحنة التي هي التَّكْلِيفُ أَنَّ الله تعالى أمر بني إسرائيل بِإِمساكِ السَّبْتِ و التَّفَرُّغِ فيه للعبادة و أن لا يتشاغلوا فيه بشئ من أمر الدُّنيا فتهاون قوم مَمَّنْ يسكن هذه القرية و لم يقوموا بما وجب عليهم فشَدَّدَ الله على من أخذوه.

قال الحسن كانت تشريع على أبوابهم كأنها الكباش البيض فيأخذونها و تبعد عنهم في باقي الأيام و أمرهم أن لا يصطادوا يوم السَّبْتِ فكان ذلك تشديداً للتَّكْلِيفِ و تغليظاً للمحنة و البلوى و كان ذلك عقوبةً على تهاونهم بما أوجب الله عليهم فخالفوا فأرسلوا الشَّباك يوم السَّبْتِ و أخرجوها يوم الأحد.

وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

الأمّة الجماعة أي واذ قالت جماعة منهم أي من بني إسرائيل الذين جرّبوا الوعظ فيهم فلم يروه يجدي، وإختلفوا في هذه الفرقة التي قالت: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ هل كانت من النّاجية أو من الهالكة عن الاعتداء في السّبب.

قال ابن عباس نجت الطّائفتان من الهلاك النّاهية، والتي قالت لها لم تعظون.

وبه قال السّدي وقال قوم الفرقة التي قالت: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ كانت من الفرقة الهالكة.

وعن قتادة هم ثلاث فرق، التي وعظت و الموعظة فنجت الأولى، و هلك الثانية و أمّا الثالثة فالله أعلم و هم الذين قالوا لم تعظون و إختاره الجبائي.

وقال الكلبي هما فرقتان الواعظة و الموعظة وكيف كان فقد قالت فرقة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، وإنّما قالوا ذلك لأنّ الموعظة لم تكن نافعة لهم، لما رأوا كثرة تكرّرها عليهم و عدم قبولهم لها، قالوا في الجواب، معذرة إلى ربكم، أي وعظناهم معذرة إلى الله ولعلهم يتقون.

و المقصود إنّنا وعظناهم، لأجل اداء الوظيفة التي هي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ إشارة إلى أنّه ليس من المحال تأثير الوعظ فيهم إذ من المتمم أن يتّعظوا بالموعظة و يدخلوا في زمرة المتّقين.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

الضَّمِير فِي، نَسُوا لِلْمُنْهِيينَ أَي فَلَمَّا تَرَكُوا مَا ذَكَرَهُمْ بِهِ الصَّالِحُونَ فَجَعَلَ التَّركَ نَسِيانًا مَبَالِغَةً إِذَا قَوِيَ أَحْوَالُ التَّركِ أَنْ يَنْسَى المَتْرُوكَ وَمَا، مَوْصُولَةٌ بِمَعْنَى، الَّذِي، وَالْمَعْنَى فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلُوا المَوْعِظَةَ وَتَرَكُوهَا، أُنْجِينَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السَّوْءِ، أَي أُنْجِينَاهُمْ مِنَ العَذَابِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الصُّلَحَاءِ وَالنَّاهِيْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا النُّصْحَ وَالمَوْعِظَةَ وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ وَالفُسْقى، بِعَذَابٍ بَئِيسٍ، قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي شَرْحِ اللَّغَاتِ وَنَقَلْنَا الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ: بَئِيسٌ وَ الْأَقْوَى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْبَاسِ مِنْ قَوْلِهِمْ بَؤْسَ يَبْؤُسُ إِذَا كَانَ شَدِيدَ الْبَاسِ أَوْ أَنَّ التَّقْدِيرَ مِنْ عَذَابٍ ذِي بَئِيسٍ أَي عَذَابٍ ذِي بَؤْسٍ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا تَرَكَ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الرُّجُوعَ عَنِ إِرْتِكَابِ المَعْصِيَةِ بِصِيْدِ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُمُ الوَاعِظُونَ أَخَذْنَاهُمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ بِسَبَبِ ظَلَمِهِمْ وَفُسْقِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ عَلَى المَعْصِيَةِ وَعَدَمِ قَبُولِهِمُ الْحَقَّ وَقَدْ قِيلَ أَنَّ هَذَا العَذَابَ لِحَقِّقِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَمْسُخُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

أَي فَلَمَّا أَصْرُوا عَلَى عَصْيَانِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَلَمْ يَقْبَلُوا النُّصْحَ مِنَ النَّاصِحِينَ وَ أَنْ شَتَّ قُلْتُ فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ وَتَمَرَّدُوا فِي مَعْصِيَةِ مَسْخُومِ اللَّهِ قِرْدَةً خَاسِئِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاتِي الشَّدِيدَ الدَّخُولَ فِي الْفُسَادِ وَالمْتَمَرِدَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مَوْعِظَةً.

وَقَوْلُهُ: خَاسِئِينَ مَعْنَاهُ مَبْعَدِينَ، مِنْ قَوْلِهِمْ خَسَاتِ الْكَلْبِ إِذَا قَصِيَتْهُ فُخْسًا أَيْ بَعْدَ وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْكَلْبِ إِخْسَاءً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ جَهَنَّمَ إِخْسَؤْا فِيهَا تَكَلِّمُونَ، ثُمَّ أَنَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ دَلَالَةً بَلْ صِرَاحَةً عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَسْخُومٌ مَسْخَاً وَجَعَلَهُمْ قِرْدَةً.

قال الراغب، المسخ تشويه الخلق و الخلق و تحويلهما من صورة الى صورة قال بعض الحكماء المسخ على ضربان:

مسخٌ خاصٌ يحصل في القنية وهو مسخ الخلق و مسخٌ قد يحصل في كل زمانٍ وهو مسخ الخلق و ذلك أن يصير الإنسان متخلفاً بخلقٍ ذميم من أخلاق بعض الحيوانات نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب و في الشره كالخنزير و في الغمارة كالنور إذا عرفت هذا فنقول، قوله تعالى: **كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** إشارة الى القسم الأول منهما وهو مسخ الخلق أي تحويلهم و تغييرهم من صورة الإنسانية الى صورة القردة و الخنازير و قد ثبت في العلوم العقلية أن المادة في هذا التغير باقية بحالها فليس هذا من الانقلاب في الماهية الذي إتفقوا على إستحالة ألا ترى أن في صيرورة الماء بخاراً تكون مادة المائية باقية و صورة الماء يتحول بصورة البخار نقل بعض المفسرين عن ابن عباس أنه قال أن شبابا القوم صاروا قردة و الشيوخ خنازير.

أقول هذا لا يصح لأن الآية لا تدل على هذا التفصيل الذي ذكره و في الأخبار و الآثار ليس منه عينٌ ولا أثر.

و أعلم أن قوله: **كُونُوا قِرَدَةً صِغَةً** الأمر و المراد به الأخبار بأنه تعالى جعلهم قردة على وجه يسهل عليه ولم يتعب به ولم ينصب:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (١).

قال الله تعالى: **أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** (٢).

قالوا و لم يكن هناك أمرٌ لأنه تعالى لا يأمر المعدوم و إنما هو أخبارٌ عن تسهيل الفعل.



وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
 الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي
 الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ
 ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا
 الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ
 سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ
 يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى
 اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى
 خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ
 يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا
 نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ
 فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا
 آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
 (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
 ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
 قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا
 عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
 آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا
 بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي

أَتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ
فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ
لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)

◀ اللغة

تَأْدُنْ عَلَى وزن تصُرف قيل هو من الأذان وهو الإعلام وقيل معناه،
حتم، وقيل، وعد، وقيل أخبر.

يَسُومُهُمْ، السُّومُ بفتح السين أصله الذَّهَابُ في إبتغاء الشَّيْءِ فهو لفظٌ مَرَكَّبٌ
من حيث المعنى من الذَّهَابِ والِإِبْتِغَاءِ.

قَطَعْنَاهُمْ، التَّقْطِيعُ التَّفْرِيقُ.

أُمَمًا جمع أُمَّة وهي الجماعة.

بَلَوْنَاهُمْ: الإِبْتِلَاءُ الإِخْتِبَارُ.

فَخَلَفَ، خَلَفَ ضِدُّ تَقَدَّمَ وسلف و المتأخر لقصور منزلته يقال له خلف.

الْأَدْنَى العاجل.

دَرَسُوا، أي قرؤوا.

نَتَقْنَا الْجَبَلَ أي رفعناه قال في المفردات نتق الشَّيْءُ جذبه ونزعه حتَّى

يسترخي كنتق عرى الحمل.

يَلْهَثُ يقال لهث الكلب إذا دلج لسانه من العطش.

◁ الإعراب

إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ يَتَعَلَّقُ بِتَأْدَنَ أَوْ يَبْعَثُ وَهُوَ الْأَوْجَهُ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي
الْأَرْضِ أَمَّا مَفْعُولُ ثَانٍ أَوْ حَالٌ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ صِفَةُ لَأَمٍ أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ دُونَ
ذَلِكَ ظَرْفٌ أَوْ خَبَرٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ نَعَتْ لَخَلْفٍ يَأْخُذُونَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي
وَرِثُوا وَدَرَسُوا مَعْطُوفٌ عَلَى وَرِثُوا وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ مَبْتَدَأٌ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ
الْمُضِلِّينَ خَبَرُهُ فَوْقَهُمْ ظَرْفٌ لَتَتَّقَنَا أَوْ حَالٌ مِنَ الْجَبَلِ مِنْ ظُهُورِهِمْ بَدَلٌ مِنْ
بَنِي آدَمَ أَنْ تَقُولُوا مَفْعُولٌ لَهُ أَيْ مَخَافَةٌ أَنْ تَقُولُوا وَكَذَلِكَ، أَوْ تَقُولُوا.

◁ التفسير

إِعلم أَنَّهُ تعالى لَمَّا ذَكَرَ بَعْضَ مَصَالِحِ أَعْمَالِ الْيَهُودِ وَقَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ ذَكَرَ فِي
هَذِهِ الْآيَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: وَإِذْ تَأْدَنَ رَبُّكَ أَنَّهُ حَكَمَ عَلَى الْيَهُودِ بِالذَّلِّ وَالصَّغَارِ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِأَنْعَمَ رَبِّهِمْ وَأَنْكَرُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوا الْبَاطِلَ
فَقَالَ تَعَالَى: وَإِذْ تَأْدَنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَيَّ وَإِذَا عَلمَ أَوْ
حَتَمَ أَوْ وَعَدَ عَلماءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقِيلَ أَنْبِيَاءُهُمْ، لَيَبْعَثَنَّ، أَيَّ لَيَسْلُطَنَّ عَلَى قَوْمِ
مُوسَى وَغَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسْؤُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى دَوَامِ الْعَذَابِ وَعَدَمِ انْقِطَاعِهِ عَنْهُمْ لَكُونَهُمْ مُسْتَحْقِقِينَ لَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي، عَلَيْهِمْ، عَائِدٌ إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى
جَمِيعاً، عَائِدٌ إِلَى نَسْلِ الْمَسْخُوحِينَ وَالَّذِينَ بَقُوا مِنْهُمْ، وَقِيلَ عَائِدٌ إِلَى يَهُودِ
قَرِيبَةً وَخَيْرَ وَالتَّضْيِيرِ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ وَالْجَمْعُ مَهْمَا أَمَكَنَّ أَوَّلَى مِنَ الطَّرْحِ
مُضَافاً إِلَى عَدَمِ وَجُودِ دَلِيلٍ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ، ثُمَّ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْمَبْعُوثِ
عَلَيْهِمْ، فَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ بَخْتُ نَصْرٍ وَمِنْ أَذْلَهُمْ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
وَقِيلَ الْمَجْجُوسُ كَانَتْ الْيَهُودُ تُؤَدِّي الْجِزْيَةَ إِلَيْهِمْ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا
رَسُولَ اللَّهِ فَضَرَبَهَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَزَالُ مُضْرُوبَةً عَلَيْهِمْ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.

وقيل العرب كانوا يجبون الخراج من اليهود وعلى هذا فالمراد، به سوء العذاب الجزية المضروبة عليهم، وقال بعضهم، الإخراج والإبعاد عن الوطن وكيف كان فهذه الآية تدل على أن لا دولة لليهود ولا عز، وأن الذل والصغار لا يفارقهم أبداً ثم أشار الله تعالى الى آتة سريع العقاب ومع ذلك غفور رحيم.

فالأول: بالنسبة الى المتمرد العاصي المصّر على عصيانه.

الثاني: بالنسبة الى التائب الزاجع من الذنب الى الطاعة والإنقياد فهو تعالى أشد المعاقبين وأرحم الراحمين.

أقول هذه الآية من معجزات القرآن وذلك لأن الله تعالى أخبر فيها بالذلل والصغار على اليهود الى يوم القيامة والإنصاف أنهم كانوا مستحقين لذلك ولذا ترى الله تعالى قد ذمهم في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغُضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ^(١)**

قال الله تعالى: **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا^(٢)**

قال الله تعالى: **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ، وَتَرَى**

كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(١).

قال الله تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^(٢).

وغيرها من الآيات التي أعرضنا عن ذكرها مخافة الأطناب بل لا نرى في الكتاب أمة أكثر ذمًا وقبحًا من اليهود وذلك لكفرهم وعنادهم وظلمهم ونفاقهم وبالجملة جميع الرذائل موجود فيهم فلا عهد لهم ولا ميثاق والامانة لهم رحم يأكلون الحرام ويرتكبون الخبائث ومن كان كذلك فهو مستحق للعذاب في الدارين وما ربك بظلام للعبيد ولذلك تراهم في زماننا هذا متشتتين متفرقين في الأرض ليس لهم اجتماع ولا حكومة مبغوضين لجميع الملل المختلفة في العالم منطويين من مجالسهم ومجامعهم وهكذا، والى هذا المعنى الأخير شاء الله تعالى بقوله بعد هذه الآية.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

والمعنى فرقناهم وشتتناهم في الأرض لئلا يجتمعوا في مكان واحد وكثر بذلك فسادهم وذلك لأن في اجتماع المفسدين خطر عظيم.

ثم أشار الله تعالى بأن منهم الصالحين ومنهم دون ذلك، وهذا لا ينافي أصل الحكم لأن الحكم يصدر باعتبار الأغلب والأكثر فلا ينافي خروج الأقل منه ولذلك يقال ما من عام إلا وقد خص ولا شك أن الصالحين كانوا منهم هم الذين آمنوا بالله ورسله وأما قوله: وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ فَقِيلَ أُنْمَا وَصَفَهُمْ بذلك لما كانوا عليه من قبل إرتدادهم عن دينهم وقبل كفرهم بربهم وذلك قبل أن يبعث فيهم عيسى عليه السلام وقوله: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ

في القرآن تفسير

جزء ٩

العهد

فقال بعض المفسرين معناه إختبرناهم بالرّخاء في العيش والخفض في الدنيا والدّعة والسّعة في الرّزق وهى الحسنات، ويعني بالسّيئات الشّدائد في الحبس والمصائب في الأنفس والأموال، لعلّهم يرجعون، أي لكي يرجعوا الى طاعته وينيبوا الى إمتثال أمره وذلك لأنّهم ولدوا على الفطرة وهى دين الحقّ الذي يلزمهم الرّجوع اليه.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى لِمَا قَالَ تَعَالَى: وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا

أي فرّقناهم في البلاد أفاد في هذه الآية أنّه خلف من بعدهم خلف، يعني أولاد الذين فرّقهم في الأرض فأدّ الخلف بسكون اللّام الأولاد، الواحد وجميع فيه سواء وأما المخلف بفتح اللّام البدل ولدأ كان أو غريباً وقال ابن الإعرابي، الخلف، بفتح اللّام الصّالح وبالجزم الطّالح، قال لبيد:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلفٍ كجلد الأجر

ومنه قيل لِلرّديّ من الكلام، خَلَفَ ومنه المثل السائر، سكت ألفاً ونطق خلفاً، فخلف في الدّم بالإسكان، وخلف بالفتح في المدح هذا هو المستعمل المشهور وقد يستعمل كلّ واحدٍ منهما موضع الآخر، قال حسّان بن الثّابت:

لنا القدم الأولى اليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع
وقال آخر:

أنّا وجدنا خلفاً ببس الخلف أغلق عنّا بابه ثمّ حلف
لا يدخل البواب إلّا من عرف عبداً اذا ما ناء بالحمل وقف

قال الفراء يقال أعطاك الله خلفاً ممّا ذهب لك فأنت خلف صدقٍ وخلف سوءٍ قال تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ^(١).

وأكثر ما يجيء في المَدَح بفتح اللَّام وفي الذَّم بسكونها، وكيف كان فمعنى الكلام هو أنه تعالى قد أخبر أنه خلف بعد القوم الذين كانوا فرَّقهم في الأرض، خَلَفَ وهم قوم نشأوا بعدهم من أولادهم ونسلهم و ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى.

قيل أنهم كانوا يرتشون على الأحكام ويحكمون بجورٍ وقال آخرون كانوا يرتشون ويحكمون بحق.

وقال بعضهم أنهم ورثوا كتاب الله فقرأوه و علموه وخالفوا حكمه وأتوا محارمه مع دراستهم له فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً ثم أخبر الله تعالى أنهم كانوا يأخذون عرض هذا الأدنى أي كانوا يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم عليها، ومعنى هذا الأدنى هذا العاجل وَ يَقُولُونَ سَيُعْقَرُ لَنَا الظَّاهِرُ أنهم كانوا يَتَمَنُّونَ المغفرة من غير توبةٍ وليس هذا منهم إلا تَمَنياً للأباطيل كما:

قال الله تعالى: قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ^(١).

وَ إِن يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ والعرض متاع الدنيا، بفتح الراء بإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة والعجب من قولهم: سَيُعْقَرُ لَنَا وأنهم بحالٍ إذا أمكنتهم ثانية إرتكبوها فقطعوا بإغترارهم بالمغفرة وهم مصرّون على ما كانوا عليه من غير توبةٍ ولا ندامة.

قال القرطبي في هذا المقام ما هذا لفظه:

قلتُ وهذا الوصف الذي ذمَّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا.

أسند الدارمي أبو محمد حدثنا محمد بن المبارك حدثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكنى أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال سبيلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرأونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أعمالهم طمع لا يخالطه خوف أن قصرُوا قالوا سنبلي وأن أساؤا قالوا سيغفر لنا أنا لا نشرك بالله شيئاً انتهى.

أقول ما نقله القرطبي عن معاذ بن جبل حق لا مرية فيه إلا أن قوله سبيلى القرآن في صدور أقوام الخ يظهر منه تبرة شخص معاذ عن الحكم الذي حكم به وعدم شموله له نفسه لأنه قال في صدور أقوام ولم يقل في صدورنا الآن كذلك مع أن الأخلاف ورثوا ذلك من الأسلاف فلو كان معاذ وأمثاله في صدر الإسلام عاملين بالقرآن ولم يلبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب لم تكن الأمة بعدهم موصوفين بهذه الصفة فهم كانوا في ذلك إمامنا ونحن نقندي بهم وأن شئت قلت أنهم كانوا بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم يأخذون عرض هذا الأدنى من الغاصبين لخلافة الرسول لشدة حرصهم على الدنيا والفرق بينهم وبين اليهود هو أن علماء اليهود كانوا يرتشون على الأحكام وعلماء الإسلام كانوا يرتشون على تأييد الخلافة المغصوبة فهما مشتركان في أخذهم عرض هذا الأدنى والعجب كل العجب من معاذ بن جبل حيث قال ما قال لو صح الثقل عنه، وهو في رأس المشيدين لأساس الخلافة بعد الرسول وإنتراعها من أهل البيت الذين طهرهم الله تطهيراً مضافاً إلى التصوص الواردة عن النبي في هذا الباب ألم يقرأ معاذ:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاغِبُونَ^(١)**

وغيرها من الآيات. ألم يسمع قول النبي من كُنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه و غيره من النصوص.

وقد قال الله تعالى: **وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خُذُواْ وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَأْتُوهُ** (١).

فإن قرأ الآيات وسمع النصوص الواردة كما هو كذلك فما جوابه غداً يوم القيامة عند الله.

وقد روي في الآثار المروية عن أهل البيت أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام بعد ما غضب أبوبكر حقها أعني به فداك، دخلت على معاذ بن جبل وطلبت منه النصرة فلم يجبهها ولم ينصرها، مع أنّه كان قادراً على نصرتها، فإذا كان كذلك فالسكوت له أولى.

ثم قال تعالى على سبيل التوبيخ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمُ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** الإستفهام للإنكار والمعنى بلى، قد أخذ عليهم الميثاق قيل المراد بالكتاب التوراة و عليه فالمعنى ألم يؤخذ على اليهود ميثاق الكتاب، والحقّ الحقيقي بالإتباع هو أنّ هذا الميثاق قد أخذ به في جميع الكتب السماوية إلا أنّ مورد الآية خاصّ بالتوراة وقوم يهود وقد ثبت أنّ خصوص المورد لا ينافي عموم الحكم إذا كان هناك إشترك في التكليف ولا شك أنّ الحقّ والتقول به والعمل به أمرٌ مشترك بين جميع الأمم و عليه فالمراد بالكتاب جميع الكتب السماوية في الواقع وأن كان المراد به التوراة في الظاهر.

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

ففيه إشارة الى أنّ أهل الكتاب لم يفوا بعهدهم و ميثاقهم عن علم و عمد ذلك لقوله: **وَدَرَسُوا مَا فِيهِ** أي قرأوا ما فيه و درسوه فضيّعوه وتركوا العمل

به والدّرس تكررُ الشّيء يقال درس الكتاب اذا كرّر قراءته و من المعلوم أنّ الدّرس بهذا المعنى يوجب العلم لأنّ العامّي الجاهل لا يقدر على درس الكتاب ونقض العهد و الميثاق من العالم أقيح و أشنع منه من الجاهل، ثمّ قال: وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ المعاصي و يحذرون عقابه و قوله: أَفَلَا تَعْقِلُونَ خطاب لهم و لجميع العقلاء، فمن قرأ بالياء معناه أفلا تعقل هذه الطائفة الّتي تقدّم ذكرها و هم الذين كانوا يأخذون هذا العرض الأدنى على أحكامهم و من قرأ بالثاء معناه، قل لهم، أفلا تعقلون و المقصود أنّ العاقل لا يترك الآخرة لأجل الدّنيا لأنّ الدّنيا دار مجاز و الآخرة دار قرار و بقاء و الباقي خيرٌ من الفاني إلّا أنّ العاقل قليل جدّاً.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ

الظاهر أنّ المراد بالكتاب التّوراة و حمل اللفظ على العموم أولى و معنى التمسك به هو الأخذ بما فيه من الحلال و الحرام و العمل به فالمعنى الذين يعملون بما في الكتاب و يقيمون الصّلاة خصّها بالذكر مع أنّها داخله في التمسك به لجلالة موقعها و شدّة تأكدها و عظم شأنها ثمّ قال تعالى: إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ كما هو مقتضى العدل و في تخصيص المصلحين بالذكر إشارة الى نكته و هي أنّ من كان غير مؤمن و أصلح فأجره ساقط لأنّه يوقعه على خلاف الوجه الذي يستحقّ به الثّواب هكذا قيل و الإنصاف أنّ الكلام لا يدلّ عليه و ذلك لأنّ الله تعالى يقول: إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ مؤمناً كان أو غيره فالكلام يحمل على معناه العام و تخصيصه بالمؤمن يحتاج الى دليل و اذ ليس فليس و يؤيده قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ^(١) مضافاً الى أنّ العدل أيضاً يقتضي العموم، فقوله فأجره ساقط، ساقطٌ من أصله.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

التَّق، بفتح التّون وسكون التاء والقاف الرفع والناتق الرفع، هذا خطاب لنبيّنا محمد ﷺ والمعنى، أذكر يا محمد الوقت الذي نتقنا الجبل أي رفعناه فوقهم كأنه ظلة.

وقال بعضهم، التَّق، الجذب بشدّة وفسره بعضهم بغايته وهو القطع وتقول العرب نتقت الزّبدة من فم القربة، والناتق الرّحم التي تقلع الولد من الرّجل قال النّابغة:

لم يحرموا حسن الفداء وأمّهم
وفي الحديث عليكم بزواج الأبقار فأنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً و
أرضى باليسير، وعليه فالمعنى وأذكر يا محمد الوقت الذي نتقنا الجبل، أي جذبناه وقلعناه من الأرض وجعلناه فوقهم كأنه ظلة، وقيل فوقهم، حال مقدّرة والعامل فيها محذوف وتقديره كأننا فوقهم، والظّلة، بضمّ الظاء ما أظل من سقيفة أو سحاب، فينبغي أن يحمل التشبيه على أنّه بظلة مخصوصة لأنّه اذا كان كلّ ما أظلّ يسمّى ظلة فالجبل فوقهم صار ظلةً واذا صار ظلةً فكيف يشبه بظلةً فالمعنى كأنه حالة إرتفاعه عليهم ظلةً، من الغمام وهى الظّلة التي ليست تحتها عمدٌ بل إمساكها بالقدرة الإلهية وأن كانت أجراماً، بخلاف الظّلة الأرضية فأنها لا تكون إلا على عمدٍ فلمّا دانت هذه الظّلة الأرضية فوقهم بلا عمدٍ شبّهت بظّلة الغمام التي ليست بلا عمدٍ.

قيل في سبب رفع الجبل عليهم أنّ موسى عليه السلام لما أتاهم بالتّوراة وقفوا على ما فيها من الأحكام والحدود والتّشديد في العبادة أبوا أن يقبلوا ذلك وأن يتمسكوا به وأن يعملوا بما فيه وقالوا أنّ ذلك يغلظ علينا فرفع الله الجبل كالظّلة عليهم وعرفهم موسى أنّهم أن لم يقبلوا التّوراة ولم يعلموا بما فيها وقع عليهم فأخذوا بالتّوراة وقبلوا ما فيها وصرف الله نزول الجبل عنهم.

قال ابن عباس فلذلك صارت اليهود تسجد على قرنها الأيسر لأنهم سجدوا كذلك ينظرون الى الجبل وكأنها سجدة نصبها الله وأتما إئتخذت النصارى المشرق قبله لأن مريم عليها السلام إئتخذت مكاناً شرقياً حين حملت بعيسى.

وقال مجاهد معناه، إن أخذتموه بجذ وحسن نية وإلا ألقى الجبل عليكم أبو مسلم أن رفع الجبل كان ليظلمهم من الغمام.

أقول ما ذكروه لا يوافق الأصول العقلية التي لا تقبل التخصيص بقوم دون قوم و شريعة دون شريعة وذلك لأن العبد مختار في طاعته و عبادته و الجبر محكوم عقلاً في جميع الملل و الأقوام و في كل عصر و زمان و هذا مما لا خلاف فيه كان كذلك فكيف قال موسى عليه السلام لقومه ما قال و عرفهم إن لم يقبلوا التوراة وقع عليهم، و لازم ذلك أنهم كانوا مجبورين بأخذها و العمل بما فيها، و هذا ينافي الاختيار.

إن قلت لعل سلب الاختيار عن العبد في عبادته كان جائزاً قبل الإسلام و خصوصاً في شريعة موسى عليه السلام.

قلت كلا لأن الجبر محكوم عقلاً و لا تخصيص في العقلیات.

أن قلت فما معنى الكلام.

قلت معناه أن الله تعالى لما رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة خافوا منه و ظنوا أنه واقع بهم فالخوف كان منهم لا أن الله تعالى أخافهم بذلك و لعل رفع الجبل فوقهم كان لمصلحة أخرى غير الاخافة و محصل الكلام أن الكلام لا يدل على ما ذكروه مضافاً الى أنه خلاف حكم العقل.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

أي خذوا التوراة بقوة أي بجذ و حسن نية و اذكروا ما فيه، أي و أعمالوا بما فيه من الأحكام تركوها لكي تتقون.

وقيل معناه وأذكروا ما فيها من العهود والمواثيق وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي
آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا
بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

إِعلم أَنَّ البحث في هذه الآية يقع في مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأهل الكوفة، ذرّيتهم على التّوحيد وقرأ
الباقون ذريّاتهم، على الجمع وقرأ أبو عمرو، وأن يقولوا، أو يقولوا بالياء فيهما
والباقون بالتّاء.

المسألة الثانية: الذرية قد يكون جمعاً نحو قوله تعالى: وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ
بَعْدِهِمْ وقوله: ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ^(١) وقد يكون واحداً كقوله تعالى: هَبْ
لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً^(٢) قالوا فَمَنْ أفرد جعله إسماً واستغنى عن جمعه
بوقوعه على الجمع، ومن جَمَعَ قال لأنّه أن كان واقعاً على الواحد فلا شك
في جواز جمعه وأن كان جمعاً فهو أيضاً حسن لأنّه قد وردت الجموع
المكسرة جمعت نحو الطُّرقات وصواحبات يوسف.

وأما وزن، ذرية، فقليل أنّه معلولة، من الذّر فأبدلت من الرّاء التي هي لام
الفعل الأخيرة، ياء، كما أبدلت من، دهريّة، يدلك على البدل فيه قولهم،
دهرورة ويحتمل أن تكون فعلية منه فأبدلت من الرّاء الياء كما تبدل من هذه
الحروف في التّضعيف وأن وقع فيها الفصل.

ويحتمل، أن تكون، فعلية، نسبته الى الذّر وأبدلت الفتحة منها ضمة كما
أبدلوا في الإضافة الى الدّهري فيقال في الدّهر دهري وفي سهل سهلي.

ويحتمل، أن تكون، فعلية، من ذرأ الله الخلق، أجمعوا على تخفيفها كما
أجمعوا على تخفيف البرية.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

الجزء ٩

ويحتمل، أن تكون من قوله: **تَذَرُوهُ الْوَيْحُ**^(١) أبدلت من الواو الياء لوقوع ياء قبلها.

قال الزَّاغِب في المفردات و الذَّرِيَّة أصْلها الصَّغار من الأولاد وأن كان يقع على الصَّغار والكبار معاً في التَّعارف ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع الى أن قال وفي الذَّرِيَّة ثلاثة أقوال:

قيل هو من ذرأ الله الخلق فترك همزة نحو رَوِيَّة و بَرِيَّة.

وقيل أصله ذروية، وقيل هو فعلية من الذَّر نحو قمريَّة إنتهى كلامه.

المسئلة الثالثة: اختلفوا في معنى هذا الأخذ فيه وهذا الإشهاد فليل أراد بذلك البالغين من بني آدم وإخراجه إياهم ذرية قرنأ بعد قرن وعصرأ بعد عصر وإشهاده إياهم على أنفسهم تبليغه إياهم وإكمالهم عقولهم وما نصب فيها من الأدلة الدالة بأنهم مصنوعون وأن المصنوع لا بد له من صانع وبما أشهدهم ممأ يحدث فيهم من الزيادة والنقصان والآلام والأمراض الدال بجميع ذلك على أن لهم خالقأ رازقأ تجب معرفته والقيام بشكره وما أخطر بقلوبهم من تأكيد ذلك والحث على الفكر فيه ثم إرساله الرسل وإنزاله الكتب لئلا يقولوا إذا صاروا الى العذاب إنا كنا عن هذا غافلين لم ينبه علينا ولم نقم لنا حجة عليه ولم تكمل عقولنا فنفكر فيه أو يقول قوم منهم، إنما أشرك آبأونا حين بلغوا وعقلوا فأمأ نحن فكنا أطفالأ لا نعقل ولا نصلح للفكر والنظر والتدبير، وقال الجبائي أخذه ذرياتهم من ظهورهم أنه خلقهم نطفأ من ظهور الآباء ثم خلقهم في أرحام الأمهات ثم نقلهم من خلقه الى خلقه وصورة الى صورة ثم صاروا حيوانأ بأن أحيأهم الله في الأرحام وأتم خلقهم ثم أخرجهم من الأرحام بالولادة، وقوله: **وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ** يعني عند البلوغ وكما العقل وعندما عرفوا ربهم فقال لهم على لسان بعض أنبيائه، **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**

فقالوا: بلى شَهِدْنَا بِذلك و أقررنا به لأنهم كانوا بالله عارفين أنه ربهم انتهى كلام التَّيَّان في المقام^(١).

و قال صاحب الكشف من ظهورهم، بدل من بني آدم بدل البعض من الكل و معنى أخذ ذريَّاتهم عن ظهورهم إخراجهم من أصلابهم نسلاً و إشهدهم على أنفسهم و قوله: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شَهِدْنَا من باب التَّمثِيل و التَّخْيِيل و معنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته و وحدانيته و شهدت بها عقولهم و بصائرهم التي ركبها فيهم و جعلها مميزة بين الضلالة و الهدى فإنه أشهدهم على أنفسهم و قرَّزهم و قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ وَكَانَهُمْ قَالُوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا و أقررنا بواحدانيك و باب التَّمثِيل واسع في كلام الله و رسوله ﷺ و في كلام العرب و نظيره.

قال الله تعالى: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٢).

قال الله تعالى: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ^(٣).

و معلوم أنه لا قول ثم و أنما هو تمثيل و تصوير للمعنى انتهى كلامه. و قال القرطبي، قال قوم معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض، قالوا و معنى أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ دَلَّهُمْ بخلقه على توحيده لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، أي قال فقام الأَشْهاد عليهم و الإقرار منهم، الى أن قال، و قيل أنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد و أنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها انتهى كلامه.

ثم قال، قلت و في الحديث عن النبي ﷺ غير هذين القولين و أنه تعالى

أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام وروي مالك في موصلته أن عمر بن الخطاب سأل عن هذه الآية، وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ إلى قوله: غَافِلِينَ فقال عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنها فقال صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون.

فقال رجل ففيم العمل قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار.

قال أبو عمرو هذا حديث منقطع الأسناد لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر فيه يحيى بن معين مسلم بن يسار يعرف بينه وبين عمر نعيم ابن ربيعة ذكره النسائي ونعيم غير معروف بحمل العلم لكن معنى هذا الحديث قد صَحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وغيرهم.

روي الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل رجل منهم وبيصاً من نورهم (من نور) ثم عرضهم على آدم فقال يا رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داوود فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما إنقضت عُمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داوود قال فجحد آدم فجذت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته، في غير الترمذي.

فحينئذٍ أمر بالكتاب والشهود وفي رواية فرأى فيهم الضعيف والغني والفقر والذليل والمبتلى والصحيح فقال له آدم يا رب ما هذا إلا سويت بينهم قال أردت أن أشكر.

وروي عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس وجعل لهم عقولاً كمنلة سليمان وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره فأقرؤا بذلك ولتزموه وأعلمهم بأنه سيبعث اليهم الرسل فشهد بعضهم على بعض قال أبي بن كعب وأشهد عليهم السموات السبع ما من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد. ثم قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه عنه وإختلف في الموضع الذي أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال.

فقال ابن عباس ببطن نعمان واد إلى جنب عرفة.

وروي عنه أن ذلك برهبا، أرض بالهند الذي هبط فيه آدم وقال يحيى بن سلام قال ابن عباس في هذه الآية أهبط الله آدم بالهند ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ثم قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا قال يحيى قال الحسن ثم أعادهم في صلب آدم ﷺ.

وقال الكلبي بين مكة والطائف، وقال السدي في السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ فقال لهم أدخلوا الجنة برحمتي، وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سوداء وقال لهم أدخلوا النار ولا أبالي قال ابن جريح خرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء وكل نفس مخلوقة للنار سوداء.

ثم نقل القرطبي عن ابن العربي أنه قال، فإن قيل كيف يجوز أن يعذب الخلق وهم لم يذنبوا أوعاقبهم على ما أرادهم منهم وكتبه عليهم وساقهم اليه. قلنا ومن أين يمتنع ذلك أعقلاً أم شرعاً.

فإن قيل لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك.

قلنا لأن فوقه أمرٌ يأمره وناهٍ ينهاه وربنا تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق ولا تُحمل أفعال العباد على أفعال الإله وبالحقيقة الأفعال كلها لله جلّ جلاله والخلق بأجمعهم له صرّفهم كيف شاء وحكم بينهم بما أراد انتهى ما نقله القرطبي في المقام في تفسير الآية. وأما نقلنا ما نقلناه بطوله وتفصيله مع أنه لا فائدة فيه أصلاً لأنه أشبه شيء بالموهومات والباطيل التي لا ينبغي الالتفات اليه.

لنكتته وهي أن تبكي على غربة الإسلام والقرآن وذلك لأن القرآن كلام الله بلا شك ولا إرتياب من أحدٍ من المسلمين فيه وإذا كان كذلك فينبغي أن يُفسر كلامه من طريق الرسول وأهل بيته الطاهرين لا من طريق مسلم بن يسار وعمر وأبي هريرة وابن العربي وأمثالهم فما نقله القرطبي عنهم في تفسير كلام الله لا يوافقه العقل السليم ولا يساعده النقل الصحيح بل هو بكلام المجانين أشبه وأيّ عقل يقبل أن الله مسح ظهر آدم بيمينه أو بيساره واستخرج منهما ذريةً للجنة والنار، أو مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ثم جعل بين عيني كل رجلٍ منهم وبيصاً إلى آخر ما قال.

وما معنى هذه الكلمات التي لا معنى لها، وكيف جعل لهم عقولاً كنملة سليمان.

وأما ما نقله عن ابن العربي فهو أيضاً من المنحيلات والموهومات وهو في ذلك من أساتذة الفن كما لا يخفى على من مارس كتبه كالفتوحات والنصوص وغيرهما وأن أراد به غير هذا الرجل المعهود فهو أعلم بما قال.

والعجب أن الرازي وغيره من مفسري العامة نقلوا في تفاسيرهم أمثال هذه الآثار التي لا نعلم من أي شخص صدرت وتمسكوا بها في تفسير الآية ولم يعلموا أن كتاب الله لا يُفسر بالموهومات والموضوعات قال رسول الله ﷺ من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار أعاذنا الله منه.

المسألة الرابعة: في تفسير الآية على مسلك الخاصة قال الطبرسي رحمته الله في المجمع إختلف العلماء من العام والخاص في معنى الآية وفي هذا الإخراج والإشهاد على وجوه:

أحدها: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه كهيئة الذر فعرضهم على آدم أني أخذ على ذريتك ميثاقهم أن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً وعلى أرزاقهم قال ألسنت برّكم.

قالوا بلى شهدنا أنك ربنا فقال للملائكة أشهدوا فقالوا شهدنا وقيل أن الله جعلهم فهماء عقلاء سمعون خطابه ويفهمونه ثم ردهم إلى صلب آدم والناس محبوسون بأجمعهم حتى يخرج كل من أخرجه في ذلك الوقت وكل من ثبت على الإسلام فهو على الفطرة الأولى ومن كفر وجحد فقد تغير على الفطرة الأولى عن جماعة من المفسرين ورووا في ذلك أثاراً بعضها مرفوعة وبعضها موقوفة يجعلونها تأويلاً للآية ورد المحققون هذا التأويل وقالوا أنه مما يشهد القرآن بخلافه لأنه تعالى قال واذ أخذ ربك من بني آدم من أصلهم ما بهذبن من ظهورهم ولم يقل من ظهوره وقال ذريتهم ولم يقل ذريته ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لثلاثاً يقولوا أنهم كانوا عن ذلك غافلين أو يقولوا أنما أشرك آبائنا وأنهم نشأوا على دينهم وهذا يقتضي أن يكون لهم آباء مشركون فلا يتناول الظاهر ولد آدم لصلبه وأيضاً فإن هذه الذرية المستخرجة من صلب آدم لا يخلو إما أن جعلهم الله عقلاء أو لم يجعلهم كذلك فإن لم يجعلهم عقلاء فلا يصح أن يعرفوا التوحيد وأن يفهموا خطاب الله وأن جعلهم عقلاء وأخذ عليهم الميثاق فيجب أن يتذكروا ذلك ولا ينسوه لأن أخذ الميثاق لا يكون حجة على المأخوذ عليه إلا أن يكون ذاكرة له فيجب أن نذكر نحن الميثاق ولأنه لا يجوز أن ينسى الجمع الكثير والجَم الغفير من العقلاء شيئاً كانوا عرفوه وميزوه حتى لا يذكره واحد منهم وأن طال العهد.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَعْرِفُونَ كَثِيرًا مِّنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا وَلَوْ جَازَ أَنْ يَنْسُوا ذَلِكَ مَعَ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَىٰ كَلَّفَ الْخَلْقَ فِيمَا مَضَىٰ ثُمَّ أَعَادَهُمْ إِمَّا لِيُشَبِّهَهُمْ وَأَمَّا لِيُعَاقِبَهُمْ وَنَسُوا ذَلِكَ وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى التَّجَاهُلِ وَإِلَى صَحَّةِ مَذْهَبِ التَّنَاسُخِيَّةِ وَحَكِي عَنْ عَلِيِّ بْنِ عِيسَىٰ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْأَخْشِيدَانَةِ أَنَّهُ جَوَّزَ أَنْ يَكُونَ خَبَرُ الذَّرِّ صَحِيحًا غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ لَيْسَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى ذَلِكَ وَيَكُونُ فَاغْتِنَاهُ أَنَّهُ أَمَّا فَعَلْ لِيَجْزُوا عَلَى الْأَوْصَافِ الْكَرِيمَةِ فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ وَالْإِقْرَارِ بِاللَّهِ بِالرَّبُّوبِيَّةِ كَمَا رُوِيَ أَنَّهُمْ وَلَدُوا عَلَى الْفِطْرَةِ.

الوجه الثاني: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَخْرَجَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ ثُمَّ رَفَّاهُمْ دَرَجَةً دَرَجَةً عُلُقَةً ثُمَّ مَضَغَهُ ثُمَّ أَنْشَأَ كُلًّا مِنْهُمْ بَشَرًا سَوِيًّا ثُمَّ حَيًّا مَكْلَفًا وَأَرَاهُمْ أَثَارَ صَنْعِهِ وَمَكْنَهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ دَلَالَتِهِ حَتَّىٰ كَانَتْ أَشْهَدَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ مَعْنَى أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ دَلَّهِمْ بِخَلْقِهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَأَمَّا أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ لِمَا جَعَلَ فِي عَقُولِهِمْ مِنَ الْأَدَلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرَكِبَ فِيهِمْ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِهِ وَغَرَائِبِ صَنْعَتِهِ فَكَانَتْ سَبَّحَانَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَشْهَدِ لَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا فِي مَشَاهِدَةِ ذَلِكَ وَظُهُورِهِ فِيهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ وَتَعَذَّرَ إِمْتِنَاعُهُمْ مَعَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمُعْتَرِفِ الْمَقْرُ وَأَنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِشْهَادٌ صَوْرَةً وَحَقِيقَةً وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتُنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتُنِينَا طَائِعِينَ وَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ سَبَّحَانَهُ قَوْلٌ وَلَا مِنْهُمَا جَوَابُ الْخ.

وَالْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَمَّا عَنِي بِذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ خَلَقَهُمْ وَأَكْمَلَ عَقُولَهُمْ وَقَرَّرَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ بِمَعْرِفَتِهِ وَبِمَا يَجِبُ مِنْ طَاعَتِهِ فَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ لَثَلَا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ فَتَبَّهِ سَبَّحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعَاقِبُ مَنْ لَهُ عَذْرُوحَةٌ مِنْهُ لَخَلْقِهِ وَكَرَمًا وَهَذَا يَكُونُ فِي قَوْمٍ خَاصٍّ مِنْ بَنِي آدَمَ فَقَدْ خَرَجُوا مِنْ ذَلِكَ وَهَذَا إِخْتِيَارُ الْجَبَائِثِ وَالْقَاضِي، وَ

قوله شهدنا حكاية عن قول الملائكة أنهم يقولون ذلك انتهى ما ذكره الطبرسي في المقام ولم يحكم بشيء دلّ على إختياره من الأقوال التي نقلها وهو دليل أو كاشف عن عدم إرتضاء بها والله أعلم.

أقول أقوال المفسرين من الخاصة في المقام متقاربة كما أن أراء العامة و أقوالهم في تفاسيرهم كذلك لا نحتاج الى نقل كلماتهم أكثر ممّا نقلناه عنهم و من أراد الوقوف على جميع الأقوال فعليه بمراجعة التفاسير.

والذي حصل لنا في المقام من كلماتهم أنهم عجزوا عن تفسير الآية لأنها من المشكلات حقاً و أنما قالوا ما قالوا على أساس الظنّ و الإحتمال و أنت تعلم أن الظن لا يغني من الحق شيئاً و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا بدّ لنا في تفسيرها من التمسك بالعترة التي جعلها رسول الله عدلاً للقرآن فقال أتّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً.

روي الكليني رحمته الله بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له لم يسمّى أمير المؤمنين قال عليه السلام سمّاه هكذا أنزل في كتابه **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** وأنّ محمداً رسولي وأنّ علياً أمير المؤمنين انتهى.

وأسناده عن داود الرقي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: لما أراد الله أن يخلق الخلق نثرهم بين يديه فقال لهم من ربكم فأول من نطق رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام فقالوا أنت ربنا فحملهم العلم والدين. ثم قال للملائكة هؤلاء حملة ديني و علمي و أمنائي في خلقي و هم المسؤولون ثم قال لبني آدم اقرّوا بالله بالرّبوبية و لهؤلاء النّفّر بالولاية والطّاعة فقالوا ربنا أقررنا فقال الله للملائكة أشهدوا فقال الملائكة شهدنا قال عليّ عليه السلام أن لا

تقولوا غداً إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آبائنا يا دود ولايتنا مؤكدة عليهم في الميثاق انتهت.

وعن تفسير علي ابن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام كيف أجابوا وهم ذر، قال عليه السلام جعل فيهم ما اذا سألهم أجابوه يعني في الميثاق انتهت.

وعنه أيضاً بأسناده عن زرارة قال أن رجلاً سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ فَقَالَ عَلَيْهِ السلام وأبوه يسمع حدثني أبي أن الله عز وجل قبض قبضة من تراب التربة التي خلق الله منها آدم فصَّب عليها الماء العذب الفرات ثم تركها أربعين صباحاً ثم صبَّ عليها الماء المالح الأجاج فتركها أربعين صباحاً فلما إختمرت الطينة أخذها فعرَّكها عركاً شديداً فخرجوا كالذر من يمينه وشماله وأمرهم جميعاً أن يقعوا في النار فدخل أصحاب اليمين فصارت عليهم برداً وسلاماً وأبى أصحاب الشمال أن يدخلوها انتهت.

محمد ابن يحيى بأسناده عن بكير ابن أعين قال كان أبو جعفر عليه السلام يقول أن الله أخذ ميثاقنا (ميثاق شيعتنا) بالولاية لنا وهم ذر يوم أخذ الميثاق على الذر بالإقرار له بالربوبية ومحمد صلى الله عليه وآله بالنبوّة وعرض الله عز وجل على محمد أمته في الطين وهم أظلة وخلقهم من الطينة التي خلق منها آدم وخلق الله أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفي عام وعرضهم عليه وعرفهم علياً ونحن نعرفهم في لحن القول إنتهت.

عده من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام أن بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بأي شيء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم قال عليه السلام:

أَتَيْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِرَبِّي وَأَوَّلَ مَنْ أَجَابَ حِينَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى! فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ نَبِيِّي قَالَ، بَلَى فَسَبَقْتَهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِاللَّهِ إِنَّتَهُي.

وَفِي كِتَابِ عِلَلِ الشَّرَائِعِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخَذَ مِيثَاقَ الْعِبَادِ وَهُمْ أَظْلَمُ قَبْلَ الْمِيلَادِ فَمَا تَعَارَفَ مِنَ الْأَرْوَاحِ إِنْتَلَفَ تَنَازَرُ مِنْهَا إِنْخَلَفَ إِنَّتَهُي.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ قَالًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَبَتَتِ الْمَعْرِفَةَ وَنَسُوا الْوَقْتَ وَسَيَذَكُرُونَهُ يَوْمًا وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَدْرَ أَحَدٌ مِنْ خَالِقِهِ وَمَنْ رَازَقَهُ إِنَّتَهُي.

والأحاديث بهذا المضمون كثيرة وفيما ذكرناه كفاية^(١).

أَقُولُ الْإِنْصَافُ أَنَّ الْآيَةَ الشَّرِيفَةَ مِنْ مَشْكَلَاتِ الْآيَاتِ كَمَا اعْتَرَفَ بِهِ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَأَمَّا الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي الْبَابِ مَعَ كَثَرَتِهَا أَيْضًا مِنَ الْمَشْكَلَاتِ كَمَا عَرَفْتُ وَجْهَ الْإِشْكَالِ هُوَ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ عَالَمِ الذَّرِّ وَالْأَخْبَارِ أَيْضًا نَاطِقَةً بِهِ وَحَيْثُ أَنَّ عَقْلَنَا عَاجِزٌ عَنْ دَرْكِ هَذِهِ الْأُمُورِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ أَلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا^(٢) تَرَى الْمُفَسِّرِينَ تَشَبُّهُوا فِي حَلِّ مَعْضَلَاتِ الْآيَةِ بِأَنْوَاعِ التَّوِيلَاتِ الْبَارِدَةِ وَالِاسْتِخْرَاجَاتِ الظَّنِّيَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهَا عَقْلًا وَنَقْلًا وَأَصْلُ الْإِشْكَالِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَيْفَ أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذَرِّيَّتَهُمُ الْآيَةَ وَالْمَفْرُوضَ عَدَمَ وَجُودِهِمْ وَمِنْ لَا وَجُودَ لَهُ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا سَمْعَ لَهُ وَهَكَذَا وَمِنْ لَا يَعْقِلُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَفْهَمُ فَكَيْفَ يَصِيرُ مَخَاطَبًا بِالْخَطَابِ ثُمَّ كَيْفَ يَقُولُ، بَلَى فِي جَوَابِ قَوْلِهِ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي صَيَّرَهُمْ أَيُّ الْمُفَسِّرِينَ حَيَارَى حَتَّى لَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ، قَالَ السَّيِّدُ الْمُرْتَضَى رحمته الله فِي آمَالِهِ مَا هَذَا لَفْظُهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَإِذْ أَخَذَ

رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَى قَوْلِهِ: أَقْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُتَعَبِّلُونَ وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ وَلَا فِطْنَةَ عِنْدَهُ أَنَّ تَأْوِيلَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِسْتَخْرَجَ مِنْ ظَهْوَرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمِيعَ ذُرِّيَّتِهِ وَهُمْ فِي خَلْقِ الدَّرَفَرِّزِهِمْ بِمَعْرِفَتِهِ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَهَذَا التَّأْوِيلُ مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ يَبْطُلُهُ وَيَحِيلُهُ مِمَّا يَشْهَدُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ بِخِلَافِهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ آدَمَ وَقَالَ مِنْ ظَهْوَرِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ ظَهْوَرِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ ذُرِّيَّتِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لثَلَا يَقُولَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا عَنْ ذَلِكَ غَافِلِينَ أَوْ يَعْتَدِرُوا بِشَرِكِ آبَائِهِمْ وَأَنَّهُمْ نَشْتُوا عَلَى دِينِهِمْ وَسَتَّهِمْ يَقْتَضِي أَنَّ الْآيَةَ لَمْ تَتَنَاوَلَ وَلَدَ آدَمَ لَصْلَبِهِ وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَنَاوَلَتْ مِنْ كَانَ لَهُ آبَاءُ مُشْرِكُونَ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إِخْتِصَاصِهَا بِبَعْضِ الذَّرِيَّةِ مِنْ مَنْ بَنَى آدَمَ فَهَذِهِ شَهَادَةُ الظَّاهِرِ بِبَطْلَانِ.

تَأْوِيلُهُمْ فَأَمَّا شَهَادَةُ الْعُقُولِ فَمِنْ حَيْثُ لَا تَخْلُو هَذِهِ الذَّرِيَّةُ الَّتِي إِسْتَخْرَجَتْ مِنْ ظَهْوَرِ آدَمَ فَخَوِطُبَتْ وَقَرَّرَتْ مَنْ أَنْ تَكُونَ كَامِلَةً الْعُقُولِ مُسْتَوْفِيَةً لَشُرُوطِ التَّكْلِيفِ أَوْ لَا تَكُونَ كَذَلِكَ فَإِنْ كَانَتْ بِالْصَّفَةِ الْأُولَى وَجِبَ أَنْ يَذْكَرَ هَؤُلَاءُ بَعْدَ خَلْقِهِمْ وَإِنْشَائِهِمْ وَإِكْمَالِ عُقُولِهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَمَا قَرَّرُوا بِهِ وَأَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِ لِأَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَنْسَى مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى وَأَنْ بَعْدَ الْعَهْدِ وَطَالَ الزَّمَانُ وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَصَرَّفَ أَحَدُنَا فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ وَهُوَ عَاقِلٌ كَامِلٌ فَيَنْسَى مَعَ بَعْدَ الْعَهْدِ جَمِيعَ تَصَرُّفِهِ الْمَتَقَدِّمِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ وَلَيْسَ أَيْضًا لِتَخَلُّلِ الْمَوْتِ بَيْنَ الْحَالَيْنِ تَأْثِيرٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ تَخَلُّلُ الْمَوْتِ يَزِيلُ الذِّكْرَ لَكَانَ تَخَلُّلُ النَّوْمِ وَالسَّكْرِ وَالْجُنُونِ وَالْإِغْمَاءِ بَيْنَ أَحْوَالِ الْعُقَلَاءِ يَزِيلُ ذِكْرَهُمْ لَمَّا مَضَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ لِأَنَّ سَائِرَ مَا عَدَدْنَاهُ مِمَّا يَنْفِي الْعُلُومَ يَجْرِي مَجْرَى الْمَوْتِ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا جَازَ فِي الْعَاقِلِ الْكَامِلِ أَنْ يَنْسَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي حَالِ الطَّفُولِيَّةِ جَازَ مَا ذَكَرْنَاهُ وَذَلِكَ إِنَّمَا أَوْجَبْنَا ذِكْرَ الْعُقَلَاءِ لَمَّا أَدَّعَوْهُ إِذَا كَمَلَتْ عُقُولُهُمْ مِنْ حَيْثُ جَرَى لَهُمْ وَهُمْ كَامِلُوا الْعُقُولِ وَلَوْ كَانُوا بِصِفَةِ الْأَطْفَالِ فِي تِلْكَ الْحَالِ لَمْ يَوْجِبْ عَلَيْهِمْ مَا أَوْجَبْنَاهُ عَلَى أَنْ تَجْوِيزَ

النسيان عليهم ينقض الغرض في الآية و ذلك أن الله تعالى أخبر بأنه إنما قرّهم وأشهدهم لتلايدعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك وسقوط الحجة عنهم فيه فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر الى سقوط الحجة وزوالها وأن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل و شرائط التكليف قبح خطابهم و تقريرهم و إشهادهم و صار ذلك عبثاً قبيحاً.

يتعالى الله عنه، فإن قيل قد أبطلتم تأويل مخالفكم فما تأويلها الصحيح عنكم.

قلنا في هذه الآية وجهان:

أحدهما: أن يكون تعالى إنما عني جماعة من ذرية بني آدم ^{عليه السلام} خلقهم و بلغهم و أكمل عقولهم و قرّهم على السن رسله عليهم السلام بمعرفته و ما يجب من طاعته فأقروا بذلك و أشهدهم على أنفسهم به لتلايقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو يعتذروا بشرك آبائهم و إنما أتى من أشتبه عليه تأويل الآية من حيث ظن أن إسم الذرية لا يقع إلا على من لم يكن عقلاً (عاقلاً) و ليس الأمر كما ظن إنا نسمي جميع البشر بأنهم ذرية آدم و أن دخل فيهم العقلاء الكاملون.

و قد قال الله تعالى: **رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** ^(١).

و لفظ الصالح لا يطلق إلا على من كان كاملاً عاقلاً فأن استبعدوا تأويلنا و حملنا الآية على البالغين المكلفين فهذا جوابهم.

والجواب الثاني: أنه تعالى لما خلقهم وركبهم تركيباً يدل على معرفته و يشهد بقدرته و وجوب عبادته و أراهم العبر و الآيات و الدلائل في أنفسهم غيرهم كان بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم و كانوا في مشاهدة ذلك و معرفته و ظهوره فيهم على الوجه الذي أراده تعالى و تعذر إمتناعهم منه و إنفكاكهم

من دلالة بمنزلة المقرّ المعترف وأن لم يكن هناك إشهاد ولا إقرار على الحقيقة ويجري ذلك مجرى:

قال الله تعالى: **ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ^(١)**.

وأن لم يكن منه تعالى قول الحقيقة ولا منهما جواب ومثله قوله تعالى: **شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ^(٢)**

ونحن نعلم أن الكفار لم يعترفوا بالكفر بأنفسهم وأما ظهر منهم ظهوراً لا يتمكنون من دفعه كانوا بمنزلة المعترفين به ومثل هذا قولهم جوارحي تشهد بنعمتك، وحالي معترفة بإحسانك.

وما روي عن بعض الخطباء سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك و جنى ثمارك فأن لم تجبك حوراً أجابتك إعتباراً وهذا باب كبير وله نظائر كثيرة في النظم والتثني عن ذكر جميعها القدر الذي ذكرناه منها انتهى كلامه رفع مقامه الأمالي^(٣).

أَقُولُ ما ذكره **مَنْ** صريح في إنكاره عالم الدّر على ما فسّره الجمهور وحيث إنجر الكلام الى هنا لا بأس ينقل ما أفاده الفيض **مَنْ** في تفسيره الصّافي في هذا المقام.

قال **مَنْ** **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَقَرَأَ ذُرِّيَّتَهُمْ، أَخْرَجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ نَسْلَهُمْ عَلَى مَا يَتَوَلَّدُونَ** قرناً بعد قرنٍ يعني نشر حقائقهم بين يدي علمه فاستنطق الحقائق بالسنة قابليات جواهرها وألسن إستعداد ذواتها، **وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوه الى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة الأشهاد على طريق التمثيل نظير ذلك قوله عز وجل:

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١).

وقوله تعالى: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ أَتَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ^(٢).

ومعلوم أنه لا قول ثمة وأما هو تمثيل وتصوير للمعنى وذلك حين كانت أنفسهم في أصلاب آباءهم العقلية ومعادنهم الأصلية يعني شاهدتهم وهم على رقائق في تلك الحقائق وعبر عن تلك الآباء بالظهور لأن كل واحد منهم ظهروا فظهر لطائفة من النفوس أو ظاهر عنده لكونه صورة عقلية نورية ظاهرة بذاتها، وأشهدهم على أنفسهم، أي أعطاهم في تلك الشأنة العقلية وهوياتهم النورية فكانوا بتلك القوى العقلية يسمعون خطاب، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ كما يسمعون الخطاب في دار الدنيا بهذه القوى البدنية وقالوا بألسنة تلك العقول بلى أنت ربنا، الذي أعطيتنا وجوداً قدسياً ربانياً سمعنا كلامك وأجبنا خطابك ولا يبعد أيضاً أن يكون ذلك النطق باللسان الملكوتي في عالم المثالي الذي دون عالم العقل فأنت لكل شيء ملكوتاً في هذا العالم (ذلك العالم) كما أشير إليه.

بقوله سبحانه: فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ^(٣) والملكوت باطن الملك وهو كله حياة وكل ذرة لسان ملكوتي ناطق بالتسبيح والتمجيد والتوحيد والتحميد وبهذا اللسان نطق الحصى في كف النبي وبه تنطق الأرض يوم القيامة يومئذ تحدث أخبارها وبه تنطق الجوارح أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء انتهت كلامه.

اقول وأنت ترى أن هذه الكلمات والتأويلات لا يمكن الإعتماد عليها في تفسير كلام الله وبالجملة فالكلمات والتأويلات حول الآية كثيرة جداً من

العامّة والخاصّة وليس ذلك إلاّ لتصور الفهم والإدراك ونقصان العقل عن
درك حقيقة كلامه تعالى وأنه تعالى ما أراد بكلامه هذا فالأحسن وارجاع
علمه اليه والإقرار والإعتراف بالجهل في المقام وأمثاله فأنه أنفع لنا في ديننا
و دنيانا.

قد قال الله تعالى: لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^(١).

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ أي أنا أخذنا من بني آدم من ظهورهم ذريتهم الخ.
لئلا يقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين، أو يقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا
مِنْ قَبْلُ ومحصّل الكلام هو أن الحجّة قد تمت عليهم فلا مجال لهم بعدها أن
يقولوا كذا وكذا وفي قوله: أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ إشارة إلى أن الذرية
حيث أخذوا الشّرك من آبائهم المشركين، فيقولون لا ذنب لنا لأنّ الآباء
أسسوا الشّرك والكفر فالذنب عليهم لا علينا.

والجواب أنا أخذنا منكم العهود والمواثيق بالتّوحيد قبل الخلق لئلا تقولوا
لا ذنب لنا فالآية تدلّ على أنّه قد كان قبلهم آباء مبطلون وكانوا هم بعدهم فقد
بيّن فيها أنّ هؤلاء الذين أقرّوا بمعرفة الله وأخذ ميثاقهم بذلك كان قد سلف
لهم في الشّرك آباء فصّح بذلك أنّهم قوم مخصوصون من أولاد آدم جميعهم و
كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي غرضنا من تفصيل الآيات و
تمييز بعضها من بعض هو توبتهم ورجوعهم عن معاصيهم الى طاعته و من
الكفر الى الإيمان به.

وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ
مِنَ الْغَاوِينَ

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يأمره بأن يقرأ على بني إسرائيل و غيرهم من أمته بناء الذي آتاه الله حججه فأنسلخ وأعرض منها فأتبعه الشيطان وكان من الخائنين الخاسرين في الدنيا والأخرة.

وأختلفوا في المراد بالموصول وأنه، من هو، فقيل أنه بلعم بن باعور من بني إسرائيل وقالوا معنى أنسلخ، ما نزع منه من العلم. وقيل أنه أمية بن أبي الصلت وعليه فالآية نزلت فيه، وقيل بلعم بن باعور، وقيل هو رجل من الكتّانين.

وقيل لم يرد به شخص خاص بل هذا مثل ضربه للكافر آتاه الله آيات دينه فأنسلخ منها، أي أعرض منها وتركها.

وقال الجبائي أراد به المرتد الذي كان آتاه العلم به وبآياته فكفر به وبها وبدينه من بعد أن كان به عارفاً فأنسلخ بذلك من العلم والإيمان.

أقول قال الشيخ في التبيان بعد نقله ما نقلناه عنه من الأقوال والوجه الذي قاله الحسن يليق بمذهبننا دون الذي قاله الجبائي لأن عندنا لا يجوز أن يرتد المؤمن الذي عرف الله على وجه يستحق به الثواب انتهى.

أقول مراده بما قاله الحسن هو أنه لم يرد به شخص خاص بل هذا مثل ضربه للكافر آتاه الله آيات دينه فأنسلخ وأعرض عنها.

ونحن نقول ما ذكره الحسن وأن كان أوفق بالمذهب بل وبسياق الكلام أيضاً إلا أن قول الجبائي أيضاً لا بأس به وقول الشيخ لا يجوز أن يرتد المؤمن الخ. لا نفهم معناه، فأن أراد بعدم الجواز عدمه عقلاً بمعنى عدم إمكانه فهو في حيز المنع لأنه أمرٌ ممكنٌ لا إشكال فيه فمن قال بعدم إمكانه أو عدم جوازه عقلاً لا بد له من إقامة الدليل عليه وإذ ليس فليس.

وأن أراد بعدم الجواز عدمه شرعاً ونقلاً فهو أيضاً ممّا لا دليل عليه وذلك لأن المؤمن الذي عرف الله ويستحق به الثواب لا يجوز الإرتداد له ما دام كونه مؤمناً لإستحالة إجتماع الإيمان والكفر معاً.

وَأَمَّا الْإِرْتِدَادُ بِمَعْنَى خُرُوجِهِ عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي كَانَ وَاجِدًا لَهُ فَلَا إِشْكَالَ فِيهِ عَقْلًا وَشَرْعًا كَمَا هُوَ شَأْنُ الْإِيمَانِ الْمُسْتَعَارِ وَلَوْلَا جَوَازُ ذَلِكَ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمَرْتَدُّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ دَائِمًا وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ فَاسِقٌ وَلاَزِمُ ذَلِكَ إِخْتِصَاصُ الْإِرْتِدَادِ بِالْفَسَاقِ وَهُوَ بَعِيدٌ وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَوْصُولِ أَعْنِي بِهِ (الَّذِي) هُوَ شَخْصٌ خَاصٌّ سِوَاءِ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى سِيَاقِ الْآيَةِ أَمْ مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالَهُ الْحَسَنُ لِلزَّمِ أَنْ يُقَالَ وَاتَّلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا بِصِغَةِ الْجَمْعِ لِأَنَّ الْحُكْمَ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمَعْرُضِينَ مَلَاحِظَةً أَنَّ الْإِيمَانَ الْمَوْصُولَ بِصِغَةِ الْمَفْرَدِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنْ أُرِيدَ بِالْآيَةِ شَخْصٌ خَاصٌّ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ وَأَنْ أُرِيدَ بِهَا الْمِثْلَ الَّذِي ضَرَبَهُ لِلْكَافِرِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ فَلَا مَعْنَى لِأَفْرَادِ الْمَوْصُولِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِنْسُ الَّذِي يَشْمَلُ الْفَرْدَ وَالْأَفْرَادَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِكَلَامِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ فَمَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ جَعَلَ اللَّفْظَ مِنَ الْآتِبَاعِ مَنْ اتَّبَعَ إِتْبَاعًا وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّشْدِيدِ جَعَلَهُ مِنَ الْآتِبَاعِ مَنْ بَابِ الْأُتْعَالِ فَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّ التَّخْفِيفَ وَالتَّشْدِيدَ لِعَتَانِ فَالْمَعْنَى فِيهَا وَاحِدٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ، أَنْ قُلْنَا بِالتَّخْفِيفِ فَمَعْنَاهُ، قَفَاهُ، وَبِالتَّشْدِيدِ مَعْنَاهُ حَذَا حَذَوَهُ قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ، فَاتَّبَعَهُ، أَيُ لِحَقِّهِ الشَّيْطَانُ وَأَدْرَكَهُ وَصَارَ قَرِينًا لَهُ أَوْ فَاتَّبَعَهُ خَطَوَاتِهِ وَقُرِئُ فَاتَّبَعَهُ بِمَعْنَى فَتَّبَعَهُ انْتَهَى.

قَالَ بَعْضُهُمْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَهُوَ أَنَّ تَبِعَهُ إِذَا مَشَى فِي أَثَرِهِ وَاتَّبَعَهُ إِذَا وَارَاهُ مَشْيًا.

وَأَنَا أَقُولُ الظَّاهِرُ أَنَّ الْآتِبَاعَ مُشَدَّدًا مَعْنَاهُ غَيْرُ الْآتِبَاعِ مُخَفَّفًا، فَعَلَى الْقَوْلِ بِالتَّشْدِيدِ مَعْنَاهُ صَارَ الشَّيْطَانُ تَابِعًا لَهُ كَمَا هُوَ مَعْنَى الْمَتَابَعَةِ عَلَى الثَّانِي مَعْنَاهُ، أَنَّ الشَّيْطَانَ جَعَلَهُ تَابِعًا لِنَفْسِهِ فَصَارَ مِنْ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: هُوَ فَاعِلٌ، كَانَ، أَيُ فَكَانَ هُوَ، أَيُ الَّذِي آتَيْنَاهُ الْخَ مِنَ الْغَاوِينَ الصَّالِينَ.

على الثاني: فالفاعل هو الشيطان أي فكان الشيطان من الغاوين، و الإحتمال الثاني أقوى من الأول، لأن الشيطان دائماً يكون إماماً للغاوين لا مأموماً لهم فالمعنى جعله الشيطان من أتباعه أي من أعوانه وأنصاره فصار إماماً له في الغواية.

في تفسير العياشي عن سليمان اللبان قال: قال أبو جعفر عليه السلام:
أتدري ما مثل المغيرة بن شعبه قال قلت لا قال عليه السلام مثله مثل بلعم
الذي أوتي الأسم الأعظم قال الذي قال الله، أتيتناه آياتنا فأنسلخ
منها.

وعنه عليه السلام قال: الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر
هواه على هدى الله من أهل القبلة.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام
أنه أعطي بلعم بن باعور الأسم الأعظم فكان يدعوا به فيستجيب له
فمال الى فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم أَدع
لله على موسى عليه السلام وأصحابه ليحبسه علينا فركب حماره ليمير
في طلب موسى فأمتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها الله
عز وجل فقالت ويلك على ماذا تضربني أتريد أن أجئ معك لتدعوا
على نبي الله وقوم مؤمنين فلم يزل يضربها حتى قتلها وأنسلخ
الأسم من لسانه وهو قوله تعالى: فأنسلخ منها فأتبعه
الشيطان^(١).

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

اختلفوا في المشية فقال الجبائي معناها، لو شئنا لرفعناه بإيمانه و معرفته قبل أن يكفر لكن أبقيناه ليزداد الإيمان، فكفر.
وقال البلخي هذا إخبار عن قدرته أنه لو شاء لحال بينه وبين الكفر و الارتداد.

وقال الزمخشري في الكشاف معنى الكلام، لو شئنا لعظمناه ورفعناه الى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات، وكيف كان فالضمير في قوله: **بِهَا** يرجع الى الآيات والباء للسببية أي لو شئنا لرفعناه قدره ومقامه بسبب الآيات التي آتيناه، و لكنه أخلد الى الأرض، أي سكن بها وركن اليها وقيل مال الى الدنيا و رغب فيها ولم يسم الى الغرض الأعلى، والمقصود أنه لم يعرف قدره ومنزلته فسكن الى لذات الدنيا وأتبع هواه وباع آخرته بدنياه وهذا معنى الخلود الى الأرض.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ

قيل في معنى الكلام أن الله شبهه بالكلب في تركه الآيات والعدول عنها لأن كل شيء يلهث فأنما يلهث في حال الأعياء والكلال إلا الكلب فإنه يلهث في حال الراحة والتعب وحال الصحة وحال المرض وحال الرّي وحال العطش وجميع الأحوال فكأنه تعالى قال إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال إن أغنيته فهو ضال وإن كان فقيراً فهو ضال في صحته ضال وفي مرضه ضال وبالجملة هو في جميع الأحوال ضال وهذا بعينه حال الكلب أن طردته وزجرته فإنه يلهث وأن تركته أيضاً يلهث وهو مثل قوله تعالى: **وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** ^(١) و الى هذا المعنى أشار بقوله: **ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا** أي أن ما ذكرناه وأشرنا اليه لا يختص بشخص خاص مثل بلعم بن باعور وأمثاله بل يشمل جميع المكذّبين، والمستهزئين بآياتنا فإن حكم الأمثال واحد.

فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أي أذكر يا محمد هذه القصص للناس لعلهم يتفكرون فيها ويتعظون بها فأَنْ من لم يتفكر لم يتعظ فقد خسر خسراناً مبيناً.

وإِعلم أَنَّ هذه الآية من أحسن المواعظ لمن تدبر فيها، ونحن نشير الى شطر منها:

الأولى: أَنَّ الإنسان بحسب مقام ذاته قابل للتَّرفي والتَّكامل الى أرفع المقامات وأبلغ الغايات والى هذا المعنى أشير بقوله: **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ** تقريب الاستدلال أَنَّ ترفيع المقام مترتب وموقوف على القابلية فمن لم يكن قابلاً له لا يمكن ترفيعه لأنَّ القابلية في المعلول شرط في تأثير العلة فيه. وأما قوله: **وَلَوْ شِئْنَا** ففيه إشارة الى مقام الفاعلية والعلية والمقصود أَنَّ الرافع هو الله تعالى وهو ممَّا لا كلام فيه.

الثانية: أَنَّ قوله تعالى: **بِهَا** إشارة الى نكتته خفية وهي أَنَّ العلم والمعرفة بالله من أسباب الترفيع والله تعالى قد أعطاه العلم والمعرفة، فالأسباب موجودة إلاَّ أَنَّ الإنسان بسبب الإنغمار في الشهوات النفسانية يغفل عمَّا أعطاه الله فيضيعه ويطله فيسقط عن مقام الإنسانية ويدخل في زمرة الحيوانات.

ثالثها: الركون الى الدنيا والاعتماد بها والى هذا المعنى أشار بقوله: **وَلِكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ**.

رابعها: أَنَّ منشأ ذلك ليس إلاَّ حبُّ الدنيا قال رسول الله حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة ومنشأ حبِّ الدنيا ليس إلاَّ متابعة الهوى كما قال وإتبع هواه.

خامسها: أَنَّ بعض النَّاس مثل الكلب وذلك لأنهم في جميع الحالات يلهثون، أي لا يقنعون بما أتاهم الله ولا يرضون بقضاءه وقدره وأن شئت قلت غلب عليهم الحرص فلا يشبعون أبداً ولا يشكرون لله تعالى أصلاً مع أنَّهم مستغرقون في نعمه ولأجل هذا شبههم الله بالكلب في حرصه وولعه أعاذنا الله منه.

قال الرّازي في تفسيره ما هذا لفظه:

قال أهل المعاني المقصود منه بيان أنّ من أوتي الهدى فإنسلخ منه الى الضلال والهوى والعمى ومال الى الدنيا حتّى تلاعب به الشيطان كان متناه الى البوار والرّدى وخاب في الآخرة والأولى فذكر الله قصّته ليحذّر النّاس عن مثل حالته. وقوله: **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** قال أصحابنا معناه للعمل بها فكان يرفع بواسطة تلك الأعمال الصّالحة منزله، ولفظة، لو، تدلّ على إنتفاء الشّي لا إنتفاء غيره فهذا يدلّ على أنّه تعالى قد لا يريد الإيمان وقد يريد الكفر انتهي موضوع الحاجة من كلامه.

أقول قوله: أنّ الله قد يريد الإيمان وقد يريد الكفر، كفرّ محض وذلك لأنّ الله لا يريد الكفر أبداً اذ لو كان مريداً فلم بعث أنبياءه ورسله، والمعنى لو شئنا لرفعناه بأن نحول بينه وبين الكفر قهراً وجبراً إلا أنّ ذلك ينافي التّكليف فلا جرم تركناه مع إختياره وأنما قلنا ذلك لأنّه لا كلام لأحد في أنّه تعالى يقدر على كلّ شيء إلا أنّ البحث في الوقوع لا في القدرة اذ لا يقول العاقل أنّ الله تعالى لا يقدر على أن يخلق الإنسان كافراً ملحداً لا يقبل الإيمان أصلاً أو يجعله كذلك، لأنّه تعالى فعّال لما يشاء وهو على كلّ شيء قدير.

وأنما الكلام في وقوعه وأنّه هل يجوز عقلاً خلقه كذلك مسلوباً عنه الإختيار، في دائرة التّكليف أو لا يجوز اذا المكلّف المجبور في فعله لا يكون مسؤولاً يوم القيامة عقلاً لأنّه ظلم وهو تعالى منزه عنه وهذه النكتة هي التي دعتنا الى الأمرين.

قال بعض المفسّرين وهذه الآية من أشدّ الآيات على أصحاب العلم لأنّه تعالى بعد أن خصّ هذا الرّجل بآياته وبيناته وعلمه الإسم الأعظم وخصّه بالدّعوات المستجابة لمّا إتّبع الهوى إنسلخ من الدّين وصار في درجة الكلب وذلك يدلّ على أنّ كلّ من كانت نعم الله في حقّه أكثر فاذا أعرض عن متابعة الهدى (الهدى) وأقبل على متابعة الهوى كان بعده عن الله أعظم واليه

الإشارة بقوله **عَلَيْهِ** من إزدادا علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعداً كما قال تعالى: **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** قال اللّيث، اللهث هو أن الكلب اذا ناله الإعياء عند شدة العدو عند شدة الحر فأنه يدلح لسانه من العطش.

وإعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب وأنما وقع بالكلب اللاهث وأخس الحيوانات هو الكلب وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث فمن أتاه الله العلم والدين فمال الى الدنيا وأخلد الى الأرض كان مشبهاً بأخس الحيوانات الكلب اللاهث وفي تقرير هذا التمثيل وجوه:

الأول: أن كل شيء يلهث فأنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء والراحة وفي حال العطش والرّي فكان ذلك عادة منه وطبيعة وهو مواظب عليه كمعادته الأصلية وطبيعته الخسيسة لأجل حاجة وضرورة فكذلك من أتاه العلم والدين وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس ثم أنه يميل الى طلب الدنيا ويلقي نفسه فيها كانت حاله كحال ذلك اللاهث حيث واطب على العمل الخسيس والفعل القبيح لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة لأجل الحاجة والضرورة.

الثاني: أن الرجل العالم اذا تَوَسَّل بعلمه الى طلب الدنيا فذاك أنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها ولا شك أن عند ذكر تلك الكلمات وتقرير تلك العبارات يدلح لسانه ويخرجه لأجل ما تُمكن في قلبه من حرارة الحرص وشَدَج العطش الى الفوز بالدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبداً من غير حاجة ولا ضرورة بل بمجرد الطبيعة الخسيسة.

الثالث: أن الكلب اللاهث لا يزال لهثه البتة فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البتة انتهى كلامه.

أقول في تفسير الكلام بحثً واسع لولا مخافة الإطالة.

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ
كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي
وَمَنْ يَضِلَّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ
ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ
قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ
يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِه
يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ
أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا
مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
(١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَ
الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَدْ أَفْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ
يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ
يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ
عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً

يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

◀ اللغة

ذَرَأْنَا، الذَّر الخلق أي خلقنا.

لِجَهَنَّمَ اللّام لام العاقبة.

قُلُوبٌ جمع قلب سَمِيَ بن لَتَقَلْبِه و تَطَوَّرِه.

أَعْيُنٌ جمع عَيْن.

أَذَانٌ جمع أذن.

ذَرَوْا أي إتركوا.

يُلْحِدُونَ، الإلحاد العدول عن الإستقامة والانحراف عنها.

يَعْدِلُونَ مأخوذ من العدل أي يعملون بالعدل والإنصاف.

سَسْتَدْرِجُهُمْ، الإستدراج أن تدرج الى الشئ في خفية قليلاً قليلاً ولا

تهجم عليه وأصله من الدَّرَجَة وذلك لأنَّ الرَّاقي والنَّازل يرقى وينزل مرقاة مرقاةً.

أُمْلِي، الإملاء التَّأخير أي أوخرهم.

جَنَّةٌ بكسر الجيم وهي الجنون.

يَذَرُهُمْ أي يتركهم.

يَعْمَهُونَ العمّة التَّحِير والتَّردّد في الكفر.

مُرْسِيهَا يقال أَرَسَاهَا الله أي ثَبَّتَهَا، رَسِيَ يَرُسُو إذا ثبت.

بَغْضَةً أي غفلة وفجأةً.

حَفِيٌّ يقال أحفى فلان بفلان في المسألة إذا أكثر عليه.

الإعراب

سَاءَ هو بمعنى بشس و فاعله مغمر أي ساء المثل مثلاً مفسراً الْقَوْمُ أي مثل القوم قيل لأبْد من هذا التّقدير لأنّ المخصوص بالذّم من جنس فاعل بشس و الفاعل المثل و القوم ليس من جنس المثل فلزم أن يكون التّقدير مثل القوم فحذفه و أقام القوم مقامه لِجَهَنَّمَ يجوز أن يتعلّق بذرأنا و أن يتعلّق بمحذوف على أن يكون حالاً من كثير أي كثيراً لِجَهَنَّمَ مِنَ الْجِنِّ نَعَتْ لكثير و كذلك لَهُمْ قُلُوبٌ نَعَتْ له الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الحسنى صفة مفردة لموصوف مجموع و أثبت لتأنيث الجمع يُلْحِدُونَ بَضْم الياء و كسر الحاء و ماضيه الحَدَّ و بفتح الياء و الحاء و ماضيه لَحَدَّ و هما لغتان وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا نكرة موصوفة أو بمعنى، الَّذِي، وَالَّذِينَ كَذَبُوا مَبْتَدَأً وَ سَنَسْتَدْرِجُهُمُ الْخَبْرَ وَأَمْلَى خبر مبتدأ محذوف أي و أنا أُمْلِي و يجوز أن يكون معطوفاً على نَسْتَدْرِجُ و أن يكون مستأنفاً مَا بِضَاحِبِهِمْ فِي، مَا، وَجْهَانِ:

أحدهما: نافية و في الكلام حذف تقديره أولم يتفكروا في قولهم به جنة.

والثاني: أنها إستفهام أي أولم يتفكروا أي شيء بصاحبهم من الجنون.

أَنْ عَسَى يجوز أن تكون المخففة من الثّقيلة و يجوز أن تكون مصدرية و على كلا الوجهين هي في موضع جرّ عطفاً على ملكوت أَنْ يَكُونَ فاعل عسى إسم، يكون، مضمّر فيها و هو ضمير الشأن قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ في موضع نصب خبر كان فَلَا هَادِيَ في موضع جزم على جواب الشّرط وَ يَذَرُهُمْ بِالرّفْعِ على الإستثناء و الجزم عطفاً على موضع، فلا هادي، أَيَّانَ إِسْمٌ مَبْنِي لَتَضْمَنَهُ حرف الإستفهام بمعنى، متى، و هو خبر لقوله مُرْسِيهَا و الجملة في موضع جرّ بدلاً من السّاعة تقديره يستلونك عن زمان حلول السّاعة إِنَّمَا عَلِمَهَا المصدر مضاف الى المفعول و هو مبتدأ و إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ الْخَبَرِ كَأَنَّكَ حال من المفعول وَ حَقِّي بمعنى محقّو و يجوز أن يكون فعلاً بمعنى فاعل.

حَقِيٌّ فِيهِ وَجْهَانُ:
أحدهما: تقديره يسألونك عنها كأنك حَقِيٌّ.
الثاني: أَنْ، عن، بمعنى الباء أي حَقِيٌّ بها.

◀ التفسير

سَاءَ مَثَلًا وَالتَّقدير ساء مثلاً مثل القوم وحذف لدلالة الكلام عليه وذلك فَأَنْ ساء بمعنى بئس وأصلها التَّعدي تقول سائني الشَّيْ يسوؤني ثُمَّ لَمَّا أَسْتَعْمَلْتَ إِسْتَعْمَالَ بئس بنيت على فعل وجرت عليها أحكام بئس وقوله: مَثَلًا تمييز للضمير المستكن في ساء فاعلاً وهو مفسر بهذا التمييز وهو من الضمائر التي يفسرها ما بعدها ولا يثنى ولا يجمع على مذهب البصريين ولا بد أن يكون المخصوص بالذم من جنس التمييز فأحتج إلى تقدير محذوف، أمّا في التمييز أي ساء أصحاب مثل القوم وأمّا في المخصوص أي ساء مثلاً مثل القوم وهذه الجملة مؤكدة للجملة السابقة قال بعض المفسرين ظاهره يقتضي أن يكون ذلك المثل موصوفاً بالسوء وذلك غير جائز لأنّ هذا المثل ذكره الله تعالى فكيف يكون موصوفاً بالسوء فوجب أن يكون الموصوف بالسوء ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها حتّى صاروا في التمثيل بمنزلة الكلب اللائع إنتهى.

أقول ما ذكره يتم نبأ على أن تكون الآية مربوطة بما قبلها بأن يكون المراد بالقوم قوم بني إسرائيل وأمّا أن كان المراد بالآية بيان حكم كلّي وهو أنّ المكذّبين بآيات الله حكمهم كذا وكذا فلانحتاج إلى هذه التكلّفات وهذا هو الحقّ وذلك لأنّ الله تعالى أشار في الآيات السّابقة أنّ قوم بني إسرائيل ومنهم بلعم بن باعور فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا فممنهم من آمن وأستدام على إيمانه ومنهم من كفر وأعرض عن الإيمان ثمّ أنّ الله تعالى بيّن في هذه الآية و ما بعدها أنّ المكذّب لا يظلم إلّا على نفسه كما أنّ المهتدي على عكس ذلك

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأَحْكَامِ الْكَلِيَّةِ الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ وَهُوَ وَاضِحٌ وَعَلَيْهِ فَمَعْنَى الْآيَةِ بَشَسْ مِثْلَ الْقَوْمِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَذَلِكَ لِأَنَّ ضَرَرَ التَّكَذِيبِ يَرْجِعُ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ مُطْلَقًا فَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهَا إِعْتِقَادًا وَعَمَلًا فَلَا يَظْلَمُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ وَإِلَى هَذَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

قَالَتِ الْأَشَاعِرَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْهَدَايَةِ وَالضَّلَالِ فِي الْعَبْدِ بِمَعْنَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَقْدِرُ عَلَى خِلَافِهِ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ الْهَدَايَةَ فِيهِ أَيَّ جَعَلَهُ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ ضَالًّا أَبَدًا وَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ الضَّلَالَةَ بِالْعَكْسِ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الْجَبَرِ الْمَحَالَّ عَقْلًا وَشَرْعًا وَأَمَّا الْمَعْتَزِلَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَقَالُوا بِخِلَافِ ذَلِكَ.

قَالَ الْجَبَائِثِيُّ مَعْنَى الْآيَةِ مَنْ يَهْدِيهِ اللَّهُ إِلَى نَيْلِ الثَّوَابِ كَمَا يَهْدِي الْمُؤْمِنَ إِلَى ذَلِكَ وَإِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ فَهُوَ الْمُهْتَدِي لِلْإِيمَانِ وَالْخَيْرِ لِأَنَّ الْمُهْتَدِي هُوَ الْمُؤْمِنُ فَقَدْ صَارَ مُهْتَدِيًّا إِلَى الْإِيمَانِ وَإِلَى نَيْلِ الثَّوَابِ وَمَنْ يَضِلُّهُ اللَّهُ عَنْ الْجَنَّةِ وَعَنْ نَيْلِ ثَوَابِهَا عَقُوبَةً عَلَى كُفْرِهِ أَوْ فَسْقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ لِأَنَّهُمْ خَسَرُوا الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَخَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَالْإِنْتِفَاعَ بِهَا.

وَقَالَ الْبَلْخِيُّ الْمُهْتَدِي هُوَ الَّذِي هَدَاهُ اللَّهُ فَقَبِلَ الْهَدَايَةَ وَأَجَابَ إِلَيْهَا وَالَّذِي أَضَلَّهُ اللَّهُ الضَّالُّ الَّذِي اخْتَارَ الضَّلَالَةَ فَأَضَلَّهُ اللَّهُ بِمَعْنَى خَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا اخْتَارَهُ وَتَرَكَ مَنَعَهُ بِالْخَيْرِ عَلَى أَنَّهُ إِذَا ضَلَّ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ عِنْدَ إِمْتِحَانِهِ وَتَكْلِيفِهِ جَازَ أَنْ يَقَالَ أَنَّ اللَّهَ أَضَلَّهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ مَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ حَكَمَ بِضَلَالَتِهِ فَهُوَ الْخَاسِرُ.

وقال الرّازي بعد ما ذكر قول الجبائي وغيره من المعتزلة ما هذا لفظه:
وإعلم أنّا قد بيّنا أنّ الدلائل العقلية القاطعة قد دلّت على أنّ الهداية و
الإضلال لا يكونان إلا من الله من وجوه:

الأوّل: أنّ الفعل يتوقف على حصول الدّاعي ليس إلا من الله فالفعل ليس
إلا من الله.

الثّاني: أنّ خلاف معلوم الله ممتنع الوقوع فمن علم الله منه الإيمان لم
يقدر على الكفر وبالضّد.

الثالث: أنّ كلّ أحد يقصد حصول الإيمان والمعرفة فاذا حصل الكفر
عقبيه علمنا أنّه ليس منه بل من غيره انتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا يرجع الى محصل ولا يؤيده العقل أصلاً.

والجواب عن دليله الأوّل وهو أنّ الفعل يتوقف على حصول الدّاعي و
حصوله ليس إلا من الله فالفعل ليس إلا منه.

أمّا الأوّل: أنّ الفعل وإن كان متوقفاً على حصول الدّاعي إلا أنّ توقّفه عليه
ليس من قبيل توقّف المعلول على علته التامة بمعنى أنّه اذا وجد الفعل
الدّاعي وجد الفعل لوجود الواسطة بين الدّاعي والفعل وهي الإرادة أولاً و
حركة العضلات ثانياً ولا شك أنّ الإرادة الجازمة على إيجاد الفعل لا تتحقّق
إلا بعد إختيار الأصلح بحال الفاعل وهذا معلوم لا شك فيه و عليه فمجرد
حصول الدّاعي لا يكون علّة لوجود الفعل عن فاعله.

ثانياً: أنّ هذا الكلام منه ليس من الدليل العقلي بل هو بالسّفسطة أشبه
ضرورة أنّ الله تعالى خالق كلّ الأشياء ولازم ذلك أن يكون هو الفاعل في
جميع الأفعال الصّادرة من العبد و عليه فالعبد لا يطيع الله ولا يعصيه وذلك
لأنّه تعالى خلقه وجعل فيه أسباب الطّاعة والعصيان فاذا نظر العبد الى
الأجنبيّة ببصره الذي خلقه الله فيه فهو لم يعص بل العاصي هو الله وهكذا
الكلام في جميع الجوارح والأعضاء ومحصل الكلام هو أنّ السّبب غير العلّة

لأنَّ السَّبَب لا يلزم من وجوده المسبَّب نعم يلزم من عدمه عدمه وهذا بخلاف العلة التامة التي يلزم من وجودها وجود المعلول ومن عدمها عدمه و حصول الدّاعي في الإنسان من قبيل الأسباب لا من العلل الموجبة لاييجاد المعلول.

و الجواب عن دليله الثاني وهو قوله، خلاف معلوم الله ممتنع الوقوع. فنقول هو ممّا لا كلام لنا فيه إلّا أنّ قوله فمن علم الله منه الإيمان لا يقدر على الكفر، مغالطة وذلك لأنّ العلم الأزلي منه تعالى بوجود الإيمان أو الكفر في العبد لا يكون علة لوجود الإيمان أو الكفر فيه بل معناه أنّه تعالى يعلم أنّ العبد بميله وإرادته وإختياره يكون مؤمناً أو كافراً وهذا من المقطوع به لأنّه تعالى عالم بكلّ الأشياء ظاهرها وباطنها، وليس كلامنا فيه وأنما البحث في أنّ العبد مختار في فعله أو غير مختار والعجب من الرّازي مع إدّعاءه التّوغل في العلوم العقليّة كيف يقول بهذه المقالة السخيفة الباطلة.

و الجواب عن دليله الثالث وهو أنّ كلّ أحد يقصد حصول الإيمان و المعرفة فإذا حصل الكفر عقبيه علمنا أنّه ليس منه بل من غيره، هو أنّ حصول الكفر عقبيه ليس إلّا منه قوله علمنا أنّه ليس منه بل من غيره يحتاج الى الإثبات لأنّ العبد قد يقصد الإيمان ثمّ يختار الكفر بعده وبالعكس.

فالكفر والإيمان منه لا من غيره وبإختياره لا بإختيار غيره ألا ترى أنّ الإنسان قد يقصد شيئاً ثمّ ينصرف ويقصد شيئاً آخر وذلك لأنّه اذا قصد لا بدّ له من التّفكير فيما قصد هل هو بصلاحه أم لا وهذا هو الإختيار الذي يكون بين القصد والفعل فمن قصد وفعل ما قصد بدون التّأمل والتّفكير فهو سفيه فمن قصد الإيمان وعلم أنّ الإيمان بصلاحه يؤمن لا محالة ومن قصد الكفر كذلك إلّا أنّه أصاب في إختياره في الإيمان وأخطأ في إختياره الكفر فالإيمان والكفر منه لا من غيره.

أن قلت كيف يعقل إختيار الكفر من العبد.

نقول دواعي الاختيار مختلفة فقد يكون الدّاعي والباعث عليه حبّ الدنيا وقد يكون الدّاعي إلقاء الشّيطان الوسوسة في نفسه وقد يكون الدّاعي الحسد وأمثال ذلك وكيف كان لا شك أنّ الفعل بإختيار العبد وصادر منه و هو المطلوب.

إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية هو أنّ الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً يرشده ويهديه الى الحقّ بسبب أنبياءه ورسله وإذا لم يرد ذلك خلّى بين العبد وبين ما اختاره وهذا هو الضّلال، لا بمعنى أنّ الله لا يرشده ولا يهديه بسبب أنبياءه بل بمعنى أنّ العبد لا يقبل الحقّ ومن كان كذلك فلا محالة يقال ذرهم في خوضهم يلعبون.

ولازم ذلك هو الوقوع في الضّلال وأنما نسب الإضلال الى نفسه لأنّه خلّى بينه وبين فعله، وصار هذا سبباً لوقوعه في الضّلال أعاذنا الله منه بحقّ محمّد وآله.

لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ

الذرء بفتح الذال وسكون الراء والهمزة مصدر بمعنى الخلق يقال ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم وجهنم، إسم لنار الله الموقدة قيل وأصلها فارسى معرّب وهو جهنم والله أعلم قاله الرّاعب في المفردات.

والجنّ بكسر الجيم في الأصل ستر الشّيء عن الحاسّة يقال جنّه اللّيل وأجنّه فجنّه ستره، والإنس بكسر الألف خلاف الجنّ وجمع الإنس على أناسيّ، والمعنى ولقد خلقنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس، أي أتهم يدخلونها لا محالة ويظهر من الآية أنّ الأجنبيّة أيضاً مكلفون كالإنسان وذلك لأنّ العقاب لا يكون إلّا بعد التّكليف فمن لا تكليف له كالحيوان لا عقاب له في الآخرة ولا ثواب وحيث أنّ من شرائط صحّة التّكليف العقل فيعلم أنّ الجنّ من ذوي العقول وهو كذلك.

قال المفسرون اللّام لام العاقبة والصّيرة وليست بلام الغرض والمعنى أنّه لما كانوا يصيرون إليها بسوء إختيارهم وقبح أعمالهم جاز أن يقال أنّه ذرأهم لها والدليل عليه هو قوله: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا الْخ...** فكأنه قال أنّ عاقبة أمرهم إزدياد الإثم.

قال الله تعالى: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا^(١)**.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا نُقَالِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا^(٢)**.

قال الله تعالى: **رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ^(٣)**.

قال الله تعالى: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ^(٤)**.

قال الله تعالى: **لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ إِلَى قَوْلِهِ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ^(٥)**.

وأمثال ذلك من الآيات وقال الشاعر:

لَه مَلَكٌ يَنَادِي كُلَّ يَوْمٍ
لُدُّوا لِلْمَوْتِ وَأَنْبُوا لِلْخَرَابِ

فإنّ اللّام في الآيات المذكورة وكذا في الشعر للعاقبة أي مصيرهم الى هذا أو عاقبة أمرهم كذلك وقد أخطأ من قال أنّ اللّام للغرض، لوجهين:

أحدهما: أنّ إرادة القبيح قبيحة ولا يجوز ذلك على الله فلو كانت اللّام للغرض يصير معنى الكلام أنا خلقناهم لهذا الغرض أي غرضنا وإرادتنا من خلق هؤلاء هو دخولهم في النّار ومن المعلوم أنّ هذا الغرض قبيح في نفسه و ما كان قبيحاً فإرادته أيضاً قبيحة والله تعالى منزّه عن القباح مطلقاً.

الوجه الثاني: أنّ اللّام اذا كان الغرض لكان الكفّار من الجنّ والإنس مطيعين لله لا محالة وذلك لأنّهم فعلوا ما أَرَادَهُ وإذا كانوا كذلك فلا معنى لدخولهم النّار لأنّها للعاصين لا للمطيعين وهو ظاهرٌ هذا كله مضافاً الى قوله تعالى:

٢- آل عمران = ١٧٨

٤- إبراهيم = ٣٠

١- القصص = ٨

٣- يونس = ٨٨

٥- آل عمران = ١٥٦

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(١).

قال الشاعر:

وليس للإنسان إلا ما سعى وكل ساعٍ سعيه سوف يُرى
ومحصّل الكلام في الآية هو أنّه تعالى خلق الخلق كلّهم إلا أنّ عاقبة كثير
منهم تصير الى جهنّم بسوء إختيارهم من الكفر باللّهِ وإرتكاب معاصيه فلا
نحتاج الى القلب بأن يقال تقدير الكلام ولقد ذرأنا جهنّم لكثير من الجنّ و
الإنس، وذلك لأنّ القلب لا يكون إلا في الشّعْر وكلام الله منزهٌ عنه مضافاً الى
أنّه خلاف الأصل والعقل والثقل ثمّ أنّه تعالى لما قال ما قال كأنّه قائل يقول لم
كان كذلك أي لم يكون مصيرهم الى النار.

لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا
يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

أي كأنهم لم يفقهوا بقلوبهم ولم يبصروا بعيونهم ولم يسمعوا بأذانهم ما
كانوا يؤمرون به كأنهم صمّ بكم عمي كما قال الشاعر:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السَّتْرَ
وَأَصَمَّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرِهِ وَقَرَّ

ومن المعلوم أنّ من كان كذلك فهو حكم الأنعام فهو خارجٌ عن حدود
الإنسانية تاركٌ للتكاليف الإلهية تابعٌ للشيطان والهواجس النفسانية فلا جرم
يكون مصيره الى النار وفي تشبيههم بالأنعام إشارة الى نكته وهي أنّ الحيوان
لا يهتم إلا بالأكل والشرب وهؤلاء أيضاً كذلك فإنّ من لا يتفقه بقلبه ولا يعتبر
بنظره يتفكر بما يسمع فأَي فرق بينه وبين الحيوان وفي قوله: بَلْ هُمْ أَضَلُّ
إشارة الى أنّ هؤلاء الأشخاص من الجنّ والإنس أضلّ وأخسّ من الحيوان.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

الجزء ٩

أَمَّا أَوَّلًا: فلأنَّ الحيوان لا عقل له.

ثانيًا: أنَّ الإنسان الموصوف بعدم التَّفَقُّه و التَّفَكُّر و الإعتبار يكون أَضَرُّ و أخبث و أفسد من الحيوان قطعاً كما ترى في الكفَّار و المنافقين و الظالمين و منشأ الكلِّ هو الغفلة عمَّا خلق الإنسان لأجله و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: **أَوَلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** أي غافلون عن أسرار الخلقة و أنَّهم خلقوا للعبادة والطَّاعة لا للطغيان و المعصية هذا.

قال بعض المفسرين يجوز أن يكون قوله تعالى: **ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ** معناه ميَّزنا يقال ذرأت الطَّعام و الشَّعير أي ميَّزَت ذلك من التَّين و المدرفلماً كان الله قد ميَّز أهل النَّار من أهل الجَنَّة في الدُّنيا بالتَّسمية و الحكم و الشَّهادة جاز أن يقول ذرأناهم أي ميَّزناهم ثمَّ وصفهم بصفةٍ تخالف أوصاف أهل الجَنَّة يعرفون بها فقال: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا** الى آخرها، و يجوز أن يكون قوله: **ذَرَأْنَا** بمعنى سنذرأ، كما قال تعالى: **وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ**^(١) بمعنى سينادون، فكأنه قال تعالى: سيخلقهم خلقاً ثانياً للنَّار بأعمالهم التي تقدَّمت منهم في الدُّنيا إذا كانوا استحقَّوا النَّار بتلك الأعمال، و الحاصل أنَّه لا يجوز خلقهم لجَهَنَّمَ اذ لازم ذلك هو أن أراد منهم فعل المعصية ليدخلوا به النَّار.

و قد قلنا أنَّه غير معقول اذ كيف يعقل خلقهم لجَهَنَّمَ:

قال الله تعالى: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أُنزِلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً، لِيَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ**^(٣).

و الآيات كثيرة و مع ذلك كلَّه قال الرَّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

هذه الآية هي الحجة الثانية في هذا الموضع على صحة مذهبنا في مسألة خلق الأفعال وإرادة الكائنات و تقريره من وجوه:

الأول: أنه تعالى بيّن باللفظ الصريح أنه خلق كثيراً من الجنّ والإنس لجهنّم ولا مزيد على بيان الله.

الثاني: أنه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم من أهل النار فلو لم يكونوا من أهل النار إنقلب علم الله جهلاً وخبره الصدق كذباً وكلّ ذلك محال والمفضي الى المحال محال فعدم دخولهم في النار محال ومن علم كون الشيء محالاً إمتنع أن يريدّه فثبت أنه تعالى يمتنع أن يريد أن لا يدخلهم النار بل يجب أن يريد أن يدخلهم في النار وذلك هو الذي دلّ عليه لفظ الآية.

الثالث: أن القادر على الكفر أن لم يقدر على الإيمان فالذي خلق فيه القدرة على الكفر فقد أراد أن يدخله في النار وأن كان قادراً على الكفر والإيمان معاً إمتنع رجحان أحد الطرفين على الآخر لا لمرجح وذلك المَرَّجَح أن حصل قبله لزم التسلسل وأن حصل من قبله تعالى فلما كان هو الخالق للدّاعية الموجبة للطّفر فقد خلقه للنار قطعاً.

الرابع: أنه تعالى لو خلقه للجنة وأعانه على إكتساب تحصيل ما يوجب دخول الجنة ثمّ قدّرنا أنّ العبد سعى في تحصيل الكفر الموجب للدّخول في النار فحينئذٍ حصل مراد العبد ولم يحصل مراد الله فيلزم كون العبد أقدر وأقوى من الله تعالى وذلك لا يقوله عاقل.

الخامس: أن العاقل لا يريد الكفر والجهل الموجب لإستحقاق النار يريد الإيمان والمعرفة الموجبة لإستحقاق الثواب والدّخول في الجنة فلما حصل الكفر والجهل على خلاف قصد العبد و ضدّ جهده وإجتهاده وجب أن لا يكون حصوله من قبل العبد بل يجب أن يكون حصوله من قبل الله تعالى وساق الكلام الى أن قال فثبت أنّ هذه البراهين العقلية ناطقة بصحة ما دلّ عليه صريح قوله سبحانه: **لَقَدْ دَرَأْنَا لِيْجَهَنَّمَ** انتهى كلامه.

أَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ: فهو أَنَّ اللَّفْظَ ليس صريحاً في مدَّعاه لإحتمال أن يكون المعنى في، ذرأنا، أي مَيِّزْنَا كما نقلناه عن بعضهم أو بمعنى، سنذرأ كما احتمله الآخر وعليه فيكون اللَّفْظُ من المتشابهات وإذا كان كذلك فلا صراحة فيه هذا مضافاً إلى ما قلناه وحقَّقناه من أَنَّ اللَّامَ العاقبة لا لام الغرض وقد فصلنا الكلام فيه وعليه فالمعنى مصيرهم إلى جهنم بسبب كفرهم وأعمالهم التي إرتكبوها في الدنيا بإختيارهم وإرادتهم.

أَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الثَّانِي: فقد ثبت في العلوم العقلية أَنَّ العلم الأزلي ليس علّة فكونه تعالى عالماً بمصيرهم إلى جهنم لا يكون علّة لدخولهم فيها بل معناه أَنَّهُ تعالى كان عالماً بعاقبة أمرهم وأنهم يفعلون بإختيارهم في الدُّنْيَا ما يوجب دخولهم النَّارَ فلا يلزم الانقلاب في علمه تعالى ولا يلزم الكذب أيضاً.

وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الثَّالِثِ: أن المرجح موجود في العبد وهو إختيار الفعل و أيّ مرجح أقوى من تعلق الإرادة بالفعل بعد الإختيار وقوله فلمّا كان هو الخالق للدّاعية الخ.

فقد مرّ الجواب عنه مراراً فكأنّه لم يعلم شيئاً لإثبات مدَّعاه غير الدّاعية التي لا تكون علّة لوجود الفعل أصلاً.

وَالْجَوَابُ عَنِ الرَّابِعِ: أَنَّهُ تعالى لم يخلق أحداً للجنة كما لم يخلق أحداً للنَّارِ فليس للإنسان إلّا ما سعى فقله يلزم حصول مراد والعبد و عدم حصول مراد الله إلى آخر ما ذكره لا معنى له.

وَالْجَوَابُ عَنِ الْخَامِسِ: أَنَّ العقل إن فسرناه بأنّه ما عبد به الرّحمن و اكتسب به الجنان كما قاله الصّادق المصدّق فالعبد لا يختار الكفر والفسق والعصيان وإن فسرناه على المعنى الذي يعرفه العوام فلا إشكال في إختياره الكفر كما هو شأن الكفّار والفسّاق من النّاس فقله أَنَّ العاقل لا يريد الكفر والجهل على الإطلاق لا معنى له إلّا أن يقال أَنَّ الكفّار والفسّاق خارجون من

العقلاء وهو كما ترى وحاصل الكلام أنَّ العاقل بالمعنى المصطلح قد يختار الكفر وقد يختار الإيمان وقد يختار الخير وقد يختار الشر هذا أولاً وثانياً. نقول كيف لا يختار العاقل الكفر ويختاره الله تعالى للعبد فإن كان عدم الاختيار من العبد لقبحه وأنه لا يختار القبيح فكيف يجوز على الله تعالى إختياره للعبد مع قبحه.

وأن كان عدم إختيار العبد لشيء آخر فما هو غير الحسن لأنَّ ما لا قبح فيه فهو حسن وإذا كان الكفر حسناً فلم لا يريده العاقل وبعبارة أخرى أن كان عدم إختيار العبد الكفر لقبحه فهو من الله أقبح وأن كان عدم الإختيار لحسنه فالعبد مجنون إذ العاقل لا يترك الحسن فثبت وتحقق أنَّ البراهين التي تكون عقلية بزعمه ليست من العقليات أصلاً بل هي بالموهومات أشبه.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

قرأ حمزة، يلحدون بفتح الياء والحاء والباقون بضم الياء من ألحد إلحاداً والإلحاد العدول عن الإستقامة والانحراف عنها وفي الآية مسائل.

الأولى: أنَّ كلمة، الله، علمٌ على الأصح للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الكمالية وأصله إله فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالبارئ تعالى ولتخصّصه به قال الله تعالى: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا^(١).

وأما الإله فقد جعلوه إسماء لكلِّ معبود لهم ولذلك سمّوا الشمس الآلهة لإتخاذهم أيّاهم معبوداً وقيل هو من إله أي تحيّر وتسميته بذلك إشارة الى ما قال أمير المؤمنين عليه السلام كلٌّ دون صفاته تحبير الصفات وضلّ هناك تصاريّف اللغات وذلك أنَّ العبد إذا تفكّر في صفاته تحيّر فيها ولهذا روي، تفكّروا في آلاء الله تفكّروا في الله.

وقيل أصله ولَاَةٌ فأبدل الهمزة من الواو وتسميته بذلك لكون كل مخلوق و
 الهاً نحوه أما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات.
 وأما بالتسخير والإرادة معاً كبعض الناس ولذلك قال بعض الحكماء الله
 محبوب الأشياء كلها وعليه دلّ قوله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ**
بِحَمْدِهِ^(١) أصله من لا يلوها أي إحتجب وذلك إشارة الى قوله تعالى: **لَا**
تُذِرْكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُذِرُكَ الْأَبْصَارُ^(٢).

وأما الأسماء فهي جمع الأسم وهو ما يعرف به ذات الشيء وأصله سمو
 بدلالة قولهم أسماء وسَمِيَ وأصله من السمو وهو الذي به رفع ذكر المسمى
 فيعرف به والأسم دال على المسمى وكاشف عنه ولذلك قيل أَنَّ معرفة
 الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمى والمراد بالأسماء هنا ما ورد في
 الشريعة المقدسة لأن أسماء الله توقيفيه، والحسنى بضم الحاء هي تأنيث
 الأحسن وصف الجمع الذي لا يعقل بما يوصف به الواحدة كقوله تعالى: **وَ**
لِي فِيهَا مَارِئٌ أُخْرَى^(٣) فصيح وقيل الحسنى مصدر وصف به والمراد هنا
 الألفاظ التي تطلق على الله تعالى وهي الأوصاف الدالة على تغاير الصفات لا
 تغاير الموصوف كما تقول جاء زيد الفقيه الشجاع الكريم الحليم ولا يطلق
 عليه تعالى إلا ما قرره الشرع ونص عليه في إطلاقه على الله.

المسألة الثانية: في قوله: **فَادْعُوهُ بِهَا** أي فادعوا الله بتلك الأسماء التي
 جاءت من طريق الشرع نحو الله، رحمن، رحيم، كريم، رازق، وأمثال ذلك و
 حيث إننا أمرنا بأن ندعوا الله بها فلا بد لنا من بيان أن الأسماء التي ندعوا الله
 بها هل هي عبارة عن الألفاظ التي يتلفظ الإنسان بها أو هي عبارة عن
 المسميات التي تنطبق الألفاظ عليها أو هي عبارة عن نفس التسمية فالأقوال
 فيها ثلاثة:

فقالت الأشاعرة أنَّ الأسم نفس المسمى وغير التسمية وقالت المعتزلة أنَّ الأسم غير التسمية وغير المسمى وقال الغزالي أنَّ الأسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة وكيف كان فلا بدَّ لنا من بيان أنَّ الأسم ما هو وأنَّ المسمى ما هو وأنَّ التسمية ما هي وذلك لأنَّ التصديق لابدَّ وأن يكون مسبقاً بتصور المحكوم عليه والمحكوم به فنقول أن كان الأسم عبارة عن اللفظ الدال على الشئ بالوضع وكان المسمى عبارة عن نفس ذلك الشئ فالعلم الضروري حاصل بأنَّ الأسم غير المسمى.

وأن كان الأسم عبارة عن ذات الشئ والمسمى أيضاً ذات الشئ فهو هو نزاع فيه بين العقلاء فثبت أنَّ الخلاف الواقع في هذه المسألة أنما نشأ بينهم بسبب أنَّ التصديق لهم ما كان مسبقاً بالتصور والقضية ما اختلفوا فيها. والحق عندنا هو أنَّ الأسم غير المسمى من وجهٍ وغيره من وجهٍ آخر فمن حيث أنَّه يحكي عن المسمى ومرت له فهو عينه ومن حيث أنَّه مظهر له غيره لأنَّ المظهر غير المظهر وأن كان القول بأنَّ الحاكي أيضاً غير المحكي عنه لا يخلو عن قوَّة فالقول بأنَّ الأسم غير المسمى بقولٍ مطلق غير بعيدٍ ويمكن أن يحتجَّ عليه بوجوه:

أحدها: أنَّ لله تعالى أسماء كثيرة وهو ممَّا لا شكَّ فيه عند الكلِّ مع أنَّ المسمى وهو الذات الواجب الوجود واحد ليس بكثيرٍ وهو أيضاً ممَّا لا كلام فيه فثبت أنَّ الأسماء كثيرة دون المسمى وبذلك تثبت المغايرة بين الأسم والمسمى أيضاً.

فإن قلَّتْ ما ذكرتم من كون الأسماء كثيرة وأَنَّه ممَّا لا شكَّ فيه لا يساعده العقل وذلك لوجود الفرق بين الأسماء والتسميات وعليه فلقائل أن يقول التسميات كثيرة.

وأما الأسماء فلا، سلَّمنا أنَّ الأسماء كثيرة لكن لا نسلم أنَّ المسمى واحد لأنَّ المفهوم من الخالق حصول الخلق ومن الرزاق حصول الرزق وبين

المفهومين فرق واضح، والجواب أن تغاير المفهوم في الصفات لا يدل على كثرة المسمى فأنه واحد والأوصاف كثيرة وكيف لا يكون الأسم دون المسمى مع أنه لو كان الأسم عين المسمى يلزم أن يكون الأسم موصوفاً لنفسه وهو غير معقول أو يكون إسماً لنفسه وهو أيضاً غير معقول هذا كله مضافاً إلى أن الخالق ليس إسماً لحصول الخلق أو للخلق بل هو إسم للموجود الذي يصدر عنه الخلق الرزاق إسم للموجود الذي يصدر عنه الرزق. وهما أي من يصدر عنه الخلق ومن يصدر عنه الرزق واحد.

الوجه الثاني: أن الأسم قد يوضع للشيء المعدوم في الخارج كالعتقاء مثلاً واللائبوت واللا تحقق و شريك البارئ و أمثال ذلك فلو كان الأسم عين المسمى يلزم أن يكون الأسم أيضاً معدوم وليس كذلك.

الوجه الثالث: أن الله تعالى يقول: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** فلو كان الأسم عين المسمى فالمعنى يدعوا الله مع أنه قال: **فَادْعُوهُ بِهَا** أي بالأسماء وهذا يقتضي المغايرة.

و أما القائلون بأن الأسم نفس المسمى فأحتجوا أيضاً بوجه:
الأول: قوله تعالى: (سَبِّحْ إِسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ، وقوله، **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**)^(١).

وقوله: **فَبَارِكْ أَسْمَ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**^(٢) وجه الاستدلال بها أنه تعالى أمر بتسبيح إسم الله والعقل يدل على أن المسيح هو الله تعالى لا إسمه ولا غيره وهذا تقتضي العينية.

الثاني: قوله تعالى: **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**^(٣).

أخبر الله أنهم عبدوا الأسماء والقوم ما عبدوا إلا تلك الذوات فهذا يدل على أن الاسم هو المسمى.

الثالث: إذا قال القائل محمد رسول الله ﷺ فلو كان إسم محمد غير محمد لكان الموصوف بالرسالة غير محمد وهو باطل وكذا قوله: **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ^(١) ولو كان إسم أبي لهب غير أبي لهب لكان الموصوف بالذم غير أبي لهب وهو كما ترى.

والجواب من الوجوه المذكورة واضح بأدنى تأملٍ وذلك لأن المقصود بالمغايرة ليس أن الأسم أجنبى عن المسمى بل هو حاله عنه مرآت له فهو هو بوجه وأن كان غيره من وجه آخر فقوله تعالى سَبِّحْ إسم ربك الأعلى ونظائره لم يؤمر فيه بتسبيح الأسم من حيث هو إسم بل أمر بتسبيح الأسم باعتبار أنه كاشف عن المسمى وبعبارة أخرى الأمر وأن تعلق بتسبيح الإسم ظاهراً إلا أنه تعلق بالمسمى واقعاً لأن الإسم كاشف عنه فالإسم صار متعلقاً للأمر باعتبار المسمى لا من حيث أنه إسم وهذا لا يخفى على المتأمل.

المسئلة الثالثة: إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية.

فنقول قوله تعالى: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** يأمرنا بأن ندعوا الله بتلك الأسماء التي بينها الشرع لنا وحكم بشبوتها له تعالى، وهذا مؤيد بالعقل والنقل.

أما العقل فلأن العبد مخلوق وكل مخلوق محتاج الى خالقه إحتياج المعلول الى علته في جميع شؤنه وإن شئت قلت العبد فقير في ذاته والله تعالى هو الغني الحميد والفقير لابد له من السؤال عند إحتياجه ولا نعني بالدعاء إلا ذلك.

وأما النقل فالآيات والأخبار الواردة في فضل الدعاء أكثر من أن تحصي و لنذكر شرطاً منها تيمناً فمن الآيات:

قال الله تعالى: وَ قَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ^(١).
 قال الله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ
 إِذَا دَعَانِ^(٢).

قال الله تعالى: وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ^(٣).
 قال الله تعالى: قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَ لَا يَضُرُّنَا^(٤) و
 الآيات كثيرة.

و من الأخبار ما رواه في البحار بأسناده عن الرضا عليه السلام عن آبائه
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الدُّعاء سلاح المؤمن و عماد الدين و نور
 السموات و الأرض فعليكم بالدُّعاء و أخلصوا النِّية انتهى.
 و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أَنْ الدُّعاء يَرُدُّ القضاء.
 و بأسناده عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله
 داو و مرضاكم بالصدقة و أدفعوا أبواب البلاء بالدُّعاء الخبر.
 و بأسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال عليه السلام: أدفعوا أمواج البلاء
 عنكم بالدُّعاء قبل ورود البلاء الخبر.

و بأسناده في خبر الشَّامي أنَّه سأل أمير المؤمنين عليه السلام أي الكلام
 أفضل عند الله عزَّ و جلَّ قال عليه السلام: كثرة ذكره و التَّضرع اليه و
 دعاءه.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من شيء أحبَّ الى الله من أن
 يسأل و الأخبار أيضاً كثيرة.

وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ الْخ.

قيل فيه تهديد للكفار وأن الله تعالى سيعاقبهم على عدولهم عن الحق في تغيير أسماء أي وأتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنی.

وقال مجاهد معنى الإلحاد في أسماءهم تسميتهم أوثانهم اللات نظراً إلى إسم الله تعالى، والعزى، نظراً إلى العزيز ويسمون الله أباً وأوثانهم أرباباً ونحو هذا.

وقال ابن عباس معنى يلحدون يكذبون، وقال قتادة يشركون وقوله تعالى: سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من المعاصي بأنواع العذاب وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ كلمة، من للتبعيض أي بعض الخلق كذلك مما لاشك فيه لأن جميع أفراد الأمة والجماعة في كل عصر وزمان لم يكونوا على الضلال كما أنهم لم يكونوا على الحق جميعاً فلا جرم كان بعضهم على الحق وبعضهم على غير الحق وطريق الحق واضح وطريق الباطل على خلافه.

نعم إتباع الحق أقل من إتباع الباطل كما قال تعالى: وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ^(١) وأما ما قاله بعض المفسرين من العامة أن المراد بهم المهاجرون والأنصار فلا دليل عليه بل الدليل على خلافه موجود لأن بعضاً من المهاجرين والأنصار كانوا أضرباً بالاسلام من اليهود والنصارى والمشركين فالقول بأن المهاجرين والأنصار كلهم ممن يهدون بالحق وبه يعدلون، لا يقبله العقل السليم العاري عن التعصب والعناد والذين كذبوا بآياتنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

قال أبو عبيدة، الإستدراج أن تدرج الى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا تهجم عليه وقال ابن قتيبة، هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون يتابعهم به ولا يجاهرهم.

وقال الأزهري أي سناخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون وذلك أن الله تعالى يفتح لهم باباً من النعمة فيغتبطون به ويركنون إليه ثم يأخذهم على غرثهم اغفل ما يكون.

وقال الجبائي، سنستدرجهم الى العقوبات حتى يقعوا فيها من حيث لا يعلمون.

وقال الزمخشري، معناه سنستدينهم قليلاً قليلاً الى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع إنهماكهم في الغي فكلما جدّد عليهم نعمة إزدادوا بطراً وجددوا معصية فيندرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أن مواترة النعم أثره من الله وتقريب وأنما هي خذلان منه وتبعد فهذا إستدراج الله نعوذ بالله منه إنتهى.

قال الأعشي:

فَلَوْ كُنْتُ فِي جُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً وَرَقِيتُ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ
لِإِسْتِدرْجِكَ الْقَوْلَ حَتَّى تَهْزُهُ وَتَعْلَمَ إِنِّي عَنْكُمْ غَيْرُ مُفْجَمٍ
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ أَي أَوْخَرَهُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا وَأَبْقِيَهُمْ
إِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَلَا أَعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَفُوتُونِي
يَعْجِزُونِي وَلَا يَجِدُونَ مَهْرَباً وَلَا مَلْجَأً وَقَوْلُهُ أُنْ كَيْدِي مَتِينٌ، مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَذَابِي
كَذَلِكَ وَسَمَاءَهُ كَيْدٌ لِتَرْوُلِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ وَقِيلَ أَنَّهُ أَرَادَ جِزَاءَ
كَيْدِهِمْ وَسَمَاءَهُ كَيْدٌ لِلإِزْدِرَاجِ وَقَوْلُهُ مَتِينٌ أَي شَدِيدٌ.

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِضَاحِحِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

قالوا في سبب نزولها أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش يا بني فلان يا بني فلان يحذّره ويدعوهم الى الله تعالى فقال بعض الكفار حين أصبحوا هذا مجنون بات بصوت حتى الصباح وكانوا

يقولون شاعر مجنون فنفي الله عزّ وجلّ عنه ما قالوه ثمّ أخبر أنّه ﷺ محدّر من عذاب الله وهذه الآية باعثة لهم على التفكّر في أمر الرّسول ﷺ و إنتفاء الجنّة عنه وهذا الإستفهام وقيل معناه التّوبيخ وقيل التّحريض على التّأمّل، والجنّة بكسر الجيم الجنّ وقيل هي هيئة كالجلسة والرّكبة أريد بها المصدر أي ما بصاحبهم من جنونٍ وفي قوله أولم يتفكّروا إشارة الى عدم تأملهم وتدبرهم فيما قالوا والمعنى أ ولم يتأمّلوا ويتدبّروا في إنتفاء هذا الوصف عن الرّسول فأنته منتفٍ لا محالة ولا يمكن لمن أمعن الفكر في نسبة ذلك إليه ثمّ قال تعالى شأنه.

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ

هذا الإستفهام للإنكار وقيل للتّوبيخ كسابقه، والملكوت قيل هو مصدر ملك أدخلت فيه التّاء نحو رحموت ورهبوت وهو مختصّ بملك الله تعالى وقيل هو الملك العظيم، وقال بعضهم هو باطن عالم الملك وكيف كان لمّا حصّهم على التّفكّر في أمر الرّسول وقال: **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ** وكانت الرّسالة متفرّعة على تقرير الدّليل على التّوحيد أعقب الكلام بما يدلّ عليه وعلى وجود الصّالح الحكيم وقال لهم أ ولم يتفكّروا في ملكوت السّموات والأرض، وعجيب صنعها فينظروا فيهما نظر مستدلّ ومعتبر فيعرفون بما يريدون من إقامة السّموات والأرض مع عظم أجسامها وثقلها على غير عمدٍ وتسكينها من غير آليّة **وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** أي وينظروا أيضاً فيما خلق الله تعالى من أصناف خلقه فيستدلّوا بذلك على أنّه تعالى خالق جميع الأجسام وأنّه أولى بالالهيّة من الأجسام المحدثّة **وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** الواو للعطف والمعنى أ ولم يتفكّروا أو لم ينظروا في حياتهم وموتهم وأنّ الموت لا بدّ منه وأن

عسى أن يكون قد إقترَب أجَلهم فيدعوهم ذلك الى أن يحتاطوا لدينهم و لأنفسهم فيما يصيرون اليه بعد الموت من أمور الآخرة و اذا كانوا كذلك فبأي حديث بعده أي بعد القرآن يؤمنون، و ذلك لوضوح دلالته على أنه كلام الله و معجزاً لنبيه بحيث لا يقدر أحد أن يأتي بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً قوله: حديثٌ إشارة الى كون القرآن محدثاً غير قديم لأن إثباته حديثاً ينافي كونه قديماً و محصل الكلام في هذه الآية و أمثالها هو الحث على التفكر في آيات الله و التأمل و التدبر في عجائب صنعه و مظاهر قدرته في أصناف خلقه ليستدل به على توحيده و أنه لا مؤثر في الوجود إلا هو يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ثم بعد ذلك التفكر في حياته و موته و أنه لا يبقى دائماً في الدنيا و مصيره الى الموت لا محالة ثم بعد الموت مسؤول عن أقواله و أعماله التي صدرت منه في دار الدنيا فالتفكر في هذه الأمور يصير سبباً و باعثاً لليقظة عن نوم الغفلة و التوجه الى المقصد و المنتهى.

مَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

قرأ الكسائي و حمزة و خلف، يذرههم بالياء و الباقر بالتون و ضم الرءاء فمن قرأ بالتون قال لأن الشرط من الله فكأنه قال من يضلل.

فنذرهم، و من قرأ بالياء رده الى اسم الله و تقديره الله يذرههم، فمن قرأ بالتون لم يجعله جواباً و يجوز أن يكون أضمر المبتدأ و تقديره و نحن نذرهم فيكون في موضع الجزم، و أما من قرأه بالياء فجعله جواباً للشرط لا محالة و قد تكلمنا في معنى الضلالة و الهداية غير مرة و قلنا المراد بإضلال الله ليس أن خلقه كذلك بمعنى أن الله جعل العبد مجبوراً على الضلالة بل المراد أنه تعالى و كله الى نفسه و خلّى بينه و بين الفعل و معنى الهداية إرشاد العبد الى الحق بسبب الأنبياء و الشرائع و الكتب السماوية و إعطاء التوفيق إياه على قبول الحق و عليه فمعنى الآية واضح لا خفاء فيه و قوله: فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ فَالطُّغْيَانُ الْعُلُو فِي الْكُفْرِ وَالْعَمَهُ التَّحِيرُ وَالتَّرَدُّدُ فِي الْفِكْرِ وَأَحْتَمَلُ
بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مَنْ يَضِلُّ اللَّهَ عَنِ الْجَنَّةِ عِقَابُهُ عَلَى كُفْرِهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ
الْبِهَا، وَقِيلَ مَعْنَاهُ مَنْ حَكَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِضَلَالِهِ وَسَمَّاهُ ضَالًّا بِمَا فَعَلَهُ مِنَ الْكُفْرِ وَ
الضَّلَالِ فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِزَالَةِ هَذَا الْإِسْمِ عَنْهُ وَلَا يُوصَفُ بِالْهَدَايَةِ.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا
لَوْفُتْهَا إِلَّا هُوَ

الضَّمِيرُ فِي يَسْأَلُونَكَ لِقْرِيشٍ قَالُوا يَا مُحَمَّدُ إِنَّا قَرَابَتُكَ فَأَخْبِرْنَا بِوَقْتِ
السَّاعَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الضَّمِيرُ لِلْيَهُودِ وَالْمُرَادُ بِالسَّاعَةِ الْقِيَامَةُ وَإِنَّمَا سَأَلُوا النَّبِيَّ
عَنْ وَقْتِ قِيَامِهَا وَثَبَاتِهَا وَمَعْنَى، أَيَّانَ، مَتَى، مَرَسَاهَا فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ بِالْإِبْتِدَاءِ
يُقَالُ رَسَى يَرْسُو إِذَا ثَبَتَ وَقِيلَ مَعْنَاهُ الْوَقْتُ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ جَمِيعُ الْخَلْقِ وَ
مَعْنَى سَأَلَهُمْ عَنْهَا أَيَّ مَتَى وَقَوَعِهَا وَكَوْنِهَا فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يُجِيبَهُمْ وَ
يَقُولَ لَهُمْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا أَحَدٌ كَمَا قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ^(١).

وَقَوْلُهُ: لَا يُجَلِّيهَا أَيَّ لَا يَظْهَرُهَا فِي وَقْتِهَا إِلَّا اللَّهُ أَقُولُ وَكَلِمَةً، إِنَّمَا، الَّتِي
تُقَيِّدُ الْحَصْرَ أَيَّ حَصَرَ الْعِلْمِ بِهَا عَلَى اللَّهِ أَقْوَى شَاهِدٍ عَلَى الْمُدَّعِي، قَالَ
صَاحِبُ الْكَشَافِ، السَّاعَةُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْغَالِبَةِ كَالنَّجْمِ لِلثَّرِيَا وَسَمَّيْتُ الْقِيَامَةَ
بِالسَّاعَةِ لَوْقَوَعِهَا بَغْتَةً أَوْ لِأَنَّ حِسَابَ الْخَلْقِ يَقْضَى فِيهَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَسَمَّيْتُ بِالسَّاعَةِ لِهَذَا السَّبَبِ أَوْ لِأَنَّهَا عَلَى طُولِهَا كَسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ الْخَلْقِ.

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ السَّاعَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي يَنْفَحُ فِي الصُّورِ فَيَمُوتُ
الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ثُمَّ يُحْيِيهِمُ اللَّهُ لِلسُّؤَالِ وَالْحِسَابِ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّ عِلْمَ
السَّاعَةِ مَخْتَصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى أَيَّ لَا يَعْلَمُ وَقْتِهَا إِلَّا هُوَ وَأَمَّا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ لَا مُحَالَةَ فِي

وقت يعلمه الله تعالى فهو من ضروريات الإسلام لأن إنكارها إنكار القيامة بل هي هي، وقد أشار الله تعالى في كثير من الآيات بوقوعها:

قال الله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا^(١).

قال الله تعالى: أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْصَبْ اصْصَبِ الْجَمِيلِ^(٣).

قال الله تعالى: وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ^(٤).

قال الله تعالى: لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا^(٥).

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ^(٦).

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ^(٧).

قال الله تعالى: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا^(٨).

والآيات كثيرة فمنها ما يدل على أصل وقوعها وأنها مما لا بد منه.

ومنها ما يدل على إنحصار العلم بها بالله تعالى وأنه مما أستاثره الله به والذي يجب علينا هو الاعتقاد بوقوعها وأما زمان وقوعها فلا يجب علينا التفحص عنه مع أنه لا فائدة فيه ثقلت في السموات والأرض لا تأتيناكم إلا بغتة في معنى المراد بالثقل قولان:

أحدهما: ما ذهب إليه السدي وغيره من أن المعنى ثقلت علمها على السموات والأرض.

٢- يوسف = ١٠٧

٤- النحل = ٧٧

٦- الحج = ١

٨- الأحزاب = ٦٣

١- الأنعام = ٣١

٣- الحجر = ٨٥

٥- الكهف = ٢١

٧- لقمان = ٣٤

ثانيهما: ما ذكره ابن جريح وغيره قالوا، ثقل وقوعها على أهل السموات والأرض.

أقول ما نقلناه عن السدي وابن جريح لا يرجع الى محصل ولا يقبله العقل السليم إذ لا معنى لثقل علمها على السموات والأرض فإن قال قائل المقصود ثقل علمها على أهل السموات والأرض نقول له هذا أيضاً لا معنى له وأي ثقل للعلم بها أو بغيرها على أهل السموات والأرض أي الملائكة والإنسان فإن العلم كيفية نفسانية لا ثقل له أصلاً وبذلك ظهر فساد القول الثاني أيضاً هذا كله مضافاً الى أنه قال ثقلت في السموات والأرض، ولم يقل، ثقل فلو كان مرجع الضمير في ثقلت الى العلم أو الى الوقوع لينبغي أن يقال، ثقل وهو واضح. وقال بعضهم ثقلت، أي خفيت والمعنى خفيت علمها على السموات والأرض وهو أيضاً كسابقه مضافاً الى أننا لم نجد من لغة العرب، الثقل بمعنى الخفاء والحاصل أن هذه الأقوال لا يمكن الإعتماد عليها لما ذكرناه.

والحق أن الكلام يحمل على ظاهره وهو أن الضمير المستتر في الفعل أعني به ثقلت، يرجع الى الساعة نفسها لا الى العلم بها ولا الى الوقوع أي وقوعها وعليه فالمعنى أن الساعة أعني بها القيامة ثقلت على السموات والأرض، أي صعبت فالثقل كناية عن الصعوبة وذلك لأن كل ثقل يصعب حمله قال رسول الله ﷺ: **أنتي تارك فيكم الثقلين لأن كتاب الله وعترتي أهل بيتي الحديث سمي الكتاب والقوة بالثقلين لأن العمل بالكتاب ومتابعة العترة صعب مستصعب لا يقدر عليه إلا الواحد من الناس اذا عرفت هذا فنقول:**

قيام الساعة صعب على جميع الموجودات لأن الساعة تفنيها بالكلية بحيث لا يبقى من الموجودات عين ولا أثر وأي شيء أصعب وأشد من الإهلاك وإزالة الوجود عن الموجود وهذا هو الثقل الذي لا أثقل منه والدليل على ما ذهبنا اليه في تفسير الآية:

قال الله تعالى: إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَحَرَتْ^(١).

قال الله تعالى: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ^(٢).

قال الله تعالى: وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ، وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ^(٣).

قال الله تعالى: وَإِذَا الْبُحَارُ فُجِّرَتْ، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ^(٤).

قال الله تعالى: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا^(٥).

قال الله تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيْعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ^(٦).

قال الله تعالى: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ^(٧).

قال الله تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ^(٨).

و أمثالها من الآيات كثيرة فهذه الآيات كما ترى ترشدنا الى ثقل يوم الساعة وصعوبتها وأن ذلك اليوم يوم عسير وهذا معنى قوله: ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْ نَقُولُ لَا شَيْءَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ أَثْقَلَ مِنْ يَوْمِ السَّاعَةِ وَهَذَا التَّفْسِيرُ لَمْ نَجِدْهُ فِي كَلَامِ الْمَفْسِّرِينَ وَ أَمَّا هُوَ خَطَرُ بِيَالِي فَكَأَنَّهُ مِمَّا أَلْهَمَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ كَانَ حَقًّا وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَمَّا قَوْلُهُ: لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً فَقَدْ ظَهَرَ مَعْنَاهُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي لَا عِلْمَ لَنَا بِزَمَانٍ وَقَوْعِهِ فَادَا وَقَعَ بَغْتَةً لَا مُحَالَةَ.

يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

٢- الانفطار = ١ و ٢

٤- الانفطار = ٣ و ٤

٦- الزمر = ٦٨

٨- ق = ٢٠

١- الانفطار = ١ و ٢

٣- الانفطار = ٣ و ٤ و ٥

٥- الزلزال = ١ و ٢

٧- النمل = ٨٧

في قوله: يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا أقوال:

أحدها: ما عن ابن عباس والسدي ومجاهد وهو أنَّ المعنى كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بسؤالهم أي محبُّ له.

وقال ابن قتبية معناه، كَأَنَّكَ طالب علمها.

وقيل كَأَنَّكَ يعجبك سؤالهم وقيل معناه كَأَنَّكَ عالم بها.

وقيل كَأَنَّكَ فرح بسؤالهم وقيل كَأَنَّكَ أكثر السؤال عنها يقال أحفى فلان بفلان في المسألة إذا أكثر عليه وكثرة الأقوال والإحتمالات في الكلام دليل على إضطرابهم في فهم معناه.

قال الرَّاغِب في المفردات الإحفاء في السؤال التَّنَزُّع، في الإلحاح في المطالبة أو في البحث عن تَعْرِف الحال.

وقال بعضهم يقال أحفى فلان في المسألة إذا بالغ فيه وقيل أَنَّهُ من قولهم تَحَفَّيْتُ بفلان في المسألة إذا سألته سؤالاً يظهر فيه المسرة والمحبة قال الشاعر:

سؤال حَفِيٍّ عن أخيه كَأَنَّهُ بذكرته وسمان أم مُقَوَّاسٍ
وأحسن الأقوال في المقام هو أن يقال كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عنها، معناه كَأَنَّكَ بارٌّ لطيفٌ بهم لطيف العشرة معهم ومنه قوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا أي بارًّا لطيفاً، قُلْ إِنَّمَا عَلَّمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ذلك أي لا يعلمون أنَّ علمه مختص بالله تعالى ولا علم لغيره به فلو علموا ذلك لم يلحوا للسؤال عنها.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
 اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ
 الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
 لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
 وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
 تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا
 أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَنْ اْتَيْنَا صَالِحًا
 لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا أَتَيْهُمَا
 صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَيْهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ
 عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا
 وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا
 وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
 الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ
 أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ قَادَعُوهُمْ فَلَيسَتْ جَبِيبُوا لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ
 لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا
 أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ
 ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ (١٩٥) إِنْ وَلِيَ اللَّهُ
 الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ
 (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ

تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرِيَهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

◀ اللغة

تَغْشِيهَا، التَّغَشَّى والغشيان والإتيان كناية عن الجماع.
يَبْطِشُونَ، بكسر الطاء وضمها وهما لغتان والكسر أفصح والبطش تناول
الشيء بصولة.

◀ الإعراب

لِنَفْسِي يتعلّق بأملك أو حال من، نفع إلا ما شاء الله إستثناء من الجنس
لِقَوْمٍ يتعلّق ببشير عند البصريين وبنذير عند الكوفيّين شُرْكَاءَ يقرأ بالمدّ على
الجمع ويقرأ شركاً بكسر الشين وسكون الرّاء والتّثوين وفيه وجهان:
أحدهما: تقديره، جعلاً لغيره شركاً أي نصيباً.

الثّاني: جعلاله ذا شرك فحذف المضاف في الموضعين أم أنتم صامِتُونَ
جملة إسميّة في موضع الفعلية والتّقدير أدعوتموهم أم صمتتم عبداً خبر إن و
أمثالكم نعت له والعائد محذوف ويقرأ، عبداً، بالنّصب وهو حال من
العائد المحذوف وأمثالكم الخبر.

◀ التفسير

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ

قال ابن عباس قال أهل مكة لرسول الله ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص
قبل أن يغلو فتشتري وتبيع وبالأرض التي تجذب فترحل عنها الى ما
أخصب فنزلت الآية وقيل لما رجع من غزوة المصطلق جاءت ريح في

الطَّرِيقَ فَأَخْبِرْتَ بَمَوْتِ رِفَاعَةَ وَقَالَ فِيهِ غِيظُ الْمُنَافِقِينَ ثُمَّ قَالَ أَنْظِرُوا أَيْنَ نَاقَتِي فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ يَخْبِرُ بَمَوْتِ رَجُلٍ فِي الْمَدِينَةِ وَلَا يَعْرِفُ أَيْنَ نَاقَتُهُ فَقَالَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا كَيْتُ وَكَيْتُ وَنَاقَتِي فِي الشَّعْبِ وَقَدْ تَعَلَّقَ زَمَامُهَا بِشَجَرَةٍ فَوَجَدَهَا عَلَى مَا قَالَ فَنَزَلَتْ أَنْتَهَى.

أَقُولُ وكيف كان ففي الآية دلالة صريحة على أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَعْلَمُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَهَذَا مِمَّا لَا يَنْكَرُ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ فَضْلًا مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا عَالِمِينَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَالْهِيَ هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ فَكُنْتُ أَشْتَرِي مَا أُرْبِحُ وَأَتَجَنَّبُ مَا أَخْسِرُ فِيهِ فَتَكْثُرُ بِذَلِكَ الْأَمْوَالُ وَالْخَيْرَاتُ عِنْدِي وَكُنْتُ أَعِدُّهُ فِي زَمَانِ الْخَصْبِ لَزَمَانِ الْجَدْبِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** قِيلَ مَعْنَاهُ مَا مَسَّنِيَ الْفَقْرُ وَقِيلَ مَا مَسَّنِيَ التَّعْذِيبَ وَقِيلَ مَا مَسَّنِيَ جَنُونَ جَوَابًا لَهُمْ حِينَ نَسَبُوهُ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ حُضُورِ الْأَجْلِ.**

وَقِيلَ **لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَكُنْتُ قَدِيمًا وَقَدِيمٌ لَا يَمْسُهُ السُّوءُ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ عَرَفَ لَهُمْ نَفْسَهُ وَقَالَ لَسْتُ إِلَّا مَخْوَفًا مِنَ الْعِقَابِ مُحَذَّرًا مِنَ الْمَعَاصِي وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ حَائِثًا عَلَيْهَا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** بِي أَيِ بَرَسَالَتِي فَيَصَدَّقُونَ بِمَا أَقُولُ قَالُوا وَإِنَّمَا خَصَّ الْإِنْذَارَ وَالتَّبَشِيرَ بِالْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهِمَا دُونَ مَنْ لَا يَصَدِّقُ لَهُ كَمَا قَالَ هَدَى لِلْمُتَّقِينَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْقُدْرَةَ قَبْلَ الْفِعْلِ لِأَنَّ قَوْلَهُ: **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ** يَفِيدُ أَنَّهُ كَانَ قَادِرًا لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنِ الْقُدْرَةُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ لَوْ عَلِمَ الْغَيْبَ لَمَا أَمَكَّنَهُ الْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الْخَيْرِ وَذَلِكَ خِلَافُ الْآيَةِ إِنَّتَهَى.

أقول ما ذكره لا مربة فيه لما ذكره من الدليل عليه ولأن الفعل مسبوق بالقدرة عليه عقلاً إذ بها يقدر عليه وهو واضح.

قال الرّازي، في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، أعلم أن القوم لما طالبوه بالأخبار عن الغيوب طالبوه بإعطاء الأموال الكثيرة والدولة العظيمة ذكر عليه السلام أن قدرته قاصرة وعلمه قليل وبيّن أن كلّ من كان عبداً كان كذلك والقدرة الكاملة والعلم المحيط ليسا إلا لله تعالى فالعبد كيف يحصل له هذه القدرة وهذا العلم وأحتج أصحابنا في مسئلة خلق الأعمال بقوله تعالى: **قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** والإيمان نفع والكفر ضرر فوجب أن لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى وذلك يدل على أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بمشيئة الله سبحانه وتقريره ما ذكرناه مراراً أن القدرة على الكفر إن لم تكن صالحة للإيمان فخالق تلك القدرة يكون مريداً للكفر وأن كانت صالحة للإيمان إمتنع صدور الكفر عنها بدلاً عن الإيمان إلا عند حدوث داعية جازمة فخالق تلك الداعية الجازمة يكون مريداً للكفر فثبت أن على جميع التقادير لا يملك العبد نفعاً ضرراً إلا ما شاء الله إنتهى كلام الرّازي.

وأنا أقول ما ذكره الرّازي في المقام لا ربط له بالآية وذلك لأن الآية ليست بصدد بيان أن الفعل الصادر من العبد من الله أو من العبد حتى يقال أن الفعل مسبوق بوجود الداعية وهي مخلوقة له تعالى فالعبد مجبور في فعله وكان الرّازي لم يعلم في إثبات مذهبه إلا تلك الداعية التي تكررت منه في مورد كثيرة وغفل عن الاختيار الذي يقع بين الداعية والفعل وقد تكلمنا في هذا الباب غير مرّة وكيف كان فالآية بصدد بيان أن الله تعالى علام الغيوب ولا يعلم الغيب إلا هو من عند نفسه وفي حد ذاته وهذا ممّا لا كلام فيه.

وفي قوله: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** إشارة بل دلالة على أن المخلوق قد يعلم الغيب بأذنه تعالى وبإعطاء إياه وهذا أصل من الأصول الإعتقاديّة والسّر فيه واضح وهو أن المخلوق كائناً من كان محتاج الى ربّه فقير في ذاته:

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ^(١).

والفقر لا يختص بالفقر المالي بل الفقر ثابت له في جميع شئونه كيف وهو محتاج في وجوده وبقائه الى خالقه والعلم والقدرة وسائر الصفات من لوازم الوجود وشئونه فهو الذي يعطي الوجود والقدرة والعلم والإرادة وغيرها من الصفات فكلماً ثبت للمخلوق من الوجود وتوابعه فهو من واهب العطيات و معطي الخيرات والآية وأمثالها ناظرة الى هذه الدقيقة التي لا تخفى على أحد من العقلاء.

ومحصل الكلام فيها هو أنها لا تدل على نفي الغيب عنه ﷺ بقول مطلق بل تدل على نفيه من عند نفسه مع قطع النظر مما أعطاه الله ولأجل هذا قال إلا ما شاء الله.

والفرق بين النفي المطلق والنفي المقيد واضح لا خفاء فيه وهذا هو الإعتقاد الصحيح في علوم الأنبياء والأئمة المعصومين بالنسبة الى الغيب والله يهدي الى سبيل الرشاد.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا
فيها مسائل:

الأولى قوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فقال جمهور المفسرين فيه إخبار عن الذي خلق البشر من نفس واحدة وهي آدم، والمعنى أن الله تعالى هو الذي خلقكم جميعاً من نفس واحدة وهي نفس آدم باجماع من المفسرين ولم نجد فيه مخالفاً بعد التفحص فيما بأيدينا من التفاسير فكأنه مما إتفق عليه الكل ثم أن النفس بفتح النون وسكون الفاء والسين مصدر و جمعها أنفس ونفوس وهي أي النفس تطلق على الروح، كما قال: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ أي أرواحكم.

و على العين كما يقال أصابته نفس أي عين، و على الدَّم يقال دفع نفسه أي دمه.

و على الجسد يقال هو عظيم النفس أي الجسد.

و على الحقيقة كما يقال نفس الأمر أي حقيقته و هى مؤنثة إن أريد بها الرّوح نحو خرجت نفسه و مذكّر إن أريد بها الشّخص نحو عندي خمسة عشر نفساً اذا عرفت هذا فنقول:

جمهور المفسّرين على أنّ المراد بالنّفس في قوله تعالى: **نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** آدم أبو البشر و عليه فالمعنى هو الذي خلقكم من آدم، و هذا أنّما يتّم بناءً على كون الخطاب في قوله: **خَلَقَكُمْ** بغير آدم من أولاده الى يوم القيامة أي هو الذي خلق أولاد آدم من آدم و أمّا لو قلنا بعموم الخطاب بحيث يشمل جميع البشر حتّى آدم أبو البشر فالمعنى لا يستقيم لأنّ آدم لم يخلق من آدم و أنّما خلق من تراب لقوله تعالى: **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ**.

و عليه فالمراد بالنّفس الواحدة هو التّراب و هذا ممّا لا إشكال فيه لأنّ النّفس تطلق على حقيقة الشّيء و ذاته فيصير المعنى هو الذي خلقكم من حقيقة واحدة و هى التّراب و من المعلوم أنّ حمل الكلام على العموم أولى لا سيّما عند عدم التّخصيص ظاهراً.

المسألة الثانية قوله: **وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** قال المفسّرون المراد بالزوج حواء و تأنيث الضّمير في قوله: **إِلَيْهَا** باعتبار النّفس أي جعل الله من النّفس الواحدة زوجها ثمّ أنّهم اختلفوا في كيفيّة خلق زوجها.

فقال صاحب الكشّاف هي حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ^(١) انتهى.

و به قال البيضاوي و قال الرّازي خلقها الله من ضلع آدم ^{إشلالاً} من غير أذى.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

بجمل السّورة

وبه قال الطبري والسيوطي في الدر المنثور وعليه إتفاق العامة ولم نجد في تفاسيرهم الموجودة عندنا مخالفاً لهذه المسألة.

والذي ظهر لنا في المقام تبعاً لما ورد عن أهل البيت عليهم السلام هو أن الله تعالى خلق حواء من فضل طينة آدم وأن شئت قلت خلق الله آدم وحواء من طينة واحدة إلا أن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى أولاً وخلق حواء ثانياً وأما الطينة فيهما فواحدة.

روي المجلسي رحمته الله بأسناده عن عمر و بن أبي المقدم عن أبيه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام من أي شيء خلق الله حواء فقال عليه السلام أي شيء يقول هذا الخلق.

قلت يقولون أن الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم فقال عليه السلام كذبوا أكان يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه فقلت جعلت فداك يابن رسول الله من أي شيء خلقها فقال عليه السلام: أخبرني أبي عن أباؤه قال قال رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى قبض قبضته من طين فخلطها بيمينه وكلتا يديه يمين فخلق منها آدم وفضلت فضلة من طين فخلق منها حواء انتهى.

قال المجلسي رحمته الله بعد نقله ما نقلناه عنه، فالأخبار السابقة أمّا محمولة على الثقة أو على أنها خلقت من طينة ضلع من أضلاعه انتهى كلامه.

أقول هذا هو الحق الحقيقي بالإتباع لا غيره ثم أنه تعالى قال وجعل منها زوجها، ولم يقل وخلق منها زوجها، لنكتته خفيت على المفسرين ولذلك لم يتعرضوا لها وهي أن الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا إحتذاء.

قال الله تعالى: **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** أي أبداعهما بدلالة قوله بديع السموات والأرض وقد يستعمل في إيجاد الشيء من الشيء:

قال الله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ (١).

قال الله تعالى: خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ (٢) وهكذا.

وَأَمَّا الجعل فهو عبارة عن تصيير الشيء على حالة دون حالة:

قال الله تعالى: أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا (٣).

قال الله تعالى: جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا (٤).

قال الله تعالى: وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا (٥).

قال الله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (٦).

و أمثال ذلك من الآيات كثيرة هذا هو الأصل في معنى الجعل ولا ينافي هذا استعماله في غيره من المعاني من الخلق والحكم وأمثال ذلك بالقرنية الحالية أو المقالية كما هو شائع في أكثر الألفاظ اذا عرفت هذا فنقول: لَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ أَدَمَ مِنَ التُّرَابِ فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْخَلْقِ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَوْجَدَ شَيْئًا مِنْ شَيْءٍ، أَي أَوْجَدَ أَدَمَ مِنَ التُّرَابِ.

وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ حَوَّاءَ فَلَمَّا كَانَ مِنَ التُّرَابِ بِوَسْطَةِ أَدَمَ لَا بِدُونِ الْوَاسِطَةِ فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْجَعْلِ وَقَالَ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا فَلَوْ كَانَتْ حَوَّاءَ مَخْلُوقَةً مِنْ ضَلْعٍ مِنْ أَضْلاعِ أَدَمَ كَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ لَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ شَيْئًا مِنْ شَيْءٍ آخَرَ وَلَا نَعْنِي بِالْخَلْقِ إِلَّا هَذَا وَلَمْ يَقُلْ هَذَا بَلْ قَالَ وَجَعَلَ أَي صَيَّرَ هَذَا الْمَخْلُوقَ كَذَلِكَ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى نَقُولُ:

خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى أَدَمَ مِنَ التُّرَابِ وَهَذَا هُوَ النَّفْسُ الْوَاحِدَةُ ثُمَّ جَعَلَ مِنَ النَّفْسِ زَوْجَهَا فَالْمَخْلُوقُ مِنَ التُّرَابِ لَيْسَ إِلَّا نَفْسًا وَاحِدَةً إِلَّا أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ سَمَّيْتَ بِأَدَمَ وَحَوَّاءَ وَ عَلَيْهِ فَالْخَلْقُ تَعَلَّقَ بِأَدَمَ أَوَّلًا وَبَزَوْجِهِ ثَانِيًا وَبِالْعَرَضِ بِمَعْنَى أَنَّ أَدَمَ لَوْ لَمْ يَخْلُقْ لَمْ يَخْلُقْ زَوْجُهُ أَبَدًا وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِ

جزء ٩

المجلد السابع

١- النحل = ١٢

٢- المؤمنون = ١٢

٣- البقرة = ٢٢

٤- النحل = ٨١

٥- نوح = ١٦

٦- الزخرف = ٣

٧- النحل = ٨١

٨- البقرة = ٢٢

٩- نوح = ١٦

لَيْسَكُنَّ إِلَيْهَا فَالْآمَ إِمَا لِلتَّعْلِيلِ وَإِمَا لِلغَايَةِ وَعَلَى التَّقْدِيرِينَ فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ مَجْعُولَةٌ لِأَجَلِهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ **عَالِيًّا** فِي الْخَبَرِ وَفَضَلَتْ فَضْلَةً مِنْ طَبَقٍ فَخُلِقَ مِنْهَا حَوَاءٌ، فَالْجَنَسُ فِي هَذَا الْمَخْلُوقِ وَاحِدٌ وَالتَّوْنُ يَتَفَاوَتُ بِالذَّكُورِيَّةِ وَالْأُنُوثِيَّةِ وَعَلَيْهِ فَالْخَطَابُ فِي قَوْلِهِ: **خَلَقَكُمْ** يَشْمَلُ الْجَمِيعَ حَتَّى أَدَمَ وَالْمُرَادُ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ مَادَّةُ الْخَلْقَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا أَدَمَ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَهِيَ لَيْسَتْ إِلَّا التُّرَابُ.

وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ لِأَنَّ النَّفْسَ كَمَا مَرَّ الْكَلَامُ فِيهَا تَطْلُقُ عَلَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَذَاتِهِ كَمَا نَطْلُقُ عَلَى غَيْرِهَا فَالنَّفْسُ الْوَاحِدَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْخَلْقَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

هَذَا بِنَاءٌ عَلَى إِرَادَةِ الْعُمُومِ مِنَ الْخَطَابِ وَأَمَّا بِنَاءٌ عَلَى الْخُصُوصِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ أَوْلَادُهُ دُونَهُ فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ مِنْ أَدَمَ وَحَوَاءَ عَلَى مَا مَرَّ تَفْصِيلُهُ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ حَمْلَ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَاهُ الْعَامِّ أَوْلَى وَأَنْفَعُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ قَوْلُهُ: فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ التَّغْشَى وَالتَّغْشَى وَالْغَشِيَانُ وَالْإِتْيَانُ كُنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ أَيْ فَلَمَّا وَطَّأَهَا وَجَامَعَهَا، وَقِيلَ تَغَشَّاهَا بِدُنُوهِ بِهَا لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا حَمَلَتْ يَعْنِي حَمَلَتْ حَوَاءَ حَمْلًا خَفِيفًا وَمَعْنَى الْفَةِ أَنَّهُ لَمْ تَلْقَ بِهِ مِنَ الْكَرْبِ مَا يُعْرِضُ لِبَعْضِ الْحَبَالِيِّ وَالْحَمْلُ بِفَتْحِ الْحَاءِ مَا كَانَ فِي بَطْنٍ أَوْ عَلَى رَأْسِ الشَّجَرَةِ وَبِالْكَسْرِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرٍ أَوْ عَلَى رَأْسٍ غَيْرِ شَجَرَةٍ.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ الْحَمْلُ الْخَفِيفُ هُوَ الْمَنِي الَّذِي تَحْمِلُهُ الْمَرْأَةُ فِي فَرْجِهَا. وَأَمَّا قَوْلُهُ: **فَمَرَّتْ بِهِ** فَقَالُوا فِي مَعْنَاهُ أَيْ اسْتَمَرَّتْ بِهِ وَقَامَتْ وَقَعَدَتْ هَذَا عَلَى الْقَلْبِ أَيْ فَمَرَّ بِهَا أَيْ اسْتَمَرَّ بِهَا.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ يَأْفَمَضْتُ بِهِ إِلَى وَقْتِ مِيلَادِهِ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ وَلَا إِزْلَاقٍ، الْمُرَادُ بِالْحَمْلِ الْخَفِيفِ التَّطْفَةِ هَذَا كُلُّهُ بِنَاءٌ عَلَى التَّشْدِيدِ وَأَمَّا عَلَى التَّخْفِيفِ.

كما نقل عن ابن عباس فهو من المرية فقوله فمرت به أي فشكت فيما أصابها أهو حمل أو مرض.

وقال الحسن أهو غلام أو جارية، وكيف كان لا إشكال ولا إبهام في معنى اللفظ لأن الحمل في بدو الأمر يكون خفيفاً ثم يصير ثقيلاً تدريجاً وهذا أمر محسوس للمرأة الحاملة ولا يحتاج الى مزيد بيان وأما تفصيل الكلام في هذا الباب فموكول الى محلّه إن شاء الله تعالى.

المسألة الرابعة قوله: فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ والمعنى فلما صارت حواء ذات ثقل، كما يقال أثمر، أي صار ذا ثمر، وذلك قرب ولادتها، أي لما قربت ولادتها، دعا الله ربهما، أي سألاه وقالوا لو أعطيتنا ولداً صالحاً يعني سليماً من الآفات.

وقيل معناه، صالحاً مطيعاً فاعلاً للخيرات لنكونن من الشاكرين، لك. أن قلت ظاهر الآية يدل على أن السعادة والشقاوة في الإنسان بيد الله تعالى وأنه تعالى هو الذي يعطي الولد السعيد والشقي ولذلك سأل آدم وحواء أن يكون ولدهما من الصالحاء وإذا كان كذلك فما ذنب الإنسان الذي ولد من أمه شقياً وهذا هو الجبر بعينه.

قلت ليس الأمر كذلك لأن السعادة والشقاوة ليستا من الأمور الذاتية التي لا تتغير ولا تتبدل وبعبارة أخرى ليستا من المجعولات في عالم الرحم بل هما مما تحصلان للعبد في دار الدنيا بسوء سريرته وخبث طيبته وسوء عمله بإختياره وإرادته وعليه فالمراد بالإعطاء الذي سألاه من الله تعالى هو إعطاء التوفيق منه تعالى بعد إيجاده الولد فيصير المعنى، لو أعطيتنا ولداً صالحاً أي موثقاً بالصلاح والسداد لنكونن من الشاكرين على هذه النعمة.

فَلَمَّا آتَيْتُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَكُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَيْتُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

أقول هذه الآية من المشكلات والعويصات ولذلك ترى المفسرين اختلفوا في تفسيرها إختلافاً شديداً ونحن نشير الى أصل الإشكال وما قالوا في حلّه ثم نردفه بما هو الحقّ عندنا في المقام بعون الملك الوهاب فنقول: أمّا الأشكال فهو أنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ آدم وحواء قد أشركا بالله تعالى بعد ما أتتهما الله ولداً صالحاً وذلك لأنّ قوله: **جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ** معناه جعل آدم وحواء له تعالى شركاء، وهكذا قوله: **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** بصيغة الجمع التي تشمل آدم وحواء أيضاً وبعبارة أخرى قد تحقّق الشرك وإلا فلا معنى لقوله: **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** وإذا تحقّق الشرك بصريح الآية فمن أشرك به تعالى غير آدم وحواء وأولادهما، ولا يمكن تخصيص الشرك بالأولاد وخروج آدم وحواء منه لأنّ قوله: **فَلَمَّا أَتَيْهُمَا ضَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ** يدلّ على دخولهما فيه بل إختصاص من الشرك بهما وخروج أولادهما عنه كما هو مقتضى ظاهر الآية وإذا كان كذلك فيلزم عدم عصمة الأنبياء بل جواز كون النّبي مشركاً بالله نعوذ بالله منه هذا.

قال الشيخ في التبيان، وقوله: **فَلَمَّا أَتَيْهُمَا ضَالِحًا** يعني فلما أتى الله آدم وحواء ولداً صالحاً، جعلاه شركاء، وإختلفوا في الكناية الى من ترجع في قوله: **جَعَلَا** ثم قال **مَنْ** في وجه التّفصي عن الإشكال ما هذا لفظه فقال قوم هي راجعة الى الذّكور والإناث من أولادهما أو الى جنسي من أشرك من نسلهما وأن كانت الأدلّة تتعلّق بهما ويكون تقدير الكلام فلما أتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذي تمّنياه وطلباه جعل كفار أولادهما ذلك مضافاً الى غير الله و يقوّي ذلك قوله تعالى: **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** فلو كانت الكناية عن آدم وحواء لقال عمّا يشركان وأنّما أراد الله تعالى عمّا يشرك هذان النّوعان أو الجنسان وجمعه على المعنى وقد ينتقل الفصيح من خطاب الى خطاب غيره ومن كناية الى غيرها:

قال الله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ^(١)**.

فأنصرف من مخاطبة الرسول الى المرسل اليهم ثم:

قال الله تعالى: **وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ^(٢)**.

يعني الرسول ثم قال وتبجحوه يعني الله تعالى قال الهذلي:

يا لهف نفسي كان جدّه خالد وبياض وجهك للتراب الأصفر
ولم يقل وبياض وجهه الى آخر كلامه.

وقال الزجاج وابن الأخشاد جعل من كلّ نفس زوجها كأنه قال وجعل من النفس زوجها على طريق الجنس وأضمر لتقدم الذكر.

وقال أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني الكناية في جميع ذلك غير متعلقة بآدم وحواء وجعل الهاء في تغشأها والكناية في دعوا الله ربهما وآتاهما صالحاً راجعين الى من أشرك ولم يتعلق بآدم وحواء إلا قوله: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** والإشارة بذلك الى جميع الخلق وكذلك قوله: **وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا** ثم خص بعضهم كما قال:

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ^(٣)

فخاطب الجماعة ثم خص راكب البحر فكذلك أخبر الله تعالى عن جملة أمر البشر بأنهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها وهما آدم وحواء ثم عاد الذكر الى الذي سأل الله تعالى ما سأل فلما أعطاه آياه إدعى له الشركاء في عطية انتهى.

وقال قوم يجوز أن يكون عني بقوله: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** المشركين خصوصاً إذ كان كلّ بني آدم مخلوقون من نفس واحدة كأنه قال خلق

كَلَّ أَحَدٌ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنَ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ زَوْجَهَا وَمِثْلَهُ كَثِيرٌ نَحْوَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: **فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**^(١) والمعنى فأجلدوا كلَّ واحدٍ منهم.

وقال قوم أن الهاء في قوله: **جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ** راجعة إلى الولد لا إلى الله و يكون المعنى أنهما طلبا من الله تعالى أمثالا للولد الصالح فأشركا بين الطلبتين كما يقول القائل طلبت مِنِّي درهماً فلمَّا أعطيتكه شركته بآخر أي طلبت آخر مضافاً إليه فعلى هذا يجوز أن تكون الكناية من أول الكلام إلى آخره راجعة إلى آدم و حواء انتهى. موضع الحاجة من كلامه.

أقول فهذه الوجوه المذكورة نقلناها عن التَّبيان، و قد ذكرها في المجمع بأدنى تفاوتٍ في الألفاظ ثمَّ أن العامة فأكثر مفسريهم حملوا ألفاظ الآية على ظاهرها وقالوا أن آدم و حواء جعللا لله شريكاً في التَّسمية دون العبادة و ذلك أنَّهما أقاما زماناً لا يولد لهما فمَرَّ بهما إبليس و لم يعرفاه فشكوا إليه فقال لهما إن أصلحت حالكما حتَّى يولد لكما تسميانه بأسمى قالان نعم و ما أسمك فلا الحرث فولد لهما فسمياه عبد الحرث ذكره ابن فضال و قيل أن حواء حملت أول ما حملت فأتاها إبليس في غير صورة فقال لها يا حواء ما يؤمنك أن تكون في بطنك بهيمة فقالت لأدم فقد أتاني أتٍ فأخبرني أن الذي في بطني بهيمة و أتني لأجد له ثقلاً فلم يزالا في همٍّ من ذلك ثمَّ أتاها فقال أن سألت الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك و يسهل عليك خروجه أسمىه عبد الحرث و لم يزل بها حتَّى غرَّها فسمته عبد الحرث برضا آدم و كان إسم إبليس عند الملائكة الحارث.

و نقل الرَّاзи في تفسيره ما هذا لفظه:

المروى عن ابن عباس هو الذي خلقكم من نفس واحدة و هي نفس آدم، و خلق منها زوجها أي حواء، خلقها الله من ضلع آدم **عِلَاقاً** من غير أذى فلمَّا تغشاه آدم حملت حملاً خفيفاً فلمَّا أثقلت أي ثقل الولد في بطنها أتاها

إبليس في صورة رجل وقال ما هذا يا حوّاء أني أخاف أن يكون كلباً أو بهيمة و ما يدريك من أين يخرج أمن دبرك فيقتلك أو ينشق بطنك فخافت حوّاء و ذكرت ذلك لادم عليه السلام فلم يزالا في همٍّ من ذلك ثم أتاهما وقال أن سألت الله أن يجعله صالحاً سوياً مثلك و يسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث و كان إسم إبليس في الملائكة الحرث فذلك قوله: **فَلَمَّا أَتِيَهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا أَتَاهُمَا أَيُّ لَمَّا أَتَاهُمَا اللَّهُ وَلَدَا سَوِيًّا صَالِحًا جَعَلَهُ شَرِيكًا أَيُّ** جعل آدم و حوّاء له شريكاً و المراد به الحرث هذا تمام القصة.

ثم قال الرّازي في الجواب و إعلم أن هذا التأويل فاسد و يدلّ عليه وجوه:
الأول: أنه تعالى قال: **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** و ذلك يدلّ على أن الذين أتوا بهذا الشّرك جماعة.

الثاني: أنه تعالى قال بعده أيشركون ما لا يخلق شيئاً و هم يخلقون، و هذا يدلّ على أن المقصود من هذه الآية الرّد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى و ما جرى لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر.

الثالث: لو كان المراد إبليس لقال أيشركون من لا يخلق شيئاً و لا يقل ما لا يخلق شيئاً لأنّ العاقل أنما يذكر بصيغة، من، لا بصيغة، ما.

الرابع: أن آدم عليه السلام كان من أشدّ النّاس معرفةً بإبليس و كان عالماً بجميع الأسماء كما قال الله تعالى: **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ^(١) فكان لابدّ و أن يكون قد علم أن إسم إبليس هو الحرث فمع العداوة الشديدة بينه و بين آدم و مع علمه بأن إسمه هو الحرث كيف سمّى ولد نفسه بعبد الحرث و كيف ضاقت عليه الأسماء حتّى أنّه لم يجد سوى هذا الإسم.

الخامس: أن الواحد ممّا لو حصل له ولد يرجوا منه الخير و الصّلاح فجاءه إنسان و دعاه الى أن نسميه بهذه الأسماء لزجره و أنكر عليه أشدّ الإنكار فأدم عليه السلام مع نبوته و علمه الكثير الذي حصل له من قوله: **وَعَلَّمَ آدَمَ**

الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وتجاربه الكثيرة التي حصلت له بسبب الزّلة التي وقع فيها لأجل وسوسة إبليس كيف لم ينبّه لهذا القدر وكيف لم يعرف أنّ ذلك من الأفعال المنكرة التي جيب على العاقل الإحتراز منها.

السادس: أنّ بتقدير أنّ آدم عليه السلام سمّاه بعبد الحرث فلا يخلو إمّا أن يقال أنّه جعل هذا اللفظ إسم علم له أو جعل صفة له بمعنى أنّه أخبر بهذا اللفظ أنّه عبد الحرث ومخلوق من قبله فإن كان الأول لم يكن هذا شركاً بالله لأنّ أسماء الأعلام والألقاب لا تنفي في المسمّيات فائدة فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الإشراك وأن كان الثاني كان هذا قولاً بأنّ آدم عليه السلام اعتقد أنّ لله شريكاً في الخلق والإيجاد والتكوين وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم عليه السلام وذلك لا يقوله عاقل فثبت بهذه الوجوه أنّ هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت اليه انتهى ما أفاده الرّازي في الجواب.

وأنا أقول ما ذكره لا بأس به بل هو حقّ لا مربة فيه من جهة إنكاره القصّة فإنّها من الإسرائيليات والمجعولات في عهد خلفاء الأموي وأما إنتسابها الى ابن عباس فهو بعيد في الغاية لأنّه أجل شأناً من هذه الأراجيف وكيف كان فلا شك أنّ العاقل المسلم لا يلتفت اليه كما ذكره الرّازي فأنظر الى ركاكة القصّة وكذبها وأنها من المفترّيات أنّ الرّازي مع أنّه من العامّة ظاهراً أنكرها أشدّ الإنكار وعلى هذا فلا نحتاج الى الجواب عن العامّة الذين تمسّكوا بهذه القصّة في تفاسيرهم فإنّ ما ذكره الرّازي أتمّ حجة عليهم اذا عرفت هذا فنقول: قد ذكروا في تأويل الآية وجوهاً كثيرة:

منها، ما نقله الرّازي عن القفال وحكم بأنّه في غاية الصّحة والسّداد وهو أنّه تعالى ذكر هذه القصّة على تمثيل ضرب المثل وبيان أنّ هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشّرك وتقرير هذا الكلام كأنّه تعالى يقول: هو الذي خلق كلّ واحدٍ منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانيّة فلمّا تَغشَى الزّوج زوجته وظهر الحمل دعا

الزَّوْجَ وَالزَّوْجَةَ رَهْمَا لئن أتيتنا ولدًا صالحًا سَوِيًّا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِأَنَّكَ وَنِعْمَائِكَ فَلَمَّا أَتَاهُمَا اللَّهُ وَلَدًا صَالِحًا سَوِيًّا جَعَلَ الزَّوْجَ وَالزَّوْجَةَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِيمَا أَتَاهُمَا لِأَنَّهُمْ تَارَةً يَنْسُبُونَ ذَلِكَ الْوَلَدَ إِلَى الطَّبَّاعِ كَمَا هُوَ قَوْلُ الطَّبَّاعِيِّينَ وَتَارَةً إِلَى الْكَوَاكِبِ كَمَا هُوَ قَوْلُ الْمُنْجَمِيِّينَ وَتَارَةً إِلَى الْأَصْنَامِ كَمَا هُوَ قَوْلُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** أَي تَزَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ الشِّرْكَ وَهَذَا جَوَابٌ فِي غَايَةِ الصَّحَّةِ وَالسَّدَادِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

أقول ما ذكره في الجواب وحكم بصحته وأن كان صحيحاً في الواقع كما قال تعالى: **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ^(١) إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْسَبُ ظَاهِرُ الْآيَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ حَمَلَ الْآيَةَ عَلَى ضَرْبِ الْمَثَلِ بَعِيدٍ جَدًّا بَعْدَ التَّأَمُّلِ فِيهَا مُضَافاً إِلَى إِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ آدَمَ وَبِزَوْجِهَا حَوَاءَ فَرَفَعَ الْيَدَ عَنْ هَذَا الظَّاهِرِ وَتَأَوَّلَ الْآيَةَ بِمَا ذَكَرَهُ نَقْلًا عَنِ الْقِفَالِ لَا يَسَاعِدُهُ الْعَقْلُ وَالتَّنْقُلُ.

الوجه الثاني: ما ذكره بعض الأفاضل في المقام وحاصله أَنَّ الْقِصَّةَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فِي حَقِّ آدَمَ وَحَوَاءَ وَلَا إِشْكَالَ فِي أَلْفَاظِهَا إِلَّا قَوْلُهُ: **فَلَمَّا أَتَيْتُهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ** فِيمَا أَتَاهُمَا فَإِذَا قُلْنَا تَقْدِيرَ الْكَلَامِ فَلَمَّا أَتَاهُمَا وَلَدًا صَالِحًا سَوِيًّا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ أَيَّ جَعَلَ أَوْلَادَهُمَا لَهُ شُرَكَاءَ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ وَكَذَا فِيمَا أَتَاهُمَا أَيَّ فِيمَا أَتَى أَوْلَادَهُمَا وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ أَيَّ وَاسْأَلِ أَهْلَ الْقَرْيَةِ.**

وَأَمَّا وَجْهُ التَّنْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: **جَعَلَهُ** حَيْثُ لَمْ يَقُلْ، جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فَلَأَنَّ الْوَلَدَ قِسْمَانِ ذَكَرَ وَأُنْثَى فَقَوْلُهُ: **جَعَلَهُ** وَالْمُرَادُ مِنْهُ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى مَرَّةً عَبَّرَ عَنْهُمَا بِلَفْظِ التَّنْبِيهِ لِكُونِهِمَا صَنْفَيْنِ وَنَوْعَيْنِ وَمَرَّةً عَبَّرَ عَنْهُمَا بِلَفْظِ الْجَمْعِ وَهُوَ قَوْلُهُ: **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** انْتَهَى.

بَابُ التَّفَرُّقِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٩

المجلد التاسع

أقول هذا الوجه أيضاً ممّا لا يمكن الإعتماد عليه لأنّه لا يتمّ إلا على فرض ثبوت التّقدير وهو حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ولا دليل عليه بل نقول الأصل عدم التّقدير وعلى المدّعى الإثبات ومجرّد الإحتمال لا يكفي في الإستدلال مضافاً الى أنّ التّقدير في الكلام يحتاج الى المجوز العقلي أو النّقلي واذ ليس فليس.

وإعلم أنّ التّأويلات في الآية كثيرة فمن أراد الوقوف على أكثر ممّا ذكرناه فعليه بمراجعة تفاسير القوم فإنّهم قد أطنبوا وأطالوا الكلام فيها وإستخرجوا ظنوناً وتخيّلات من الإسرائيليات التي نقلوها في كتبهم وتفاسيرهم وقد غفلوا أنّ من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار اذا عرفت ما تلوناه عليك فلنرجع الى تفسير الآية.

ونقول ليس في الآية ما يدلّ على أنّ المراد بالنّفس الواحدة آدم وبزوجها حوّاء فقولهم أنّ المراد بالنّفس الواحدة آدم والمراد بزوجها حوّاء كلام لا يدلّ عله دليل لا عقلاً ولا نقلاً وليت شعري من أين ثبت لهم هذا وليس من آدم ولا من حوّاء في الآية المبحوثة عنها ولا فيما قبلها عينٌ ولا أثر وعلى هذا فالخطاب في قوله تعالى: خَلَقَكُمْ عامٌّ يشمل جميع البشر والمعنى هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أي حقيقة واحدة وهي التّراب:

كما قال تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى^(١).

وجعل منها، أي من الحقيقة التّرابية زوجها أي خلق الله من التّراب الذّكر والأنثى فإنّ كلمة، من، في قوله: مِنْهَا للتّبعية أي جعل بعض التّراب بصورة الأنثى فالمادّة فيهما واحدة.

ثمّ قال: لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا أي ليسكن الذّكر الى الأنثى ويميل اليها وليطمئن قلبه بها فاللّام في قوله: لِيَسْكُنَ للغاية، أو للتعليل أنما جعلنا زوجها منها

للسكون والقرار والأنس ليحصل به التوالد والتناسل ويكثر به نسل البشر فلما تَغَشَّيْهَا، أي فلما جامع الذكر الأنثى، حملت، الأنثى حملاً خفيفاً في بادئ الأمر فمرت وإستمرت الأنثى بهذا الحمل فلما أثقلت أي صارت الأنثى ذات ثقل وذلك بعد صيرورة النطفة في الرحم جنيناً.

دعوا الله ربهما، أي الزوج والزوجة دعوا ربهما وسألاه الولد الصالح فقالا لئن أتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين.

وهذا الدعاء والسؤال بمقتضى الفطرة السليمة والعقل مركوز في جميع الأذهان مطلوب لكل واحد من الأبوين فإن الولد الصالح من أعظم النعم: فَلَمَّا أَتِيَهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ أَي جعل الزوجين له أي لله شركاء فيما أتاهما فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَي فلما أتاهما الله ولدأ صالحاً سلك الزوجين أعني بهما الأب والأم مسلك الطغيان والعصيان ونسيا ما سألا ربهما من قولهما: لئن أتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين.

ففي الآية دلالة على أن البشر نوعاً كذلك قال الله تعالى: فَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ (١) وليس الحكم كلياً بحيث يشمل أحاد جميع البشر حتى الأنبياء والأوصياء وذلك لأن الحكم ليس من الأحكام العقلية التي لا تقبل التخصيص بل من الأحكام العادية العرفية وهذه الأحكام صدورها بإعتبار الأغلب والأكثر ومحصل الكلام في الآية هو أنها ليست بصدد بيان خلق آدم وحواء وأنهما جعللا لله شركاء في أولادهما إلى آخر ما قالوا فيها بل يستفاد منها وجوب شكر المنعم عقلاً هذا ما فهمناه من الآية والله تعالى أعلم بما قال.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

الإستفهام للتوبيخ و التعفيف للمشركين الَّذِينَ أشركوا بالله و جعلوا المخلوق شريكاً لخالقه و هو عجيب بل دال على سفاهة القوم و حماقتهم حيث جعلوا المخلوق خالقاً و لم يعلموا أَنَّ ما لا يقدر على خلق شيءٍ كيف يكون خالقاً و توضيح ذلك إجمالاً هو أَنَّ الموجود على قسمين:

واجبٌ و ممكن و لا ثالث لهما لأنَّ الموجود أن كان وجوده بنفسه و لنفسه و من نفسه و وجوده عين ذاته فهو الواجب و أن كان وجوده من غيره عارض على ماهيته و ذاته فهو ممكن الموجود و بعبارةٍ أخرى الموجود أن لم يكن مسبوقاً بالعلّة فهو الواجب و أن كان مسبوقاً بها فهو الممكن و إنّما لا ثالث لهما لأنَّ الشّيء الموجود لا يعقل أن يكون مسبوقاً بها و غير مسبوق بها للزم إجتماع التقيضين يعقل أن لا يكون مسبوقاً بها و لا غير مسبوق بها للزوم إرتفاع التقيضين وإستحالة الإجتماع و الإرتفاع من البديهيات العقلية، فثبت أَنَّ الممكن مخلوق كائناً ما كان لأنه مسبوق بالعلّة و اذا كان كذلك فكلّ ما يعبد غير الله تعالى فهو مخلوق له تعالى لدخوله في الممكنات و اذا كان مخلوقاً فكيف يكون خالقاً و هو المطلوب.

و يظهر من الكلام أَنَّ المعبود الذي يستحق أن يعبد لا بد له من وجود الشرطين المذكورين في الآية:

أحدهما: أن يكون خالقاً لغيره أي موجداً إياه على سبيل الإبداع من غير رؤية ولا إحتذاء.

ثانيهما: أن لا يكون مخلوقاً لغيره فأنَّ المخلوق لا يكون خالقاً على الإطلاق و هذان الشرطان لا يوجدان إلّا في الواجب تعالى فهو المعبود لا غيره و حيث أَنَّ المشركين أثبتوا له شريكاً فاقداً للوصفين فلا محالة صاروا مستحقين للذم.

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ

فهو في الحقيقة بمنزلة التعليل لقوله: أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ الْخ فكَأَنَّهُ قِيلَ لِمَ لَا يَكُونُ الْمَخْلُوقُ خَالِقًا مَعْبُودًا فَقَالَ فِي الْجَوَابِ لَأَنَّهُمْ أَيُّ الشُّرَكَاءِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نَصْرِ غَيْرِهِمْ بَلْ وَلَا عَلَى نَصْرِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا وَتَوْضِيحُهُ إجمالاً هُوَ أَنَّ الْخَالِقَ لِلْعَبْدِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَادِرًا أَوْ لَيْسَ بِقَادِرٍ فَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَأَنْ لَمْ يَقْدِرْ فَهُوَ ضَعِيفٌ، وَاضْعِيفٌ يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ قَهْرًا وَالمَحْتَاجُ إِلَى الْغَيْرِ مَخْلُوقٌ لِأَنَّ الْإِحْتِيَاجَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِمْكَانِ بَلْ هُوَ عَيْنُهُ إِذَا لَا نَعْنِي بِالْمُمْكِنِ إِلَّا الْمَحْتَاجُ الْفَقِيرُ وَحَيْثُ أَنَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى كَائِنًا مَا كَانَ ضَعِيفٌ فِي ذَاتِهِ مُحْتَاجٌ إِلَى غَيْرِهِ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَاتِهِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا مَعْبُودًا فَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَعَلَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْأَصْنَامُ وَأَمْثَالُهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى حَكَمَ عَلَى خِلَافِ الْعَقْلِ وَهُوَ كَمَا تَرَى.

وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى أَنَّ الْأَوْثَانَ وَغَيْرَهَا مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقِ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ لِأَنَّ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِ نَفْسِهِ فَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِ غَيْرِهِ بِطَرِيقِ أَوْلَى فَإِنَّ الْمَعْطَى لِلشَّيْءِ لَا يَكُونُ فَاقْدَأْ لَهُ وَاضِحٌ.

أَنْ قُلْتَ كَيْفَ وَحْدًا، يَخْلُقُ ثُمَّ جَمَعَ فَقَالَ: وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَأَيْضًا كَيْفَ ذَكَرَ الْوَاوُ وَالْتُونُ فِي جَمْعِ غَيْرِ النَّاسِ.

قُلْتُ أَجَابُوا عَنِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ لَفْظَةَ، مَا، تَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْأُنثَيْنِ وَالْجَمْعِ فَوَحَّدَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: يَخْلُقُ رَعَايَةً لِحَكْمِ ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَجَمَعَ قَوْلَهُ: وَهُمْ يُخْلَقُونَ رَعَايَةً لْجَانِبِ الْمَعْنَى.

عَنِ الثَّانِي: بِأَنَّ الْجَمْعَ بِالْوَاوِ وَالْتُونِ فِي غَيْرِ ذَوِي الْعُقُولِ أَمَّا هُوَ، بِإِعْتِقَادِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهَا تَعْقِلُ وَتَمِيزُ فَوَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ بِنَاءً عَلَى إِعْتِقَادِهِمْ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ:

قال الله تعالى: وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايَتْهُم لِيَ سَاجِدِينَ^(٢).

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّفْلُ ادْخُلُوا مَسَاجِدَكُمْ^(٣).

ذَكَرَهُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ ثُمَّ قَالَ:

المسألة الثانية: قوله أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ إحتج أصحابنا بهذه الآية على أَنَّ العبد غير موجد ولا خالق لأفعاله قالوا لأنه طعن في إلهية الأجسام بسبب أنها لا تخلق شيئاً وهذا الطعن أنما يتم لو قلنا إِنَّ بتقدير أنها كانت خالقة لشيء لم يتوجه الطعن في إلهيتها وهذا يقتضي أَنَّ كُلَّ من كان خالقاً كان إلهاً فلو كَانَ العبد خالقاً لأفعال نفسه كان إلهاً ولَمَا كَانَ ذلك باطلاً علمنا أَنَّ العبد غير خالقٍ لأفعال نفسه انتهى كلامه.

أقول ما ذكره أشبه بشيءٍ بالمغالطة ولا يرجع الى محصل، وذلك لأنَّ المراد بالخلق في المقام الخلق على سبيل الإبداع والإستقلال لا الخلق على وجه التسيب ومن المعلوم أَنَّ العبد خالق لأفعاله على وجه السببية لا على وجه الإستقلال وأن شئت قلت إِنَّ العبد سبب في الإيجاد لا أَنَّهُ مُسْتَقَلٌّ فِيهِ يَكُونُ مُسْتَقْلَلاً فِيهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ لغيره ومحتاج اليه في جميع حركاته وسكناته فالعبد خالق لفعله موجد إياه بتوفيق من خالقه فهو خالق باعتبار نفسه غير خالقٍ باعتبار خالقه وإذا كان كذلك فلا يكون إلهاً ومعبوداً وهذا معنى الأمر بين الأمرين.

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ

بعد ما تبين في الآية السابقة أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فَالْمَعْنَى أَنَّ هَذَا الْمَعْبُودَ الَّذِي يَعْبُدُهُ الْمُشْرِكُونَ كَمَا لَا

ينفع ولا يضّر كذلك لا يسمع ولا يفهم اذا دعى الى الخير فلا يتبع لما دعى اليه ثم قوّي هذا الكلام بقوله: سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ هكذا قيل في معنى الآية و عليه فهو من قبيل قوله: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(١).

و محصّل الكلام أنّ العاقل لا يعبد ما لا يعقل و من كان كذلك فهو ليس بعاقل واقعاً و أن عدّ في عرف الحمقاء بالعاقل و هو واضح.

لأنّ المعبود الذي لا ينفع و لا يقدر و لا يعلم و لا يسمع لا خير في وجوده أصلاً بل وجوده كالعدم أن لم نقل عدمه أولى من وجوده و لأجل ذلك أكدّ الله تعالى كلامه فقال: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ المراد بالموصول الأصنام التي كانوا يدعونها من دون الله و أنّما قال الذين، لأنها بزعمهم كانت تنفع و تضرّ فجاز أن يكنّى عن الحيّ و قد مرّ الكلام فيه.

و المعنى أنّ الأصنام التي تدعونها من دون الله عبادٌ أي مخلوق أمثالكم، و كلمة، من، لإبتداء الغاية وفيه إشارة الى أنّ ما سوى الله كأنثا ما كان مخلوق لله تعالى لأنّ الموجود لا يخلو عن هذين القسمين على ما مرّ تحقيقه فاذا ثبت أنّ الوجود عين ذاته فهو الخالق و إلاّ فهو مخلوق و حيث أنّ الخالق الواجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الكمالية هو الله تعالى بمعنى أنّ إسم، الله، علمٌ على الأصح له قال تعالى: مِنْ دُونِ اللَّهِ و لم يقل من دون الخالق و الرّازق و الرّحمن و غيرها من الأسماء ففي التعبير بكلمة، الله، إشعاراً بأنّ المعبود الذي يستحق أن يعبد هو الله فقط و لأجل هذه الدقّة أتى بالفاء فقال: فَادْعُوهُمْ أي اذا كان الأمر على هذا المنوال فادعهم فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في دعواكم بمعبودية الأصنام و غيرها من المخلوق و

بإزاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

حيث لا تقدرّون على الإستجابة فلا محالة أنتم كاذبون في دعواكم وأما من قال من الصّوفية أنّ الأصنام تعبد الله على الحقيقة كما يبد العقلاء وأن كنّا لا نفقه فقد تجاهل في قوله هذا أو لم يعلم معنى العبوديّة و ذلك لأنّ العبادة ضربٌ من الشُّكر والشُّكر هو الإعتراف بالنّعمة مع ضرب من التّعظيم والعبادة وأن كانت شكرًا فإنّه يقارنها خضوعٌ وتذلّل وكلّ ذلك يستحيل على الجماد هكذا حقّقه بعض المفسّرين والأولى أن يقال أنّ المعبود الذي يستحق أن يعبد هو الذي يخلق ولا يخلق ويرزق ولا يرزق وينفع ولا ينفع وهكذا وحيث قد ثبت أنّ ما سوى الله كائنًا ما كان لا يكون كذلك بمعنى أنّ العابد والمعبود سواء في الفقر والإحتياج فهو لا يستحق أن يعبد لأنّ العاقل لا يعبد مثله ضرورة أنّ حكم الأمثال واحد واليه الإشارة بقوله: **عِبَادُ أَهْمَالِكُمْ** أي لا مزية للمعبود على العابد بل الأمر بالعكس لأنّ العابد من ذوي العقول والمعبود جماد وهو كما ترى هذا كلّهُ مضافاً الى أنّ قاعدة الإمكان الأشرف تقتضي خضوع الأحسن للأشرف ولا شك أنّ أشرف الموجودات هو الله تعالى لأنّ الوجود منه وغيره موجودٌ به فالحقّ في المقام هو خضوع ما سواه له.

وأما الخضوع للأصنام فهو من خضوع الأشرف للأخس لأنّ الإنسان العاقل أشرف من الجماد ثمّ أنّ الله تعالى لم يقنع بما ذكره إجمالاً بل شرع في التّفصير حتّى لا يبقى في المقام شبهة:

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كَيْدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ

فقد أكّد الله تعالى الحجّة على المشركين في هذه الآية فالإستفهام للإبكار أي ليس لهؤلاء الأصنام أرجل يمشون بها ولا لهم أيدي يبطشون بها ولا أذان

يسمعون بها و ما كان كذلك فهو دون منزلة الكفَّار لأنَّ الكفَّار واجدون لهذه النِّعم بخلاف الأصنام فهؤلاء الكفَّار أقدر على الأشياء من الأصنام فكيف يجوز أن يتَّخذوها مع ذلك ألهة لأنفسهم أليس هذا رجوعٌ الى القهقري و سقوطٌ من الإنسانية الى أخسَّ وأرءى من الجماد.

ثم قال تعالى: **قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ** أي الأوثان والاصنام التي تعبدونها و تزعمون أنَّها ألهة و تشركونها في أموالكم فتجعلون لهم حظاً من الأموال و المواشي و تَوَجِّهون عبادتكم اليها و أسألوهم أن يَضُرُّوني و أن يَكِيدُونِي معكم و لا تَوَخَّرُوا ذلك أن قدروا عليه و متى لم يَتِمَّكنوا من ذلك فأعلموا أنَّها لا تستحقُّ العبادة لأنَّها في غاية الضَّعف و العجز هكذا فسَّره الشَّيخ في التَّبيان. و قال بعضهم قوله تعالى: **عِبَادُ امْثَالِكُمْ** استهزاءً بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فأن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم ثمَّ أبطل أن يكونوا عباداً أمثالكم، فقال ألهم أرجلٌ يمشون بها الى آخر الكلام أي لَمَّا لم يكن لهم أرجلٌ يمشون بها الخ فهؤلاء ليسوا أمثالكم .

وقرأ سعيد بن جبير في الآية السابقة إنَّ الذين، بالتخفيف على معنى النفي أي ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم بناءً على أعمال إن النافية عمل ما الحجازية و على هذا القراءة فقوله تعالى: **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا** الخ... بمنزلة الدليل على إثبات المدعى أي لو كانوا عباداً أمثالكم لكان لهم الرُّجُل و العين، و السَّمْع و اليد لأنَّ حكم الأمثال واحد و اذ ليس فليس.

أقول الحقَّ أنَّ المثلية في قوله: عِبَادُ امْثَالِكُمْ أن كان المراد بها الإنسانية فتمَّ ما ذكره، و أن كان المراد بها المخلوقية فلا إبطال في المقام لأنَّ المثلية ثابتة أمَّا في أنَّهم مخلوقون، أو في أنَّهم مملوكون مقهورون و عليه فلم يبطل بقوله: **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا** الخ....

قوله: **عِبَادُ امْثَالِكُمْ** ولكن هذا الإحتمال بعيد و الأول أقوى لأنَّ العبد لا يطلق على الجماد حتَّى يكون مثل الإنسان و توضيحه أنَّ المثلية ناظرة الى

الصفات والخصوصيات ولو كانت إعتبارية لا الى الحقيقة والذات ألا ترى أنه لا يقاس الفرس مثل الإنسان مع أنهما مخلوقان لله تعالى ويقال زيد مثل عمرو وهذا الفرس مثل هذا الفرس وهكذا وعليه فقول القائل أن المثلية في قوله: **عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ** ثابتة في أنهم مملوكون مقهورون كلام بلا محصل لا ينبغي الالتفات اليه واذالم تكن المثلية ثابتة فقوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها الخ مبطل لقوله: **عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ** وإذا كان الأمر على هذا المنوال فقوله: **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ** لا يخلوا من وجهين:

أحدهما: أن تكون لفظه، إن، مخففة نافية والمعنى ما الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم وبعبارة أخرى الأصنام التي تعبدونها ليست أمثالكم اذ ليس لها رجل ولا يد ولا عين ولا سمع ولا غيرها من القوى والأعضاء التي هي موجودة فيكم واذالم تكونوا أمثالكم فإما أن تكونوا أشرف وأفضل منكم أو أخس والأول لا يكون لأن الأشرف من الإنسان هو الله تعالى.

الثاني: وهو الأخسية ثابتة لها فأنتم تعبدون الأخس وهو قبيح عقلاً وعلى هذا التوجيه فقراءة سعيد بن جبير وهي كون، إن، نافية لا بأس بها وأن كانت خلاف المشهور.

والوجه الثاني: أن تكون، أن، مثقلة كما هو المشهور وعليه المصاحف فالمعنى أن الذين تدعون من دون الله من الأصنام والأوثان عباد أمثالكم لا تنفع ولا تضر واقعاً خلافاً لما زعمتم في حقها من أنها تنفع وتضر فادعوهم فليستجيبوا لكم أن كنتم صادقين في دعواكم وحيث أنهم غير قادرين على الإستجابة لكونهم من الجماد واقعاً ألا ترون أنه ليس لهم رجل ولا يد ولا عين ولا سمع ولا عقل، فكيف يكونون معبودين لكم والمعبود لا يكون جماداً جمهور المفسرين ولازم ذلك أن يكون تقدير الكلام عباد أمثالكم بزعمكم.

ولقائل أن يقول أن كان المراد بقوله: **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** الأصنام والأوثان كما عليه الجمهور فما معنى قوله: **عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ** والعبد لا

يطلق على الجماد قطعاً، وبعبارة أخرى كيف يعقل أن يزعم المشرك أن الأصنام والأوثان عباد أمثالهم والعبد لا يطلق على الحيوان فضلاً عن الجماد حتى يقال في إبطال ما زعمه ألهم أرجل يمشون بها الخ.

والذي يقوي في نفسي في تفسير الكلام هو حمله على معناه العام الشامل لكل ما يدعى غير الله سواء كان بعنوان الإلهية أم بغيره و عليه فالمعنى أن الذين تدعون من دون الله سواء كان من الأصنام أم من غيرها عباد أمثالكم أي مخلوق مثلكم.

قال بعض المفسرين أن بعض المشبهة تمسكوا بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى فقالوا أن الله تعالى جعل عدم هذه الأعضاء لهذه الأصنام دليلاً على عدم إلهيتها فلو لم تكن الأعضاء موجودة لله تعالى لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية وذلك باطل فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء له تعالى المطلوب.

وقد أجابوا عنه بأن المقصود من الآية بيان أفضلية الإنسان وأكملته من الصنم وأن إشتغال الأفضل الأكمل بعبادة الأخس الأدون جهل وليست الآية بصدد بيان إثبات الأعضاء للمعبود وعدمه وهو ظاهر لا خفاء فيه ولذلك قال تعالى: قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ثُمَّ أَنْ أَبَا عمرو و نافع أثبتا الباء في، كيدوني، و الباقون حذفوها و عليه المصاحف.

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ

أمر الله تعالى نبيه أن يقول للمشركين أن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو القرآن وهو يتولى الصالحين الذين يطيعونه و يجتنبون معاصيه ففي هذا الكلام أشير الى أمرين:

أحدهما: أنه تعالى نزل الكتاب ولا شك أنه من المعجزات الباقية الخالدة

الى يوم القيامة.

في القرآن
في تفسيره

الجزء ٩

الجزء ٩

المجلد
السادس

ثانيها: أَنَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْمَعْبُودِيَّةِ لَا غَيْرَهُ كَائِنًا مَا كَانَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَعْبُودَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ لَيْسَ بِمَعْبُودٍ وَاقِعًا وَتَخْصِيصُ الْكِتَابِ بِالذِّكْرِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْكِتَابَ فِيهِ نَفْعٌ كَثِيرٌ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ إِذْ بِهِ تَحْصُلُ سَعَادَةُ الدَّارِينَ كَمَا أَنَّ فِي تَوَلَّى الصَّالِحِينَ عِزَّةَ الدَّارِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ^(١) وَأَيُّ نَفْعٍ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا:

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ أي والذين تدعون من دون الله، وتريدون منهم النصر والظفر، لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون، أي أنهم لا يقدرّون على نصر أنفسهم فضلاً عن نصركم وهذه صفة الأصنام والأوثان بل كلّ مخلوقٍ فإن المخلوق في جميع الشئون محتاج إلى خالقه لا يقدر على شيءٍ من عند نفسه أبداً قالوا في وجه تكرير هذا المعنى أَنَّ الآيةَ الَّتِي مرّت ذكرها سابقاً كانت على وجه التقرّيع.

وَأَمَّا فِي الْمَقَامِ فَلِإِفَادَةِ الْفَرْقِ بَيْنَ صِفَةِ مَنْ تَجُوزُ لَهُ الْعِبَادَةُ مِمَّنْ لَا تَجُوزُ كَأَنَّهُ قَالَ أَنَّ نَصْرِي لِلَّهِ وَلَا نَاصِرَ لَكُمْ مِمَّا تَعْبُدُونَ.

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

قال الطبري يقول جلّ ثناءه لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ وَإِنْ تَدْعُوا إِلَيْهَا الْمُشْرِكُونَ آلِهَتُكُمْ إِلَى الْهُدَى وَهُوَ الْإِسْقَامَةُ إِلَى السَّدَادِ لَا يَسْمَعُوا يَقُولُ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ وَهَذَا خُطَابٌ مِنَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ يَقُولُ وَتَرَى يَا مُحَمَّدُ آلِهَتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ وَ

لذلك وَحَدَّ ولو كان أمر النَّبِيِّ بخطاب المشركين لقال وترونهم ينظرون اليكم إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره الطبري، من أَنَّ الخطاب في قوله: **وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَيَّ** **أَلْهَدِي** لِلنَّبِيِّ بتقدير، قل، لا دليل عليه بل الدليل موجود على عدمه الأصل أي أَنَّ الأصل عدم التقدير و عليه فالخطاب للنبي ولا تقدير في الكلام و المعنى أن تدعوا المشركين الى الهدى أي الى الإعراض عن عبادة الأوثان لا يسمعون بمعنى لا يقبلوا وهم يرونه ولا يتفعلون برؤيته أي وترى المشركين ينظرون اليك وهم لا يبصرون واقعاً وفيه إشارة الى وجود الفرق بين النَّظَر و بين البصيرة والحاصل أَنَّ حمل الآية على ظاهر ممَّا لا إشكال فيه فلا نحتاج الى هذه التكاليفات، بعضهم أَنَّ تناسق الضَّمائر يقتضي أَنَّ الضَّمير المنصوب في وَأَنْ تدعوهم، للأصنام ونفي عنهم السَّماع لأنها جماد لا تحس وأثبت لهم النَّظر على سبيل المجاز بمعنى أَنَّهُمْ صَوَّرَهُمْ ذَوِي أَعْيُنَ فَهُمْ يَشْهَوْنَ مِنْ يَنْظُرُ وَمِنْ قَلْبِ صَدَقَتِهِ لِلنَّظَرِ ثُمَّ نَفَى عَنْهُمْ الْأَبْصَارَ إنتهى.

أقول كُلَّ ذلك لا يرجع الى محصَّل إذ لا نحتاج الى هذه التَّأويلات الباردة بعد إمكان حمل اللَّفْظ على ظاهره، وما معنى تناسق الضَّمائر وإثبات النَّظر لهم على سبيل المجاز وأي مانع في المقام يمنع من حمل اللَّفْظ على معناه الحقيقي أَنَّ المشركين كانوا ينظرون الى الرَّسُولِ بِأَعْيُنِهِمْ فَهُوَ أَمْرٌ مُحْسُوسٌ وَأَمَّا أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَصِفِينَ بِعَدَمِ الْبَصِيرَةِ فَهُوَ أَيْضاً مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ إِذْ لَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ لَمْ يَشْكُرُوا بِاللَّهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا** **وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا** **وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا**^(١) فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَرَى وَيَنْظُرُ وَيَبْصُرُ إِلَّا فَالْحَيَوَانَ يَرَى وَيَنْظُرُ مَعَ أَنَّهُ لَا يَبْصُرُ قَطْعاً هَذَا مَا فَهَمْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ
الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ
اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ
فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ
بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ
إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَ
رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ
أَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ
الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ
مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

◀ اللغة

الْعَفْوُ مصدر عَفَى أي صفح عنه وترك ذنوبه.

الْعُرْفُ بضم العين وسكون الراء والفاء ضد النكر.

يَنْزَعَنَّكَ، النزع الحركة تقول نزعته إذا حرّكته وقد جاء بمعنى الفساد أيضاً

يقال نزغ فلان بيننا أفسد.

إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ قِيل الطائف ما أطاف بك من وسوسة الباطل.

يَمْدُونَهُمْ فِي آلَغْيِ أَي يَزِيدُونَهُمْ فِي الْغَوَايَةِ وَالْإِضْلَالِ.
 أَجْتَبَيْتُهَا أَي اخْتَلَقْتُهَا وَأَقْتَلَعْتُهَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ وَقِيلَ الْإِجْتِبَاءُ الْإِخْتِيَارُ.
 بَصَّاءُ تَرْجَمَ بِصِيرَةٍ وَهِيَ الْبَرَاهِينُ الْوَاضِحَةُ.
 وَانْصَبُوا، الْإِنْصَاتُ الْإِسْغَاءُ لِفَهْمِ الْكَلَامِ.
 خِيفَةً بِكَسْرِ الْخَاءِ الْخَوْفُ.
 وَالْأَصَالُ جَمْعُ أَصْلٍ وَالْأَصْلُ جَمْعُ الْأَصِيلِ فَلَا أَصَالَ جَمْعُ الْجَمْعِ وَقِيلَ
 هُوَ جَمْعُ أَصْلٍ وَالْأَصْلُ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَمَعْنَاهُ الْعَشِيَّاتُ وَهُوَ مَا
 بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ.

◁ الإعراب

يَمْدُونَهُمْ بفتح الياء وضم الميم من، مَدَّ يَمْدُ وَيَقْرَأُ بِضَمِّ الياء وكسر الميم
 من أَمَدِهِ إِمْدَادًا.
 فِي آلَغْيِ يجوز أن يتعلّق بالفعل المذكور ويجوز أن يكون حالاً من ضمير
 المفعول أو من ضمير الفاعل فَاسْتَمِعُوا لَهُ يجوز أن تكون اللام بمعنى لله أي
 لأجله ويجوز أن تكون زائدة أي فَاسْتَمِعُوهُ ويجوز أن تكون بمعنى، إلى
 تَضَرَّعًا وَخِيفَةً مصدران في موضع الحال وَدُونَ الْجَهْرِ معطوف على تَضَرَّعَ
 والتقدير مقصدين بِالْعُدُوِّ متعلّق بأدعوا وَالْأَصَالُ جمع الجمع لأنّ الواحد
 أصيل وفعل لا يجمع على إفعال بل على فعل ثم فعل على إفعال والأصل
 أصيل وأصل ثمّ أصال ويقرأ شاذاً، والإيصال بكسر الهمزة وياء بعدها وهو
 مصدر أصلنا إذا دخلنا في الأصل.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

◁ التفسير

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
 أمر الله تعالى نبيه بالعفو عن المسيئين أولاً ثمّ أمره أن يأمر الناس بالعرف
 ثانياً، والإعراض عن الجاهلين ثالثاً، فالمباحث ثلاثة:

المبحث الأول: قوله **خُذِ الْعَفْوَ** أمر الله نبيه بالعفو وهو في الأصل إسقاط ما يستحقه المذنب من قصاصٍ أو غرامة وهو ضدّ الإنتقام المذموم عقلاً و شرعاً ومعناه أن يفعل بالمذنب بمثل ما فعل به أو بالأزيد منه وإن كان محرماً ممنوعاً في الشرع وهو من نتائج الغضب وقد ورد في ذمه من الآيات والأخبار ما لا يخفى وقد قال رسول الله ﷺ: **إِنْ أَمَرْتُ غَيْرَكَ بِمَا فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا فِيهِ وَلَا كَلَامَ لَنَا فَعَلًا فِيهِ وَكَفَى فِي ذِمَّةِ حَكَمِ الْعَقْلِ بِقَبْحِهِ كَمَا حَكَمَ بِحَسَنِ الْعَفْوِ:**

قال الله تعالى: **وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا** ^(١).

قال الله تعالى: **وَأَنْ تَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَجَزَاوَا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ^(٣).

قال الله تعالى: **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** ^(٥).

والآيات كثيرة في مدحه كثيرة.

قال رسول الله ﷺ العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فأعفوا يعزكم الله و

قال ﷺ لعقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والأخرة، تصل

من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك.

وقال ﷺ: قال موسى عليه السلام يا رب أي عبادك أعزّ عليك قال الذي إذا

قدر عفى.

وقال الباقر عليه السلام: الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على

العقوبة.

وقال الصادق عليه السلام: ثلاث من مكارم الدّنيا والأخيرة تغفو عمّن ظلمك الحديث والأخبار كثيرة.

وقد روي من طريق العامة عن معاذ بن جبل أنّه قال لمّا بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله الى اليمن قال صلى الله عليه وآله: ما زال جبرائيل عليه السلام يوصيني بالعفو فلولا علمي بالله لظننت أنّه يوصيني بترك الحدود انتهت.

وعن علي عليه السلام أنّه قال: إذا قدرت على عدوك فأجعل العفو عنه شكراً للقدره عليه.

وقيل من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلّة ستر، ولنعم ما قيل فيه:

إذا ما طاش حلمك من عدوّ و هان عليك هجران الصّدق
فلست إذاً أخا عفوّ و صفح ولا لأخ على عهدٍ وثيق
إذا زلّ الرّفيق و أنت ممّن بلا رفقٍ بقيت بلا رفيق
إذا أنت إتخذت أخاً جديداً لما أنكرت من خلقٍ عتيق
فما تدري لعلّك مستجيرٌ من الرّمضاء فرّ الى الحريق
فكم من سالكٍ لطريق آمّن أتاه ما يحاذر في الطّريق
قيل إستأذن رهطٌ من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن لهم فقالوا السّام عليك يا محمّد فقال صلى الله عليه وآله: في الجواب و عليكم قالت عائشة لليهود بل السّام عليكم و اللعنة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يا عائشة أنّ الله تعالى يحبّ الرّفق في الأمر كلّهُ فقالت ألم تسمع ما قالوا قال صلى الله عليه وآله قد قلت و عليكم، و قال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصّفح عن كلّ مُذنب و ان عَظمتُ منه عَلَيّ الجرائم
فما التّاس إلّا واحداً من ثلاثة شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاومٌ
فأمّا الَّذي فوقِي فأعرف قدره و أتبع فيه الحقّ و الحقّ لازم
وأما الَّذي دوني فأنّ قال صنت عن إجابته نفسي و أن لام لائم
وأما الَّذي مثلي فأنّ زلّ أو هفا تفضّلت أنّ الحرّ بالفضل حاكمٌ

قال الأحنف بن قيس لأبنة يا بني إذا أردت أن توأخي رجلاً فأغضبه فإن أنصفك و إلا فأحذره ومن أمثال العرب، إحلم تسد وفيه قال الشاعر:

لن يبلغ المجد أقوامٌ وإن شرفوا حتى يدّلوا وأن عزّوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرة لا صفح ذلٍ ولكن صفح إكرام

و الأمثال والأشعار في الباب كثيرة جداً وفيما ذكرناه كفاية لأولي الدراية.

المبحث الثاني: قوله تعالى **وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ** والمراد بالعرف المعروف وهو

كلّ فعلٍ أو قولٍ موافقٍ للعقل والشرع ويقابله المنكر فهو ضده وكيف كان ففي الكلام إشارة إلى أنّ الله تعالى يحبّ المعروف ولذلك أمر نبيه به وينكر المنكر

فنهاه عنه ومن المعلوم المسلم عند الكلّ حسن المعروف وقبح المنكر تكلمنا

فيه سابقاً بما لا مزيد عليه وأثبتنا بالبراهين والحجج أنّ أسس الإسلام بل جميع

الأديان على هذين الأصلين وذلك لأنّ صلاح الجامعة يدور مدارهما ولذلك

ورد في بعض الأخبار النبوية قال رسول الله ﷺ: **أَنْ أَمَّتِي إِذَا تَهَاوَنُوا فِي**

الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلْيَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ، ومن تأمل في

الأخبار والآثار وأطلع على التواريخ والسّير وقصص الأمم السالفة والقرون

الماضية حدّث لهم من العقوبات يعلم أنّ كل عقوبة سماوية وأرضية من

الطّاعون والوباء، والقحط والغلاء وحبس المياه والأمطار وتسلّط الظّالمين و

الأشوار و وقوع القتل والغارات وحدوث الصواعق والزلازل وأمثال ذلك

تكون مسبوقة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس.

المبحث الثالث: قوله **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** لا شك في قبح الجهل و

دونه ولا نحتاج في إثباته إلى الآيات والآثار إذ يكفي في قبحه تنفّر جميع

النّاس منه بحيث لا يرضى أحد أن يقال له أنّك جاهلٌ أو أحمق.

قال ابن الإعرابي الحماقة مأخوذة من حمقت السّوق إذا كسدت فكأنّه

كاسد العقل والرأي قال بعضهم الحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داءٌ

دواءه الموت كما قال الشاعر:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يستطبُّ به إلا الحماقَة أُعيت من يداويها
وقد روي أنَّ الأحمق أبغض الخلق الى الله إذ حرمه أعزَّ الأشياء عليه
العقل وقد يستدلُّ على صفة الأحمق من حيث الصُّورة بطول اللحية لأنَّ
مخرجها من الدِّماغ فمن أفرط في طول لحيته قلَّ دماغه و من قلَّ دماغه قلَّ
عقله و من قلَّ عقله فهو أحمق.

وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب، وثقته بمن لا يعرفه و
العجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب وكثرة الإلتفات والخلو من العلم، و
العجلة، والخفة، والسَّفه، والظلم، والغفلة والسَّهو، والخيلاء إن إستغنى
أبطر، وأن إفتقر قنط، وأن قال أفحش وأن سأل بخل، وأن سأل ألح، وأن قال
لم يحسن، وأن قيل له لم يفقه وإن ضحك قهقه، وأن بكى صرخ.

قال **الإشلاء**: عالجت الأكمه والأبرص فأبرأتهمَا وعالجت الأحمق
فأعيانِي وعليه فالسكوت عن الأحمق جوابه.

قال بعض الحكماء لما نظر الى أحمقٍ على حجرٍ حجراً على حجرٍ، و
لأجل هذا قال الله تعالى: **وَاعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** والمراد بالإعراض هو
عدم التعرُّض لا قولهم وأفعالهم القبيحة وذلك لعدم قبولهم النصيحة والإرشاد
المعلوم أنَّ المراد بالجاهل في الآية هو الجاهل المعاند لا مطلق الجهال.

قال أمير المؤمنين **الإشلاء** النَّاس ثلاثة:

**فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ (نَجَاةٍ). وَهَمَجٌ رَعَاةٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِيٍّ
يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ الْخ ...**

وعليه فالجاهل على صنفين:

صنّف متعلّم وصنف معاند والذي ينبغي الإعراض عنه هو المعاند الذي
قال الله تعالى: **ذَرَهُمْ فِي خُوضِهِمْ يَلْعَبُونَ**^(١) ولنعم ما قيل:

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

الجلد
١١

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ عَقْلٌ فَآتَهُ وَأَنْ كَانَ ذَا بَيْتٍ عَلَى النَّاسِ هَيِّنٌ
وَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ أَجَلَ لِعَقْلِهِ وَأَفْضَلَ عَقْلٍ عَقْلٌ مَنِ يَتَذَكَّرُ

وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

قلنا النزغ أدنى حركة، والمعنى أن نالك يا محمد من الشيطان أدنى حركة من معاندةٍ وسوء عشرة فاستعذ بالله أي سل الله أن يعيذك ويحفظك منه فإنه سميعٌ للمسموعات وعالم بالخفيات قاله الشيخ في التبيان.

وقال الطبري من العامة في تفسير الكلام معناه، وأما يغضببك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين ويحملك على مجازاتهم فاستعذ بالله يقول فاستجر بالله من نزعه أنه سميعٌ عليمٌ ثم نقل عن ابن زيد أنه قال لما نزل قوله خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال رسول الله ﷺ فكيف بالغضب يا رب قال تعالى: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ

وقال الزمخشري في الكشف في معناه، وأما ينحسنك منه نخس بأن يحملك بوسوسةٍ على خلاف ما أمرت به فاستعذ بالله ولا تطعه إنتهى.

أقول وقد جاء النزغ بمعنى الفساد أيضاً ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف الصديق: نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي^(١) وعليه فالمعنى أوضح كما ذهب إليه بعض المفسرين وكيف كان ففائدة الاستعاذة ظاهرة إذ لا سبيل لدفع وساوس الشيطان إلا بالاستعاذة بالله والإستمداد منه ولا نعني بالاستعاذة إلا هذا ولأجل هذا أمرنا بها قبل الشروع في الصلاة بل في جميع الواجبات والمستحبات إلا أن هذا الأمر ليس للوجوب وفي قوله أنه سميعٌ عليمٌ، إشارة الى أنه تعالى سميعٌ أي عالم بالمسموعات وعليمٌ أي عالم بالخفيات فضلاً عن غيرها.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ

قرأ الكسائي وأهل البصرة وابن كثير، طيف، بغير ألف وبغير همزه و
الباقون بألف بعدها همزة قيل أَنَّ الطيف في كلام العرب أكثر من طائف و
الطيف مصدر من قولهم طاف به الخيال يطيف طيفاً ويحتمل أن يكون من
طاف يطوف، وقرأ باقي السبعة، طائف وهو فاعل من طاف وقرأ ابن جبير
طَيف بالتشديد وهو يفعل وكيف كان فالطيف اللهم والطائف ما طاف حول
الإنسان قال الشاعر:

وتصبح عن غَبِّ السَّري وكأنها أَلَم بها من طائف الجن أولق
قيل هذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ
الشيطان و أَنَّ الْمُتَّقِينَ هذه عادتهم إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإمام
بوسوسته، قد تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه فأبصروا السداد ودفعوا ما
وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين
فَأَنَّ الشياطين يمدّونهم في الغي أي يكونون مدداً لهم فيه.
وقال بعض المفسرين، وكان معنى الآية إذا مسهم من ينظر لهم نظرة من
الشيطان، تذكروا، ما عندهم من المخرج والتوبة، فإذا هم مبصرون، قد
تابوا.

وقال مجاهد هم المؤمنون إذا مسهم طيف أي غضب تذكروا.
وقيل هو الرجل يهّم بالذنب فيذكر الله تعالى فيتركه.
أقول حاصل الكلام هو أَنَّ الْمُتَّقِينَ الذين يجتنبون معاصي الله إذا وسوس
إليهم الشيطان وأغراهم بمعاصيه تذكروا، ما عليهم من العقاب فيتركونه و
بذلك يدخلون في رحمة الله وعنايته وهذا هو الفوز المبين الذي يحصل
بسبب البصيرة في الدين.

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ
الظَّاهِرَ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي أَخْوَانِهِمْ عَائِدٌ عَلَى الْجَاهِلِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ
أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.

وقيل يرجع على ما دلَّ عليه قوله، أَنَّ الَّذِينَ إِنْقَرُوا، وَهُمْ غَيْرُ الْمُتَّقِينَ لِأَنَّ
الشَّيْءَ قَدْ يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلِهِ فَيُضْمَرُ ذَلِكَ الْمُقَابِلَ لِدَلَالَةِ مُقَابَلِهِ عَلَيْهِ وَعَنِي
بِالْأَخْوَانِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الشَّيَاطِينِ كَأَنَّهُ قِيلَ وَالشَّيَاطِينُ الَّذِينَ هُمْ أَخْوَانُ
الْجَاهِلِينَ أَوْ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ يَمُدُّونَ الْجَاهِلِينَ أَوْ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ فِي الْغَيِّ وَفِي
يَمُدُّونَهُمْ ضَمِيرُ الْأَخْوَانِ فَيَكُونُ الْخَبَرُ جَارِيًا عَلَى مَنْ هُوَ لَهُ وَالضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ
وَالْمَنْصُوبُ لِلْكَفَّارِ وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ جَمِيعًا عَلَى الشَّيَاطِينِ وَيَكُونُ الْمَعْنَى وَ
أَخْوَانُ الشَّيَاطِينِ فِي الْغَيِّ بِخِلَافِ الْأَخَوَةِ فِي اللَّهِ.

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي مَعْنَاهُ، وَأَخْوَانُ الشَّيَاطِينِ تَمَدُّهُمْ الشَّيَاطِينُ فِي الْغَيِّ
يَعْنِي بِقَوْلِهِ: يَمُدُّوْنَهُمْ يَزِيدُونَهُمْ، ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ، عَمَّا قَصَرَ عَنْهُ الَّذِينَ إِنْقَرُوا إِذَا
مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَأَتَمَّا هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ عَنْ فَرِيقِي الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ
بَأَنَّ فَرِيقَ الْإِيمَانِ وَأَهْلَ تَقْوَى اللَّهِ إِذَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ تَذَكَّرُوا عِظَمَ اللَّهِ وَ
عَقَابَهُ فَكَفَّتْهُمْ رَهْبَتُهُمْ عَنْ مَعَاصِيهِ وَرَدَّتْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ مِمَّا كَانَ
مِنْهُمْ مِنْ زَلَّةٍ وَأَنَّ فَرِيقَ الْكَافِرِينَ يَزِيدُهُمُ الشَّيْطَانُ غِيًّا إِلَى غِيِّهِمْ إِذَا رَكَبُوا
مَعَاصِيَهُ مِنَ مَعَاصِي اللَّهِ وَلَا يَحْجِزُهُمْ تَقْوَى اللَّهِ وَلَا خَوْفُ الْمَعَادِ إِلَيْهِ عَنْ
التَّمَادِي فِيهَا وَالزِّيَادَةَ مِنْهَا أَنْتَهَى مَوْضِعُ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

أَقُولُ الْحَقَّ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي أَخْوَانِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى الْمُتَّقِينَ الْمُسْتَفَادِ مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّ
الَّذِينَ أَنْقَرُوا وَهَكَذَا الضَّمِيرُ فِي، يَمُدُّونَهُمْ وَالْفَاعِلُ هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي مَرَّ
ذَكَرَهُ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ وَأَنْ شَتَّ قُلْتُ، النَّاسَ عَلَى صَنَفَيْنِ:

صَنَفٌ مِنْهُمْ يَفْعَلُونَ الْخَيْرَاتِ وَيَجْتَنِبُونَ السَّيِّئَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُمْ الْمُتَّقُونَ.
وَصَنَفٌ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَالْأُمِّيَالَ النَّفْسَانِيَّةَ وَهُمْ الْفَاسِقُونَ.

فَالصَّنْفُ الْأَوَّلُ إِذَا مَسَّهْمُ طَائِفٍ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا مَا ذَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فِيرْجُونَ الْوَعْدَ وَيَخَافُونَ الْوَعِيدَ فَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ الْوَعْدُ حَذَرًا مِنَ الْعَذَابِ وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ وَلَا نَعْنِي بِالْبَصِيرَةِ إِلَّا تَرْجِيحَ مَا فِيهِ الْوَعْدُ عَلَى مَا فِيهِ الْوَعِيدُ وَلِلَّذَلِكَ عِبْرٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ مَبْصُرُونَ.

وَأَمَّا الْآخَرُونَ وَهُمْ الصَّنْفُ الثَّانِي أَعْنِي مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى فَأَمْرُهُمْ بِالْعَكْسِ فَلَا مُحَالَةَ يَمْدُونَهُمُ الشَّيْطَانُ بِالْغِيِّ وَالضَّلَالَةِ وَأَنَّمَا أَتَى الْفِعْلَ وَهُوَ، يَمْدُونَهُمْ، بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّيْطَانِ جَنْسَهُ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَالْمَعْنَى يَمْدُونَهُمُ الشَّيَاطِينُ فِي الْغِيِّ وَأَنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ كَثِيرَةٌ بَلْ قَدْ يُقَالُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ شَيْطَانٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ فَالْمَعْنَى أَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَقْصِرُونَ عَنْ اسْتِغْوَاءِهِمْ وَلَا يَرْحَمُونَهُمْ بَلْ يَمْدُونَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَعَلَى هَذَا فَلَا حَاجَةَ فِي تَفْسِيرِ الْكَلَامِ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ التَّكْلِيفَاتِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي

المخاطب بهذه الآية هو الرّسول والمعنى اذا لم تأتهم يا محمّد بأية قالوا أي الكفّار أو غير المتّقين، لولا اجتبيتها، الاجتناء الاختلاق والافتلاع والضّمير يرجع الى الآية أي لولا اجتبيت الآية واختلفتها من قبل نفسك.

وقال أبو عبيدة الاختراع مثل ذلك أي لولا اخترعتها من قبل نفسك وكيف كان يصير المعنى لولا تأتي بها من عندك، قل، يا محمّد لهم أنما أتبع ما يوحى إليّ من ربّي، والمقصود أنّ الإتيان بها موقوف على وجود المصلحة ولا يعلم بها إلا الله تعالى هو العالم بالمصالح والمفاسد وخفّيات الأمور فاذا علم بالمصلحة في شيء يأمرني به وإلا فلا.

و يستفاد من هذا الكلام أنّ القدرة موجودة في النّبي إلا أنّ أعمالها موكول بأذنه تعالى وأنما قلنا ذلك لأنّه تعالى لم يقل، قل أنّي لا أقدر ذلك بل قال:

أَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَالسِّرْفِيهِ هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ وَلَا سَيِّمًا خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي الْعَالَمِ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ أَوْدَعَ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ الشَّرِيفَةَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَلِيقُ بِشَأْنِ الْخَلِيفَةِ إِلَّا أَنْ يُظَاهَرَ مَا فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ تَابِعَ لِلْوَحْيِ أَعْنَى بِهِ الْأُذُنَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

هَذَا بَصَائِرُ مَنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

قالوا، هذا، إشارة الى القرآن والمعنى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَجَجَ وَبَرَاهِينَ وَأَدْلَةً مِنْ رَبِّكُمْ، وَأَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّ الْبَصَائِرَ جَمَعَ بَصِيرَةٍ وَهِيَ الْبَرَاهِينُ الْوَاضِحَةُ وَالْحَجَجُ النَّيِّرَةُ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْبَصِيرَةَ وَالْحَجَجَ نَفْسَهَا بَلِ الْبَصِيرَةُ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ بِهَا وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الْبَرَاهِينَ الْوَاضِحَةَ تَوْجِبُ الْبَصِيرَةَ فِي الْإِنْسَانِ لَا أَنَّهَا نَفْسَهَا فَتَفْسِيرُ الْكَلَامِ بِهَا لَا مَعْنَى لَهُ.

قال بعض المفسرين من العامة أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَتَأَخَّرُ عَنِ النَّبِيِّ أحياناً فَكَانَ الْكَافِرَ يَقُولُونَ هَلَّا إِجْتَنَبْتَهَا أَوْ تَخَيَّرْتَهَا وَاصْطَفَيْتَهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَوَابِهِمْ إِنَّمَّا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مَنْ رَبِّكُمْ، أَي هَذَا الْمَوْحَى

إِلَيَّ الَّذِي أَنَا أَتَّبِعُهُ لَا أَبْتَدِعُهُ وَهُوَ الْقُرْآنُ بَصَائِرُ مَنْ رَبِّكُمْ، أَي حَجَجَ وَبَيِّنَاتٍ يَبْصُرُ بِهَا وَتَنْضَحُ الْأَشْيَاءُ الْخَفِيَّاتِ.

وقال الجبائي، هذا بصائر، إشارة الى الأدلة الدالة على توحيده وصفاته وعدله وحكمته وصحة نبوة النبي وصحة ما أتى به النبي.

وإعلم أَنَّا بَعْدَ التَّفَحُّصِ الْكَامِلِ فِي التَّفَاسِيرِ الْمَوْجُودَةِ عِنْدَنَا مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ لَمْ نَجِدِ الْمَشَارِ الْيَه بِقَوْلِهِ تَعَالَى: هَذَا إِلَّا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ وَإِسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِمَا مَرَّ ذَكَرَهُ وَلَكِنْ فِي نَفْسِي مِنْ شَيْءٍ وَمُلَخَّصُهُ أَنَّ الْقُرْآنَ غَيْرُ مُسَبَّوقٍ بِالذِّكْرِ لَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَا فِي قَبْلِهَا فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَشَارِ الْيَه بِقَوْلِهِ هَذَا وَأَيُّ دَلِيلٍ دَلَّ عَلَيْهِ أَوْ أَيُّ قَرِينَةٍ حَالِيَةٍ أَوْ مَقَالِيَّةٍ دَعَتْهُمْ إِلَى هَذَا التَّفْسِيرِ وَ

الَّذِي يَقْوِي فِي نَفْسِي هُوَ أَنَّ كَلِمَةَ هَذَا، إِشَارَةً إِلَى عَدَمِ إِتْيَانِ النَّبِيِّ بِأَيَّةٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى هَذَا، أَيْ عَدَمُ الْإِتْيَانِ بِالْآيَةِ وَتَرْتَّبُ الْوَحْيِ فِيهَا بِصَانِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ، لَوْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ وَتَوْضِيحُهُ إِجْمَالاً أَنَّ الْبَصِيرَةَ فِي الَّذِينَ لَا تَحْصِلُ إِلَّا بَعْدَ نَزُولِ الْآيَةِ عَلَى وَفْقِ الْمَصْلُحَةِ مِنْ حَيْثُ الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ وَغَيْرُهُمَا مِمَّا لَا يَدُّ مِنْهُ فِي تَحَقُّقِ الْمَصْلُحَةِ.

وَأَمَّا إِذَا لَمْ تَكُنِ الْآيَةُ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَلَا أَثَرَ لَهَا أَصْلَابٌ لَمْ تَكُنْ إِيجَادَهَا أُولَى وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى قَدْ تَكُونُ الْمَصْلُحَةُ فِي الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ فِي التَّرْكِ وَبِالصَّبْرِ تَابِعَةً لَهَا فَقَدْ تَحْصِلُ الْبَصِيرَةُ مِنْ وَجُودِ الْآيَةِ وَقَدْ تَحْصِلُ مِنْ تَرْكِهَا وَإِذَا مَرَضْنَا أَنَّ تَشْخِصَ الْمَصْلُحَةِ لَا يُمْكِنُ مِنَ الْمَخْلُوقِ بَلْ هُوَ مُخْتَصٌّ بِالْخَالِقِ فَإِنْ أَذِنَ الْخَالِقُ بِالْإِتْيَانِ بِهَا فَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَأْذِنْ فَعَدَمُ الْإِذْنِ كَاشَفَ عَنْ عَدَمِ الْمَصْلُحَةِ فَقَوْلُهُ هَذَا بِصَانِرٍ، مَعْنَاهُ عَدَمُ الْإِتْيَانِ بِهَا الْكَاشَفَ عَنْ عَدَمِ الْأُذْنِ الْكَاشَفَ عَنْ عَدَمِ الْمَصْلُحَةِ يُوْجِبُ الْبَصِيرَةَ فِي دِينِكُمْ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ إِذْ تَعْلَمُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الْأُمُورَ يَبِيدُ اللَّهُ وَالنَّبِيَّ ﷺ يُخْبِرُ عَنْهُ لَا مِنْ نَفْسِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فَالْوَجْهُ فِيهِ وَاضِحٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَاتِ النَّازِلَةَ تَكُونِيَّةً أَوْ تَشْرِيعِيَّةً لَا تَأْثِيرَ لَهَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِ لِعَدَمِ لِيَاقَتِهِ وَإِسْتِعْدَادِهِ فَإِنَّ شَرْطَ تَأْثِيرِ الْعِلَّةِ فِي الْمَعْلُولِ صِلَاةُ الْمَعْلُولِ لِلتَّأَثُّرِ.

وَإِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْمَكْلُفِينَ بِأَنَّهُ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ أَنْ يَسْتَمِعُوا لَهُ وَيَنْصِتُوا لَتَكُونُوا مَشْمُولِينَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَعِنَايَتِهِ، وَأَمَّا أَمْرٌ بِذَلِكَ لِيَفْهَمُوا مَعَانِيَهُ وَيَعْتَبِرُوا بِمَوَاعِظِهِ وَيَتَدَبَّرُوا فِي آيَاتِهِ وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ فَاسْمَعُوا لَهُ ثُمَّ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَمَرُوا بِالْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا كَانَ الْمُصَلِّي فِي الصَّلَاةِ خَلْفَ الْإِمَامِ الَّذِي يَأْتُمُّ بِهِ وَهُوَ يَسْمَعُ قِرَاءَةَ الْإِمَامِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَنْصِتَ وَلَا يَقْرَأَ وَيَتَسَمَّعَ لِقِرَاءَتِهِ.

و قال بعض آخر، أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على بعض وإذا دخل داخل وهم في الصلاة قال لهم كم صليتم فيخبرونه وكان التكلم مباحاً في الصلاة فنسخ ذلك ذهب اليه ابن مسعود وأبو هريرة والزهرى وعطاء وغيرهم.

و قال قوم هو أمرٌ بالإنصات للإمام إذا قرأ القرآن في خطبة روي ذلك عن مجاهد.

وقيل هو أمر بذلك في الصلاة والخطبة جميعاً.

قال الشيخ في التبيان بعد نقله الأقوال المذكورة، وأقوى الأقوال الأول لأنه لا حال يجب فيه الإنصات لقراءة القرآن إلا حال قراءة الإمام في الصلاة فأَنَّ على المأموم الإنصات لذلك والإستماع له فأما خارج الصلاة فلا خلاف أنه لا يجب الإنصات والإستماع.

و عن أبي عبد الله عليه السلام أنه انصت في حال الصلاة وغيرها وذلك على وجه الإستحباب.

و قال الجبائي يحتمل أن يكون أراد الإستماع إذا قرأ النبي عليهم ذلك فإنه كان فيهم من المنافقين من لا يستمع.

و قال الزجاج يجوز أن يكون الأمر بالإستماع للقرآن للعمل بما فيه وأن لا يتجاوزه كما تقول سمع الله لمن حمده بمعنى أجاب الله دعاءه لأن الله سميعٌ عليمٌ والإنصات السكوت مع الإستماع ذكر هذه الأقوال في التبيان. و قال الطبري وتبعه أكثر المفسرين من العامة والخاصة ما هذا لفظه:

يقول تعالى ذكره، للمؤمنين به المصدقين بكتابه الذين القرآن لهم هدى و رحمة إذا قرئ عليكم أيها المؤمنون القرآن فإستمعوا له يقول أصغوا له سمعكم لتفهموا آياته و تعتبروا بمواعظه و أنصتوا اليه لتعقلوه و تدبروه و لا تلغوا فيه فلا تعقلوه لعلكم ترحمون يقول ليرحمكم ربكم بإتعاظكم بمواعظه و إعتباركم بعبره و إستعمالكم ما بيئه لكم ربكم من فرائضه في أية.

ثُمَّ اِخْتَلَفَ اَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْحَالِ الَّذِي اَمَرَ اللّٰهُ بِالِاسْتِمَاعِ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ اِذَا قَرَأَ وَ الْاِنْصَاتِ لَهُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ حَالُ كَوْنِ الْمُصَلِّيِّ فِي الصَّلَاةِ خَلْفَ اِمَامٍ يَأْتُمُّ بِهِ وَ هُوَ يَسْمَعُ قِرَاءَةَ الْاِمَامِ عَلَيْهِ اَنْ يَسْمَعَ لِقِرَائَتِهِ وَ قَالُوا فِي ذَلِكَ اُنْزِلَتْ الْاَيَةُ اِنْتَهَى مَوْضِعُ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

ثُمَّ نَقَلَ الْاَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْبَابِ عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ وَ اَمْثَالِهِ وَ مَلَخَصِ الْاَثَارِ الْوَارِدَةِ هُوَ اَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَفْعِ الْاَصْوَاتِ وَ هُمْ خَلْفَ رَسُولِ اللّٰهِ فِي الصَّلَاةِ. وَ اعْلَمُ اَنَّهُ لَا كَلَامَ لَنَا فِي وَجوبِ الْاسْتِمَاعِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْاِمَامِ فِي الصَّلَاةِ:

فَقَدْ رَوَى زُرَّارَةَ عَنْ اَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: اِنَّ اللّٰهَ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ اِذَا قَرِئَ الْقُرْآنُ يَعْنِي فِي الْفَرِيضَةِ خَلْفَ الْاِمَامِ فَاسْتَمِعُوا الْاَيَةَ.

وَ اَيْضاً عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: قَالَ اَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَ اِذَا قَرِئَ الْقُرْآنُ فِي الْفَرِيضَةِ خَلْفَ الْاِمَامِ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ اَنْصِتُوا لِعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ.

وَ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ اَبَا عَبْدِ اللّٰهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ يَجِبُ الْاِنْصَاتُ لِلْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَ فِي غَيْرِهَا وَ اِذَا قَرِئَ عِنْدَكَ الْقُرْآنُ وَ جَبَ عَلَيْكَ الْاِنْصَاتُ وَ

الْاسْتِمَاعُ اِنْتَهَى.

وَ هَكَذَا غَيْرُهَا مِنَ الْاَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي الْبَابِ فَثَبِتَ وَ تَحَقَّقَ اَنَّ الْاسْتِمَاعَ وَ الْاِنْصَاتَ فِي الْفَرِيضَةِ خَلْفَ الْاِمَامِ وَاجِبٌ وَ هَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ.

وَ اَمَّا فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ فَالْاَمْرُ يَحْمِلُ عَلَى الْاِسْتِحْبَابِ وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ مَعْنَاهُ لِكِي تَرْحَمُونَ اَيَ اَنَّ الْاسْتِمَاعَ وَ الْاِنْصَاتَ سَبَبٌ لِنَزُولِ الرَّحْمَةِ وَ الْبَرَكَةِ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى عَلَى الْمُسْتَمِعِ وَ هَذَا مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ.

وَ اَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْاَضَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ

اَمَرَ اللّٰهُ نَبِيَّهٖ ظَاهِراً وَ جَمِيعَ الْاُمَّةِ وَاَقْعاً اَنْ يَذْكُرُوهُ عَلَى حَالِ التَّضَرُّعِ وَ عَلَى وَجْهِ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِهِ فَاِنَّ الْخِيفَةَ هِيَ الْخَوْفُ.

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٩

المجلد السابع

قال بعض المفسرين لما أمرهم الله تعالى بالاستماع والإنصات اذا شرع في قراءة القرآن إرتقى من أمرهم الى أمر الرسول ﷺ أن يذكر ربه في نفسه أي بحيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد وهي الحالة الشريفة العليا ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول أي يذكره بالقول الخفي الذي لا يشعر بالتذلل والخشوع من غير صياح ولا تصويت شديد كما تناجي الملوك وتستجلب منهم الرغائب وكما قال للصحابه وقد جهروا بالدعاء، أنكم لا تدعون أصم ولا غائباً أربؤوا على أنفسكم وكان كلام الصحابة للرسول سراراً.

قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^(١)**.

قال الله تعالى: **لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ^(٢)** ولا تجهروا له بالقول.

لأن الجهر عدم مبالاة بالمخاطب وظهور إستعلاء وعدم تذلل والذكر شامل لكل من التهليل والتسبيح وغير ذلك انتهى كلامه.

أقول وإنصب تصرعاً وخيفةً على أنهما مفعولان من أجلهما لأنهما يتسبب عنهما الذكر وهو التصرع في إيصال الثواب والخوف من العقاب وقيل أنهما مصدران في موضع الحال أي متضرعاً وخائفاً أو ذا تصرع وخيفة. وقرأ بعضهم، خفية بتقديم الفاء على الياء وعليه فهي من الخفاء.

قال بعضهم أن قوله تعالى: **وَ أَذْكُرْ رَبِّكَ** على حذف مضافٍ والتقدير و أذكر نعم ربك في نفسك بإستدامة الفكر حتى لا تنسى نعمه الموجهة لدوام الشكر وأنت خبير بأنه لا نحتاج الى هذا التقدير.

أما أولاً: فلائه خلاف الأصل.

أما ثانياً: فلأن البحث ليس في النعم والشكر بعد ذكرها وأن كان هو أيضاً حسن في نفسه بل المقصود من هذا الكلام هو توجه العبد الى معبوده في

جميع الأحوال و عدم الغفلة منه فَأَنَّ الغفلة رأس الخطيئات كما أَنَّ عدمها رأس الخيرات ولذلك قال تعالى: **وَأَذْكُرْ** ولم يقل، وأدع ربك مثلاً.

وَأَمَّا قال في نفسك إشعاراً بأنَّ المطلوب هو الذكر النفساني المعبر عنه بالتوجه و عدم الغفلة أحياناً، لا الذكر اللساني و أن كان هو أيضاً مطلوب محبوب و الحاصل أَنَّهُ تعالى أمر نبيه ظاهراً و جميع الأمة بل و جميع الناس واقعاً بهذا الذكر الَّذي يَتَقَرَّبُ العبد به الى الله في حال التضرع و الدُّعاء و الخوف و الرجاء اذ لا ملجأ للعبد إلا هو و لا يقدر على قضاء حوائجه و رفع همِّه و غمِّه إلا رَبُّه الَّذي رباه و الى هذه النكتته أشار بقوله: **رَبِّكَ** ولم يقل، و أذكر الله مثلاً فَأَنَّ في لفظة رَبِّكَ من التشريف بالخطاب و الإشعار بالإحسان الصَّادر من المالك المملوك ما لا خفاء فيه.

ألا ترى أَنَّ الأب اذا قال لابنه أطعني ما أقول لك، أو قال أطع أباك فمعنى الكلامين واحد إلا أَنَّ الثَّاني و هو قوله أطع أباك أوقع في نفس الولد بالقبول و هكذا قول الأستاذ لتلميذه أطع أستاذك و هكذا قول الام لولده أطع أمك.

ففي قوله تعالى: **وَأَذْكُرْ رَبِّكَ** ترغيب و تحريض و أن شئت قلت حثُّ على توجُّه العبد بهذه الوظيفة في جميع أحواله و أمَّا قوله: **دُونَ الْجَهْرِ** من القول ففيه إشارة الى ما ذكرناه من أن المطلوب في هذا المقام هو الذكر القلبي الَّذي هو ضد الغفلة ولذلك قال تعالى: **وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ** عن ذكر ربك لأنَّ الغفلة أم الفساد و أساس الطغيان و العصيان.

وفي قوله: **يَالْعُدُوِّ وَالْأَصْصَالِ** إشارة الى دوام الذكر بالليل و النهار فأنهما كنياتان عنهما، و قيل خَصَّهما بالذكر لفضلهما، و لا دليل عليه و الحق ما ذكرناه لأنَّ حمل اللفظ على العموم أولى، و حيث أَنَّهُ تعالى أمر نبيه بالذكر و نهاه عن الغفلة فقال في الأوَّل و أذكر ربك.

و قال في الثَّاني و لا تكن من الغافلين و قد ثبت أَنَّ الغفلة ضدَّ الذكر فمن كان ذاكرًا لا يكون غافلاً و من كان غافلاً لا يكون ذاكرًا في حال غفلته و هما لا

يجتمعان ولا يرتفعان كما هو شأن الضدين وإذا كان لذلك فلا بأس بصرف عنان الكلام اليهما إجمالاً لأنهما من الأصول بالنسبة إلى الخيرات والشُّرور والطاعة والعصيان فمنشأ الشُّرور والعصيان الغفلة كما أنَّ منشأ الخيرات والطاعات الذكر والتَّوجه إلى المعبود.

فنقول قال بعض العرفاء الذكر في لسان أهل السُّلوك عبارة عن وجدان المذكور وحضوره بالقلب لا ذكره باللسان وحده مع غفلة القلب فأنَّه غير معتبر عندهم.

وأول مراتب الذكر بهذا المعنى نسيان الغير لأنَّك أن لم تنس الكل ما وجدته ولأنَّك إذا كنت موصوفاً بنسيان الغير وذكر الرّب كانت نفسك مذكورة في ضمن هذا الذكر في هذه الدّرجة فإذا أوقفك الله على هذه العلّة نسيت نفسك في ذكر ربّك لأنَّ تحقق المذكور يوجب نفي الغير وأنتك تثبت الغيرة فإذا بلغت هذه الرّتبة كان ذكرك ذكره لغيبتك عن نفسك فنسيت ذكرك في ذكرك ثم إذا استمر ذلك واستحكم شهادته ذاكر لذاته به فنسيت في ذكر الحقّ ذاته كلّ ذكر وذاكر فكان هو الذكر والمذكور وعلى الوجه الثّاني معناه فنسيت في ذكر الحقّ عينيك في الأزل بتجليه الذات في صورة عينك كلّ ذكر وذاكر فقولهم الذكر هو التّخلص من الغفلة والنسيان يشمل المراتب كلّها فإنّ في الكل الخلاص عن نسيان المذكور والغفلة عنه بالحضور، وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الذّاكر الظّاهر من ثناء أو دعاء أو رعاء، معناه الظّاهر مع حضور القلب وجدان المذكور، والثناء مثل قوله: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم) لأنّها كلمات منها ثناء. والدّعاء مثل قوله: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا^(١) وأمثالها وبالجملة كلّ ما كان من القرآن أو مروياً عن النّبي ﷺ وخصوصاً ما فيه طلب الهداية والاستقامة.

وَأَمَّا الرَّعَاءُ أَعْنِي بِهِ الْمُرَاعَاةَ فَكَالضَّلَاةِ مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ فَأَنَّهَا مَعَ كَوْنِهَا ذِكْرًا فِيهَا مُرَاعَاةُ الشَّرْعِ وَرِعَايَةُ حُقُوقِ اللَّهِ وَهَكَذَا سَائِرُ الْعِبَادَاتِ وَتِلَاوَةُ كَلَامِ اللَّهِ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: ذِكْرُ الْخَفِيِّ، وَهُوَ الْخُلَاصُ مِنَ الْفُتُورِ وَالبَقَاءُ مَعَ الشُّهُودِ وَلِزُومِ الْمَسَامَرَةِ، فَالْخُلَاصُ مِنَ الْفُتُورِ يَتَحَقَّقُ بِدَوَامِ الشُّهُودِ وَالدَّهْوَلِ عَنِ النَّفْرَةِ الْمَوْجِبَةِ لِلْغَفْلَةِ وَالنَّسْيَانِ وَالِإِحْتِجَابِ بِالرُّسُومِ وَالْأَنَانِيَّةِ وَالصِّفَاتِ وَطَاعَاتِ.

وَأَمَّا الْبَقَاءُ مَعَ الشُّهُودِ فَهُوَ يَتَحَقَّقُ بِمُلَازِمَةِ الْمَشَاهِدَةِ، وَأَمَّا لِزُومِ الْمَسَامَرَةِ فَهُوَ فِي مَقَامِ السَّرِّ وَالتَّلْقِي مِنَ اللَّهِ وَيدْخُلُ فِيهَا الْمَكَاشِفَةُ وَالْمَكَالِمَةُ وَالمَنَاجَاتُ فَأَنَّهَا تَنْفِي الدَّهْوَلِ عَنِ الْحَقِّ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ وَيَسْتَلْزِمُ الْحُضُورَ مَعَ الْإِنْسِ بِالضَّرُورَةِ.

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الذِّكْرُ الْحَقِيقِيُّ وَهُوَ شُهُودُ ذِكْرِ الْحَقِّ إِيَّاكَ، وَالتَّخْلُصُ مِنْ شُهُودِ ذِكْرِكَ وَمَعْرِفَةُ إِفْتِرَاءِ الذَّاكِرِ فِي بَقَاءِهِ مَعَ ذِكْرِهِ، فَالذِّكْرُ الْحَقِيقِيُّ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ إِتِّحَادُ الذَّاكِرِ وَالمَذْكُورِ وَالذِّكْرُ وَهُوَ ذِكْرُ الْحَقِّ نَفْسَهُ فَمَنْ فَسَّرَهُ، بِشُهُودِ ذِكْرِ الْحَقِّ إِيَّاكَ، عَنِ بِهِ أَوَّلُ مَرَاتِبِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ فَالْمُرَادُ ذِكْرُ الْحَقِّ فِي الْأَزْلِ عَيْنَهُ فَيَمُنْ إِخْتِصَّهُ بِالْقُرْبِ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَجَلِّي الذَّاتِ فِي صُورَةِ عَيْنِهِ فَيَرْجِعُ إِلَى ذِكْرِ الْحَقِّ ذَاتَهُ وَقِيلَ، مَعْنَى شُهُودِ ذِكْرِ الْحَقِّ إِيَّاكَ، هُوَ مَرْتَبَةُ الْبَقَاءِ بَعْدَ الْفَنَاءِ أُخْرَى مَرَاتِبِ أَهْلِ النِّهَايَةِ وَأَرْفَعُهَا، هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي مَعْنَى الذِّكْرِ بِأَقْسَامِهِ وَعَلَيْهِ فَالذِّكْرُ الْخَفِيُّ هُوَ الَّذِي أُرِيدَ بِقَوْلِهِ: **وَأَذْكُرُ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ** وَهُوَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الذِّكْرِ لِكَوْنِهِ أَبْعَدُ مِنْ شَائِبَةِ الرِّيَاءِ مِنَ الذِّكْرِ الْجَلِيِّ.

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٩

المجلد السابع

وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ.

إِلْعَامُ أَنَّ الْغَفْلَةَ ضِدُّ الْبِقْظَةِ، وَلِذَلِكَ قَالُوا الْقَوْمَةُ لِلَّهِ هِيَ الْبِقْظَةُ مِنْ سَنَةِ الْغَفْلَةِ وَالتَّهْوُوسِ عَنِ وَرْطَةِ الْفَتْرَةِ.

فنقول لا شك أن الإنسان المغمور في غواشي النشأة الذاهل عن الحق و نور الفطرة بمقتضيات الطبيعة كالتائم بالحقيقة كما قال ﷺ: النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا انتَبهوا، فلا بد من منبه وهو وعظ الله لأن الغافل عن فطرته إذا حصل له شعور بنور الفطرة فقد قام لله بأمره ونهض عن فترته وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه.

ثم أن اليقظة التي هي ضد الغفلة تتحقق بثلاثة أشياء:

الأول: توجه القلب الى النعمة على الإيأس من عدّها، لقوله تعالى: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ^(١).

الثاني: الوقوف على حد النعمة وأنه يمتنع إنحصارها في حدّ.

الثالث: التفرغ الى معرفة المنّة بها والعلم بالتقصير في حقّها.

فالنهي عن الغفلة في الحقيقة يرجع الى الأمر باليقظة وهي الباعثة على القيام باداء شكر النعمة بالطاعة والجّد والإجتهاد وملاحظة النعم الظاهرة و الباطنة والسابقة واللاحقة مع اليأس عن حدّها فراداي لكونها غير متناهية من البلوغ الى نهاياتها والوقوف على حدّها مجموعة لإمتناع إنحصارها في حدّ ثم التفرغ الى معرفة أنّها من الله على سبيل الإمتنان والموهبة لا على سبيل الإستحقاق ثم العلم بأنّ وإن إستفرغنا الجهد وبلغنا الوسع في القيام بشكرها كنّا في غاية التقصير في حقّها فإنّا لا نقوم بشكرها إلاّ بآلات هي أيضاً من النعم ولا نستطيع إستعمالها إلاّ بالحوال والقوة والتوفيق للعمل التي هي نعم كلّها منه فلا سبيل الى القيام بحقّها إلاّ بالإعتراف بالعجز منه والتقصير لأنّا كلّما إزددنا في الشكر والطاعة والقيام بحق النعمة إزدادت النعم أضعافاً مضاعفة. وهذا هو السرّ في قوله تعالى: وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ اعاذنا الله منها.

بَيِّنَةُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِهِ

القرآن

جزء ٩

العبد الساجد

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ

اتفق المفسرون على أنَّ المراد بقوله أنَّ الذين عند ربِّك الآية. الملائكة ولم يخالف في هذا التأويل أحد.

قال الطبري يقول تعالى ذكره لا تستكبر أيها المنصت للقرآن من عبادة ربِّك وأذكره إذا قرئ القرآن تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول فأَنَّ الذين عند ربِّك من الملائكة لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع وذلك هو العبادة، و يسبحونه، يقول ويعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم وله يسجدون يقول ولله يصلون وهو سجدتهم فصلوا أنتم أيضاً له وعظموه بالعبادة كما يفعله من عنده من الملائكة انتهى.

وقال الشيخ في التبيان، بيَّن الله تعالى أنَّ الذين عنده من الملائكة، معناه أنهم عنده بالمنزلة الجليلة لا بقرب المسافة لأنه تعالى ليس في مكانٍ ولا جهة فيقرب غيره منه لأنَّ ذلك من صفات الأجسام وهذا حثُّ منه على الطاعة والإستكانة والخضوع له لأنَّ الملائكة مع فضلها وإرتفاع منزلتها إذا كانت لا تستكبر عن عبادته بل تسبحه دائماً وتسجد فبنو آدم بذلك أولى وأحقَّ ولهم أوجب ولزم انتهى كلامه.

أقول ما نقلناه عن الطبري والشيخ هو الأصل في كلمات المفسرين من العامة والخاصة.

أقول يظهر من كلماتهم أنَّ الملائكة مع علو شأنهم ورفعة منزلتهم عند الله إذا كانوا كذلك فالإنسان أحقَّ وأولى بأن لا يستكبر عن عبادة ربِّه وقد صرح الرازي في تفسيره بذلك كما صرح به الشيخ في التبيان قبله وقد نقلنا كلامه فقال الرازي لما رغب الله رسوله في الذكر والمواظبة عليه ذكر عقيقه ما يقوي دواعيه في ذلك فقال: عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ والمعنى أنَّ

الملائكة مع نهاية شرفهم و غاية طهارتهم و عصمتهم و براءتهم عن بواعث الشهوة و الغضب و حوادث الحقد و الحسد لَمَّا كانوا مواظبين على العبوديّة و السجود و الخضوع فالإنسان مع كونه مبتلى بظلمات عالم الجسمانيّات و مستعداً للذات البشريّة و البواعث الإنسانية أولى بالمواظبة على الطاعة و لهذا قال عيسى عليه السلام: **أَوْضَنِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** ^(١) و قال لمحمد عليه السلام: **وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ^(٢) انتهى كلامه.

و أنت ترى أنّ كلماتهم في تفسير الآية تدور مدار الأولويّة في عبادة الإنسان بمعنى أنّ الملائكة إذا كانوا لا يستكبرون عن عبادته تعالى مع شرفهم و قربهم و عصمتهم فالإنسان أولى بها منهم و عليه فالآية نزلت لترغيب النّاس في العبادة و الحثّ عليها.

و لقائل أن يقول أمّا أولاً فلانسلم كون الملائكة أفضل و أشرف و أقرب الى الله من الإنسان الكامل بل هو أفضل و أشرف منهم بمراتب و هذا ثابت عندنا عقلاً و نقلاً و للبحث فيه مقام آخر و على فرض التسليم فهم أولى بالعبادة من الإنسان لعدم الشهوة و الغضب و أمثالهما من الموانع فيهم كما إعتترف به الرّازي في كلامه و ذلك واضح لا خفاء فيه فأَنَّ المخلوق الذي خلقه الله لأجل العبادة و لم يجعل فيه دواعي المعصية بحيث لا يقدر عليها، أولى بعبادة ربّه من المخلوق الذي واجد لها بحسب الخلقة و هو الإنسان فكيف يقال أنّ الإنسان أولى بها فأنيّ ترغيب أو تحريض في الآية لرسوله و بعبارة أخرى دلالة الآية على عكس ما إستدلّوا بها عليه أظهر من دلالتها على ما ذكره لأنّ الإنسان مع وجود الموانع فيه أولى بترك العبادة من الملائكة التي لا عذر لها في تركها أصلاً فالآية نزلت لبيان شيء آخر غير ما ذكره و هو أنّ الله تعالى غير محتاج الى عبادة الإنسان بل و لا الى عبادة الملائكة لكونه غنيّاً بالذات و

الصفات و الإحتياج نقص في ذاته و النقص مساوق للإمكان فكل ناقص أو محتاج فهو ممكن و اذا كان كذلك فأمره بالعبادة ليس لأجل الإحتياج اليها فعدم عبادة المخلوق و وجودها بالنسبة اليه سيان سواء كانت العبادة من الملائكة أم للإنسان نعم نفع العبودية يرجع الى المخلوق إذ لا تنفعه طاعة من أطاعه كما لا تضره معصية من عصاه إذا عرفت هذا فنقول.

ذكر في الآية السابقة في قوله: **وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ** وظيفة العبد في مقام العبودية لخالقه و موجهه الذي أنعم الله عليه بأنواع النعم الظاهرة و الباطنة فأمره بالتوجه الى المعبود في جميع شؤنه و نهاه عن الغفلة التي هي أساس العصيان و الشرور و حيث أن في هذا الأمر مظنته الإحتياج وأنه تعالى ينتفع بها قال: **إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** أي لو كنت منتفعاً بالعبادة لكفاني عبادة الملائكة الذين لا يستكبرون عن عبادته و لا يعصونه طرفة عين.

و محصل الكلام أن المقصود من الآية إيقاظ الإنسان عن نوم الغفلة و التوجه الى وظيفة العبودية، و يمكن أن تكون الآية إشارة الى ذم الإستكبار بقرينة قوله: **لَا يَسْتَكْبِرُونَ**، أي أن الملائكة يعبدون الله و لا يعصونه لتواضعهم و خشوعهم و عدم إتصافهم بالكبر الذي هو منشأ الأفات و أما الإنسان فليس كذلك المعلوم أن الحكم في الإنسان باعتبار الأغلب و الله أعلم.

* * *

في القرآن تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ
بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ
إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

◀ اللغة

الْأَنْفَالِ جمع نَفْل بفتح النون وسكون الفاء واللام وهو الزيادة على الشئ يقال نفلك كذا إذا زدته وبالجمله كل شئ كان زيادة على الأصل فهو نفل و نافلة ومنه قيل لولد الولد نافلة ولما زاد على فرائض الصلاة نافلة. وَجِلْتُ، الْوَجَلُ بفتح الواو والجيم وسكون اللام، الخوف والفرع. يُسَاقُونَ، السُّوقُ الْحَثُّ على السير عجلة. تَوَدُّونَ، الْوُدُّ الْحُبُّ أي وتحبون. دَابِرُ الْكَافِرِينَ، الدَّابِرُ المَآخِرُ وقطعه الإنيان على جميعهم. تَسْتَغِيثُونَ الْإِسْتِغَاثَةَ طلب المعونة وهو سَدُّ الْخُلَّةِ في وقت شدة الحاجة. مُرْدِفِينَ أي متتابعين لأن الإرداف التتابع يقال أردفه بكذا أي أتبعه. لَتَطْمَئِنَّ، الْإِطْمِنَانُ الثَّقة ببلوغ المحبوب وهو خلاف الإنزعاج، و الطمأنينة السكون والدعة والباقي واضح.

◀ الإعراب

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ يجوز أن تكون الجملة حالاً من ضمير المفعول في زادتهم ويجوز أن تكون مستأنفة حقاً مصدر مؤكّد والعامل فيه، أحق ذلك حقاً عِنْدَ رَبِّهِمْ ظرف والعامل فيه الإستقرار كَمَا أَخْرَجَكَ في موضع الكاف أوجه.

أحدها: أنها صفة لمصدر محذوف ثم في ذلك المصدر أوجه تقديره ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك.

الثاني: وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك وفي هذا رجوع من خطاب الجمع الى خطاب الواحد.

الثالث: تقديره وأطيعوا الله طاعة كما أخرجك والمعنى طاعة محققة.

الرابع: تقديره يتوكلون توكلأ كما أخرجك.

الخامس: هو صفة لحق تقديره أولئك هم المؤمنون حقاً مثل ما أخرجك.

السادس: تقديره يجادلونك جدالاً كما أخرجك.

السابع: تقديره وهم كارهون كراهية كما أخرجك أي لكراهيتهم أو كراهيتك لإخراجك وقد قيل أن الكاف بمعنى الواو والتي للقسم وهو بعيد جداً مصدرية وبالحق حال إن فربقاً الواو واو الحال وإذ يعدكم إذ في موضع نصب أي وأذكروا والجمهور على ضم الدال ومنهم من يسكنها تخفيفاً لتوالي الحركات وإحدى مفعول ثانٍ أنها لكم في موضع نصب بدلاً من إحدى، بدل الإشتمال والتقدير وإذ يعدكم الله ملكة إحدى الطائفتين إذ تستغيثون يجوز أن يكون بدلاً من، إذ، الأولى والتقدير أذكروا، ويجوز أن يكون ظرفاً لتودون مردفين بضم الميم وكسر الدال وإسكان الراء وفعله، أردف والمفعول محذوف أي مردفين أمثالهم ويقرباً بفتح الدال على ما لم يسم فاعله أي أردفوا بأمثالهم.

التفسير

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ

قال صاحب الكشف النفل الغنيمة لأنها من فضل الله وعطاءه والنفل ينقله الغازي أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم انتهى.

ثُمَّ أَنَّهُمْ إِنْتَفَقُوا عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَمْرٌ غَنَائِمُهُ وَقَدْ أَطَالُوا الْكَلَامَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ وَفِي قِسْمَتِهَا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ نَقَسْمُهَا وَلِمَنِ الْحُكْمُ فِي قِسْمَتِهَا، أَلِلْمُهَاجِرِينَ أَمْ لِلْأَنْصَارِ أَمْ لَهُمْ جَمِيعاً فَقِيلَ لَهُ، قُلْ لَهُمْ هِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً وَهُوَ الْحَاكِمُ فِيهَا يَحْكُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا حُكْمٌ غَيْرُهُ شَرْطٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ بَلَاءٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ يَنْفِلَهُ فَتَسَارَعَ شَبَانُهُمْ حَتَّى قَتَلُوا سَبْعِينَ وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ فَلَمَّا يَسَّرَ لَهُمُ الْفَتْحَ إِخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَتَنَازَعُوا فَقَالَ الشُّبَّانُ نَحْنُ الْمُقَاتِلُونَ.

وَقَالَ الشُّيُوخُ وَالْوُجُوهُ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الرِّيَاسَاتِ كَثَرًا رَدًّا لَكُمْ وَفِتْنَةً تَنَحَازُونَ إِلَيْهَا أَنْ يَنْهَزِمَتْ وَقَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَغْنَمُ قَلِيلٌ وَالنَّاسُ كَثِيرٌ وَأَنْ تَعْطَى هَؤُلَاءُ مَا شَرِطْتَ لَهُمْ حَرَمْتَ أَصْحَابَكَ فَنَزَلَتْ ذِكْرُهُ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ قَالَ بَعْضُهُمُ الْأَنْفَالُ الْغَنَائِمُ وَقَالَ آخَرُونَ الْأَنْفَالُ مَا شَدَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ عَبْدٍ أَوْ دَابَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ الْمُرَادُ بِهَا السَّلْبُ وَالْفَرَسُ. وَفِي نَقْلِ آخَرٍ عَنْهُ، الْفَرَسُ وَالِدَّرْعُ وَالرُّمْحُ وَقَالَ عَطَاءُ الْأَنْفَالُ الْفَرَسُ الشَّاذُّ وَالِدَّرْعُ وَالثَّوبُ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرٍ عَنْهُ مَا شَدَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي غَيْرِ قِتَالٍ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ عَبْدٍ فَهُوَ نَفْلٌ لِلنَّبِيِّ.

وَقَالَ آخَرُونَ النَّفْلُ الْخُمْسُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْخُمْسِ.

ثُمَّ قَالَ الطَّبْرِيُّ بَعْدَ نَقْلِهِ الْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةَ وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي مَعْنَى الْأَنْفَالِ هُوَ قَوْلُ مَنْ قَالَ هِيَ زِيَادَاتُ يَزِيدُهَا الْإِمَامُ لِبَعْضِ الْجَيْشِ أَوْ جَمِيعِهِمْ إِلَى أَنْ قَالَ وَأَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ أَوَّلَى الْأَقْوَالِ لِأَنَّ النَّفْلَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَمَّا هُوَ الزِّيَادَةُ عَلَى الشَّيْءِ وَمِنْهُ قَوْلُ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ:

أَنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرَ نَفْلٍ وَبِأَذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلِ

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَمَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْتَّقْوَى وَالْإِصْلَاحَ وَإِطَاعَةَ اللَّهَ وَإِطَاعَةَ الرَّسُولِ فَقَالَ فَاتَّقُوا اللَّهَ الْخِإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَمَحْصَلَ الْكَلَامِ فِيهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْوِضَ أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِذَلِكَ عُلِّقَ التَّقْوَى وَغَيْرُهَا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْإِيمَانِ لِأَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ لَا يَكُونُ مُتَّصِفًا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ.

أَقُولُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الْبَيْتِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَنْفَالِ مَا يَحْصُلُ لِلْإِمَامِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَنَحْنُ نَذْكُرُ بَعْضَ مَا وَرَدَ فِي الْبَابِ.

مَا عَنْ أَصُولِ الْكَافِي بِالْأَسْنَادِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْأَنْفَالُ مَا لَمْ يُوجَفْ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ أَوْ قَوْمٍ صَالِحُوا لِقَوْمٍ أَعْطُوا بِأَيْدِيهِمْ وَكُلَّ أَرْضٍ خَرِبَةٍ وَبَطُونِ الْأَوْدِيَةِ فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَلِلْإِمَامِ مِنْ بَعْدِهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ أَنْتَهَى.

وَبِالْأَسْنَادِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ يَقُولُ: الْأَنْفَالُ هُوَ النَّفْلُ وَهُوَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ جَدْعُ الْأَنْفِ أَنْتَهَى

وَبِالْأَسْنَادِ عَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَحْنُ قَوْمُ فَرَضِ اللَّهِ طَاعَتَنَا لَنَا الْأَنْفَالُ وَلَنَا صَفْوُ الْمَالِ أَنْتَهَى.

وَعَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الرَّجُلِ يَمُوتُ وَلَا وَارِثَ لَهُ مَوْلًى قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ أَهْلُ هَذِهِ الْآيَةِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ أَنْتَهَى.

وَعَنْ تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بِأَسْنَادِهِ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْأَنْفَالِ فَقَالَ: هِيَ الْقَرَى الَّتِي قَدْ خَرَجْتَ وَإِنْجَلَى عَنْهَا أَهْلُهَا فَهِيَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَمَا كَانَ لِلْمَمْلُوكِ فَهُوَ لِلْإِمَامِ وَمَا كَانَ مِنْ أَرْضٍ خَرِبَةٍ لَمْ يُوجَفْ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَكُلَّ أَرْضٍ لَا رَبَّ لَهَا وَالْمَعَادِنُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ مَوْلًى فَمَالُهُ مِنَ الْأَنْفَالِ ثُمَّ قَالَ نَزَلَتْ يَوْمَ بَدْرٍ لَمَّا إِنْهَزَ النَّاسُ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ:

فَصَيَّفُوا كَانُوا عِنْدَ خِيْمَةِ النَّبِيِّ.
وَصَيَّفُوا أَغَارُوا عَلَى النَّهْبِ.

و فرقة طلبت العدو وأسروا و غنموا فلما جمعوا الغنائم والأسارى
تكلّمت الأنصار في الأسارى فأنزل الله تبارك و تعالى: مَا كَانَ لِنَبِيِّ
أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَذَ فِي الْأَرْضِ ^(١) فَلَمَّا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُمُ الْأَسَارَى
و الغنائم تكلّم سعد بن معاذ و كان ممّن قام عند خيمة النبي ﷺ
فقال: يا رسول الله ما منعنا أن نطلب العدو زهادة في الجهاد و لا
جنباً من العدو و لكنّا خفنا أن يعرّى موضعك فتميل عليك خيل
المشركين و قد أقام عند الخيمة وجوه المهاجرين والأنصار و لم
يشكّ أحد منهم و الناس كثير يا رسول الله و الغنائم قليلة و متى
تعطي هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء و خاف أن يقسم رسول الله
الغنائم و أسلاب القتلى بين من قاتل و لا يعطي من تخلف على
خيمة رسول الله شيئاً فإختلفوا فيما بينهم حتّى يسألوا رسول الله
فقالوا لمن هذه الغنائم فأنزل الله: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ
الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَرِجِمْ النَّاسِ و ليس لهم في الغنيمة شيء ثمّ
أنزل الله بعد ذلك وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ
لِلرَّسُولِ ^(٢) فَقَسَمَهُ رسول الله بينهم فقال ابن أبي وقاصّ يا رسول
الله أتعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضّعيف فقال
النبي ﷺ ثكلتك أمك تنصرون إلّا بضعفائكم قال فلم يخمس رسول
الله ﷺ ببدر و قسّم بين أصحابه ثمّ استقبل يأخذ الخمس بعد
البدر فأنزل الله قوله: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ بعد إنقضاء حرب بدر
فقد كتب ذلك في أوّل السّورة و كتب بعده خروج النبي ﷺ الى الحرب
انتهى.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

أقول الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثقلين^(١) وقد نقل أحاديث كثيرة و فيما ذكرناه كفاية ومن أراد الإطلاع على أكثر مما نقلناه فعليه بمراجعته وقد ظهر لك أنَّ المراد بالأنفال ما هو وكيف كان فالأنفال لله ولرسوله ولإمام بعده. و أما قوله: **فَاتَّقُوا اللَّهَ** الخ فالوجه فيه أنه وقعت المشاجرة والنزاع بين المسلمين في تقسيم الغنائم فكانت كل طائفة منهم تجر النار الى قرصته فقال الله تعالى في جوابهم ما قال وفي قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** إشارة الى نفاقهم وأنهم يطلبون من الغنائم زيادة على إستحقاقهم كما هو شأن أبناء الدنيا وهو غريب.

ثم وصف الله تعالى المؤمنين فقال: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** كلمة، أنما، تفيد الحصر والمقصود أنَّ الله تعالى بيَّن في هذه الآية أوصاف المؤمن على سبيل الحصر ومفهومه أنَّ من لم يتَّصف بهذه صفات فهو ليس بمؤمن حقاً.

أحداً منها: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، الوجل الخوف والمعنى أنَّ المؤمن إذا ذكر الله عنده يخاف منه ويوجل لأنه آمن به تعالى وعلم بسخطه وغضبه كما علم برحمته وعلم أيضاً أنَّ الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وقد ثبت أنَّ الوجل أنما يكون من خوف العقوبة.

الثانية: أنه إذا تليت آياته عليه زادته إيماناً، أي تلاوة آيات الله عليه توجب الزيادة في إيمانه وفيه دليل على أنَّ الإيمان يزيد وينقص فهو مقول بالتشكيك على أفراد ومصاديقه.

الثالثة: وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أي أنَّ المؤمن يكل أمره الى الله ويعتمد عليه في جميع حالاته وشئونه فالبحث حول الآية يقع في مسائل:

الأولى: في قوله تعالى: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ.**

الثانية: في قوله تعالى: **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا.**

الثالثة: في قوله تعالى: **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.**

أما المسألة الأولى: فإعلم أن الله تعالى أتى في هذه الآية بكلمة، أنما، التي تنفيد الحصر لأنه قال في الآية السابقة **وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** علقت الطاعة على الإيمان إشعاراً بأن من لا إيمان له لا طاعة له كذلك فكأنه قال قائل ما الإيمان الذي يكون منشأ للطاعة والإنقياد هل هو الاعتقاد القلبي فقط أو غير ذلك فقال تعالى في جوابه ليس الأمر كما زعمت أنما المؤمنون لهم أوصاف ثلاثة فالإيمان يدور مدارها زيادة ونقصاناً لأنها مقول على أفرادهم ومصاديقه بالتشكيك فقال تعالى: **إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** والمراد بالذكر معناه اللغوي أي إذا ذكر إسمه تعالى عند المؤمن دخل الخوف في قلبه لا ما هو المصطلح عند الصوفية من الإذكار الخاصة المتداولة بينهم على كيفية مخصوصة وعليه فالمعنى، إذا ذكر إسمه تعالى عندهم ويلفظ به تفرغ قلوبهم لذكره إستعظماً له وتهيئاً وإجلالاً.

ويحتمل أن يكون ذكر الله على حذف مضاف أي ذكرت عظمة الله وقدرته وما خوَّف به من عصاه قاله الزجاج.

وقال السدي هو الرجل يهمل بالمعصية فيذكر الله فيفرغ عنها.

الثانية: **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** والمعنى أن تلاوة الآيات صارت سبباً لإزدياد الإيمان في حق المؤمن والمراد بالآيات الآيات القرآنية ولعل الوجه فيه هو أن الآيات الموجودة في الكتاب من جهة أنها كلام الله تعالى توجب توجه العبد الى المعبود أو أن التفكير فيها يوجب زيادة الإيمان فأن التوحيد أساس الإيمان.

قال بعض المفسرين معنى زادتهم إيماناً أي يقيناً وتثبيتاً لأن تظاهر الأدلة و تظاهرها أقوى على الطمأنينة المدلول عليه وأرسخ لقدمه وقيل المعنى أنه اذا كان لم يسمع حكماً من أحكام القرآن منزل على النبي ﷺ فأمن به زاد إيماناً الى سائر ما قد أمن به إذ لكل حكم تصديق خاص.

ولهذا قال مجاهد عبر بزيادة الإيمان عن زيادة العلم وأحكامه. وقيل زيادة الإيمان كناية عن زيادة العمل وغير ذلك من الأقوال التي ذكروها في تفاسيرهم.

الثالثة: وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أقول هذا الكلام بمنزلة النتيجة لما تقدم و ذلك لأن المؤمن الخائف يتوكل على الله لا محالة في جميع أموره لعمله بأن أزمه الأمور بيد الله ولا مؤثر في الوجود إلا هو وهذا هو السرفي التوكل عليه ولتوضيح الكلام في معنى التوكل ولزومه عقلاً ونقلأ على العبد نقول: التوكل مصدر من باب التفعّل مأخوذ من وَكَلَّ يَكُلُّ وَكَلًّا وَوَكُولًا بمعنى فَوَّضَ يقال وكل الأمر اليه اذا تركه وفوّضه اليه وعليه فالتوكل معناه التّفويض ومنه الوكيل المفوّض اليه الأمر من جانب الموكل هذا بحسب اللغة. وأما في عرف علماء الأخلاق فالتوكل إعتقاد القلب في جميع الأمور على الله تعالى وبعبارة أخرى حوالة الأمر جميع أموره عليه.

وقال بعضهم هو التبرّي من كلّ حول وقوة والإعتماد على حول الله وقوته ومن المعلوم أنّ هذا المعنى موقوف على الإعتقاد الجازم القاطع بأنّه لا فاعل إلا الله وأنّه لا حول ولا قوة إلا به وأنّ له تعالى تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثمّ تمام العطف والعناية والرّحمة بجملة العباد وأنّه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته عناية فمن إعتقد ذلك إنكّل قلبه لا محالة على الله وحده ولم يلتفت الى غيره ولا الى نفسه أصلاً واذا كان كذلك فمن لم يجد ذلك عن نفسه فسببه أمّا ضعف

اليقين أو ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وإنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فَأَنَّ القلب الضَّعيف فينزعج تبعاً للوهم فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً.

وبذلك ظهر لك أَنَّ المؤمن الحقيقي يلزمه التوكل قطعاً فالإيمان والتوكل متلازمان فمن لا تَوَكَّلَ له لا إيمان له وبالعكس ولذلك قال تعالى: **وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** فالتوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معاً وقد ثبت في باب التوحيد أَنَّ عماد التوكل وما يبتني عليه هو المرتبة الثالثة من التوحيد وهي أن ينكشف للعبد بإشراق نور الحق بَأَنَّهُ لا فاعل إلا هو وَأَنَّ ما عداه من الأسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الأزلية اذا عرفت ذلك فنقول:

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين بل هو أفضل درجات المؤمنين ولذا ورد في مدحه وفضله والترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: **وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ^(٥).

أي عزيز لا يذل من إستجار به فلا يضع من لاذ بجناحه وحكيم لا يقصر عن تدبير من تَوَكَّلَ على تدبيره وغيرها من الآيات.

١- المائة = ١١

٢- الطلاق = ٣

٣- المائدة = ٢٣

٤- آل عمران = ١٥٩

٥- الأنفال = ٤٩

وقال رسول الله ﷺ: من أنقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن إنقطع الى الدنيا وكله الله اليها.
وقال ﷺ: لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماساً وتروح بطاناً.
وقال ﷺ: من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده.

وقال الصادق عليه السلام: أوحى الله الى داود، ما إعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السموات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن.
وقال عليه السلام: أن الغني والعزّ يجولان فإذا ظفر بموضع التوكل أوطنا.
وقال عليه السلام: من أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً، من أعطي الدعاء أعطي الإجابة أعطي الشكر أعطى الزيادة ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية.

ثم قال عليه السلام: أتلوت كتاب الله عزّ وجلّ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه:

قال الله تعالى: لئن شكرتم لأزيدنكم^(١).
قال الله تعالى: وقال ربكم ادعوني أستجب لكم^(٢).

وقال عليه السلام: أن الله تعالى يقول وعزّتي وجلالي ومجدي وإرتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيره باليأس ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ولأنحيتّه من قربي ولأبعده من وصلي أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني فمن ذا الذي أملني لنوائبه فقطعته دونها ومن ذا

الَّذِي رَجَانِي لِعَظِيمَةٍ فَقَطَعْتَ رَجَاءَهُ مِنِّي جَعَلْتَ آمَالَ عِبَادِي عِنْدِي
مَحْفُوظَةً فَلَمْ يَرْضُوا بِحَفْظِي وَ مَلَأَتْ سَمَاوَاتِي مَقَمَّنَ لَا يَمِلُّ مِنْ
تَسْبِيحِي وَأَمَرْتَهُمْ أَنْ لَا يَغْلُقُوا الْأَبْوَابَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبَادِي فَلَمْ يَتَّقُوا
بِقَوْلِي الْحَدِيثَ ^(١).

ثُمَّ أَنَّ لِلتَّوَكُّلِ ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ:

الأولى: أَنْ يَكُونَ حَالُهُ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَالثَّقَّةُ بِعِنَايَتِهِ وَكِفَالَتِهِ كَحَالِهِ فِي الثَّقَّةِ
بِالْوَكِيلِ وَهَذِهِ أضعف الدَّرَجَاتِ.

الثانية: أَنْ يَكُونَ حَالُهُ مَعَ اللَّهِ كَحَالِ الطِّفْلِ مَعَ أُمِّهِ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهَا
يَفْزَعُ إِلَّا إِلَيْهَا وَلَا يَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَيْهَا.

الثالثة: وَهِيَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ
مِثْلَ الْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِ الْغَاسِلِ بِأَنْ يَرَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ مَيِّتًا وَتَحَرُّكُهُ الْقُدْرَةَ الْأَرْثِيَّةَ
كَمَا يَحْرُكُ الْغَاسِلُ الْمَيِّتَ وَهُوَ الَّذِي قَوِيَتْ نَفْسُهُ وَنَالَ الدَّرَجَةَ الثَّلَاثَةَ مِنْ
التَّوْحِيدِ هَكَذَا حَقَّقَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ وَلَا مَشَاخِةَ فِيهِ وَتَفْصِيلَ الْكَلَامِ فِيهِ
مَوْكُولٌ إِلَى كِتَابِ الْأَخْلَاقِ وَحَيْثُ إِنْجَرَ الْكَلَامُ إِلَى هُنَا فَلَا بَأْسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى مَا
ذَكَرُوهُ فِي كِتَابِ الْعِرْفَانِ فِي مَعْنَاهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ فَنَقُولُ.

قَالَ بَعْضُ الْعُرَفَاءِ التَّوَكُّلُ كُلُّهُ الْأَمْرُ إِلَى مَالِكِهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى وَكَالَتِهِ وَهُوَ مِنْ
أَصْعَبِ مَنَازِلِ الْعَامَّةِ عَلَيْهِمْ وَأَوْهَنِ السُّبُلِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ الْأُمُورَ
كُلَّهَا إِلَى نَفْسِهِ وَأَيَّاسَ الْعَالَمِ مِنْ مَلِكٍ شَيْءٍ مِنْهَا.

قَالَ الشَّارِحُ أَمَّا كَانَ التَّوَكُّلُ أَصْعَبَ مَنَازِلِ الْعَامَّةِ لِأَنَّهُمْ قَدْ إحتجوا
بِالْأَسْبَابِ لِمَحَبَّتِهِمْ نَفُوسَهُمْ وَمُوافَقَاتِهَا مِنَ الْمَشْتَهِيَّاتِ فَتَعَلَّقُوا بِمَا تَحْصُلُ بِهِ
مِنَ الْأَسْبَابِ وَالأَمْوَالِ لِأَنَّ الْمَالَ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ فَمَالُوا إِلَيْهَا وَضَرُّوا بِهَا فَهُمْ
يَخَافُونَ مِنْ تَلَفِ النَّفُوسِ أَنْ تَرَكُوا الْأَسْبَابَ فَلَا يَعْمَلُونَ عَلَى اللَّهِ مُعَلِّينَ
بِعَقُولِهِمُ الْمَشُوبَةَ بِالْوَهْمِ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَانَا الْعَقْلَ وَالْقُوَّةَ وَالْقُدْرَةَ فَلَا يَقْوَى إِيمَانُهُمْ

فِي تِلْكَ الْقَارِيَةِ
وَيُفَسِّرُ الْقُرْآنَ

جزء ٩

بِالْقُدْرَةِ
وَالْقُوَّةِ

أن يعارض أوهامهم يعلمون أنَّ الأمر ليس بأيديهم ولا تأثير لقدرتهم فيحسبون أنَّ الله قد وكله اليهم فلذلك كان أصعب عليهم.

وأما الخاصّة فأنهم قد علموا يقيناً أنَّ الأمر كله لله وأنَّ أشرف النَّاس و أكملهم مخاطب بقوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ^(١) فكيف بأدونهم وأضعفهم إذا لم يكن أمورهم بأيديهم وكان الملك بأسره له تعالى فأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ إِلَى اللَّهِ وَيَسْلَمُونَهُ إِلَيْهِ وَفِي أَيِّ شَيْءٍ يَجْعَلُونَهُ وَكَيْلًا لَهُمْ فَكَانَ التَّوَكُّلُ أضعف السَّبَلِ عندهم انتهى كلامه.

أقول ما ذكره في المقام في معنى التَّوَكُّلِ وأنه من أصعب منازل العامّة و أوهن السَّبَلِ عند الخاصّة أنما يستقيم على مذهبه ومسلكه وأما عندنا فلا يعتمد عليه لأنَّ فيه شائبة الجبر كما لا يخفى على المتدبّر في كلامه وأنما نقلنا كلامه لتعلم أنَّ كلَّ حزبٍ بما لديه فرحون.

وأما الإستدلال بقوله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فليس بشيٍّ لأنَّ المراد نفي الشّيء بيد العبد إستقلالاً مع قطع النَّظَرِ عن مشيئة الله وإرادته.

وأما أنّه ليس عند العبد قدرة بالكلية فلا و لتفصيل الكلام فيه مقام آخر فتأمل فيه فأنّه دقيق فأنَّ التَّوَكُّلَ في العامّة والخاصّة ليس معناه عدم التَّعلُّقِ بالأسباب بل معناه أنَّ الأسباب ليست بعلة تامّة لوجود الفعل في الخارج بل العلة هي وإرادة الله فمن زعم أنَّ الأسباب لا تأثير لها أصلاً فقد أخطأ ومن زعم أنَّ لها التأثير بعنوان جزء العلة فقد أصاب فالعبد يتوكّل على الله بعد تعلّقه بالأسباب لا قبله ولا فرق بين العامّة والخاصّة ومحصل الكلام هو أنَّ العبد يعتمد على الله لا على قدرته وقوّته إذ لا حول ولا قوّة إلا بالله كيف و قد ورد أنَّ أوّل العلم معرفة الجبّار وآخر الأمر، وآخر العلم، تفويض الأمر إليه وفقنا الله لهذا المقام.

ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ ذَكَرَ وَصْفَيْنِ آخَرَيْنِ لِلْمُؤْمِنِ الْحَقِيقِيِّ فَقَالَ: **الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ، الَّذِينَ، صِفَةً، لِلَّذِينَ، السَّابِقَةِ حَتَّى تَدْخُلَ فِي حَيْزِ الْجُزْئِيَّةِ فَيَكُونُ ذَلِكَ إِخْبَاراً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِثَلَاثِ الصِّفَةِ الْقَلْبِيَّةِ السَّابِقَةِ وَعَنْهُمْ بِالصِّفَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالصِّفَةِ الْمَالِيَّةِ وَجَمَعَ أَفْعَالَ الْقُلُوبِ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ وَجَمَعَ فِي أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ لِأَنَّهُمَا عُمُودُ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ.

وَقِيلَ أَنَّ، الَّذِينَ، بَدَلَ مِنْ، الَّذِينَ، وَهُوَ أَيُّ الثَّانِي مِنْهُمَا خَبَرٌ مَحْذُوفٌ وَالتَّقْدِيرُ هُمْ **الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** وَكَيْفَ كَانَ فَالْمَرَاتِبُ الثَّلَاثَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ أَحْوَالٌ مَعْتَبَرَةٌ فِي الْقُلُوبِ ثُمَّ إِنْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى رِعَايَةِ أَحْوَالِ الظَّاهِرِ وَأَرْسِ الطَّاعَاتِ فِي الظَّاهِرِ هُوَ الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ مَعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ، وَقُرْبَانُ كُلِّ تَقَى وَبَعْدَهَا بَذْلُ الْمَالِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ وَيدخل فيه الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَاتُ الْوَاجِبَةُ وَالْمُسْتَحَبَّةُ وَالْإِنْفَاقُ فِي الْجِهَادِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْقَنَاطِرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْدُ إِنْفَاقاً فِي الْخَيْرَاتِ.

وَالْمُرَادُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْإِتْيَانُ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا عَلَى النَّحْوِ الْمَقَرَّرِ فِي الشَّرِيعَةِ الْمُقَدَّسَةِ.

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
أَيُّ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَصَفْنَاهُمْ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الْخَمْسَةِ مِنَ الْخَوْفِ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ وَزِيَادَةِ الْإِيمَانِ عِنْدَ تَلَاوَةِ الْآيَاتِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ، هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، أَيُّ خَالِصاً مُخْلِصاً وَاقِعاً لَا كَمَنْ كَانَ لَهُ إِسْمُهُ عَلَى الظَّاهِرِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى كَلِمَةُ الْمُؤْمِنِ، تَطْلُقُ فِي الْعَرَفِ عَلَى مَنْ كَانَ ظَاهِراً مُتَّصِفاً بِهِ وَلَوْ كَانَ فِي الْوَاقِعِ مُنَافِقاً عَارِياً عَنِ الْإِيمَانِ وَذَلِكَ كَأَكْثَرِ الْمَدْعِينَ لِلإِيمَانِ وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ:

قال الله تعالى: **فَالْتَبِ الْأَعْرَابُ أَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ^(١).

وأما عند أهل الحق فلا تطلق إلا على من كان متصفاً به واقعاً أي اعتقاداً و عملاً وأن شئت قلت قيمة كل شيء بآثاره المترتبة عليه والآثار تارة تكون ذهنيته وتارة خارجية والآثار الذهنية لا أثر لها إذا لم توجد في الخارج ألا ترى أن النار إذا لم تكن موجودة في الخارج لا تحرق فمن زعم أن الإيمان عبارة عن مجرد الاعتقاد أو مجرد الإقرار اللفظي فقد إشتبه عليه الأمر ولم يعلم أن التصورات الذهنية والإقرارات اللفظية لا أثر لها عند من يعلم الأسرار ولأجل هذه الدقيقة قال تعالى: **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** أي واقعاً لا ظاهراً وإحتمل بعض المفسرين أن يكون **حَقًّا** أول الكلام لما بعده أي تم الكلام عند قوله: **هُمُ الْمُؤْمِنُونَ** ثم ابتدأ وقال **حَقًّا** لهم درجات، وهذا الإحتمال ضعيف جداً بل الحق.

إتصاله بما قبله تمييزاً للمؤمن الصوري عن المؤمن الحقيقي والدليل على ما ذكرناه هو أن الدرجات والمغفرة والرزق الكريم، لا تحصل إلا للمؤمن الواقعي لا للمسمى بالإيمان وهو ظاهر.

أن قلت ما وجه إنتصابه في الآية.

قلت ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف يدل عليه الكلام والتقدير وأن الذي فعلوه كان حقاً صدقاً وهذا قول سيبويه وقيل، تقديره أحق ذلك حقاً.

ثانيها: ما ذهب اليه القراء وهو أن التقدير أخبركم بذلك حقاً أي إخباراً حقاً نظيره قوله هم الكافرون حقاً.

ثالثها: قال الزمخشري، حقاً صفة للمصدر المحذوف أي أولئك هم المؤمنون حقاً.

و عن الحسن أنه سأله رجل وقال له أؤمن أنت، فقال الإيمان إيمانان فأنا كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن وأن كنت تسألني عن قوله تعالى: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ** الآية فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا.

وأما قوله تعالى: **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** فالظاهر أن المراد بالدرجات عند الله هي المنازل التي يتفاضل بهما بعضهما على بعض وأما قال: **لَهُمْ دَرَجَاتٌ** ولم يقل لهم درج لأن الإيمان مقول على أفرادهم ومصاديقه بالتشكيك وأن شئت قلت له درجات ومقامات فمن الناس من يكون في الدرجة الأولى ومنهم من يكون في الثانية وهكذا إلى العاشرة ولكل درجة من الإيمان درجة ومقام عند الله.

قال بعضهم لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية ومالية ترتب عليها ثلاثة أشياء فقولت الأعمال القلبية بالدرجات والبدنية بالغفران انتهى كلامه. والحق أن الدرجات والمغفرة والرزق الكريم تتعلق بالجميع لأن المؤمن الحقيقي من كان متصفاً بها جميعاً وهذه المذكورات في الآية ثابتة لمن كان مؤمناً حقاً وهو واضح.

قال مجاهد المراد بالدرجات ما عند الله من المقامات الرفيعة والفضائل التي يستحقوها في أيام حياتهم.

وقال غيره الدرجات هي المراتب الرفيعة وأما الرزق الكريم فقليل هو الجنة وقيل هو ما أعد الله لهم ووعدهم به في الجنة من أنواع النعيم. وأما المغفرة في غفران الذنوب والمعاصي يوم القيامة.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ
 اختلف المفسرون في الكاف في قوله: **كَمَا أَخْرَجَكَ** على أقوال كثيرة:
 منها، أن الكاف بمعنى واو القسم، وما، بمعنى الذي واقعة على ذي العلم و

هو الله كما وقعت في قوله: **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ** وجواب القسم يجادلونك، والتقدير والله الذي أخرجك من بيتك يجادلونك في الحق وهذا الوجه منقول عن أبي عبيدة، وضعفه في التحويل قال الكرمانى هذا سهو منه.

وقال ابن الأنباري الكاف ليست من حروف القسم وفيه أيضاً أن جواب القسم بالمضارع المثبت جاء بغير لام ولانون توكيد ولا بد منها في مثل هذا وأما خلوها عنهما فهو مخالف للإجماع.

ومنها، أن الكاف بمعنى، إذ، وما زائدة تقديره إذ كر إذ أخرجك وهذا أيضاً ضعيف لأنه لم تثبت أن الكاف تكون بمعنى، إذ في لسان العرب.

ومنها، أن الكاف بمعنى على، وما، بمعنى الذي وتقديره إمض على الذي أخرجك ربك من بيتك وهذا أيضاً ضعيف إذ لم يثبت أن الكاف تكون بمعنى، على، ولأنه يحتاج الموصول الى عائد وهو لا يجوز أن يحذف في مثل هذا التركيب.

ومنها، ما ذهب اليه عكرمة قال، التقدير **وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** إن كنتم مؤمنين كما أخرجك في الطاعة خير لكم كما كان إخراجك خيراً لهم. ومنها ما ذهب اليه الكسائي وغيره أي كما أخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة.

قال ابن عطية والتقدير على هذا التأويل يجادلونك في الحق مجادلة لكرهاتهم إخراج ربك إياك من بيتك فالمجادلة على هذا التأويل بمثابة الكراهة.

ومنها، ما عن الفراء أنه قال والتقدير إمض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت أن كرهوا كما أخرجك ربك إنتهى.

ومنها، عن الأخفش وهو أن الكاف نعت لحقاً والتقدير هم المؤمنون حقاً كما أخرجك إنتهى.

ومنها، أَنَّ الكاف في موضع رفع و التّقدير كما أخرجك ربّك فأثّقوا الله و الأقوال كثيرة وقد ذكر بعض المفسّرين في المقام خمسة عشر قولاً ولا نحتاج الى ذكر جميعها فأدّ التعليل يدلّ على الكثير و من أراد الإطلاع عليها فعليه بمراجعة تفسير بحر المحيط و أمثاله من تفاسير العامة.

و قال صاحب الكشاف في الكاف وجهان:

أحدهما: أن يرتفع محلّ الكاف على أنّه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا الحال كحال إخراجك يعني أنّ حالهم في كراهية ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في موضع كراهة خروجك للحرب.

الثاني: أن ينتصب على أنّه صفة مصدر الفعل المقدّر في قوله الأنفال لله و الرّسول، أي الأنفال إستقرّت لله و الرّسول و تثبت مع كراحتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربّك إياك من بيتك و هم كارهون و من، بيتك، يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها لأنّها مهاجرة و مسكنه فهي في إختصاصها به إختصاص البيت بساكنه، بالحق، أي إخراجاً متلبساً بالحكمة و الصّواب الذي لا محيد عنه و **إِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** في موضع الحال أي أخرجك في حال كراحتهم و ذلك أنّ غير قريش أقبلت من الشّام فيها تجارة عظيمة و معها أربعون راكباً منهم أبو سفيان و عمر و بن العاص و عمر و بن هشام فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير و قلّة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكّة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكّة النّجاء النّجاء على كلّ صعب و ذلول غيركم أموالكم أن أصابها محمّد لن تفلحوا بعدها أبداً و قد رأت أخت العبّاس بن عبد المطّلب رؤيا فقالت لأخيها إني رأيت عجباً رأيت كأنّ ملكاً نزل من السّماء فأخذ صخرة من الجبل ثمّ حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكّة إلّا أصابه حجرٌ من تلك الصّخرة فحدّث بها العبّاس فقال أبو جهل ما يرضى رجالهم أن يتنبّؤا حتّى تتنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكّة و هم النّفير في المثل السائر لا في العير ولا

فِي النَّفِيرِ، فَقِيلَ لَهُ أَنَّ الْعِيرَ أَخَذَتْ طَرِيقَ السَّاحِلِ وَنَجَتْ فَأَرْجِعْ بِالنَّاسِ إِلَى مَكَّةَ لَا فَقَالَ لَا وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا حَتَّى تَنْجَحِرَ الْجُزُورُ وَنَشْرَبَ الْخُمُورُ وَنَقِيمَ الْقَيْنَاتِ وَالْمَعَارِزَ بِبَدْرِ فَيَتَسَامَعَ جَمِيعُ الْعَرَبِ بِمَخْرَجِنَا وَأَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَصِبِ الْعِيرَ وَإِنَّا قَدْ أَعْضَضْنَاهُ فَمَضَى بِهِمْ إِلَى بَدْرِ وَبَدْرٍ مَاءٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تَجْتَمِعُ فِيهِ لِسُقُوقِهِمْ يَوْمًا فِي السَّنَةِ فَنَزَلَ جِبْرِئِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَمَّا الْعِيرُ وَأَمَّا قَرِيشًا فَأَسْتَشَارَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ وَقَالَ مَا تَقُولُونَ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ فَالْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ النَّفِيرُ قَالُوا بَلِ الْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ وَتَغْيِيرِ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ رَدُّوا عَلَيْهِمْ فَقَالَ أَنَّ الْعِيرَ قَدْ مَضَتْ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَقْبَلَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْكَ بِالْعِيرِ وَدَعِ الْعَدُوَّ فَقَامَ عِنْدَ غَضَبِ النَّبِيِّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَأَحْسَنَّا ثُمَّ قَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ أَنْظِرْ أَمْرَكَ فَأَمَضَ فَوَاللَّهِ لَوْ سَرَتْ إِلَى عَدْنٍ أَبِينِ مَا تَخَلَّفَ عَنْكَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ.

ثُمَّ قَالَ الْمَقْدَادُ بْنُ عُمَرَ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِمَضْ لَمَّا أَمَرَكَ اللَّهُ فَإِنَّا مَعَكَ حَيْثُمَا أَجَبْتَ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذْ هَبْتَ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَاتَلْنَا أَنَا هَاهُنَا قَاعِدُونَ وَلَكِنْ أَذْهَبْتَ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَاتَلْنَا أَنَا مَعَكُمْ مَقَاتِلُونَ مَا دَامَتْ عَيْنٌ مَنَّا تَطْرَفَ فَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ وَهُوَ يَرِيدُ الْأَنْصَارَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ حِينَ بَايَعُوهُ عَلَى الْعَقْبَةِ أَنَا بَرَاءٌ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصَلَ إِلَى دِيَارِنَا فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَامِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبَاءَنَا وَنِسَاءَنَا فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّفُ أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ لَا تَرَى عَلَيْهِمْ نَصْرَتَهُ إِلَّا عَلَى عَدُوِّ دَهْمِهِ بِالْمَدِينَةِ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ فَقَالَ لَكَأَنَّكَ تَرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَجَلٌ قَالَ قَدْ أَمَّنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ وَأَشْهَدُنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدُونَا وَمَوَاقِفُنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَأَمَضَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا أَرَدَتْ فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخَضْتَهُ لَخَضْنَا مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مَنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُونَا أَنَا نَصْبِرُ عِنْدَ

الحرب صدق عند اللقاء ولعلَّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله ﷺ وبسطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله و أبشروا فإنَّ الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم.

وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر عليك بالغير ليس دونها شيء فناده العباس وهو في وثاقه لا يصلح فقال له النبي ﷺ لم، قال لأنَّ الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك وكانت الكراهة من بعضهم لقوله وأنَّ فريقاً من المؤمنين لكارهون والحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقى النفيّر لإيثارهم عليه تلقى العير (بعد ما تبين) بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنَّهم ينصرون وجدّاهم قولهم ما كان خروجنا إلا للغير و هلاً قلت لنا لنستعد ولتأهب لكرهتهم القتال ثمَّ شبّه حالهم في فرط فزعهم و ربهم وهم يسار بهم الى الظفر والغنيمة بحال من يعتل الى القتل ويساق على الصغار الى الموت المتقين شاهد لأسبابه ناظر اليها لا يشك فيها.

وقيل كان خوفهم لقلة العدد وأنَّهم كانوا رجالة وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان انتهى ما ذكره صاحب الكشاف، وإختاره الفخر الرازي أيضاً فإنه قال أنَّ النبي ﷺ لما رأى كثرة المشركين يوم بدر وقلة المسلمين قال من قتل قتيلاً فله سلبه و من أسر أسيراً فله كذا وكذا ليرغبهم في القتال فلما إنهمز المشركون قال سعد بن عبادة يا رسول الله أنَّ جماعة من أصحابك و قومك فدوك بأنفسهم ولم يتأخروا عن القتال جبناً ولا بخلاً ببذل مهجهم ولكنهم أشفقوا عليك من أن تغتال فمتى أعطيت هؤلاء ما سميت لهم بقي خلق من المسلمين بغير شيء فأنزل الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ يصنع فيها ما يشاء فأمسك المسلمون عن الطلب وفي أنفسهم بعضهم شيء من الكراهية انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ولقائل أن يقول كيف وعدهم رسول الله بما وعد ثمَّ تخلف عنه بنزول

الآية وكيف نزلت الآية على خلاف قول الرسول و قد قال الله تعالى: وَمَا يَنْطَلِقُ غَيْرَ الْهَوَىٰ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ^(١) ولا نعلم أن ما ذكره الرازي من أين نقله ولم يذكره صاحب الكشف ولا غيره ممن يعتنى بنقله ولا يبعد أن يكون ما ذكره من إستظهاراته وتشكيكاته والله أعلم.

ثم قال الرازي فلما قال تعالى قل الأنفال لله و الرسول كان التقدير أنهم رضوا بهذا الحكم في الأنفال وأن كانوا كارهين له كما أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال وأن كانوا كارهين له وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة هنا إنتهى.

أقول والذي يظهر لنا من كلماتهم هو أن المسلمين كرهوا حكم الأنفال كما أنهم كرهوا حكم القتال ورضوا به كما رضوا به وأن المراد من البيت في قوله تعالى: مِنْ بَيْتِكَ المدينة.

وقد قيل في الشاذ هو مكة المكرمة وأما نسب الله الإخراج الى نفسه و قال: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الامر بالقتال في الحقيقة كما قال: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ^(٢).

نعم قد يقال في وجه كراهيتهم للقتال عدم إستعدادهم له لقتلتهم وكثرة المشركين وقيل لأنهم كانوا يودون العير دون الحرب.

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ

قيل معناه يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به أي بعد ما تبين لهم أنك يا محمد لا تصنع إلا ما أمرك الله به ومن الواضح أن المجادلة مع الرسول بعد ظهور الحق قبيح عقلاً و شرعاً ثم علل ذلك بقوله: كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ أي كأن هؤلاء الذين يجادلونك يساقون الى الموت، و

السُّوقِ الْحَثِّ عَلَى الْيَسْرِ عَجَلَةً، أَي كَأَنَّهُمْ فِي لِقَاءِ الْعَدُوِّ فِي كِرَاهَتِهِمْ لِلْقِتَالِ إِذَا دَعَا إِلَيْهِ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ يَسَاقِ الْمَوْتِ وَهُمْ يَرُونَهُ أَوْ يَتَوَقَّعُونَهُ وَمَحْضَلُ الْكَلَامِ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي الْمَجَادَلَةِ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ لَيْسَتْ بِالْكَرَاهِيَةِ الْمَوْتِ.

وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ.

إِمَّا الْعِيرَ وَأَمَّا قَرِيشًا، وَكَلِمَةٌ، إِذْ، مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ إِذْكَرُوا وَالْمَعْنَى إِذْكَرُوا يَعِدُّكُمْ اللَّهُ أَنَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لَكُمْ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّعْيِينِ وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَوَدُّونَ أَي تَحِبُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَهِيَ الْعِيرُ لَا النَّفِيرَ وَالشُّوْكَةُ كَانَتْ فِي النَّفِيرِ لِعَدَدِهِمْ وَعَدَّتِهِمْ وَفِيهَا مَطْنَةُ الْقَتْلِ وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَحِقَّ الْحَقَّ وَيُثَبِّتَهُ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِیُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ أَي أَنْمَا أَرَادَ اللَّهُ قَطْعَ دَابِرِ الظَّالِمَةِ لِأَنَّ فِيهِ إِثْبَاتَ الْحَقِّ وَإِبْطَالَ الْبَاطِلِ وَهَذَا هُوَ الْمَقْصِدُ الْأَعْلَى وَالْغَايَةُ الْقَصْوَى لِبَعْثِ الرِّسَالِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ لَا تَحْصِيلِ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ وَحَاصِلُ الْكَلَامِ فِي الْآيَتَيْنِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا الْعِيرَ وَأَمَّا قَرِيشًا، وَلَمْ يَعْيِّنْ لَهُمْ مَا أَرَادَ صَرِيحًا إِخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ فِي الْعِيرِ نَفْعَ الدُّنْيَا وَفِي النَّفِيرِ نَفْعَ الْآخِرَةِ فَمَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا أَرَادَ الْعِيرَ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ أَرَادَ النَّفِيرَ وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ النَّفِيرَ وَالْقِتَالَ مَعَ الْأَعْدَاءِ إِذْ فِيهِ تَرْوِيجُ الدِّينِ وَإِعْلَاءُ كَلِمَةِ الْحَقِّ وَإِقَامَةُ الْبَاطِلِ بِخِلَافِ الْعِيرِ إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا جَمْعُ الْمَالِ وَلَكِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَالَّذِينَ لَبُّوا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

وَلَأَجَلَ ذَلِكَ كَرِهُوا الْقِتَالَ وَرَغِبُوا الْعِيرَ وَأَنْمَا قُلْنَا أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ النَّفِيرَ لِقَوْلِهِ: وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَهُوَ الْعِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَرَادَ النَّفِيرَ إِذْ فِيهِ إِحْقَاقُ الْحَقِّ وَإِبْطَالُ الْبَاطِلِ، وَأَنْمَا قَالَ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ثُمَّ قَالَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ الْخ.

فِي الْقُرْآنِ
فِي تَفْسِيرِ
الْجُزْأَيْنِ

جزء ٩

الجزء
السلامة

لأنَّ الكافر مانعٌ من إظهار الحقِّ فلا بدَّ لمن أراد إظهار الحقِّ وإبطال الباطل من رفع المانع أولاً ولا سبيل إليه إلا بقطع دابرهم وإستئصالهم وإفناءهم من صفحة الوجود إذ لا دواء لداء العناد إلا القتل ولو كره المجرمون.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ

أي وأذكروا إذ تستغيثون ربكم، الإستغاثة طلب المعونة وهو صدّ الخلّة في وقت شدّة الحاجة وقيل في معناه أي تستجيرون به من عدوكم والاستجارة موافقة المسألة بالعطية وقال بعضهم الإستغاثة طلب الغوث لما علموا أنّه لا بدّ من القتال شرعوا في طلب الغوث من الله تعالى والظاهر أنّه خطاب لمن خوطب بقوله: وَإِذْ يَعِدُّكُمْ وحيث أنّ هذه الآيات نزلت في غزوة بدر الكبرى فلا بدّ لنا أولاً من بيان القصّة ثمّ تفسير الآيات.

فنقول قال ابن الأثير في تاريخه، وفي السّنة الثّانية (يعني من الهجرة) كانت وقعة بدر الكبرى في شهر رمضان في سابع عشرة وقيل تاسع عشرة وكانت يوم الجمعة وكان سببها قتل عمر و بن الحضرمي وإقبال أبي سفيان بن حجر في غير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون وقيل قريباً من سبعين رجلاً من قريش منهم مخزومة بن نوفل الزّهري وعمر و بن العاص فلمّا سمع بهم رسول الله ﷺ نذب المسلمين إليهم وقال هذه غير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفلكموها فأنذّب الناس فحَفَّ بعضهم وثقل بعضهم وذلك لأنّهم لن يظنّوا أنّ رسول الله ﷺ يلقي حرباً وكان أبو سفيان قد سمع أنّ النّبي ﷺ يريد فحذر واستأجر ضمغم بن عمر والغفاري فبعثه إلى مكّة يستنفر قريشاً ويخبرهم الخبر فخرج ضمغم إلى مكّة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضمغم مكّة بثلاث ليالٍ رؤيا أفزعها فقصّتها على أخيه العباس، و

إستكتمته خبرها قالت رأيت راكباً على بعيره له واقفاً بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته أن إنفروا يآل غدر لمصارعكم في ثلاث قالت فرأى الناس قد إجتمعوا اليه ثم دخل المسجد فمثل بعيره على الكعبة ثم صرخ مثلها ثم مثل بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة عظيمة وأرسلها فلما كانت بأسفل الوادي أرفضت فما بقى بيت من مكّة إلا دخله فلقة منها فخرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان صديقه فذكر حاله وإستكتمه ذلك فذكرها الوليد لأبيه عتبة فغشى الخبر فلقى أبو جهل العباس فقال له يا أبا الفضل إقبل الينا قال فلما فرغت من طوافي أقبلت اليه فقال لي متى حدّثتكم هذه النبّية ذكر رؤيا عاتكة.

ثم قال له ما رضيتم أن تتنبأ رجالكم نساءكم فستربص بكم هذه الثلاث فإن يكن حقاً وإلا كتبنا عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب قال العباس فما منّي إلا أتني جحدت ذلك وأنكرته فلما أمسيت أتاني نساء بني عبد المطلب وقلن لي أقررت لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم وقد تناول نساءكم فلم تنكر عليه ذلك قال قلت والله كان ذلك ولا تعرضن له فإن عاد كفيتموه قال فغدوت اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا مغضب أحب أن أدركه فرأيت في المسجد فمشيت نحوه أنعرض له ليعود فأوقع به فخرج نحو باب المسجد يشتد. قال قلت ما باله قاتله الله أكل هذا فرقاً من أن أشاتمّه وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدّعه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّد وأصحابه لا أدري أن تدركوها الغوث الغوث فشغلني عنه وشغله عني.

قال فتجهّز الناس سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم أحد إلا أبولهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وعزم أميّة بن خلف الجهمي على القعود فأنّه كان شيخاً ثقيلاً بطيئاً فأثاه عقبه بن أبي معيط بجمرة فيها نار وقال يا أبا

علي إستجمر فأنما أنت من النساء فقال قبحك الله وقبح ما حبت به وتجهز و
خرج معهم وعزم عتبة بن ربيعة أيضاً على القعود فقال له أخوه شيبة أن فارقنا
كان ذلك سبة علينا فأمض مع قومك فمشى معهم فلما أجمعوا على المسير
ذكروا ما بينهم وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة بن الحارث فخافوا أن يؤتوا من
خلفهم فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن جعشم المدلجي وكان من أشرف
كنانة وقال أنا جار لكم فأخرجوا سراعاً وكانوا تسع مائة وخمسين رجلاً.
وقيل كانوا ألف رجل وكان خيلهم مائة فرس فنجا منهم سبعون فرساً و
غنم المسلمون ثلاثين فرساً وكان مع المشركين سبع مائة بعير وكان مسير
رسول الله ﷺ ثلاث ليالٍ خلون من شهر رمضان في ثلاث مائة وثلاثة
عشر رجلاً أربعة عشر وقيل بضعة عشر وقيل ثمانية عشر وقيل كانوا سبعة و
سبعين من المهاجرين وقيل ثلاثة وثمانون والباقون من الأنصار.
فقيل جميع من ضرب له رسول الله ﷺ بسهم من المهاجرين ثلاثة و
ثمانون رجلاً من الأوس أحد وسبعون رجلاً ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً
ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو الكندي ولا خلاف فيه
و الثاني قيل كان الزبير بن العوام وقيل كان مرثد بن أبي مرثد وقيل المقداد
وحده وكانت الإبل سبعين بعيراً فكانوا يتعاقبون عليها البعير بين الرجلين و
الثلاثة والأربعة فكان بين النبي ﷺ وعلي عليه السلام وزيد بن حارثة بعير، وبين
أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف بعير وعلي مثل هذا وكان فرس
المقداد اسمه سبحة وفرس الزبير اسمه السبل وكان لواءه مع مصعب بن
عمير بن عبد الدار ورايته مع علي بن أبي طالب وعلي الساقية قيس بن أبي
صعصة الأنصاري فلما كان قريباً من الصفراء بعث لبيس بن عمرو وعدي بن
أبي الزغباء يتجسسان الأخبار عن أبي سفيان ثم إرتحل رسول الله ﷺ و
ترك الصفراء يساراً وعاد اليه لبيس بن عمرو ويخبره أن العير قد قاربت بدرأ ولم
يكن عند رسول الله ﷺ والمسلمين علم بمسير قريش لمنع غيرهم.

وكان قد بعث علياً والزبير وسعداً يلتمسون له الخبر ببدر فأصابوا راوية لقريش فيهم أسلم غلام بني الحجاج وأبو يسار غلام بني العاص فأتوا بهما النبي ﷺ وهو قائم يصلي فسالوهما فقال نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء نكره القوم خبرهما وضربوهما ليخبروهما عن أبي سفيان.

فقالا نحن لأبي سفيان فتركوهما وفرغ رسول الله من الصلاة وقال اذا صدقاكم ضربتموهما واذا كذباكم تركتموهما صدقا أنهما لقريش أخبراني أين قريش قالاهم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال رسول الله ﷺ كم القوم قالوا كثير قال كم عدتكم قالوا لا ندري قال ﷺ كم ينحرون قالوا يوماً تسعاً ويوماً عشرة قال القوم بين تسع مائة الى الألف ثم قال لهما فمن فيهما من أشرف قريش قالوا عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد وأبو البحتري بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث وزمعة بن الأسود وأبو جهل وأمية بن خلف وبنيه ومنبه ابن الحجاج وسهيل بن عمرو بن عبد ود فقبل رسول الله ﷺ على أصحابه وقال هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها ثم إستشار أصحابه فقال أبو بكر فأحسن ثم قال المقداد بن عمرو.

فقال يا رسول الله أمض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا أنا هاهنا قاعدون ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبُلغه فدعاه بخير ثم قال رسول الله ﷺ أشيروا علي أيها الناس وأما يريد الأنصار لأنهم كانوا عدته للناس وخاف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة وليس عليهم أن يسير بهم فقال له سعد بن معاذ لكأنك تريدنا يا رسول الله.

قال ﷺ أجل قال قد أمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهدنا فأمض يا رسول الله لما أمرت فوالذي بعثك بالحق إن إستعرضت بنا هذا البحر فخضته

فَنَحْوُضَ مَعَكُمْ وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَكُونَ تَلْقَى الْعَدُوَّ بِنَا غَدَاً أَنَا لَصَبْرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ
صَدَقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ لَعَلَّ اللَّهَ يَرِيكَ مَنَا مَا تَقَرَّبَهُ عَيْنُكَ فَسَرَبْنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ فَسَارَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَاللَّهُ
لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ ثُمَّ انْحَطَّ عَلَى بَدْرِ فَزَلَ قَرِيباً مِنْهَا وَكَانَ أَبُو سَفِيَانَ
قَدْ سَاحَلَ وَتَرَكَ بَدْرًا يَسَارًا ثُمَّ أَسْرَعَ فَنَجَا فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عَيْرَهُ أَرْسَلَ
إِلَى قُرَيْشٍ وَهُمْ بِالْجَحْضَةِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَى عَيْرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَأَرْجِعُوا فَقَالَ أَبُو
جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرُدَّ بَدْرًا وَكَانَ بَدْرٌ مُوسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ
الْعَرَبِ تَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهَا سُوقٌ كُلِّ عَامٍ فَيَنْقَسِمُ بِهَا ثَلَاثًا فَنَنْحِرُ الْجَزُورَ وَنَطْعَمُ
الطَّعَامَ وَنَسْقِي الْخَمْرَ وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبُ فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا.

فَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ التَّقْفِي وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي زَهْرَةَ وَهُمْ بِالْجَحْضَةِ
يَابَنِي زَهْرَةَ قَدْ نَجَى اللَّهُ أَمْوَالَكُمْ وَصَاحِبَكُمْ فَأَرْجِعُوا فَرَجِعُوا فَلَمْ يَشْهَدْهَا
زَهْرَى عَدُوِّي وَشَهِدَهَا سَائِرُ بَطُونِ قُرَيْشٍ وَلَمَّا كَانَتْ قُرَيْشُ بِالْجَحْضَةِ رَأَى
جَهِيمُ بْنُ الصَّلْتِ بْنِ مَحْزَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ رُؤْيَا فَقَالَ أَنِّي رَأَيْتُ
فِيمَا يَرَى النَّاسُ رَجُلًا أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ وَمَعَهُ بَعِيرٌ لَهُ فَقَالَ قُلْ عَتَبَةُ وَشَيْبَةُ وَ
أَبُو جَهْلٍ وَغَيْرُهُمْ مَمَّنْ قَتَلَ يَوْمَئِذٍ وَرَأَيْتُهُ ضَرْبَ لَبَةٍ بِعَيْرِهِ ثُمَّ أَرْسَلَهُ فِي
الْعُسْكَرِ فَمَا بَقِيَ خَبَاءٌ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْ دَمِهِ.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَهَذَا أَيْضًا نَبِيٌّ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ سَيَعْلَمُ غَدَاً مَنْ
الْمَقْتُولُ وَكَانَ بَيْنَ طَالِبِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ فِي الْقَوْمِ وَبَيْنَ بَعْضِ قُرَيْشٍ
مُحَاوَرَةٌ فَقَالُوا وَاللَّهِ قَدْ عَرَفْنَا أَنَّ هَوَاكُم مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَرَجَعَ طَالِبٌ إِلَى
مَكَّةَ فَيَمْنُ رَجَعَ أَنَّمَا كَانَ خَرَجَ كَرهًا فَلَمْ يَوْجَدْ فِي الْقَتْلِ وَلَا فِي الْأَسْرِ وَلَا
فَيَمْنُ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ:

يَا رَبِّ أَمَّا يَعْزُونَ طَالِبٌ فِي مَقْنَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَانِبِ
فَلْيَكُنِ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السَّالِبِ وَلْيَكُنِ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منه ما لبدلهم الأرض ولم يمنعهم المسير وأصاب قريشاً منه ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم الى الماء حتى اذا جاء أدنى ماء من برزله فقال الحباب بن المنذر بن الجموح يا رسول الله ﷺ أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره أم هو الرأى والحرب والمكيدة.

قال رسول الله ﷺ هو الرأى والحرب والمكيدة قال يا رسول الله ﷺ فإن هذا ليس لك بمنزل فأنهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء سواه من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني له حوضاً ونملأ ماءً فنشرب ماءً ولا يشربون ثم نقاتلهم ففعل رسول الله ﷺ ذلك فلما نزل جاء سعد بن معاذ فقال يا رسول الله ﷺ نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثم نلقي عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا الله عليهم كان ذلك ممّا أجبناه وأن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحققت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدّ حباً لك منهم ولو ظنوا أنك تلقي حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك فأثنى عليه خيراً ثم بني لرسول الله ﷺ قريش وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها فلما رآها.

قال اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال رسول الله ﷺ أن يكن عند أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر أن يطيعوه يرشدوا وكان خفاف بن إيماء بن رخصة الغفاري أو أبوه إيماء بعث الى قريش حين مرّوا به إبناً له بجزائر أهداها لهم وعرض عليهم المدد بالرجال والسلاح فقالت قريش أن كنّا أمّا نقاتل الناس فما بنا من ضعف وأن كنّا نقاتل الله كما زعم محمد ﷺ فما لأحد بالله طاقة فلما نزلت قريش أقبلت جماعة منهم حكيم بن حزام حتى وردوا حوض النبي ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ أتركوهم فما شرب منه رجل إلا قتل يومئذٍ إلا حكيماً نجا على فارس له يقال له الوجيه وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه وكان يقول إذا اجتهد في يمينه لا والذي نجانِي يوم بدر ولما إطمأنت قريش بعثوا عمرو بن وهب الجهمي ليحرز المسلمين فجال بفرسه حولهم ثم عاد فقال هم ثلاث مائة يزيدون قليلاً أو ينقصونه ولقد رأيت الولايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ليس لهم منعة إلا سيوفهم والله لا يقتل رجل منهم إلا يقتل رجلاً منكم فاذا أصابوا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فأروا رأيكم فلمّا سمع حكيماً بن حزام ذلك مشي في القوم فأتى عتبة بن ربيعة.

فقال يا أبا الوليد أنك كبير قريش وسيدها هل لك ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر قال وما ذاك قال ترجع بالنّاس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت على دمه وما أصيب من ماله فأنت ابن الحنظليّة يعني أبا جهل فلا أخشى أن يفسد أمر النّاس غيره فقام عتبة في النّاس فقال أنكم ما تصنعون بأن تلقوا محمّداً وأصحابه شيئاً والله لئن أصبتموهم لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النّظر إليه قتل ابن عمّه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته.

قال حكيماً بن حزام فإنطلقت إلى أبي جهل فوجدته قد نثل درعاً وهو تهيناً فأعلمته ما قال عتبة فقال إنتفخ والله سحره حين رأى محمّداً وأصحابه لا نرجع حتّى يحكم الله بيننا وبين محمّداً وما بالعتبة ما قال ولكن رأى ابنه أب حذيفة فيهم وقد خافكم عليه ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال له هذا حليفك يريد أن يرجع إلى مكّة بالنّاس وقد رأيت تارك بعينك فأنشد خفرتك ومقتل أخيك فقام عامر وصرخ وا عمراه وا عمراه فحميت العرب وإستوثق النّاس على الشّرّ فلمّا بلغ عتبة قول أبي جهل إنتفخ سحره.

قال سيعلم المصفراسه من إنتفخ سحره أنا أم هو، ثم إلتمس بيضة يدخلها رأسه فما وجد من عظم هامته فإعتجر ببردٍ له وخرج الأسود بن عبد الأسد

المخزومي وكان سَيِّ الخلق أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولأهدمته أو لأموتنّ دونه فخرج اليه حمزة فضربه فاطن قدمه بنصف ساقه فوقع على الأرض ثم حبا الى الحوض فإقتحم فيه ليبرّ يمينه وتبعه حمزة فضربه حتّى قتله في الحوض ثمّ خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا الى المبارزة فخرج اليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة كلّهم من الأنصار فقالوا من أنتم قالوا من الأنصار فقالوا أكفاء كرام وما لنا بكم من حاجة ليخرج الينا أكفاءنا من قومنا فقال النبي قم يا حمزة قم يا عبيدة بن الحرث قم يا عليّ عليه السلام فقاموا ودنا بعضهم من بعض فبارز عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز عليّ الوليد فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما عليّ فلم يمهل الوليد أن قتله وإختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه وكرّ عليّ وحمزة على عتبة فقتلاه وإحتملا عبيدة الى أصحابه وقد قطعت رجله فلما أتوا به النبي صلى الله عليه وآله قال ألسن شهيداً يا رسول الله صلى الله عليه وآله قال نعم قال لو رأيني أبو طالب لعلم أنّا أحقّ منه بقوله:

ونسلمه حتّى نصرع حوله ونذهل عن أبناءنا والحلائل
ثمّ مات وتزاحف القوم ودنا بعضهم من بعض وأبو جهل يقول اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لم نعرف فأحنه الغداة فكان هو المستفتح على نفسه رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمر أصحابه أن لا يحملوا حتّى يأمرهم وقال إن إكتفكم القوم فأنضخوهم عنم بالنبل ونزل في العريش وهو يدعوا ويقول الله أن تهلك هذه العصاة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض اللهم أنجز لي ما وعدتني ولم يزل يدعو حتّى سقط رداؤه وأغفى رسول الله في العريش إغفاءً وإنتبه ثمّ قال هذا جبرئيل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياه النقع وأنزل الله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ.

ثم أن صاحب التاريخ ساق الكلام الى أن قال فلما هزم الله المشركين و قتل منهم من قتل و أسر من أسر أمر رسول الله أن تطرح القتلى في القليب فطرحوا فيه ولما ألقوا في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ وقال يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتوني و صدفتني الناس ثم قال يا عتبة يا شيبة يا أمية بن خلف يا أبا جهل بن هشام وعدد من كان في القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فأنني وجدت ما وعدني ربي حقاً فقال له أصحابه أتكلّم قوماً موتى فقال ما أنتم بأسمع لما أقول عنهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني انتهى ما أردنا نقله بمناسبة الآية.

و من أراد الإطلاع على أكثر مما نقلناه في قصّة بدر فعليه بمراجعة التواريخ و أمّا عدد المقتولين من المشركين في غزوة بدر فقليل أنهم قتلوا منهم يومئذ سبعين و أسروا سبعين على تفصيل ذكره في محلّه، فمعنى الآية و أذكروا إذ تستغيثون و تطلبون المعونة من ربكم لقلة عددكم و كثرة عدد المشركين فأستجاب لكم و الإستجابة موافقة المسئلة بالعطية فأمدكم الله بألف من الملائكة مردفين، أي جاء من بعد إستغاثتكم ربكم و المعنى واضح.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

الهاء في قوله: جَعَلَهُ اللَّهُ قيل أنها عائدة الى الإمداد و قيل الى الإرداف و من المحتمل أن تكون عائدة على الخبر بالمدء.

فَعَلَى الْأَوَّل: معنى الكلام و ما جعل الله الإمداد إلا بشرى.

عَلَى الثَّانِي: ما جعل الله الإرداف إلا بشرى.

عَلَى الثَّالِث: و ما جعل الله الخبر بالمدد إلا بشرى و لكل وجه و وجه و

خير الأمور أوسطها و أمّا التعبير بالبشرى.

فقال الرّاعب في المفردات يقال للخبر السار البشارة و البشرى إنتهى.

أقول ما ذكره حقّ قال تعالى في سورة يوسف:

قال الله تعالى: يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ^(١).

قال الله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا^(٢).

قال الله تعالى: لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ^(٣).

قال الله تعالى: هُدًى وَ بُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ يَقُومُونَ الصَّلَاةَ^(٤).

و غيرها من الآيات و عليه فيسمى ما يعطى المبرّ بـ بشرى و بشارة.

و أمّا قوله: وَ لِيَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ فالإطمئنان الثقة ببلوغ المحبوب و هو خلاف الإنزعاج و الطمأنينة السكون و الدّعة، و في هذا الكلام إشارة الى أنّ المسلمين كانوا مضطرين خائفين لقلّة عددهم و كثرة عدد المشركين فلمّا جاءت البشارة بالفتح من عند الله صاروا مطمئنين.

و قوله: وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فكلمة، ما، للنفي أي ليس النصر إلاّ نصره تعالى فلا نصر إلاّ نصره و قد ثبت أنّ تقديم النفي يفيد الحصر أي أنّ النصر الواقعي منحصرٌ بنصره بمعنى أنّ النصر من غيره تعالى ليس بنصرٍ في الواقع أو أنّ نصره تعالى كاشف عن رضاه و أنّ المنصور عنده من المقربين كيف كان فهو أمرٌ محبوب.

قال الله تعالى: وَ نَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ^(٥).

قال الله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٦).

قال الله تعالى: إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَايِبَ لَكُمْ^(٧).

قال الله تعالى: وَ إِنِّي يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ^(٨).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

١- يوسف = ١٩

٢- هود = ٦٩

٣- الأحقاف = ١٢

٤- النمل = ٢ و ٣

٥- الصافات = ١١٦

٦- غافر = ٥١

٧- آل عمران = ١٦٠

٨- آل عمران = ١٦٠

والآيات كثيرة وفي قوله من عند الله، إشارة الى دقيقة وهي أَنَّ النَّاصِرَ لَهُمْ
 كَانَ فِي الظَّاهِرِ هُوَ جَبْرِئِيلُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَأَمَّا فِي الْوَاقِعِ فَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى
 لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا تَحْتَ أَمْرِهِ وَفِي كَلِمَتِهِ (عِنْدَ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ
 لِأَنَّ مَقَامَ الْعِنْدِيَّةِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِلْمُقَرَّبِ الْمُؤَيَّدِ ثُمَّ قَالَ: أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
 أَي أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ لَا يَغَالِبُ حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ لِيُثِقُوا بِوَعْدِهِ، وَقِيلَ سَأَلَ أَبُو جَهْلٍ
 مِنْ أَيْنَ كَانَ يَأْتِيْنَا الضَّرْبُ وَلَا نَرَى الشَّخْصَ قَالُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ هُمْ
 غَلَبُونَا لَا أَنْتُمْ.



إِذْ يُعَذِّبُكُمُ الثَّغَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
 الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
 الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْبِ
 مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ
 اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
 لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ بَارَكُوا كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
 الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا
 مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
 مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِيَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ
 تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً
 حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
 مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ
 جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ
 تَعُدُّوا نَعْدَ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ
 كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

◀ اللغة

يُعْشِيكُمْ التَّغْشِيَةَ، التَّغْطِيَةَ.

الْتُعَاسُ بضمّ التّون النّوم القليل وقيل التّعاس هاهنا عبارة عن السّكون.
أَمَنَةً بفتح الألف والميم والتّون الإطمئنان وسكون القلب يقال أَمِنَ أَمْنًا
وأماناً وأمنةً، إطمأن.

رِجَزُ الشَّيْطَانِ، الرِّجَزُ بكسر الرّاء الإثم والذّنْب وبضمّها القدر، العذاب،
عبادة الأوثان.

الرُّعْبُ بضمّ الرّاء الخوف وقال الرّاغب الرُّعب الإنقطاع من إمتلاء
الخوف.

بِتَانٍ بفتح الباء الأصابع قيل سمّيت بذلك لأنّ بها صلاح الاحوال التي
يمكن للإنسان أن يبتن بها يريد أن يقيم به يقال، أبتن بالمكان يبتن خصّه بالذّكر
لأجل أنّهم بها دافع وتقاتل.

شَاقُوا اللَّهَ، الشَّقُّ بفتح الشّين وسكون القاف الحزم الواقع في الشّيء يقال
شَقَّقْتَهُ بنصفين والشّقاق المخالفة وكونك في شقٍّ غير شقٍّ صاحبك أو من
شقَّ العصا بينك وبينه.

رَحَفًا أصل الرّحف إنبعاث مع جرّ الرّجل كإنبعاث الصّبي قبل أن يمشي
قاله الرّاغب في المفردات.

الْأَذْبَارَ جمع الدُّبُر بضمّ الدّال والباء ودبر الشّيء خلاف القبل وكُنِيَ بهما
عن العضوين المخصوصين.

مُتَحَرِّفًا، التّحَرُّفُ الزّوال من جهة الإستواء إلى الحرف يقال تحرّف تحرّفًا
إذا قصد جهة الحرف لطلب الرّزق.

مُتَحَيِّرًا، التّحَيُّرُ طلب حيّزٍ يتمكّن فيه وذلك لأنّ الحز المكان الذي فيه
الجوهر.

◀ الإعراب

إِذْ يُغَشِّيكُمْ أَيِ أَذْكُرُوا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِمَا دُلَّ عَلَيْهِ، عَزِيزٌ حَكِيمٌ، يقرأ، يَغْشَاكُمْ، بِالتَّخْفِيفِ وَالْأَلْفِ أَلْتَّعَاسَ فَاعِلُهُ، وَيَقْرَأُ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الشَّيْنِ وَيَاءُ بَعْدَهَا وَأَلْتَّعَاسَ بِالنَّصْبِ أَيِ يَغْشِيَكُمْ اللَّهُ التَّعَاسَ، وَيَقْرَأُ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ بِتَشْدِيدِ الشَّيْنِ أَمَنَةً مَنْصُوبَةً عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ وَالْعَامِلُ فِيهِ، يَغْشَى مَاءً يُظْهِرُكُمْ الْجُمْهُورَ عَلَى الْمَدِّ وَالْجَارِ صِفَةً لَهُ وَيَقْرَأُ وَشَاذًا بِالْقَصْرِ وَهِيَ بِمَعْنَى، الَّذِي رَجَزَ الشَّيْطَانُ الْجُمْهُورَ عَلَى الزَّايِ وَيُرَادُ بِهِ الْوَسْوَاسُ وَقُرِي بِالسَّيْنِ وَأَصْلُ الرَّجْسِ الشَّيْ الْقَدْرُ فَجَعَلَ مَا يَفْضِي إِلَى الْعَذَابِ رَجْسًا إِسْتِعْذَارًا لَهُ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ظَرْفٌ لِأَضْرَبُوا.

وقيل هو مفعول به وقيل فوق زائدة مِنْهُمْ حال من كُلِّ بَنَانٍ أَيِ كُلِّ بَنَانٍ كَانُوا مِنْهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرُ أَيِ ذَلِكَ مُسْتَحَقٌّ بِشَقَاقِهِمْ ذَلِكَكُمْ فَذَوْقُوهُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ أَيِ فَذَوْقُوا ذَلِكَمْ زَحْفًا مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَقِيلَ هُوَ مُصَدَّرٌ لِلْحَالِ الْمَحْذُوفَةِ أَيِ تَرْحِفُونَ زَحْفًا وَالْأَذْبَارَ مَفْعُولُ ثَانٍ لَتَوَلَّوْهُمْ مُتَحَرِّفًا مُتَحَيِّرًا حَالانِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي يَوَّلَهُمْ ذَلِكَكُمْ أَيِ الْأَمْرَ ذَلِكَمْ (و) الْأَمْرُ أَنَّ اللَّهَ مُوْهِنٌ بِتَشْدِيدِ الْهَاءِ وَتَخْفِيفِهَا وَبِالإِضَافَةِ وَالتَّنْوِينِ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

◀ التفسير

إِذْ يُغَشِّيكُمْ أَلْتَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ قُلْنَا فِي شَرْحِ اللَّغَاتِ أَنَّ التَّعَاسَ النَّوْمَ الْقَلِيلَ وَقَوْلُهُ إِذْ يَغْشِيَكُمْ بَدَلَ ثَانٍ مِنْ قَوْلِهِ: وَإِذْ يَعِدُكُمْ وَبَدَلَ الْأَوَّلِ، إِذْ تَسْتَغِيثُونَ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ: وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِخْدَى أَلطَّا فُتْنَيْنِ^(١).

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

الجدد
للسنة

ثانياً: بقوله إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ^(١).

ثالثاً: بقوله إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ أَي من الله تعالى والمعنى واذكروا اذ تنعسون لأمنكم الحاصل من الله بإزالة الرُّعب عن قلوبكم. روي أنه لما بلغ أصحاب رسول الله كثرة قريش ففزعوا فزعاً شديداً و شكوا و بكوا و إستغاثوا فأنزل الله على رسوله إِذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم الآية فلما أَمسى رسول الله و جنَّ اللَّيْلُ ألقى على أصحابه النَّعَاسُ حتَّى ناموا و أنزل الله تعالى عليهم السَّماء وكان نزول رسول الله في موضع لا يثبت فيه القدم فأنزل الله عليهم السَّماء ولبد الأرض حتَّى تثبت أقدامهم وهو قول الله تعالى:

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ أَقول فعلنى هذا التفسير يكون المراد بالنَّعَاس السَّكون بخلافه على الأول والحق أن المراد غلبة النَّوم عليهم وكيف كان فأنزل الله تعالى عليهم ماءً بعد ذلك كما قال: وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ و ذلك أن بعض أصحاب النَّبي إحتلم في تلك اللَّيلة فأنزل الله المطر عليهم ليطهروا به و يذهب عنهم رجز الشَّيْطَان وهو الجنابة لأنَّها منه على قول بعضهم.

و قال الآخرون كان في نفوسهم أنا أولياء الله وفيما رسول الله وحالنا هذه و المشركون على الماء فأنزل الله المطر ليلة بدر السَّابعة عشر من رمضان حتَّى سالت الأودية فشرب النَّاس و تطهروا و عليه فالمراد بالرجز في الآية هو ما في قلوبهم بوسوسة الشَّيْطَان من الشَّبهة التي حصلت لهم و الى هذا المعنى أشار بقوله: لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ أَي أنما أنزلنا الماء ليربط على قلوبكم بالوثوق على لطف الله و يثبت به، أي بالمطر الأقدام حتَّى لا تسوخ في الرَّمْل أو بالربط على القلوب حتَّى يثبت في المعركة.

في أصل القضية و أنّ المسلمين كانوا منصورين بالملائكة كما يشعر به صريح قوله: **أَبَىٰ مُبَدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِدِّينَ**^(١).

ثم أنّ المراد بقوله: **فَوْقَ الْأَعْنَاقِ** وهو الرؤوس أي إقطعوا رؤوسهم عن أجسادهم، ويقول: **كُلُّ بَنَانٍ** أطراف الأصابع وذلك لأنّ فيه تعطيل المضروب من القتال بخلاف سائر الأعضاء فإنّ مقطوع اليد لا يقدر على القتال وهو واضح وقيل أنّ ما فوق العنق هو الرأس وهو أشرف الأعضاء والبنان عبارة عن أضعف الأعضاء فذكر الأشرف والأضعف تنبيهاً على كلّ الأعضاء ثمّ علّل ذلك الخزي والتكال في غزوة بدر في حقّ الكفار مع أنّ عذاب الآخرة أشدّ وأبقى.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

أي ذلك الخزي والعقاب الذي وقعوا فيه كان سببه أنهم أي الكفار شاقوا الله ورسوله أي جانبوا وصاروا في شقٍّ غير شقّ المؤمنين والشقّ الجانب قيل وشاقوا الله مجاز والمعنى شاقوا أولياء دين الله.

وفي قوله: **فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** إشارة إلى أنّ ما نزل بهم ذلك اليوم من التكال شيء قليل ممّا أعدّه الله لهم من العقاب في القيامة. أن قلت ما فائدة التكرار في قوله: **شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ثمّ قوله: **وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**.

قلت قوله: **شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ناظر إلى المشركين في غزوة بدر الذين شاقوا الله ورسوله فوقوا فيما وقعوا فيه في الدنيا والآخرة.

وأما قوله: **وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ومن يشاقق الله ورسوله حكم عام يشمل كلّ من إتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة فكأنّه تعالى بعد ما حكم

عليهم بما حكم قال هذا جزاء من كان كذلك ضرورة أن تحقق السبب والعلة يستلزم تحقق المسبب والمعلول وحيث قد ثبت أن السبب كونهم شاقين لله ورسوله فهذا السبب أينما وجد يتضرع عليه العذاب والخزي في الدارين إذا عرفت هذا فنقول.

قال الراغب في المفردات ألشّق الحزم الواقع في الشيء يقال شققته بنصفين:

قال الله تعالى: ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(١).

قال الله تعالى: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ^(٢).

قال الله تعالى: فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ^(٣).

قال الله تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ^(٤).

ثم قال والشقة القطعة المنشقة كالنصف، والشق المشقة والإنكسار الذي يلحق النفس والبدن.

قال الله تعالى: إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ^(٥) الى أن قال والشقاق المخالفة وكونك في شق غير شق صاحبك أو من شق العصا بينك وبينه، قال تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا^(٦).

قال الله تعالى: فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ^(٧) أي مخالفة وقال: وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أي صار في شق غير شق أولياءه نحو ومن يحادد الله ونحوه ومن يشاقق الرسول ويقال المال بينهما شق الشعرة وشق الأبلمة أي مقسوم كقسمتهما وفلان شق نفسي وشقيق نفسي أي كأنه شق مني لمشابهة بعضنا بعضاً انتهى موضع الحاجة من كلامه.

في قوله تعالى
فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
أي في شقاق

جزء ٩

المجلد
السادس

٢- ق = ٤٤

٤- القمر = ١

٦- النساء = ٣٥

١- عبس = ٢٦

٣- الرحمن = ٣٦

٥- النحل = ٧

٧- البقرة = ١٣٧

و يظهر منه أَنَّ المشاقق لله ورسوله لا ينحصر في الكفر بل يعم كل من سلك مسلكاً غير مسلك الرسول سواء كان بالكفر و عدم الإيمان به رأساً أم بالإيمان به ظاهراً و مخالفة سنته عملاً و أما قلنا ذلك.

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(١).

قال الله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا أَرْسُولَ مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُخْضَبُ أَعْمَالُهُمْ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ^(٣).

فهذه الآيات و أمثالها كما ترى نزلت فيمن خالف الرسول بعد إيمانه به ظاهراً و قد يعبر عنهم بالمنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و لا شك أَنَّ أكثر المسلمين في صدر الإسلام كانوا في زمرة المنافقين فهم و أتباعهم الى يوم القيامة داخلون في قوله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَلَاجِمٌ لَهُمْ شَدِيدُ الْعِقَابِ و لا ينافي ذلك نزول الآية في غزوة بدر في حق الكفار الذين حاربوا رسول الله ضرورة أَنَّهُمْ من أظهر مصاديق الآية و أعظمها. و أما تخصيص الآية بهم فلا دليل عليه لما ذكرناه و لما ثبت أَنَّ خصوصية المورد لا تنافي عموم المعنى.

ان قلت ما ذكرته في معنى الآية حق لا مرية فيه في عالم الإثبات فهو محتاج الى الدليل إذ لقائل أن يقول أَنَّهُمْ لم يسلكوا مسلكاً آخر بل سلكوا مسلك الرسول حذوا النعل بالنعل.

قلت لا يخفى على المنصف سلوكهم غير مسلك الرسول فهذا أبو بكر أول الخلفاء بزعمهم قد شاق الله ورسوله و ذلك لأن الله تعالى أمر رسوله في غدير خم بنصب علي عليه السلام للخلافة والوصاية وأبو بكر قد تقمصها على رغم رسول الله.

ثانياً: هو وأتباعه يدعون أن الرسول لم يخلف وأما أبو بكر فقد خلف عمر وعلى كل حال فقد خالف رسول الله في تصديده للخلافة وتعيين الخليفة بعده.

ثالثاً: أن رسول الله ﷺ قد أعطى فاطمة فداً وأبو بكر منعها منها.

رابعاً: أن الله تعالى يقول في محكم كتابه في الإرث ما قال وأبو بكر إدعى أن النبي قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث.

خامساً: أن أبا بكر دفن في بيت الرسول وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) ومن المعلوم أن عائشة لم تكن صاحب البيت.

وأما عمر فهو مضافاً إلى ما قلناه في أبي بكر قال على المنبر متعتان محللتان في زمن النبي أنا أحرّمهما وأعاقب عليهما، أليس هذا مخالفة للرسول.

وقال في صلاة التراويح التي أمر الناس أن يأتوا بها جماعة على خلاف السنة بعدها دخل المسجد ورأى الصفوف هذه بدعة ونعم البدعة وهكذا عثمان ومعاوية وسائر الخلفاء ولا نحتاج في إثبات شقاقهم لرسول الله ﷺ.

إلى ما ذكره المؤرخون في حالاتهم و سلوكهم فإن الأمر أوضح من أن يخفى على أحد وإذا كان الأمر على هذا المنوال فهم داخلون في قوله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وليت شعري ما الفرق بين من أنكر الرسول رأساً ومن أقرّ بنبوته لساناً وأنكره قلباً وخالفه عملاً بل

هذا أضرّ على الإسلام من الكافر ولهذا قال الله تعالى في حقهم، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ^(١) ولم يقل في نعم الفرق بين الكافر والمنافق هو أن الكافر نجس ظاهراً والمنافق يحكم بطهارته لأجل الإقرار اللساني وهذا لا ربط له بالعقاب الذي نحن بصدد إثباته فأنه أمرٌ آخر ومحصل الكلام هو اشتراك كثير من المسلمين لولا أكثرهم مع الكفار في العقاب الذي أوعدهم الله عليه وَ سَيُخْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ^(٢).

ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ
الذُّوقُ بفتح الدال وسكون الواو مصدر من ذاقَ يَذُوقُ ذَوْقاً.

قال في المفردات الذُّوق وجود الطَّعم بالفم وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فأن ما يكثر منه يقال له الأكل واختير في القرآن لفظ الذُّوق في العذاب لأن ذلك وأن كان في التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير انتهى كلامه. إذا عرفت هذا فاعلم أن الكاف في قوله: ذَلِكُمْ لا موضع له من الإعراب لأنه حرف خطاب والإشارة بذلك إلى ما تقدّم من أنواع العقوبات وأما ضمّ إلى الكاف الميم لأنه خطاب للمشرّكين.

أما قوله: فَذُوقُوهُ قال بعض المفسرين أن الذُّوق طلب إدراك الطَّعم بتناول اليسير بالفم كما أن الشَّم إدراك الرائحة بالأنف وليس بالإدراك لأنه يقال ذقته فلم أجده له طعماً وشممته فلم أجده رائحة وأما قال فذوقوه والذُّوق اليسير من الطَّعام لأن المعنى كونوا للعذاب كالذائق للطَّعام لأن فعظمه بعدي. وقيل لأن الذائق أشدّ إحساساً بالطَّعم من المستمرّ عليه فكأنّ حالهم أبداً حال الذائق في شدّة إحساسه نعوذ بالله منه انتهى كلامه.

وقال الرازي لمّا بيّن أن من يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب بيّن من بعد ذلك صفة عقابه وأنّه قد يكون معجلاً في الدنيا وقد يكون مؤجلاً في

الأخرة ونَبَّه بقوله: **ذَلِكُمْ قَدْ وُقُوهُ** وهو المعجل من القتل والأسر على أن ذلك يسير بالإضافة الى المؤجل لهم في الأخرة فلذلك سمّاه ذوقاً لأنّ الذوق لا يكون إلا تعرف طعم اليسير ليعرف به حال الكثير فعاجل ما حصل لهم من الألام في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة الى الأمر العظيم المعدّ لهم في الأخرة وقوله: **قَدْ وُقُوهُ** يدلّ على أنّ الذوق يحصل بطريق آخر سوى إدراك الطعوم المخصوصة وهو كقوله: **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** وكان عليه السلام يقول أبيت عند ربّي يطعمني ويسقني فهذا يدلّ على أنّ إثبات الذوق والأكل والشرب بطريق روحاني مغاير للطريق الجسماني انتهى كلامه بألفاظه وعباراته.

وأنت ترى أنّ ما ذكره أولاً من أنّ قوله: **قَدْ وُقُوهُ** هو المعجل من القتل والأسر على أنّ ذلك يسير بالإضافة الى المؤجل لهم في الأخرة. خلاف ظاهر الآية فأنّها أي الآية ناظرة الى الأخرة قطعاً، فهذا التقسيم لا معنى له ولا دليل عليه وأمّا قوله أنّ الذوق يحصل بطريق آخر الى ما قال فهو أيضاً خارج عن مورد البحث ضرورة أنّ البحث ليس في إثبات الذوق الروحاني وعدمه وللبحث فيه مقام آخر.

وأظنّ أنّ الرّازي أخذ تقسيمه من كلام صاحب الكشف حيث قال في تفسير قوله تعالى في المقام، ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الأجل الذي لكم في الأخرة انتهى.

وكيف كان فالحق ما قلناه من أنّ الذوق بأيّ معنى كان مختصّ بالأخرة و الارتبط له بالقتل والأسر وعليه فالمعنى أنّ الله تعالى يقول لهؤلاء الكفّار يوم القيامة، ذوقوا العذاب الذي يترتب على كفركم وعنادكم في دار الدنيا بدليل الفاء في قوله: **قَدْ وُقُوهُ**.

فأنّها تنفيذ التفرّيع أي أنّ العذاب متفرّع على أعمالكم في دار الدنيا وما ربك بظلام للعبيد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ بَارَكْتُمْ زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْدَبَارَ
 الإلتقاء الإجتماع على وجه المقاربة وهذا خطاب للمؤمنين الذين آمنوا
 بالله و برسوله في معركة القتال ناداهم الله تعالى ليقبلوا الى أمر الله بما يأمرهم
 به و إنتهاءهم عما ينهاهم عنه و يكونوا على يقين منه فقال لهم اذا لقيتم أي
 إجتمعتم مع الكفار في الحرب و رأيتم الكفار زحفاً و الزحف الجيش الدّهم
 الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف أي يدب دبيباً من زحف الصبي إذا دبّ على
 إسته قليلاً قليلاً سمي بالمصدر و الجمع زحوف و المعنى إذا لقيتم الكفار و
 هم كثير جمّ و أنتم قليل فلا تفروا منهم فضلاً عن تدانوهم في العدد أو
 تساوهم، و قيل أن، زحفاً، حال من الفريقين أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم و
 أنتم.

و الحاصل أنّ الله تعالى أمر المؤمنين المقاتلين بالثبات و الإستقامة في
 معركة الحرب و نهاهم عن الفرار فقال: فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْدَبَارَ والوجه فيه
 واضح.

أَمَّا أَوَّلًا: فلأنّ الفرار من الجهاد من أعظم الذنوب.

ثانيًا: أنه يوجب إستيلاء الأعداء و هو كما ترى.

ثالثًا: أنّ الفرار ناشئ عن الجبن و الخوف و المؤمن لا يخاف إلا من الله تعالى.

أما الإستقامة فأنها توجب نزول الرحمة من الله:

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ
 عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
 تُوعَدُونَ^(١).

وَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَیْهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
 أي ومن یول الكفار یوم الحرب بغير التحرف لقتالٍ وهو الكرّ بعد الفرّ
 یخیل عدوّه أنّه منهزم ثمّ یعطف علیه وهو من باب خدع الحرب ومكائدها،
 أو متحیّزاً، أي منحازاً إلى فئةٍ أي جماعه أخرى من المسلمین سوى الفئة
 الّتی هو فیها، فقد باء أي إنصرف وولّى مصحوباً بغضب الله ومستقرّه جهنّم و
 بئس المصیر لمن صار إليها وحاصل المعنی فی الآیه أنّ الفرار من الرّحف لا
 یجوز إلّا لمن كان متحرّفاً لقتالٍ أو متحیّزاً إلى فئة.

وأمّا غیرهما فقد باء أي رجع وأنصرف بغضبٍ من الله من حیث لا یشعر
 وماواه جهنّم وبئس المصیر وذلك لأنّ الفرار من الرّحف من أكبر الكبائر.

فقد روي محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير
 المؤمنین لأصحابه إذا لقيتم عدوّكم فی الحرب فأقلّوا الكلام و
 أذكروا الله عزّ وجلّ ولا تولّوهم الأدبار فتسخطوا الله تبارك و
 تعالیٰ و تستوجبوا غضبه.

و عن عیون الأخبار فیما كتب به الرضا إلى محمد بن سنان فی
 جواب مسأله فی العلل، و حرّم الله تعالیٰ الفرار من الرّحف لما فیهِ
 من الوهن فی الدّین و الإستخفاف بالرّسل و الأئمة العادله علیهم
 السّلام و ترك نصرتهم علی الأعداء و العقوبة لهم علی إنكار ما
 دعوا الیه من الإقرار، بالرّبوبیة و إظهار العدل و ترك الجور و إقامة
 الفساد لما فی ذلك من جرّاه العدوّ علی المسلمین و ما یكون من
 السّبی و القتل و إبطال دین الله عزّ وجلّ و غیره من الفساد انتهى.
 و عن كتاب الخصال فی مناقب أمير المؤمنین و تعدادها قال عليه السلام:
 و أمّا الثّالثة و السّتون فانی لم أفرّ من الرّحف قطّ و لم یبارزنی أحد
 إلّا أسقیت الأرض من دمه انتهى.

و عن تفسير العياشي عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: قلت، الزبير شهد بدرًا قال عليه السلام نعم ولكنه فر يوم الجمل فأن كان قاتل المؤمنين فقد هلك بقتاله أيّاهم وأن كان قاتل كفّاراً فقد باء بغضبٍ من الله حين ولّاهم دبره انتهى.

و عن الكافي بأسناده عن الحسن بن صالح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان يقول من فرّ من رجلين في القتال من الرّحف فقد فرّ و من فرّ من ثلاثة في القتال من الرّحف فلم يضرّ انتهى والأحاديث في الباب كثيرة جداً^(١).

تنبيه:

يظهر من قوله تعالى في الآية إذا لقيتم الذين باركفروا رَحْفًا فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْإِدْبَارَ، وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ أَنَّ الْإِدْبَارَ عن الحرب في صورة التحرف لقتالٍ أو التحيز الى فئة لا إشكال فيه بل هو واجب عليه إذا كان موجباً لحفظ النفس عن التلف قال الله تعالى: وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ^(٢) هذا إذا كان الإدبار لما ذكر في الآية أعني التحريف والتّحيز لا حفظ النفس فقط وهو ظاهر ويظهر.

مما روّيناه عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام حيث قال عليه السلام: مَنْ فرّ من رجلين في القتال من الرّحف فقد فرّ و من فرّ من ثلاثة في القتال من الرّحف فلم يفرّ.

أنّه إذا كانت عدّة الكفّار أكثر من المسلمين أضعافاً كثيرة فالإدبار عن الحرب وتركها لا يكون فراراً من الرّحف كذلك ولعلّه لأجل هذه الدّقيقة ترك أمير المؤمنين عليه السلام القتال مع أصحاب السّقيفة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وحاربهم بعد ذلك في وقعة الجمل، و صفين، مع أنّ القتال مع هؤلاء الغاصبيين

كان أحقّ وأولى منه مع أذنبهم و أتباعهم وذلك لأنهم أسسوا هذا الأساس الفاسد و زرعوا الفجور و سقوه الغرور و الوجه فيه هو ما ذكره الإمام الصادق عليه السلام في الحديث الذي مرّ ذكره و يوضح، هذا المعنى ما روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام حيث سأل عن علة قعود أمير المؤمنين عليه السلام في بدو الأمر و قيل له عليه السلام ما شأن أمير المؤمنين حين ركب منه ما ركب لم يقاتل، فقال عليه السلام للذي سبق في علمه (علم الله) أن يكون ما كان لأمر المؤمنين عليه السلام أن يقاتل و ليس معه إلا ثلاثة رهط فكيف يقاتل ألم تسمع قول الله عزّ وجلّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ بَارَكُوا رَحْمَةً فَاذْكُرُوا قَوْلَهُ: وَ يَسْأَلُ الْمُصِيرُ فكيف يقاتل أمير المؤمنين عليه السلام بعدها فإنما هو يومئذٍ ليس معه مؤمن غير ثلاثة رهط.

و عن أبي أسامة زيد الشحام قال: قلت لأبي الحسن جعلت فداك أنهم يقولون ما منع علياً أن كان له حق أن يقوم بحقه فقال عليه السلام: أن الله لم يكلف هذا أحداً إلا نبيه صلى الله عليه وآله قال له قاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك، و قال لغيره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، فعلي عليه السلام لم يجد فيه ولو وجد فيه لقاتل ثم قال عليه السلام لو كان جعفر و حمزة حيّين أنما بقي رجالان الخبر^(١)

أقول و يظهر من هذه الأحاديث أن الله تعالى كلف نبيه بما لم يكلف به غيره و لذلك لم يوجب عليه التقية و أوجبها على أفراد أمته والله أعلم بحقائق الأمور.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُبَلِّىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

من خَفَّفَ، لكن، في الآية رفع إسم، الله، و من شددَّها، نصبه و المشهور بين القرَّاء هو الثَّاني المصاحف الموجودة.

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى نَفَى الْقَتْلِ وَالرَّمْيِ فَنَفَى الْقَتْلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّمْيَ عَنِ النَّبِيِّ مَعَ أَنَّ الْقَتْلَ فِي الظَّاهِرِ كَانَ مُسْتَنْدَأً إِلَيْهِمْ كَمَا أَنَّ الرَّمْيَ كَانَ مُسْتَنْدَأً إِلَى النَّبِيِّ لِنَكْتَتِهِ وَهِيَ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ وَأَنَّ كَانَ ظَاهِرًا مُسْتَنْدَأً إِلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّهَا فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسُ الْأَمْرِ مُسْتَنْدَءَةٌ إِلَيْهِ تَعَالَى وَذَلِكَ لِأَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ وَإِرَادَتَهُ تَكُونُ سَبَبًا لِفِعْلِ الْعَبْدِ وَالْمُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إِقْدَارُهُ أَيَاهُمْ وَمَعُونَتُهُ لَهُمْ وَتَشْجِيعُ قُلُوبِهِمْ فِيهِ وَإِقْدَاءُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ حَتَّى قَتَلُوا وَخَذَلُوا عَلَى شَرِكِهِمْ عِقَابًا لَهُمْ وَعَلَيْهِ فَالْعَبْدُ وَأَنَّ كَانَ هُوَ الْفَاعِلُ ظَاهِرًا إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى حَيْثُ أَيْدَهُ فَصَحَّ أَنْ يَنْسَبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ وَاقِعًا وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ الْكُلَّ مُسْتَمَدٌّ مِنْهُ وَمُحْتَاجٌ إِلَى تَأْيِيدِهِ وَتَوْفِيقِهِ تَعَالَى أَيَّاهُ وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْدَهُمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ بِجُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَأَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ مَا قَالَ.

قال الرَّايزي في تفسيره لهذا الكلام ما هذا لفظه.

المسألة الثانية: إحتج أصحابنا بهذه الآية على أَنَّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وجه الاستدلال أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ جَرَحُوا فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ حَدُوثَ تِلْكَ الْأَفْعَالِ أَنَّمَا حَصَلَ مِنَ اللَّهِ وَأَيْضًا قَوْلُهُ: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ أَثْبَتَ كَوْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَامِيًا وَنَفَى عَنْهُ مَوْنَهُ رَامِيًا فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ رَمَاهُ كَسْبًا وَمَا رَمَاهُ خَلْقًا.

فَأَنْ قِيلَ أَمَّا قَوْلُهُ: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ فِيهِ وَجْهُ:

الأول: أَنَّ قَتْلَ الْكُفَّارِ أَنَّمَا تيسَّرُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ فَصَحَّتْ هَذِهِ الْأُضَافَةُ.

الثاني: أَنَّ الْجَرْحَ كَانَ إِلَيْهِمْ وَإِخْرَاجَ الرُّوحِ كَانَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّقْدِيرَ فَلَمْ يَمِيتُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَمَاتَهُمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى.

قال القاضي في أشياء منها أنَّ الرَّمِيَّة الواحدة لا توجب وصول التُّراب الى عيونهم وكان إيصال أجزاء التُّراب الى عيونهم ليس إلّا بإيصال الله تعالى. ومنها، أنَّ التُّراب الذي رماه كان قليلاً فيمتنع وصول ذلك القدر الى عيون الكلِّ فدلَّ هذا على أنَّه تعالى ضمَّ إليها أشياء أخرى من أجزاء التُّراب وأوصلها الى عيونهم. ومنها، أنَّ عند رميته ألقى الله تعالى الرُّعب في قلوبهم فكان المراد من قوله ولكنَّ الله رمى هو أنَّه تعالى رمى قلوبهم بذلك الرُّعب انتهى كلام القاضي على ما نقله الرَّاзи ثمَّ أجاب الرَّاзи عنه وقال.

والجواب أنَّ كلَّ ما ذكرتموه عدول عن الظَّاهر والأصل في الكلام الحقيقة فأن قالوا الدلائل العقلية تمنع من القول بأنَّ فعل العبد مخلوق لله تعالى فنقول هيئات فأنَّ الدلائل العقلية في جانبنا والبراهين التَّقليدية قائمة على صحَّة قولنا فلا يمكنكم أن تعدلوا عن الظَّاهر الى المجاز والله أعلم انتهى جواب الرَّاзи. نقول ما ذكره الرَّاзи والقاضي وغيرهما ممَّن قال بهذه المقالة لا محصل له أمَّا الرَّاзи فأنَّه من الأشاعرة القائلين بالجبر وقد أبطلنا في موارد كثيرة.

وأما القاضي فأنَّه وأن لم يكن من القائلين بالجبر إلّا أنَّه خبط في الجواب و أكل من القفا فالمتَّبِع في المقام هو ما ذكرناه والعجب أنَّهم لم يعلموا أنَّ الفاعل للفعل هو مخلوق لغيره وحيث أنَّ الفعل مخلوق للعبد ظاهراً فيقال أنَّ فلان فعل كذا، وحيث أنَّ العبد وما في يده وقدرته وإرادته كان لمولاه فصح أن يقال أنَّ الله فعل كذا وليس هذا من المجاز حتَّى يقال الأصل في الكلام الحقيقة، وذلك لأنَّ المجاز عبارة عن إسناد الفعل الى غير ما هو له وما نحن فيه ليس كذلك لأنَّ الله تعالى خالقٌ وموجدٌ للفعل الذي أوجد الفعل في الخارج فنسبة الفعل الى الفاعل المباشر والفاعل مع الواسطة على حدِّ سواءٍ وأن شئت قلت للفعل فاعلان فاعل بالمباشرة وهو العبد وفاعل بالتَّسيب وهو الله فنسبة الفعل الى العبد حقيقة الى الله مجاز يحتاج الى الإثبات وأتى للمستدلَّ بإثباته هذا أولاً وثانياً.

نقول على فرض كون الإسناد مجازاً لا إشكال فيه فأنَّ باب المجاز واسع في الكتاب والسنة كثير ومانحن فيه من هذا القبيل إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية قوله: **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ** معناه أنكم لم تقتلوهم إلا بعد إقدار الله أيّاكم بسبب الملائكة ففي الحقيقة أن الله تعالى قد قتلهم وأخذلهم لا أنتم: **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ** خطاب للنبي ﷺ أي أن التراب التي رميت بها في وجوه المشركين وقلت شاهت الوجوه، فصارت الوجوه مشوهة إنما كانت بأمر الله ومشيئته ولذلك أثرت في وجوههم قيل أن عائشة رمى بها في حرب الجمل في وجوه أصحاب أمير المؤمنين علياً فقال ابن عباس لها، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، أي حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء. عن الإحتجاج عن أمير المؤمنين علياً أنه قال: في الآية سمى فعل النبي فعلاً له ألا ترى تأويله على غير تنزيله.

و عن تفسير العياشي عن محمد بن كليب الأسدي عن أبيه قال: سئلت أبا عبد الله عن قول الله تعالى: **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** قال علياً ناول رسول الله القبضة التي رمى بها.

وفى خبر آخر أن علياً ناوله قبضة من تراب رمى بها قال بعض المفسرين لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ هذه قريش قد جاءت بخيالاتها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إني أسئلك ما وعدتني فاتاه جبرئيل علياً فقال خذ قبضة من تراب فأرمهم بها فقال ﷺ لما التقى الجمعان، لعلياً علياً إعطني. قبضة من حصاء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فأنهزموا ودفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم فقيل: **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ** والفاء جواب شرط محذوف تقديره إن إفترختم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم وشاء النصر والظفر قوى قلوبكم وأذهب عنها الفزع والجزع وما رميت أنت يا محمد إذ رميت ولكن الله رمى يعني أن الرمية التي رميتها

لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورته وجدت منه ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول ﷺ أصلاً إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره حق لا مرية فيه وأما قوله تعالى: وَلِيُثَبِّتَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا قال صاحب الكشف أي وليعطيهم عطاءً جميلاً.
قال زهير: فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو.

والمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل وما فعله إلا لذلك.
وقال في التبيان، معناه لنعيم عليهم نعمة حسنة والمعنى، ولنصرهم الله نصراً جميلاً ويختبرهم بالتي هي أحسن.

ومعنى، يبلوهم، ها هنا، يسدي اليهم وقيل للنعمة بلاء وللضرّة أيضاً مثل ذلك لأن أصله ما يظهر به الأمر من الشكر أو الصبر إنتهى.

ثم أن البلاء الحسن قيل بالنصر والغنيمة وقيل بالشهادة لمن إستشهد يوم بدر وهم أربعة عشر رجلاً منهم عبدة بن الحرث بن عبد المطلب والذي يظهر من كلمات المفسرين في المقام هو حملهم البلاء هنا على النعمة ومنهم من قال لولا أن المفسرين إتفقوا على حمل البلاء هنا على النعمة لكان يحتمل المحنة للتكليف بما بعده من الجهاد حتى يقال أن الذي فعله تعالى يوم بدر كان السبب في حصول تكليف شاق عليهم فيما بعد ذلك من الغزوات.

وقوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ معناه أنه تعالى يسمع دعاء من يدعوه ويعلم ما له فيه من المصلحة فيجيبه إليه، أو أن الله سميع بما يقوله المنافقون عليهم بما في ضمائرهم من الإنكار والعناد.

ذِكْرُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ

فَقُولَهُ: ذَلِكُمْ، إشارة الى قتل المشركين ورميهم حتى إنهمزوا وإبتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم وإمكانهم من قتلهم وأسرههم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ أي يضعف مكرهم حتى يذلوا ويهلكوا، قالوا والكيد يقع بأشياء.

منها، الإطلاع على عوراتهم، ومنها إبطال حيلتهم، ومنها إلقاء الرعب في قلوبهم.

ومنها، تفريق كلمتهم.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

الإستفتاح طلب الفتح والنصرة معناه طلب النصرة التي بها يفتح بلاد العدو وكأنه قال إن تستنصروا على أعداءكم فقد جاءكم النصر، ثم أنهم إختلفوا في المخاطبين بقوله: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا على قولين:

أحدهما: أن يكون الخطاب للمؤمنين على سياق قوله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وبقوله: ذَلِكُمْ و عليه فالمعنى أن تستفتحوا أي تستنصروا فقد جائكم النصر وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه في الغنائم والأسرى قبل الإذن فهو خير لكم وأن تعودوا الى مثل ذلك نعد الى توبيخكم كما قال تعالى: لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ الْآيَةَ ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْفِتْنَةَ هِيَ الْجَمَاعَةُ لَا تَغْنِي وَأَنَّ كَثْرَتِ الْإِبْرَصِ مَعُونَتُهُ ثُمَّ أَنَسَهُمْ بِأَخْبَارِهِ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ أَبُو عَلِيٍّ وَمَنْ تَبِعَهُ.

ثانيهما: ما ذهب اليه الحسن ومجاهد والزّهري والضّحاك والسّدي والقراء وغيرهم أنّه خطاب للمشركين على سبيل ألّهتكم وهم أهل مكّة وذلك أنّه حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم أنصر إقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وإفكنا للعاني أن كان محمّد على حقّ فأنصره وأن كنّا على

حَقٌّ فَأَنْصَرْنَا وَرَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا اللَّهُمَّ أَنْصِرْ عَلَى الْجَنْدِينَ وَأَهْدِ الْفَتْنَيْنِ وَأَكْرَمْ الْحَزِينِ، وَرَوَى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ صَبِيحَةَ يَوْمٍ بَدَرَ اللَّهُمَّ أَتَيْنَاكَ أَهْجَرًا لِلرَّحِمِ فَأَهْنَهُ الْيَوْمَ أَيُّ فَاهْلِكَ.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَلَكِنَّهُ كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْكُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَيُّ الْمَشْرِكِينَ لَمْ تَسْتَنْصِرُوا الْفَتْحَ لِأَنفُسِهِمْ بَلْ طَلَبُوا الْفَتْحَ لِمَنْ كَانَ عَلَى الْحَقِّ أَوْ أَوْصَلَ لِلرَّحِمِ وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْفَتْحَ لِلْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ وَعَلَيْهِ فَكَانَتْ دَعْوَةُ الْمَشْرِكِينَ مُسْتَجَابَةً فَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا أَيُّ تَسْتَنْصِرُوا أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ لِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ لِلطَّائِفَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْحَقِّ وَهِيَ الْمُسْلِمُونَ وَإِنْ تَتَّهَوْا عَنْ عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ فَهُوَ الْإِنْتِهَاءُ خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدَّارَيْنِ وَإِنْ تَعُودُوا إِلَى مِثْلِ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ نَعُدُّ إِلَى الْإِنْكَارِ أَوْ نَعُدُّ بِمِثْلِ مَا رَأَيْتُمُوهُ مِنَ الذَّلِّ وَالْخِزْيِ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا أَيُّ لَا تَعْتَمِدُوا عَلَيَّ كَثَرَتِكُمْ وَجَمَاعَتُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ فَإِنَّهَا لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ شَيْئًا وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرُونَ فَأُولَئِكَ هُمُ الشَّيْطَانُ وَمَا وَاهِمُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ.

وَإِحْتِمَالُ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ يَكُونُ الْإِسْتِفْتَا حُ بِمَعْنَى الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: فَقَدْ جَاءَكُمْ مُعْنَاهُ فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا بَانَ لَكُمْ بِهِ الْأَمْرُ وَإِسْتَقَرَّ بِهِ الْحُكْمُ وَإِنْ كُشِفَ لَكُمْ الْحَقُّ بِهِ.

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذَا الْإِحْتِمَالَ ضَعِيفٌ مُضَافًا إِلَى أَنَّ قَالَهُ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَحَقَّقْنَاهُ.

قَالَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ فَفِيهِ قَوْلَانِ ثُمَّ ذَكَرَهُمَا وَلَمْ يَرْجَحْ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ وَهَكَذَا أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ وَالَّذِي يَقْوَى فِي النَّظَرِ هُوَ أَنَّ يَكُونَ الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ كَلَامِهِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا
تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ
شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا
يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ
لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فَتْنَةً لَا
تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ
مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ
النَّاسُ فَآوَيْكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا
أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ
يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ
يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ
يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَاكِرِينَ (٣٠)

◀ اللغة

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ، التَّوَلَّى الإِعْرَاضُ يُقَالُ وَلَيْتَ عَنْهُ أَيِ أَعْرَضْتُ عَنْهُ.
 الدَّوَابُّ، دَوَابٌّ بَفَتْحِ الدَّالِّ وَتَشْدِيدِ الْبَاءِ جَمْعُ دَابَّةٍ وَهِيَ مُؤَنَّثُ الدَّابِّ
 يَقَعُ عَلَى الْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالتَّاءِ فِيهِ لِلْوَحْدَةِ وَتَصْغِيرِهِ، دَوِيْبَةٌ، مَا دَبَّ مِنْ
 الْحَيَوَانَ وَغَلِبَ عَلَى مَا يَرْكَبُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ.
 أَلْصَمُ بَضْمٌ الصَّادُ كَحَمَرٍ جَمْعُ أَصَمٍّ مِثْلُ أَحْمَرٍ وَحَمْرٍ وَهُوَ مَنْ لَا يَسْمَعُ
 لَفَقْدَ حَاسَةِ السَّمْعِ فِيهِ.
 أَبْئُكُمُ بَضْمٌ الْبَاءُ وَسَكُونُ الْكَافِ وَالْمِيمِ جَمْعُ، أَبْئُكُمُ، وَقِيلَ الْبِكْمُ الْخَرَسُ
 وَالْأَبْكَمُ الَّذِي لَا يَفْصَحُ.
 يَحْوُلُ أَصْلُ الْحَوْلِ تَغْيِيرُ الشَّيْءِ وَإِنْفَصَالُهُ عَنْ غَيْرِهِ وَبِإِعْتِبَارِ الْإِنْفَصَالِ قِيلَ
 حَالُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ.
 يَتَخَطَّفُكُمْ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْخُطْفُ وَالْإِخْطَافُ الْإِخْتِلَاسُ
 بِالسَّرْعَةِ.

◀ الإعراب

إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ أَلْصَمُ أُنْمَا جَمْعُ الصُّمِّ وَهُوَ خَيْرٌ شَرًّا لَأَنَّ شَرَّاهُنَا
 يَرَادُ بِهِ الْكَثْرَةُ فَجَمَعَ الْخَبْرَ عَلَى الْمَعْنَى لَا تُصَيِّبَنَّ فِيهَا ثَلَاثَةٌ أَوْجِهَ:
 أَحَدُهَا: أَنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ جَوَابُ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ أَيِ وَاللَّهُ لَا تُصَيِّبَنَّ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا خَاصَّةً بَلْ تَعَمَّ.
 الثَّانِي: أَنَّهُ نَهْيٌ وَالْكَلَامُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى أَيِ لَا أَرِيْنِكَ هَاهُنَا، أَيِ لَا
 تَكُنْ هَاهُنَا.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ جَوَابُ الْأَمْرِ وَأُكِّدَ بِالتَّوْنِ مِبَالِغَةً.
 تَخَافُونَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةٍ كَالَّذِي قَبْلَهُ أَيِ خَائِفُونَ وَ
 يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي، مُسْتَضْعَفُونَ.

﴿التفسير﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَالَ بعض المفسرين لما تقدم قوله: وَإِنْ تَنْتَهُوا و كان الضمير ظاهره العود على المؤمنين ناداهم و حرّكهم الى طاعة الله و رسوله و لما كانت الآية قبلها مسوقة في أمر الجهاد فالمعنى أطيعوه فيما يدعوكم الى الجهاد و أفردهم بالأمر رفعاً لأقدارهم و أن كان غيرهم أيضاً مأموراً بطاعة الله و رسوله و هذا قول الجمهور.

و أما من قال أن قوله: وَإِنْ تَنْتَهُوا خطاب للكفار فيرى أن هذه الآية نزلت بسبب إختلافهم في النّقل و مجادلتهم في الحقّ و تفاخرهم بقتل الكفار و النّكايه فيهم.

و أما من ذهب الى أن الآية خطاب للمنافقين أو لبني إسرائيل فهو كما ترى لا يساعده العقل و النّقل.

أقول الظاهر أن الآية خطاب للمؤمنين و تخصيصهم بالخطاب لأنّ غيرهم لا يعتدّ به في العمل بما يجب عليه مع ما فيه من الإعظام و الإجلال لهم و يمكن أن يكون الوجه في التّخصيص هو أن غير المؤمن لا يطع الله و الرّسول قطعاً لأنّه لم يؤمن بالله فالخطاب منصرف عنه بل لا فائدة فيه و الأحسن حمل الآية على العموم مع قطع النظر عن الآيات السّابقة و عليه فالمعنى أطيعوا الله و رسوله في جميع أوامره و نواهيه سواء كان المأمور به الجهاد مثلاً أم غيره.

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ

أي لا تولّوا ولا تعرضوا عن الرّسول و أنما أفرد الضمير في قوله: عَنْهُ و لم يقل، عنهما، لأنّ الإعراض عن الرّسول هو الإعراض عن الله بعينه و أنتم تسمعون، أي و الحال أنتم تسمعون دعاء الرّسول لكم.

وقيل معناه وأنتم تسمعون الحجة وقيل، تسمعون أي تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة والى هذا المعنى أشار بقوله: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ قوله: وَلَا تَكُونُوا فِي مَوْضِعِ جَزْمٍ وحذف التّوْن دلالة على الجزم نهى الله المؤمنين عن مشابهة الكفار في عدم إنتفاعهم بالمسموع فإن من سمع ولم ينتفع به فكأنه لم يسمع أصلاً وهذا حال الكافر والمنافق فاذا كان المؤمن أيضاً كذلك فما الفرق بين المؤمن والكافر بل هو من المؤمن أقبح لأنه يدعي الإيمان بالله ورسوله ومع ذلك لا ينتفع بكلام الرسول والكافر لا يدعيه بل ينكره.

ومن المعلوم أنّ عدم الإنتفاع من المؤمن المقرّ أقبح منه من الكافر المنكر. أن قلت كيف يصح أن يقولوا سمعنا وهم لا يسمعون أليس هذا من قبيل الجمع بين المتناقضين.

قلت من سمع ولم ينتفع بما سمع فكأنه لم يسمع فصّح أن يقال فلان سمع ولم يسمع أي سمع ظاهراً ولم يسمع واقعاً وهو واضح فلا فرق في ذلك بين المشركين والمنافقين وأهل الكتاب وهو ظاهر.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ أَلبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

لما نهى الله المؤمنين في الآية السابقة عن مشابهة الكفار في عدم الإنتفاع بالمسموع حكم في هذه الآية بشرارتهم وخباثتهم فقال أنّ شرّ الدّوابّ الآية أي أنّ هؤلاء الكفار شرّ ما دبّ على الأرض من الحيوان وتوضيحه أنّ الدّواب جمع دابة وهى ما دبّ على وجه الأرض من الحيوان إلّا أنّه تخصّص في العرف بالخيّل ثم أنّ الدابة على صنفين:

ذوي العقول كالإنسان، وغير ذوي العقول كغيره من الدّواب ولا شك أنّ ذوي العقول أشرف وأفضل من غيره فالإنسان أفضل ما يدب على الأرض وهذا ممّا لا كلام فيه إلّا أنّ الله تعالى ليس بصدد إثبات هذا المعنى بل المراد

بها أن الإنسان الذي من شأنه النطق والإستماع والتعقل اذا لم يترتب الأثار على كلامه وإستماعه وعقله فكأنه فاقداً لهذه الصفات متصف بضدّها.
ومن كان كذلك فهو من شرّ الدواب لا من خيرها وذلك لأنّ كمال الإنسان في التعقل في المسموعات والكلمات لا في الإدراكات فإنّ القوى المدركة موجودة في الحيوان أيضاً.
وفي قوله: لَا يَعْقِلُونَ إشارة الى أن الصمّ والبكم من جملة الشّرور والأفات بالنسبة الى ذوي العقول وأما غير ذوي العقول فلا كلام لنا فيه.
وحيث أنّ الكفار والمشركين والمنافقين كلّهم داخلون في هذه الآية من جهة عدم تعقلهم فهم شرّ الدواب عند الله وقد أشار الله تعالى بهذه الدقّيقة في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^(١).

قال الله تعالى: صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^(٢).

قال الله تعالى: أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ^(٣).

قال الله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا^(٤).

قال الله تعالى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ^(٥).

قال الله تعالى: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ^(٦).

بل يظهرون صريح الآيات أنّ هؤلاء يحشرون كذلك:

قال الله تعالى: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا^(٧).

١- البقرة = ١٧١

٢- البقرة = ١٨

٣- يونس = ٤٢

٤- الفرقان = ٧٣

٥- الأنعام = ٣٩

٦- محمد = ٢٣

٧- الإسراء = ٩٧

ولا يخفى عليك أَنَّ أكثر النَّاسِ في كُلِّ عصرٍ وزمانٍ من مصاديق هذه الآيات وذلك لِأَنَّ الإدراكَ شَيْءٌ وترْتُبُ الأثرُ عليه شَيْءٌ آخرٌ وعليه فكم من بصيرٍ لا يبصرُ وسميعٍ لا يسمعُ وعَاقِلٍ لا يتعلَّلُ:

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^(١)**.

أعاذنا الله من شرور أنفسنا.

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ
أخبر الله تعالى أَنَّهُ لو عَلِمَ في هؤلاء الكافرين الخير والصَّلاح لَأَسْمَعَهُمْ آيات الله وحججه ولم يخلف عنهم شيئاً منها ولكنهم لا يصلحون بل يتولَّون وهم معرضون وإذا كان الأمر على هذا المنوال فلا فائدة في الإسماع وهو ظاهر قيل أَنَّ الكفَّار سألوا الرِّسُولَ أَن يحيي لهم قِصِّي بن كلاب وغيره من أمواتهم ليخبروهم بصحَّة نبوته فبيَّن تعالى أَنَّهُ لو علم فيهم خيراً لَانتفاعهم بقول هؤلاء الأموات لأحياءهم حتَّى يسمِعوا كلامهم ولكنه تعالى علم منهم أَنهم لا يقولون هذا الكلام إلَّا على سبيل العناد وَأَنَّهُ لو أسمعهم الله كلامهم لتولَّوا عن قبول الحقِّ وأعرضوا عنه.

أقول وعليه فقله: **لَأَسْمَعَهُمْ** أي لا أسمعهم كلام الموتى بعد الأحياء ولكنَّه تعالى لم يحيهم لهم لعلمه بأنَّه لو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون.

عن الكافي بأسناده عن سلمة بن محرز قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول أَنَّ من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه وعلم تغيير الزَّمان وحدثانه إذا أراد الله بقوم خيراً أسمعهم ولو أسمع من لم يسمع لو لم يعرضاً كَأَن لم يسمع ثُمَّ أمسَكَ هَنَّةً ثُمَّ قال ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا والله المستعان.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

الجلد السابع

وأعلم أن الآية دالة على أنه تعالى عالم بالأشياء قبل حدوثها و العلم بها قبل الحدوث حضوري لا حصولي فإن العلم حصولي هو الصورة الحاصلة من الشيء لدى المدرك و الحضوري عبارة عن حضور المدرك لدى المدرك. أن قلت أليس علم الله بتوليهم وإعراضهم عن الحق علة له وإذا كان كذلك فما ذنب المعرض.

قلت كلاً فإن العلم الأزلي ليس علة لشيء لأن العلم عبارة عن الإنكشاف كونه علة فلا دليل عليه بل الدليل ثابت على عدمه و العقل أيضاً يحكم ببطالانه وركاكته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

الإستجابة طلب موافقة الداعي فيما دعا اليه على القطع به، وقيل معنى، اسْتَجِيبُوا أجيبوا، وكيف كان فقد أمر الله المؤمنين بإستجابة الله و الرسول أو بإجابة الله و رسوله إذا دعاهم الرسول لما يحييهم و من المعلوم أن دعوة الرسول دعوة الله ولذلك قال دعاكم و يحييكم، أي دعاكم الرسول و في قوله: يُحْيِيكُمْ إشارة الى حياة القلب بنور المعرفة و الطاعة و العبودية فإن الحياة على قسمين:

جسماني وروحاني و أن شئت قلت حيواني، وإنساني و الأول لا كلام لنا فيه فعلاً إذ هو موجود على الفرض حتى في حق الكفار بل و سائر الموجودات.

وَأَمَّا الثَّانِي: أعني به الحياة الروحي فهو غير موجود لنا في بدو الأمر و نحتاج فيها الى المحي قطعاً فإن إحياء القلب صعبٌ مستصعب جداً و لا تحصل هذه الحياة إلا بمتابعة الرسول الذي أمره الله بتذكية القلوب و تطهير النفوس عن الأرجاس الباطنية قال الله تعالى: وَمَا أَتِيَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه و ما

نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا^(١) فمن زعم أن الإنسان يقدر على إحياء قلبه من عند نفسه فقد أخطأ.

ثم أن المفسرين اختلفوا في معنى الحياة في الآية فعن السدي أن المراد بها الإيمان والإسلام وذلك لأن الإيمان حياة القلب والكفر موته:

قال الله تعالى: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ قِيلَ المؤمن من الكافر.

وقال قتادة يعني القرآن أي أجيبوه الى ما فيه ففيه الحياة والنّجاة والعصمة وذلك لأنه سبب العلم والعلم حياة.

وقال بعضهم المراد بها الجهاد لأنه سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة:

قال لله تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ^(٢).

وقال بعضهم لما يُحْيِيكُمْ أي لكل حق وصواب فيدخل فيه جميع الأعمال الصالحة وغير ذلك من الأقوال.

والحق أن المراد بالحياة في الآية هو المعارف الإلهية والعلوم الحقيقية التي توجب حياة القلب وذلك لأن الأعمال اذا صدرت عن القلب الذي لا معرفة فيه ولا يعلم صاحبه ما يفعل ولأي شيء يفعل فلا فائدة فيها فحياة القلب بالمعرفة وهي لا تحصل إلا بالعلم:

قال الله تعالى: يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ^(٣).

هذا وقد ورد في الأخبار أن المراد بها الجنة وعن أبي جعفر عليه السلام لما سأل عن هذه الآية قال عليه السلام ولاية علي بن أبي طالب فإن إتباعكم إياه وولايته أجمع لأمركم وأبقى للعدل فيكم انتهي.

أقول:

عبارتنا شَتَّى وحسنك واحدٌ وكلُّ الى ذاك الجمال يشير
والتحقيق أنَّ المراد بها العلم فَأَنَّ حياة القلب به كما أَنَّ موته بالجهل كما
قيل، النَّاس موتى وأهل العلم أحياء.

و المراد به هو العلم الَّذي يكتسب به الجنان ويعبد به الرَّحْمَن كما قال
الصَّادِق عَلَيْهِ السَّلَام: العلم ما عُبِدَ به الرَّحْمَنُ، وأُكْتَسِبَ به الجنان، وبه تحصل
معرفة الله ومعرفة الرَّسُول ومعرفة الإمام والاعتقادات الصَّالِحَات ومن
المعلوم أَنَّ الأعمال النَّاشِئَة عن القلب المُنَوَّر بنور العلم والمعرفة تكون
صالحة وهذا هو أصل الخيرات ومنشأ البركات ولا يحصل العلم بهذا المعنى
إِلَّا من طريق الوحي مختصَّ بالرَّسُول ولا رسول إلا يدعوا إِلا الى الخير
والصَّلاح وهذا معنى قوله: اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
يُخَيِّكُم.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

قال الشَّيْخ في التَّبْيَان قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يفرق بين المرء و قلبه بالموت أو الجنون وزوال العقل فلا
يمكنه إستدراك ما فات والمعنى بادروا بالتَّوبَة من المعاصي قبل هذه الحال
الثَّاني: أنَّ معناه بادروا بالتَّوبَة لِأَنَّهُ أَقْرَب الى المرء من حبل الوريد لا
يخفى عليه خافية من سرِّه و علانيته وفي ذلك غاية التَّحذِير.

الثَّالث: تبديل قلبه من حالٍ الى حالٍ لِأَنَّهُ مَقْلَب القلوب من حال الأمان
الى حال الخوف وبالعكس انتهى.

أقول أصل الحول تَغْيِيرُ الشَّيْءِ وإفصاله عن غيره فباعتبار التَّغْيِير قيل حال
الشَّيْءِ وباعتبار الإِنْفِصَال قيل حال بيني وبينك كذا قاله الرَّاغِب في المفردات.

وأما القلب، فقليل سَمِّيَ به لكثرة تقلُّبه لأنَّ قلب الشَّيْءِ تصريفه و صرفه من وجهٍ الى وجهٍ كقلب الثَّوبِ و قلب الإنسان أي صرفه عن طريقته و الانقلاب الإنصراف اذا عرفت هذا.

فَاعْلَمْ أَنَّ قوله تعالى: **أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** أن قلنا أن الحول بمعنى التَّغْيِيرِ فمعناه أَنَّ الله تعالى يَغَيِّرُ قلب الإنسان عَمَّا يريدُه و أن قلنا أن الحول بمعنى الانفصال فمعناه أَنَّهُ تعالى يفصل بين المرء و قلبه و كيف كان قد دَلَّتْ الآية على أَنَّ الله تعالى مقلب القلوب و تقليب الأمور تدبيرها و النَظَرُ فيها و تقليب الله القلوب و البصائر صرفها من رأيٍ الى رأيٍ.

قال الله تعالى: **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ** ^(٢).

قال الله تعالى: **يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ** ^(٣).

قال بعض المحققين قوله تعالى: **وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** إشارة الى ما قيل في وصفه، يقلِّبُ القلوب وهو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده لحكمة تقتضي ذلك وعلى ذلك حمل قوله: **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**.

وقال بعض آخر معناه أن يهمله و يردِّه الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وحوَّلَت الشَّيْءَ فتحوَّلَ غَيْرَتُهُ، أمَّا بالذَّاتِ و أمَّا بالحكم و القول انتهى كلامه.

وأنا أقول الَّذي يستفاد من الآية هو أَنَّ العبد لا يكون في فعله و قوله مختاراً مطلقاً كما زعمت المفوضة و لا مجبوراً كذلك كما زعمت المجبرة بل الأمر بين الأمرين وهو الَّذي نقول به في مذهب الشيعة.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

قال الصادق عليه السلام لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، وذلك لأنَّ حيلولة الله بين المرء وقلبه دليلٌ على عدم الجبر لأنَّه لو كان العبد مجبوراً في فعله و قوله فالحيلولة لا معنى لها وهكذا لو كان الأمر مفوضاً إليه مطلقاً.

قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام، أمّا القائلون بالجبر فقال الواحدي حكاية عن ابن عباس و الضّحّاك يحول بين المرء الكافر وطاعته و يحول بين المرء المطيع ومعصية فالسّعيد من أسعده الله و الشّقي من أضله الله و القلوب بيد الله يقبّلها كيف يشاء فإذا أراد الكافر يؤمن و الله لا يريد إيمانه يحول بينه وبين قلبه وإذا أراد المؤمن أن يكفر و الله لا يريد كفره حال بينه وبين قلبه.

ثم قال الرّازي، قلت قد دلّلنا بالبراهين العقليّة على صحّة أنّ الأمر كذلك و ذلك لأنّ الأحوال القلبية إمّا العقائد و إمّا الإرادات و الدّواعي إمّا العقائد فهي إمّا العلم و إمّا الجهل إمّا العلم فيمتنع أن يقصد الفاعل الى تحصيله إلا إذا علّم كونه علماً و لا يعلم ذلك إلا إذا علم كون ذلك الإعتقاد مطابقاً للمعلوم و لا يعلم ذلك إلا إذا سبق علمه بالمعلوم و ذلك يوجب توقّف الشّيء على نفسه. و أمّا الجهل فالإنسان البتّة لا يختاره و لا يريده إلا إذا ظنّ أنّ ذلك الإعتقاد علم و لا يحصل له هذا الظنّ إلا بسبق جهلٍ آخر و ذلك أيضاً يوجب توقّف الشّيء على نفسه و أمّا الدّواعي و الإرادات فحصولها أن لم يكن بفاعلٍ يلزم الحدوث لا عن محدثٍ وأن كان بفاعلٍ فذلك الفاعل إمّا العبد و إمّا الله تعالى و الأوّل باطل و إلّا لزم توقّف ذلك القصد على قصدٍ آخر وهو محال فتعيّن أن يكون فاعل الإرادات و الإعتقادات و الدّواعي هو الله تعالى فنصّ القرآن دلّ على أنّ أحوال القلوب من الله و الدلائل العقليّة دلّت على ذلك فثبت أنّ الحقّ ما ذكرناه انتهى كلامه.

والجواب أنّه أن أياد أنّ الفاعل للإعتقادات و الإرادات و الدّواعي هو الله تعالى بلا واسطة العبد فيجوز نطالب الدليل على ذلك و لا دليل عليه و أن أراد الفاعل لها هو الله بواسطة العبد فهو حقّ إلا أنّه لا يثبت مدّعا.

سَلَّمْنَا أَنَّ الدَّوَاعِي الموجودة في العبد بيد الله لكن نقول بثبوت الواسطة أعني بها الاختيار بين الدَّاعِي والفعل لأنَّ الدَّاعِي على الفعل لا يكون علّة تامّة له.

والحاصل أننا لا نشكّ في أَنَّ الله تعالى خالق لجميع ما سواه كائنًا ما كان نقول أَنَّ الإنسان قد جعله الله مختاراً في فعله إلاَّ أَنَّ هذا الفعل له نسبة إلى الفاعل المباشر أعني به العبد ونسبته إلى الخالق الموجد لكلّ ما سواه وهو الله فأَنَّ العبد وما في يده كان لمولاه ولا شكّ أَنَّ نسبة الفعل إلى الفاعل المباشر على سبيل الحقيقة وإلى الخالق الموجد للعبد على سبيل المجاز فقول الرّازي بالمغالطة أشبه منه بالدليل هذا كلّ مضافاً إلى أَنَّهُ تعالى أنزل القرآن ليكون حجّة للرّسول على الكفّار لا ليكون حجّة للكفّار على الرّسول فعلى ما ذكره الرّازي ومن حذو حذوه لصارت الآية من أقوى الدلائل للكفّار على الرّسول اذ لهم أن يقولوا لما منعنا من الإيمان فكيف يأمرنا به ويقول: وَمَا آتَيْنَاكَ الرّسُولَ فَخُذْهُ وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا^(١) والمفروض أننا لا نقدر على ذلك لأنَّ الله تعالى قد حال بيننا وبين قلبنا ولعمري هذا واضح لا خفاء فيه. أن قلّت فما معنى الآية وما المراد بالحيولة.

قلّت المراد بها التوفيق وذلك لأنَّ الآية خطاب للمؤمنين ومعنى قوله: أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ أَنَّ اللَّهَ يُوَفِّقُهُ وَيُؤَيِّدُهُ ولا يدعه إلى نفسه وهذا المعنى ثابت في حقّ المؤمن الذي أراد الحقّ وإستجاب لله وللرّسول وأما الكافر الذي لم يرد الإيمان فقد وكله الله إلى نفسه فلا محالة لم يوفّق ولم يستجيب وهذا هو الحقّ الموافق للقواعد العقليّة والأثار التّقليّة فأَنَّ الجبر يأباه العقل والنقل.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

العبد السّال

فتعالى وفي المعنى إحتمال آخر وهو أَنَّ اللَّهَ تعالى قد يلقي الى القلب ما هو بمصلحته و الإنسان لا يعلم بها لأنه تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء و القادر على الحيلولة بين المرء و قلبه فهو الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعى إذ بيده ملكوت كل شيء و زمانه و في ذلك حثٌ على المراقبة و الخوف منه و البدار الى الإستجابة له و أَنَّ الأمور ليست مفوضة الى العبد بقول مطلق و اذا كان الإلقاء أو التغيير أو الحيلولة أو ما شئت فسمه مطابقاً لمصلحة العبد فهو عين اللطف و العناية من الله الى عبده و أمّا منعه من الإيمان و إدخال العبد في الكفر فلا مصلحة فيه بل هو ظلمٌ قبيح لا ينبغي أن يصدر منه تعالى لأنه ليس بظلام للعبيد و عليه فمعنى الحيلولة منع العبد من الوقوع في المفسدة و الشقاوة و الله أعلم.

و أمّا قوله: **وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ففيه إعلام بأنه تعالى اليه يحشرهم فيثيبهم أو يعاقبهم على أعمالهم ففيه تذكار لما يؤول اليه أمرهم من البعث و الجزاء بالثواب و العقاب و أَنَّ الدنيا مزرعة الآخرة و كل إنسان مرهونٌ بعمله و هذا واضح لا خلاف فيه لمن آمن بالله و اليوم الآخر.

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

الفتنة البلية التي يظهر بها باطن أمر الإنسان فيها و الفتنة الهرج الذي يركب فيه الناس بالظلم.

قال بعض المفسرين هذا الخطاب ظاهره العموم بإتقاء الفتنة التي لا تختص بالظالم بل تعم الصالح و الطالح و قد روي عن ابن عباس أنه قال قال أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب.

قال روي البخاري، و الترمذي أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا و لم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده.

وفي صحيح مسلم من حديث زينب بنت جحش سألت رسول الله
أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبيث انتهى كلامه.
وقيل أَنَّ الآية خطاب للصحاب، وقيل لأهل بدر، وقال أكثر المفسرين من
العامّة نزلت في عليّ وعمار وطلحة والزبير، وقيل لرجلين من قريش قالوا و
الفتنة هنا القتال في وقعة الجمل.

قال الحقّي في تفسيره المسمّى بروح البيان ما هذا لفظه، قال الحدادي في
تفسيره نزلت في عثمان وعليّ أخبر الله تعالى النبي ﷺ بالفتنة التي تكون
بسببهما أنهما ستكون بعدك تلقاها أصحابك تصيب الظالم والمظلوم ولا
تكون للظلمة، وحدهم خاصّة ولكنّها عامّة فأخبر النبي بذلك أصحابه فكان
بعد وفاة النبي من الفتن بسبب عليّ وعثمان ما لا يخفى على أحد إنتهى
كلامه.

أقول لم يذكر الفتنة التي كانت بسبب عليّ وعثمان ما هي فقلوه ما لا
يخفى على أحد لا نفهم معناه وليعلم أنّه متفرّد بهذا القول ولم يقل به أحد
من مفسريهم ولا معنى للتغيير بالرأي إلا هذا وقال صاحب الكشف نقلاً عن
الحسن نزلت في عليّ وعمار، وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصّة قال
الزبير نزلت فينا وقرأناها زماناً وما أَرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها وعن
السّدي نزلت في أهل بدر فأقتتلوا يوم الجمل انتهى كلامه.

أقول وأعجب من هذا كلّ ما رواه القرطبي في تفسيره لهذه الآية قال.
وعن حذيفة اليماني قال قال رسول الله ﷺ يكون بين ناس من
أصحابي فتنة بغفرها الله لهم بصحبته أي، يستنّ بهم فيها ناس
بعدهم يدخلهم الله بها النار إنتهى.

أقول هذا الحديث الذي نقله القرطبي لا يشبه كلام الرسول أصلاً مضافاً
الى أنّ العقل السليم يحكم ببطلانه إذ كيف يعقل أن يكون صاحب الفتنة و

موجدها مغفوراً له لصحبته دون تابعه والآخر بسنته وبدعته فهذا عجيبٌ و هذه الأقوال التي نقلناها عن تفاسيرهم لا يقبلها العقل السليم ولا يساعدها النقل الصحيح وذلك لأنَّ حرب الجمل وأن كانت فتنة إلا أنَّها من ثمرات فتنة السَّقِيفَةِ التي وقعت بعد رسول الله ﷺ وذلك أي السَّقِيفَةِ كانت أساس الفتنة وأصلها.

وأما حرب الجمل أو النهروان و صفين وغيرهما من الفتن الواقعة مثل خلافة معاوية ويزيد إلى آخر أولاد العباس وما وقع في خلافتهم من الظلم والجور فلا شك أنَّ تلك المفساد كلها من ثمرات السَّقِيفَةِ فالقول بأنَّ حرب الجمل وأمثالها هي الفتنة لا غيرها كلام عارٍ عن التحصيل بعيدٌ عن الإنصاف فالحق أنَّ المراد بالفتنة في الآية الشريفة معناها العام الشامل لكل فتنة إلى يوم القيامة إلا أنَّ أصلها وأساسها في الإسلام هو السَّقِيفَةُ التي أوجدها بعد رسول الله ﷺ للوصول إلى مقام الخلافة والرئاسة ولعلَّك تقول هذا الذي ذكرت مجرد إدعاء لا دليل عليه فنقول ليس الأمر كذلك بل هو الحق الذي لا مرية فيه عند المنصف المطلع على التاريخ.

وأما المعاند الذي لا يقبل الحق فلا كلام لنا معه ولتوضيح المدعى لابد لنا من بيان السَّقِيفَةِ وما وقع فيها وما ترتب عليها من الآثار ونحن نذكر قصتها على ما ذكرها ابن الأثير في تاريخه وهو من أعيان العامة قال ما هذا لفظه.

لَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليلابعوا سعد بن عبادَةَ فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال ما هذا فقالوا منّا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر منّا الأمراء ومنكم الوزراء ثم قال أبو بكر قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة فقال عمر أيكم يطيب نفساً أن يخلف قدمين قدمهما النبي فبايعه عمر وبايعه الناس فقالت الأنصار أو بعض الأنصار لا نبايع إلا علياً قال وتخلّف عليّ و

بنوهاشم والزبير وطلحة عن البيعة وقال الزبير لا أعمد سيفاً حتى يبايع علي فقال عمر خذوا سيفه وأضربوا به الحجر ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع علي بيعة أبي بكر خرج في قميص ما عليه أزار ولا رداء عجلاً حتى بايعه ثم استدعى إزاره ورداءه والصحيح أن أمير المؤمنين ما بايع إلا بعد سنة أشهر والله أعلم وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبوسفیان وهو يقول أني لا أرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبوبكر من أمورهم أين المستضعفان أين الأذلان علي والعباس ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش ثم قال لعلي أبسط يدك أبايعك فوالله لأن شئت لاملأها عليه خيلاً ورجلاً فأبى علي عليه السلام فيتمثل بشعر المتلمس.

ولن يقيم على خسفٍ يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط بذمته وذا يشج فلا يبكي له أحد
فزجره علي وقال والله أنك ما أردت بهذا إلا الفتنة وأنت طالما بغيت
الإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك وقال ابن عباس كنت أقرأ عبد الرحمن
بن عوف القرآن فحج عمر وحجنا معه فقال لي عبد الرحمن شهدت أمير
المؤمنين اليوم بمنى وقال له رجل سمعتُ فلاناً يقول لو مات عمر لبايعت
فلاناً فقال عمر أني لقائم العشية في الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين
يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم فقلت له أن الموسم يجمع رعا الناس و
غوغاءهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لا يعوها و
لا يحفظوها ويطيروا بها أهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول
الله فنقول ما قلت فيعوا مقاتلك فقال والله لأقومن بها أول مقام أقومه
بالمدينة قال فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن
فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه.

ثم قال بعد أن ذكر الرّجَم وما نسخ من القرآن فيه أنّه بلغني أنّ قائلاً منكم يقول لو مات عُمر بايعت فلاناً فلا يغرّن إمروء أن يقول أنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة (فتنة خ ل) فقد كانت كذلك ولكن وقى الله شرّها وليس منكم من تقطع اليه الأعناق مثل أبي بكر و أنّه كان خيرنا حين توفى رسول الله و أنّ علياً و الزبير معهما تخلّفوا عنّا في بيت فاطمة و تخلّف عنّا الأنصار.

و إجتمع المهاجرون الى أبي بكر فقلت له إنطلق بنا الى أخواننا من الأنصار فإنطلقنا نحوهم فلقينا رجلاً صالحاً من الأنصار أحدهما عويم بن ساعدة و الثاني معن بن عدّي فقالا لنا أرجعوا أمركم بينكم قال فأتينا الأنصار و هم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة و بين أظهرهم رجل مزمل.

قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة و جمع فقام رجل منهم فحمد الله و أثنى عليه و قال أمّا بعد فنحن الأنصار و كتبية الإسلام و أنتم يا معشر قريش رهط بيننا دفت الينا دافة من قومكم فاذا هم يريدون أن يغضبونا الأمر فلما سكّت و كنت قد زوّرت في نفسي مقالة أقولها بين يدي أبي بكر فلما أردت أن أتكلّم قال أبو بكر على رسلك يا عُمر فقام فحمد الله و أثنى عليه و ما ترك شيئاً كنت زوّرت في نفسي إلّا جاء به أو بأحسن منه و قال:

يا معشر الأنصار أنكم لا تذكرون فضلاً إلّا و أنتم له أهل و أنّ العرب لا تعرف هذا إلّا لقريش هم أوسط العرب داراً و نسباً و قد رضيت لكم أحد هذين الرّجلين و أخذ بيدي و يد أبي عبيدة و أنّي و الله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها أن كنت أقدم فتضرب عنقي فيما لا يقربني اليّ إلّا أحبّ إليّ من أن أومر على قوم فيهم أبو بكر فلما قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال: أنا جديها المحكّك و عذيقها المرّجب منّا أمير و منكم أمير و إرتفعت الأصوات و اللّغظ فلما خفت الاختلاف قلت لأبي بكر أبسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته و بايعه النّاس ثمّ نزونا على سعد بن عبادة فقال قائلهم قتلتم سعداً فقلت قتل الله سعداً و أنا و الله ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر

خشيت إن فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فإما أن نتابعهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فساداً.

وقال أبو عمرة الأنصاري لما قبض النبي ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادَةَ ليؤلّوه الأمر وكان مريضاً فقال بعد أن حمد الله يا معشر الأنصار لكم سابقة وفضيلة ليست لأحدٍ من العرب أن محمداً ﷺ لبث في قومه بضعة عشرة سنة يدعوهم فما آمن به إلا القليل ما كانوا يقدرّون على منعه ولا على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم حتى أراد الله بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعداءه فكنتم أشدّ الناس على عدّوّه حتى إستقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المفادة صاغراً فدانت لرسوله بأسيا فكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ قرير العين إستبدوا بهذا الأمر دون الناس فأنّه لكم دونه فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت وأصبت الرأي ونحن نوليّك هذا الأمر فأنتك مقنع ورضا للمؤمنين.

ثم أنهم ترادوا الكلام وأبى المهاجرون من قريش وقالوا نحن المهاجرون وأصحابه الأولون وعشيرته وأولياؤه فقالت طائفة منهم فأنّا نقول منّا أمير منكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً فقال سعد هذا أول الوهن وسمع عمر الخبر فاتى منزل النبي ﷺ وأبو بكر فيه فأرسل اليه أن أخرج إلي فأرسل اليه أنّي مشغول فقال عمر قد حدث أمر لا بدّ لك من حضوره فخرج اليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة.

قال عمر فأتيناهم وقد كنت زوّرت كلاماً أقوله لهم فلمّا دنوت أقول أسكتني أبو بكر وتكلّم بكلّ ما أردت أن أقول فحمد الله وقال أنّ الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمته ليعبدوه ويؤحدوه وهم يعبدون من دونه ألهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة

أذى قومهم وتكذيبهم إياه وكلّ النَّاس لهم مخالف زراً عليهم فلم يستوحشوا القلّة عددهم وشنف النَّاس لهم فهم أوّل من عبد الله في هذا الأرض وأمن بالله وبالرّسول وهم أوليائه وعشيرته وأحقّ النَّاس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلّا ظالم.

وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدّين ولا سابقتهم في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته فليس بعد المهاجرين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضي دونكم الأمور فقام حباب بن المنذر الجموح فقال:

يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإنّ النَّاس في ظلّكم ولن يجتري مجتري على خلافكم ولا يصدروا إلّا عن رأيكم أنتم أهل العزّ وأولو العدد والمنعة وذوو البأس وأتما ينظر النَّاس ما تصنعون ولا تخلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلّا ما سمعتم ممّنّا أمير ومنكم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع أثنان والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب أن تولّي أمرها من كانت النّبوة فيهم ولنا بذلك الحجّة الظّاهرة من ينازعنا سلطان محمّد ونحن أوليائه وعشيرته.

فقال الحباب بن المنذر يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم فجلوهم عن هذه البلاد وتولّوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر منهم فأنه بأسيا فكم دان النَّاس لهذا الدّين أنا جديّلها المحكّك وعذيقها المرّجب أنا أبو شبل في عرينة الأسد والله لئن شتّم لنعيدنّها جذعة.

فقال عمر إذا ليقتلك الله فقال بل إياك يقتل فقال أبو عبيدة يا معشر الأنصار أنكم أوّل من نصر فلا تكونوا أوّل من بدّل وغير فقام بشير أبو النّعمان بن بشير.

فقال: يا معشر الأنصار إنا والله وأن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين و سابقة في الدين ما أردنا إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدر لأنفسنا فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغي به الدنيا ألا أن محمدًا ﷺ من قريش وقومه أولى به وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر فأتقوا الله ولا تخالفوهم فقال أبو بكر هذا عمر وأبو عبيدة فأن شتم فبايعوا فقال لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله في الصلاة وهي أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فلما ذهبنا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فناده الحباب بن المنذر عقت عقاقاً أنفت على ابن عمك الإمارة فقال لا والله وكلني كرهت أن أنازع القوم حقهم ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد.

قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيباً والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فإنكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحول سعد بن عباداة إلى داره فبقي أياماً وأرسل إليه ليبيع فأذن الناس قد بايعوا فقال لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي وأخضب سنان رمحي وأضرب بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما يبايعتكم حتى أعرض على ربي فقال عمر لا تدعه.

فقال: بشير بن سعد أنه قد لجأ وأبى ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولا يضركم تركه وأنما هو رجل واحد فتركوه وجاءت أسلم فبايعت فقوي أبو بكر بهم وبايع الناس بعد.

قيل أن عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد متى بويع أبو بكر قال يوم مات رسول الله كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة.

قال الزَّهْرِي بَقِيَ عَلَيَّ وَبَنُو هَاشِمٍ وَالزَّبِيرُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ لَمْ يَبَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ حَتَّى مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ فَبَايَعُوهُ انْتَهَى كَلَامُ صَاحِبِ التَّارِيخِ بِأَلْفَاظِهِ وَعِبَارَاتِهِ.

وَأَنْتِ إِذَا كُنْتِ مِنْ أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَأَمَعَنْتِ النَّظَرَ فِيمَا ذَكَرَهُ هَذَا الْمُؤَرِّخُ وَهُوَ مِنَ الْعَامَّةِ بَلْ مِنْ أَعْيَانِهِمُ الْمَشَارِ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ لَعَلِمْتَ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ وَإِدْعِينَاهُ فِي مَعْنَى الْفِتْنَةِ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ وَاتَّقُوا فِتْنَةَ الْخِ حَقًّا لَا رَيْبَ فِيهِ كَمَا لَا رَيْبَ فِي نُبُوءَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْمَقَامِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا فِي الْآيَةِ مَعْنَاهَا الْعَامُ الشَّامِلُ لِكُلِّ فِتْنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّا لَمْ يَنْحَصِرْهَا بِالسَّقِيفَةِ وَأَنَّهَا مَنْحَصِرَةٌ فِيهَا.

بَلْ قُلْنَا أَنَّهَا أَصْلُهَا وَأَسَاسُهَا فِي الْإِسْلَامِ بِمَعْنَى أَنَّهُ كَلَّمَا وَجَدَ مِنْهَا بَعْدَهَا أَوْ سَيُوجَدُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا وَفُرُوعِهَا وَالمَبْتَدِعُ بِهَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ شَرِيكَ فِي أَوْزَارِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحِهَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ رِيحَ الْفِتْنَةِ تَفُوحُ مِنْ جُدْرَانِ السَّقِيفَةِ لِمَنْ كَانَ لَهُ شَمٌّ وَأَثَارُ الْفِتْنَةِ ظَاهِرَةٌ فِي جَمِيعِ شُئُونِ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ وَدَرَايَةٌ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَبَسْبِهَا غَضَبُ حَقِّ أَهْلِ الْبَيْتِ وَقَتْلُوْا أَوْ قَهَرُوا وَكَذَلِكَ أَوْلَادُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ إِلَى يَوْمِ ظَهْورِ دَوْلَةِ الْحَقِّ وَلَا نَظَرَ أَنْ يَشْكُ ذُو مَسْكَةٍ فِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنَعَ وَقَتْلَ بَسْبِهَا كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ فِي الْخُطْبَةِ الشَّقْشَقِيَّةِ حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرُّخَى، يَنْحَدِرُ عَنْهُ السَّنِيلُ وَلَا يَرْفَى إِلَى الطَّيْرِ، الْخ.

وَحَيْثُ إِنَجَّرَ بَنَا الْكَلَامِ إِلَى هُنَا فَلَا بَأْسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى شَمَّةٍ مِنْ ثَمَرَاتِهَا الْخَبِيثَةِ فَتَقُولُ:

منها، غضب حق أهل البيت وهو الأصل من ثمراتها في الباب.
 منها، غضب أصحاب السقيفة حق الزهراء من فذك وميراثها من رسول الله.
 منها، مضافاً الى ذلك إحراق بيتها وضربها وأذاها الى أن ماتت ساخطة
 عليهم وأوصت أن تدفن ليلاً.

وقد قال رسول الله ﷺ فاطمة بضعة مني من أذاها فقد أذاني الخ.
 منها، خلافة عمر بعد أبي بكر بوصية منه اليه بغير مشورة كما قال
 علي عليه السلام في الخطبة فياعجبنا بينا هو يستقلها في حياته اذ عقدها لأخر بعد
 وفاته لشدة ما تشطر ضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن
 مسها الخ.

منها، خلافة عثمان بعد عمر بواسطة الشورى التي أبدعها عمر وجعل
 زمامها بيد عبد الرحمن بن عوف الذي كان هواه مع عثمان لقربته كما
 أشار عليه السلام الى هذا المعنى بقوله.

وقال الآخر لصهره مع هن وهن وتفصيلها مسطورة في التواريخ ثم ولد من
 عثمان معاوية ابن أبي سفيان لعنهما الله ومروان بن الحكم الخبيث ومنهما
 يزيد وعبد الملك ومنه أولاده الى آخر القوم ثم وصلت النوبة على ما أسسها
 السقيفة الى أولاد العباس الى آخرهم ففعلوا في الدين ما فعلوا وقتلوا من
 المسلمين نفوساً كثيرة لا يعلمها إلا الله ولم يقنعوا بالقتل والضرب والهتك
 في المسلمين بل غيروا أحكام الله وفسروا كتاب الله بأراءهم وأميالهم و
 أوجدوا في الدين بدعاً كثيرة وحلّلوا حرامه وحرّموا حلاله وبالجملة فعلوا
 بالإسلام والمسلمين ما ترى.

وأي لا أظنّ بهم خيراً بل أعتقد اعتقاداً جازماً أن لو سلط الكفار على
 المسلمين ما فعلوا بأكثر منهم وهذه الآثار كلّها من ثمرات غضب الخلافة التي
 لأجلها وجدت السقيفة الملعونة واذا كان الأمر على هذا المنوال فلا يبعد أن
 تكون الآية نازلة الى ما ذكرناه.

وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً

إشارة الى قَبْحِ الْفِتْنَةِ وعدم الدّخول فيها ومن المعلوم أنّ الكلّي ينصرف الى مصداقه الأتمّ وهو السّقيفة فالقول بأنّ المراد بها حرب الجمل أو حرب صفّين وأمثالهما ممّا هو من ثمراتها لا معنى له وفي قوله: لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً إشارة الى عموم الفتنة والمعنى إتقوا الفتنة إذا كانت كذلك لأنّ العقاب المترتب عليها يشمل الكلّ سواء كان ظالماً أم مظلوماً وفي قوله: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ إشارة الى أنّ الفتنة إذا بلغت هذه المرتبة فهي توجب العقاب قهراً فلا تكلوا الى رحمة الله فأتّوها قريباً من المحسنين واعلموا أنّه أشدّ المعاقبين في موضع النّكال والنّقمة والسّر فيه واضح فإنّ الفتنة العامّة ليست من المعاصي الشّخيصة التي تعدّ من الظلم على النفس بل هي من المعاصي المسرية المهلكة للغير أيضاً وهذا هو الوجه في عدم قبول توبة المبتدع إلا بعد إصلاحه ما أفسده بالفتنة وأنّى يكون له ذلك و لولا مخافة الأطناب وخروج الكتاب عن موضوعه لقلت لك غير ما قلت وأشرت الى تفصيل ما ترتّب على تلك الفتنة بوجه أبسط ولكن في ما ذكرته كفاية لمن نظر اليه بعين التدبّر والإنصاف لا بعين البغي والاعتساف والحمد لله على كلّ حال وصلى الله على رسوله وآله بقى في المقام شيثان لا بدّ لنا من الإشارة اليهما:

أحدهما: أنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ الله تعالى ياخذ غير المذنب بذنب المذنب وهو خلاف العدل بل العدل يقتضي أخذ المذنب بذنبه وأمّا غيره فلا ويدلّ على هذا الحكم بعد العقل:

قال الله تعالى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى^(١).

قال الله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ^(٢).

قال الله تعالى: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ^(١).

و غيرها من الآيات و اذا كان كذلك فما معنى قوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً.

والجواب عنه أن الله تعالى لا يأخذ أحداً بذنب غيره إلا أن يكون راضياً به أو ساكتاً عنه و ذلك لأنَّ النَّاسَ إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيّره فإذا سكت عليه وكلّهم عاص هذا بفعله وهذا برضاه وقد جعل الله في حكمه و حكمته الرّاضي بمنزلة العامل لقوله ﷺ من رضي بفعل قوم فهو منهم و عليه فلا يؤخذ أحد بذنب غيره بل يؤخذ بذنبه الذي دلّ عليه سكوته و رضاه بفعله و هو عين العدل.

ثانيهما: أنهم اختلفوا في دخول التّون في لا تُصِيبَنَّ فقال القراء دخلت التّون على الفعل لما فيه من معنى الجزاء و قيل لأنّه خرج مخرج القسم و التّون لا تدخل إلا على فعل النّهي.

و جواب القسم فعلى قول القراء هو بمنزلة قولك، إنزل عن الدّابة لا تطرحنك فهو جواب الأمر بلفظ النّهي أي أن تنزل عنها لا تطرحنك و قال المبرّد أنّه نهى بعد أمر و المعنى النّهي للظالمين أي لا تقربن الظّلم.

و قال الجرجاني أنّه نهى في موضع وصف النّكرة و تأويله الأخبار و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة.

وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

اختلفوا في المخاطبين بها فقال قوم نزلت في المهاجرين و هم المخاطبون بها قبل الهجرة و في ابتداء الإسلام فأنهم كانوا بمكة قليلي العدد مقهورين فيها

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

الجلد التاسع

يخافون أن يسلبهم المشركون، وقيل نزلت عقيب بدر لقلّة عددهم فيها بالنسبة إلى أعداءهم.

وقيل الخطاب لكلّ العرب من المهاجرين والأنصار وهو الحقّ بالإتباع إذ لا دليل على الخصوص فيحمل اللفظ على العموم كما هو مقتضى القاعدة فالمعنى إذكروا يا معشر العرب والذكر هو إحضار المعنى في النفس وهو ضدّ السهو.

إذ أنتم قليلون، من حيث العدد مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ وَالِإِسْتِضَاعُ طلب ضعف الشئ بتهوين حاله والضعف خلاف القوة تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَّكُمْ النَّاسُ أي كنتم خائفين من أن ينال منكم العدو والتخطف الأخذ بسرعة إنتزاع والمراد بالناس، الروم، وفارس، فأوِيَكُمْ اللَّهُ أي جعل لكم مأوى حريزاً ترجعون إليه وتسكنون فيه، بنصرة، الباء للسببية أي بسبب نصر الله وتأنيده، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَوْلَكُمْ تَشْكُرُونَ.

ومحصل الكلام في الآية هو أنّ الله تعالى قد منّ على العرب إذ أخرجهم من الإستضعاف في الأرض ونصرهم وأيدهم ورزقهم من المأكولات والملبوسات ما لم تقدروا على الوصول إليها قبل الإسلام ويكشف عن هذه الحقيقة ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة حيث قال عليه السلام.

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا، وَلَا يُدْعَى نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنَاجِئَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ^(١).

وقال عليه السلام في موضع آخر:

بَعَثَهُ وَالنَّاسَ ضُلَّالٌ فِي خَيْرَةٍ، وَخَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَرَّتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَحَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنْ

الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ^(١).

و قال عليه السلام:

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَآمِينَاً عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَشَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِيرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشَبَ وَتَسْفِكُونَ دِمَائَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ مِنْهَا^(٢) أَنْتَهَى.

و قالت الصديقة الطاهرة عليها السلام بضعة الرسول في خطبتها التي أوردتها في مسجد الرسول لإحقاق حقها وإتمام الحجة على المهاجر والأنصار قالت:

فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِالنَّدَارَةِ، مَائِلاً عَنِ مَذْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ، ضَارِباً تَبَجُّهَهُمْ، أَخِذاً بِأَكْطَامِهِمْ، دَاعِياً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، يُكْسِرُ الْأَصْنَامَ وَ يَنْكُثُ الْهَامَ، حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلُّوا الدُّبُرَ، حَتَّى تَفْرَى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأَسْفَرَ الْحَقُّ عَنْ مَخْضِهِ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ، وَخَرَسَتْ شَقَاشِقُ الشَّيَاطِينِ، وَطَاحَ وَ شَيْطَانُ التَّفَاقِ، وَأَنْحَلَّتْ عَقْدُ الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ، وَفُهِتُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيْضِ الْخِمَاصِ، (وَ كُنْتُمْ عَلَى شِفَا خُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ)^١ مُدَقَّةُ الشَّارِبِ، وَ نُهْزَةُ الطَّامِعِ، وَ قَبْسَةُ الْعَجَلَانِ، وَ مَوْطِئُ الْأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَ تَقْتَاتُونَ الْوَرَقَ، إِذْ لَهَ خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ.

فَأَنْقَذَكُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى بِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنْتَهَى.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

موضع الحاجة من كلامها **الْإِثْلَاقَ** ومن أراد الإطلاع على شرح هذه الكلمات فعليه بشرحنا على نهج البلاغة وشرحنا على الخطبة المشهورة بخطبة فذك. والمقصود أن العرب كانت قبل الإسلام من أذل الأقوام وأخسهم، وأردلهم وأما وصلوا إلى ما وصلوا من النعيم ببركة الإسلام وهذا مما لا كلام فيه الكلام في شكر المنعم الذي ثبت وجوبه عقلاً وشرعاً فقوله تعالى: **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ليس معناه الترجي في كلام الله تعالى كما هو معناه في سائر الموارد وذلك لما مرّ منا أن هذه الكلمة (لعل) وأن كانت في أصل اللغة بمعنى الترجي إلا أنها في كلام الله تستعمل بمعنى (كي) أي لكي تشكروا و الشكر من العبد واجب في مقابل النعمة عقلاً و شرعاً، لأن الله تعالى محتاج إليه:

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ^(١)**
قال الله تعالى: **لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ^(٢)** والعقل أيضاً يحكم به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

الخيانة بكسر الخاء مصدر، خان، يقال خان يَخُونُ خَوْنًا وخيانةً فهي ضد الأمانة فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السرّ قيل هي والنفاق واحد والفرق بينهما بالإعتبار.

فالخيانة تقال إعتباراً بالعهد والأمانة يقال إعتباراً بالدين ثم يتداولان، خاطب الله المؤمنين وقال لهم لا تخونوا الله والرّسول وأماناتكم وذلك لأنّ، **تَخُونُوا** موضعه الجزم بتقدير، لا، أي ولا تخونوا أماناتكم.

قال المفسرون والمعنى لا تخونوا مال الله الذي جعله لعباده فلا يخن بعضكم بعضاً فيما أئتمنه عليه.

وقال الحسن والسدي لا تخونوه كما صنع المنافقون.

وقال الجبائي نهاهم أن يخونوا الغنائم.

وقال ابن زيد الأمانة هاهنا الذين نزلت في بعض المنافقين.

وقال صاحب الكشاف والمعنى لَا تَخُونُوا اللَّهَ بأن تعطلوا فرائضه ورسوله بأن لا تستثنوا به وأماناتكم فيما بينكم بأن لا تحفظوها وأنتم تعلمون، تبعة ذلك وويلاله.

وأما سبب نزول الآية فذهب أكثر العامة أنها نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله ﷺ الى بني قريظة لما حاصروهم وكان أهله وولده فيهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى لنا أن نزلنا على حكم سعد بن معاذ فينا فأشار أبو لبابة الى حلقة أي أنه الذبح فلا تفعلوا فكان ذلك منه خيانة لله ورسوله.

وقال السدي كانوا يسمعون الشيء من النبي ﷺ فيغشونه ويلقونه الى المشركين فنهاهم الله عن ذلك.

وعن جابر أن أباسفيان خرج من مكة فعلم النبي ﷺ خروجه وعزم على الذهاب اليه فكتب اليه رجل من المنافقين أن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم فانزل الله هذه الآية وأمثال ذلك من الأقوال كثيرة ونحن نقول لو كان سبب نزول الآية ما ذكروه لا إشكال فيه لكنه لا يقتضي قصر الآية عليها وذلك لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب و اذا كان اللفظ عاماً يجب حمل الكلام على العموم وعليه فالمعنى أن الله تعالى نهى المؤمن عن الخيانة مطلقاً و تخصيص النهي بالمؤمنين إما لمزيد الشرف والإعتناء بهم وإما لأن غيرهم ممن لم يؤمن بالله ورسوله لا يليق بالخطاب أمراً كان أو نهياً والوجه فيه واضح لأن ترك الخيانة أو حفظ الأمانة من فروع الإيمان فمن لم يؤمن بالله كيف يقال له لا تخن الله مع أن الكفر من أعظم مصاديق الخيانة اذا عرفت هذا فنقول:

إِذَا خَانَ اللَّهُ، فَهِيَ تَحَقَّقُ بِتَرْكِ الْعِبَادَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ فَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَقَدْ خَانَهُ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ وَالْمَعْرِفَةَ أَمَانَةٌ مِنَ اللَّهِ مُودَعَةٌ فِي فِطْرَةِ الْبَشَرِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فُطِرْتُ لِلَّهِ أَلْتَمِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ^(١).

فُسِّرَتِ الْفِطْرَةُ بِالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ فَالْبَشَرُ مُجْبُولٌ عَلَيْهَا بِحَسَبِ الْفِطْرَةِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ إِنكَارَهَا خِيَانَةٌ وَأَنَّ شَتَّ لَتِ التَّوْحِيدِ أَمَانَةُ اللَّهِ فَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَقَدْ خَانَهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِالْأَمَانَةِ دِينُهُ وَهُوَ الْإِسْلَامُ فَمَنْ غَيَّرَهُ أَوْ يَدَّلُهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ.

وَأَمَّا خِيَانَةُ الرَّسُولِ، فَبِالْإِعْرَاضِ عَنْ سُنَّتِهِ وَعَدَمِ قَبُولِ قَوْلِهِ وَلَوْ فِي بَعْضِ الْمَوَارِدِ وَالتَّظَاهَرُ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ نِفَاقًا وَفِي رَأْسِهَا عَدَمُ قَبُولِهِ بِالرَّسَالَةِ وَاقْعًا وَأَتَمَّا قُلْنَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ خِيَانَةٌ لِأَنَّ الرَّسُولَ أَمَانَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَإِنْكَارُهُ خِيَانَةٌ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ مَعًا.

إِنْ قُلْتَ هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَدَاخِلٌ فِي خِيَانَةِ اللَّهِ لِأَنَّ الرَّسُولَ جَاءَ مِنَ الْأَحْكَامِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ قُلْتَ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنْ خِيَانَةِ الرَّسُولِ الظُّلْمُ عَلَى أَوْلَادِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ إِذْ لَا شَكَّ فِي كَوْنِهِمْ أَمَانَةُ الرَّسُولِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَنْتِي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابُ اللَّهِ وَعِترتي الْحَدِيثِ**.

فَلَوْ قُلْنَا بِأَنَّ الْكِتَابَ أَمَانَةُ اللَّهِ فَالْعِتْرَةُ أَمَانَةُ الرَّسُولِ فَمَنْ ضَيَّعَهُمَا فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَلَيْهِ فَلَا يَبْعَدُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ إِشَارَةً بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأُمُورِ فَأَنَّ حَمْلَ الْآيَةِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى.

وَأَمَّا الْخِيَانَةُ فِي حَقِّ الْغَيْرِ فَمُضَادِّقُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْصِيَ كَمَا أَنَّ الْحَثَّ عَلَى حِفْظِ أَمَانَةِ الْغَيْرِ أَيْضًا كَذَلِكَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَإِنْ أَمِنْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ** ^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ^(١).

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ^(٣).

ومن الأخبار:

قال الصادق عليه السلام: أَنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَ
أداء الأمانة الى البر والفاجر انتهى.

وقال عليه السلام: لَا تَغْتَرُّوا بِصَلَاتِهِمْ وَ لَا بِصِيَامِهِمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ رَبَّمَا لَهَجَ
بِالصَّلَاةِ وَ الصَّوْمِ حَتَّىٰ لَوْ تَرَكُوا إِسْتَوْحَشَ وَ لَكِنْ إِيخْتَبَرُوهُمْ
بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَ أداء الأمانة.

وقال عليه السلام: أَنْ عَلِيًّا عليه السلام أَنَّمَا بَلَغَ مَا بَلَغَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِصَدَقِ
الحديث وَ أداء الأمانة.

وقال عليه السلام: ثَلَاثٌ لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا، أداء الأمانة الى البر والفاجر،
و الوفاء بالعهد الى البر والفاجر و برّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين.
وقال عليه السلام: أَهْلُ الْأَرْضِ مَرَحُومُونَ مَا يَخَافُونَ وَ أداء الأمانة وَ
عملوا بالحقِّ و الأحاديث كثيرة في الباب جدًّا ^(٤).

فقول الله تعالى: أَمَانَاتِكُمْ إشارة حفظها و عدم الخيانة فيها و أمّا قوله: وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ فالواو للحال أي لا تخونوا و الحال أنتم تعلمون قبح الخيانة عقلاً و شرعاً.
و قيل معناه و أنتم تعلمون أنها أمانة من غير شبهة.

و قيل أنتم تعلمون ما في الخيانة من الذم و العقاب بخلاف الجهال،
المحتمل أن يكون النهي قد تعلّق بالمؤمن العالم بالخيانة و ما يترتب عليها من
العقاب و أمّا الجهال فهم في سعة ما لا يعلمون و الله أعلم.

٢- المؤمنون = ٨ و المعارج = ٣٢

٤- جامع السعادات ج ٢ ص ١٧٨

١- النساء = ٥٨

٣- الأحزاب = ٧٢

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ
 أمر الله تعالى المكلفين أن يعلموا أنَّ أموالهم وأولادهم فتنة وأنما يمكن
 معرفة ذلك بالنظر والفكر والمراد بالفتنة هاهنا المِحنة التي يظهر بها ما في
 النفس من إتباع الهوى أو تجنبه قاله بعض المفسرين.
 وقيل المراد بها الإثم والعذاب وقيل المراد بها الإمتحان وكيف كان
 فالمراد أن لا تفتنوا بأموالكم وأولادكم في دار الدنيا وأحفظوا حدود الله فيها.
 وإِعلم أنَّ الفِتنة في الأصل على ما قاله الرَّاغب في المفردات هي إدخال
 الذَّهَب النَّار لتظهر جودته من رداءته ولذلك استعملت في إدخال الإنسان
 النَّار:

قال الله تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ^(١) انتهى.

أقول هذه اللَّفظة قد وردت في القرآن على وجوه:

أحدها: الإمتحان والاختبار ومنه:

قوله تعالى: حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ^(٢).

ثانيها: الشَّر ومنه:

قوله تعالى: فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى
 وَجْهِهِ^(٣).

والمعنى وأن أصابته محنة وشر.

ثالثها: الشَّرْك ومنه:

قوله تعالى: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ^(٤) أي لا يكون شرك.

وقوله تعالى: وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ^(٥).

٢- العنكبوت = ٢

٤- البقرة = ١٩٣

١- الذاريات = ١٣

٣- الحج = ١١

٥- البقرة = ١٩١

يعني والشُّرك أعظم عند الله من القتل في الشهر الحرام.

رابعها: الإثم ومنه:

قوله تعالى: **أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** ^(١).

خامسها: العذاب ومنه:

قوله تعالى: **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا** ^(٢) أي من بعد ما عذبوا في الدنيا.

قوله تعالى: **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ** ^(٣) أي جعل عذاب الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة.

سادسها: القتل ومنه:

قوله تعالى: **إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا** ^(٤) يعني أن يقتلكم.

سابعها: الإحراق ومنه:

قوله تعالى: **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ** ^(٥) يعني يحرقون بها في الآخرة.

ثامنها: الصّد والمنع ومنه:

قوله تعالى: **وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** ^(٦) يعني وأحذرهم أن يصدوك.

تاسعها: الضلالة ومنه:

قوله تعالى: **وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ^(٧) أي ومن يُرد الله ضلّالته.

فيه القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

١- التوبة = ٤٩

٢- النساء = ١٠١

٣- المائدة = ٤٩

٤- التوبة = ٤٩

٥- العنكبوت = ١٠

٦- الذاريات = ١٣

٧- المائدة = ٤١

عاشرها: الجنون ومنه:

قوله تعالى: فَسْتَبْصِرْ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ^(١) أي المجنون.

حادي عشرها: العبرة ومنه:

قوله تعالى: لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٢) يعني لا تجعلنا عبرة لهم وقوله: لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا^(٣) أي عبرة لهم.

ثاني عشرها: العذر ومنه:

قوله تعالى: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ^(٤).

أي لم تكن معذرتهم اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ الْفِتْنَةُ هَاهُنَا الإختبار فقد سماهم بها إعتباراً بما ينال الإنسان من إختبارهم كما سماهم عدواً: في قال الله تعالى: إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ^(٥).

إعتباراً بما يتولد منهم وجعلهم زينة

قال الله تعالى: زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ^(٦).

قال الله تعالى: أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٧).

إعتباراً بأحوال الناس في تزئینهم بهم فعلى الإختبار معنى الكلام أنكم مختبرون بالأموال والأولاد في الدنيا وهذا ممّا لا كلام فيه ومعنى الإختبار في الأموال والأولاد هو مراعاة الجهات الشرعية والعقلية في الأموال والأولاد وعدم مراعاتها

أمّا الأموال فمن جهة تحصيلها ومصرفها وأمّا الأولاد فمن حيث الأداب والوظائف المقررة عقلاً وشرعاً.

٢- يونس = ٨٥

٤- الأنعام = ٢٣

٦- آل عمران = ١٤

١- القلم = ٥ و ٦

٣- الممتحنة = ٥

٥- التغابن = ١٤

٧- الكهف = ٤٦

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** فَقَالَ بَعْضُهُمْ فِيهِ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ سَعَادَاتِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ سَعَادَاتِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أَعْظَمُ فِي الشَّرَفِ وَأَعْظَمُ فِي الْفَوْزِ وَأَعْظَمُ فِي الْمُدَّةِ لِأَنَّهَا تَبْقَى بَقَاءً لَا نِهَآيَةَ لَهُ فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ الْأَجْرَ الَّذِي عِنْدَهُ بِالْعَظَمِ.

ثُمَّ قَالَ وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي بَيَانِ أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِالتَّوَافُلِ أَفْضَلُ مِنَ الْإِشْتَغَالَ بِالنِّكَاحِ لِأَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِالتَّوَافُلِ يَفِيدُ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَ اللَّهِ فَالْإِشْتَغَالَ بِهِ خَيْرٌ وَالْإِشْتَغَالَ بِالنِّكَاحِ يَفِيدُ الْوَلَدَ وَيُوجِبُ الْحَاجَةَ إِلَى الْمَالِ وَ ذَلِكَ فَتْنَةٌ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا أَفْضَى إِلَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ عِنْدَ اللَّهِ فَالْإِشْتَغَالَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا أَفْضَى إِلَى الْفِتْنَةِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ أَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ سَعَادَاتِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ سَعَادَاتِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أَعْظَمُ فِي الشَّرَفِ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ فَهُوَ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ الْوَصُولَ إِلَيْهَا لَا يُمْكِنُ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ الْحَسَنَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَلَوْ كَانَ الْمَالُ وَالْوَلَدُ مِمَّا يُفْضِي إِلَيْهَا فَهُمَا الْأَصْلُ فِي تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ كَانَ الْمَالُ وَالْوَلَدُ مِمَّا يُفْضِي إِلَى الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ فَهُمَا مُحْكومان مَذْمُومان فَالْقَوْلُ بِأَنَّ سَعَادَاتِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ سَعَادَاتِ الدُّنْيَا لَا نَفْهَمُ مَعْنَاهُ.

وَأَنْ شُئْتُ قُلْتُ السَّعَادَةُ فِي الدَّارَيْنِ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ لِأَنَّ أَحَدَهُمَا عِلَّةٌ وَ سَبَبٌ لِلْآخَرِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ هِيَ خَيْرٌ مِنْهَا مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ الْمُسَبَّبُ خَيْرٌ مِنَ السَّبَبِ وَهُوَ كَمَا تَرَى لَا مَعْنَى لَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ يُمْكِنُ أَنَّ يَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِالتَّوَافُلِ أَفْضَلُ مِنَ الْإِشْتَغَالَ بِالنِّكَاحِ فِيهِ.

أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِالنِّكَاحِ مِمَّا أَمَرَ بِهِ فِي الشَّرِيعَةِ:

قال الله تعالى: وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^(١).
قال الله تعالى: فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ^(٢).

و من السنة قال رسول الله ﷺ: من تزوج فقد أحرز نصف دينه.
و قال الصادق عليه السلام: ركعتان يصلِّيهما المتزَّوج أفضل من سبعين ركعة يصلِّيها أعزب.

و قال رسول الله ﷺ: ركعتان يصلِّيهما متزَّوج أفضل من رجلٍ عزب يقوم ليله و يصوم نهاره.
و قال عليه السلام: رُدَّال موتاكم العزَّاب.

و أمثال ذلك من الأحاديث المنقولة من طرق العامة و الخاصة فكيف يمكن القول بأنَّ الإشتغال بالتوَّافل أفضل من الإشتغال بالنِّكاح و أضعف من ذلك ما علَّله بقوله لأنَّ الإشتغال بالتوَّافل يفيد الأجر العظيم و الإشتغال بالنِّكاح يفيد الولد و يوجب الحاجة إلى المال و ذلك فتنة.

وجه الضَّعف أنَّ الإشتغال بالتوَّافل لا يفيد الأجر العظيم بقولٍ مطلق فإنَّ الرِّجل العزب لا أجر له و لو كان له أجر فالأجر المترتب على العمل المتزَّوج أعظم و أكثر منه في غيره بل في بعض الأخبار أنَّ الأرض تلعن العزب إذا كانت عزوبته من غير عذرٍ و الحاصل أنَّه لا شك أنَّ الأجر العظيم عند الله لا يكون للمشتغل بالتوَّافل مطلقاً و ذها واضح مضافاً إلى أنَّ التوَّافل لا عقاب على تركها و أمَّا ترك النِّكاح فيترتب عليه العقاب أن كان من غير عذرٍ.

و أمَّا قوله هذا يفضي إلى كذا و ذاك يفضي إلى كذا، فهو كلام لا طائل تحته بل لا ينبغي أن يصدر من عاقلٍ فضلاً عن عالمٍ و ذلك لأنَّ إفضاء العمل إلى السَّعادة و عدمه لا ربط له بأصل العمل بل هو مربوط بكيفيَّة العمل الصَّادر من

المكلف من حيث الإخلاص ومراعاة الشرائط فيه ولا فرق فيه بين المال والأولاد والصلاة والصوم والتوافل وغيرها فأَنَّ المكلف إذا أتى بالتأفلة كما هو حقّه فهو مأجور وهكذا في الواجبات بل الأموال والأولاد وبالجملة المفضي إلى السعادة ليس نفس العمل كيف إنفق بل المفضي إليها هو الإتيان به مع شرائطه.

ولا شك أَنَّ مراعاة الشرائط بيد المكلف وتحت إختياره وقدرته ففي الحقيقة هو المفضي إليها لا عمله فالمال قد يكون فتنه بمعنى الفساد وقد يكون رحمة وسعادة وهكذا الأولاد.

أَنْ قُلْتَ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

قُلْتُ فيه إشارة إلى كَيْفِيَّةِ الإستفادة من الأموال والأولاد أي إن حصلتُم الأموال والأولاد من طريق المشروع وجعلتُم الأموال والأولاد في طريق رضا الرّب والسرّ فاعلموا أَنَّ الله يُجرّكم أَجْرًا عَظِيمًا فالأجر العظيم في الآية مترتب على ما ذكره في صدر الآية وهو الأموال والأولاد وعليه فالواو في قوله: وَأَنَّ اللَّهَ لِلْعَظْفِ أَي وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ الْخ. وأما على مذاق القوم فالواو للإستئناف فأفّض ما أنت قاض.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

هذا خطاب للمؤمنين وجه التخصيص ظاهر لأنّ التقوى أعني بها إمتثال أوامر الله وترك نواهيه تقرباً إليه لا تحصل إلا لمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر إعتقاداً وعملاً ومع ذلك ففي الكلام إيماء إلى أَنَّ الإيمان قد يكون مع التقوى وقد لا يكون فمن زعم أنّهما مترادفان وأنّ أحدهما عين الآخر فقد أخطأ.

أما على القول بأن الإيمان عبارة عن مجرد الاعتقاد ولا يشترط في تحققه العمل فواضح لأن التقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحرمات فالتقوى لا تحصل إلا في قالب العمل.

و أما على القول بإشتراط العمل في تحقق الإيمان فالفرق أيضاً واضح اذ قصد الإمتثال والتقرب الى الله من شئون التقوى وكيف كان فقد خاطب الله المؤمنين وقال لهم: **إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا** أقوال:

قال ابن زيد يجعل هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل.

وقال مجاهد معناه يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة.

وقال السدي يجعل لم نجاة.

وقال القراء يجعل لكم فتحاً ونصراً.

وقال الجبائي يجعل لكم نصراً وعزاً وثواباً وعلى أعداءكم خذلاناً وذللاً وعقاباً ذكر هذه الوجوه في التبيان.

أقول ما ذكروه في معنى الفرقان لا بأس به إلا أنه يرجع الى شيء واحد الفرق بين الحق والباطل وقد أستعمل اللفظ في كثير من الموارد في الكتاب والسنة إلا أنه في كل مورد بحسبه، فتارة يراد به القرآن ومنه:

قال الله تعالى: **وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ^(١)** يعني وأنزل القرآن.

وتارة يراد بها الفارق بين الحق والباطل ومنه:

قال الله تعالى: **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ^(٢)** يعني ما يفرق به بين الحق والباطل.

وتارة يراد به النصرة ومنه:

قال الله تعالى: **وَإِذْ أَنْتَبْنَا مُوسَى الْأَكْبَابَ وَالْفُرْقَانَ^(٣)**.

قال الله تعالى: وَإِذْ أَنْتَبْنَا مُوسَىٰ بِالْكِتَابِ وَالْفُرْقَانِ^(١).

يعني يوم النُصرة وتارة يراد به الخروج عن الضلالة والشبهة ومنه قوله: **وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**^(٢) وهذه الوجوه المحتملة في اللفظ بحسب موارد الإستعمال وأنت ترى أنَّ الكل يرجع الى ما ذكرناه ولا شك أنَّ الفرقان بهذا المعنى من أحسن النعم وأفضلها فمن وصل الى هذا المقام فقد فاز فوزاً عظيماً إذ متابعة الحق وترك الباطل فرعٌ على معرفتهما فمن لم يفرق بين الحق والباطل كيف يتبع الحق ويعمل به ولا يصل العبد الى هذا المقام إلا بالعمل الصالح وترك المعاصي لله وحده وهذا هو التقوى المشار اليها في الآية فظهر معنى قوله: **إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**.

وهذا أعني الفرقان هو أحد الفروع المترتبة على التقوى.

ثانيها: قوله: **وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** تكفير السيئة سترها وتغطيتها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل بها فالمعنى أن تتقوا الله يستر ويغطي عنكم السيئات كأن لم تعملوا بها وأن شئت قلت معناه حط الذنوب وقد أشار الله تعالى الى هذا في كثير من الموارد:

قال الله تعالى: **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**^(٣).

قال الله تعالى: **لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ أَلْنَعِيمِ**^(٤).

قال الله تعالى: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كِتَابَنَا مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**^(٥).

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**^(٦).

قال الله تعالى: **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ**^(٧).

١- الأنفال = ٤١

٢- محمد = ٢

٣- النساء = ٣١

٤- التَّعَابِن = ٩

٥- البقرة = ١٨٥

٦- العنكبوت = ٧

٧- المائدة = ٦٥

قال الله تعالى: رَبُّنَا فَاعْفُزْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ^(١).

والآيات بهذه المضامين كثيرة ومُحْصَل الكلام هو أن حطَّ الذُّنُوب وتكفير السيئات ممَّا يرغب اليه الكلُّ وهو واضح لا خفاء فيه.

ثالثها: قوله: وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وهو أيضاً مرعَّب فيه مندوبٌ اليه عقلاً وشرعاً ومن الذي لا يحتاج الى غفران الرَّب:

قال الله تعالى: لَيْسَ لِمَنْ يَرْحَمُنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لَيَغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا ^(٣).

قال الله تعالى: وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ^(٤).

قال الله تعالى: وَ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبُّنَا غَفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ^(٥).

والآيات في باب المغفرة كثيرة ونحن أيضاً نقول اللهم أغفر لنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار آمين.

ثم قال تعالى في آخر الكلام: وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ أي لا تتعجبوا ممَّا وعدناه لكم من إعطاء الفرقان وتكفير السيئات و غفران الذُّنُوب لأنَّ فضله تعالى أعظم من ذلك أو أنه الذي يملك الفضل العظيم فينبغي أن يطلب من جهته. أن قلت كيف يجوز الشرط في إخبار الله تعالى و المفروض أنه عالمٌ بعواقب الأمور و من المعلوم أنَّ منشأ الشرط الشكُّ والجهل بوقوع المشروط وعدم وقوعه.

قلت قد يجاب عنه تارةً بأنَّ الشرط مستلزم للجزاء وهذا القدر مسلمٌ لا شك فيه.

وَأَمَّا أَنْ وَقَعَ الشَّرْطُ مَشْكُوكَ فِيهِ أَوْ مَعْلُومَ فَذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَفَادٍ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ.

وَأُخْرَى بِأَنَّهُ سَلَّمْنَا أَنَّهُ يَفِيدُ الشَّكَّ إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى يَعَامِلُ الْعِبَادَ فِي الْجَزَاءِ مَعَامِلَةَ الشَّاكِّ وَعَلَيْهِ يَخْرُجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ**^(١).

وَالْحَقُّ فِي الْجَوَابِ أَنَّ الشَّرْطَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ الْعَالَمِ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ يَفِيدُ التَّحْرِيصَ وَالتَّرْغِيبَ إِلَى الْعَمَلِ فِي الْمَخَاطَبِ وَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.

نَعَمْ فِي غَيْرِهِ تَعَالَى قَدْ يَفِيدُ الشَّكَّ بَلْ هُوَ الْغَالِبُ فِيهِ لَجَهْلِ الْإِنْسَانِ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ.

وَأَتَمَّا قُلْنَا غَالِباً لِأَنَّهُ فِي الْإِنْسَانِ أَيْضاً قَدْ لَا يَفِيدُ الشَّكَّ وَالْجَهْلُ أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّبِيبَ إِذَا قَالَ لِلْمَرِيضِ إِذَا شَرِبْتَ الدَّوَاءَ تَصَحَّ لَيْسَ مَفَادُهُ جَهْلُ الطَّبِيبِ بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِأَنَّ هَذَا الدَّوَاءَ يَكْفِيهِ إِلَّا أَنَّهُ أَيُّ الطَّبِيبِ يَحْرُصُ الْمَرِيضَ وَيَرْغَبُهُ عَلَى الشَّرْبِ بِهَذَا الْكَلَامِ وَنَظَائِرُهُ فِي عَرَفِ الْعُقَلَاءِ كَثِيرَةٌ.

فَالْقَوْلُ بِأَنَّ الشَّرْطَ يَقْتَضِي الشَّكَّ أَوْ الْجَهْلَ فِي الْمُخْبِرِ بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ لَا مَعْنَى لَهُ وَإِذَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُمْكِناً فِي الْعَبْدِ الْجَاهِلِ فَمَا ظَنُّكَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا هُوَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

الْمَكْرُ فِي الْأَصْلِ صَرْفُ الْغَيْرِ عَمَّا يَقْصِدُهُ بِحِيلَةٍ فَإِنْ يَتَحَرَّى الْمَاكِرُ بِذَلِكَ فَعَلًا جَمِيلًا فَهُوَ مَمْدُوحٌ وَإِنْ يَتَحَرَّى بِهِ فَعَلًا قَبِيحًا فَهُوَ مَذْمُومٌ فَالْمَكْرُ مِنَ اللَّهِ فِي حَقِّ الْعِبَادِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَمْدُوحًا لَتَنْزَعِهِ عَنِ الْقَبَائِحِ وَالْمُتَنَزَّهِ عَنْهَا لَا يَفْعَلُ

فِي الْقُرْآنِ
فِي الْقُرْآنِ
فِي الْقُرْآنِ

جزء ٩

الْعِلَّةُ
الْعِلَّةُ
الْعِلَّةُ

القيح ولا يريد من غيره وأما المكر من غيره تعالى فقد يكون ممدوحاً وقد يكون مذموماً وهو الأكثر والملاك في المدح والذم ما ذكرناه إذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا** من المكر المذموم لصدوره عن الكافر في حق الرسول ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه قيل أي ليثبتوك في الوثاق، أو ليثبتوك في حبس، أو يقتلوك أو يخرجوك، من مكة.

قد أجمع المفسرون على نزول الآية أن الكفار اجتمعوا في دار الندوة و تشاوروا في أمر رسول الله فقال عمر بن هشام قيدوه تترىصون به ريب المنون. وقال أبو البخترى إخرجوه عنكم تستريحوا من آذاه لكم وقال أبو جهل ما هذا برأي ولكن إقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربونه بأسيا فهم ضربة رجل واحد فترضى حينئذ بنو هاشم بالذية فصوب إبليس هذا الرأي و خطأ الأولين و زعمهما فأوحى الله تعالى الى نبيه بذلك فأمره بالخروج فخرج الى الغار و بات على تلك الليلة على فراشه الى أن أصبح وكانوا يحرسونه الى الصباح ولما طلع الفجر ثاروا إليه فإذا على قالوا له أين صاحبك قال لا أدري فتركوه و خرجوا في أثره هذا كل الكفار في حق النبي و أما مكر الله في قوله: **وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** الذي نعبّر عنه بالممدوح فقد ظهر وجهه مما ذكرناه وهو أن الله أخبر رسوله بمكرهم فأمر بالخروج من مكة، فلم يقدروا على شيء **وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**.

يريدون ليطفئوا نور بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وقال بعض المحققين من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله انتهى.

وعلى ما ذكرناه في معنى المكر في حق الله وفي حق الأذميين يحمل قوله:

قال الله تعالى: وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَ مَكَرْنَا مَكَرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ^(١)

قال الله تعالى: وَمَكْرُؤًا وَ مَكَرَ اللَّهِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ^(٢)

قال الله تعالى: وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا^(٣)

قال الله تعالى: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ^(٤).

و الآيات كثيرة وبعد الوقوف على ما ذكرناه في معنى المكر في الموردين
فلا خفاء فيه فلا يقال كيف مكر الله.



١- النمل = ٥٠

٢- أُل عمران = ٥٤

٣- الرعد = ٤٢

٤- النحل = ١٢٧

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)
وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَرْسِلْ بَعْدَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آتَتْهُمُ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلِيكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ بَعْضُهُ وَنِعَمَ النَّصِيرُ (٤٠)

◀ اللغة

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، أساطير بفتح الألف وكسر الطاء جمع أسطورة بضم الألف و الطاء و سكون الواو ما سطر كذباً و ميناً و هذا قول المبرد و الزجاج و قيل هو جمع أسطر بفتح الألف و سكون السين و ضم الطاء و أسطر جمع سطر بفتح السين و سكون الطاء و عليه فهي أي الأساطير صيغة منتهى الجموع و زيدت الياء للمد و على أي التقديرين لا خلاف في معناها و هو القصص المكذوبة التي لا واقع لها.

يَصُدُّونَ، الصَّد المنع أي يمنعون.

مُكَاةً، مكا الطير يَمَكُو مُكَاءً، صفر و المكاء طائر و قيل المكاء صغير كصغير المكاء و هو طائر يكون بالحجاز له صغير.

وَتَصْدِيَةٌ، التَّصْدِيَةُ التَّصْفِيقُ يقال صَدَى يَصْدَى تصدِيَةً إذا صفق بيديه و منه الصَّدي صوت الجبل.

فَبَرَّكُمُهَا معناه تراكب بعضه فوق بعض كالرمل الركام و هو المتراكب يقال رَكَمَهُ يَرَكُمُهُ رَكْمًا وَتَرَاكُمُ تَرَاكُمًا و الباقي واضح.

◀ الإعراب

هُوَ الْحَقُّ القراءة المشهورة بالنصب ويُقرأ بالرفع على أن، هو، مبتدأ و الحق، خبره و الجملة خبر كان مِنْ عِنْدِكَ حَالٌ مِنْ معنى الحق أي الثابت من عندك مِنْ السَّمَاءِ متعلق بأمطر، و يجوز أن يكون صفة لحجارة أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ أي في أن لا يعذبهم فهو في موضع نصب أو جرّ على الاختلاف و مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ الجمهور على رفع الصلوة و نصب المكاء و هو ظاهر و قرأ الأعمش بالعكس و هي ضعيفة لِيَمِيزَ بالتشديد و التخفيف أشهر و عليه المصاحف و بَعْضُهُ بدل من الخبيث بدل البعض أي بعض الخبيث على بعض نعم المولى المنصوص بالمدح محذوف و التقدير نعم المولى الله سبحانه.

﴿التفسير﴾

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

قيل قائل هذا الكلام هو النَّصْر بن الحرث وإتبعه قائلون كثيرون وكان من مرده قريش سافر إلى فارس والحيرة وسمع من قِصص الرِّهْبَان والأناجيل وأخبار رستم وإسفند يار ويرى اليهود والنصارى يركعون ويسجدون، قتله رسول الله ﷺ صبراً بالصَّفْرَاء بالاثيل فيها فيصرفه من بدر ومعنى قد سمعنا أي قد سمعنا ولا نطيع أو قد سمعنا منك هذا.

وقولهم لو نشاء أي لو نشاء القول لقلنا مثل هذا الذي تلووه وذكر على معنى المتلو وهذا القول منهم على سبيل البهت والمصادقة وليس ذلك في استطاعتهم فقد طولبوا بسورة منه فعجزوا وكان أصعب شيء اليهم الغلبة وخصوصاً في باب البيان، وقيل أن الله تعالى أخبر في الآية عن عناد الكفار مباہنتهم للحق بأنهم بلغوا في ذلك إلى رفع الحق بما ليس فيه شبهة وهو أنه إذا تلى عليهم آياته يعني القرآن قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقد أبان التحدي كذبهم في ذلك وتخرصهم فيه بما ظهر من عجزهم عن سورة مثله.

أقول معنى الآية ظاهر لا خفاء فيه وحاصل الكلام في هو أن الكفار المعاندين لما رأوا القصص في القرآن قالوا بهذه المقالة أعني بها قولهم: إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي ليس القرآن إلا هذه ولم يعلموا أن مقصص القرآن ليست من سنخ الأساطير التي لا واقع لها بل هي مواعظ وحكم لمن يتدبر فيها مضافاً إلى فصاحة القرآن وبلاغته وهذا معلوم لا كلام فيه إلا أن المعانيد المستهزء يقول كذباً وإفتراء بما لا حقيقة له ولا دواء لداء العناد إلا الموت وهذا الكلام لا يختص بهؤلاء الكفار في صدر الإسلام بل قد يوجد منهم في كل عصر وزمان وفي زماننا هذا أيضاً نجد منهم من يقول بأفطع وأشنع مما قالوه فيما مضى ولا يخفى على أحد أن ما قالوه أولاً وثانياً وثالثاً

الى زماننا هذا لم يكن إلا مجرد إنكار للحقّ ولم يقيموا على ما إدعوه دليلاً ولم يأتوا بمثل القرآن أصلاً وهو واضح.

وَإِذْ قَالُوا اٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

أنظر الى عنادهم ولجاجهم إذ قالوا، أي هؤلاء الكفار، اللهم أن كان هذا، أي القرآن، هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة الخ...
 قيل أنّ الطّالب لذلك كان النّضر بن الحارث بن كلدة فقتله النّبي يوم بدر صبراً.

فقال يا رسول الله من للصبيّة، قال ﷺ النار.

وقيل القاتل هو عقبة بن أبي معيط والمطعم بن عدي قتل هؤلاء صبراً من جملة من أسروا في النّضر نزل قوله تعالى: سَأَلْنَا سَأَئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ^(١).
 وقال بعض المفسّرين من العامة القائل هو أبو جهل لما رواه البخاري و مُسلم.

وهذا القول لا يعتدّ به وفي قولهم من السّماء إشارة الى نقطة خفيّة مقابلتهم مجي الأمطار من الجهة التي ذكر رسول الله ﷺ أنّه يأتيه الوحي من جهتها أي أنّك يا محمّد تذكر أنّه يأتيك الوحي من السّماء فأتنا بعذاب من الجهة التي يأتيك منها الوحي وأنما قلنا ذلك لأنّه كان يحسن أن يعبر عن إرسال الحجارة عليهم من غير جهة السّماء بقولهم فأمطر علينا حجارة وكيف كان قالوا ذلك على سبيل الإعتقاد بأنّ ما أتى به ليس بحقّ وقيل على سبيل الحسد والعناد مع علمهم أنّه حقّ.

وقيل أنّها نزلت لما قال رسول الله لقريش أنّ الله بعثني أن أقتل جميع ملوك الدّنيا وأجرّ الملك اليكم فأجيئوني الى ما أدعوكم اليه تملكوا بها العرب

وتدين لكم بها العجم وتكونوا بها ملوكاً في الجنة فقال أبو جهل اللهم أن كان هذا، الذي يقول محمد، هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة الآية حسداً لرسول الله ﷺ.

ثم قال كنا وبني هاشم كفرسي رهان نحمل إذا حملوا ونطعن إذا طعنوا و نوقد إذا وقدوا فلما إستوى بنا وبهم الركب قال قائل منهم منّا نبي، لا نرضى بذلك أن يكون في بني هاشم ولا يكون في بني مخزوم.

وقيل في نزولها، بينا رسول الله جالساً وذكر كلاماً طويلاً في فضل عليّ الى أن قال فغضب الحارث بن عمرو الفهري فقال اللهم أن كان هذا هو الحق الآية فأنزل الله تعالى عليه مقالة الحارث ونزلت هذه الآية: **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ.**

وقيل لما نصب رسول الله ﷺ علياً يوم غدير خم فقال: من كُنْتُ مولاه فهذا عليّ مولاه طار ذلك في البلاد فقدم على النبي النعمان بن الحارث الفهري فقال أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت من كنت مولاه فعليّ مولاه فهذا شيء منك أو أمر من عند الله فقال ﷺ والله الذي لا إله إلا هو هذا من الله فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول: **اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً فَرَمَاهُ اللَّهُ بِحَجَرٍ عَلَى رَأْسِهِ فَقتله انتهى.**

أقول والذي يقوي من بين هذه الأقوال في النظر هو القول الأخير وهو أنها نزلت فيمن أنكر الولاية وقال لرسول الله ما قال علي ما مرّ وذلك لأن كلمة، هذا، يشار بها إلى الشيء المشخص الحاضر.

وأما مسألة الأحكام والدين والنبوة فلا تناسب هذه المقالة والله أعلم.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ

أخبر الله تعالى نبيه على وجه الإمتنان عليه وإعلامه منزلته عنده أنه تعالى لا يعذب هؤلاء الكفار بهذا العذاب الذي إقترحوه على وجه الفساد للحقّ و أنت ترى يا محمّد فيهم موجود وهكذا لا يعذبهم وهم يستغفرون ويقولون يا ربّ غفرانك ولكن يعذبهم على شركهم في الآخرة وفي هذا الكلام إشارة بل دلالة على أنّهم أي الكفار كانوا مستحقّين للعذاب الذي طلبوه منه تعالى و لكن الله تعالى لم يعذبهم لوجود الرّسول فيهم ولأنّهم كلّهم أو بعضهم كانوا من المستغفرين.

فقد روي أنّ أبا جهل قال بعد قوله: إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ غفرانك اللهم، فأنزل الله في ذلك وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ حين قال غفرانك اللهم وهذا هو المراد بقوله وهم يستغفرون، ومحصل الكلام هو أنّ الله تعالى أحرّ العذاب عنهم في الدّنيا مع كونهم مستحقّين له لأجل هذين الأمانين أعني بهما رسول الله والإستغفار.

روي في الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً قال، فقليل يا رسول الله إمّا حياتك فقد علمنا فما لنا في وفاتك فقال صلى الله عليه وآله أمّا في حياتي فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ. وأمّا في مماتي فتعرض على أعمالكم فاستغفرلكم انتهى.

أقول يظهر من هذه الرواية وأمثالها أنّ المراد بقوله: وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ جميع المسلمين ومنهم الرّسول ولكن ظاهر الآية يدلّ على وجود الإستغفار في الكفار وذلك لأنّ قوله: وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أي هؤلاء الكفار، اللهم إلا أن يقال بأنّ المراد بقوله: وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ.

غير هؤلاء الكفار الذين طلبوا العذاب بل المراد بهم من بقي من هؤلاء من المؤمنين في مكة بعد خروج المعاندين منها.

فقد روي عن ابن عباس وعطية وأبي مالك وغيرهم أنه لما خرج النبي ﷺ من مكة بقي فيها بقية من المؤمنين يستغفرون، وعليه فقوله تعالى: وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أي هؤلاء المؤمنين الذين بقوا في مكة وهذا مما لا إشكال فيه ولكنه أيضاً خلاف ظاهر الآية إذ لو كان كذلك لينبغي أن يقال وبعضهم أو منهم من يستغفر ولم يقل هذا بل قال: وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ.

وقال بعضهم أراد بذلك أنه تعالى لا يعذبهم بعذاب الإستئصال في الدنيا وهم يقولون يارب غفرانك ولكن يعذبهم على شركهم في الآخرة وهذا أوفق بنظم الكلام لأنهم كانوا يقولون يارب غفرانك فعبر الله تعالى عنه بالإستغفار وأفاد أنه أمان لهم من العذاب كما أن وجود الرسول فيهم أمان لهم منه ففي نهج البلاغة حكى عن أمير المؤمنين عليه السلام أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام أنه قال: كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به.

أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله.

وأما الباقي فالإستغفار قال الله تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ^(١).

وقال عليه السلام: في موضع آخر عجبت لمن يقنط ومعه الإستغفار. وعن كتاب ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: كان رسول الله ﷺ يقول، الإستغفار لكم حصن حصين من العذاب فمضى أكبر الحصنين وبقي الإستغفار فأكثرُوا منه فإنه حاة للذنوب.

قال الله عز وجل: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

هذا ما قيل أو يقال في تفسير الآية وأنت ترى إذا تأملت في التفسير ترى المفسرين إعتدوا في تفسير الآية على شخص الرسول من حيث كونه أماناً لأهل الأرض في حياته.

ولنا في المقام كلام لم يتنبهوا له أولم يذكره وهو أن الرسول جعله الله أماناً لمقام خلافته وإمامته على الخلق وأنه حجة من الله على خلقه واسطة في الفيض بين الخالق والمخلوق وأمثال ذلك من العناوين الزائدة على وجوده وشخصه مع قطع النظر عنها وإذا كان كذلك فهذا المقام أعني به كونه أماناً، ثابت لمن كان بعده من أوصيائه وخلفاء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وذلك لوجود الملاك فيهم من حيث الخلافة والإمامة وكونهم حجج الله على خلقه بعد الرسول وأما قلنا بذلك لوجهين. **أحدهما:** عدم القول بالفصل فكلما ثبت للرسول بإستثناء مقام النبوة ثابت لأوصيائه ومن المعلوم أن كونه ﷺ أماناً ليس لأجل نبوته فحسب بل لأجل أنه كان حجة الله على خلقه ولا فرق في ذلك بينه وبين أوصيائه لقوله ﷺ: يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، خرجت النبوة بحكم الإستثناء وبقي الباقي تحت الحكم.

ثانيهما: قوله ﷺ: أنا وعلي من نور واحد، ومقتضى الوحدة هو ثبوت ما لأحدهما للآخر خرجت النبوة وبقي الباقي فكلما ثبت للرسول ثبت لوصيه وأوصيائه ومن جملة ما ثبت له ﷺ كونه أماناً لأهل الأرض مادام حياً فهذا ثابت لأوصيائه من بعده وهو المطلوب.

وهذا الذي ذكرناه لا ينافي كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: كان في الأرض أمانان من عذاب الله فرفع أحدهما فدوكم الآخر، وذلك لأنه لا شك أن الأمان، الأول أعني به رسول الله قد رفع بالموت وبقي الآخر أعني به الإستغفار.

وهذا لا يدل على أن الإستغفار بعد رسول الله أمان بمعنى أنه لا أمان غيره بل الكلام يدل على كونه أماناً بعده وهو لا ينافي وجود غيره أيضاً كما أن رفع حدهما أعني به الرسول لا يدل على رفع الأمان الأول بالكلفة إلى يوم القيامة بل يدل على رفع الأول وهو مما لا خلاف فيه فأن الرسول ﷺ قد مات و أما الحجة على الخلق لم تمت لقولهم ﷺ لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها، فلو لم تكن الحجة أماناً فما معنى الحديث.

وقد ورد في شأن الحجة صاحب العصر والزمان، بيمينه رزق الوري و بوجوده ثبتت الأرض والسماء، ولا نعني بالأمان إلا هذا ومحصل الكلام هو أن الآية قد أثبتت الأمان لرسول الله في حياته ولم تنفيه لمن بعده من الأوصياء.

ومن المعلوم أن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه ومجرد كون الخطاب للرسول لا يدل على الإنحصار فإن القرآن أنزل عليه ﷺ فلا محالة يكون الخطاب إليه كما ترى في كثير من الآيات ويؤيده ما إستظهرناه ما رواه في كتاب علل الشرائع بأسناده عن جابر بن يزيد الجعفي قال:

قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر ﷺ لأي شيء يحتاج إلى النبي والإمام فقال ﷺ: لبقاء العالم على صلاحه وذلك أن الله عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام قال الله عز وجل: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

وقال النبي ﷺ النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون، يعني بأهل بيته الأئمة عليهم السلام الذين قرن الله عز وجل طاعتهم بطاعته انتهت^(١).

أقول هذا الحديث كما ترى صريح في المدعى و دونه خرط القناد.

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ إِنْ أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

كلمة، ما، خرجت مخرج الإستفهام ومعناه إيجاب العذاب والمعنى لم لا يعذبهم فعلمهم أعني به الصّد والمنع عن المسجد الحرام.

وقيل الصّد هنا بمعنى الإعراض أي وهم يعرضون عن المسجد الحرام الصّد هو الإعراض عن الشّي من غير حيلولة بينه وبين غيره والمراد هنا المنع وما كانوا أَوْلِيَاءَ جمع ولي وهو الذي يستحق القيام بأمر الشّي ويكون أحقّ به من غيره فعلى هذا، الله تعالى ولي المؤمنين دون المشركين، قال الله تعالى ذلك لأنّ المشركين قالوا نحن أولياء المسجد فردّ الله ذلك عليهم وقال، وما كانوا أولياءه.

ثم أخبر الله تعالى أنّ أولياء المسجد هم المتّقون فقال: إِنْ أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ كلمة، إن بمعنى ليس أي ليس أولياء المسجد إلا المتّقون.

وقيل ليس أولياء الله إلا المتّقون، والأوّل أظهر وأوفق بنظم الكلام ثم أنّهم اختلفوا في هذا التعذيب فقال قوم هو الأوّل أعني به إستئصالهم جميعاً إلا أنّه لم يقع لما علم من إسلام بعضهم وإسلام بعض ذراريهم.

الثاني: قتل بعضهم يوم بدر، وقال ابن عباس الأوّل عذاب الدنيا.

الثاني: عذاب الآخرة فالمعنى وما كان الله تعالى معذب المشركين لإستغفارهم في الدنيا وما لهم أن لا يعذبهم الله في الآخرة ومتعلّق، لا يعلمون، محذوف والتقدير لا يعلمون أنّهم ليسوا أولياءه بل يظنون أنّهم أولياء قوله: أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إشارة الى وجود قليل من العلماء بأنهم ليسوا أولياء البيت، فيهم وهو كذلك.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

بمعنى ليس وهذه الآية كأنها جواب عن سؤالٍ مقدّر وهو أن يقال كيف يعذبهم الله وأنهم يصلّون عند البيت فقال تعالى في الجواب وما كان صلاتهم أي ليس صلاتهم عند البيت بصلاةٍ واقعاً بل هي منهم ليست إلا مكاءً وتصدية أي التّصفير والتّصفيق وذلك لأنّ الكفّار كانوا يطوفون حول البيت عراة رجالهم ونساءهم مشبكين بين أصابعهم يصفّرون ويصفّقون، ذلك إذا قرأ الرّسول يخلطون عليه في صلاته ونظير هذا المعنى قولهم كانت عقوبتك عزلتك أي القائم مقام العقوبة العزل كما قال الشّاعر:

إذا هم سوداً أو مدحرجة سمرّاً أقام مقام العطاء القيود والسيّاط
كما أقاموا مقام الصّلاة المكاء والتّصدية.

وقال ابن عباس كان ذلك عبادة في ظنّهم، ومكاء بضّم الميم مصدر مكأ يمكنوا وجاء فعال ويكثر فعال في الأصوات كالصّراخ، قال الشّاعر:

وحليل غانية تركت مجذلاً تمكوا فريسته كشدق الأعلم
أي نصّوت.

وقال السّدي المكاء الصّفير على لحن طائر أبيض بالحجاز قال الشّاعر:

إذا غرّد المكاء في غير روضةٍ فويل لأهل الشّاء والحمراء
وقال قتادة المكاء ضربٌ بالأيدي والتّصدية الصّياح والجامع بين هذه الأقوال هو أنّ الكفّار كانوا يفعلون ذلك ويريدون أن يشغلوا بذلك رسول الله ﷺ عن الصّلاة.

روي بعضهم عن بعض أقوياء العرب أنّه كان يمْكُو على الصّغاء فيسمع من جبل حرّاء وبينهما أربعة أميال وعلى هذا يستقيم تعبيرهم وتنصيبهم بأنّ شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رغبة ولا رهبة بل كانت مكاءً وتصدية

من نوع اللُّعب ولكنهم كانوا يتزيدون فيها وقت قراءة النبي ليشغلوه وأمته عن القراءة والصلاة.

قال القرطبي في تفسيره ففيه ردٌّ على الجهال من الصوفية الذين يرقصون و يصفقون (و يصعقون) وأما قوله: **قَدْ وَقُوا أَلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** للكفار والمراد بالعذاب عذابهم في الدنيا، أو في الآخرة أو فيهما على اختلاف الأقوال فيه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله و غرضهم المنع عن سبيل الله أعني به دين الله الذي أتى به محمد ﷺ و سمي سبيل الله لأن بسلوكه و إتباعه يبلغ ما عند الله ولا مدخل للعلم فيه لأنهم قصدوا الصّد عنها وهي سبيل الله على الحقيقة علموا بها أولم يعلموا فأَنَّ القصد هو الأصل في المقام.

قيل أنها نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا أثني عشر رجلاً، أبو جهل بن هشام، و عتبة وشيبة و بينه و منبه إبن حجاج، و أبو البخري بن هشام، و النضر بن الحرث، و حكيم بن حزام، أبي بن خلف، و زمعة بن الأسود، و الحرث بن عامر بن نوفل، و العباس بن عبد المطلب و كلهم من قريش و كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر.

و قال مجاهد و السدي و ابن جبير نزلت في أبي سفيان بن حرب إستأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي ﷺ سوى من إستجاش من العرب و فيهم يقول كعب بن مالك:

أحابيش منهم حاسر و مقنّع
و ثلاث مئين إن كثرنا و أربع

فجنّا إلى موج من البحر وسطه
ثلاثة آلاف و نحن بقيّة

قيل أنه أنفق على الأحابيش وغيرهم أربعين أوقية من ذهب.

وقال ابن إسحاق عن رجالة لما رجع قريش إلى مكة من بدر ورجع أبو سفيان كلّم أبناء من أصيب ببدر ففعل بهم ما فعل من الأمانة والأقوال في نزول الآية مختلفة ولا يهمنّا البحث فيها إذ لا شك في أصل القضية.

وأما تعيين الشخص أو الأشخاص فلا نحتاج إليه ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون أما الحسرة فلاّهم لم يصلوا إلى ما قصدوا في إنفاق الأموال لعدم تحقق الصد والمنع عن سبيل الله وأما أنهم مع ذلك يغلبون فواضح لأنهم قتلوا وأسرّوا يوم بدر كما هو مسطور في التواريخ ففي الحقيقة صاروا مصداقين لقوله تعالى (خسر الدنيا والأخرة ذلك هو الخسران المبين) هذا ما قالوه في تفسير الآية وظاهرها يقتضي ذلك أيضاً فإن الآية نزلت في ذم الكفار الذين كانوا بمكة وأذا رسول الله ﷺ بأنواع الأذى ثم بعد هجرته ﷺ أيضاً لم يتركوا الأذى بل أوقدوا نيران الحرب مرة بعد أخرى وأنفقوا أموالهم في سبيل الله ظناً منهم أنه الحق ولكنهم لم يصلوا إلى ما قصدوا وأرادوا بل وقعوا في الخسران والحسرة في الدنيا والأخرة وأنت إذا أمعنت النظر في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و علمت أنه لم يبق لهم إلا الحسرة والندامة والخسران كما هو صريح الآية لدريت أن الآية وأن كان سبب نزولها هؤلاء الكفار في صدر الإسلام إلا أن خصوصية السبب لا توجب رفع اليد عن العموم فالآية خاصة سبباً ومورداً وعمّة ودلالة فإن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ كذا تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، حكم عام يشمل جميع الكفار الموصوفين بهذه الصفة إلى يوم القيامة.

و الوجه في ذلك أن القرآن لم ينزل على قوم دون قوم وأحكامه أيضاً كذلك فإن الإشتراك في التكليف يقتضي ذلك فحلاله حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك وأوامره ونواهيه أيضاً تشمل الكل إذا عرفت هذا الحكم منه

تعالى ثابت لجميع الكفار في كل عصر وزمان والكفر أيضاً لا يختص بالوجود والإنكار بل يشمل الكفر بالنعم أي كفران النعمة فالآية تشمل المسلم الذي ينفق أمواله في طريق الباطل ليصدّ عن الحقّ وأن لم يكن مشركاً كافراً بالتوحيد والنبوة والمعاد اذا كان قصده ترويج الباطل وإطفاء نور الحقّ وهذا لا يختص بالكفار، والمشرّكين في صدر الإسلام أو بعده الى يوم القيامة يل يعمّ كلّ من كان كذلك فأنّه لا يبقى له إلا الحسرة والخسران واذا كان مأل من أنفق ماله كذلك على هذا المنوال فما ظنك بمن أنفق أول الناس في إحياء الباطل وإماتة الحقّ فأَنْ ذنبه أعظم وحسرتة أشدّ وأدوم لأنّه قد ارتكب ذنبين:

أحدهما: التّصرف في مال الغير بدون إذن صاحبه وهو الغصب.

الثاني: صرف المال في طريق الباطل ليصدّ عن الحقّ بزعمه ومصاديقه كثيرة في المسلمين بعد رسول الله و من أعظم مصاديق هذه الرؤية الخبيثة الرديئة الخلفاء واحداً بعد واحد ومن حذي حذوهم من الحكّام، ألا ترى أنّهم بعد رسول الله و غصبهم الخلافة كيف أنفقوا أموال الناس ليصدّوا عن سبيل الله.

ومن المعلوم أنّ سبيل الله في الآية وفي غيرها طريق الحقّ، وهو منحصر في طريق أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً، فمن أنفق المال لصدّ هذا الطريق فهو من أعظم مصاديق الآية لما ذكرناه، واذا كان الأمر على هذا المنوال فلا نحتاج الى بسط الكلام في المقام بعد شهادة التاريخ بأنهم أي الخلفاء أنفقوا أموال المسلمين في جعل الأحاديث المكذوبة ثمّ نسبوها الى رسول الله ﷺ مثل قولهم نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.

وقولهم أصحابي كالتجم بأيتهم إقتديتم إهتديتم، وقوله متعتان محلّلتان في زمن النّبي أنا أحزّمهما الخ....

و أمثال ذلك ممّا أبدعوه بعد رسول الله وجعلوه من الدّين ثمّ بعد ذلك وصلت النّوبة الى أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا في حقّه ما قالوا ولم يتّبعوا بذلك بل أنفقوا أموال المسلمين.

في سبّه عليه السلام ولعنه على ألسنة الخطباء والحكّام والعوام كالأنعام فأعطى معاوية بن أبي سفيان سمرة بن جندب أموالاً كثيرة وأمره أن يخطب النّاس و يقول لهم أنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول أنّ قوله تعالى: **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ^(١) نزل في حقّ عبد الرّحمن بن ملجم قاتل عليّ ابن أبي طالب عليه السلام.

وقد إتفق المفسّرون على أنّه الآية نزلت في حقّه ليلة المبيت ونظائره كثيرة فإن لم يكن هذا من مصاديق الصّدق فلم يكن لها مصداق أصلاً الأمر في أشباهه ونظائره وكما أنّ المشركين في همد الإسلام لم يصلوا الى آمالهم ومقاصدهم بل حصّدوا الثّبور والندامة كذلك أتباعهم وأولادهم لم يصلوا الى مقاصدهم يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. **وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ** وهذا إشارة الى العقاب المعدّ لهم في والاخرة مضافاً الى الحسرة والندامة والقتل والأسر في الدّنيا وهو ظاهر.

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

قرأ حمزة والكسائي، ليُمِيزُ، مضمومة الياء مشدّدة والباقون بفتح الياء تخفيفاً وهذا هو الأشهر وعليه المصاحف مع أنّ المآل واحد.

قال المفسّرون المراد بالخبيث الكافر والطّيب المؤمن والمعنى إنّنا سقنا الكفّار الى جهنّم ليميز الله الخبيث من الطّيب فإنّ التّمييز هو إخراج الشّيء عمّا خالفه ممّا ليس منه وإلحاقه بما هو منه.

والخبِيثُ الرَّدِّيُّ من كُلِّ شَيْءٍ وَضَدَهُ الطَّيِّبُ وَقِيلَ الْمَعْنَى لِيُمَيِّزَ اللَّهُ مَا أَنْفَقَهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِمَّا أَنْفَقَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي مَعَاصِيهِ، وَهَذَا مَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ وَقَوْلُهُ: **وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ** قِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْكَافِرَ عَلَى أَسْوَأِ حَالٍ كَالْمَتَاعِ وَالرَّكَامِ هَوَانًا وَتَحْقِيرًا وَإِذْلَالًا وَقَوْلُهُ فَيُرَكِّمُهُ جَمِيعًا مَعْنَاهُ تَرَاكِبَ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ كَالرَّمْلِ الرَّكَامِ وَهُوَ الْمُتْرَاكِبُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ السَّحَابِ: **ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا** ^(١).

وَقِيلَ يُرَكِّمُهُمُ اللَّهُ مَعَ مَا أَنْفَقُوا فِي جَهَنَّمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ) ^(٢).

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ إِذَا رَكَّمَهُ جَمِيعًا يَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمُ الْخَاسِرُونَ بِإِرْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْكَفْرِ الْمُؤَدِّي إِلَى عَذَابِ الْأَبَدِ.

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ مَعْنَى الْكَلَامِ، **لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** بِتَأْخِيرِ عَذَابِ كَفَّارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَسْتَخْرِجَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ أَصْلَابِ الْكُفَّارِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ فَعَلِيهِ يَكُونُ التَّمْيِيزُ فِي الدُّنْيَا وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ وَالحَقُّ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ لِأَنَّ قَوْلَهُ قَبْلَ هَذَا الْكَلَامِ، **وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ** دَلِيلٌ عَلَى ثَمِّ قَالَ وَمِنَ الْمَفْسِّرِينَ مَنْ تَأَوَّلَ الْخَبِيثَ وَالطَّيِّبَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَقَالَ الْمَعْنَى بِالْخَبِيثِ الْمَالُ الَّذِي أَنْفَقَهُ الْمُشْرِكُونَ كَمَا لَأَبِي سَفْيَانَ وَأَبِي جَهْلٍ وَغَيْرَهُمَا الْمُنْفَقُ فِي عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَالطَّيِّبُ هُوَ مَا أَنْفَقَهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا لَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعِثْمَانُ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ هَذَا التَّأْوِيلُ خِلَافَ ظَاهِرِ الْآيَةِ وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ خِلَافُ الْعَقْلِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَحْثَ فِي الْآيَةِ يَدُورُ مَدَارَ أَشْخَاصِ الْكُفَّارِ لَا أَمْوَالِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فَإِنَّ الْمَالَ لَا ذَنْبَ لَهُ وَأَمَّا الذَّنْبُ ثَابِتٌ لِصَاحِبِهِ بَلْ نَقُولُ الْمَالَ بِمَا هُوَ هُوَ لَا يَتَصَفَّ

بالخبِيث والطَّيِّب و أُنَمَا يَتَّصِفُ بِهِمَا مَجَازاً لَا حَقِيقَةً بِإِعْتِبَارِ صَاحِبِهِ فَأَنْ جَمَعَهُ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الشَّرْعِ يُقَالُ أَنَّهُ خَبِيثٌ وَإِنْ جَمَعَهُ عَلَى طَبَقِ الشَّرْعِ وَ الْعَقْلُ يُقَالُ لَهُ الطَّيِّبُ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعَوَانِينَ طَارِيَانِ عَلَيْهِ وَ هَذَا بِخِلَافِ صَاحِبِ الْمَالِ فَإِنَّهُ يَتَّصِفُ بِهِمَا بِمَقْتَضَى ذَاتِهِ وَأُظُنُّ أَنَّ غَرَضَ الْمَتَأَوَّلِ مِنْ تَأْوِيلِهِ هُوَ قَوْلُهُ كَمَالُ أَبِي بَكْرٍ وَ عُمَرُ وَ عُثْمَانُ وَ أَنَّهُ لِأَجْلِ هَذَا أَوَّلُ الْآيَةِ وَلَيْتَ شَعَرِي أَيُّ مَالٍ كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ وَ عُمَرُ وَ عُثْمَانُ.

وَمِنْ أَثْبَتَ لَهُمُ الْمَالُ لِيُقَالُ أَنَّهُمْ أَنْفَقُوهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَ طَاعَةِ رَسُولِهِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالُ أَنَّهُمْ بَعْدَ تَصَدِّيهِمْ لِلْخِلَافَةِ وَاسْتِيلَاءِهِمْ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ وَأَخْذِهِمُ الْأَمْوَالَ صَارُوا أَغْنِيَاءَ وَأَنْفَقُوا أَمْوَالَ النَّاسِ فِيمَا أَنْفَقُوا وَ هَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ مَوْرَدِ الْبَحْثِ وَ قَدْ صَدَّقَ رَسُولُ اللَّهِ حَيْثُ قَالَ مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ لَا دِينَ لَهُ، نَعَمْ حَبَّ الشَّيْءِ يَعْمي وَيَصْمُ.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ أَنْ يَقُولَ لِلْكَافِرِ أَنْ يَنْتَهُوَ، أَيُّ أَنْ أَنَابُوا وَرَجَعُوا عَنِ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي وَ تَابُوا مِنْهَا تَوْبَةً خَالِصَةً يَغْفِرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَ مَضَى مِنْهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ وَ الْأَقْوَالِ وَ أَنْ يَعُودُوا وَ يَرْجِعُوا إِلَى الْمَعْصِيَةِ كَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ فِي تَعْجِيلِ الْعِقَابِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْإِسْتِنْصَالِ وَ مَا جَرَى مَجْرَاهُ مِنَ الْقَتْلِ وَ الْأَسْرِ يَوْمَ بَدْرٍ وَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا مَرَّ فِيهِ وَ مُحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: **يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** بَعْدَ التَّوْبَةِ وَاقِعًا وَ هَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ فَإِنْ كَانَ الْمُنْتَهِي كَافِرًا يَغْفِرُ لَهُ مَا قَدْ سَلَفَ فِي أَيَّامِ كُفْرِهِ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَ هَذَا مِمَّا إِنْتَقَى عَلَيْهِ الْكَلَّ وَ لَمْ يَخَالَفْ فِيهِ أَحَدٌ وَ أُنَمَا الْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ: **وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ**.

وَ أَنَّهُ مَا الْمُرَادُ بِالْعُودِ فِي الْآيَةِ.

فقال قوم المراد به العود الى المعصية لأنَّ الإنتهاء عنها لا يكون مع الإصرار عليها فأَنَّ الإصرار معصية وقد ذكرناه في أوّل البحث، وعليه فالمراد بالعود العود الى قتال رسول الله، وقيل وأن يعودوا الى الإرتداد بعد الإسلام وبه فسرّ الكلام أبو حنيفة وإحتج بالآية على أنَّ المرتد إذا أسلم فلا يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الرّدة وقبلها.

وقال القرطبي قوله تعالى: **إِنْ يَنْتَهُوا** يريد عن الكفر والحامل على ذلك جواب الشرط وهو قوله: **يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ** ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنعة عن الكفر ولقد أحسن القائل حيث قال:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ثم أنتهى عما أتاه وإقترف
لقوله سبحانه في المُعترف أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

أمر الله نبيه والمسلمين بالقتال مع الكفار حتى لا تكون فتنة، وهى الكفر من غير، أهل العهد وما جرى مجراه من البغي لأنهم يدعون الناس الى مثل حالهم بتعزّزهم على أهل الحقّ وتناولهم فيفتنهم في دينهم.
وقال ابن عباس والحسن معناه حتى لا يكون مشرك.

وقال ابن إسحاق حتى لا يفتن مؤمن عن دينه قال والفرق بين قوله، حتى لا يكون فتنة وبين قوله حتى لا يكون كفر هو أنَّ الدليل والأسير والشريد لا يفتن الناس في دينهم لأنّ الدّل لا يدعو الى حال صاحبه كما يدعوا العزّ انتهى.
وقال الزّمخشري في الكشف معناه الى أن لا يوجد فيهم شرط قطّ، و يكون الدّين كلّهُ لله.

وأما الطّبري وغيره من المُفسّرين قالوا المراد بالفتنة هنا الشّرك.
وانا اقول قوله تعالى: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** ذكره الله تعالى فى موضعين من كتابه.

احدهما: في سورة البقرة:

قال الله تعالى: وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ
أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ

ثانيهما: في المقام أعني به سورة الأنفال إلا أنه تعالى قال هناك، ويكون
الذين لله، وهاهنا ويكون الذين كله لله، وقال هناك فأن أنتهوا فلا عدوان إلا
على الظالمين.

وفي المقام قال فأن أنتهوا فأن الله بما يعملون بصير:

قال الله تعالى: فَفَاتِلُوا آلَ لُحْيٍ حَتَّى تَفْجَأَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ^(١)

قال القرطبي في تفسير الآية في سورة البقرة و قاتلوهم، أمرٌ بالقتال لكل
مشارك في كل موضع على من رآها ناسخة قال المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال
الله فيهم، فأن قاتلوكم الآية والأول أظهر وهو أمرٌ بقتالٍ مطلق لا بشرط أن
يبدء الكفار دليل ذلك قوله تعالى: يَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ.

وقال عليّ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله والحديث
على أن سبب القتال هو الكفر لأنه قال حتى لا تكون فتنة أي كفر فجعل الغاية
عدم الكفر وهذا ظاهر انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وقال في تفسير الآية في المقام أعني به سورة الأنفال: وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ أي كفر إلى آخر الآية تقدّم معناها وتفسير ألفاظها في سورة البقرة
انتهى.

أقول وقد نقلنا عنه ما ذكره في سورة البقرة، هذا ما قالوه في تفسير الآية و
حاصل ما ذكره هو أن الله تعالى أمر نبيه وجميع المسلمين بالقتال حتى لا
تكون فتنة أي كفراً و شركاً.

ونحن نقول في هذا التفسير إشكال واضح وهو أنَّ الفعل أعني به القتال لم يقيّد بزمانٍ خاصٍّ بل قيّد بحصول الغاية أعني بها الفتنة و اذا كان كذلك فالقتال واجب حتّى حصلت الغاية وهي رفع الفتنة والكفر عن العالم ويكون الدّين كلّهُ لله وبعبارة أخرى وجب القتال لهؤلاء الكفّار الى أن لا يبقى من الكفر والشّرك عيّنٌ ولا أثر ومن المعلوم أنَّ هذا الحكم عامٌّ لجميع المسلمين لقوله تعالى: **وَقَاتِلُوهُمْ** وهذا بالنسبة الى المسلمين في صدر الإسلام واضح. وأما بالنسبة الينا بعدهم فالأدلة الدّالة على الإشتراك في التّكليف أوّلاً ولأجل حصول الغاية ثانياً ولازم ذلك هو وجوب القتال في كلّ عصرٍ وزمانٍ بعد النّبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أيضاً الى يوم القيامة.

أَنْ قُلْتُ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ كَانَ مَخْتَصّاً بِزَمَانِ النَّبِيِّ فَحَسَبَ وَأَمَّا بَعْدَ فَلَا، قُلْتُ هَذَا يَتِمُّ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْفِعْلُ مَغِيبَ بَغَايَةٍ وَأَمَّا إِذَا قِيدَ بِهَا مَا الْأَمْرُ بِالْفِعْلِ بَاقٍ حَتَّى تَحْصُلَ الْغَايَةُ وَحُبْتُ لَمْ تَحْصُلْ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ فَلَا مُحَالَةَ بَقِيَ الْفِعْلُ الْمَأْمُورُ بِهِ بِحَالِهِ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يُقَالَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ كَانَ مَخْتَصّاً بِالنَّبِيِّ فَقَطْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنْهُمْ فَقَطْ وَهَذَا مِمَّا لَا يَقُولُ بِهِ عَاقِلٌ ذَهَاباً مُضَافاً إِلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَيَنْبَغِي أَنْ تَحْصُلَ الْغَايَةُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ إِذَا النَّبِيُّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لَمْ يَكُنْ فِيمَا أَمَرَ بِهِ قَاصِراً وَلَا مَقْصُوراً وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الدِّينَ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ وَحْدَهُ فِي زَمَانِهِ بَلِ الْفِتْنَةُ وَالْكَفَرُ كَانَتْ مَوْجُودَةً إِلَى مَوْتِهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وَهَكَذَا إِلَى زَمَانِنَا هَذَا فَثَبِتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ فِي قَوْلِهِ: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** لَمْ يَكُنْ مَخْتَصّاً بِزَمَانِهِ بَلْ كَانَ الْأَمْرُ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى حَصُولِ الْغَايَةِ فَيَجِبُ عَلَيْنَا الْقِتَالُ مِثْلًا فِي هَذَا الزَّمَانِ كَمَا كَانَ وَاجِبًا عَلَى مَنْ قَبْلُنَا وَيَكُونُ وَاجِبًا عَلَى مَنْ يَأْتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا إِلَى أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

الجلد السابع

و حيث أنَّ هذا المعنى يستفاد من ظاهر الآية إشتبه الأمر على أكثر المفسرين فقال بعض من عاصرناه بوجوب القتال في زماننا هذا وإستدل في إثبات مدعاه بهذه الآية ولم نر من المتقدمين من المفسرين وغيرهم من تفتن لهذه الدققة وتصدي لرفع الإشكال.

نعم قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

أما أن يكون المراد من الآية: **وَقَاتِلُوهُمْ** لأجل أن يحصل المعنى أو يكون المراد وقاتلوهم، لغرض أن يحصل هذا المعنى فإن كان المراد من الآية هو الأول وجب أن يحصل هذا المعنى من القتال فوجب أن يكون المراد ويكون الذين كلّه لله، في أرض مكة وحواليها لأن المقصود حصل هناك قال **عَلَيْهِ السَّلَام** لا يجتمع دينان في جزيرة العرب ولا يمكن حمله على جميع البلاد اذ لو كان ذلك مراداً لما بقي الكفر فيها مع حصول القتال الذي أمر الله به.

وأما اذا كان المراد من الآية هو الثاني وهو قوله قاتلوهم، لغرض أن يكون الذين كلّه لله فعلى هذا التقدير لم يمتنع حمله على إزالة الكفر عن جميع العالم لأنه ليس كل ما كان غرضاً للإسكان فأنه يحصل فكان المراد الأمر بالقتال لحصول هذا الغرض سواء حصل أو لم يحصل انتهى كلامه.

أقول ما ذكره الرّازي في المقام يدل على وقوفه على أصل الإشكال وتنبهه له إلا أنه لم يقدر على الجواب ولذلك تمسك بالقتال احصول الغرض سواء حصل ولم يحصل، ولم يعلم أن حمل كلام الله العالم بالسّر والخفيات وما وقع سيقع الى يوم القيامة على هذه الاحتمالات الباردة السخيفة دليل على عدم المعرفة بصدق قوله وأنه لا يخلف الميعاد وذلك لأنه تعالى أمر نبيه بالقتال الى حصول الغاية وهو رفع الفتنة وأن يكون الذين لله وحده فهذه الغاية لا تخلو حالها.

أما أنها تحصل أو لا تحصل أما الحصول فلم يقع فأن قلنا بعدم حصولها الى يوم القيامة يلزم أن لا يكون للأية مصداق وهو كما ترى دليل على ضعف الخالق حيث لم يقدر على إنفاذ مشيئته فلم ينصر رسوله حتى يقع باب الفتنة ويكون الدين لله وحده والمفروض أنه على كل شيء قدير.

أو نقول أن النبي ﷺ كان مقصراً في وظيفته حيث لم يفعل بما أمر به والمسلم لا يرضى به ضرورة أن نسبة الضعف اليه تعالى أو التقصير الى رسوله كفر محض.

بقي هنا احتمال ثالث وهو أن الله تعالى قادر على كل شيء والنبي ﷺ لم يقصر في وظيفته إلا أن حصول الغاية يحتاج الى إدامة القتال بعد النبي لأنهم كانوا مأمورين به فعدم حصول الغاية لأجل تقاعدهم عن القتال بعد رسول الله وهذا الاحتمال أيضاً ساقط من أصله وذلك لعدم قدرة المسلمين في زماننا هذا مثلاً على القتال للكفار بوجه من الوجوه ولازم ذلك سقوط التكليف منهم لقوله تعالى: **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** وسقوطه عنهم يوجب تخصيص الآية بزمان الرسول ومن كان مصاحباً له ﷺ من المسلمين فيرجع الكلام الى قولنا لم تحصل الغاية هذه خلاصة الإشكال ولا بد له من الجواب أو حذف الغاية عن الآية أو القول بزيادتها لا سبيل لنا الى الأخيرين فلا بد من الجواب.

فنقول مستعيناً بالله أن الله تعالى قد أمر رسوله بالقتال وجعل له غاية رفع الفتنة وأن يكون الدين لله وحده كما هو ظاهر الآية وقد صدق الله في قوله أصدق من الله قилаً وأنه قادر على كل شيء ورسوله ﷺ لم يقصر في إنفاذ أمر الله أصلاً وأما لم تحصل الغاية في الآية في زمانه ﷺ لأن الأمور مرهونة بأوقاتها ولم يعد الله نبيه بحصول الغاية على يده بل أعلمه بالغاية التي تترتب على قتال الكفار وهي رفع الفتنة وأن يكون الدين كله لله.

وَأَمَّا أَنْ تَلَّكَ الْغَايَةُ مَتَى تَحْصُلُ فِي زَمَانِهِ أَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ فَالْآيَةُ سَاكِنَةٌ عَنْهُ وَ
الَّذِي يَحْكُمُ الْعَقْلُ فِي الْغَايَةِ وَذِيهَا هُوَ تَرْتَّبُهَا عَلَيْهِ وَأَمَّا أَنْ التَّرْتَّبُ مَتَى يَكُونُ
فَلَا يَكُونُ لِلْعَقْلِ مَدْخَلُ فِيهِ.

نَعَمْ إِنْفَصَالُهَا عَنْهُ بِالْكَلْبَةِ فِي الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ لَا مَعْنَى لَهُ لِكَوْنِهِ مُسْتَلَزِمًا
لِلْكَذِبِ أَوْ الضَّعْفِ وَهُوَ تَعَالَى مَنْزَعَهُ مِنْهُمَا إِذَا عَرَفْتَ مَا تَلَوْنَاهُ عَلَيْكَ.

فَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِالْقِتَالِ عَلَى تَنْزِيلِ الْآيَةِ وَأَمَّا الْقِتَالُ عَلَى
تَأْوِيلِهَا فَهُوَ مُخْتَصٌّ بِالْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ حُجَّةَ ابْنِ الْحَسَنِ الْمَهْدِيِّ عَجَلَ اللَّهُ
فَرَجَهُ الشَّرِيفُ الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَقِّهِ.

لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَخْرُجَ
رَجُلٌ مِنْ وَلَدِي إِسْمُهُ إِسْمَى يَمْلَأُ اللَّهُ الْأَرْضَ بِهِ قِسْطًا وَعَدْلًا بَعْدَ مَا
مُتَلَأَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا.

فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَاتِلُ الْكُفَّارَ عَلَى تَأْوِيلِ الْآيَةِ كَمَا قَاتَلَهُمْ جَدُّهُ ﷺ عَلَى تَنْزِيلِهَا
فَقَوْلُهُ تَعَالَى: حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ يَتَحَقَّقُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَلَا
إِشْكَالَ فِيهِ لِأَنَّ الْغَرَضَ هُوَ حَصُولُ الْغَايَةِ وَقَدْ إِقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَى
تَحَقُّقِهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَيَدُلُّ مَا ذَكَرْنَاهُ.

مَا رَوَى فِي رَوْضَةِ الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: قُلْتُ
لَأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ ذَكَرَهُ:

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمْ يَجِبْ تَأْوِيلُ
هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَخَّصَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِ وَحَاجَةَ أَصْحَابِهِ فَلَوْ قَدْ جَاءَ
تَأْوِيلُهَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ يَقْتُلُونَ حَتَّى يُوَحِّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحَتَّى لَا يَكُونَ
شَرِكُ انْتَهَى.

وَأَيْضًا رَوَى زُرَّارَةُ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَجِبْ
تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ وَلَوْ قَدْ قَامَ قَائِمُنَا بَعْدُ، سِيرَى مِنْ يَدْرِكُهُ مَا يَكُونُ

من تأويل هذه الآية و ليلغن دين محمد ﷺ ما بلغ الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال الله تعالى انتهى^(١) و الأخبار بذلك كثيرة.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ لما صالح في الحديبية فقال عمر يا رسول الله ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ونحلق مع المحلقين فقال رسول الله ﷺ: أمين عامنا هذا وعدتك قلت لك أن الله عز وجل قد وعدني أن أفتح مكة وأسعى وأحلق مع المحلقين.

وقال بعض المؤرخين أنه لما أجابهم رسول الله ﷺ إلى الصلح أنكر عامة أصحابه وأشد ما كان إنكاراً عمر فقال يا رسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل فقال ﷺ نعم قال عمر فتعطي الدلة في ديننا فقال رسول الله ﷺ قد وعدني ولن يخلفني الخ ويظهر من ذلك صدق ما ذكرناه من تأخير الغاية إذا إقتضت المصلحة وليكن ما نحن فيه من هذا القبيل.

فقد وعد الله ﷻ رسوله بما وعد من رفع الفتنة وأن يكون الدين لله وحده إلا أن وعد الله ﷻ وتحققه في زمان لا يعلم وقته إلا الله ﷻ لأن الحكمة إقتضت ذلك. فأن قلت خاطب الله تعالى رسوله بذلك في الآية ولازم ذلك هو حصول لغاية بيده.

قلت خاطب الرسول بالقتال فقط و أما أن الغاية تحصل بيده فلا دلالة في الآية عليها مضافاً إلى أن قتال الحجة المنتظر هو قتال رسول الله ﷻ بعينه لأنهما نور واحد والمقصد أيضاً واحد إلا أن أحدهما يقاتل على التنزيل والآخر على التأويل.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ يقول أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وهذا معنى قتاله ﷺ علي التنزيل فلو كان على التأويل

لَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ واقِعًا ولأجل هذا قال جميع المفسرين أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَأْمُورًا بِالظَّاهِرِ فِي أَحْكَامِهِ فَقَدْ ظَهَرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَحَقَّقْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَدَقَ فِيمَا قَالَ وَيَنْجِزُ وَعَدَهُ عَلَى طَبَقِ الْمَصْلَحَةِ لِأَنَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ.

فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَي فَاِنْ رَجَعُوا عَنِ الْكُفْرِ وَإِنْتَهَوْا عَنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِيهِمْ مَجَازَةَ الْبَصِيرِ بِهِمْ وَأَعْمَالَهُمْ بَاطِنُهَا وَظَاهَرُهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا هَذَا إِذَا كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ وَأَمَّا إِنْ قَالُوا بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِ فَلَا.

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلِيكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى بَعْضُهُ وَنِعَمَ التَّنْصِيرُ والمعنى وَأَنْ تَوَلَّوْا أَي وَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ وَاتَّبَاعِهِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِ وَالمعاند فاعلموا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ وَنَاصِرُكُمْ فَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ فَقَوْلُهُ: وَإِنْ تَوَلَّوْا شَرْطٌ وَقَوْلُهُ: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَمْرٌ فِي مَوْضِعِ الْجَوَابِ وَأَمَّا جَازٌ ذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى الْخَبَرِ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ أَنْ يَجِبَ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ كَأَنَّهُ قَالَ فَوَاجِبٌ عَلَيْكُمْ الْعِلْمُ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ أَوْ فَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ وَكَيْفَ أَمَّا قَالَ اللَّهُ ذَلِكَ تَسْكِينًا لِنَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَمْكِينًا لِلْحَقِّ عَنْدهُمْ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْلَاهُ وَنَاصِرُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ لَا يَخَافُ إِلَّا مِنْهُ وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا لَهُ وَلَا يَعْتَمِدُ وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ فَأَنْ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَالْأُتَمَّةِ الْمِيَامِينَ.

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْجُزْءِ الثَّاسِعِ وَيَتْلُوهُ الْجُزْءُ الْعَاشِرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ

الفهرست

سورة الانعام	٩
الآيات ١١١ الى ١١٥	٩
اللغة	٩
الإعراب	١٠
التفسير	١٠
الآيات ١١٦ الى ١٢١	٢٥
اللغة	٢٥
الإعراب	٢٦
التفسير	٢٦
الآيات ١٢٢ الى ١٢٧	٤١
اللغة	٤١
الإعراب	٤٢
التفسير	٤٢
الآيات ١٢٨ الى ١٣٥	٥٩
اللغة	٦٠
الإعراب	٦٠
التفسير	٦١

٧٩	الآيات ١٣٦ الى ١٤٠
٧٩	اللغة
٨٠	الإعراب
٨١	التفسير
٩٠	الآيات ١٤١ الى ١٤٦
٩١	اللغة
٩٢	الإعراب
٩٣	التفسير
١٠٨	الآيات ١٤٧ الى ١٥٠
١٠٨	اللغة
١٠٩	الإعراب
١٠٩	التفسير
١١٨	الآيات ١٥١ الى ١٥٣
١١٨	اللغة
١١٩	الإعراب
١١٩	التفسير
١٢٨	الآيات ١٥٤ الى ١٦٠
١٢٩	اللغة
١٢٩	الإعراب
١٢٩	التفسير
١٤٥	الآيات ١٦١ الى ١٦٥
١٤٥	اللغة
١٤٦	الإعراب
١٤٦	التفسير

سورة الأعراف..... ١٥٣

الآيات ١ الى ١٠ ١٥٣

اللغة..... ١٥٤

الإعراب ١٥٤

التفسير..... ١٥٥

الآيات ١١ الى ١٨ ١٦٨

اللغة..... ١٦٨

الإعراب ١٦٩

التفسير..... ١٦٩

الآيات ١٩ الى ٢٥ ١٨٤

اللغة..... ١٨٤

الإعراب ١٨٥

التفسير..... ١٨٥

الآيات ٢٦ الى ٣٠ ١٩٥

اللغة..... ١٩٥

الإعراب ١٩٦

التفسير..... ١٩٦

الآيات ٣١ الى ٣٤ ٢٠٧

اللغة..... ٢٠٧

الإعراب ٢٠٧

التفسير..... ٢٠٨

الآيات ٣٥ الى ٤١ ٢٢١

اللغة..... ٢٢٢

٢٢٢	الإعراب
٢٢٢	التفسير
٢٣٢	الآيات ٤٢ الى ٤٧
٢٣٢	اللغة
٢٣٣	الإعراب
٢٣٣	التفسير
٢٤٦	الآيات ٤٨ الى ٥١
٢٤٦	اللغة
٢٤٦	الإعراب
٢٤٧	التفسير
٢٥٢	الآيات ٥٢ الى ٥٦
٢٥٢	اللغة
٢٥٣	الإعراب
٢٥٣	التفسير
٢٧٣	الآيات ٥٧ الى ٦٤
٢٧٣	اللغة
٢٧٤	الإعراب
٢٧٥	التفسير
٢٩١	الآيات ٦٥ الى ٧٢
٢٩١	اللغة
٢٩٢	الإعراب
٢٩٢	التفسير
٣٠٤	الآيات ٧٣ الى ٧٩
٣٠٤	اللغة

٣٠٥	الإعراب
٣٠٥	التفسير
٣١٢	الآيات ٨٠ الى ٨٤
٣١٢	اللغة
٣١٢	الإعراب
٣١٣	التفسير
٣١٦	الآيات ٨٥ الى ٩٠
٣١٧	اللغة
٣١٧	الإعراب
٣١٧	التفسير
٣٢٨	الآيات ٩١ الى ١٠٠
٣٢٨	اللغة
٣٢٩	الإعراب
٣٢٩	التفسير
٣٤٠	الآيات ١٠١ الى ١١٠
٣٤٠	اللغة
٣٤١	الإعراب
٣٤١	التفسير
٣٥٠	الآيات ١١١ الى ١٢٢
٣٥٠	اللغة
٣٥١	الإعراب
٣٥١	التفسير
٣٥٧	الآيات ١٢٣ الى ١٢٩
٣٥٧	اللغة

الإعراب	٣٥٨
التفسير	٣٥٨
الآيات ١٣٠ الى ١٣٦	٣٦٦
اللغة	٣٦٦
الإعراب	٣٦٧
التفسير	٣٦٧
الآيات ١٣٧ الى ١٤٢	٣٧٥
اللغة	٣٧٥
الإعراب	٣٧٦
التفسير	٣٧٧
الآيات ١٤٣ الى ١٤٧	٣٨٥
اللغة	٣٨٥
الإعراب	٣٨٦
التفسير	٣٨٦
الآيات ١٤٨ الى ١٥٤	٤١٨
اللغة	٤١٨
الإعراب	٤١٩
التفسير	٤٢٠
الآيات ١٥٥ الى ١٥٨	٤٣٣
اللغة	٤٣٤
الإعراب	٤٣٤
التفسير	٤٣٥
الآيات ١٥٩ الى ١٦٦	٤٤٦
اللغة	٤٤٧

٤٤٧	الإعراب
٤٤٨	التفسير
٤٥٨	الآيات ١٦٧ إلى ١٧٦
٤٥٩	اللغة
٤٦٠	الإعراب
٤٦٠	التفسير
٤٩٣	الآيات ١٧٧ إلى ١٨٧
٤٩٤	اللغة
٤٩٥	الإعراب
٤٩٦	التفسير
٥٢١	الآيات ١٨٨ إلى ١٩٨
٥٢٢	اللغة
٥٢٢	الإعراب
٥٢٢	التفسير
٥٤٩	الآيات ١٩٩ إلى ٢٠٦
٥٤٩	اللغة
٥٥٠	الإعراب
٥٥٠	التفسير



ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٩

المجلد السابع

٥٧١	سورة الأنفال
٥٧١	الآيات ١ إلى ١٠
٥٧٢	اللغة

الإعراب	٥٧٢
التفسير	٥٧٣
الآيات ١١ إلى ١٩	٦٠٤
اللغة	٦٠٥
الإعراب	٦٠٦
التفسير	٦٠٦
الآيات ٢٠ إلى ٣٠	٦٢٥
اللغة	٦٢٦
الإعراب	٦٢٦
التفسير	٦٢٧
الآيات ٣١ إلى ٤٠	٦٦٧
اللغة	٦٦٨
الإعراب	٦٦٨
التفسير	٦٦٩

